

مكتة المكرمة

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية والحضارية

بسم الله الرحمن الرحيم
بعد مناقشة الطالب يوسف أحمد حواله في رسالة
هذه المكونة من مجلدين أوصل أعضاء اللجنة بحجته
الدكتوراه بتقدير ممتاز، هذا وليس لأعضاء اللجنة أية
امتحانات بإجراء أية تعديلات على الرسالة
أعضاء اللجنة

١٤٠٦/٨/٧

محمد بن عبد الله
١٤٠٦/٨/١



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٠٩٢

الحياء العلمي في إفريقيا

"المغرب الأدنى"

منذ إتمام

الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

"٩٠ / ٤٥٠ هـ"

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الإسلام

إعداد

يوسف أحمد حواله



إشراف الأستاذ الدكتور ٢٠٠٣/٤٧

أحمد السيد زراج

١٠٩٢

١٤٠٥ - ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥ - ١٩٨٦ م

القسم الثاني

النشاط العامي
في الزينة
« المغرب الأدبي »

الفصل الأول
الدراسات الشرعية

(١)

انتشار المذهب المالكي ومكانته في افريقية

- فكرة تاريخه لنشوء المذهبية الفقهية
- حالة الدراسات الشرعية في افريقية قبل دخول المذهب المالكي
- انتشار المذهب المالكي في المغرب الادنى :
- أدواره وأسبابه .
- مكانة المذهب المالكي في المغرب الأدنى
- انتشار المذهب الحنفي وغيره من المذاهب السنية في
- المغرب الادنى

فكرة تاريخيه لنشوء المذهبية الفقهية :

لم يكد يمر القرن الثانى الهجرى ، حتى كان المذهب المالكى يغمر بسناه المغرب الأدنى . والواقع أنه لم يكن يغمر المغرب الأدنى وحده فحسب ، بل والمغرب كله والأندلس ، وإذا كان ليس من مهمة بحثنا تتبع انتشار المذهب في بقية المغرب والأندلس - إلا ما فيه صلة للبحث - فإن إنتشاره وظهوره ظهوراً مطلقاً على غيره من المذاهب الفقهية الأخرى وكذا السياسية في المغرب الأدنى يحتاج منا بحثاً مستقصياً عن أسباب ذلك ، لأن المذهب المالكى في المغرب الأدنى والمغرب عموماً والأندلس - هو الذى صبغ الدراسات الشرعية بصيغته وكانت تعتمد محورها في توسعها وتوجيهها كما هو معلوم .

بيد أن الحديث عن انتشار المذهب المالكى في المغرب الأدنى لا يستقيم له معنى ، ولا يطرد له سياقاً إلا إذا استوجبنا عقد استقراء تاريخى موجز لنشوء المذهبية الفقهية في الدولة الإسلامية . ونحن هنا بطبيعة الحال لا يهمنا من أسباب نشأة المذاهب الفقهية والخطوات التاريخيه التى مرت بها إلا ما يوضح ماهية المذهب المالكى ، الذى إرتضاه المغاربة وحده تقريباً مذهباً فقهيًا لهم .

أفاض المؤرخون ومتبعو النشاطات العلمية الإسلامية في الحديث عن أسباب حدوث المذاهب الفقهيه ، بل وغيرها من المذاهب السياسيه والمذهبيه والكلامية ، وتضافرت جهود المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين في تتبع تلك المذاهب الفقهية جوهرًا ومحتواً ، زماناً ومكاناً ، صعوداً وهبوطاً وأصحاباً ومريدين طبعاً ، مما هو شائع مبسوط في المؤلفات العامة والخاصة . ولعل غاية ما نستطيع قسوله هو أن الحاجة الى الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة

كان الارهاص الذى أدى الى تكوين المذاهب الفقهية تلك . فغنى من القول أنه قد واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الكثير من القضايا الشائكة سواء كانت مالية أو اجتماعية أو اقتصادية مما لم يرد فيه نص قطعى لاسيما بعد حركة الفتوحات العظيمة في عهود الخلفاء الراشدين وماتبع ذلك من دخول أجناس مختلفة تحمل ثقافات متنوعة في حظيرة الدولة الاسلامية فنشأت أثر ذلك قضايا مختلفة المنازع الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، كما قلنا لم ينص في القرآن والسنة على كيفية مواجهتها - وهذا يعلم الله سبحانه وتقديره بلاشك - فدفع هذا كبار الصحابة الى الاجتهاد في حل تلك المعضلات بما يهد بهم اليه رأيهم وقياسهم طلبا لتحقيق المصلحة العامة والمقصد العام للشريعة . ولقد تأتى على ذلك ظهور مصدر تشريعى مهم ، هو الرأى الذى نظم بعد ، وعرف بالقياس (١).

على أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا كما يذكر محمد أبو زهرة (٢) في الاجتهاد بالرأى سواء ، فمنهم من اجتهد بالرأى عن طريق المصلحة العامة التى هى التى أقرب للمقاصد العامة للشريعة (٣)

(١) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات

المالكية ، ص ٢٥-٣٣ (نقلا عن ابن فرحون في الديباج ، وابن

خلدون في تاريخه) - أحمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٢٥ -

٢٥٠ (بتوسع) - ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٧٦ (بتوسع

كذلك) - محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ،

ج ٢ ، الفصل الخاص بدواعى نشأة المذاهب الفقهية ، ص .

تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٦-١٧ .

(٢) هذا هو التعريف الجامع للقياس في رأى محمد أبو زهرة ، فهو

يرى (أن الاجتهاد بالرأى تأمل ونفكر في تعرف ما هو الأقرب الى

كتاب الله تعالى وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم ، سواء أكان

يتعرف ذلك الأقرب من نص معين ، وذلك هو القياس أم الأقرب

للمقاصد العامة للشريعة وذلك هو المصلحة)

محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٦ .

ومنهم من اجتهد بالرأى على منهاج القياس بمعناه الذى عرف به . (١)
وكلا الفريقان اضطررتهما الوقائع الى اللجوء لهذين النوعين ———
الاجتهاد . (٢)

وبانتقال بعض من أولئك الصحابة عن المدينة الى بعض
الأصوار المفتوحة انتقلت اجتهاداتهم القياسية التي حفظت عنهم
الى الأصوار التي استوطنوها . ولقد ترتب على ذلك أن أصبح كل قطر
نزله الصحابة رضى الله عنهم يتلقى اجتهادات من نزل فيه منهم
غير أن الحجاز وخاصة المدينة ، والعراق وخاصة الكوفة ، اشتملا على
معظم تلك الآراء الاجتهادية لوجود غالبية الصحابة في الحجاز في
ثم في العراق بنسبة أقل . (٣)

وفي عصر كبار التابعين الذي هو موصل بعصر الصحابة، شهدت الدولة الإسلامية انقسامات خطيرة بين المسلمين بسبب الفتن السياسية التي نشبت آنذاك كما هو معروف والتي أفرزت مذاهب سياسية هــ المذهب الخارجي والشيعة . ولقد سعت هذه المذاهب السياسية الى تأييد وجهة نظرها السياسية ثم العقائدية الى اختلاق احاديث منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم^(٤) ، مما خلق شعورا بالفزع لدى

(١) تعريف القياس (هو الحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم، أو القياس ثبوت الحكم في غير المنصوص على حكمه لاشتراكه في علة الحكم المنصوص على حكمه) .

محمد أبو زهرة : نفس المرجع السابق؛ ج ٢ ، ص ١٦

(٢) محمد أبو زهرة : نفس المرجع والجزء أعلاه ، ص ١٧-١٨

(٣) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٣٤-٢٤١ محمد أبوزهرة :

نفسه ص ص ۳۲ - ۴۱.

(٤) أنظر محمد أبو زهرة بنفسه، ص ٣١-٣٢ - الحجوى الفاسي

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ - أحمد

امين : فجر الاسلام ، ص ۲۱۱-۲۱۳ .

كبار العلماء وغيرهم. (١) هذا بالإضافة الى المستجدات من الاقضية التي تزايدت كما ونوعا بسبب تتابع موجه الفتوحات ، ودخول أجناس أخرى ذات ثقافات ومشارب متنوعة (٢) . ومن هنا ظهر آنذاك أي في أواخر القرن الأول ، ومطلع القرن الثاني الهجري تياران فقهيان رئيسيان تيار يوثر الرواية ويتمسك بها ، ويرى فيها الاعتصام من الفتن التي ظهرت وتيار ثان يسعى للبت ببيان الاحكام الشرعية لما ظهر من كثرة الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولمواجهة ما أستجد من قضايا . هذان التياران عرفا في الفقه : بفقه الأثر وعرف أهله بأهل الحديث ، وفقه الرأي ، وعرف أهله بأهل الرأي والقياس . (٣) وقد اختلفت المدينة بفقه الأثر ، الذي تمخضت عنه مدرسة فقهية مدنية واختصت الكوفة بفقه الرأي أو القياس الذي تمخضت عنه هو الآخر مدرسة فقهية كوفية . ولقد أنفاض المؤرخون في ذكر الأسباب التاريخية والموضوعية بجانب ما ذكر من قبل التي أدت الى ظهور هاتين المدرستين في الحجاز ، والعراق كما هو معروف معلوم . (٤)

-
- (١) وينسب في هذا الصدد الى الخليفة عمر بن عبدالعزيز سعيه الى تدوين السنة لصحيحة ، غير أن وفاته حالت دون تحقيق ذلك . أنظر احمد أمين نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ - محمد أبوزهره : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٣٢ .
- (٢) تناول أحمد أمين بتحليل دقيق وعميق معظم تلك القضايا المستجدة في موسوعته فجر الاسلام ، ص ٢٣٤ - ٢٤١ ، وفي ضحى الاسلام الجزء الثاني ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- (٣) أحمد أمين فجر الاسلام ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ضحى الاسلام ، ص ١٥٧ - ١٦٢ - محمد أبوزهره : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٣٢ - ٤١ - الحجوى الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي ، ح ٣١٠ - ٣١٥ .
- (٤) أنظر مثلا احمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٤١ - ٢٤٥ - ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٦٦ - محمد أبوزهره : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ، ص ٣١ - ٥٠ - الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق أعلاه ، والجزء ، ص ٣١١ - ٣١٦ - أحمد تيمور : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة الحنفية ، المالكية ، الشافعية ، الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين ص ٢٩ - ٣١ - عبد الرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ص ٥٥ - ٩١

وفى عصر تابعى التابعين بعدت الشقة بين هاتين المدرستين
الفقهيتين : مدرسة الحديث ومدرسة الرأى . وفى هذا العصر
ظهر الأمام أبو حنيفة النعمان كممثل لمدرسة الرأى ، والأمام مالك
بن أنس كممثل لمدرسة الأثر ، وبهما ابتداء تكون المذاهب الفقهية .
فأبو حنيفة يعد شيخ القياس فى وقته (١) ، ومالك بن أنس يعتبر أمير
المؤمنين فى الحديث (٢) فى عصرهما أيضا ظهر الأمام الأوزاعى فى بلاد
الشام كصاحب مذهب له اجتهاداته ، غير أنه مالبث أن إندثر (٣) وكذلك
ظهر الليث بن سعد فى مصر الذى كان له هو الآخر مذهب فقهي مالبث
أندثر كذلك (٤) . ومعاصر آخر لهما بل هو ند وهو سفيان الثورى فى الكوفة
الذى إندثر مذهبه أيضا (٥) . ثم تعددت المذاهب التى تذهب طرائق
قددا فى الاجتهاد ، فجانب هذه المذاهب السنتى
عُرفت فى القرن الثانى تتابع تكوين المذاهب

-
- (١) محمد أبوزهرة : نفسه ص ٥٦
(٢) هذا هو نعت محمد بن الحسن الشيبانى لمالك . ومحمد بن
الحسن الشيبانى (ت ١٨٩ هـ) هو ثانى تلامذة الأمام أبى حنيفة
النعمان بعد القاضى أبى يوسف .
أنظر مالك بن أنس : موطأ مالك ، رواية محمد بن الحسن
الشيبانى ، تحقيق وتعليق محمد عبد الوهاب عبد اللطيف ،
ص ٩ .
(٣) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٢٧ - أحمد
تيمور : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ، ص ١٢ .
(٤) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق أعلاه ص ٢٧ -
أحمد تيمور : نفس المرجع أعلاه والصفحة ١٠ أحمد أمين : ضحى
الاسلام ج ٢ ، ص ١٧٣ - عبد الرحمن الشرقاوى : أئمة
الفقه التسعة ، ص ٩٥ - ١٢٠ .
(٥) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ - أحمد تيمور :
نفسه ، ص ١٢ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص
١٧٣ .

فيه وفي القرنين اللذين تلياه : أى الثالث والرابع فظهرت مذاهب جديدة نسبت الى مجتهدين بارزين : فظهر مذهب سفيان بن عيينه ، ومذهب الشافعى ، ثم مذهب اسحاق بن راهوية ، ومذهب ابى ثور ومذهب أحمد بن حنبل ، ومذهب داود الظاهرى ، ومذهب ابن جرير الطبرى (١) . الخ . غير أن الغلبة أصبحت بعد لآى للمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة حتى اليوم : وهى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى كما هو معلوم (٢) ، والتي لم يخل منها قطر اسلامى ، وان كانت الغلبة في كل قطر كانت لمذهب من هذه المذاهب الأربعة دون غيره لعدة أسباب بسطها المؤرخون في كتبهم (٣).

وأخيرا فان ما هو جدير بالخلوص اليه من تكون المذاهب الفقهية هو الحالة التى وصلت اليها المذهبية الفقهية في الدولة الاسلامية ، فبعد أولئك المجتهدين الذين بقيت مذاهبهم ، نشأ ما عرف بـ (الانحياز المذهبى ، فأصبح المجتهد لا يجتهد اجتهادا مطلقا ، بل يجتهد في دائرة مذهبه ، ثم انتقل الاجتهاد في دائرة أصول المذهب التى التقيد بآراء الامام مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص في المذهب ، ثم صار بعد ذلك الى التقيد بآراء المجتهدين في المذهب والتخريج عليها ، ثم الى الجمود والوقوف عند ما انتهى اليه السابقون اذ يقفون عندها لا يعدونها (٤). والأمرا الآخر الجدير بالملاحظة هو أن الاختلاف بين المذاهب الفقهية لم يكن على الأصول الثابتة في الاسلام كأركان الصلاة وفرضية الصوم والزكاة وغيرها ، بل كان الاختلاف في الأمور الجزئية التى لم يثبت بدليل قطعى الحكم فيها بمعنى ان الاختلاف كان فقط

-
- (١) راجع محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٢٧ - أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .
- (٢) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ٢٧ - ٣٣ - أحمد تيمور : نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .
- (٣) أنظر أحمد تيمور : مقدمة الكتاب التى كتبها على حسن عبد القادر ص ١ - ٦ ثم ما ورد في تضاعيف كتاب من انتشار المذاهب الأربعة في الامصار الاسلامية امتدادا وانحسارا .
- (٤) محمد أبو زهرة المرجع السابق ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١) في فهم بعض النصوص الشرعية وفي تطبيق كلياتها على الفروع .

أما وقد سقنا هذه الفذلكة التاريخية لنشوء المذهبية الفقهية فان من ضرورات المنطق ومقتضيات الأشياء أن نسلط الضوء على المذهبين اللذين تمخضت عنهما مدرستا الرأي والحديث، وهما بداهة المذهبان : الحنفى والمالكي . فالمذهب الحنفى ينسب للإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى الفارسي الأصل (٨٠ - ١٥٠ هـ) والإمام أبو حنيفة النعمان أشهر من أن يعرف ، ولن نضيف جديدا الى ما حلاه المؤرخون قدامى ومحدثين من ترجمة واسعة مستفيضة ، وكذا الشأن بالنسبة للإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (٩٣ - ١٧٩ هـ) . فغاية ما يهمننا من ترجمتهما الواسعة هو منحاهما الاجتهادى الفقهى ، لما لذلك من ارتباط مع ماتصدينا للحديث عنه من انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى ، ولا سيما وأن المذهب الحنفى قد انتشر في افريقية (المغرب الأدنى) وكان له تلامذة واتباع حسبما سنعرف بعد .

أما مذهب الامام أبوحنيفة ، الذى شاع وانتشر في أقطار عديدة من الأمصار الاسلامية ، كالعراق أولا ومصر وبلاد فارس وبخارى

(١) محمد أبوزهره : المرجع السابق والجزء ص ٥٦ ، ٥٧ - ٥٨ ،

(٢) ٧٩ .
بيد وأن مولده في سنة ٩٣ هـ هي السنة الأكثر ترجيحاً من سنة ٩٤ أو سنة ٩٧ هـ كما ورد أيضاً . أنظر عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١١ . مالك بن أنس موطأ الامام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٠ - أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٢٧ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٦

وفرغانه واكثر بلاد الهند والسند وبعض بلاد اليمن (١) وغيره ———
 فان قوام منحة الاجتهادى الفقهى هو : الاعتماد على القرآن الكريم ،
 وهو مسلك سلكه كل الاثمة (وان اختلفوا في شىء فيه ، فاختلاف فى
 فهم مدلوله وإشاراتـه وطرق الاستنباط منه) (٢) . أما الحديث ، فقد
 كان له فيه اتجاه خاص (وهو التشدد فى قبوله والتحرى عنه وعن رجاله
 حتى يصح . وكان لا يقبل الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا اذا
 رواه جماعة عن جماعة ، أو كما يعبرون هم اذا كان خبر عامة عن عامه ، أو كان
 خبرا انفق فقهاء الأمصار على العمل به ، أو روى واحد من الصحابة
 الحديث عن رسول الله فى جمع منهم ، فلم يخالفه أحد ، لأن هذا يدل
 على اقرارهم له ، ولو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، فكان هذا بمثابة
 الحديث برويه جماعة) (٣) . ولعل تشدده فى الاخذ بالحديث قد اضطره
 الى التوسع فى القياس والاستحسان فيما لم يرد فيه نص من كتاب
 ولا حديث صحيح . (٤) ومن مناحية الاجتهاديه كذلك : إعمال العقل
 (فيما اذا ماروى فى المسألة قولان أو اكثر للصحابة فيختار منها أعد لها
 أو أقربها الى الأصول العامة ، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين الا أن
 يوافق اجتهاده) (٥) وهذه الأمور جعلت من القياس أساسا مهما من

-
- (١) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ١٦-٢٦
 (٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .
 (٣) أحمد أمين : نفس المرجع اعلاه والجزء ، ص ١٨٥-١٨٧ .
 (٤) أحمد أمين : نفس المرجع اعلاه والجزء ، ص ١٨٧ .
 (٥) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٨٧

أسس التشريع في فقهه (١) . ومن أسس مذهبه الفقهي كذلك : الفقه
التقديري الذي يقوم (على افتراض مسائل غير واقعية أو خيالية ،
ووضع احكام لها) ، وهو يرى ضرورة ذلك لأنه يجب على العلماء
في رأيه ان يستعدوا للبلاء ويتحسبون له قبل وقوعه (٢) . واخيراً
فان أسس مذهبه الفقهي أيضاً : الحيل الشرعية التي غدت بعد
ذلك تشكل باباً واسعاً من أبواب الفقه الحنفي (٣) . ويرى أحمد
أمين^(٤) أن الحيل التي أفتى بها أبو حنيفة ليست من نوع التحايل
على ابطال الحق أو اكل الاموال بالباطل ونحو ذلك ، وانما هو استخراج
فقهى للخروج من مأزق ، ومع عدم التعدى على أحد في ماله وفي نفسه) .

أما مذهب الامام مالك بن أنس ، الذي شاع كذلك وانتشر
في عديد من الامصار الاسلامية كالحجاز والمغرب والأندلس وغيرها
ذلك (٥) ، فان قوام منحاها الاجتهادى الفقهي : الاعتماد على
القرآن الكريم أولاً ثم الاعتماد على الحديث . ويقول أحمد أمين في هذا
الصدد (كان مالك لا يشترط في الحديث ما اشترطه أبو حنيفة من
الشهرة وغيرها ، بل يعمل بخبر الواحد اذا صح أو حسن) . وهذا
المبدأ يجعل الاحاديث التي يبنى عليها مذهبه اكثر عدداً فلا يتطلب
في الحديث شهرة ، وانما يتطلب صحة السند ونحوها ، ولا يفهم من
هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحرر أو تدقيق ، بل هو شديد
التحرر ، ولكن لا يشترط شهرة الحديث وعمومه) . (٦)

-
- (١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٩٠ .
(٢) أحمد أمين : نفسه ، ١٨٧ - ١٨٨ .
(٣) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .
(٤) نفسه ، ص ١٩٢ .
(٥) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٢٧ - ٢٩ .
(٦) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

ومن أسس مذهبه الرئيسية قوله بعمل أهل المدينة ، ورأيه في هذا ينبع من تأكيده على أن (أهل المدينة اذا انفقوا على عمل مسألة واتفق مع العمل علماؤاها ، فهذا العمل حجة يقدم على القياس بل ويقدم على الحديث الصحيح ، أما اذا لم يكن عملا اجماعيا ، بل عمله اكثرهم ، فهذا ايضا حجة على خبر الواحد لأن العمل بمنزلة الرواية . فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر ، فاذا جاء خبر واحد يخالفهم ، كان الراجح أنه منسوخ) . (١)

ومن أسس مذهب الامام مالك الفقهي كذلك : (العمل بقول الصحابي إن صح نسبه اليه ، وكان من أعلام الصحابة الخلفاء الراشدين ، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر ، وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح) (٢) . بيد ان الامام مالك لم يطرح الرأي البتة وخاصة فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، فحال السي القول بالمصالح المرسله أو الاستصلاح) . (٣)

وقيل أن نفاذ الحديث عن مذهب الامام مالك بن أنس نشير الى كتابه الاشهر الذي كان له دور عظيم وعميق في المغرب والأندلس بصفة خاصة وغيرها بصفة عامة ، الا وهو كتاب الموطأ . وكتاب الموطأ كذلك أشهر من أن يعرف ، وحسبنا أن نلخص ما جاء فيه . فهذا الذي ألفه الامام مالك ، جمعه في نحو ٤٠ عاما ، وهو كتاب حديثي

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١١

(٢) أحمد أمين : نفسه ، ص ٢١٢

(٣) أحمد أمين : نفسه ، ص ٢١٢

فقهى معا وقد جمع فيه حوالى ١٠ آلاف حديث وقيل ٩ آلاف (ثم لم يزل ينتقى منه ، حتى رجع الى سبعمائته) . ولهذا فهو يعد من أشهر كتب الحديث . (١)

والموطأ كذلك كتاب فقهى ، فقد رتبته ترتيب الفقه ، فكان يذكر الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد ككتاب الصلاة أو الصوم . الخ ، ثم بجمع المسائل المتشابهة حول ما يتعلق بالصلاة ، وقد يزيد على الحديث ما استنتجه فقهيا منه ، كما كان يقوم احيانا بشرح بعض الكلمات اللغوية وتفسيرها . الخ . (٢)

وكتاب الموطأ حظى بشروحات عديدة تصدى لها بعض تلامذته وغيرهم فشرحه الكثيرون في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية ولخصوه ، وأشتهرت من بين تلك الشروحات والتلخيصات عدة نسخ أشار اليها مؤرخو الفقه . (٣) كما أشتهرت أيضا نسخ من الموطأ سمعها منه بعض تلامذته المصريين والأندلسيين والعراقيين ، ثم من غير تلامذته ومن غير المعاصرين له كذلك . (٤) هذا ومعنى الموطأ في اللغة : الممهد ، المنقح ، ويذكر انه لم يسبق مالكا أى انسان الى هذه التسمية لاي مصنف (٥)

-
- (١) أنظر مالك بن أنس : موطأ الامام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٢ ، ١٣ - ١٥ أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
- (٢) أحمد أمين : نفس المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- (٣) أنظر مالك بن أنس : نفس المصدر السابق اعلاه والمقدمة ، ص ١٦ - ١٩ .
- (٤) أنظر مالك بن أنس ، نفسه ، ص ١٩ - ٢٢ .
- (٥) مالك بن أنس : نفسه ، ص ١٣ .

حالة الدراسات الشرعية في افريقية قبل دخول المذهب المالكي :

قبل أن نناقش أسباب دخول المذهب المالكي بلاد المغرب الأدنى ، علينا بادىء ذى بدء أن نلقى نظرة خاطفة عن حالة الدراسات الشرعية فيها آنذاك . الواقع أن الدراسات الشرعية ، وهى المظهر الرئيسى للحياة العلمية آنذاك في افريقية - لم تبدأ بالظهور الا في مطلع القرن الثانى الهجرى ، وهذا شىء طبيعى اذا ما عرفنا أن الفتح الاسلامى للمغرب لم يتم الا في عام ٩ هـ . وفي هذا الصدد نعتقد أنه ليس ثمة تناقض بين قولنا بأن الدراسات الشرعية والحياة العلمية اقتضاهما لم تبدأ الا في مطلع القرن الثانى الهجرى وبين انتشار الاسلام السريع في المغرب كله أثناء وبعد الفتح . فصحیح أن الاسلام انتشر آنذاك انتشارا واسعا بين البربر عندما تبين لهم حقيقة الدين الذى جاء به الفاتحون العرب ، ولذلك اقلعوا عن مقاومته فاعتنقوه بسرعة ملفته للنظر ، ولكنها طبيعية بسبب ما فى الاسلام من مثالية ماعهدوها من قبل ، وبسبب ضيقهم من استبداد الشعوب التى تعاقبت على بلادهم ، وبسبب جهود الفاتحين التى أشرنا اليها من قبل ثم أخيراً بسبب ما تميز به البربر من أنهم من أقوى الشعوب حماسة وحرارة في تدوينهم . (١)

كل هذا صحيح ، ولكن الدراسات الشرعية التى هـى المظهر الرئيسى للحياة العلمية في افريقية كما ذكرنا آنفاً ، كانت أقل انتشارا في هذه الفترة الاولى من إنتشار الاسلام نفسه . وهذا شىء طبيعى آنذاك ، فالعرب الفاتحون لا فريقية كان

(١) أبو القاسم كرم وعبد الله شريط : شخصيات أدبيـــــــــــــــــه
من المشرق والمغرب ، ص ١١٨

اهتمامهم منصبا على نشر الاسلام بين البربر عن طريق ارشادهم الى الكليات والمبادئ العامة له مع نشر شيء من قواعد اللغة العربية ، وهي لغة التعبد كما هو معروف فحسب ، وحتى البعثات العلمية الرسمية والفردية التي قدمت الى افريقية في مطلع القرن الثاني الهجري ، والتي ذكرنا من قبل أنها كانت احدى الأسباب التي دفعت الى تنشيط الدراسات الشرعية ، كان اثرها العلمي متواضعا رغم أهميته ، بل إننا نمضى فنقول إنه حتى الرحلات العلمية المبكرة للمغاربة التي تمت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري لم تكن ذات أثر كبير في تنشيط الدراسات الشرعية . (١)

ولكن ما أن لمنتصف القرن الثاني حتى تبدل الحال ، فنشطت الدراسات الشرعية وخاصة الفقهية نشاطا عظيما ؛ وبدا كما لو أن تلك الدراسات التي كانت تتحسس طريقها في النصف الأول من القرن نفسه ،

(١) نورد على هذا مثلا فرحلة عبدالرحمن بن زياد بن أنعم أو رحلته الى المشرق ، وكانت احداها في العصر الأموي والثانية في العصر العباسي لم تكن ذات أثر علمي واضح . فلم يورد لنا أبو العرب التميمي الذي ينقل عنه المالكي في كتابه الرياض ، والدباغ في كتابه : المعالم انه كان له تلامذة عددين تلقوا عنه على الرغم من أنه لم يحدّد تاريخ رحلته الاولى للمشرق ، أما الثانية فقد كانت عام ١٤٠ هـ ، وتوفي ابن أنعم عام ١٦١ هـ .

قد قفزت قفزات ضخمة في النصف الثاني منه، ولسنا في حاجة إلى القول بأن الدافع الرئيسي وراء ذلك الازدهار هو ظهور المذهب المالكي في المغرب، فأحدث ذلك الازدهار، ومن ثم ذلك التحول المذهبي الذي سنأتي على ذكر تفاصيله بعد قليل . وعلى ذلك فبإمكاننا أن نؤكد أن الدراسات الشرعية في افريقية لم تتبلور ولم تبدأ تتبوأ مكانتها التي غدت عليها الا بظهور المذهب المالكي في المغرب على يد أولئك العلماء المبرزين الذين سنشير إلى دورهم في نشر المذهب المالكي ، ثم إلى دورهم العلمي بعد ذلك إن شاء الله .

- انتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى ، أدواره وأسبابه :

أولا : الأدوار : أشرنا الى أنه ما ان انتصف القرن الثاني للهجرة حتى نشطت الدراسات الشرعية في المغرب الأدنى بفضل دخول المذهب المالكي . وفي الحقيقة فان الفضل في دخول المذهب المالكي يعود الى تلك الطبقة من أبناء افريقية الذين رحلوا الى المدينة وقابلوا شيخ المذهب نفسه ، وسمعوا عنه وتأثروا به كما ذكرنا من قبل . (١) ثم عادوا الى بلادهم ينشرون مذهب مالك هناك . ولم يمت الامام مالك (ت ١٧٩هـ) حتى كان قد عرف انتشار مذهبه في المغرب والأندلس (٢).

ومنذ أن اسهم هؤلاء في ادخال المذهب المالكي الى بلادهم تتابعت جهود العلماء من تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم . . الخ في تثبيت أقدام المذهب حتى كتبت له الغلبة والتمكين المطلق النهائي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وحتى الآن . واذا ما ألقينا نظرة على أدوار انتشار المذهب المالكي منذ البداية وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فاننا سنكبر الجمود التي بذلها أولئك العلماء الذين مكثوا للمذهب البقاء والدعم وسط كل الاغصير التي جابهها المذهب من إبتعاد الأمراء الأغلبية

- (١) أنظر قبل ١٣٣ ص ١٣٨
(٢) أنظر المالكي المصدر السابق والجزء ، مقدمة المحقق ، ص ١٢ م
وان كان حسين مؤنس يجعل وفاة مالك عام ١٧٠هـ / ٧٨٦ م
بينما المشهور هو عام ١٧٩هـ .

عنه الذين كانوا يتمذهبون بالمذهب الحنفي،^(١) إلى العداء الشديد الخطير له الذي جاء مع مجيء الفاطميين^(٢) ، إلى الاضطهادات التي شنها البعض من أمراء الدولة الزيرية ضد علماء المالكية^(٣) ، الشيء غير ذلك ، حتى كتب للمذهب الثبات والديمومة بعد لآى كما أسلفنا .

وعلى أية حال ، فقد مَرَّ انتشار المذهب المالكي والتمكين له كما يتراءى لنا في أدوار سبعة تمثله سبع طبقات من علماء افريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . وهذا التقسيم يبدو لنا منطقيًا متفقًا مع الواقع الذي عاشه المذهب المالكي وسط كل ما أشرنا إليه من صعوبات .

ولعل أول أدوار انتشار المذهب المالكي تبدو معقودة للطبقة الأولى التي اسهمت في دخول المذهب ومبادئه ، ومن ثم انتشاره . ويأتى عبدالله بن فروخ الفارسي (ت ١٧٥هـ) على رأس هذه الطبقة فلقد كان له دور في نشر المذهب تأتى من صحبته الطويلة للإمام مالك بن أنس ، بل واشتهاره بها ثم والأهم من هذا فقد اسهم في الترويج للمذهب في بلاده عن طريق مكاتبته للإمام مالك التي تدور حول عدد من الأسئلة الفقهية للعمل بها في افريقية ، وهذا أمر

-
- (١) أنظر المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء : المقدمة ص ١٣-١٥ - عبدالعزيز المجذوب : الصراع المذهبي بافريقية الي قيام الدولة الزيرية ، ص ١١٣-١١٥ ، ١٢٩-١٣٢ - السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضارى للمالكية في شمال افريقيا حتى قيام دولة المرابطين ص ١٢٢-١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .
- (٢) انظر بعد ، ص ٥٣٠ وما بعدها
- (٣) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص ٢٠-٢١ ، ٤٠-٤٥ - ٤٦-٤٧ ، ٤٩-٥٢ .

أدى الى تمهيد الأمر في البلاد لدخول المذهب ومن ثم انتشاره . (١)

ومن أفراد هذا الدور التأسيسي الأول على بن زياد التونسي (ت ١٨٣ هـ) وكان لا دخاله موطأ الامام مالك كما أشـرنا من قبل (٢) أثر في نشر المذهب المالكي دون شك لا سيما وأنه أول من فسّر لأهل بلده قول مالك ، ولم يكونوا يعرفونه من قبل كما يشيـر الى ذلك بعض من مؤرخي التراجم والطبقات (٣) ، و إضافة الى هذا فقد جهد على ترسيخ أصول المذهب المالكي ومبادئه في نفوس تلاميذه وخاصة أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد وغيرهما . (٤)

ومنهم : البهلول بن راشد الرعيني (ت ١٨٣ هـ) ، وهو أحد من أسهم بمواقفة المتشددة من أهل البدع والأهواء في تثبيت المذهب المالكي (٥) ، وكان لا يكتفى بذلك بل يطلب من طلبته البعد عنهم ، ويصل به الأمر الى مقاطعة طلبته اذا ما أحس أنهم خالفوا أمره . (٦) ومنهم كذلك عبدالله بن غانم القاضي (ت ١٦١ هـ) ،

-
- (١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٥ - عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤٠ - ٣٤٤ - ٣٤٥ .
- (٢) أنظر قبل ، ص ١٣٥ .
- (٣) ابو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ - المالكي : نفسه ، ص ١٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ .
- (٤) ابو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - المالكي : نفسه ، ص ٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٢٣٦ ، وقد أجمعوا على أن أهل العلم كانوا اذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها الى على بن زياد ليخبرهم بالصواب فيها ، وأشاروا كذلك على أنه معلم أسد بن الفرات الذي كان يقول فيه : على بن زياد من نقاد أصحاب مالك ، وأشاروا أيضا الى أنه معلم سحنون الفقه . الخ .
- (٥) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - المالكي : نفسه ، ص ١٣٣ - ١٣٤ - عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٢٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ص ٢٣١ ، ٣٣٢ - ٣٣٣ .
- (٦) انظر المالكي : نفسه ، ص ١٣٤ .

وكان ممن ممن أسهم في نشر المذهب المالكي وتثبيته في بلاد بالتصدي لتدريس قواعده وأصوله ، وكان بالاضافة الى هذا أحد المتعصبين للامام مالك ومنهجه . (١)

ثم جاءت الطبقة الثانية وتمثل الدور الثاني من أذوار انتشار المذهب المالكي . والواقع أن دورها كان عظيما ، فلقد ثبتت هذه الطبقة أقدام المذهب ، واكتسحت به البلاد . ، ويأتي على رأس هذه الطبقة من حيث الوفاة لا من حيث الأهمية في انتشار المذهب : أسد بن الفرات بن سنان (ت ٢١٣هـ) ، ودوره في نشر المذهب المالكي وتثبيته في المغرب الأدنى أشهر من أن يذكر ، ويكفي أن نشير الى أن جهوده التأليفية الفقهية على أساس المذهب المالكي ، كانت خير سبيل الى انتشار المذهب المالكي ، والتمكين له هناك (٢) . وبالإضافة الى ذلك ، فقد كان مدافعا عن المذهب المالكي ضد أهل الأهواء والبدع وغيرهم . (٣)

أما الشخص الأكثر أهمية والأعظم دورا في نشر المذهب المالكي من بين علماء هذه الطبقة فهو بلا أدنى ريب الامام سحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤٠هـ) وفي الحقيقة فان فضله في انتشار المذهب المالكي الذي خلده له المؤرخون قدامى ومحدثون ،

(١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٣ - ١٤٥

(٢) أنظر بعد ص ٣٣٣ - ٣٣٥

(٣) أنظر بعد ص ٤٥٥

لا يمكن لنا أن نحيط به في هذا الحيز ولعل غاية ما نستطيع قوله هنا هو الإشارة الى بعض الأقوال لنفر من مؤرخي التراجم والطبقات التي توضح دور سحنون في نشر وتثبيت المذهب في المغرب الأدنى . نقل عياض (١) عن محمد بن حارث الخشني في كتابه طبقات علماء افريقية قوله : (كانت افريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس ، لأنه قد رحل اليها اكثر من ثلاثين رجلا ، كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه ، وان كان الفقه والفتيا انما كان في قليل منهم ، كما كان ذلك في علماء البلاد . ثم قدم سحنون بذلك المذهب واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، فمالت اليه الوجوه واحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدئ قد أمحي ما قبله ، فكان أصحابه سرج أهل القيروان . الخ) . ونقل عياض (٢) كذلك وابن السرج عن احد تلامذه سحنون ، وهو سعيد بن الحداد (٣)

- (١) المدارك ج ١ ، ص ٥٩١ .
- (٢) المدارك ، ج ١ ، ص ٥٩١ - ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٧٧ .
- (٣) في الأصل سعيد بن الحارث ، وقد علق محقق الحلل السندسية بقوله : انه وجده في الاصل كذلك ، ولكنه صحح الاسم فقال لعله : سعيد بن الحداد (أنظر حاشيه رقم ١ ، ص ٧٧ من الجزء الأول ، القسم الاول من الحلل) . والحقيقة فان محمد الحبيب بن الهيلة محقق الحلل علي حق في ذلك . ويؤيد ما ذهب اليه من أن الراوى هو سعيد بن الحداد ، ما أورده أبو العرب التميمي في كتابه الطبقات ، ص ١٠٤ .

قوله (كان أبو سعيد (كُنية سحنون) عاقلاً (١) بمرة ، ورعاً بممرة ،
عالمًا بمذاهب المدنيين بمرة) ويمضي عياض (٢) كذلك فينقل
عن الشيرازي صاحب كتاب: طبقات الفقهاء قوله (اليه انتهت الرئاسة
في العلم بالمغرب ، وعلى قوله المعول (٣) به ، وصنف المدوننه
وعليها يعتمد أهل القيروان ، وحصل له من الاصحاب ما لم يحصل
لأحد من أصحاب مالك ، وعنه انتشر علم مالك في المغرب) . أما
الدباغ في معالمة (٤) فيقول متحدثاً عن رحلة سحنون الى المشرق
وعودته (. . . ثم قدم الى القيروان سنة احدى وتسعين ومائة ، فأظهر
علم أهل المدينة بالمغرب ، وكان أول من أظهره) . وإذا كنا
نوافق الدباغ في أنه أظهر علم أهل المدينة بالمغرب ، فان ما لا يمكن
موافقته عليه هو قوله انه أول من أظهره هناك ذلك لأن السيقاق
التاريخي لأولية انتشار المذهب المالكي حسبما أجمع معظم من تناول
ذلك يسند الأولية والاسبقية لعلي بن زياد التونسي والبهلول بن
راشد وغيرهما . وهذا ما أشار اليه كذلك ابن ناجي (٥) مكمل كتاب
المعالم ومعلقة حرفياً بقوله : (قلت : وما ذكر من أنه أول من

-
- (١) صحح محمد الحبيب بن الهيلة في تحقيقه للجزء الأول ، القسم الأول
من كتاب الحلل في الحاشية رقم ١٢ من ص ٧٧ العبارة
كما وردت في المتن . وأصل عبارة عياض : كان أبو سعيد
عقلاً . الخ .
- (٢) المدارك : ج ١ ، ص ٥٩١ - ٥٩٢
- (٣) التصحيح من ابن السراج ، (انظر ص ٧٨) والا فالعبارة
عند عياض : (وعلى قوله ، الموصول به)
- (٤) الجزء الثاني ، ص ٧٩ - ٨٠ .
- (٥) المعالم ، الجزء الثاني ، ص ٨٠ .

أظهر علم أهل المدينة لا يقال ، وفيه نظر لسبقية علي بن زياد
بذلك والبهلول بن راشد وغيرهم (١) . ومما يذكر لسحنون من
دور في نشر المذهب المالكي ، أنه كان حريصا على الأخذ بمذهب
أهل المدينة في كل شيء ، حتى في العيش (٢) . الخ . أي حتى
في معيشته وسلوكه . وفي الواقع فإن هذا القول صحيح أيده كلام
سحنون وأفعاله ، وفي هذا الخصوص يروى عياض (٣)
ابن سحنون ابنه قوله : (٤) (قال لي أبي : إذا أردت تقدم اطرابلس
وكان فيها رجال مدنيون ومصريها الرواة ، والمدينة عشي مالك^٥
ومكة ، فاجتهد جهديك ، فإن قدمت علي بلفظة خرجت من دماغ
مالك ليس عند شيخك أصلها ، فأعلم ان شيخك كان مفرطا) . ولعل
في هذا القدر ما فيه كفاية لتوضيح دور سحنون في نشر المذهب ،
أما دوره في تثبيت أقدام المذهب بمؤلفاته فهو ما سوف تعرفه في مكانه
ان شاء الله . وعلاوة على ذلك فإن لسحنونا دورا آخر في نشر المذهب
يتمثل في مواقفه من المذاهب الكلامية ، ومن الخوارج وغيرهم
حسبما سنعرفه في موضعه ان شاء الله .

-
- (١) (كذا) بدل وغيرهما .
(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٩٣ .
(٣) المدارك ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .
(٤) أورد المالكي : المصدر السابق والجزء ، هذه العبارة بنفس
النص ، ولكنه ذكر أن القائل للعبارة هو : سليمان بن سالم
أحد طلبته .
أنظر ، المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٥ . وانظر كذلك
حاشية رقم (٢) من نفس الصفحة حيث أشار محقق الكتاب
إلى ما ذكره عياض من أن قائل العبارة هو : محمد بن سحنون
وكذلك فعل كما يقول محقق الرياض : الدباغ في (معالمه
ج ٢ ، ص ٥٢) .
(٥) في الأصل : (والمدينة غير مالك) والتصحيح من ابن السراج
المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ .

ثم جاءت الطبقة الثالثة وتمثل الدور الثالث من أدار انتشار
وتثبيت المذهب، وهذا الدور تمثله طائفة من كبار تلامذه سحنون،
كان لها دور مذكور في مواصلة ترسيخ قواعد المذهب وتثبيته فـي
أفريقية سواء كان ذلك بوساطة مؤلفاتها الفقهية أو بوساطة مواصلة
الوقوف المتشدد بل والاصطدام بعلماء المذهب الحنفي الذين كانوا
يستمدون نفوذهم من الأمراء الأغلبية الأحناف على عرار ساداتهم
العباسيين. وهذا الجانب في الحقيقة بدأ منذ عهد سحنون بن سعيد،
ولكنه تعاظم في عهد تلامذته من أمثال محمود ابن سحنون بن سعيد،
ومحمد بن عبدوس، ويحيى بن عمر وعبد الله بن طالب، وعيسى بن مسكين وخلافهم.
فمحمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) بجانب دوره التأليفى
الموسع في الدراسات الفقهية التى سنتطرق إليها في مكانها، عرف
أنه (كان عالما بالذب عن مذهب أهل المدينة) (١)، وفى موضع
آخر اشار مؤرخو التراجم الذين ترجموا له بأنه (كان يحسن الحجة
والذب عن السنة والمذهب) (٢)، ومما قيل فيه أيضا أنه كان (امام
عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب، جامعاً لخلال قلما اجتمعت
في غيره من الفقه البار، والعلم بالآثر والجدل، والحدِيث، والذب
عن مذهب أهل الحجاز... الخ). (٣) وفيما يتعلق بمواقفه من أهل
البدع والأهواء، وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية، فقد كانت
له جولات مهمة ولا سيما وأنه اشتهر بالجدل والمناظرة حسبما سنعرفه
في موضعه ان شاء الله.

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، الجزء الثانى ص ١٠٤
(٢) أنظر مثلاً : عياض ، نفس المصدر السابق والجزء اعلاه والصفحة
(٣) عياض : نفسه ، ص ١٠٥ نقلاً عن ابن الجزار).

ومن أفراد هذه الطبقة مَن مكن للمذهب وأعان على تثبيته وانتشاره محمد بن ابراهيم بن عيدوس بن بشير (ت ٢٦١ هـ) ، وهو من أجل تلامذة سحنون ، وكان اضافة الى دوره في مقاومة البدع وأهل الاهواء ، ثم دوره في مد المذهب المالكي بمؤلفاته الفقهية التي سنعرّفها بعد ، من المذكورين في الذب عن المذهب والمحافظة عليه (١) ، ومما ينسب اليه أنه كان (عالما بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه) . (٢)

ومن أفراد هذا الدور الثالث المذكورين عبدالله بن طالب بن سفيان التميمي القاضي (ت ٢٧٥ هـ) ؛ ويؤثر عنه أن كان كغيره من طلبة سحنون حريصا على الذب عن مذهب مالك (٣) ، هـذا بالاضافة الى اسهامه في التمكين للمذهب عن طريق مؤلفاته الفقهية وهذا ما سنذكره في موضعه بعد . ومن أفراد الطبقة هذه من المشهورين يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى (ت ٢٨٩ هـ) وهو من كبار أصحاب سحنون ، ومواقفة في نشر المذهب وتثبيته اتضحت في كثرة مؤلفاته (٤) التي كان يوضح فيها أصول المذهب ، بل ويدافع عنه كتصديده لتأليف كتاب أسماه الرد على الشافعي . ولقد واصل في الوقت (٥)

-
- (١) ابو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٠ .
(٣) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٧٦ .
(٤) ذكر أنها بلغت اربعين جزءا ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ .
(٥) عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ .

نفسه تصديه لأتباع المذاهب الكلامية باللسان والقلم حسبما سنعرّف بعد في موضعه .

وأخيراً نذكر من أبرز أفراد هذا الدور الثالث، القاضي عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج بن محمد الأفریقی (ت ٢٩٥ هـ) (١) ويعد أيضاً من أحد كبار طلبة سحنون بن سعيد ، وممن مكّن للمذهب بلسانه وقلمه . (٢)

ثم جاءت الطبقة الرابعة ، وتمثل الدور الرابع ، وهي من صغار تلامذة سحنون وهذه الطبقة هي التي شهدت سقوط الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وهي نفسها التي شهدت عنفوان المدّ الشيعي والمقاومة العنيفة له مما سنعرّفه في موضعه .

-
- (١) ذكر عياض في ترجمته له (المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٨) أن وفاته كانت عام (٢٧٥ هـ) . غير أن السيد محمد أبو العزم داود في كتابه السابق قد حقق هذه النقطة ، فاستبعد أن تكون وفاة عيسى بن مسكين عام ٢٧٥ هـ ، الذي كان قد طلب اعفائه من القضاء من الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد عام (٢٨٩ هـ) بعد أن أعلن هذا الأمير توبته ، كما نقل السيد أبو العزم عن ابن عذاري في البيان المغرب ، الجزء الأول ، ص ١٣١ ، كما استبعد رواية أحمد بكير محقق المدارك في شكه في تحديد سنة وفاة عيسى بن مسكين ، والخلاصة أن السيد محمد أبو العزم يذهب إلى أن وفاة عيسى بن مسكين كانت عام ٢٩٥ هـ لا ٢٧٥ هـ . أنظر السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، هامش ص ١٥٣ .
- (٢) عياض : نفسه ، ص ٢٢٣ ، ٢٢١ .

ولم يستجب أفراد هذه الطبقة لكل وسائل الترغيب والترهيب التي لجأ إليها الفاطميون لإثنائهم عن مذهبهم المالكي ، وقد دفع بعضهم حياته ثمناً لامتناعه عن تبديل مذهبه . ويأتى على رأس أفراد هذه الطبقة جيله بن حمود بن عبد الرحمن الصدقي (ت ٢٩٩ هـ) ، وهو من صغار تلامذه سحنون ، وممن وقف وقفه شديده في سبيل نصره المذهب المالكي والتمكين له ، وتجلي ذلك في مواقفه من علماء الأحناف المزعومين من الأمراء الأغلبية في وقته (١) ، ثم تجلى بوضوح موقفه في نصره المذهب وترسيخه في نفوس المغاربة بمقاومته الشديدة للفاطميين (٢) ، وهو ما سنعرفه بعد في موضعه .

ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حسين الضبي المعروف بابن البرذون (ت ٢٩٩ هـ) ، وهو وان لم يتلق علومه على يد سحنون ، فقد أخذ عن كبار أصحابه ، وقد دافع عن المذهب في أيام الأغلبية (٣) ثم لما قدم الشيعة الى افريقية راودوه على ترك مذهبه ، فأبى مما جعلهم يأمرؤن بقتله هو وزميل له حسبما سنعرف بعد . ومنهم محمد بن محمد بن خيرون المعافري الأندلسي (ت ٣٠١ هـ) وقد دفع حياته ثمناً لنصرة المذهب والتمكين له . ومنهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد (ت ٣٠٢ هـ) وقد كان أشد فقهاء وقته في مناصرة المذهب والعمل على تثبيته ومقارعة خصومه سواء أمن الأحناف في عهد الأغلبية (٦) ، أو من الشيعة ودعاتهم الذين

-
- (١) عياض : المصدر السابق الجزء الثاني ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .
 (٢) عياض : نفسه ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
 (٣) الدباغ : المصدر السابق الجزء الثاني ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
 (٤) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
 (٥) الدباغ : نفسه ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
 (٦) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ - الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٥ .

عقدوا معه سلسلة من المجالس لمناظرته في مذهبه ومحاولــــة التأثير عليه لترك مذهبه (١) ، وهي مناظرات مهمة في توضيح بعض اتجاهات المذهبين المالكي والاسماعيلي في بعض الأمور العقائدية وغيرهما حسبما سنعرف بعد ان شاء الله .

ثم حل الدور الخامس وتمثله كما يتراءى لنا طبقة خامسة من فقهاء افريقية عاشت أغلب فترات حياتها في ظل الدولة الفاطمية ولقد اضطلعت هذه الطبقة بالدفاع عن المذهب المالكي والتمكين له ، والعمل على إنتشاره بشتى السبل من مقاومة ، ورفض للمذهب الشيعي الى غزارة في التأليف الفقهي المالكي وغيره الى التضحية بالنفس من قبل بعض أفرادها . ومن أبرز أفراد هذا الدور ، أبو بكر بن محمد بن محمد بن وشاح اللباد (ت ٣٣٣ هـ) وكان بالاضافة الى تأييده ونصرته للمذهب بموءلفاته الفقهية المتنوعة (٢) ، ذاباً عن المذهب بمعارضته المستمرة للفاطميين (٣) . ومنهم أبو الفضل العباس بن عيسى المسمى (ت ٣٣٣ هـ) وكان (مالكيّاً محضاً) كما يقول عياض (٤) ، وعلاوة على ذلك فقد كان ورعاً حافظاً للفقه والحجــــة لمذهب مالك (٥) . ولذلك فقد قاوم الفاطميين مقاومة شديدة أفضت الى مقتله عام ٣٣٣ هـ . ومنهم كذلك ربيع بن عطاء القطان

(١) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ وما بعدها - الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٦ وما بعدها .

(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨٤ - الكنانى القيرواني : تكميل الصلحاء والاعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٠٥ ، ص ١٤٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ - ٣٠٨

(٤) المدارك : ج ٢ ، ص ٣١٣

(٥) المدارك : ج ٢ ، ص ٣١٣

(ت ٣٣٣ هـ) ، وكان معروفاً بالالتزام بمذهب (١) مالك ومناصرته
ولقد آلى على نفسه (أن لا يشبع من طعام ولا نوم ، حتى يقطع
الله دولة بنى عبيد) (٢) ؛ وهو كذلك أحد من دفع حياته
ثمناً للدفاع عن المذهب كما ستعرف في موضعه بعد . ومن أفراد
هذا الدور أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم
التميمي (ت ٣٣٣ هـ) وقد سمع من كبار أصحاب سحنون ، وأوقف شطراً
من حياته في نصرة مذهبه بتأليفه الغزيرة (٣) ، وهو ممن قتل كذلك
دفاعاً عن المذهب والسنة مع زميليه المسمى وربيع القطان في الموقعة
التي حدثت بين أهل القيروان بزعامة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد
وبين الشيعة عام ٣٣٣ هـ حسبما ستعرف بعد ان شاء الله .

(١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٢٤

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤

(٣) يقول عياض : (نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥) أن مؤلفاته
بلغت ٣٥٠٠ كتاب ، والمقصود بالكتاب في عرف المؤرخين
وكتاب الطبقات والتراجم القدامى هو الجزء من أبواب الكتاب
كالجديث مثلاً في الفقه عن كتاب الصلاة والصوم ، الزكاة
الحج . . . الخ . ومع ذلك فأننا نعتقد ان في الامر
مبالغة واضحة حتى ولو كان المقصود هو هذه الأجزاء
من الكتب .

عن هذه المعنى الدقيق للكتاب ، أنظر المالكي : المصدر
السابق ، ج ١ ، حاشية رقم (١) ص ٣٤٥ . وقد أشار
المحقق حسين مؤنس الى تعريف ابن ناجي مكمل ومعلق
معالم الايمان للكتاب الذي يعنى الجزء لا السفر . وأنظر
كذلك محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، تحقيق
حسن حسنى عبدالوهاب ، المقدمة ص ٢٥ .

ومنهم أبو الحسن بن محمد بن حسن الخولاني الكاشي
(ت ٣٤٧ هـ) وهو من عباد افريقية العلماء ، وكان له مواقف مشهورة
في نصرته المذهب . وقد ذكر عياض (١) أنه كان صارماً في مذهبه
مجانباً لأهل الاهواء ، ومن يخالف مذهب أهل المدينة ، وعدّد
القاضي عياض مواقفه المتشددة ضد الشيعة وأعوانهم نصرته للمذهب
المالكي وتمكيناً له (٢) . ومن هذه الطبقة أيضاً أبو اسحاق ابراهيم
بن أحمد السبأى (ت ٣٦٣ هـ) ، وهو من العباد العلماء كذلك ،
ومما ينسب اليه أنه كان (مجافياً لأهل البدع ، شديد الغلظ
عليهم قليل المداراة لهم) (٣) . وكان شديد البغض للفاطميين
لدرجة أنه عقد العزم على الخروج عليهم . (٤) كما يروى عنه - أنه
عندما كان يقوم برقى المرضى - وكان مشغلاً بذلك يدعو الله ويقول
في آخر دعائه (ببغض عبّيد وذويه) . أشف كل من رقيته (٥) وسنتبين
لاحقاً الكثير من مواقفه ومواقف طبقة الشيعة .

ثم حل الدور السادس من أدوار التمكين للمذهب ، وتمثله
الطبقة السادسة ، وهي التي شهدت ، رحيل الفاطميين الى مصر
(عام ٣٦٢ هـ) وانتصاب الزيريين في حكم المغرب الأدنى ، الذين

-
- | | |
|-----|------------------------------|
| (١) | المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ |
| (٢) | المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ |
| (٣) | عياض : المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٧١ |
| (٤) | عياض : نفسه ، ص ٣٧٢ |
| (٥) | عياض : نفسه ، ص ٣٨٢ |

تابعوا وخاصة الامراء ، الأول منهم الدفاع عن المذهب الشيعي .
والواقع أن أبرز افراد هذه الطبقة - وقد عاش اكثرهم فترة طويلة
من حياته بعد رحيل الفاطميين - قد انحصرت جهودهم في التمكين للمذهب
والنصرة له في ملء البلاد تأليفاً وتصنيفاً مع المحافظة على الدفاع
عن المذهب ومناصرته .

ولعل من أبرز افراد هذه الطبقة أبو محمد عبد الله بن
اسحاق المعروف بابن التبان (ت ٣٧٧ هـ) وقد بلغ من المكانة
العلمية أن (ضربت له اكباد الأبل من الامصار لعلمه بالذب عن مذهب
أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك) (١) ولقد وصفه أحد معاصريه ،
وهو أبو الحسن القابسي ، بأنه كان يغار على المذهب ويذب عنه
الشريعة (٢) ، ولذلك فليس مستغرباً أن يكون من اشد الناس
عداوة لبني عبيد (٣) ومما يوثق عنه انه كان قد ناظر بعض علماء الشيعة
بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله الى مصر مناظرة أفحمته ،
وقد طلب منه مناظرته التخلي عن مذهب مالك ، والدخول في مذهبه ،
فرفض بالطبع . (٤)

(١) عياض : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٥١٧ - ابن
فرحون : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، وان كان من غير
المفهوم ان يكون ذاباً عن مذهب اهل الحجاز وفي نفس
الوقت ذاباً عن مذهب مالك فمذهب اهل الحجاز بصفة عامة
تقريباً مذهب مالك . أما أنه ذاباً عن مذهب مصر ، فلربما
يقصد به المذهب المالكي بمصر . ومع ذلك فالعبارة
غير مستقيمة النهج .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥١٧ - ٥١٨ ابن فرحون : نفسه ،
ص ١٣٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥١٨ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

ومنهم ، أبو عبدالله محمد بن أبي زيد (عبدالرحمن) النفزي القيرواني (ت ٣٨٦هـ) وهو من أبرز وأشهر أفراد هذه الطبقة علما وفقهاء تأليفاً . ولقد إتفقت كلمة معاصرة على تفضيله وتقديره ، ونحن بالطبع لا يهمننا إلا التنويه بدوره في نشر المذهب والتمكين له . أشار عياض إلى أن ابن أبي زيد كان إمام المالكية في عصره ، وقد وثقهم ، وجامع مذهب الإمام مالك ، وشارح أقواله (١) . وذكر عياض (٢) كذلك في موضع آخر أن ابن أبي زيد ، كان (فصيح القلم ذا بيان ومعرفة بما يقول ، ذابا عن مذهب مالك ، قائماً بالحجة عليه . بصيراً بالرد على أهل الأهواء) . وفي موضع آخر أشار عياض إلى أنه (هو الذي لخص المذهب وضم كسره ، وذبح عنه وملأت البلاد تواليقه) . (٣) ونقل عياض عن الشيرازي في كتابه طبقات الفقهاء ، أن ابن أبي زيد كان يعرف بمالك الصغير .

ومن بين كتبه المعروفة التي ألفها والتي سنتطرق إليها في مكانها ، كتاب الذب عن مذهب مالك (٤) ، وكتاب الاقتداء

-
- (١) المدارك ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ - وأنظر كذلك الدباغ : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٠٩ - ١١٠
- (٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ - الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١١٠
- (٣) المدارك ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ - وراجع الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ - ١١١
- (٤) المدارك ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣

بأهل السنة (١) ، كما ألف العديد من الكتب للرد على أهـ الأهواء والبدع وغيرهم (٢) .

ومن أفراد هذه الطبقة وهذا الدور السادس من أدوار الظهور والتمكين للمذهب المالكي ، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي (ت ٤٠٣ هـ) وهو كما يلاحظ من فقهاء المالكية المتأخرين ، وأبو الحسن القابسي هذا له مكانة علمية مرموقة فهو محدث وفقه وأصولي وعالم تربوية ، وقد ذكر أنه (ضربت له آباط الإبل من أقصى المغرب) (٣) ، وهو ممن ناصر المذهب بقلمه ، فكثرت تآليفه الفقهية الحديثية وغيرها (٤) ، كما أنه ممن ناصر المذهب بلسانه ومواقفه ضد بعض تصرفات أمراء الدولة الزيرية المعاصرين له (٥) .

وأخيرا جاء الدور السابع وتمثله الطبقة السابعة من علماء المالكية ، وهو الدور الذي شغل النزاع الأخير للمذهب الشيعي في المغرب الأدنى ، والذي تم على مراحل في عهد الأمير

-
- (١) عياض: المصدر السابق والجزء ، ص ٩٤٤ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٣٨ الكنتاتي القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧١ .
إلا أنه أي محقق الكتاب محمد العناني : ذكر أن إسم الكتاب عنده هو الاقتداء بمذهب مالك ، وليس الاقتداء بمذهب أهل السنة كما ورد عن عياض وابن فرحون في المتن .
- (٢) عياض: نفسه ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ - ابن فرحون : نفسه ص ١٣٨ .
- (٣) عياض : نفسه ، ص ٦١٨ .
- (٤) عياض : نفسه ، ٦١ - ٦١٩ - انظر بعد ص .
- (٥) عياض : نفسه ص ٦١٩ - ٦٢٠ .

المعز بن باديس (٤٠٧-٤٥٣) كما شهد هذا الدور بعض
المطابقات التي واجهت علماء المالكية من الأمير المعز بن باديس
هذا . ولقد استمر هذا الدور حتى كُتب للمذهب المالكي التمكين
المطلق بعد نيز الدعوة الشيعية حسبما سنعرف بعد ، وذلك منذ
منتصف القرن الخامس الهجري ، وحتى الآن وقد تمثلت نصرته المذهب
والتمكين له لدى أفراد هذه الطبقة في مقاومة بعض تصرفات
الأمير المعز ضدهم ، وتمثلت كذلك في مواصلة نصرته المذهب
بالتأليف والتصنيف . فمن أفراد هذا الدور أبو علي بن خلدون
(ت ٤٠٧ هـ) ، وكان من الفقهاء الذين ذبوا عن المذهب المالكي
وناصروه . وروى أنه كان شديداً على أهل البدع والروافض مغرياً
بهم ، يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ووزر (١) . وعندما بطش
أهل السنة بالشيعية عام ٤٠٧ هـ ، على أول حكم المعز أفرغ هذا
المعز (فدير قتل زعيم السنة وشيخ هذه الدعوة) ، أي الشيخ أبو علي
بن خلدون ، وذلك في عام ٤١٧ هـ ، فارتجت البلاد لمقتله (٢)

ومن أفراد هذا الدور كذلك ، أبو عمران ، موسى بن
عيسى بن أبي حاج الفاسي الأصل ، القيرواني الوفاة (ت ٤٣٠ هـ) ، وكان
عالم مشهوراً ، ومما يذكر عنه أنه جمع حفظ المذهب المالكي إلى أن يحفظ حديث
النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه (٣) . وقال فيه أبو بكر الباقلائي شيخ المالكية
في العراق في القرن الخامس الهجري ، إن الامام مالكا لـ

(١) عياض : المصدر السابق ، الجزء ، ص ٦٢٤

(٢) عياض : نفسه ، ص ٦٢٦

(٣) عياض : نفسه ، ص ٧٠٣ - ٧٠٤

رأى أبا عمران الفاسي لَسْرَبَه (١) . وهو أحد من تعرّض كذلك للمضايقات من قبل المعز بن باديس . (٢)

ومنهم أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني (ت ٤٣٢ هـ) وهو من شيوخ القيروان المعدودين في وقته . ومما قيل في مكانته العلمية ، أنه (ما زال الذكر ورئاسة الدين له في وقتــــه مع صاحبه أبي عمران الفاسي في المغرب ، حتى لم يكن لأحــــد معها اسم يعرف) (٣) . وقد جالد في حياته أعداء المذهب وخصومه ، ووقف في وجه المعز بن باديس هو الآخر كثيرا . (٤) . ومما يدل على مقدار اتباعه لا مام مذهبه مالك بن أنس أنه روى لبعض أصحابه روىــــا رآها في المنام) كأن أحدا يقول له اكتب اسمك في ذلك اللوح ، الذي فيه أسماء العلماء ، فانظر الى اسم مالك ، فاكتب اسمك تحته . (٥)

ونذكر أيضا أبو الحسن علي بن المنمر الطرابلسي (ت ٤٣٢ هـ)

-
- | | | |
|-----|-----------|---|
| (١) | عياض : | المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠٤ . |
| (٢) | المالكي : | المصدر السابق والجزء ، مقدمة المحقق ، ص ٢٤٧ |
| (٣) | المالكي : | نفسه ، المقدمة ، ص ٢٤٨ |
| (٤) | المالكي : | نفسه ، مقدمة ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ |
| (٥) | المالكي : | نفسه ، المقدمة ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ . |

وكان بجانب انه من العلماء المشهورين في بلاده آنذاك . كانت له مواقف دافع فيها عن المذهب المالكي ضد خصومه من الشيعة^(١) وأعوانهم

وكذلك أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، المعروف باللبیدی (ت ٤٤٠ هـ) وهومن مشاهير علماء وفقهاء في فريقية المتأخرين وقد كان لمؤلفاته الفقهية الغزيرة ذات الأهمية الفائقة في المذهب أثر كبير في تثبيت المذهب المالكي والتمكين له في هذا الوقت المتأخر.^(٢)

(١) على مصطفى المصراحي : أعلام من طرابلس - تراجم ودراسات ، ص ٣٣ - ٣٩ .

(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠٧-٧٠٨ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٦ - محمد بن محمد بن مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - (وعنده أن وفاته كانت عام ٤٤٦ هـ على خلاف عياض والدباغ) .

ثانياً : الأسباب :

والآن وبعد أن استعرضنا أذوار انتشار المذهب المالكي في افريقية منذ دخوله إليها وحتى استقراره النهائي المطلق بها ، فانه يجدر بنا توضيح أسباب ذلك التمكين المطلق للمذهب هناك . فمن المؤكد أن هذا الظهور ، وذلك التمكين المطلق للمذهب لم يكن وليد جهود ومواقف أولئك العلماء الذين ذكرناهم فحسب - على ما في ذلك من أهمية بالغة - ، بل كانت هناك أسباب أعمق مسّت كيان كفاية طبقات المجتمع ، وجعلته ترسماً لخطى علمائه ، يميل الى المذهب المالكي ويتمذهب به ولا يرتضى عنه بد يلا . والواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين تناولوا تلك الأسباب التاريخية والموضوعية بالتعليل والتحليل ، فصادف التوفيق بعضاً منهم ، وجانب الصواب البعض الآخر . وقبل أن نناقش تلك الآراء ونخضعها لسدة البحث ، نود الإشارة الى أن المذهب المالكي انتشر في الأندلس في وقت متقارب مع انتشاره في المغرب الأدنى - والمغرب عموماً - ولما كان الكثير من ظروف انتشار المذهب المالكي في الأندلس لا تختلف عن مثيلها في المغرب فإن الذين تصدوا لتعليل ظاهرة انتشار المذهب في الأندلس والمغرب ينظرون الى ذلك من منظور واحد تقريباً . (١)

(١) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ - (نقلاً عن ابن خلدون وغيره) - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ص ٥٨٦ - أنخل جنشالت بالنيثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله الى العربية حسين مؤنس ، ص ٤١٥ - ٤١٩ .

ومهما يكن من أمر ، فإن تعليقات أولئك المؤرخين —
القدامى والمحدثين تتلخّص في أن هناك أسباباً إقليمية ، وعنصرية ،
وسياسية ، ودينية سياسية ، ودينية فحسب كانت هي السبب
الرئيسي في انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس .

فأما العامل الاقليمي فقد أشار اليه ابن خلدون ، وهو
يجمع بين الأندلس والمغرب معا في حديثه - فهو يقول : (وأما
مالك رحمه الله تعالى فاخص بمذهبه أهل المغرب والأندلس،
وان كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره الا في القليل
لما أن رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم .
والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ، ولم يكن
العراق في طريقهم فاقترضوا عن الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم
يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع
اليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم
طريقته) (١)

وليس ثمة شك في أن لهذا الرأي الكثير من الوجاهة
والصواب ، فالرحلات العلمية الى المشرق وخاصة الحجاز وبصفه
أخص المدينة ، كانت عاملاً رئيسياً في ازدهار الحياة العلمية
وخاصة الشرعية منها كما ذكرنا سابقا . أما عن أثر تلك الرحلات
الرئيسي في دخول المذهب المالكي الى المغرب والأندلس ،
فهو مالا يتطرق اليه مطلقاً حسيماً رأينا عند حديثنا عن دخول

(١) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨ .

المذهب الى المغرب . ونخلص من هذا الى أننا نتفق مع ما ذهب اليه ابن خلدون من تأثير رحلات المغاربة والأندلسيين في إدخال المذهب المالكي الى القطرين من الحجاز .

ولا تستقيم الإشارة الى رأى ابن خلدون دون التنويه بالشق الثاني من تعليقه لأسباب انتشار المذهب المالكي فى بلاد المغرب والأندلس . فهو يقول : (وأيضاً فالبداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداءة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب) . (١)

وفي الحق فان ابن خلدون جانبه الصواب في هذا الشق الثاني من رأيه ، فلقد رمى الأقطار الثلاثة الحجاز والأندلس والمغرب بالبداءة . وهو اتهام لا يستند على وقائع ثابتة ، فالحجاز لم يكن آنذاك بالصورة التى وصفها ابن خلدون من غلبة البداءة ، بل كان على النقيض يتمتع بتمدن ورقى في كافة صروب الحياة العلمية والاجتماعية (٢) . الخ . ولئن كانت العراق قد فاقت الحجاز في العلوم العقلية للظروف التى هيأت لها ذلك كما ذكرنا من قبل ، وكما هو مبسوط في كتب التاريخ والأدب ، فان الحجاز كانت لها الصدارة في العلوم النقلية رغم اسهامات العراق المذكورة فيها .

(١) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨

(٢) عن مظاهر الحضارة الحجازية بكافة أوجهها أنظر مثلاً

احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٢٠ - ١٢٩ + ضحى

الاسلام ، ج ٢ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

وثمة تفسير اقليمي أوسيئي آخر اشار إليه أحد الباحثين وهو على حسن عبد القادر في مقدمته لكتاب أحمد تيمور : نظـرة تاريخيه في حدوث المذاهب الأربعة (١) ، الذي مربنا ذكره . فهو يرى أن للأقاليم التي ظهرت ، أو وفدت اليها المذاهب الفقهية تأثيرا على المذاهب (من ناحية المسائل المتجدده ، أو التفريعات أو الترجيح ، أو التعقيد) . وبمعنى آخر ، فهو يعتقد أن مناهج المذاهب الفقهيه قد تأثرت بالطابع المحلي للأقاليم التي انتشرت واستقرت بها . فالمذهب المالكي مثلا أصبحت له طرائق قـددا ، تختلف باختلاف الاقاليم : (فهناك طريقة للعراقيين ، وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأنـدلس ، وطريقة رابعة لـا قـليـم مصر ، ممزوجه من الأقاليم الأخرى ، ولكل طريقه منها مصنفات في المذهب ، وكل ذلك مختلف ، فطريقة اهل العراق من المالكية أشبه بالحنفية من ناحية ما يغلب عليها من اجماع الرأي واثبات الاستدلال ، وطريقة أهل المغرب يغلب عليها مراعاة العمليات وتكيف الاحوال في النوازل) (٢)

والواقع أنه اذا لم يكن في مقدورنا مناقشته من الوجهة الفقهية لعدم التخصص بداهة ، فان مانوافق على حسن عبد القادر عليه ، من خلال استقراءنا لانتشار المذهب المالكي في افريقية هو أن للمحلية المغربية دور في تثبيت المذهب المالكي في المغرب الأدنى والمغرب عموما ، بمعنى أن المذهب المالكي قد

(١) ص ٢-٥ وأنظر كذلك ص ١ ، حيث أثنى عيد السلام شهاب باسم لجنة نشر المؤلفات التيمورية في استهلال الكتاب

على رأي على حسن عبد القادر وأمتدحه .
(٢) على حسن عبد القادر : مقدمة كتاب نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الاربعة ، ص ٣ - ٤ .

استطاع فعلا من خلال تتبع حركته أن يوائم العادات والملابسات النفسية والاجتماعية والسياسية المغربية .

واضافة الى العامل الاقليمي ، فان هناك من الباحثين المحدثين من يرى ان انتشار المذهب المالكي في المغرب كان نتيجة لرد فعل ديني ذي صبغة سياسية . (١) فالأحداث التي شهدتها بلاد المغرب من انتفاض البربر على الولاة العرب وتمذ هبهم بالمذهب الخارجي ردا على سياسة بعض أولئك الولاة الخاطئة كما مر بنا ثم معارضة البربر لبعض الأسر العربية ، التي عاشت في المغرب وطمحت في تأسيس كيان خاص بها ، مثل الاسرة القهرية ، وما تبع من تطلع الاسرة المهيمنة الى نفس الامل ، ثم جهود خصوم البيت الأموي ، الذين اضطروا الى الفرار الى الأماكن النائية ضد الدولة ثم ما تلى من فرار العلويين الى المغرب هربا من بطش أبناء عمومتهم العباسيين . (٢) كل هذه الاحداث خلقت بلبلة وفوضى سياسية أثرت على الواقع الديني . وقد دفع هذا كله الجبهة الكبرى من أبناء المغرب الى التطلع نحو الاسلام النقي الصافي الذي يعتمد الكتاب الكريم وصادق الحديث - وهو التيار الذي تمثله مدرسة المدينة الفقهية كما رأينا من قبل) .

لذا فقد ارتحلوا في سبيل ذلك الى المدينة حيث الامام مالك بن أنس الذي توج تلك المدرسة . وكان مذهبه

(١) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس

ص ٧ - ٩

(٢) حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من الرياض ص ٩

ترجمة صادقة لمبادئ هذه المدرسة الفقهية السنية الأصولية .

والواقع أنه ليس ما يمنعنا من موافقة حسين مؤنس فيما قاله . فواقع الأوضاع منذ العقد الثاني من القرن الثامن الهجري وحتى قيام الدولة الاغلبية عام ١٨٤ هـ كان ينبيء بذلك . ولم يكن أمام المغاربة الا الرد على تلك الأوضاع بالتمذهب بالمذهب الذي اختارته مدينة الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم ، وهم عندما يتمذهبون بمذهب المدينة ، فلا نهم يعرفون أنه سيأج من لهم يبعدهم من غلواء الرأي والعقل وثورتها التي هيست رياحها آنذاك .

وما من ريب في أن التفسير الديني أو التفسير الديني ذا الصبغة السياسية لا انتشار المذهب المالكي هو كما يترأى لى عصب الموضوع الأساسي وليه ، فلقد رأينا مقدار تعلق المغاربة بالحجاز موئل العلم النقلي كما تركه الرسول وصحابته ، ثم رأينا ما عاناه المغاربة من انتشار المذاهب السياسية والد ينيه في أرضهم فقد هم ذلك أي قاد الفئة التي لم تتلبس بالدعوة الخارجية ، التي نبذ تلك المذاهب السياسية الد ينيه سواء كانت متطرفة أو معتدلة ، والتمسك بالمذهب المالكي والعرض عليه بالتواجد .

وكان يغذى هذا الشعور بجانب ما ذكر تلك المجهودات الحثيثة التي كانت جموع التابعين في افريقية والذين وفدوا عليها تعمل على بثها بين أهل المغرب ، وكانت تحرص على أن تهيأ أجيالا من الطلبة المغاربة (توقظ في قلوبهم الميل الى الفقه والرغبة في الدراسة والتوسع . ونشأت حول كل تابع (من التابعيين) من هؤلاء جماعة مفتحة القلب والذهن تمشي في طريقه وتحاول

إذا استطاعت أن تستزيد من العلم في المشرق ، واثلت جهود
هؤلاء جميعاً في اتجاه واحد . ينحو نحو الاستمساك بالعقيدة
البسيطة والاستناد في كل رأى الى آية قرآنية أو حديث نبوى مسند ،
أو تفسير أو تخريج مأثور عن واحد من التابعين وتلاميذهم الموثوق
فيهم . (١)

ويرى حسين مؤنس - ولعلنا لانخالفه - أن هذا
المرأى ما كان من تردى الأوضاع السياسية في افريقية ، ثم
ما طبع به الرعيل الأول من الذين ادخلوا المذهب من نشأة اصولية
سنية خالصة - ، قد خلق حالة نفسية (٢) لدى الكثير منهم ومن
الذين اتبعوهم باحسان ، مالت بهم الى الانزواء والبعيد
عن أى محاولات اجتهادية في التشريع وغيره . ويصف حسين مؤنس (٣)
تلك الحالة النفسية بتحليل تاريخى عميق قائلاً (فترى - أى الفقهاء
المغاربة المبكرين - في نفوسهم نفور من كل تخريج أو تأويل
ولو كان معقولا ، وأصبح جهد الواحد منهم قاصراً على مجرد
السير على النهج الصحيح الطاهر الصحة ، وأصبحوا ينظرون الى
كل انحراف نحو التأويل والتخريج والتفسير كأنه خروج على
الاسلام . وبلغ من تشددهم في التزام هذا الصراط الدقيق أن
ابتعدوا عن اشتهر بالتخريج والاحتكام الى العقل عن المشاركة
نفروا من أصحاب الرأى في العراق ، ولم يقبلوا على ابي حنيفة
وفقهه ، لأن نفوسهم تربي فيها خوف من الرأى ، والابتداع
والابتكار ، نتيجة لما تعرضت له بلادهم من المتاعب بسبب أصحاب
الآراء والتأويلات من دعاة الآراء المتطرفة التى أشرنا اليها ، ونفرت

(١) حسين مؤنس، مقدمة الرياض، ص ١٠ م .

(٢) أنظر مقدمة الرياض، ص ١٠ م .

(٣) مقدمة الرياض ، ١٠ - ١١ م

نفوسهم نفورا شديدا مما لقيهم في طريقهم من آراء الاعتزال والتخريج والتأويل و " الكلام " في الدين ومسائلة . وكان هذا النفور حالة نفسية " اِخْتَصَّ بِهَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ بِسَبَبِ خُتَنِ الْخَوَاجِ السَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا وَمَا أَصَابَ الْمَغْرِبَ مِنَ الْوِيَلَاتِ بِسَبَبِهَا وَاسْتَقْرَفِي نَفُوسَهُمْ أَنَّ الدِّينَ ، إِنَّمَا هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَلَا شَيْءَ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى الْقِيَاسُ الْبَسِيطُ انْصَرَفُوا عَنْهُ وَتَرَدَّدَ فِي قَبُولِ الْكَثِيرِ مِنْ الْأَحْكَامِ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ (الاجماع) زيادة منهم في الحرص على دينهم والتمسك بأصوله ، وخوفاً من الانزلاق في مهاوى الضلالات) .

(١) و يضيف حسين مؤنس بعد ادنيا آخر له مظهرا سياسيا ، وهو أن المغاربة قد أعجبتهم سيرة الامام مالك بن أنس وتلاميذه في الابتعاد عن ذوى السلطان والمناصب ، بل وأدهشهم موقفه من تولى القضاء ، وراعهم في الوقت نفسه ألا يكون كثير من أتباع مذهب الإمام ابي حنيفة النعمان كذلك في افريقية ، فهم لا يرون حرجاً في غشيان ذوى السلطان (٢) ، بل كانوا يفتشون لهم

-
- (١) مقدمة ، الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٣ .
- (٢) اذا جازلنا هنا من تعليق ، فهو ذكر مقارنة بين تصرف بعض علماء الأحناف في افريقية وبين موقف علماء المالكية فهذا المالكي : نفسه ، ص ٢٥٧-٢٥٨ ، يروى عن محمد بن سحنون أنه قال لابيهِ مرة : (أن فلاناً لا يأتي الوالى ولا القاضى الا بالليل ، فكتب اليه بعض أخوانه " ان الذى يراك بالنهار هو يراك في الليل والسلام " فأعجب سحنون بما كتب اليه ، وقال على أثر هذا " ما أقبح بالعالم أن يوءتى اليه مجلسه فلا يوجد فيه ، فيسأل عنه ، فيقال " هو عند الامير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضى " لانه بلغنى أنهم كانوا يلقونهم من الرخص بما يحبون مما ليس عليه العمل ويتركون ان يلقوهم بما عليه العمل وفيه النجاة لهم ، كراهة أن يستثقلوهم . ولعمري =

لهم عن الرخص والتأويلات المبنية على القياس البعيد (١) ولذلك فقد جذبتهم هذه الأفعال الى مذهب مالك جذبا شديدا ، وكأنما كان لسان حالهم لا يرى كما يذكر حسين مؤنس (٢) : الاسلام إلاّ اسلام مالك وحده ، فهو النموذج وهو القدوة .

ويعتقد ابراهيم العدوي (٣) - فيما يمكن اعتباره سبباً سياسياً خفياً - أن إنتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى

=
لوفعلوا ذلك لربحوا ولوجب أجرهم على الله عز وجل
فوالله لقد أبليت بهذا القضاء وبهم (يقصد تولية القضاء للأغلبية) ،
فوالله ما أكلت لقمة ، ولا شربت لهم جرعة ، ولا لبست
لهم ثوباً ، ولا ركبت لهم دابةً ، ولا أخذت لهم صلةً ، وانى
لأدخل عليهم فأكلمهم بالتشديد ، وبما عليه العمل وفيه
النجاة ، ثم اخرج من عندهم فأنظر في أمرى فأجد على
الدرك ، مع ما ألقاهم به من الشدة والغلظة ، وكثرة
مخالفتي لهم ، ووعظي لهم ، فوددت انى أنجو مما دخلت
فيه كفافا لا على ولا لى) .
الأمثلة التي توضح ممانعه علماء المالكية الشديدة في تولي
القضاء متناثرة في الواقع في كل المصادر والمراجع التي
تؤرخ للدراسات الشرعية والامثلة التي تعطى الدليل
على شدة مقاومة القضاة الذين قبلوا بالحاح تولي
القضاء في تطبيق حدود الله كثيرة ومتناثرة كذلك في تلك
المصادر والمراجع .

(١) نجز لنا هنا التعليق كذلك ، فهذا المالكي يروى أيضاً أن

أحد امراء الأغلبية المعاصرين سحنون أرسل يسأله فى
مسألة ، فلم يجبه بشىء ، ولما عوتب من تلامذته في ذلك ،
قال له سحنون (أف تجيب إنساناً إنما يريد أن يتفكك يريد
أن يأخذ قولى وقول غيرى ولو كان شيئاً يقصد به الدين
لأجبت) أنظر المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٦

(٢) مقدمة الرياض ، ص ٢١٣ .

(٣) المجتمع المغربي ، مقوماته الاسلامية والعربية مع مدخل
عن بلاد الجزائر ، ص ٢٣٦

قد ساعد في التمكين له ، عدم اصطدام الاباضية في المغرب الأوسط به ، نظراً لسياسة التعايش السلمى التى انتهجتها الدولة الرستمية . وهذا الاعتقاد كما يتراءى لنا لا يمكن تغافله ، فالرستميون ربما لم يصطدوا بالمذهب المالكى تنفيذاً لسياستهم السلمية كما ذكر العدو ، وربما نكاية في الأغلبية الذين كانوا حنفي المذهب . وبالإضافة الى ذلك فقد نظر الادارسة في المغرب الأقصى الى المذهب المالكى على أنه مذهبهم هم كذلك (١) . وهذا الرأي في تصورنا لا يمكن الدفع ببطلانه كذلك ، فالصلة بين الامام مالك بن أنس والبيت العلوى صلة قوية . ولقد تلقى مالك جزءاً من علومه على يد عبدالله الكامل بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب والد ادريس مؤسس الدول الادريسية . (٢) ثم ان مالكا كان يناصر محمداً النفس الزكية شقيق ادريس (٣) ، ولذلك فلم يعارض الادارسة وجود المذهب المالكى في المغرب الاقصى ، بل أقروا هناك ، لاسيما وأن ادريس بن عبدالله نفسه كان يصرّح بأنه أولى بالمذهب المالكى في المغرب دون غيره . (٤)

-
- (١) ابراهيم العدو : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٢) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، مع الحاشية رقم (١) من نفس الصفحة
(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ١١٦
(٤) أنظر عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، ج ١ ، ص ١١٨ - السيد محمد أبو العزم داود - نفسه ، ص ١١٦

ولعلنا بعد ذلك لا نغفل أن ثمة أسباباً أخرى أدت إلى انتشار المذهب في المغرب الأدنى - وهو مجال بحثنا - والمغرب كله . فغير خافٍ أن المذهب المالكي قد اتصف بالبساطة والتشدد في أحكامه وقضاياه كما هو معروف في كتب الفقه المالكية العديدة - وهذا تطابق مع خصائص الشعب المغربي الذي يتميز بالبساطة وعاطفة التصلب للدين . (١)

ومن الأسباب القوية المباشرة في التمكين للمذهب هو أن قيض الله للمغرب الأدنى الامام سحنون بن سعيد . وفي الواقع فإن مسيرة افريقية المذهبية والفقهية ربما لم تكن كما أصبحت عليه لو لم يقبض الله بظهور سحنون بن سعيد على أرض المغرب الأدنى ونحن نقول هذا نظراً للأثر الكبير الذي أحدثه ظهور سحنون في ترسيخ المذهب المالكي من جهة ، وفي تطور الدراسات الفقهية من جهة أخرى . وقد مررنا أشادة معاصرة ومن جاء بعدهم به وبدوره في نشر المذهب ، مما لا حاجة إلى اعادته هنا .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه النقطة لا يفوتنا أن نذكر بأن هناك سبباً آخر له مظهر عصبي (عنصري) وهو الذي أشار إليه أحد الباحثين المغاربة وهو أحمد محمود بكير محقق كتاب

(١) أنظر مثلاً عباس الجراري : وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، ص ٣٧ . أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ص ١١٩ - سعدى أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط ١ ، ص ٨١ -

ترتيب المدارك للقاضي عياض ، وذلك في سياق تعليقه لأسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب هذا التعليق يقول بأن هناك ميلا عصبيا من العرب اليمنية المقيمين بالمغرب للإمام مالك ابن أنس ، باعتباره يمينيا مثلهم ، ومن هنا فقد مالوا الى مذهبه . (١) وفي الحق فان هذا الرأي لا يمكن رفضه كلية . فعلى الرغم من أن العصبية القبلية العربية والبربرية ، قد أدت فعلا الى التفرقة السياسية والاجتماعية والعسكرية ، كما أشار محي الدين عزوز (٢) في رده على أحمد بكير ، إلا أن هذا لا يمنع تعلق أغلبية عرب المغرب - وهم من اليمنية - بعرب الحجاز ، وهم يمينيه أيضا . غير أن ما لا نوافق عليه أحمد بكير هو تعميمه فحسب ، والافانه بلاشك لا يمكن أن ينسى أن جموع الكثرة الساحقة من السكان في المغرب آنذاك ، وهم البربر قد تمذهبوا بالمذهب المالكي أيضا انطلاقا من قناعات دينية في المقام الأول . (٣)

-
- (١) أنظر مقدمة كتاب المدارك ، الجزء الأول ، ص ٨-٩
(٢) التطور المذهبي بالمغرب ، دراسة قصة حي بن يقظان ، ص ٢٣ .
(٣) انظر في هذا الصدد أيضا محي الدين عزوز : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٣ وما بعدها .

مكانة المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى :

مذ دخل المذهب المالكي وانتشر في المغرب الأدنى بفضل جهود أولئك العلماء الذين أشرنا الى أدارهم في نشر وتشيع المذهب من جهة ، وبفضل الأسباب التي أدت الى نشره بين المغاربة والتي مكنت له البقاء هناك من جهة أخرى ، منذ وقـع ذلك ، وكأنما المذهب المالكي قد دخل المغرب ليبقى رغم ما واجهه به من صعاب ، وكانت النتيجة أن تعلقت به نفوس المغاربة جيلاً اثر جيل ، وأفتتنوا به وبأعلامه بدءاً بصاحب المذهب نفسه ، ومروراً بتلامذته الكثرين في المشرق والمغرب ، وانتهاءً بعلماء عصرهم . ومن هنا ، فان ما قاله المقدسي من أن أهل الأندلس - وأهل المغرب الأدنى بالأولى - لا يعرفون الا كتاب الله وموطأ مالك (١) لم يتعد الحقيقة . ولئن قلنا ان المذهب المالكي قد مسّ كيان المجتمع المغربي بطوائفه المختلفة فاننا بذلك لا نتجنى على الصواب.

وفي تتبعنا لمكانة المذهب المالكي في المجتمع المغربي لابد أن نلاحظ في البدء أن المغاربة أعجبهم سلوك الامام مالك نفسه المثالي (فأفتتنوا به ، وأخذوا منه قدوة لهم في كل شيء : حتى أحواله في معاشه من لباسه وطعامه ، وكيفية جلوسه للاسماع ، وطريقته في الحديث ، كل ذلك أصبح عند الافارقة المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذيه المسلم الصحيح) (٢) .

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٢٣٦
(٢) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١١ .

ويدعم سعدى أبو حبيب (١) أحد الباحثين هذا الرأي بقوله (لأن شخصية مالك الفذه بكل جوانبها تركت أثرا في المغرب العربى مانزال نرى أخاد يده بارزه في نفسه أهلنا هناك لم يبلها كرا السنين)، ويضيف الى ذلك قائلا (والذى نجده لمالك فى المغرب هو نسيج وحده . فما أعرف صحابيا ، أواما ، أو عالما من علماء المسلمين ترك فى سلوك اتباعه أثرا خالدا متركه مالك فى نفوس أهل المغرب) (٢) . وينقل فى هذا الصدد عن أحد كبار علماء المغاربة المحدثين وهو محمد المنتصر الكتانى إشارته الى أن سيرة الامام مالك بن أنس قد استهوت قلوب المغاربة فى الماضى والحاضر ، وكانت لهم القدوة والاسوة على مر القرون وتتابع الأجيال من صلابة فى الحق واعتزاز باللغة والتصلب فى التمسك بنصوص القرآن والسنة ومن صرامة فى الحكم والفتوى ، وزهد فى المناصب وذوى السلطان . . الخ ما فى شخصيته مالك من مثل (٣) كما ينقل عنه أيضا قوله ان (ما اشتهرت به الشخصية المغربية فى ماضيها وحاضرها من عنف وحده فى نفسها ، وصلابة فى تمسكها بالاسلام دولة وديننا ، وبالعروبة لغة ونسبا إن هو إلا أثر لمذهب مالك الذى عايش الحياة المغربية أسرة ومجتمعا ، شعوبا وحكومات ، وتغلغل فيها حتى الأعماق) (٤)

(١) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص ٨١ .

(٢) نفس المرجع اعلاه والصفحة .

(٣) سعدى أبو حبيب : نفس المرجع اعلاه ، ص ٨١ - ٨٢

(٤) نفس المرجع اعلاه ، ص ٨١

ولقد انتقل اعجاب المغاربة بمالك الى تلامذته من المشاركة والمغاربة كذلك فبالنسبة للمشاركة أصبح للرعيـل الأول من طلبة مالك احتراماً وتقديراً عميقين في نفوس المغاربة، سواء كانوا من المصريين أو المدنيين أو المكيين (١). أما بالنسبة لتلامذته من المغاربة، فلا يكاد عائدهم يعود من المشرق سواءً ممن تتلمذ عليه مباشرة أو تتلمذ على أصحابه، إلا وكان ينظر اليه على أنه قد تشرب المذهب وقواعده وأصوله، وأضحى ينظر الى العائد منهم من المشرق على أنهم (فقهاء مالكيين كوامل يؤلفون للناس كتباً في الفقه ويفتون الناس في مسائلهم متبعين قیاس مالك، ومتأسسين في جميع أموره ظاهرها، وباطنها بما كان عليه "إمام دار الهجرة" (٢) ولذلك كان من الطبيعي كما يرى حسين (٣) مؤنس - وهو على حق - أن يقبل أهل المغرب على أولئك العائدين اقبالهم على رسل العقيدة الصحيحة والسائرين على منهاجها). ومن الطبيعي كذلك أن تصبح (كتب مالك وتلاميذه، وكتب أتباعه وأتباع أتباعه من أهل المغرب هي الاسلام ولا اسلام غيرها) (٤)

والمتتبع لكتب التراجم والطبقات المالكية المغربية سيكتشف صدق هذا التحليل الدقيق الذى فاه به حسين مؤنس .

- (١) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٢ .
- (٢) نفس المصدر السابق ص ١٢م - ١٣م .
- (٣) مقدمة الرياض ، ص ١٣م .
- (٤) مقدمة الرياض ، ص ٣م .

على أنه ليس العلماء والفقهاء المغاربة وحدهم هم الذين كانوا يحظون بذلك الاعجاب والتقدير العميق من طبقات المجتمع، فقد كان الى جانب هؤلاء العباد الزهاد العلماء الذين ضربوا أروع الأمثلة بزهدهم وعبادتهم . هؤلاء حظوا كذلك بذات نظـرة الاعجاب والتقدير العميقة ، ولم يكن هؤلاء الا مالكيين مغربيين في مالكيـتهم ، وبـنـظـرة فاحـصة على سيرهم وتراجمهم في كتاب رياض النفوس مثلا نجد الامثلة والشواهد على صدق ماتذهب اليه لا يكاد يحصيها عدد ، فالامثلة الحية التي تعكس اعجاب أولئك بمالك ومذهبه تنفك تترى سلوكا وحياة وعبادة وعقيدة . والملفت للنظر حقا ، ألا نجد من كل أولئك العباد والزهاد من كان يتمذهب بغير المذهب المالكي .

ومهما يكن من أمر فان تأثير المذهب المالكي في التاريخ الاجتماعي لا فريقية لا يمكن فهم أبعاده بجانب ما ذكرنا الا اذا عرفنا أن الشخصية المغربية المستقلة قد ظهرت عبر المذهب المالكي (١) ، هذا من جهة ، الا اذا عرفنا ان المذهب المالكي هو الذي وحد المجتمع المغربي ، وحسدة معنوية وعرقية (٢) - الى جانب الوحدة المذهبية - من جهة أخرى . وهذا الأمر في الحقيقة بالغ الدلالة فمع دخول المذهب المالكي لم تعد نلاحظ أي إنقسامات عنصرية بين فئات المجتمع المغربي ، وحتى تأييد بربركتامة للشيعة وتمذهبهم بمذهبهم لا يدل على انقسام في عناصر المجتمع بقدر

(١) عبد الله العروى : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب،

ترجمة ذوقان قرقوط ، ط ١ ، ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٨

ما يدل على حقيقة مهمة ، وهى أن بربر كتامة كانوا يطمعون من خلال تمذهبهم وتأبيد هم للشيعنة الفاطميين الى أن تكون لهم اليد الطولى في الدولة لفاطمية قبل أى قبيلة اخرى التى يرون أنه يجب أن تكون بربرية المنزع والمظهر. (١)

والى جانب تأثير المذهب المالكي في التاريخ الاجتماعى للمغاربة ، فان تأثيره في التاريخ السياسى للبلاد خلال الفترة موضوع البحث أشد وأعق . فالمذهب المالكي في الواقع كما يتراءى لنا هو الذى كان يوجه التاريخ الافريقى ، وهو الذى كان يحركه وقتذاك . ويمكن للباحث المحقق أن يلحظ الكثير من الاشارات التى تدل على صدق ما نذهب اليه ففي البداية نستطيع القول : ان تأثير المذهب المالكي في الحياة السياسية لافريقية خلال عصرى الولاة ، والاغلبية عن طريق مشاركتهم في تولى مناصب القضاء وتصديهم للفتيا رغم قلعة دهم (٢) ، كان مؤثرا الى الدرجة التى يصح معها القول بان (مالكا كان يحكم افريقية في هذه الفترة عن طريق " موطئه " وتلاميذه) (٣) . ولعل مثلا واحد نسوقه هنا يدل على ذلك ، فعندما توفى الفقيه عبد الله بن غانم عام ١٩٠ هـ أى في اثناء حكم الامير ابراهيم بن الأغلب ١٨٤ - ١٩٦ هـ . قام خال الامير ابراهيم يرثى القاضى ويكيه فأنتهره الأمير قائلاً (والله ما ولينا افريقية ، ولا أمنا حتى مات) (٤) ولنا أن نقدر مقدار تأثيرهم في مجريات الاحداث السياسية بعد ذلك ، سواء في عهد الأغلبية أو الفاطميين أو الزيريين ولا سيما اذا عرفنا أن المذهب

(١) أنظر حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ١٥ م .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم ، المرجع السابق ص ٥٨١ -

٦٠ .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ١٢ م .

(٤) عياض : المصدر ، السابق ، الجزء الاول ص ٣٢٥

المالكي في أيام ابن غانم لما تستقر أقدامه بعد ، ولم يظهر أثر سحنون وغيره آنذاك . ومن هنا جاز أن نوافق عبدالله العروى فيما ذهب اليه من رأى وهو أن كل فعل سياسى في المغرب ، انما هو من جوهر دينى (١) . ولما كان المذهب المالكي في اعتقادنا هو واجهة الجوهر الدينى في افريقية آنذاك ، فانه يمكن القول بأن كل فعل سياسى في المغرب الأدنى هو من جوهر مالكي وبناءً على هذا ، فإن المالكية أصبحت كما يقول حسين مؤنس (٢) : قومية مغربية في نظر المغاربة ، وتعتبر عنصراً من عناصر الكيان الشخصى لكل منهم . ومن هنا كان المذهب المالكي هو العصب الاول من أعصاب التاريخ المغربى الاسلامى (٣) ، كما يلاحظ حسين مؤنس (٤) - وليس ثمة ما يمنع من موافقته - أنه كان للمالكية دولة في افريقية يصح أن تكون الحقيقة والجديرة بالتاريخ ، لأنها هى التى وضعت أسس القومية المغربية أو الافريقية وتاريخها هو التاريخ الحقيقى لافريقية .

(١) تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ، ص ١٠٦

(٢) مقدمة الرياض ، ص ١٣ - ٢٣ م

(٣) حسين مؤنس : نفس المقدمة ، ص ٢٦ م

(٤) نفس المقدمة : ص ٢٤ م

انتشار المذهب الحنفي وغيره من المذاهب السنية في المغرب الأدنى :

يكاد يكون محل اتفاق بين معظم المؤرخين القدامى ومن جاراتهم من الباحثين المحدثين ، ممن تناول انتشار المذاهب الفقهية في افريقية والمغرب عموماً ، على أن المذهب الحنفي كان أسبق في الظهور هناك من المذهب المالكي (١) . وكما أجمع أولئك المؤرخين القدامى والمحدثين على أسبقية المذهب الحنفي في افريقية أجمعوا على أن السبب في ذلك هو أنه أصبح مذهب الدولة العباسية التي تمزجت به والتي كانت افريقية ولاية — ولاياتها المتعددة ، ثم قيام الدولة الأغلبية في افريقية التي تمزجت بالمذهب الحنفي من جهة أخرى . (٢)

وكيفما كان الأمر ، فإن الشيء الجلى ، هو أن المذهب الحنفي كان معروفاً بافريقية منذ العقد السابع من القرن الثانى

(١) أنظر مثلاً المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ - المالكي

المصدر السابق والجزء ، ص ١٨١ - أحمد تيمور : المرجع

السابق ، ص ١٩ (نقلاً عن المقرئى فى الخطط ، وابن

فرحون فى الدياج) - محمد أبوزهره : المرجع

السابق ، ص ٧٣ - السيد محمد أبوالعزم داود :

المرجع السابق ، ص ٥٧ (نقلاً عن السلاوى وغيره) -

عبدالعزىز المجدوب : الصراع المذهبى بافريقية

ص ٥٦ ، ٦٢ (نقلاً عن مخطوط المدارك رقم ٣)

أنظر السيد محمد أبوالعزم داود : نفس المرجع السابق (٢)

أعلاه ، ص ٥٧ (نقلاً عن السلاوى وغيره) و ص ٥٨ - ٦١ ، ٥٩

عبدالعزىز المجدوب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٦٣ -

سعدى أبوحبيب : المرجع السابق ، ص ٣٠

الهجرى ، عند ما عاد عبدالله بن فروخ من العراق بعــــد
مقابلته للامام أبى حنيفة النعمان وتلامذته ، ثم قدم بحمل كــــثــــير
من المسائل الفقهية الحنفية (١) . ولم يكن عبدالله بن فروخ وحده
من قابل امام المذهب الحنفى ، بل قام بذلك مواطنه عبدالله
بن المغيرة الذى تلقى الكثير من العلوم على يد الامام أبى حنيفة
ثم عاد بها الى بلاده ، (٢) ثم تتابع انتشار المذهب في العهد
الأغلبى ، حتى اذا قامت الدولة الفاطمية ، تضائل عدد أتباعه
الى أن انقطع وجوده تقريبا قبيل رحيل الفاطميين الى مصر . (٣)

وعلى أية حال ، فان ما يهمنى الإشارة اليه هنا هو أن
المذهب الحنفى في افريقية كانت له صولات وجولات عن طريق أتباعه
الذين سنعرض لهم سواءً الحديث عن الدراسات الفقهية
أو عند الحديث عن علاقته علماء المالكية بهم . غير أن ما نــــوــــد
ختم الحديث به حول هذه النقطة هو أن علماء الأحناف عرفوا
بجانب هذا الاسم الذى سُموا به بالكوفييين أو العراقيين
من جانب أبناء بلدهم من المغاربة ، وكذلك من قبل مؤرخى
التراجم والطبقات لعلماء افريقية فلقد جرت هذه التسمية
على السنة كل من ترجم لعلماء المغرب الأدنى من أمثال أبى
العرب التميمي ، ومحمد بن حارث الخشنى والمالكي ، والقاضى
عياض والدباغ ، وابن ناجى وغيرهم . ويعتقد عبدالعزيز المجذوب (٤)

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | أنظر بعد ، ص ٣٢٨ |
| (٢) | أنظر بعد ، ص ٣٢٩ |
| (٣) | عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٦٢ |
| (٤) | الصراع المذهبي بافريقيه ، ص ٦٣ . |
| | المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ |

أن سبب اطلاق لفظ الكوفيين أو العراقيين على علماء الأحناف
انما يعود الى سببين : الأول أن يكون نسبة الى مكان ظهور
المذهب الحنفي وشيوعه ، والثاني اشارة عنصرية ، لأن معظم
من تمذهب بالمذهب الحنفي في افريقيه كان من أصل عراقي
أو فارسي .

وفيما يتعلق بالمذهب الشافعي ، فان الأمر الذي يكاد
يكون محل اجماع أيضا ، هو أنه لم ينتشر الا انتشارا ضئيلا
جدا في المغرب الأدنى والمغرب عموما . (١) ولم نجد في الحقيقة
ما يعلل أسباب انصراف المغاربة عن المذهب الشافعي
تعليلًا منطقيًا اللهم (إلا ما رواه المقدسي (٢) من رواية ليست
هي كل المنطق ، بل هي جزء يسير منه ، وهو أن المغاربة رفضوا
التمذهب بالمذهب الشافعي تعصبا منهم لمالك لأنه ساءهم
أن يخرج الشافعي عن مذهب شيخه بمذهب جديد ، وهو
الذي أخذ العلم عنه ، وروى المقدسي (٣) كذلك فيما يمكن

(١) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٤٤ وما بعدها .
السيد محمد ابو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٦٩ -
٧١ (نقلا عن عدد من المؤرخين القدامى) - عبدالعزيز
المجدوب : المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٩٠ (نقلا
عن عدد من المؤرخين كذلك) آدم متز : الحضارة
الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر
النهضة في الاسلام : ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده
الجزء الاول ، ص ٣٩٢ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .

اعتباره سببا خفيا له شيء من الموضوعية ، أن المغاربة لم يكونوا يرون من المذاهب الفقهية ما يستحق الاهتمام سوى مذهبين فقط : المالكي والحنفي ، وعلى ذلك فليس سائغا ترك هذين المذهبين أو البحرين من العلم كما يذكر المقدسي ولا نشغال بالساقية وهو تعبير المقدسي كذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد عرفت فريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة بعضا ممن تمذهب بالمذهب الشافعي أو مال إليه وهذا ما تشير إليه كتب التراجم . (١) . وسنعرف بعد شيء عن هؤلاء عند حديثنا عن الدراسات الفقهية ان شاء الله .

أما عن دخول المذهب الشافعي الى المغرب وكيفيته ، فلم تذكر لنا المصادر والمراجع شيئا عن ذلك اللهم الا ما اشار اليه السيد محمد أبو العزم (٢) دود ، من أنه لا يستبعد أن يكون المذهب الشافعي قد دخل المغرب عن طريق رحلات الحجاج الذين وفدوا على المشرق فقابلوا الشافعي وأعجبوا به أو عن طريق بعض الممارين بافريقية من الاندلسيين القادمين من المشرق بعد أن قابلوا اتباع المذهب الشافعي هناك .

-
- (١) أنظر مثلا عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ -
الدباغ : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٨٣ -
١٨٤ - السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧٠ (نقلا عن الخشني في طبقات علماء افريقية) عبد العزيز المجدوب : المرجع السابق ، ص ٨٨-٨٩ (نقلا عن الخشني وعياض في تراجم اغلبية) .
(٢) الاثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقيا ، ص ٧١

الفصل الثاني

الدراسات الشرعية

(٢)

الفقه

الحديث

علوم القرآن

الفقه

- مدخل
- الفقه في عصر الولاة
- الفقه في عصر الاغالبه
- الفقه في عصر الفاطميين
- الفقه في عصر الزيريين

الفقه :

مدخل : علينا بآدى ذى بدء أن نشير بداهة الى أننا لسنا معنيين هنا بتتبع نشأة علم الفقه ، وما تشعب منه من علوم كعلم أصول الفقه والخلافات وغيرهما ، كما أننا لسنا معنيين بالطبع بتتبع الأدوار التى مر بها علم الفقه حتى تقعدت قواعده وتأصلت أطره مما هو معروف معلوم ، ولكن ما يعنينا حقيقة هو تتبع مسيرة الفقه في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة التى حددناها رحابا زمنيا للرسالة .

ذكرنا في غير مارة أن الدراسات الشرعية تعتبر المظهر الرئيسى للحياة العلمية في افريقية وقتذاك . وغنى عن القول بأن شمة أمور أدت الى أن تحتل الدراسات الشرعية المحل الأول في مسيرة الحياة العلمية اجمالا ، كما أن من نافلة القول الاشارة الى أننا قد أتينا على ذكر أسبابها من قبل في القسم الأول مملا حاجة الى إعادة ذكره ، أضف الى ذلك أن الدراسات الشرعية قد احتلت المكانة الأولى في تاريخ الثقافة الاسلامية بفضل العوامل الدينية والتاريخية والموضوعية التى سجلها المؤرخون والباحثون من خلال متابعتهم الحركة العلمية والثقافية الاسلامية على مرآدوار التاريخ الاسلامي .

واذا كانت الدراسات الشرعية تأتى أولا في مسيرة الحياة العلمية ، فإن الفقه والدراسات الفقهية تأتى فى مقدمة حقول الدراسات الشرعية بلا جدال ، ليس في افريقية فحسب بل في العالم الاسلامي كله . ولعل من تحصيل الحاصل الاشارة الى أن الأسباب الملحة التى حثمت على المسلمين ضرورة فهم طبيعة الدين الاسلامي في مجالي العبادات والمعاملات - وهما قوام الفقه - كانت السبب

الرئيسى في التعجيل بظهور علم الفقه (١) ، كما أن من الأمور المسلم بها أنه ارتبط بظهور علم الفقه علوم شرعية أخرى كعلم أصول الحديث والجرح والتعديل للتأكد من مصداقيه الأحاديث متونا واسنادا باعتبار أن الحديث هو المصدر التشريعى الاسلامى الثانى كما هو مفهوم معروف. (٢)

ومن المؤكد أن الدراسات الفقهية تقعيدا وتأصيلا لأطـرر إنما توافَق مع نشأة المذاهب الفقهية ، ولذلك فإن التأريخ للدراسات الفقهية في أى قطر اسلامى إنما هو تأريخ للمذهب الفقهى الذى يسير عليه ذلك القطر سواء بسواء . وفي افريقية (المغرب الأدنى) تجلى هذا الأمر بوضوح كبير ، فانتشار المذهب المالكى هناك ، تبعة بالضرورة تيارا فقهيا مالكيا . ومن هنا نستطيع أن نقول بأن مراحل انتشار المذهب المالكى التى كنا قد أشرنا اليها في مكانها ، إنما تعنى كذلك مراحل التوسع في الدراسات الفقهية المالكية هناك جوهرًا ومحتواً توسعا وانكماشاً .

وكما كان هناك ارتباط عضوى بين المذاهب الفقهية والدراسات الفقهية المبنية عليها ، اقتضى الامر بالضرورة كما يتراءى لنا أن تمر الدراسات الفقهية موضوعيا بكل أو جل الأطوار التى مرت بها المذاهب

(١) عن الفقه ونشأته ، أنظر محمد بن الحسن الحجوى التعاليسى

الفاسي : الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى ، ج ١ ،

ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٥ - ٣٢٥ - ٣٢١ - أحمد

أمين فجر الاسلام ، ص ٢٢٧ - ٢٤٨

(٢) عن هذا أنظر : الحجوى الفاسي : نفس المرجع أعلاه

ص ٣٠٧ ، ٣١٥ - أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٠٨ -

٢٢٤ - وأنظر كذلك : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٤٢ .

الفقهية - فيما عدا أولوية التأسيس المعقودة لصاحب المذهب -
اجتهادا مطلقا داخل اطار المذهب ، فمقيدا بعد فمحدودا ، ثم
تقليدا ومحاكاة ، ثم اقتصارا واختصارا وشرحا بعد لآى . (١)

ولقد تجلى هذا الأمر في افريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك
بوضوح كبير اذ شهدت الدراسات الفقهية كل تلك المراحل التاريخية
التي مربها علم الفقه من البداية الى التوسع والازدهار ، ثم الى
التراجع والانكماش حتى دخل الفقه مرحلة الاقتصار والاختصار
والحفاظ على كتب الشروحات وشروحات الشروحات التي واكبت الفقه
منذ القرن الخامس الهجرى وحتى وقت قريب (٢) . وكانت افريقية في
هذا لا تختلف البتة عما وصلت اليه الدراسات الفقهية في كـل
أقطار الدولة الاسلامية .

وأيا ما كان الأمر ، فالموقف يقتضى منا الآن بعد الانتهاء
من تلك الفذلكة التاريخية والموضوعية للفقه ، تتبع مسيرة الدراسات
الفقهية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .
وهنا تجب الاشارة الى أن التاريخ لنشأة الدراسات الفقهية وتوسعها
هناك يقتضى أن يمر عبر عصور زمنية أربع عاشها المغرب الأدنى آنذاك
كما هو معلوم ، وهى : عصر الولاة ، والعصر الأغلبى والعصر
الفاطمي والعصر الصنهاجى أو الزيرى ، ذلك لأن مسيرة الدراسات

(١) الحجوى الفاسى : الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى ،
ج ١ ، ص ٢٢١ - ٣٢٢ والجزء الثانى ، ٤٨ - ١٤١ ، ٥١ -
١٤٥ ، ١٦٣ .

(٢) الحجوى الفاسى : نفس المرجع اعلاه ، ج ٢ ، ص ١٦٣ -

٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٩٨ - ٣٠٤ .

الفقهية ، قد اختلفت كما ونوعا بتعاقب هذه العصور . وسنتبين بعد قليل أكثر كل من هذه العصور الأربع على الدراسات الفقهية .

يبقى أن نشير في ختام المدخل المنطقي للدراسات الفقهية هذا الى أننا لن نغفل في غمرة تأريخنا للفقه المالكي - باعتباره يشكل معظم المحتوى الفقهي آنذاك - تتبع مسيرة الدراسات الفقهية للمذاهب الفقهية الاخرى كالحنفي ، أو تلك التي للمذاهب الدينيية السياسية كالشيعة والخارجي الإباضي ماوسعنا الجهد إن شاء الله .

الفقه في عصر الولاة :

المتبع للفقه والدراسات الفقهية في افريقية خلال عصر الولاة
لن يفاجأ اذا ما رآها تبد وبداية متواضعة وخاصة في مطلع القرن
الثاني الهجرى وحتى منتصفه . ولسنا في حاجة الى القول بأن ذلك
يعد أمرا طبيعيا لعدة أسباب يأتي في مقدمتها : رَجْدَةُ علم الفقه
نفسه على مستوى الدولة الاسلامية ، ثم أن الفتح الاسلامي للمغرب
لَمَّا يمضى على انتهائه سوى وقت قصير لا يتعدى العقدين أو الثلاث ،
والسبب الرئيسي الثالث أن المغرب في النصف الأول من القرن الثاني
الهجرى خاصة شهد تلك الانتفاضات العارمة التي قام بها البربر
ضد ولاء الدولتين الأموية والعباسية . ولذلك كان من الطبيعي
أن تمضى مسيرة الفقه والدراسات الفقهية في شيء من البطء الشديد ،
ولم تسعفنا كتب التراجم والطبقات المختصة في مدّنا بأكثر من بضعة
اسماء لفقهاء محليين ، نذكر منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (١) ،

- (١) أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري ، من علماء
وفقهاء افريقية المبكرين ، ذُكر أنه أول مولود في الاسلام بعد
فتح افريقية ، وتلقى علومه على يد علماء بلده من التابعين ،
ثم رحل الى المشرق . فروى عن جماعة من التابعين ، وقد
روى عنه بعض من علماء المشرق كسفيان الثوري وغيره . وتولى
قضاء افريقية مرتين . مرة في عهد الدولة الاموية ، ومرة
في عهد الدولة العباسية ، وتوفى بالقيروان سنة ١٦١ هـ .
أنظر ترجمته عند المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٦ -
١٠٣ محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٦١ - ٦٢
ابن السراج : المصدر السابق ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢٤٢ -
٢٤٣ .

وأبو كريب جميل بن كريب المعافى (١) ، وعبد الله بن عبد الرحمن المعروف بيزيد بن الطفيل القاضى (٢) . هذا الى جانب عكرمة مولى بن عباس الذى ذكرنا في غير ما موضع أنه بربرى الأصل وكان يلقى دروسه في الفقه والحديث في مؤخره الجامع الأعظم بالقيروان .

على أن اهتمامات المغاربة بالفقه ومسائلهم لم تتوقف رغم تأثير الأسباب التى ألمعنا اليها آنفا ، أى في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى . فلقد كانوا يتعجلون استيضاح كثير من المسائل الفقهية وكانوا يتطلعون الى الحجاز والمدينة بالذات حيث كبار التابعين ، وتروى لنا بعض كتب التراجم أن احد من استوطنوا افريقية ، وهو خالد بن أبى عمران (٣) التجيبى (ت ١٢٥ أو ١٢٧ هـ) ، وهو من صفار التابعين ، ذهب الى المدينة المنورة حاملا مسائل فقهيه ، سمع الاجابة عليها من اثنين من كبار التابعيين وهما : سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق . (٤)

(١) أبو كريب جميل بن كريب المعافى ، ويقال أن اسمه عبد الرحمن من فقهاء وعلماء المغرب الادنى المبكرين ، وقد سمع من عدد من أعضاء البعثة العلمية التى أرسلها عمر بن عبد العزيز وروى عنه عدد من العلماء كذلك . وتولى قضاء افريقية في عهد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيده بن عقبة بن نافع ، توفى مقتولا في عام ١٣٩ هـ ، وقيل عام ١٤٠ هـ في لقاء ابن حبيب مع الخوارج الصفرية .
أنظر المالكي ، نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٧ - ١١٠ مع الحواشي .

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن ويعرف بيزيد بن الطفيل التجيبى ، روى عن عدد من التابعين في بلده ، وكان عالما مشهورا ، وتولى القضاء في افريقية ، ولم يزل قاضيا حتى عزله الأمير بيزيد بن حاتم المهلبى .

أنظر المالكي : ج نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٠-١١١ ترجمته موجوده عند أبى العرب التميمي : المصدر السابق ، ٢٤٥ - ٢٤٧

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ ، في سياق ترجمته لخالد بن أبى عمران التجيبى ،
(٤) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ ، في سياق ترجمته لخالد بن أبى

ومن المؤكد أنه في ظل عدم الإشارة الى وجود مؤلفات
فقهية لفقهاء هذا الطور من عصر الولاة أن الفقه كان محفوظا فـي
الصدور ولم يدخل مرحلة التأليف والتدوين بعد . وهذا في الواقع شيء
طبيعي اذا ما عرفنا أن علم الفقه نفسه في الدولة الإسلامية
خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري (كان محفوظا فـي
الصدور ومضبوطا بالحفظ لا محفوظا مضبوطا بالتدوين) ، كما يذكر
محمد بن الحسن الحجوى التعالبي الفاسي . (١)

غير أن الفقه خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري
عرف خطوات موفقه ودخل خلال هذا الطور مرحلة التدوين كما سنذكر
بعد قليل . ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة الى أن هناك عدة
عوامل أدت الى هذا التقدم في مجال الدراسات الفقهية ، كوضوح
أثر معظم عوامل ازدهار الحياة العلمية التي أشرنا اليها من قبل
وكبروز أثر الرحلات العلمية بصفة خاصة فيها . وفوق هذا وذاك
دخول المذهب المالكي افريقيه وأثره في الدراسات الفقهية كما
سبق وأن ذكرنا .

وبالإضافة الى ذلك كله ، كانت أحوال بلاد المغرب السياسية
وما كان يتمخض عنها من فتن متلاحقة تدفع بعلمائه الى تلصّس السبل
لمواجهة ذلك الطوفان من البدع والضلالات ، بالتأسي بمقاصد
الشريعة السمحة وحدها (٢) في جانبي العبادات والمعاملات

-
- (١) تاريخ الفكر السامي في الفقه الاسلامي ، ج ١ ، ص ٣٢١
(٢) أنظر عن تلك الاحداث السياسية والفتن والبدع والضلالات
وموقف علماء المالكية منها : السيد محمد أبو العزم داود :
الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقيا حتى قيام
دولة المرابطين ص ٤٢ - ٥١ ، ٨٥ - ١٠٩ .

— وهما قوام الفقه كما هو معروف —.

ولذلك كله قفزت الدراسات الفقهية في افريقية آنذاك قفزات طيبة، وبدأ يظهر على الساحة فقهاء كبار (كانوا طلائع لجمهورية من العلماء أتوا بعدهم) (١)، وتروى لنا المصادر تأكيداً لما ذهبنا اليه أن عبد الله بن فروخ الفارسي (٢) (ت: ١٧٥ هـ) وهو أحد أبرز فقهاء ومحدثي افريقية المبكرين، دفعته الفتن وتفشى البدع والضلالات في افريقية آنذاك الى مكاتبه الامام مالك بن أنس في كثير من المسائل الفقهية والعقائدية فأجابه الامام مالك عليها باجابات واضحة (٣). ولقد بلغ من مكانة عبد الله بن فروخ الفقيه أنه كان يسأل في المسائل فيجيب فيها بالأقوال المختلفة. (٤)

وعرف هذا العصر شخصية افريقية فقهية كان لها دورها المؤثر في دخول المذهب المالكي الى افريقية، وكان لها دورها المؤثر كذلك في تقدم الدراسات الفقهية. هذه الشخصية هي شخصية علي بن زياد العبسي التونسي (٥) (ت: ١٨٣ هـ) الذي كنا قد أشرنا الى دوره في انتشار المذهب المالكي من قبل. وأما دوره في تقدم الدراسات الفقهية في افريقية فقد كان لا يقل أهمية عن دوره في إدخال المذهب المالكي. فعندما

- (١) رابح بونار: المرجع السابق، ص ٦٣
(٢) ترجمته وردت في أكثر من مصدر ومرجع، على أن أهم الترجمات له أوردها: أبو العرب التميمي: المصدر السابق، ص ٣٤ - ٣٥ - المالكي: المصدر السابق والجزء ص ١١٣ - ١٢٢ - عياض المصدر السابق والجزء ص ٣٤٠ - ٣٤٧ - الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٤٠.
(٣) المالكي: نفس المصدر والجزء السابق أعلاه ص ١١٣ - ١١٤ عياض: المصدر السابق أعلاه والجزء، ص ٣٤٠ - ٣٤٤ - ٣٤٥ عياض: نفسه، ص ٣٤٠
(٤) وردت ترجمته في أكثر من مصدر ومرجع وأهم الترجمات له أوردها أبو العرب التميمي: نفس المصدر السابق ص ٢٥١ - ٢٥٣ - المالكي: نفسه ص ١٥٨ - ١٦٠ - الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص ١٢٩ - عياض: نفسه، ص ٣٢٦ - ٣٢٩.

قدم على بن زياد بموطأ الإمام مالك وجامع (١) سفيان الثوري كما ذكرنا من قبل ، أحدث ذلك تيارا فقهيًا زاحرا أدى إلى تكاثر التأليف الفقهي المغربي . ولقد كان من جراء تأثير الإفريقيين بموطأ الإمام مالك أن ألف على بن زياد نفسه كتابا فقهيًا عرف باسم كتاب خير من زنته ، وهذا الكتاب تضمن الحديث عن ثلاث قضايا فقهية هي : البيوع والسنكاح والطلاق . (٢)

وحذا حذو على بن زياد في تصنيف المؤلفات الفقهية ،

(١) كان لسفيان الثوري (ت: ١٦١ هـ) كتابان في الفقه يطلق علي كل منهما الجامع فهناك الجامع أو جامع سفيان الثوري الكبير ، وقد قدم به إلى إفريقية على بن زياد التونسي كما ذكرنا في المتن ، ثم هناك جامع سفيان الصغير ، وقد جاء به إلى إفريقية أحد علماء إفريقية المبكرين كذلك ، وهو أبو خارجة عنبسه بن خارجة الفافقي (أنظر ترجمته عند : المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٣-١٦٤ . ولقد أفاد المغاربة من هذين الكتابين معا .

أنظر عن أولية قدوم على بن زياد بجامع سفيان الكبير ، المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٨-١٦٠ - عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٢٧ وعن أولية ابن خارجة في جلب جامع سفيان الصغير ، أنظر المالكي : نفسه ص ١٦٣ عياض : نفسه : ص ٢٣١ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٢٦-٣٢٧ الشيرازي : المصدر السابق ص ١٢٩ - وعنده أن اسم الكتاب خير من دينه ، ولا شك أن هذا خطأ والصواب هو ما أورده عن غيره في المتن .

فقيه افريقى آخر ، هو البهلول بن راشد الرعينى (١) (ت : ١٨٣ هـ) الذى ألف ديوانا في الفقه ، كان محل التقدير والاعجاب . (٢)

وفي خلال الفترة التى كان الإمام مالك بن أنس حيا فيها ما انفك علماء وفقهاء افريقية عن مراسلته وسؤاله عما ينزل بساحتهم من القضايا . فعبد الله بن غانم الرعينى (٣) (ت : ١٩٠ هـ) الذى عاصر عصر الولاة ويضع سنوات من عصر الأغالبة ، كان وهو قاض كثير ما يرسل مالكا بالأسئلة الفقهية ، وكان يتلقى منه الرد مع مبعوثيه . (٤)

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الحنفية في افريقية في عصر الولاة ، فإنهما كانا أقل نشاطا من الدراسات الفقهية المالكية . وكان ذلك يعد شيئا طبيعيا ، لجِدَّةِ علم الفقه نفسه من جهة ، ولاتجاه المغاربة الى التذهب بالمذهب المالكي من جهة أخرى

-
- (١) ترجمة البهلول بن راشدة موجودة عند أبى العرب التميمي :
المصدر السابق ، ص ٥٢ - ٦٢ المالكي : المصدر السابق ، ص ١٣٢ - ١٥١ - عياض : المصدر السابق ص ٣٣ - ٣٣٩ - محمد بن محمد مخلوف
المصدر السابق ، ص ٦٠ - ٦٢ - الزركلى : المرجع السابق ،
ج ٢ ، ص ٧٧ .
- (٢) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق ، ص ٦١ - الزركلى
نفس المرجع والجزء والصفحة اعلاه .
- (٣) وردت لعبد الله بن غانم الرعينى ترجمة مستفيضة عند كل من :
المالكي : نفسه ، ص ١٤٣ - ١٥٥ - عياض : المدارك ج ١ ،
ص ٣١٦ - ٣٢٥ - تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي
عياض تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨ - ٢١ -
الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨١ - ٣١٣ (مطبوعا
جدا) .
- (٤) عياض : المدارك ج ١ ، ص ٣١٨

وأيا ما كان الأمر ، فإن غاية مانعرفه عن نشاط الدراسات الفقهية الحنفية في افريقية ، هو أن عبدالله بن فروخ الفارسي الذي عرفنا دوره في نشر المذهب المالكي والدراسات الفقهية المالكية ، كان له دور كذلك في نشر الدراسات الفقهية الحنفية ، رغم أنَّهُ لم يكن يتمذهب بالمذهب الحنفي ، فهو الى جانب أنه (اشتهر بصحبة مالك وبه تفقه) (١) ، الا أنه (كان يميل الى النظر والاستدلال فربما مال الى قول أهل العراق فيما يتبين له من الصواب) (٢) . ويروى أنه سمع من الامام أبي حنيفة النعمان مسائل فقهيه مدونه ، بلغ تعدادها نحو من عشرة آلاف مسألة (٣).

ولقد اسعفتنا المصادر لحسن الحظ كذلك بمعلومة مفيدة أخرى لفقيه مالكي هو الآخر ، كان قد سمع خلال رحلته الى المشرق من تلامذة الامام ابي حنيفة النعمان . هذا العالم الفقيه هو عبدالله بن غانم الرعيني الذي أشرنا الى دوره في نشر الدراسات الفقهية المالكية قبل قليل . فيروى أنه كان يتصدى لتدريس كتب أبي حنيفة على طلبته كل يوم جمعه (٤) ، هذا رغم أنه كان مالكيًا متعصبًا

-
- (١) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - عياض : المدارك : ج ١ ، ص ٣٤٠ .
(٢) المالكي : نفسه ، ص ١١٣ .
(٣) المالكي : نفسه ، ص ١١٦ - عياض : نفسه ، ص ٣٤٤ .
(٤) عياض : نفسه ، ص ٣١٧ .

للامام مالك (١) ، وكان أثيرا عنده (٢) . ومن فقهاء الاحناف المبكرين في هذا العصر عالم حنفى آهر وهو عبد الله بن المغيرة ولا يعرف للأسف تاريخ ولادته ولا وفاته ، وقد تتلمذ على يد الامام أبى حنيفة نفسه . وروى أن له تأليفا قيما في الفقه . (٣)

أما الفقه والدراسات الفقهية الاباضية في افريقية في عصر الولاة سواء في اقليم الجريد أو في جبل نفوسة بطرابلس ، فقد كان شأنه شأن الدراسات الفقهية الحنفية ضئيلة الاشارة والتنويه ولعل غاية ما يمكن الاشارة اليه في هذا الصدد أن النشاط الفقهي الاباضى في اقليم الجريد ، لم يكن قد انفصل بعد عن الجانب التنظيري لمعتقد المذهب الاباضى ، رغم أنه كانت هناك بدايات متواضعة منذ القرن الثانى الهجرى للنشاط الفقهي التأليفي المحض لم يتعد البحث عن اجابات لبعض المسائل الحياتيه . (٤)

-
- (١) مما يدل على ذلك ما رواه المالكي : المصدر السابق ، ص ١٤٥ عن سحنون قال (قرأ علينا ابن غانم كتابا من الموطأ ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن أعجبك هذا من قول مالك ؟ فقال ابن غانم وألقى الكتاب من يده ، وقال : أ وليس وصمة هلى دينى وعقلى أن ارد على مالك قولة قالها ؟ والله لقد أدركت العباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه سفيلان ودون سفيلان ، فما رأيت بعينى أروع من مالك) .
- (٢) حتى أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته عند ما جاء الى المدينة طالبا تلقى العلم منه ، وعند ما تولى ابن غانم القضاء سر بذلك مالك كثيرا .
- (٣) أنظر عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٧-٣١٨ عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبى بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، ص ٦٢ .
- (٤) صالح باجيه : الاباضية بالجريد ، ص ٥٣-٥٤ .

بيد أن الدراسات الفقهية الاباضية في طرابلس في عصر
الولاة ، كانت أنشط حالا من مثيلتها في اقليم الجريد ، وذلك
منذ أن أستقر المذهب الإباضي في جبل نفوسة في منتصف القرن
الثاني الهجري تقريبا . فلقد شهدت الدراسات الفقهية آنذاك
ظهور عدد من الفقهاء الاباضية ، منهم : عمر بن يمكن (١) واسماعيل
ابن حوار أضرار الغوامسي ، الذي ارتحل الى البصرة ، حيث
قابل عددا من شيوخ المذهب الاباضي . (٢) . ومنهم كذلك محمد
بن عبد الحميد بن مغطير النفوسي الجناوي ، وهو ممن ارتحل
كذلك الى البصرة ، فقابل عددا من شيوخ المذهب (٣) . ومنهم
كذلك عاصم (٤) السدراتي وهو من قبيلة سدراته التي تسكن
في جبال أوراس بالجزائر ، الا أنه قدم طرابلس فاستقر بالجبل
يلقى علومه ومعارفه ، ثم رحل الى البصرة ، فقابل شيوخ المذهب
هناك ، ثم عاد ينشر علمه في جبل نفوسة حتى توفي مسموما في
القيروان إبان حصار الإباضية قبل ولاية محمد بن الأشعث.

-
- (١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح
الاسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ١٣٣ .
(٢) أحمد مختار عمر : نفس المرجع اعلاه والصفحة .
(٣) أحمد مختار عمر : نفسه
(٤) علي يحيى معمر : الاباضية في الجزائر - الاباضية
في موكب التاريخ : ص ١٢٩-١٣٣ .

الفقه في عصر الأغلبية (١٨٤-٢٩٦هـ) :

كان انتصاب الدولة الاغلبية في افريقية (المغرب الأدنى) مؤذنا بتحول سياسى واجتماعى وعلمى وثقافى ، انعكست آثارة الايجابىة على المجتمع الافريقى آنذاك . واذا كان ليس من مهمتنا التأريخ للدولة الأغلبية سياسيا وحضاريا - إلاَّ بالقدر المرتبط بالحياة العلمية الذى يعنينا - فإن مجمل ما يمكن قوله هو أن قيام الدولة الأغلبية ومن ثم استقرارها خلال تلك الفترة الزمنية ، اضافة الى مجهودات أمرائها في العناية بالعلم والعلماء ، قد أوجد تيارا ثقافيا قويا ، وأوجد نهضة علمية مزدهرة شملت اكثر حقول الحياة العلمية ، إلاَّ أن الأثر العلمى البارز الذى طغى على غيره ففى عهدها هو ازدهار الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص ، الفقه الذى نشط نشاطا مذهلا نوضحه بعد قليل .

واذا مضينا نتتبع الأسباب التى أدت الى أن يكون نشاط العلوم الفقهية خاصة والدراسات الشرعية عامة في عهد الأغلبية هو الذى كان يطغى على غيره من المعارف ، فاننا نراه يندرج فى الآتى :

- ١- اتمام تعريب افريقية وتأكيد اسلام أهلها في عهدهم . (١)

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغلبية ، ص ٤٤ .

- ٢- تزامن دخول المذهب المالكي الى افريقية مع قيام الدولة
الاجلبية تقريبا . ونقول تقريبا لأن دخول وانتشار
المذهب المالكي قد تم قبيل قيام الدولة الاجلبية، الا أن
عصرهم شهد التمكين المطلق للمذهب ، ولا بد أن نعيد
الى الأذهان القول بأن انتشار المذهب الفقهي المالكي،
إنما هو انتشار وتوسع للفقه الذي اقترن به .
- ٣- نجاح الأغلبية في تكريس الوحدة والتجانس بين طبقات
المجتمع . (١)
- ٤- جهودهم الحثيثة في تشجيع الثقافة والعلم عن طريق
الاهتمام بوسائل الثقافة من مساجد وأربطة وكتاتيب
ومكتبات عامة وخاصة (٢) ، هذا من جهة ، وجهودهم
في تشجيع العلماء من جهة أخرى .
- ٥- إن حكم الأغلبية لافريقية كما يقول رابح يونا - وهو
على حق في ذلك - قد اقترن في نفوس المغاربة
بالشعور بالاستقلال وسريان روح الوطنيه في صفوفهم .
- ٦- إن ازدهار الحياة العلمية ، والفقه على رأسها قد ارتبط
من غير شك بالمناخ السياسي والحضاري الذي تحقق
في افريقية على يد أمراء الأغلبية .
- ٧- إن شخصية أسد بن الفرات ، وسحنون بن سعيد كانتا
عاملا رئيسيا في التطور الفقهي الذي عرفته افريقية
في عهد الأغلبية .

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ،

ج ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧

(٢) أنظر قبل ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٤٣ - ٢٤٨

(٣) المغرب العربي ، تاريخه وثقافته ، ص ٦٨

وكيفما كان الأمر ، فإن الدراسات الفقهية التي خطت خطوات طيبة في عصر الولاة ، وخاصة مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، كانت الأساس المتين الذي اعتمدت عليه الدراسات الفقهية في العصر الأغلبى و ما تلاه من عصور . ولقد وضع أولئك الفقهاء الرواد الذين كانوا شيوخا لمن جاء بعدهم النواة التي تمخضت عنها فيما بعد النهضة الفقهية التي صبغت الدراسات الشرعية بصيغتها . وفى الحقيقة لقد قبض الله للدراسات الفقهية في المغرب الأدنى أن يكتب لها النجاح والتوسع والتقدم بعد ذلك الجيل من الشيوخ على يد فقيهين كبيرين هما ، أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد .

أما أسد بن الفرات بن سنان ^(١) (ت : ٢١٣ هـ) (٢) الذى ذكرنا

-
- (١) ترجمة أسد بن الفرات موجوده عند : أبى العرب التميمى المصدر السابق ، ص ٨١ - ٨٣ - المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٢ - ١٨٩ - عياض : المصدر السابق والجزء ص ٤٦٥ - ٤٨٠ وغير ذلك .
- (٢) هذا التاريخ هو الأرجح والمشهور ، أنظر ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٨ . وهناك بعض من المؤرخين القدامى كأبى العرب التميمى : نفس المصدر السابق ، ص ٨٣ يقول إن وفاته كانت عام ٢١٤ ، بينما يقول عياض : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ص ٨٠ ان وفاته كانت في سنة ٢١٣ هـ أو ٢١٤ أو ٢١٧ هـ .

من قبل أنه أحد فقهاء وعلماء افريقية المشهورين آنذاك . فقد تلقى علومه على يد كبار العلماء في افريقية ، ومنهم على بن زياد التونسي ، ثم ارتحل الى المشرق طلبا للمزيد من العلم فقابل هناك في المدينة الامام مالك بن أنس ، ثم ذهب الى العراق ، فسمع من القاضي ابي يوسف (١) (ت : ١٨٢ هـ) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩ هـ) تلميذ الامام ابي حنيفة النعمان ، ثم رحل الى مصر حاملا مسائل فقهية مجردة على المذهب الحنفي (٢) وأتصل هناك بالامام ابي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي (٣) (ت : ١٩١ هـ) ، الفقيه المصري المشهور الذي يعتبر من أشهر مريدي الامام مالك على الاطلاق فعرض عليه تلك المسائل وتلقى عنه أحكامها على مذهب الامام مالك بن أنس ، ثم قدم بها بلسانه القيروان ، وهي التي عرفت بالأسدية نسبة اليه - وهي أصل المدونة كما سنعرف بعد قليل .

(١) عن ترجمته واتجاهاته الفقهية ، انظر احمد امين : ضحي الاسلام مج ١ ص ١٩٨ - ٢٠٣

(٢) الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، مج ١ ص ٩٤ - ٩٥
(٣) ترجمة عبد الرحمن بن القاسم العتقي موجوده عند : عياض المر السابغ مج ١ ص ٤٣٣-٤٤٦ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٤٦-١٤٧ - الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق اعلاه ، ص ٤٣٩-٤٤٢ كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، الجزء الثالث ، ص ٢٨٠-٢٨١ ، وغير ذلك .

والأسدية هي التي هيأت لأسد بن الفرات في بلاده رئاسة
في العلم كما يذكر القاضي عياض. (١) وهي تتكون من ستين كتاباً
تحتوي ما مجموعه : ستة وثلاثين ألف مسألة فقهية. (٢)

غير أن سحنون بن سعيد التنوفي الذي أشرنا إلى دوره
العظيم في نشر المذهب المالكي مراراً ، والذي كان معاصراً لأسد
بن الفرات ، وإن كان أصغر منه سناً ، حمل الأسدية خفيه
إلى ابن القاسم بمصر ، فعرضها عليه . فرأى ابن القاسم أن فيها
مسائل وأموراً تحتاج إلى إعادة تفسير وتهذيب واستدراك ، نظراً
لأنه كان قد أملاها على أسد من حفظه ، فراجعها وطلب من أسد
عبر سحنون أن يعارض كتبه بكتب سحنون التي حملها . غير أن أسداً
رفض ذلك ، مما حدا بابن القاسم إلى أن يستأمنه ويدعو إليه
أن يجانب التوفيق والبركة الأسدية. (٣)

هذه الكتب التي عاد بها سحنون منقحة ومزيدة ، هي التي
عرفت في الفقه المالكي المغربي بالمدونة أو المدونة الكبرى (٤) . وقبل
أن نشر أبعاد هذا العمل نشير إلى قول الشيرازي في كتاب :
طبقات الفقهاء (٥) ، وهو يفسر ما استقر عليه أمر الدراسات الفقهية

-
- (١) المدارك : ج ١ ، ص ٤٧٠ .
(٢) السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضاري
للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ص ٣٩٥ .
(٣) أنظر المالكي : المصدر السابق والجزم ، ص ١٧٩ - ١٨١ -
الشيرازي : المصدر السابق ، ص ١٣٢ ، عياض : المصدر
السابق ، ج ١ ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ .
(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .
(٥) ص ١٣٢ .

في افريقية عموماً . يقول : (واقصر الناس على التفقه في كتب سحنون ، ونظر فيها سحنون نظراً آخر ، فهدبها وبوبها ودونها ، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره ، وذيل أبوابها بالحديث والآثار ، الا كتباً منها مفرقة بقيت على أصل اختلاطها في السماع ، فهذه كتب سحنون : المدونة والمختلطة ، وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة وایها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم) .

ولقد ظهر أثر ذلك التحول الفقهي بعد ذلك واضحاً في شدة إعجاب واعتماد المغاربة لافى المغرب الأدنى وحده بل وفي بقية المغرب والاندلس على المدونة وحدها . فكان المدونة قد وطأت الطريق لمدرسة فقهية افريقية ، بل انها بالفعل كذلك ، لأن سحنونا بعمله ذلك أسس مدرسة فقهية افريقية مالكية لها خصوصيتها التي تتواءم مع التركيبة البشرية والنفسية والثقافية للمغاربة .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا أن نتوسع في دراسة الفقه توسع المختص في الدراسات الشرعية ، غير أن أهمية ذلك التحول الفقهي على الدراسات الفقهية قد تجيز لنا ان نتجاوز مهمتنا وهي التأريخ للفقه الى التحدث عنه كمنحى شرعى بالقدر الذى يوضح الموقف فقط ، أى يوضح الأسباب الحقيقية التي دفعت بالمغاربة الى إهمال أسدية أسد بن الفرات والاهتمام بمدونة سحنون بن سعيد والاعتماد عليها .

والواقع أننا في هذا الصدد نميل الى موافقة بعض الباحثين الذين تناولوا هذه القضية ، لما يغلب عليها من تحليل

دقيق للأسباب تلك . يرى عبد العزيز المجذوب في كتابه الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية (١) المذكور سابقا (أن أسد بن الفرات يأخذه بالمنهج العراقي (أى الحنفى) في تفصيل المسائل وتأصيلها ، ثم تطبيق أحكام المذهب المالكي عليها قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين المؤصل المرتب) . والمجذوب في رأيه هذا يتفق تماما مع محمد بن الفاضل بن عاشور في كتابه : اعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي .

ويذهب عبد العزيز المجذوب الى موافقة محمد بن الفاضل بن عاشور كذلك في أن طريقة أسد هذه قد اعترها النقص من وجهين (الأول : هو أنه لما بنى ادراج مذهب على منهج مذهب آخر ، فقد وقع فيه من الاختلاط في الأقوال ، والاختلال في عزوها أمور جاءت قاده فيما يُطلب في كتب الاحكام من الصحة المطلقة) . (الامر الثانى : هو أن فقهاء المالكية قد اعتادوا بناء الفقه على الأحاديث والآثار كما هي طريقة مالك في الموطأ ، وقد سلك أسد في كتابه طريقة فقه خالص مبنى على صريح الاجتهاد) . (٢)

ويؤكد المجذوب ، أن سحنونا أدرك بذكائه ما في الأسديه من نقص ، وأنه أدرك كذلك ما تجره طريقه أسد على الآثار السنية من الاندثار نتيجة لما تذهب اليه من الاحتمالات والفروض والتخمينات كما أن المجذوب يؤكد أن سحنونا شعر بالخطر على أهل الحديث

(١) ص ٥٠ .

(٢) الصراع المذهبي بافريقية ، ص ٥٠ .

من أن (يغزوههم أهل الرأي العراقيون . فرجع بكتاب : الأسدية الى أصله ، مراجعاً فيه ابن القاسم ، مصححاً وإياه ما اختل فيه من أحكام ، بانياً المسائل على مُسند الأخبار والآثار النبوية) (١) وبمعنى آخر أن سحنونا ردَّ (الفقه المالكي الى طريقته المدنيّة الأولى مع الحفاظ على ما أفاده أسد من لقاح جديد بطريقة العراق ، وأرجع فقه مالك الى موطنه ، وأورد من مسائله شيئاً صحيحاً مضبوطاً لا يوصم بوهم ولا اشتباه) (٢)

ومن المهم في هذه القضية أن نشير كذلك الى أن عبدالعزيز المجذوب يؤكّد - ولعلنا لا نخالفه بناءً على ما اتضح من متابعة ذلك الموضوع - أن ما حدث بين أسد وسحنون لم يكن صراعاً مذهبياً ، ولكنه (صراع منهجي فقط ، واختلاف في طريقة الاستدلال وأسلوب التدوين . فالقضية لا تخرج عن مجرد تباين بين منهجين أو طريقتين : تحرري في الأسدية ، مالكي محافظ في المدونة) . (٣)

وفي هذا الصدد نشير الى أننا لا نذهب الى ما ذهب اليه السيد محمد أبو العزم داود في كتابه المذكور سابقاً في التفريق بين أسدية أسد بن الفرات ومدونة سحنون ، فهو يرى أن المدونة (تأثرت بكتب العراقيين في تفريع المسائل وتوليدها وافتراضها مما كان له أكبر فائدة في تفتيق الفقه المالكي وتوسيعه وجعله أكثر مرونة ، كما قرّب بين الفقه المدني والعراقي . .) (٤) ذلك لأن المغاربة عند ما

(١) عبدالعزيز المجذوب : ص ٥١ .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ص ٥١ (نقلاً عن محمد الفاضل بن عاشور)

(٣) الصراع المذهبي بأفريقية ، ص ٥٦ - ٥٧

(٤) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا ، ص ٣٩٩ .

رفضوا الأسدية ، فقد رفضوها لما فيها من اتجاهات تغلب جانب الرأى الذى يراه المغاربة خطئاً على الآثار والسنة ومن هنا قالوا مبتكرين : اجثتنا يا خالد وأظن وأحسب ، وتركت الآثار وما عليه السلف كما أشار مؤرخو التراجم والطبقات ^(١) وكما أشار السيد محمد أبو العزم نفسه ^(٢) ، ثم أن السيد محمد أبو العزم أشار الى أن الاسدية اختلفت عن المدونة ^(٣) وبالنسبة لاختلافها أن يكون في اتجاه كل من الأسدية والمدونة لفقهى ومن هنا نستبعد أن تكون المدونة قد تأثرت بكتب العراقيين التى تمثل الأسدية اتجاهاتها والا فما هو داعي سحنون بن سعيد وابن القاسم الى اجراء ذلك التغيير المنهجى في الأسدية ؟

وعلى أية حال ، فلم تزد الايام المغاربة الابعدا عن الأسدية فلم يعد يؤخذ بها بعد أن عاد سحنون بالمدونة من مصر . ولم يكن لها حظ من الانتشار الا فى مصر عندما أخضعها بعض المصريين للدراسة والاختصار. ^(٤)

أما المدونة ، فقد أصبحت منذ أن عاد بها سحنون الى افريقية ينظر اليها نظرة تقدير وتبجيل عميقين ، فقد أصبح المعول عليها في كل الدراسات الفقهية ، فضلا عن الاخذ باتجاهاتها

-
- (١) أنظر مثلاً المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٠ - عياض : المدارك : ج ١ ، ص ٤٧٠ ، نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٩٥ .
 (٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٩٧ .
 (٣) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ - ابن السراج : المرجع السابق ، الجزء الاول ، القسم الثالث ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

في التطبيق الواقعي للحياة كما نظن . ولقد أكد صاحبها نفسه منذ البدء على ما تمثله المدونة من مكانة ، فكان يقول لأتباعه (. . عليكم بالمدونة ، فإنها كلام رجل صالح وروايته ، وكان يقول : إنمــــا المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزى في الصلاة عن غيرها ولا يجزى غيرها عنها ، أفرغ الرجال فيها عقولهم وشرحوها وبينوها ، فما اعتكف أحد على المدونة ودارسها الا عرف ذلك في ورعه وزهده ، وما عداها أحد الى غيرها الا عرّف ذلك فيه) . (١)

ويرى ابن رشد - وهو أحد أشهر رجال الأندلس - في كتابه : المقدمات والممهّدات فيما ينقله عنه السيد محمد أبو العزم (٢) داود ، أن المدونة ، حوت أصل علم المالكية ، وتأتى في مقدمة الدواوين الفقهية بالمالكية على الاطلاق بعد الموطأ ، (وأنه ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله ، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة ، والمدونة هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو ، وككتاب اقليدس عند أهل الحساب . . الخ) . ولذلك كله ، فمن الطبيعي أن تصح للمدونة تلك المكانة العظيمة لا في المغرب الأدنى ، بل وفي المغرب كله والاندلس حسبما أشرنا من قبل ، ولم يكن يدانيها أى مؤلف فقهي مالكي على الاطلاق حاشا الموطأ . ومن هنا كانت كذلك محط رغبات الفقهاء في المغرب والأندلس اختصارا وشرحا وتعليقا .

(١) عياض و المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

والواقع أن المجال يضيق بنا لو تتبعنا اختصاراتها وشروحاتها وتعليقاتها منذ وفاة سحنون وحتى عصور متأخرة من الزمن ، فقد تناولها العشرات من المغاربة والاندلسيين بالشرح والاختصار والتعليق (١) . وسنشير خلال حديثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الأغلبى والعصر الفاطمي والعصر الزيرى الى من قام بذلك من أبناء المغرب الأدنى إن شاء الله .

وبعد فلن نتجنى على الحقيقة اذا ما قلنا إن سحنون سعيد التنوخى (٢) (١٦٠-٢٤٠هـ) يعتبر أهم شخصية فقهية مالكية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فالى جانب جهوده في نشر المذهب المالكى التى عرفنا أبعادها ، فإن جهوده في نشر الدراسات الفقهية - وقد رأينا أعظمها

-
- (١) أنظر كارل بروكلمان تاريخ الادب العربى الجزء الثالث، ص ٢٨٠ - ٢٨٤) لمعرفة من قام باختصار وشرح والتعليق على المدونه من المغاربة والاندلسيين .
- (٢) ترجم لسحنون كل مؤرخى التراجم والطبقات المغربية تقريبا ثم غيرهم ممن ترجم لعلماء المالكية ، وكلهم خصّه بترجمة واسعة . ومن أولئك : أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١٠١-١٠٤ - الشيرازى ، المصدر السابق ص ١٣٢-١٣٣ - المالكى : المصدر السابق والجزء ص ٢٤٩ - ٢٩٠ (٥١ صفحہ) - عياض : المصدر السابق ، ص ٥٨٥ - ٦٢٤ الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧ - ١٠٤ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٦٠-١٦٥ - ابن السراج : المصدر السابق ، ج ١ ، القسم الاول ، ص ٧٦٩-٨٠٧) وهى ترجمة طويلة جدا للغاية) . واختصه بكتاب مستقل من القدامى : أبو العرب التميمي أحد تلامذته . ومن المحدثين اختصه : سعدى أبو حبيب بكتاب عنوانه : سحنون . مشكاة نور وعلم وحق .

وأهمها - جهود عظيمة الأثر بعيدة الغور . وقد أحدث وجوده في افريقية وقتذاك نهضة فقهية شاملة ، كما أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم ومعظم من تناول التأريخ للدراسات الشرعية الافريقية على أنه أفقه رجالات المغرب الأدنى اطلاقاً ، وهو حقيق بذلك كما أنه حقيق بما وسمه به أحد الباحثين المحدثين (٢) من أنَّهُ (عالم المغرب وأستاذة دون منازع) ومن أنه يُمثل (قمة الدولة المالكية الافريقية ، وعلم القومية الافريقية كذلك) .

والى جانب أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ، عرف العصر الاغلبى كذلك فقهاء أجلاء كان لهم دور مرموق في تقدم الدراسات الفقهية ويأتى على رأس أولئك الفقهاء : محمد بن سحنون بن سعيد (٣) التنوخى (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ) ابن الفقيه سحنون نفسه ، فلقد كان فقيها مرموقا بجانب كونه محدثا حربيا ، وعالم جدل أيضا . . وفي الحقيقة أن ثقافته الواسعة وعلمه الغزير الموروث عن أبيه ، قد أهّلاه الى

-
- (١) أنظر عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٢ (حيث أورد أقوال معاصريه وغيرهم فيه) .
- (٢) حسين مونس في مقدمته للجزء الأول من رياض النفوس للمالكي : ص ٢٤٤ .
- (٣) ترجمته موجوده باستفاضة عند الخشني : طبقات علماء أفريقيه ، ص ١٧٨ - ١٨٢ - الشيرازي : المصدر السابق ، ص ١٣٤ - المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤٥ - ٣٦٠ (وهي ترجمة مفيدة مهمه) عياض : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٧ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٢ - ١٣١ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وغير ذلك .

أن يحتل مكانه أبيه في افريقية وقتذاك وأتفقت كلمة معاصريه كذلك على أنه كان إماماً في الفقه (١) . والواقع أنه أحدث في المغرب الادنى آنذاك جواً علمياً آخر . وفوق هذا فقد فتح له باب في التأليف الغزير (٢) ففي الفقه وهو ما يمينا هنا ألفموه لفات جمّة منها : كتابه الكبير : الجامع ، جمع فيه فنون العلم والفقه ويتكون من نحو ستين كتاباً أوجزاً ، ثم كتاب تفسير الموطأ في أجزاء وكتاب : الاباحية والاشربة ، وتحريم المسكر ، ثم كتاب آخر وهو شرح لأربعة كتب من مدونة أبيه ، وأخيراً كتاب فقهي آخر لأسئلة كان قد سئل عنها . (٣)

ومن تلامذه سحنون ومن رجال العصر الثلبي الذين أوسعوا الدراسات الفقهية تأليفاً وتصنيفاً ، محمد بن إبراهيم بن عياد وس بن بشير المشهور بابن عياد (٤) (ت : ٢٦٦ هـ) ، فلقد كان هو الآخر

- (١) أنظر عياض. المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤-١٠٥ . (حيث استعرض أقوال المعاصرين لمحمد بن سحنون من الافريقيين وغيرهم) .
- (١) مقدمة تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب لكتاب محمد بن سحنون كتاب : آداب المعلمين ، ص ٢٥-٢٨ .
- (٢) عياض : نفسه ، ص ١٠٦-١٠٧ . مقدمة حسن حسنى عبد الوهاب لكتاب آداب المعلمين ، ص ٢٥-٢٧ .
- (٣) ترجمته موجوده عند الخشنى : المصدر السابق . ص ٢٣٧-٢٣٨ - الشيرازى : نفس المصدر السابق ، ص ٣٤ (باختصار شديد) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٦٣-٣٦٤ - عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧-١٠٩ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٧-١٤٤ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٧٠) وعنده أن وفاته سنة ٢٥٠ وهو خلاف للمشهور .

(إماما في الفقه ، عالما بما اختلف فيه أهل المدينة ، وما اجتمعوا عليه) (١) . له مؤلف فقهي كبير يدعى بالمجموعة على مذهب الامام مالك بن أنس (٢) . ولقد حذا حذو رصيفة محمد بن سحنون ، فألف أربعة أجزاء في شرح مسائل المدونة . (٣)

أما عبدالله بن أحمد بن طالب ، أبو العباس القاضي (٤) (ت : ٢٧٥ هـ) ، فهو وارث لم يسهم في انتشار الدراسات الفقهية تأليفا بكثرة ، فقد أسهم في تشجيع الدراسات الفقهية عن طريق المناظرة ، إذ يُروى أنه كان (يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ، ويغري بينهم ليظهر الفائدة ، ويبين لهم عند لبسه ويسامرهم ، فإذا تكلم أحيا وأبان حتى يود السامع ألا يسكت) (٥) .

- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٨
- (٢) عياض : نفسه ، ص ١٠٨
- (٣) عياض : نفسه .
- (٤) الخشني كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ١٨٦ - ١٨٨ - الشيرازي : المصدر السابق ، ص ٣٤ (باختصار) .
- المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٧٥ - ٣٨٧
- عياض : نفسه ، ص ١٩٤ .
- ٢٠٠ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٩ - وما بعدها - الزركلي : المرجع السابق ج ٤ ، ص ٦٥ ، ٩٣ (وعنده أن وفاته كانت عام ٢٧٦ هـ) .
- (٥) المالكي : نفسه ، ص ٣٧٦

ومن فقهاء العصر الأغلبى المبرزين كذلك : يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى (١) (٢٨٩ هـ) وهو أندلسى الأصل واستوطن افريقية وتلمذ على يد سحنون بن سعيد وغيسره ، ثم سكن في آخر حياته مدينة سوسة . ويحيى بن عمر يعتبر أيضا إماما في الفقه حسبما يذكر أبو العرب التميمي (٢) ، ومن مؤلفاته الفقهية : كتاب : الرد على الشافعى ، وكتاب اختصار المستخرجه المسمى بالمنتخبة ، وكتاب فضل الوضوء والصلاة وكتاب اختلا في ابن القاسم وأشهب . . . (٣) الخ .

ويعد عيسى بن مسكين القاضى (٤) (ت : ٢٩٥ هـ) أحد الجُلَّة البارزين من تلامذة سحنون ، فقد كان (كثير الكتب في الفقه والآثار . . . متفنا في كل العلوم : الحديث والفقه . . .) (٥)

ومن الفقهاء الذين كان لهم دور في تنشيط الدراسات

-
- (١) الخشنى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ - ابن القرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ص ١٨٤ - المالكي : المرجع السابق ، ج ٤ ص ٢٩٦ - ٢٩٤ عياض : نفسه الجزء الثانى ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ١٦٠ .
- (٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
- (٣) عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
- (٤) ترجم له أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .
- الخشنى : نفسه ص ١٩٣ - ١٩٤ - عياض : نفسه ج ٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .
- (٥) عياض : نفسه ، ص ٢١٢ .

الفقهية في هذا العصر ، كذلك : أبو جعفر أحمد بن سليمان
بن داود المعروف بالصواف (١) (ت : ٢٩١ هـ) وأبو سهيل
فراش بن محمد العبدى (٢) (ت : ٢٩٢ هـ) .

ولم تكن المرأة في هذا العصر الذى ازدهرت فيه الحياة
العلمية بمنأى عن المشاركة في العلوم وخاصة الشرعية منها . فتروى
لنا بعض المصادر والمراجع أن هناك بعضاً من النسوة اللائي
شاركن في الدراسات الفقهية ، غير أنها للأسف لم تسعفنا بالتصريح
باسمائهن فيما عدا ثلاث نساء كان لهن شهرة في وقتهن ، وهن :
أسماء بنت أسد بن لفرات (٣) (ت : ٢٥٠ هـ) ، وأشتهرت برواية
الفقه والحديث على المذهب الحنفى ، وخديجة بنت سحنون
بن سعيد التنوخى (٤) (ت : ٢٧٠ هـ) واشتهرت كذلك برواية
الفقه على المذهب المالكي ، ثم مهربة الأغلبية . (٥)

ومن فقهاء بقية مدن إفريقية المالكيين في هذا العصر

- (١) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ . المالكي : المصدر السابق ، ص ٤٠٧ - ٤١٣ (مطولة) - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٧١ وغير ذلك .
- (٢) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ص ١٤١ - محمد بن محمد بن مخلوف : نفسه ، ص ١٧٢ وغير ذلك .
- (٣) عمر رضا كحاله : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، الجزء الأول ، ص ٤٥١ ، والجزء الخامس ، ص ٣٠٤ (نقلاً عن كتاب شهيرات تونسيلات لحسن حسنى عبد الوهاب) .
- (٤) عمر رضا كحاله : نفس المرجع أعلاه ، ج ١ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ وج ٥ ، ص ٣٣٠ (نقلاً عن حسن حسنى عبد الوهاب في كتابه : شهيرات التونسيات) .
- (٥) عثمان الكعاك ، المجتمع التونسي على عهد الأغلبية ، ص ٣٦ .

الأغلبى ممن لعبوا دورا في تنشيط الدراسات الفقهية : أبو عبد الله محمد بن معاوية (١) الحضرمي وهو من علماء طرابلس المبكرين ارتحل الى المشرق وخاصة الحجاز حيث لقي في المدينة الامام مالك بن أنس . ونذكر كذلك محمد بن ربيعة (٢) الحضرمي الطرابلسي ، وهو من علماء وفقهاء طرابلس المبكرين أيضا ، وممن تلقى كذلك بعض علومه على يد علماء المشرق كمالك بن أنس وغيره .

ولا يفوتنا ذكر سعيد بن عباس السرتي (٣) (ت : ٢٠٠ هـ) أحد علماء طرابلس ، وعبد الوهاب القيسي المتوفى بطرابلس (٤) (عام ٢٠٠ هـ) وعبد الله بن الشعاب (٥) (ت بطرابلس سنة : ٢٤٣ هـ) .

ومن فقهاء طرابلس المذكورين : عبد الجبار بن خالد السرتي (٦) (١٩٤ - ٢٨١ هـ) وهو أحد تلامذة الامام سحنون بن سعيد المعدودين - ومنهم : ابراهيم بن محمد الغافقي (٧)

-
- (١) ترجمته موجوده عند المالكي : المصدر السابق والجزء ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، مع الحاشية رقم ٢ ، ص ٢٠٤ - عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .
- (٢) ترجمته عند : المالكي : نفسه حاشية رقم ٢ ، ص ٢٠٤ - عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .
- (٣) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ١٣٢
- (٤) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ص ١٣٧
- (٥) حسن سليمان محمود : نفس المرجع اعلاه والصفحة أحمد مختار عمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٥ - ٢٣٦
- صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٢
- (٦) عياض : نفسه ج ٢ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ أحمد مختار عمر ، نفس المرجع اعلاه ، ص ١٣٦ .
- (٧) صالح مفتاح : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٢

قاضى طرابلس (ت : ٢٥٣ هـ) وغيرهم .

ومن فقهاء مدينة قفصة باقليم الجريد : حمد يس بن ابراهيم بن أبى صخر اللخمى (١) (ت : ٢٩٩ هـ) أى بعد قيام الدولة الفاطمية بثلاث سنوات وكان عالماً من أعلام المدرسة السحنوية في قفصة وألف كتاباً في اختصار المدونة ، ويعمله هذا يعـــد أول من اختصر المدونة من فقهاء المغرب الأدنى . (٢)

أما وقد أتينا على توضيح حالة الفقه المالكي في العصر الأغلبى فإن الحاجة ماسة هنا الى توضيح حالة الفقه الحنفى والاباضى خلال هذا العصر .

أما الفقه والدراسات الفقهية الحنفية ، فقد مرينا خلال حديثنا عن الفقه في العصر الأغلبى ، أنها كانت موجودة على كل حال ، بيد أننا لانعتم أن نلاحظ في هذا العصر الذى نؤرخ له وهـــو العصر الأغلبى كما ذكرنا ، قد ازدادت توسعا عن طريق معرفتنا لشخصيات حنفية عديدة . والواقع أنه كان لتشجيع أمراء الأغالبة الذين يتمذهبون بالمذهب الحنفى أثر في ظهورهم (٣)

(١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - مجموعة

من الادباء والعلماء : تاريخ قفصة ، وعلمائها ص ١١٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٣) أنظر في هذا الصدد حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ،

ص ٢١٥ - حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة

العربية في افريقية ، ص ١١٦ - ١٧٠ - عبدالعزيز

المجذوب : المرجع السابق ، ص ٦١ - ٨٧ السيد

محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ١١٧ - ١٢٦

واشتداد سواعدهم . على أننا مع ذلك لم نحظ ، أمام اغفال مؤرخي التراجم وطبقات الفقهاء والمحدثين بالاشارة الى أعدادهم ومجهوداتهم بالتحديد . فالنذر اليسير للعلماء الذين أورد ذكرهم المؤرخون الذين ترجموا لعلماء وفقهاء افريقية ، لا يوضح حقيقة النشاط الفقهي الحنفي ، كما أنه من الايجاز وعدم الوضوح بحيث لا يسمح بتوضيح الصورة بالقدر المطلوب .

ومهما يكن ، فإن كثيرا من المؤرخين القدامى يعتبرون أسد بن الفرات إماما للعراقيين (١) ، بمعنى أنه حنفي المذهب ، وخاصة بعد أن انصرف الناس عن كتابه الأسدية الى مدونه سحنون كما مر بنا . غير أن عبد العزيز المجذوب يؤكّد - وهو رأى وجيه نتفق معه فيه - أن أسدا لم يكن حنفيا ، بل هو مالكي المذهب ، رغم بعض اتجاهاته واستقلالاته عن المذهب المالكي (٢) . ولقد مضى عبد العزيز المجذوب يسوق الأدلة على أن أسدا لم يكن حنفيا ، ولكن فاته أنه يدعم وجهه نظره بأن يشير الى أن موقف أسد من المذهبين المالكي والحنفي يشبه الى حد كبير موقف عبد الله بن فروخ ، فعبد الله بن فروخ كان مالكيا ما في ذلك شك ، بيد أنه له اتجاهاته الاستقلالية بعض الأحيان عن المذهب المالكي كما عرفنا .

وعلى أية حال ، فإن افريقية عرفت خلال العصر

(١) أنظر عبد العزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٤ ،

٥٦ (نقلا عن ابن خلدون في العبر والمالكي في رياضه وعياض : في تراجم اغلبية والمقریزی وغيرهم)

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ ، ٥٤ - ٥٦ .

الأغلبى ، فقهاء أحناف ، نذكر منهم : عباس الفارسي ،
وهو أحد الغلاة في مذهبه ، وبلغ به
تعصبه لمذهبه ، أن أحرق (كتب المدونة وغيرها من كتب
المدنيين) مما حدا بأسد بن الفرات الى ضربه والتشهير به ،
ثم معمر بن منصور ، وقد كان له موقف فيما يقال في إثني عشر
أسد بن الفرات عن الإنصياح لرأى ابن القاسم عندما طلب منه
أن يعرض كتبه على كتب سحنون ، وهو كذلك أحد تلاميذ
أسد المشهورين (٢) . ومن فقهاء الاحناف المشهورين آنذاك
(سليمان بن عمران (٣) (ت : ٢٧٠ هـ) وهو من طلبة أسد
أيضا ، وكذلك منهم القاضي بن أبي الجواد (٤) ، وعبد الله
بن الأشج (٥) ، وابن أبي المنهال (٦) ، وابن عبدون (٧) ، وكلهم

-
- (١) عياض : المدارك ، ج ١ ، ص ٤٧٣
(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤٤٩ - ٥٠٠
(٣) الخشني : المصدر السابق ، ص ١٨٠ - ١٨٣
(٤) عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٦٠١ - ٦٠٢ ، ٦٠٥
(٥) الخشني : نفسه ، ص ١٩٣
(٦) الخشني : نفسه ، ١٩١
(٧) الخشني : نفسه ، ص ١٨٧ - ١٨٩

تولوا القضاء في العصر الأغلبى ، ثم (يحيى بن محمد بن قادم وهو من أعيان علماء الاحناف آنذاك ويذكر أنه هو وأهل بيته : بنو قادم كانوا مشهورين بالعلم والفقه على مذهب ابى حنيفة النعمان) (١)

أما بالنسبة لفقهاء المذهب الشافعى - وقد ذكرنا من قبل أن افريقية عرفت بعضا منهم (٢) ، فقد أسعفتنا بعض المصادر والمراجع بذكر بعضهم . فمن هؤلاء الذين عاشوا في العصر الاغلبى : أبو عبد الله محمد بن على البجلي (٣) . ولا يُعرفُ شيءٌ لسوء الحظ عن تاريخ ولادته ووفاته ، غير أنه عاش في العصر الاغلبى وعرض عليه أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١ هـ) القضاء فامتنع . وقد كانت له رحلة الى المشرق قابل خلالها تلاميذ الامام الشافعى ، ومن مؤلفاته الفقهية : كتاب الرد على الشوكية وكتاب الحجة في الشاهد واليمين في أربعة أجزاء (٤) ، ومنهم كذلك ابن العبادانى (٥)

-
- (١) الخشنى : المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، حسن حسنى
عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، حاشية رقم
٢ ، ص ٣٦٤ .
(٢) أنظر قبل ص ٣١٦ - ٣١٧
(٣) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٦٩ (نقلا
عن الخشنى) عبدالعزيز المجذوب ، المرجع السابق
ص ٨٨ (نقلا عن الخشنى كذلك) .
(٤) السيد محمد أبو العزم داود : نفس المرجع السابق
ص ٧٠ (نقلا عن الخشنى ايضا) .
(٥) عبدالعزيز المجذوب : نفس المرجع السابق ، ص ٨٨ (نقلا
عن عياض في تراجم أغلبية) .

وكان معاصرا لمحمد بن سحنون وعبد الله بن طالب القاضي .
ومنهم ابن المشاط (١) الذى مال الى مذاهب عدة ومنهم
المذهب الشافعى ومنهم ايضا عبد الملك (٢) بن محمد أو محمود
الضبي ، وكان له صولة في المناظرة والجدل عن مذهب
بالإضافة الى فقهه وهو من أصحاب أبى عبد الله محمد بن على
البجلي .

وفيما يختص بدراسات الفقه الاباضى في العصر الأغلبى
في اقليم الجريد وجبل نفوسة بطرابلس فقد توسعت بالطبيع ،
وبدأت تظهر في اقليم الجريد قواعد فقهية اباضية (٣) كاملة
ومن بين المؤلفات الفقهية التى ظهرت هناك آنذاك : مسند
الربيع (٤) وهو أحد فقهاء الاباضية المعروفين بالجريد وقتذاك
ومدونة أبى غانم بشر بن غانم (٥) الخراسانى الأصل ، وهى
ولن لم تكن نتاجا محليا إلا أنها احدثت في الجريد دون شك
أثرا علميا . ومن بين الفقهاء الاباضية الذين عاشوا في
الجريد في العصر الأغلبى ، يبرنا اسم أبو يعقوب يوسف بن
ابراهيم (٦) السدراتى المعروف بالمطرفي ، الذى ألف كتابا

-
- (١) عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٨٨ (نقلا عن
عياض في تراجم أغلبية كذلك) .
- (٢) السيد محمد ابو العزم داود : المرجع السابق ، ص ١٧٠ (وعنده
أن اسمه هو محمد) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٩
وعنده اسمه محمود .
- (٣) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ٥٤
- (٤) صالح باجيه نفس المرجع السابق ، اعلاه ، والصفحة .
- (٥) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٤
- (٦) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٥ ، (ويدعوه
هنا بأبى يوسف بن ابراهيم) ص ١٦٨ - ١٦٩ مع الحواشي
(ويدعوه بأبى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى المعروف
بالمطرفي) .

عرف بكتاب العدل والإنصاف ، وأبو الربيع سليمان بن يخلف (١) ،
وقد دَوّن في الفقه ديوانين ، وابن سلام (٢) بن عمر و كان
فقيها ومؤرخا أيضا ، وقد ذكر أنه سكن مدينه توزر وكتب فيها
تأليفه بعد سنة ٢٦٠ هـ. (٣)

وفي جبل نفوسة تطالعنا بعض أسما ء لامعه في الفقه
الاباضى منهم نفاث بن نصر النفوسى الذى كانت له اجتهادات فقيهيه
مشهورة على مذهبه ، وقد رحل الى المشرق للسمع من شيخوخ
المذهب الاباضى (٤) وأبو عبيده الجناونى (٥) وكذلك مهدي
النفوسى ، ثم عمرو بن فتح النفوسى (٦) ت : ٢٨٣ هـ) وكان فقيها
ميرزا له عدة مؤلفات فقهية ، منها الكتاب المعروف بالعمروسي .
ومما ينسب اليه أنه باشر وضع موسوعة علمية فقهية مستمدة احكامها
من مصادر التشريع الاسلامي الأربعة . (٧) واخيرا هناك أبو الفضيل
العباس بن محمد الصواف الغدامسي (ت : ٣٠٩ هـ) وهو ولرن توفى
بعد سقوط الدولة الاغلبية ، الا أنه عاش ستة وتسعين عاما ،
عاش منها في العصر الاغلبى ثلاثة وثمانين عاما . (٨) ومنهم
مجموعة ذكر علي يحيى معمر اسما ءهم ، ولكنه لم يورد شيئا آخر اكثر
من ذلك . (٩)

-
- (١) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ٥٥١ .
 - (٢) صالح باجيه : نفسه ، ص ٢٠٦
 - (٣) صالح باجيه : نفسه ص ٢٠٦
 - (٤) احمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ١٣٤-١٣٥ - على
يحيى معمر : الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب
المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤ - ٢٧١ .
 - (٥) أحمد مختار عمر ، نفس المرجع السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .
 - (٦) أحمد مختار عمر : نفس المرجع اعلاه ، والصفحة
 - (٧) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٩ .
 - (٨) صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٤-٢٢٥
 - (٩) الاباضية بين الفرق الاسلامية ، ص ١٣٢ وما بعدها .

الفقه في عصر الفاطميين (٢٩٦ - ٣٦٢ هـ) :

مثلا كان انتصاب الدولة الأغلبية في افريقية مؤذنا
بتحول سياسى واجتماعى وعلمى وثقافى فقد كان قيام الدولة
الفاطمية هنا كذلك . بل إن العلوم والآداب - وهى ما تهمننا
قد تطورت وتقدمت أوجهها تقدما كبيرا اكثر عن ذى قبل .

وفي الحقيقة فقد اقترن قيام لدولة الفاطمية بتغيير
جذرى في الأوضاع السياسية والمذهبية ، ورابع بونار في كتابه (١)
المذكور سابقا على حق فيما ذهب اليه من أن عصر الدولة
الفاطمية يصح أن يكون فارقا جذريا بين عصر ثقافى وآخر
ذلك لأن المغرب على أيدي الفاطميين - وإن كان قد تحقق
له وحدة شبه تامة-، فإنه في ظل هذه الوحدة تحقق للمغرب
استقرار نسبي أثر من غير شك على الحياة العلمية هناك
في هذه الفترة . (٢)

غير أن ازدهار العلوم والمعارف في عهد الفاطميين
قد صاحبه تحول في المفهوم المعتقدى ، فغدت الحياة الفكرية
والعلمية في عهدهم تهدف الى (اشاعة تيارات فكرية مختلفة ،

-
- (١) المغرب العربى ، تاريخه وثقافته ، ص ٦٩
(٢) ابو القاسم كرد وعبد الله شريط ، المرجع السابق
ص ١١٣ .

كالدعوة الى التشيع وتثبيت فكرة المهدوية في النفوس ، ونصرة
التعاليم الفلسفية المشوبة بضروب السحر لخدمة ذلك وتسخير
الشعر والأدب لهذه الغاية ، كما أن الحكومة عملت على تنظيم
الدعايات الدينية والسياسية تنظيماً دقيقاً وإحداث مناصب
هامّة كداعي الدعاة وأعوانه ، وتعزيز ذلك ببيت الحكمة ، ومحاولة
القضاء على المذهب السني لاحتلال المذهب الشيعي الاسماعيلي
محله ودراسة تفاريق النحل وغيرها (١)

ولقد ترتب على هذا التعسف المذهبي من قبـــــــــــــــــل
الفاطميين ثورة المالكية وتصديهم للمقاومة فيما يرونه زيفاً وانحرافاً
بكل ما أوتوا. وإذا كنا سنرسم من بعد أبعاد ذلك الصراع وانعكاسات
تلك المقاومة ، فإن ما يمكن ملاحظته ممّا انعكس على الدراسات
الفقهية من جراء مواقف الفاطميين واتساع دائرة الابحاث الفقهية
المالكية ، ونشاط المناظرات وأغلبها عقائدي بين علماء الشيعة
والسنة ، كما ظهرت مؤلفات شيعية عقائدية في الأغلب
وفقهية في الأقل القليل .

على أن الدراسات الفقهية المالكية ما فقدت زخمها
وزعامتها لكل قنوات العلوم والمعارف في هذا العصر فقـــــــــــــــــد
شهدت الدراسات الفقهية آنذاك توسعاً في الكم والكيف .

(١) راجع بونار: المرجع السابق، ص ١٨٥ .

وعلى أية حال ، فاذا مضينا ننتبع مسيرة الفقه والدراسات
الفقهية خلال العصر الفاطمي ، فإننا لن نفاجأ اذا عرفنا أن زعامة
الفقه ما انفكت معقودة اللواء لتلاميذ سحنون ، بل وتلامذة تلامذته
والواقع أن هذا القول ، هو أحد الحقائق الرئيسية في مسيرة
الدراسات الشرعية عموماً في افريقية خلال الفترة الزمنية موضوع
الرسالة . فالشيخ والاستاذ هو سحنون ، ولاشيخ او استاذ
غيره . وكل من جاء بعده ، فهو تبع له .

ومن فقهاء المالكية المبكرين في هذا العصر الذين
عاصروا في السنوات الاخيرة من عمرهم الفاطميين حماس بن مروان
بن سمك الهمداني (١) القاضي (ت ٣٠٣ هـ) ، وقد ذكر أنه كان
عالماً مبرزاً في فقهه ، حتى قيل أن الفقه كان اكبر شأنه (٢) . ومنهم
محمد بن بسطام (٣) بن رجا الضبي (ت : ٣٠٣ هـ) ، وهو
عراقي الأصل افريقي المستوطن . وقد أحدث نهضة علمية فقهية
في افريقية ، ومما يؤيد ثبوته أنه أدخل الى افريقية كثيراً من
المؤلفات لكبار علماء المالكية المشاركة ، لم تكن قد دخلت البلاد
من قبل (٤) . ومنهم أبو جعفر أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي

-
- (١) ترجمته وردت عند كل من الخشني : المصدر السابق ،
ص ٢٠٧ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ -
٣٣٠ ، ابن فرحون المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩
(٢) الخشني : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٧ - الدباغ :
نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .
(٣) ترجمته وردت عند كل من الحجوى الفاسي : المرجع
السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٤ - حسن حسني عبد الوهاب
الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢ - ١٤٣ وغير ذلك .
(٤) الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق ، والجزء اعلاه ،
ص ١٠٤ .

القيرواني (١) (ت : ٣١٩ هـ) ، وقد تلقى علومه الدنيوية على أيدي كبار تلامذة سحنون من أمثال ابن عبدوس ، وعيسى بن مسكين وغيرهما ، ومن مؤلفاته الفقهية : أحكام القرآن في عشرة أجزاء وكتاب مواقيت الصلاة وغير ذلك (٢) . ومن الفقهاء المشهورين بإفريقية وقتذاك ، أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف باللباد (٣) ، (ت : ٣٣٣ هـ) ، وكان ذا جلاله في الفقه والتفسير ، وهو ممن وقف وقفه شديدة ضد الفاطميين كما سنعرف بعد . وكان من فقهاء إفريقية المكثرين تأليفاً ، وله عدة مؤلفات فقهية منها : كتاب الطهارة ، وكتاب الآثار والفوائد في عشرة أجزاء (٤) ، وكتاب كشف الرواق عن الصروف الجامعة للأوراق في أوزان الصرف الشرعية والأوقاف (٥) ، وغير ذلك . وأبو الفضل العباس بن عيسى الممسي (٦) (ت : ٣٣٣ هـ) كان عالماً مشهوراً أكثر من فن وهو أحد الذين قُتلوا على يد الفاطميين كما سنعرف (٧) . وله مؤلفات فقهية منها : (كتاب تحريم

-
- (١) ترجمته موجودة عند : محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨١ - ٨٢
- (٢) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٨١ .
- (٣) عياض : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٤ - ٣١٠ ، ابن فرخون : المصدر السابق ، ص ٢٤٩ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ - الكنانى القيروانى : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٠٥ - ص ١٤٦ .
- (٤) عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ - الكنانى القيروانى ، المصدر السابق ، نفس التعليق والصفحة اعلاه .
- (٥) الكنانى القيروانى : نفسه .
- (٦) ترجمته مفصلة ومتسعة عند عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٣ - ٣٢٠ .
- (٧) أنظر بعد ص ٥٣٧ - ٥٣٨

المسكر وكتاب قبول الأعمال ، وكتاب : اختصار كتاب محمد بن المواز (١) . ومن أولئك الفقهاء المبرزين كذلك ، أبو سليمان ربيع بن عطاء الله المعروف بالقطان (٢) (ت : ٣٣٣) وهو من أشهر علماء وعباد وزهاد افريقية انذاك ، وكان بالاضافة الى ذلك عالما بالفقه والحديث والقراءات (٣) ، غير أنه كان مقلا في التأليف ، ولم نعث على ذكر لأى مؤلفات له ، وهو كذلك ضحية من ضحايا الموقعة (٤) ضد الفاطميين عام ٣٣٣ هـ . ومنهم أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي (٥) (ت : ٣٣٣ هـ) ، وهو أحد فقهاء هذا العصر المشهورين وله مشاركات كذلك في اكثر من فن ، وإن كان الحديث هو الغالب عليه كما يقول عياض (٦) ، وهو من المشهورين بغزارة التأليف ،

- (١) عياض المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٤
- (٢) له ترجمه موسعة عند عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ - ٣٣٢
- (٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
- (٤) أنظر بعد ص ٥٣٧ - ٥٣٨
- (٥) له ترجمة موسعة عند عياض : نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦
- ابن بشكوال : الصلة ص ٨٣ - ٨٤ - الصفدى :
- الوافى بالوفيات ، الجزء الثانى ، ص ٣٩ - الذهبى
- تذكرة الحفاظ ، الجزء الثالث ، ص ٨٨٩ - ٨٩٠ -
- السيوطى : طبقات الحفاظ ، ص ٣٦٣ - ٣٩٧ -
- الكنانى القيروانى : المصدر السابق ، تعليق رقم ٥ ، ص ٤ .
- (٦) المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٣٥

فذكر أنه له ٣٥٠ كتاباً (١) حسب مفهوم الأولين لمعنى الكتاب
 بالطبع (٢) - مع ما فيه من مبالغة شديدة - ومن مؤلفاته الفقهية
 كتاب الوضوء والطهارة ، وكتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب
 القبر ، وكتاب في الصلاة وغير ذلك (٣) . وهو كذلك احـ
 الذين قُتلوا في الموقعة ضد الشيعة (٤) . ومن فقهاء العصر
 المشهورين عبد الله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي (٥) ، المعروف
 بابن الحجاج أو الحجام (ت : ٣٤٦ هـ) وهو ممن سمع من كبار
 أصحاب سحنون بن سعيد ، ومن رحل الى المشرق وقابل
 عدداً من الشيوخ حسبما أشرنا من قبل . وكان واسع التأليف
 والتصنيف وقد ذكر أنه ترك ما مجموعه سبعة قناطير كتب بخطه (٦) .
 وذكر ابن فرحون أنها تسعة وليست سبعة وسمى منها
 كتاباً واحداً وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان . (٧)

-
- (١) عياض: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٤- ابن العماد الحنبلي :
 شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المجلد الثاني ،
 ص ٣٣٤ .
- (٢) أنظر قبل ج ١ ص ٢٨٨ (وحيث وضحنا مفهوم الكتاب في
 عرف المؤرخين القدامي) .
- (٣) عياض نفسه ، ص ٣٣٥
- (٤) أنظر بعد ص ٣٧٧ - ٣٨٥
- (٥) ترجمته موجود عند : عياض نفسه ، ص ٣٤٠ - ٤٤٣
 (عنده انه ابن الحجاج)- ابن فرحون المصدر السابق ،
 ص ١٣٥ - ١٣٦ (وعنده ان اسمه هو عبد الله بن
 أبي هشام بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام .
- (٦) عياض : نفسه ص ٣٤١
- (٧) الديباج ، المذهب ، ص ١٣٥

ومن فقهاء المالكية أيضا أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن اسحاق المعروف بالأبباني (١) (ت : ٣٥٢ هـ) ، الذي تفقه على يد طلبة سحنون أيضا ، وقيل إنه مع حفظه لمذهب مالك إلا أنه كان ذا ميل لمذهب الشافعي (٢) ، وهو ممن لسه رحلة مشهورة كما قد عرفنا (٣) . ومما يؤثر عنه ميله إلى القضاة المسائل الفقهية ومدارستها (٤) . وقد ذكر أنه كان يفصل المسائل كتفصيل الجزار الحاذق اللحم (٥) . ونذكر أبا القاسم بن زياد بن يونس (٦) (ت ٣٦١ هـ) وهو أحد علماء وفقهاء هذا العصر المشهورين . ويذكر أنه أول من أدخل كتاب محمد بن المواز إلى إفريقية . (٧)

ومن فقهاء بقية أقاليم ومدن إفريقية في عصر الفاطميين

-
- (١) ترجم له عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٧-٣٥٢ ترجمة موسعة بعض الشيء .
 - (٢) عياض : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ٣٤٧ .
 - (٣) أنظر قبل ص ١٤٣-١٤٤ .
 - (٤) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .
 - (٥) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .
 - (٦) الدباغ : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٧٩ .
 - (٧) ابن المواز : هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الاسكندراني كان من علماء وفقهاء المالكية في مصر المشهورين وقد أخذ عن كبار علماء عصره من المالكية ، وهو ممن أثر في المغاربة بمولفاته ومن بينها كتاب : الموازية الذي أدخله زياد بن يونس إلى إفريقية كما قلنا في المتن ، وهو ممن أجل كتب المالكية وأصحابها وأحبها وأبسطها . وتوفى ابن المواز سنة ٢٦٩ هـ .
 - أنظر ، الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

نجد عددا لا بأس به ، وإن لم تكن تراجمهم مسهبة كى تستطيع تفهم عطاءهم العلمي اكثر فاكثرا ، وأغلبهم بالاضافة الى أنهم فقهاء كانوا محدثين وأهل مناظرة وجدل . فمن الفقهاء المبكرين في اقليم طرابلس : أبو العباس اسحاق بن ابراهيم الازدى الصايغ المعروف بابن بطريفة (١) (ت : ٣٠٣ أو ٣٠٥ هـ) وهو من فقهاء طرابلس الثقات المأمونين . ومن فقهاء طرابلس كذلك أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان (٢) ، (ت : ٣٠٦ هـ) ، وهو من الثقات في مذهب مالك وكان يحسن الكلام في الفقه على مذهبه ، وله كتاب أحكام القرآن في اثني عشر جزءا (٣) ، ومن علماء مدينة تونس ، أبو جعفر أحمد بن موسى التمار (٤) (ت : ٣٢٩ هـ) وأبو البشر محمد بن أحمد بن يونس السوسى (٥) (ت : ٣٣٢ هـ) وهو من فقهاء هذه المدينة المعروفين آنذاك . ومن علماء وفقهاء مدينة باجة أبو عبد الله بن محمد بن غلبون الصنهاجى المعروف بالوقاد (٦) (ت : ٣٢٩ هـ) (وكان الفقه والمناظرة وجودة التعزيمه أغلب عليه من الحفظ) (٧)

-
- (١) الدباغ : المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .
(٢) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
(٣) أحمد مختار عمر : نفس المرجع السابق اعلاه والصفحة
(٤) عياض : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٨
(٥) عياض : نفسه ص ٣٥٣ - ٣٥٤
(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦
(٧) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

ومن مدينة قفصة يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (١) (ت ٣٣٦ هـ) أما مدينة سوسة فقد عرف آنذاك منهم أبو علي الحسن (٢) بن نصر السوسي (ت: ٣٤١ هـ) وكذلك عبدالله بن حمود السلمسي السوسي المعروف بابن (٣) الحفنه (ت: ٣٥٧ هـ) .

وبالنسبة للفقة والفقهاء الأحناف ، فقد كان لهم دور مؤثر في افريقية خلال حكم الفاطميين ، ولقد استعان بهم هؤلاء فسي تولى مناصب القضاء في دولتهم نكايه في المالكيين . (٤) غير أن النشاطات العلمية لهم وخاصة الفقهية لا نعرف للأسف شيئا عنها . ولعل أقصى مانعرفه من الفقهاء - وقد أغفل مؤرخو التراجم عمدا ذكرهم - ، هو عدة أسماء ما كان ليتمكن أن نعرفها لولا أن ذكرها أولئك المؤرخون عرضا في حديثهم عن المضايقات التي واجهها بعض المالكية من الفاطميين واتباعهم .

وعلى أية حال فقد عُرِفَ عدد من أولئك الفقهاء الأحناف نذكر منهم محمد بن الكلاعي (كان معاصرا للخليفة عبيد الله المهدي) ، وقد ألف كتابا يرد فيه على من لا يقول بخلق القرآن (٥) ولقد كان له موقف ضد بعض علماء المالكية ، وسعى بهم عند عبيد الله المهدي الذي قضى عليهم كما سنعرف في مكانه بعد . ومنهم محمد بن سيرين (كان معاصرا كذلك (٦) لعبيد الله المهدي) وجعفر بن أحمد بن وهب (٧) ، ومنهم كذلك أبو اسحاق بن المنهال (٨) ،

-
- (١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥٦ .
 (٢) عياض : نفسه ، ص ٣٦٣ - ٣٦٦
 (٣) عياض : نفسه ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦
 (٤) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ ، وما بعدها .
 (٥) السيد محمد أبو العزم داود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٦٣ - ٢٩١ .
 (٦) السيد محمد أبو العزم داود ، نفسه ، ص ٢٨٩
 (٧) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠ .
 (٨) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠

وقد تولى القضاء في عهدهم ، وأحمد بن بحر (١) ، ومحمد بن عمران النفطي (٢) الحنفى ، والقاضى المروذى (٣) وغيرهم .

وفىما يختص بالفقهاء الشافعية ، فلقد ندر وجودهم في هذا العصر ، ولا نعرف عنهم وعن اسمائهم فضلا عن نشاطاتهم إلا نورا يسيرا جدا من المعلومات . ومن الذين نُص على ذكرهم : أبو العباس (٤) بن السندى ، وقد تعرض لمحنة في أول دخول الفاطميين على يد داعيتهم أبى عبد الله ، ومنهم أبو ابراهيم اسحاق بن النعمان (٥) ، وهو وإن لم يُذكر أنه عاصر الفاطميين صراحة ، إلا أنه تلقى بعض علومه على يد يحيى بن عمر المتوفى (٢٨٩ هـ) تلميذ سحنون ، ومن هنا جاز أن نعدّه من رجال العصر الفاطمى . (٦)

ولقد ذكر الخشنى أن مذهبه مذهب الشافعى وكان من قبل مالكيًا متشدداً (٧) . أما ما ذكر عن أبى عثمان سعيد بن الحداد ، من أنه كان شافعيًا فمسألة لم تثبت بالدليل القاطع

(١) السيد محمد أبو العزم داود : نفس المرجع السابق

ص ٢٩٠ .

(٢) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٩٠

(٣) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٦٣ ، ٢٩١

(٤) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٧٠

(٥) الخشنى : المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٦) انظر الخشنى : نفس المصدر السابق ، اعلاه والصفحة

(٧) طبقات قرطبة وعلماء افريقية ، ص ٢١٤ .

ويكفى أنه ألف كتابا انتقد فيه الشافعى . ولم يستطع اتباعه من المصريين الرد عليه . (١)

وفيما يختص بالفقه والدراسات الفقهية الاباضية سواء في الجريد أو في جبل نفوسة في العصر الفاطمى فيبدو أنها كانت أفضل حظا في التنويه بها ، رغم ضآلتها . من الدراسات الحنفية ، ومن أهم الاسماء التى ورد ذكرها بالنسبة لعلماء الجريد ، أبو نوح سعيد بن يـخلف المزاتى ، وكان عالما اباضيا لا معا وامتدحه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٢) . وكانت له آراء تربوية جيدة كذلك في نقد بعض سلوكيات مجتمعهم الاباضى هناك . (٣) ومنهم أبو خزر بغلا بن أيوب ، وأبو نوح سعيد بن زنفيل . (٤)

ومن علماء وفقهاء الاباضية بالجريد وقتذاك العلماء يـخلف بن يـخلف النفوسى (٥) التـمـجـارى و أبو الحسن عـلى بن يـخلف (٦) ، وأبو القاسم يزيد بن محمد الوسيانى ، وكان له مكانة عالية عند الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . (٧)

أما علماء وفقهاء الاباضية في جبل نفوسة آنذاك فقد عرف منهم أبو يحيى سليمان بن ماطوس (٨) ، وأبو هارون

-
- (١) أنظر بعد ، ص ٥٦٥-٥٦٤
 - (٢) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ١٩٨
 - (٣) صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، ص ١٩٩-٢٠٠ (وعند أن اسمه هو أبو نوح سعيد بن زنفيل)
 - (٤) على يحيى معمر : الاباضية في الجزائر ، ص ١٦٣ .
 - (٥) على يحيى معمر : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٦٣-١٧٤ .
 - (٦) صالح باجيه : المرجع السابق ، ص ٢٠١
 - (٧) صالح باجيه : نفس المرجع والصفحة اعلاه .
 - (٨) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٢٦-١٢٨
 - (٩) احمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ١٢٤

موسى بن يونس الجلاطى (١) ، وأبونصر زار بن يونس التيفسنى (٢) ،
وورا سفلان بن مهدى وكان أحد المهتمين بالمسائل الفقهية . (٣)

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الشيعية المحضة
علينا أن نشير في أسف الى أننا لم نعثر على معلومات شافية عن
مسيرتها خلال العصر الفاطمى الذى امتدَّ في افريقية الى أكثر
من نصف قرن ، ولعل من البديهي الا ننتظر من مؤرخي الطبقات
والتراجم المغربية وكلهم مالكي المذهب أن يشرحوا لنا أبعاد
تلك الدراسات ، وهم الذين غصوا الطرف عن يشاركوهم مذاهبهم
الفقهية الشيعية أعنى الاحناف والشافعية وعند ما تصدى المؤرخون
المتأخرون من المصريين كالمقريزى وابن تغرى بردى وغيرهما ، ثم من
تبعهم من المحدثين للتاريخ للدول الفاطمية لم يعينوا كشرافى الحديث
من الدور الحضارى المغربى من تاريخ الدولة الفاطمية وهو لا يتناسب
البيت مع الدور المصرى رغم أننا لا ننسى الفارق الزمنى بين الدورين بالطبع . ولذلك
فإن معلوماتنا عن الدراسات العلمية الشيعية ومنها الفقهية
جدا ضئيلة وليس أمامنا من معلومات عن الفقه الشيعى الا ما ورد في
ترجمة أشهر شخصية تشريعية شيعية في بلاد المغرب ، بل وفي كل
دور الدولة الفاطمية ومذهبها الاسماعيلية هذه الشخصية :-
هى شخصية القاضي النعمان بن حيون ، والقاضى النعمان بن
حيون هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن حيون

-
- (١) أحمد مختار : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .
(٢) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٦
(٣) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١٢٤

التميمي المغربي (١) (ت: ٣٦٣هـ) . ولقد كان النعمان في بداية أمره مالكي المذهب ، إلا أنه انتحل بعد ذلك المذهب الاسماعيلي فأخلص له حتى أصبح دعاه من دعائمه (٢) . ولقد عاصر النعمان بن جيون كل خلفاء الفاطميين في المغرب : المهدي والقائم ، والمنصور والمعز ، وكان طيلة التصاقه بهم سندا قويا رئيسيا لهم ، ولقد ولّوه القضاء في بداية أمره وخاصة في عهد القائم والمنصور ، ثم رئاسة القضاء بعد ذلك في عهد المعز لدين الله (٣) . ولقد بلغ النعمان من المكانة والنفوذ في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر بلوغا لم يصل الى مثيله الا قلائل جدا من رجال الدولة . ولذلك فلقد كان يعرف عند الاسماعيلية : بسيدنا القاضي النعمان للتفريق بينه وبين الامام أبي حنيفة ، كما كان يسمى باسم سيدنا الأوحّد ، وأحيانا القاضي الأجل ، وعرف كذلك بأبي حنيفة الشيعة . (٤) وقد وصل الى مرتبة الحجة المعلومة المعروفة عند الشيعة كما يظن حسن ابراهيم حسن (٥) . كما أنه وصل الى مسمى الداعية أيضا . وقد وصفه بعض المؤرخين كابن خلكان (٦) بأنه (كان عالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء) الى غير ذلك من العلوم والفنون . ولقد انفتح له باب عريض في التأليف في شتى المواضيع وقيل بلغ عددها بضعة وأربعين كتابا . (٧)

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ،

ص ٢٥٨ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع

اعلاه والصفحة .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٨

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه

(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه

(٦) وفيات الاعيان ، الجزء الخامس ، ص ٤١٥

(٧) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٨

ونحن هنا لن نتحدث الا عن مؤلفاته الفقهية فقط مؤجلين الحديث عن بقية كتبه في مكانها بعد ان شاء الله . ولعل أهم كتاب فقهي له ، بل للشيعه الاسماعيلية على الاطلاق ، هــ كتاب : " دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام " (١) وكتاب دعائم الاسلام هــذا أهم كتاب فقهي اسماعيلي كما ذكرنا ، وهو في مجلدين - وقد طبع - ويشتمل على سبعمائة صفحه ، وقد ألفه بطلب من الخليفة المعز لدين الله . ولقد ذهب النعمان نفسه الى القول بأن المعز هو الذي أصَّل أصوله وفرع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . ويقول حسن ابراهيم حسن وطه (٣) أحمد شرف بأن كتاب دعائم الاسلام لا زال أحد أهم مرجع للاسماعيلية في اليمن والهند عند طائفة البهرة ، كما كان طوال عهد الدولة الفاطمية سواء في المغرب أو في مصر مرجعاً للاسماعيلية في أحكامهم بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم . (٤) ومن مؤلفاته الفقهية كذلك كتاب الطهارة ، وكتاب الايضاح وهو طويل بلغ عدد كراساته مائتين وعشرين كراسة ، ثم مختصره أي مختصر الايضاح ، وكتاب كيفية الصلاة وكتاب منهاج الفرائض (٥) وكتاب الاقتصار ويشتمل على مسائل فقهية مستمدة من أئمة آل البيت (٦) وغير ذلك .

-
- (١) حسين ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق والصفحة اعلاه
(٣) المعز لدين الله ، ص ٢٥٩
(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩
(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩
(٦) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٦

ومن الدراسات الفقهية الشيعية التي ظهرت في المغرب الأدنى ، تلك التي ألفها جعفر بن منصور اليماني ، وهو أحد أشهر الدعاة الاسماعيلية وأخطرهم ، وقد وصل إلى رتبة (بـباب الأبواب) في مصر بعد رحيل الفاطميين إليها . (١) ومن مؤلفاته الفقهية : كتاب تأويل الزكاة . وهو كتاب فقهي معتقدي (٢) ، وله كتاب فقهي آخر ، هو : كتاب تأويل الفرائض ، المسمى بـكتاب : الفرائض حدود الدين (٣) . أما كتبه في التأويل التي هي من أهم كُتُب الاسماعيلية في هذا الشأن فستعرض لها بعد في مكانها إن شاء الله .

ومن الكتب الفقهية الشيعية في المغرب الأدنى ، ذكر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف كتاب : الروضة ، وهو كتاب فيه كثير من الجوانب الفقهية ، وينسب للخليفة المعز لدين الله نفسه ، كما ينسب إليه كتاب المناجاة كذلك . (٤) ومما ينسب للمعز لدين الله وابنه العزيز بالله أنهما أمليا كثيرا من المسائل الفقهية على وزيرهما يعقوب بن كلس ، وقد رتبته هذا على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم كتاب البخاري (٥) . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه كان بجانب ما ذكرنا من دراسات فقهية ، نشاطات

(١) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق

ص ٢٦٨ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : نفس المرجع والصفحة أعلاه

(٣) حسن إبراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٦٩

(٤) حسن إبراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٥) راجع بونار : المرجع السابق ، ص ٢٥٦

فقهية مبعثرة لم تدون .

ويمكننا أن نضيف الى هذا ، ما ظهر من مؤلفات فقهية
شيعة في اقليم طرابلس التي حمل لواءها ، أبو جعفر أحمد بن
أبي عبد الله محمد بن خالد بن عبد الرحمن ، وهو وإن توفي
سنة ٣٧٦ هـ أى بعد رحيل الفاطميين الى مصر ، إلا أنه عاش
مدة طويلة في كنفهم في اقليم طرابلس . وهو عراقي الأصل
إلا أنه قدم المغرب الادنى صغيراً فنشأ به وعاش حتى توفي ، وله
من المؤلفات : تفسير الأحاديث والأحكام ، ثواب القرآن ، اختلاف
الحديث وغير ذلك . (١)

(١) أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ١٤١

الفقه في عصر الزيريين (٣٦٢ - ٤٥٠ هـ) :

بيد و لأول وهلة للمتتبع للدراسات الفقهية في افريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة أنه ليس ثمة ما يجيز فصل الدراسات الفقهية في العصر الزيري وحتى الانفصال السياسي والمذهبي عن الفاطميين على يد المعز بن باديس عن عصر الفاطميين الذي يعتبر العصر الزيري موصولاً به فقها وعقائدا ومذهبياً . لكن المتعمق المحلل لمسيرة الدراسات العلمية وخاصة الشرعية ، والفقه بصفة أخص سيخرج باقتناع مفاده ، ضرورة التفريق في الحديث بين العصريين . ذلك لأن الخلافة الفاطمية برحيلها عن افريقية قد أحدثت وضعاً علمياً مغايراً فلم تعد الظروف المذهبية - والفقهية اقتضاء ١ - تفرض ذلك التوسع في الدراسات الفقهية تأليفاً ومناظرة كما كان من قبل ، ذلك لان فقهاء المالكية في افريقية في العصر الفاطمي كانوا مجتهدين لمعالجة كثير من القضايا التعبدية والفقهية الحياتية من المنظور السني ، كصفة بعض الصلوات والصيام ، والأعياد ومواقيتها ، الى غير ذلك . ومن هنا كانوا ينبرون الى تأليف مؤلفات فقهية تعالج هذه القضايا ، ولذلك كثرت تلك المصنفات خلال عصر الفاطميين كثرة ظاهرة . ربيد أنه عند ما رحلت الخلافة الفاطمية الى مصر ، زال عن كاهل علماء وفقهاء المالكية معالجة هذا الشق من الفقه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه ينبغي أن لا ننسى أنه على الرغم من ولاء الزيريين للفاطميين السياسي والمذهبي الا أنهم ظهرت كحكام وطنيين وكان همهم أن يجاروا الروح الوطنية لدى المغاربة ومن ثم كانت غيرتهم على المذهب الشيعي وتطبيق اتجاهاته

الفقهية وغيرها لا تصل الى مستوى اهتمامات الخلفاء الفاطميين بذلك .
أما بعد الانفصال السياسى والمذهبي عن الفاطميين فممن
الطبيعى أنه يختلف الامر عن ذى قبل من حيث التوجهات المذهبية
والفقهية .

والأمر الثانى أن افريقية وخاصة في أواخر القرن الرابع
الهجرى وحتى منتصف القرن الخامس منه ، قد وصلت من الحافسة
التي بلغها الفقه في الدولة الاسلامية من تراجع وانكماش في العطاء
النوعى ، بل والكمى . على أننا نستدرك فنقول بأن الفترة الممتدة
من مغادرة الفاطميين افريقية الى قبيل اطلاله القرن الخامس
الهجرى ، كانت مزدهرة ولا ينطبق عليها ما قلناه آنفا .

والأمر الثالث أننا في هذا العصر عد منا الاحتكاكات
المذهبية الفقهية التي كانت تحدث في افريقية بين علماء المالكية
والحنفية ، فالمذهب الحنفى اضمحل شأنه في افريقية قبيـل
انتصاف القرن الرابع الهجرى شيئا فشيئا . ولن ندهش
إذا ما قلنا بأننا لم نعثر خلال عصر الزيـريين على تراجم لعلماء
أحناف ، إذ أن كل ما أمكن معرفته عن نشاط للمذهب الحنفى
آنذاك لم يتعد الحديث عنهم بصيغة الجمع .

وكيفما كان الأمر ، فإذا مضينا نتتبع حالة الدراسات
الفقهية المالكية فى افريقية خلال هذا العصر ، سنجد أن توسعها
وازدهارها كان معقودا لعدد من العلماء ، الذين عايشوا
الدولة الفاطمية لفترات طويلة من عمرهم . غير أن وقياتهم -
وهو ما سـرنا عليه من منهج تنظيمى بجانب المنهج الموضوعى -

كانت في بداية العصر الزيرى . ومن هؤلاء الفقهاء أبو محمد عبد الله بن اسحاق المعروف بابن التبان (١) (ت ٣٧١ هـ) وكان واحداً من علماء افريقية المشهورين في القرن الرابع، وقد ضربت لــــه أكباد الأبل (٢) . وعلى الرغم من دوره في نشر المذهب المالكي، إلا أنه كان مقلداً في التأليف، إذ لم نجد له أثراً تأليفاً يذكر.

ومنهم محمد بن حارث الخشني (٣) (ت بعد ٦٦ هـ) (٤) وهو

-
- (١) ترجمته موجوده عند عياض : المصدر السابق، ج ٢، ص ٥١٧ - ٥١٨ - ابن فرحون : المصدر السابق، ص ١٣٨ .
- (٢) عياض : نفس المصدر السابق أعلاه، ص ٥١٧
- (٣) له ترجمة واسعة عند عياض : نفسه ص ٥٣١ - ٥٣٢ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص ١١٠ - ١١١ -
- الدباغ : المصدر السابق، ج ٣، ص ٨١ - ٨٣ -
- الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج ٣، ص ١٠٠١ - ١٠٠٢
- ابن فرحون : نفس المصدر السابق أعلاه، ص ٢٥٩ - ٢٦٠
- (٤) أشار مؤرخو ترجمة ابن حارث ما عدا الذهبي الى أن وفاته كانت ٣٦١ هـ - وقيل ٣٦٤ هـ مع أنهم ذكروا جميعاً بأن التحقق في الأندلس بخدمة الحكم المستنصر الى أن توخى الحكم فظل ابن حارث بقرطبة يعمل بصناعة الأدهان، والمعروف أن الحكم المستنصر توفي عام ٣٦٦ هـ، فالمعقول بناءً على ذلك أن تكون وفاة محمد بن حارث بعد عام ٣٦٦ هـ، أو فيها على أقل تقدير. وهذا ما تنبأ به له الذهبي فقال : ربما يكون المقصود عام ٣٧١ هـ وليس عام ٣٦١ هـ . وهو رأي سليم أيضاً . ولقد فات حسيــــــــن مؤنس في مقدمته للجزء الأول من الرياض، ص ٣٥ م، هذه الحقيقة، فذكر أن محمد بن حارث توفي عام ٣٦٤ هـ .

من المبرزين من أبناء افريقية ، وقد رحل الى الأندلس (١) ، فسمع من علماءها ، ثم استقر به المقام هناك . ومحمد بن حارث كان واحدا ممن نالوا حظا كبيرا من التأليف ، فقد ألف عشرات الكتب ، نذكر منها في الجانب الفقهي : كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك وكتاب الفتيا ، وكتاب في التخاصر والمغالات . (٢)

وأيا أبو القاسم أو أبو سعيد وهو الأشهر ، خلف بن أبي القاسم المعروف بالبراذعي (٣) (ت قريبا من ٣٧٢ هـ) والبراذعي من أشهر رجالات القرن الرابع الهجري في افريقية ، وهو من كبار حفاظ مذهب مالك ، ويعد من الذين أوتوا نصيبا طيبا من التأليف والتصنيف ، فله عدة مؤلفات أشهرها كتاب التهذيب في اختصار المدونة ، وقد جاء به على نسق مدونة سحنون في الترتيب ، وخالف فيه اختصار محمد بن أبي زيد لها حسبا سنعر في ترجمته ابن أبي زيد ، ولقد لقي هذا الكتاب شهرة داخلية وخارجية في بقية المغرب

(١) نحن نستبعد أن يكون ابن حارث قد قدم الأندلس : حدثا وعمره ١١ عاما - وهو ما يقوله عياض أو ١٢ عاما ، وهو ما يقوله ابن فرحون - ، وهو الذي كان في حلقة أحمد بن نصر (ت : ٣١٩ هـ) بالقيروان يتوقد شعله وذكاء فني المناظرة ونعتقد أنه ارتحل الى الأندلس ، وهو أكبر سنا مما ذكر دون شك .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥٣١ - ابن فرحون : نفسه ، ص ١١١ .

(٣) ترجم له بتوسع كل من عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠٨ - ٧٠٩ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٦ - ١٥٠ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٢ -

الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ -

الزركلى المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(٤) لم يحدد عياض ومن نقل عنه كالديباغ وابن ناجي ، وابن فرحون سنة وفاته ، في حين ذكر الحجوى الفاسي ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ أنه عشر على أنه فرغ من تأليف كتاب التهذيب عام ٣٧٢ هـ ، ومن هنا صح هذا التاريخ . أما الزركلى : نفسه ج ٢ ، ص ٣١١ . فيقول إن وفاته كانت عام ٣٧٢ هـ ، وذلك بناء على وجود سجل قديم في مكتبة القيروان يدل على ذلك .

والأندلس ، وحصلت لصاحبه به مكانة علمية (١) . ويؤكد ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب (١) المعالم أن قيمة كتاب التهذيب للبراذعي قد ازدادت أهميته في عصره هو ، فقد أصبح المعول عليه في المشرق والمغرب - لعله يقصد شرق وغرب المغرب والأندلس لبعضهما - وكتاب التهذيب حظى باهتمام واسع من علماء المغرب الأدنى والأقصى والاندلس المتأخرين ، فتناوله بعضهم بالشرح والاختصار والتعليق (٣) ، وللبراذعي كتب أخرى فقهية منها كتاب : تمهيد وسائل المدونة ، وكتاب اختصار الواضحة (٤) ، وكتاب الشرح والتحامات (٥) وغير ذلك ومما يذكر أن العلماء المعاصرين له قد وقفوا منه موقفا عدائيا مما أضطره الى مغادرة المغرب الأدنى ، واللجوء الى صقلية (٦) ، وأرجع المؤرخون

- (١) عياض : المصدر السابق ، ص ٧٠٨ - الدباغ : المصدر السابق ، ص ١٤٦
- (٢) الجزء الثالث ، ص ١٤٧
- (٣) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ حيث ذكر من قام من الاندلسيين والمغاربة بشرحه واختصاره .
- (٤) الواضحة كتاب فقهى من أحل الكتب الفقهية ، التي كان لها شأن عظيم في الاندلس والمغرب . ومؤلفها هو عبد الملك بن حبيب بن ربيع السلمى (ت ٢٣٨ أو ٢٣٩ هـ) أنظر عياض : نفسه ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٧ .
- (٥) عن مؤلفات البراذعي ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٧٠٨ - ٧٠٩ الدباغ : نفسه ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .
- (٦) يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم ج ٣ ، ص ١٤٩ ، ان البراذعي ربما قد عاد الى بلده القيروان وتوفى بها ، وربما ظل في صقلية غير أن الزركلى : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١١ ينفرد دون غيره بالقول بان البراذعي رحل من صقلية الى أصبهان فكان يدرس فيها الأدب حتى مات . لكننا نعتقد أنه قد استشكل عليه الأمر فليس البراذعي الذى ذهب الى أصبهان ولكنه عالم القراءات القيروانى : على بن فضال المجاشعي الذى سنترجم له بعد ان شاء الله .

ذلك الى عدد أسباب ، منها ما ذكر من أن البراذعي كان مؤيدا للفاطميين في افريقية ، حتى أنه ألف كتابا في (تصحيح نسب بنى عبيد) وقيل السبب في ذلك هو تعاطفهم مع الفقيه محمد بن أبي زيـد الذى كان مخلصا للبراذعي^(١)، ولقد قاطع الافريقيون كتب البراذعي ولم يأذنوا بقراءتها ومطالعتها سوى اختصار المدونة لشهرته . (٢)

ومن فقهاء هذا العصر أيضا عبد الرحمن بن محمد بن رشيق (٣) (ت : ٣٨٠ هـ) (٤) وكان متعدد المواهب ، فهو فقيه ومحدث ومؤرخ ، وله مؤلفات فقهية منها كتاب : المستوعب لزيادات مسائل المبسوط مما ليس في المدونة . (٥)

على أن أشهر وأبرز فقهاء هذا العصر هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني (٦) (ت : ٣٨٦ هـ) ومحمد

-
- (١) عياض: المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠٩ ، الدباغ : المصدر السابق ص ١٤٨ ، الزركلى : نفسه ، ص ٣١١
- (٢) عياض : نفسه ، ص ٧٠٩ - الدباغ : نفسه ، ص ١٤٨ .
- (٣) ترجمته موجودة عند : الدباغ نفسه ، ص ١٨٦ - ١٨٧ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ص ١١٠ - الزركلى ، نفسه : الجزء الثالث ، ص ٣٢٥ .
- (٤) لم يحدد الدباغ سنة وفاته وكل ما ذكره هو أن لعبد الرحمن بن رشيق رحلته الى المشرق حج فيها عام ٣٧٦ هـ ، لكن الزركلى في ترجمته له يقول : إنه توفي نحو ٣٨٠ هـ .
- (٥) الدباغ : نفسه ، ص ١٨٧ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ص ١١٠ - الزركلى : نفسه ، ص ٣٢٥ .
- (٦) ترجمته موجودة باستفاضة عند عياض : نفسه ، ص ٤٩٢ - ٤٩٧ الدباغ : نفسه ، ص ١٠٩ - ١٢١ - الكنانى القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧ ، الرصاع : فهرس الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي رقم ٥ ص ٥٨ - ٥٩ - الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١١٧ - عبدالعزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية الجزء الاول ، ص ٢٨ - ٢٩ كما ميل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٩ . كارول بروكلمان .

بن أبي زيد كناقذ وضَّحنا دوره المؤثر في نشر وتثبيت المذهب المالكي ، وذكرنا من قبل كذلك أنه بلغ من المكانة العلمية ما جعل بعض كتاب الطبقات يسميه بمالك الصغير أو الأصغر (١) . وفي الحقيقة فإن مكانته العلمية متفق عليها عند معاصريه وعند المؤرخين قدامى ومحدثين ، ولقد وصفه عدد من مؤرخي الطبقات بأوصاف تدل على سعة علمه وكثرة حفظه ، وروايته ، والرئاسة في العلم والفتيا يقول عياض (٢) : (. . . حاز رئاسة الدين والدنيا ، واليه كانت الرحلة من الاقطار ، ونجب أصحابه ، وكثر الأخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وضم كسره وذبح عنه . وملاّت البلاد تواليه ، عارض كثير من الناس أكثرها ، فلم يبلغوا مداه ، مع فضل السبق وصعوبة المبتدأ ، وعرف قدره الأكابر . الخ) .

ولقد كان ابن أبي زيد حقيقاً بذلك بالفعل لأنه بالاضافة الى ما ذكرناه عنه كان محط الثناء من معاصريه من المغاربة والمشاركة (٣) بل إن المشاركة استجازوه فأجازهم (٤) . ولقد أخذ عنه الكثيرون ممن حصلت له شهرة عريضة في العلم سواء من المغاربة والاندلسيين (٥) ويرى الحجوى الفاسي أن ابن أبي زيد يعد هو وأهل طبقة آخر

-
- (١) أنظر قبل ص ٢٩١
 (٢) المدارك ، ج ٣ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣
 (٣) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٩٣ - الدباغ :
 المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٠
 (٤) عياض : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء والصفحة .
 (٥) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤

المتقدمين ، وأول المتأخرين ، كما يعتقد الحجوى أيضا أنه يمكن
اعتباره من مجددى أمر الدين الذين يبعثهم الله على مشـارف
انتهاء كل قرن ، ذلك بالنسبة لقطر المغرب . (١)

وأبو محمد بن أبى زيد ، اشتهر بكثرة التأليف ، ومن
مؤلفاته الفقهية التى تهمنا هنا : كتاب النوادر والزيادات على
المدونة وهو مشهور جدا ، ويقع في أكثر من مائة جزء . ثم كتاب
مختصر المدونة ، وهو مشهور كذلك وقد اعتمد عليه في الفقه في
المغرب ، إلا أن كتاب التهذيب للبرادعى مالبث أن غمطى على
شهرة كتاب مختصر المدونة هذا ، فأصبح المعول عليه كما ذكر
ابن ناجى فيما نقلناه عنه من قبل في المشرق والمغرب . ومن
كتب ابن أبى زيد أيضا كتاب الاقتداء بأهل السنة وأهل المذهب في
قول آخر ، ثم كتاب ، تفسير أوقات الصلوات وكتاب رد المسائل (٢) ،
ثم كتاب الرسالة وهو مشهور جدا في شهرة كتابه : النوادر . وكتاب
الرسالة عبارة عن شرح مبسط للمسائل الفقهية على مستوى أذهان
الطلبة المبتدئين ، وقد وجهه الى المؤءدب ، محرز بن خلف
عند ما طلب منه هذا أن يكتب له كتابا فقهيا مبسطا يضمنه ما يجب
أن يتعلمه أبناء المسلمين فكتب له تلك الرسالة . (٣)

(١) الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى ، الجزء الثانى ،

ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) عن مؤلفات ابن زيد وكثرتها ، أنظر عياض : المصدر السابق ، ج ٢

ص ٤٩٤ - ٤٩٥ - الدباغ : المصدر السابق ، ص ١١ - ١١١ -

الكتانى القيروانى : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧

الرصاص : فهرست الرصاص : تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨ - ٥٩ -

عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ، ج ١ ،

ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) الرصاص : نفسه ، تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨ - ٥٩

ولقد حظيت الرسالة بالاهتمام الشديد ، فأخضعها
الكثيرون في المغرب الأدنى والأقصى والأندلس وحتى مطلع
العصور الحديثة للشرح والاختصار والتعليق (١) ويقول بروكلمان
إن مشروحاتها وتعليقاتها ومختصراتها بلغت ٢٨ شرحاً ومختصراً
وتعليقاً (٢) . ويقول الحجوى الفاسى إنه لا زال المعول عليها
حتى عصره . (٣)

ومن فقهاء عصر الزيريين المعدودين أبو الحسن على
بن محمد بن خلف المعافى القروى المعروف بالقابسى (٤) (٣٢٤ -
٤٠٣ هـ) والقابسى ممن برع في فنون شتى ومن بينها الفقه ،
ومن مؤلفاته فيه : الممهّد في الفقه ، وكتاب أحكام الديانة ،
وكتاب مناسك الحج ، وكتاب الذكر والدعاء وغير ذلك . (٥)

ومن الفقهاء المعروفين أيضاً في مطلع القرن الخامس
الهجرى ، أبو على بن خلدون (٦) (ت : ٤٠٧ هـ) وقد عرفنا
من قبل أنه أحد الذين كان لهم دور في تثبيت المذهب
المالكي بأفريقية ، كما عرفنا أنه تعرض للاضطهاد نتيجة لموقفه

-
- (١) أنظر كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ -
٢٨٩ - عبدالعزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ،
ج ١ ، ص ٢٨ - ٢٩ .
- (٢) تاريخ الادب العربى ، ج ٣ ، ص ٢٨٧
- (٣) الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى ، ج ٢ ، ص ١١٦
- (٤) عن ترجمته ، أنظر بعد ص ٤٠٥ .
- (٥) عياض : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٦١٨ وما بعدها
- الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٦ - الكنانى :
القيروانى ، تعليق ، رقم ٣٠ ص ٧
- (٦) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٦٢٤ -
٦٢٦ الدباغ : نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥١ - ١٥٥ .

ذلك ، مما أفضى الى مقتله في عهد المعز بن باديس (١) وأبو علي بن خلدون من الفقهاء المعروفين رغم أنه لم يكن له حظ من التأليف ومنهم أبو حفص عمر بن محمد العطار (٢) (ت قبل ٤٣٢ هـ) (٣) وهو من فقهاء افريقية المشهورين وقتذاك ، وكان معاصرا لابي بكر بن عبد الرحمن الخولاني الذي سنترجم له بعد قليل ، ولأبي حفص عمر العطار تعليق على مدونه سحنون مشهور مذكور (٤).

ومن فقهاء افريقية في هذا العصر ، أبو عمران موسى بن موسى بن أبي حاج الفاسي (٥) (ت : ٤٣٠ هـ) وكان له دور علمي وثقافي مشهور في القيروان . ولقد سبق وأن عرفنا من قبل دوريه : في الرحلات العلمية ، وفي نشر وتثبيت المذهب المالكي بافريقية (٦) ، وأبو عمران ممن برع في علوم شتى كالحدith والفقه والقراءات ، ومن مؤلفاته الفقهية كتاب تعليق على المدونه . (٧)

- (١) أنظر قبل ص ٢٩٣.
- (٢) لم نجد له ترجمه سوى عند الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .
- (٣) لم يحدد الدباغ سنه وفاته غير أنه قال إنه توفي قبل وفاة الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن الخولاني معاصره ، ولما كان أبو بكر الخولاني قد توفي عام ٤٣٢ هـ كما هو ثابت فقد قلنا إن أبا حفص عمر العطار توفي قبل ٤٣٢ هـ على الأكثر أو في نفس العام .
- (٤) الدباغ : نفسه ، ص ١٦٥ .
- (٥) عن ترجمته أبي عمران الفاسي أنظر بعد ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .
- (٦) أنظر قبل ص ١٤٥ - ٢٩٢ .
- (٧) عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

ومن الفقهاء المشهورين أيضا أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني (١) (ت ٤٣٢ هـ) ، وقد تلقى علومه على أيدي مجموعة من كبار علماء إفريقية كمحمد بن أبي زيد ، وأبي الحسن القابسي وغيرهما . وتمتع أبو بكر الخولاني ههنا بشهرة عريضة في بلده ، وحصل لها جمار في تقديمه وفضله وعلمه (٢) ومما يؤيد على علو كعبه في العلم أنه كان يقول : (لو عدت المدونة لكتبتها من صدرى) (٣) ، ويقول تلميذه ومعاصره عبد الخالق السبوري الذي سنترجم له بعد قليل : (مارأيت أبا بكر بن عبد الرحمن أخطأ في مسألة واحدة من المدونة) (٤) . وههنا القول والذي قبله دليل بالغ على مقدار عظم مكانة المدونة في نفوس المغاربة . وأبو بكر الخولاني عرفناه من قبل في حديثنا عن نشر المذهب المالكي ذابا ومدافعا عنه ، وعرفنا كذلك أنه كانت له مواقف من المعز بن باديس (٥) غير أننا للأسف لم نعرف له جهدا تأليفيا يذكر في الفقه . ومن علماء المغرب الأدنى المتأخرين عالمان مشهوران هما أبو القاسم بن محرز بن خلف القيرواني (٦) (ت : ٤٥٠ هـ) وكان ممن يحفظ المدونة وله عليها تعليق ، وأبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي (٧) صاحب كتاب رياض النفوس المشهور . (ت ٤٥٣ هـ)

-
- (١) ترجمة أبي بكر الخولاني موجودة بتوسع عند عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ١-٧ - ٢ - ٧ الدباغ : المالكي : المصدر السابق والجزء ، مقدمة المحقق ص ٤٨ م - ٥٠ م - (نقلا عن الدباغ في معالمه) .
- (٢) أنظر مقدمة الجزء الأول من رياض الصالحين ، ص ٨ م - ٩ م
- (٣) مقدمة الجزء الأول - الرياض ، ص ٨ م (نقلا عن الدباغ في المعالم) .
- (٤) نفس مقدمة الرياض ، ص ٨ م (نقلا عن الدباغ في معالمه)
- (٥) أنظر قبل ص ٢٩٤
- (٦) عبد الرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ٢٣٢ (نقلا عن الدباغ في معالمه)
- (٧) الدباغ : نفسه ، ج ٣ ، ص ١٧٠ - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ص ١٠٨ - حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ٢١ م - ٢٢ م - ٢٨ م - ٤٧ م - ٥١ م - ٥٣ م .

وأخيرا نذكر عالمين ، وهما وإن كانا قد ماتا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى حيث تقف الرسالة ، إلا أن دورهما كان كبيرين في الفقه لا سيما وأنها عاشا فترة طويلة من حياتهم في الفترة التي نؤرخ لها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تدلنا ترجمتها عن القدر الخطير من الأهمية التي بلغت مدونه سحنون .

فالأول منهما هو : أبو القاسم عبد الخالق السيوري (١) (ت ٤٦١ هـ أو ٤٦٢ هـ) ، وقد قال عياض (٢) عنه ، (هو خاتمة علماء فريقية وآخر شيوخ القيروان ذوى الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب . . الخ) . وكان له عناية بجانب الفقه بالحديث والقراءات (٣) . وله تعليق على المدونه ، وفى هذا الصدد يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم (٤) (إن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتهم في المدونة أكثروا فسي ثمنها . فاشترى بالقيروان منها حتى عدت منها ، فأثروا إلى الشيخ أبي القاسم السيوري ، وعرفوه فأملأها عليهم من رأسه ثم وجدت نسخة بالقيروان ، فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها ، فوجدت ما سواها) .

وثانيهما هو أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي (٥) (ت ٤٦٦ هـ) ، وكان عالما مشهورا

-
- (١) ترجمته موجوده عند عياض : المصدر السابق ، والجزء ص ٧٧٠ - ٧٧١ - الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨١ وما بعدها مخلوف : المصدر السابق ص ١١٦ .
- (٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٧٧٠
- (٣) الدباغ نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ١٨١ - مخلوف نفس المصدر السابق والصفحة اعلاه .
- (٤) ج ٣ ، ص ١٨١
- (٥) ترجمته عند عياض : نفسه ، ص ٧٧٤ - ٧٧٦ ، ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ - مخلوف : نفسه ، ص ١١٦

وله مؤلفات مهمة في الفقه منها : كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة ، وقد ألف للناشئة ، ثم رجع مؤلفه عبد الحـق عن كثير من تعليقاته واختياراته واستدرك عليه . وله كذلك كتاب كبير في شرح المدونة المسمى بتهذيب الطالب ، وقد نبه فيه على ما استدركه على كناية النكت والفروق ، وله كذلك استدراك المختصر (١) البراذعي الذي عرفناه قبل .

أما عن الفقه في بقية مدن وأقاليم إفريقية خلال العصر الزيري ، فإن البلاد لم تخل في الحقيقة منه ، فمن أبرز أولئك الفقهاء أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي (٢) - (ت : ٤٠٢ هـ) (٣) وهو من علماء مدينة المسيلة المعروفة بالمحمدية أو مدينة بسكرة بأقليم الزاب ، ويعتبر من العلماء المعدودين في هذه المدينة ممن جمع بطرق أكثر من علم كالحدِيث والفقه وغير ذلك . ومن مؤلفاته في الفقه : كتاب القاضي في شرح الموطأ ، وكتاب الداعي في الفقه وكتاب الأموال (٤) . ومن فقهاء مدينة تونس أبو اسحاق إبراهيم بن حسن التونسي (ت : ٤٣٠ هـ) ، وهو ذواهتمامات علمية فقهيّة

- (١) عياض : المصدر السابق ، ص ٧٧٧ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٤
(٢) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : المصدر السابق والجزء ص ٦٢٣ - ٦٢٤ ابن فرحون : المصدر السابق ص ٣٥ ، مخلوف : المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ - الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢١
(٣) هذا ما أورده عياض : بل ورجّحه ، بعد أن استبعد أن يكون قد توفي عام : ٤١١ هـ كما ذكر في نفسه الترجمة أيضا ، لكن محمد بن محمد مخلوف يذكر أن وفاته كانت عام ٤٤٠ هـ ، ويبدو أن هذا بعيداً ، فقد عاصر الداودي كثيرا من علماء القيروان المتقدمين وهم من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .
(٤) عياض : نفسه ، ص ٦٢٣ - ابن فرحون نفسه ، ص ٣٥

وعقائدية ، ولقد كان له موقف تجاه الفاطميين ، تعرض بسببه الى معاداة زملائه من فقهاء البلاد حسبما سنعرف بعد إن شاء الله وذكر أن له تعليقا على المدونة . (١) ومن علماء مدينة طرابلس المشهورين في هذا العصر ، ابو الحسن علي بن المنمّر (٢) (ت : ٤٣٢ هـ) وهو فقيه محدث وعالم فرائض في آن واحد ، وقد عرفنا من قبل دوره في نشر المذهب المالكي في بلده (٣) ولأبي الحسن علي بن المنمّر مؤلفات فقهية منها : الكافي في الفرائض أوالمواريث ، وهذا الكتاب يعتبر عمدة في بابه ، وقد اعتمده عليه كثير من المشاركة والمغاربة (٤) ومن علماء طرابلس المتأخرين أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي اللبيدي (٥) نسبه الى لبيدة قرية ساحلية جنوب مدينة طرابلس (ت : ٤٢٠ هـ) وقال عياض (٦) هو آخر طبقة موات ، وقد نال صيتا واسعا في بلده

- (١) أنظر الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٠-٢٠١ في ترجمته لابن الصائغ المتوفى سنة ٤٨٦ هـ ، فقد ذكر أن ابن الصائغ اكمل التعليق الذي بدأه شيخه أبو استحاق التونسي : وانظر كذلك : المصدر والجزء نفسه ، ص ٣١٠ في ترجمته الدباغ : لأبي عبد الله محمد بن سعدون بن بلال المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ، فقد ذكر أيضا انه اكمل تعليق شيخه التونسي على المدونة هو الآخر .
- (٢) ترجمته موجودة عند مخلوف : المصدر السابق ص ١١٠ ، ويسميه أبو الحسن بن علي بن محمد المنتصر - الزركلي : المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص ٣٢٧ ، ويطلق عليه ابن المنتصر أيضا - علي مصطفى المصراي : اعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ص ٢٢-٣٦ بتوسع .
- (٣) أنظر قبل ص ٢٩٤-٢٩٥
- (٤) علي مصطفى المصراي : اعلام من طرابلس ، ص ٢٨
- (٥) ترجمته موجودة باستفاضة عند : عياض ، نفسه ، ص ٧٠٧-٧٠٨ = الدباغ : نفسه ، ص ١٧٦ ، ابن فرحون نفسه ص ١٥٢ - مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩
- (٦) المدارك ، ج ٣ ، ص ٧٠٧

وفى افريقية) وللبيدي مؤلفات فقهية كثيرة ، منها كتاب جامع فى المذهب ، ويقع فى اكثر من مائتي جزء كبار فى مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها . وكتاب زيادات الأمهات ونوادير الروايات وكتاب فى اختصار المدونة يسمى الملخص (١) وغير ذلك .

ومن علماء قفصة أبو اسحاق بن منصور القفصى (٢) (ت بعد ٤٦٠ هـ) ولا تعرف عنه شيئا اكثر من هذا .

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الحنفية فى عصر الزيريين ، فالواقع أننا لم نعر على أى ذكر لنشاطات فقهية لهم فضلا عن أننا لم نتعرف على تراجمهم ، ولعل أقصى ما نستطيع قوله هو إن الاحناف بعد رحيل الفاطميين الى مصر استكانوا الى الدعة والعلم ، وخاصة بعد أن بدأت الأمور تعود لصالح المذهب المالكي ابتداءً من القرن الخامس الهجرى ، فالتقى هؤلاء مع اخوانهم العلماء المالكيين فى تصاف وتحاب طيلة عصر الزيريين (٣) . أما عن فقهاء الشافعية ، فلم نعر لبلته على ما يدل على أى نشاطات علمية لهم خلال هذا العصر ، ناهيك عن ذكر اسمائهم .

ويبدو أن قلة المعلومات وندرتها هو حال كل الدراسات الفقهية الاخرى ، فمعلوماتنا عن الدراسات الفقهية الاباضية فى هذا العصر ليست بأحسن حال من معلوماتنا

-
- (١) عياض : المصدر السابق والجزء ٨ - ٧٠ - الدباغ : المصدر السابق ص ١٧٦ -
(٢) مجموعة من العلماء والادباء فى تونس : تاريخ قفصه
وعلمائها ، ص ١١٨ - ١١٩ .
(٣) أنظر السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ،
ص ٦١ - ٦٩ .

عن الفقه عند الاحناف والشافعية ، فبالنسبة للفقه في اقليم الجريد
لم نستطع تتبع دوره وكل الذى عرفناه عن الفقه الاباضى هناك
أنه قد ضعف شأنه في أواسط القرن الخامس الهجرى (١) . أما
عن فقهاء الاباضية فقد عرفنا بعضا منهم نذكر أشهرهم وهـ
أبو الربيع (٢) سليمان بن على بن يخلف المتوفى سنة
٤٧١ هـ ، وقد اشتهر بغزارة علمه في علم الفرائض أو المواريث ،
كما أن له في الفقه ديوانين كبيرين (٣) . ومنهم ايضا ابو محمد
عبد الله بن جابر (٤) ، وقد عاش فترة بعد سقوط الدولة
الزيرية .

ومنهم كذلك ابو محمد ماكسن بن الخير ، وهو من جريرة
في جنوب اقليم الجريد ، وقد تنقل في جل مدن افريقية والجنوب
الجزائري ، وكانت له مكانة علمية بين أهل مذهبه ، وكان له العديد
من الاجتهادات الفقهية . (٥)

- (١) صالح باجية : المرجع السابق ، ص ٥٧
- (٢) صالح باجية ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ - على
- معمر : الاباضية في الجزائر ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- (٣) صالح باجية : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠١ - ٢٠٢
- (٤) على يحي معمر : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٥٨ .
- (٥) ترجم له وتتبع نشاطاته العلمية والاجتماعية ، على يحي معمر في كتابه : الاباضية في الجزائر ، ص ١٩٣ - ٢٠١

أما عن الفقه في جبل نفوسة ، فيبدو أنه لم يكن كذلك
أوسع انتشارا من الفقه في الجريد وغاية ما نستطيع ذكره —
خلال اسماء الفقهاء التي طالعناها في هذا العصر الفقيه الاباضى المشهور
أبو عبد الله محمد بن بكر (٣٤٥ - ٤٤٠ هـ) الذى كانت له
سمعة علميه مدوية في جبل نفوسة وفى اقليم الجريد وفى تجمعات
الاباضية بالجزائر . ويعزى إليه وضع نظام يتولى جميع القضايا
والشئون الخاصة والعامة بالا باضية فى يد مجلس مكون من العلماء
فيما عدا القضايا الخاصة بالإمام نفسه ، كإقامة الحدود وغيرها .
وعرف هذا النظام بنظام الغرابة ، الذى يُعتبر عند الاباضية بدىلا
لنظام الإمامة . (١) ومن علماء الاباضية المشهورين بالجبل
أبو محمد عبد الله بن العاصمة اللداتى . (٢)

(١) عن أبى عبد الله محمد بن بكر وعلمه ونشاطاته وآرائه الاجتماعية

ونظام العزابة ، أنظر على يحيى معمر ، نفس المرجع
السابق ص ١٧٦ - ١٩٢ - أحمد مختار عمرو : المرجع
السابق ، ص ١٤٧ - مع الحواشي ، عن نظام العزابة .

(٢) أحمد مختار عمرو : نفس المرجع السابق أعلاه والصفحة .

الحديث

- الحديث في عصر الولاة
- الحديث في عصر الاغالبة
- الحديث في عصر الفاطميين
- الحديث في عصر الزيبيين

الحديث :

توطئه : لعل أهم ملاحظة يخرج بها المتتبع للدراسات الشرعية في افريقية خلال الفترة الزمنية موضع الاهتمام ، أن دراسة الحديث لم تواكب الازدهار والتقدم الذى عرفته الدراسات الفقهية والذى فرضته عدة اعتبارات معينة . وأول هذه الاعتبارات هو أن اوضاع المغرب الأدنى في مطلع القرن الثانى الهجرى كانت تحتتم الاهتمام بالفقه بالدرجة الأولى ، لاستجلاء غموض كثير من القضايا التعبدية والعقائدية التى كانت تواجه المغاربة والذين كانوا يتطلعون الى معرفة حلولها ، ولعل فيما ذكرناه عن مراسلة خالد بن أبى عمران التجيبى للتابعين في المدينة ، ومراسلة عبد الله بن فروخ وابن غانم لمالك بن أنس بالمدينة ، ما يفسر ويؤكد صدق ما ذهبنا اليه . وثانى هذه الاعتبارات هو أن المغرب لم يعرف ، بل لم يعيش ما عاشه المشرق من فترات عصيبة ظهر خلالها الوضع في الحديث والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم . فالمذاهب السياسية والكلامية التى تكونت في المشرق آنذاك سعى الكثير من رجالها الى تأييد وجهات نظرهم بوضع الأحاديث المكذوبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التى تخدم آراءهم ولقد تلى ذلك تصدى الغيورين على السنة لهؤلاء ونفسي الكثير من تلك الاحاديث التى وضعوها . وهذا الاعتبار فى تصورنا كان له دوره في أنه لم يظهر من المغاربة ممن اعتنى بالتصديق لتلك الموجة من الوضع . وأما ثالث هذه الاعتبارات فهو انه في غمرة انشغال المغاربة في الخلوص الى الطريق أو المنهج الفقهى الملائم لهم ، والذى تمثل في ما ثار من خلاف حول الأسديّة ، ثم ما استقر عليه من الاخذ بمدونة سحنون ، كان علم الحديث في الدولة الاسلامية قد قطع خطوات مهمة في وضع قواعده وأسسها اذ لا يخفى أن الحديث في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى

قد تخطى مرحلة الرواية الشفهية الى التدوين الذى حصل
ابتداءً من منتصف القرن الثانى الهجرى ، كما أن المشرق قد
عرف وقتها استقلال دراسة الحديث عن لفقه بظهور المصنفات
الحديثية عن طريق كتب المجموعات والمسندات . ثم اطل على
ذلك من ظهور المصنفات الحديثية الصرفة المتمثلة في كتب الصحاح
المبنية على تمييز الصحيح وتشريح الرجال والحكم عليهم (١) . كما
أن المشرق قد عرف مع كتب الحديث البحتة منشأ من علوم
متعلقة بالحديث اقتضاءً كعلم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح
والتعديل . (٢)

كل هذه الخطوات التى خطاها علم الحديث لم يسهم فيها
المغاربة بجهد يذكر بسبب ما ذكرناه من تأثير تلك الاعتبارات ومن
هنا كانت اسهامات المغاربة في علم الحديث لا تتعدى جمع الحديث
وتدريسه ووضع المؤلفات التى تتمشى مع نهج المشاركة أو لنقل

- (١) عن مراحل نشأة علم الحديث في الدولة الاسلامية ، أنظر
مخلوف : المصدر السابق ، ص ٢١ - ٣٦ - الحجوى الفاسي
المراجع السابق ، ص ٣٣٣ - ٣٨٥ أحمد أمين : فجر
الاسلام ، ص ٢٠٨ - ٢٢٤ ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ،
ص ١٠٦ - ١٣٣ - أحمد على الملا : أثر العلماء
المسلمين في الحضارة الاوربية ، ص ٤٠ - ٤٤ - صبحي
الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، الباب الأول ، ص
١٠٤ - ١٠٥ ، الباب الثانى ، ص ١١٤ - ١١٥ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١١١ ،
١٢٧ - ١٣٤ أحمد على الملا ، نفس المرجع السابق ،
ص ٤٢ - ٤٦ عمر فروخ ، العرب في حضارتهم
وثقافتهم ، الى آخر العصر الاموى ، ط ٢ ، ص ٩ - ١١

تقليد منحى المشاركة . هذا شيء ، والشئ الآخر ، هو أن المغرب الأدنى لم يشهد ظهور محدثين خُلص ، فكل الذين برعوا —————
المغاربة في الحديث كانوا فقهاء في نفس الوقت كما أن نسبة
المحدثين الخُلص منهم كانت قليلة جدا أو تكاد تكون نادرة .

وكيفما كان الأمر ، فسنمضى في تتبع دراسة الحديث
في افريقية (المغرب الأدنى) بتقسيمها الى عصور زمنية أربع ،
لا لأنه قد صاحبت مسيرته العلمية متغيرات اختلف عطاؤها —————
باختلاف هذه العصور كما عرفنا عند دراستنا للفقهاء ، ولكن للحفاظ
على الناحية التنظيمية المحضة التي راعيناها في دراستنا هذه

على أننا قبل أن نستعرض دراسة الحديث في افريقية
(المغرب الأدنى) خلال هذه العصور الاربع علينا أن نشير الى
أننا لم نعثر على أى نشاطات في دراسات الحديث لعلماء
المذاهب الاخرى غير المالكي كالأحناف والشافعية والإباضية
والشيعة .

الحديث في عصر الولاة :

ليس من شك في أن من الطبيعي أن يحرص التابعون الذين جاءوا الى افريقية سواء أولئك الذين قدموا طواعية ، أو الذين بعثهم عمر بن عبدالعزيز على نشر الاسلام والدراسات الاسلامية من فقه وحديث وتفسير . ولهذا فليس بدعا أن نعتبر أولئك التابعين الطبقة المبكرة من المحدثين الذين أسهموا في نشر دراسة الحديث في المغرب الأدنى ، على الرغم من أن كتاب الطبقات لم يوضحوا ذلك الجهد بجلالة واضح ، وإنما أشاروا اليه ضمنا . (١)

على أن ذلك الجهد المتعلق بالحديث ودراسته ما لبث أن أخذ يتضح في كتب كتاب الطبقات كأبي العرب التميمي ، وأبي بكر المالكي ، وغيرهما ، عندما بدأوا يتحدثون عن الطبقة التالية لتلك الطبقة الاولى من التابعين ، فأخذنا نلاحظ ابتداءا من الطبقة هذه اشارات واضحة تدل على اهتمامات المترجم له سواء كانت فقهية أو حديثية أو فقهية حديثة معا .

ومن أول رجالات هذه الطبقة من عصر الولاة ، أبو محمد خالد بن عمران التجيبي الذي عرفنا دوره في تقدم الدراسات الفقهية . ولعل مما يدل على علو شأنه في الحديث ، هو قول أبي العرب التميمي (وكان خالد ثقة مأمونا) (٢) . وهذه العبارة كانت

(١) أنظر أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٢٠ - ٢٦ ، المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٤ - ٧٦ ، ٧٧ -

(٢) كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ٢٤٥

غالباً ما تلصق بالمحدث على لسان المؤرخين وغيرهم . وممن محدثي افريقية المعروفين كذلك خلال هذا العصر ، عبد الملك بن أبي كريمة وقد عاش في مدينة تونس يثرى حياتها العلمية . (١)

ومن المحدثين المذكورين أيضاً ، أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري . وعبد الرحمن بن زياد اتضحت لنا بعض مجهوداته العلمية عند حديثنا عن الرحلات والدراسات الفقهية لكن ابن زياد لم يكن فقيهاً فحسب ، بل كان محدثاً بل لعل الحديث قد غلب عليه ، فأدخله المؤلفون لعلم الحديث - في كتبهم . (٢) ولقد عرف أهل المشرق ومنهم سفيان الثوري الذي كان يجلس عبد الرحمن بن أنعم ذلك الفضل لغير أنهم أخذوا عليه روايته لبضعة أحاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يروها أحد من أهل العلم (٣) ويقول مخلوف (٤) نقلاً عن ابن عبد البر الحافظ الأندلسي المشهور إن أهل مصر وافريقية والمغرب أثنوا عليه بالفضل والدين والعقل ، ثم قال ابن عبد البر معقبا : (وهم أعلم من سواهم) على أن ابن السراج ، (٥) وهو المؤرخ الافريقي

-
- (١) أبو العرب التميمي : طبقات علماء افريقية ، ص ٢٤٧
 (٢) المالكي : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٩٦ .
 (٣) أبو العرب التميمي : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣٠ المالكي : نفسه ، ص ٩٦ - ٩٧ - مخلوف
 المصدر السابق ، حاشية رقم ١ ، ص ٦١ - ٦٢ - ابن
 السراج : المصدر السابق ، ج ١ . قسم ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣
 (٤) شجرة النور الزكية ، حاشية رقم ١ ، ص ٦١ - ٦٢ .
 (٥) الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، ج ١ ، ص ١ ،
 ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

المعروف ، يشير الى أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم كان متروك الحديث ، وذكر أن كثيرا من أهل العلم قد ضَعَفوه ، ومنهم مـ مغاربة معاصرين له كالبهلول بن راشد وغيره . ونحن با لطبع ليس من مهمتنا البحث في هذه القضية ، لكننا أوردنا ذلك لنوضح جهد ابن أنعم في دراسة الحديث .

على أن أشهر محدثي هذا العصر ، هو عبدالله بن فروخ الفارسي المتوفى عام ١٧٤ هـ ، وعبدالله بن فروخ كان ذا أثر عميق في مجمل الدراسات الشرعية في افريقية كما عرفنا في حديثنا عن الرحلات العلمية ، وفي حديثنا عن دور ابن في نشر المذهب المالكي والفقهاء المالكي والحنفي . ويكاد دور ابن فروخ في دراسة الحديث يكون أوضح ممن سبقه من محدثي عصر الولاة والذين تحدثن عنهم ، فلقد أشار مؤرخو التراجم والطبقات الذين ترجموا له صراحة على تلقية علوم الحديث على يد عدد من المحدثين كزكريا بن أبي زائدة ، وعبدالله بن جريج ، والأعمش ، وهم من أقطاب الحديث في المشرق آنذاك . (١) ولقد مدحه أبو العرب فقال (وكان ثقة فـ في حديثه) (٢) ، ويذكر المالكي وعياض أنه سمع من أبي حنيفة

-
- (١) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٣٤ - ٣٦ -
عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٣٤٣ -
٣٤٤ - المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٥
١١٦ - الدباغ : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ -
(٢) طبقات علماء افريقية ، ص ٣٤ .

النعمان آحاد يث كثيرة أثناء طلبه العلم عليه في الكوفة . (١)

وفيما يتصل بمسيرة دراسات الحديث في بقية مدن وأقاليم
افريقية ، فإننا في الواقع لم نعثر على ما يدل على اهتمامات حديثية
الهم الا ما روى عن محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي ومحمد
بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي اللذين ذكر أنهما رويَا كثيرا من
الاحاديث عن عدد من علماء ومحدثي المشرق . (٢)

(١) ذكر عياض : المصدر السابق والجزء ، أن ابن فروخ سمع من
أبي حنيفة ٣٠٠ ألف حديث . ولا شك أن هذا مبالغ
فيه جدا ، بينما ذكر المالكي : نفسه ، ص ١١٦ والدبّاغ
نفسه ، ص ٢٤١ أنه سمع منه ٣٠٠ حديث
فقط ويبدو أن هذا أقرب للصواب . رغمما أشتهر
عن أبي حنيفة من تشدد في قبول الاحاديث الا الصحيحة
الثابتة منها .

(٢) عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩٠

الحديث في عصر الاغالبية :

ليس من ريب في أن الدراسات الحديثة، قد عرفت في العصر الأغلبى تقدما وتوسعا في الكم والنوع ، وبدأنا نعرف في هـذا العصر علماء يكاد يكون الحديث فـنهم الوحيد بالدرجة الأولى . ومن أوائل الأسماء التى تطالعنا من المحدثين في هذا العصر ، محمد بن على الرعينى (ت أواخر القرن الثانى الهجرى) وهو ممن رحل الى الحجاز فتلقى علومه على يد علمائه ، ثم عاد الى بلده ينشر فيه علمه . (١)

ومن علماء الحديث المشهورين والمبكرين في عصر الاغالبية أبو زكريا يحيى بن سلام أو السلام بن أبى ثعلبه البصرى التميمى ربيعة الافريقى (٢) (١٢٤ - ٢٠٠ هـ) وأبو زكريا يحيى بن سلام أحد المشاركة الذين استوطنوا المغرب الأدنى وأحدثوا به أثرا علميا معروفا ، لاسيما وأنه كان ذا مكانة مرموقة في المشـرق ، فقد ذكر أنه تلقى علومه على يد عدد من العلماء كـبير يفوق الثلاثمائة من تابعين وغيرهم (٣) ، ولقد كان الحديث هو أغلب شأنه بالاضافة الى التفسير . (٤)

(١) حسن حسن عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ،

القسم الثانى ، ص ٣٩١ .

(٢) عن ترجمته أنظر بعد ص ٤١٥ - ٤١٦

(٣) المالكى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٢ - الداودى :

طبقات المفسرين ، ص ٦٨٥ .

(٤) أبوالعرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ -

المالكى : نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - الداودى : طبقات

المفسرين ، ص ٨٦٥ وعن دوره الواسع فى التفسير

أنظر بعد ص ٢٠٠

ومنهم أبو خازجة عنيسة بن خازجة الغافقي (١) (ت : ٢١٠ هـ) وهو من محدثي إفريقية ممن سمع من مالك بن أنس وسفيان بن عيينه وغيرهما من رجالات الحديث في المشرق .

ويأتي أبو الوليد عباس بن الوليد الفارسي (٢) (ت : ٢١٨ هـ) على رأس محدثي البلاد في العقد الثاني من القرن الثالث الهجري وهو ممن اشتهر بالحديث وكان موضع ثناء من معاصريه وغيرهم من كتاب الطبقات . ويقول فيه أبو العرب التميمي (٣) (كان ثقة مأمونا حافظا للحديث، لقي جماعة ، من المحدثين منهم ابن عيينة وحمام بن زيد والفضيل بن عياض ، وبشرا كثيرين من محدثي الأمصار . . الخ)

ويذكر أبو العرب (٤) أن امامته في الحديث بالطبيع - قد انتشرت بالمغرب وبالمشرق .

وممن اشتهر كذلك بميله للحديث خلال عصر الأغلبية ، أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليعصبى (ت ٢١٩ هـ) وهو من كبار المحدثين آنذاك ، وقد تلقى علومه على علماء المشرق وعلى راسهم مالك بن أنس. (٥)

-
- (١) ترجمته موجوده عند أبي العرب : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، المالكي : المصدر السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .
- (٢) ترجمته موجوده عند أبي العرب : نفسه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ . المالكي : نفسه ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .
- (٣) طبقات علماء إفريقية ، ص ٢٥٤ .
- (٤) طبقات علماء إفريقية ، ص ٢٥٤ .
- (٥) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ - المالكي نفسه ، ص ٢٩٩ - ٢٠١ - عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٨٠ - ٤٨٤ .

وممن جمع بين الفقه والحديث وقتذاك محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي المتوفي سنة ٢٥٦ هـ ، مرت بنا ترجمته من قبل وعرفنا من شخصيته العلمية ملامح عديدة ، سواء بالنسبة لرحلاته العلمية أو لدوره في نشر وتثبيت المذهب ، أو نشاطاته الفقهية العلمية المؤثرة . غير أن ما جعلنا نؤجل الحديث عن ترجمته العلمية الواسعة هو مكانته في الدراسات الحديثية التي اشتهر بها أيضا . ومن مؤلفاته في دراسة الحديث كتاب : المسند في الحديث ، وهو كتاب كبير ، وكتاب غريب الحديث في ثلاثة أجزاء . (١)

ومن محدثي العصر الأغلب المشهورين أبو الربيع سليمان بن سالم القطان (٢) المعروف بابن الكحالة (ت ٣٨٩ هـ) (٣) ، وقد غلبت عليه دراسة الحديث والتقيد والرواية كما يذكر مخلوف (٤) في كتابه السابق .

ومنهم أيضا ، أبوسهل فرات بن محمد العبدى (ت ٢٩٢ هـ) كما ذكرنا من قبل ، فلقد جمع الى براعته في الفقه براعه في الحديث وأسماء الرجال وأخبارهم ، غير أنه كان منسوبها الى الكذب في كثير من أخباره . (٥)

(١) محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص ٢٦ - عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) ترجمته موجوده ، عند عياض : نفسه ج ٢ ، ٢٣٣ - ٣٤ -

مخلوف : المصدر السابق ، ص : ٧١ - مجموعة

من الادباء والعلماء : تاريخ قفصه وعلمائها ، ص ١١٢

(٣) أشار عياض الى أنه توفي سنة ٢٨٩ هـ كما في المتن غير أن مخلوفا : نفسه ، ص ٧١ ، يقول إنه توفي سنة ٢٨٢ هـ ،

أو ٢٨٣ هـ .

(٤) مخلوف . المصدر السابق ، ص ٧٢

(٥) مخلوف : نفسه ، ص ٨٤

ومن المحدثين الذين كان لهم شهرة كبيرة في نهاية العصر
الأغلبي، عيسى بن مسكين بن جريج المتوفى عام ٢٩٥ هـ، فعيسى
بن مسكين بالاضافة الى أنه كان فقيها معروفا كما رأينا من قبل، كان من علماء
الحدِيث المذكورين ومن أشتهر بمعرفة الرجال وكفاهم وقويهم
وضعيفهم (١).

ثم سعيد بن اسحاق (ت ٢٩٥ هـ) الذي اشتهر وعرف بكثرة
الرواية والجمع للحدِيث (٢)، وغيره.

أما عن علماء الحدِيث في بقية مدن وأقاليم المغرب الأدنى
فلم تسعفنا كتب الطبقات وغيرها بتوضيح ذلك. وعلى كل حال
فذلك شيء طبيعي، فدراسة الحدِيث نفسها في افريقية بصفة
عامة كانت أقل انتشارا من الفقه في البلاد كما ذكرنا.

على أنه لدينا بعض المعلومات عن دراسة الحدِيث ورجالها
في بعض المدن الافريقية، وخاصة مدينة قفصة التي اشتهرت بتخريج
عدد من المحدثين من أبنائها. ومن أبرز هؤلاء، محمد بن تميم
العنبري القفصي (ت ٢٦٠ هـ)، وقد اشتهر بالحدِيث وحده تقريبا
وتلقى علومه على أيدي أشهر علماء الحدِيث في المشرق من
أمثال: أنس بن عياض، وعبد الله بن وهب، ويحيى بن عبد الله
بن بكير المخزومي وغيرهم من أقطاب الحدِيث هناك (٣). ويعتقد
بعض الباحثين المحدثين من التونسيين، أن محمدا بن تميم (٤)
العنبري قد مهد لمدرسة حدِيثية مالكية المذهب، تعتمد الأثر

(١) عياض: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٣

(٢) مخلوف: المصدر السابق، ص ٧٢

(٣) مجموعة من الادباء والعلماء، تاريخ قفصة وعلمائها، ص

١١٠-١١١.

(٤) تاريخ قفصة وعلمائها، ص ١١

وحده ، وتختلف عن مدرسة عبدالرحمن بن القاسم العتقى ،
التي قامت عليها المدرسة السحنونية ، ولقد تلى محمد بن تميم
ابنه هبة الله (ت قريباً من ٢٦٠ هـ) الذى اقتفى أثر
والده في سيره على النهج السابق . (١)

وفي مدينة سوسة ، نجد ذكراً لاسم لامع من رجالات الحديث
هو زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطى الازدى السوسى (٢)
(ت ٢٩٢ هـ) .

-
- (١) مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، وعلمائها
ص ١١١ .
(٢) مخلوف : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

الحديث في عصر الفاطميين :

الواقع أنه ليس ثمة ما يميز دراسات الحديث في عصر الفاطميين عن عصر الأغلبة الا وضوح معالم مدرسة حديثية كادت أن تطبع الدراسات الشرعية بطابعها كما سنعرف بعد قليل . هذا بالاضافة الى الوفرة في الدراسات الحديثية نفسها وفي رجالاتها كذلك كما سنلاحظ ، وهو ما انعكس أثره في وجود ثروة طيبة من المؤلفات الحديثية اكثر من ذي قبل .

ومن أوائل المحدثين في هذا العصر ، أبو سعيد بن أخت يزيد بن سنان ، المعروف بالوكيل ، وقد مدحه الخشني فقال عنه (كان من أهل العناية بالحديث ، كان يحفظ أربعة آلاف حديث ظاهرا) وقد توفي في صدر دولة الخليفة عبيد الله المهدي . (١)

وتألق بين علماء هذا العصر في دراسة الحديث لقمان بن يوسف الغساني (٢) (ت ٣١٩ هـ) (٣) ، وقد أثنى الخشني على معرفته الكبيرة بالرجال والأسماء . (٤)

على أن أشهر محدثي هذا العصر هو أبو العزب

-
- (١) الخشني : طبقات قرطبة وعلماء افريقية ، ص ٢٢٨
 - (٢) ترجمته موجودة عند الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ - عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١١ - ٣١٣ - مخلوف المصدر السابق ، ص ٨١ .
 - (٣) هذا ما رجحه عياض : ج ٢ ، ص ٣١٣ ، وذكر أقوالا أخرى ، فقال : ٣١٨ ، وأورد عن أبي العزب أنه توفي في نيف وعشرين وثلاثمائة .
 - (٤) طبقات قرطبة وعلماء افريقية ، ص ٢٢٤

محمد بن أحمد التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ كما عرفنا من قبل . وأبو العرب مثلما كان مبرزاً في الفقه ، فقد أوتي حظاً عظيماً من المعرفة بعلم الحديث والبراعة فيه ، وكذلك في علم الرجال ، وهذا عياض يثني عليه فيقول (وغلب عليه الحديث والرجال) (١) ، ويسميه جلال الدين السيوطي : الحافظ محمد بن أحمد بن تميم ، ويذكر أنه أخذ الحديث من أصحاب (٢) سحنون . ولأبي العرب مؤلفات في الحديث ، عرف منها : كتاب مسند حديث مالك ، وكتاب عوالي الحديث . (٣)

ومن أنداد أبي العرب ومن طبقته في العلم والمعرفة ، ربيع بن عطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، كما عرفنا من قبل . وربيعة القطان كان (حافظاً للحديث ، عالماً بمعانية ومجمله ، ورجاله وغريبه) (٤) مثلما كان عالماً بالفقه ومناحيه .

وفيما يتعلق بالحديث في بقية مدن وأقاليم افريقية ، فإن الملاحظ أن مدينة قفصة دأبت كما ذكرنا على مد المغرب الأدنى بعدد لا بأس به من علماء الحديث . غير أن أهم ما أسهمت به مدينة قفصة ، هو أنه انبثق منها وعنها مدرسة في الحديث لها

-
- (١) المدارك : ج ٢ ، ص ٣٣٤ .
(٢) طبقات الحفاظ : ص ٣٦٣ .
(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ٨٩٠ - الكنانى القيروانى : المصدر السابق ، تعليق رقم ١٥ ، ص ٤٠ .
(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ - مخلوف : نفسه ، ص ٧١ .

اتجاهاتها المخالفة للمدرسة السحنونية كما أشرنا الى ذلك من قبل . واذا كان محمد بن تميم العنبري وابنه هبة الله قد مهد الطريق لظهور تلك المدرسة حسبما عرفنا ، فإن تكريس وجود تلك المدرسة وبروزها بشكل مؤثر يعود لعالم قفصى آخر هو مالك بن عيسى القفصى (١) (ت ٥٠٣ هـ) . فمالك بن عيسى القفصى يعتبر من أشهر رجالات الحديث لا في مدينته قفصة فحسب بل في افريقية كلها . فلقد اشتهر بالحديث وحده ، ولم يخض أى مجال آخر غيره . وقد أثنى عليه معاصره الخشنى (٢) فقال : (كانت له رحلة في طلب الحديث ، وكان به بصيرا ، وفي علمه نافذا ، وأخذ منه جماعة من الناس) .

وتأتى أهمية دور مالك بن عيسى في دراسة الحديث ، من أنه عمل جاهدا على التوسع في دراسته الى الحد الذى كاد أن يغلب علم الحديث على أهل افريقية لو طال الأجل بمالك كما يقول الخشنى (٣) .

ومما يدل على انفراده بمنحى مالكي معين في الحديث أن أحد أقرانه من علماء القيروان وهو أبو العباس الأبيانى الذى كنا قد ترجمنا له من قبل ، جاءه مرة قائلا له (حدثنى ،

(١) ترجمته موجودة عند الخشنى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ - مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨٠ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٣ -

١١٤

(٢) طبقات قرطبة وعلماء افريقية ، ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر اعلاه والصفحة .

ولا تحدثني الا بما يوافق مذهبي ، فعطف مالك بن عيسى على الناس ، فقال لهم : هذا رجل لا يحب أن يكون عالما (١) ويبدو أن منحى مالك بن عيسى هذا ، لم يكن يلقي القبول من علماء المالكية في المغرب الأدنى ، فالى جانب موقف أبى العباس الأبيانسي من مالك بن عيسى انبرى واحد من أحد أبرز العلماء المالكية وهو سعيد الحداد يعترض على مالك في شيء من التهكم بقوله : (لو علمت أن يقظة مالك بن عيسى أنه من نومي لأزريت على نفسي) . (٢)

لكن هذه المدرسة الحديثية ، لم يكن لها بعد موت صاحبها أى اتباع يحملون اتجاهها ويرسخون نهجها في افريقية ، ولم تذكر لنا كتب التراجم أى ذكر لمن تأثر بهذه المدرسة ، سوى ما يمكن قوله عن يوسف بن عبد الله التميمي القفصي (٣) ، الذى كان الى جانب براعته في الفقه ، محدثا جيدا نَهَجَ نَهَجَ مالك بن عيسى مواطنه (٥)

-
- (١) الخشنى : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - مجموعة من الأدباء والعلماء : المرجع السابق ، ص ١١٤
- (٢) الخشنى : نفسه ص ١٢٨ - مجموعة من الأدباء والعلماء نفس المرجع اعلاه والصفحة .
- (٣) ترجمته موجوده عند عياض : المصدر السابق ، والجزء ص ٣٥٦ - مجموعة من الادباء والعلماء ، تاريخ قصة وعلمائها ، ص ١١٥
- (٤) هذا ما يقوله عياض عن سنة وفاته ، غير أنه في كتاب : تاريخ قصة في هامش ص ١٥ أن الصحيح أن يوسف القفصي توفي في سنة ٣٣٢ هـ وبالتحديد في شهر رمضان ، كما هو مثبت على لوحة فوق قبره ، وكما في الجزء الثانى من رياض النفوس .
- (٥) مجموعة من الأدباء والعلماء : نفس المرجع اعلاه والصفحة .

وشهدت الدراسات الحديثة في افريقية في هذا العصر
اسهاما علميا آخر من بعض الوافدين من علماء الحديث من
المشرق ، وإن كان هذا الأثر محدودا في عالمين فقط ، فأولهما
أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح الكوفي المعروف بالعجلي
وقد نزل مدينة طرابلس ؛ فأحدث بها أثرا علميا لا بأس به ، وللعجلي
كتاب معروف في الجرح والتعديل كما يذكر السيوطي . (١) والعالم
الثاني هو : الوليد بن بكر بن محمد الغمري الأندلسي السرقسطي
وقد دخل افريقية في أيام الفاطميين ، وأثر في حياتها العلمية
باسهاماته في علم الحديث . (٢)

(١) طبقات الحفاظ ، ص ٢٤٢

(٢) طبقات الحفاظ ، ص ٤٢٠

١ الحديث في عصر الزيريين :-

لعل أول ما يلفت النظر بشأن دراسة الحديث في عصر الزيريين أنها كانت أوسع انتشارا في هذا العصر منها في عصر الفاطميين . ولقد ظهر خلال عصرهم علماء أقطاب في علم الحديث كان لهم مكانتهم في المغرب وخارجه كما ظهرت فيه العديد من المؤلفات الحديثية المهمة حسبما سنعرف بعد قليل .

ونذكر من أوائل المشتغلين بعلم الحديث في هذا العصر، محمد بن حارث الخشني المتوفى بعد سنة ٣٦٦هـ كما ذكرنا من قبل . ولئن عرفنا بعضا من اسهاماته في علم الفقه ، فإن اسهاماته في الحديث لا تقل عنها شأنا ، لاسيما وقد اشتهر بعلمه الواسع بأسماء الرجال (١) . وما يدل على أنه كان ذا شأن في الحديث أن الذهبي الذي ألف كتابه : تذكرة الحفاظ (٢) - وهو خاص بالمحدثين في الدولة الإسلامية-، ترجم له مع القليلين من الافريقيين أمثاله كأبي العرب التميمي ، وأبي الحسن القابسي .

ومن جمع بين الفقه والحديث في عصر الزيريين ، عبد الرحمن بن رشيق المتوفى سنة ٣٧٦هـ كما أشرنا سابقا ، ومما ذكر عنه انه كانت (له عناية كاملة بتقيد السنن والاحاديث المشهورة) (٣) .

على أن هذا العصر عرف واحدا من أقطاب علم الحديث في افريقية

(١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣١-٥٣٢

(٢) الجزء الرابع : ص ١٠٠١-١٠٠٢ .

(٣) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

في كل الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، ذلك العالم هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي^(١) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . حسبما عرفنا سابقا . ولئن كنا عرفنا القابسي فقيها معروفا ، فإن ما يجب أن نعرفه الآن أنه كان محدثا مشهورا بل لعل الحديث هو العلم الذي غلب عليه . ولقد أبرز كل من ترجم له هذا الجانب العلمي من شخصيته ذات الاتجاهات العلمية المتعددة . فلقد ذكر ابن خلكان بأنه كان (اماما فيه ، وفي فنونه وأسانيده ، وجميع ما يتصل به)^(٢) ، وذكر كذلك أن له رحلة إلى المشرق في طلب الحديث ، قابل خلالها شيخ الحديث هناك^(٣) . ومما يوثق عنه أنه كان أول من أدخل رواية الامام البخاري ومسنده ومسنده عالم الحديث المكي المشهور أبي ذر الهروي إلى افريقية^(٤) . ولأبي الحسن القابسي في الحديث مؤلفات مهمة ، منها كتابه المعروف بالملخص جمع فيه ما اتصل اسناده من حديث مالك

(١) ترجمته موجوده بتوسع عند : عياض نفسه ، ص ٦١٦ - ٦١٩ الدباغ : نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣٤ - ١٤٦ - ابن خلكان وفيات الاعيان ، مجلد ٣ ص ٣٢٠ - ٣٢٢ - ابن القاضي جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، الجزء الاول ، حاشية رقم ٩ ص ١٣ الكنانى القيروانى المصدر السابق ، تعليق رقم ٣٠ ، ص ٧ - مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٧ - الزركلى : المرجع السابق ،

ج ٤ ، ص ٣٢٦

(٢) نفس المصدر اعلاه والجزء ، ص ٣٢٠

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦١٦ - ٦١٧

(٤) مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٧

بن أنس في كتاب الموطأ ، رواية عبدالرحمن العتقى ، (١) ويذكر
أن النطق الصحيح كما يقول (٢) ابن خلكان لكتاب الملخص هو :
الملخص بكسر الخاء ، أى الذى يلخص المتصل من حديث مالك
للمستحفظين .

ومن علماء الحديث المشهورين في هذا العصر ، أبو عمران
موسى بن عيسى بن ابي حاج الفغجوى الفاسى (٣) المتوفى
سنة ٤٣٠ هـ كما عرفنا . وأبو عمران الفاسى أصله من فاس (٤) ، ومن
بيوتات العلم فيها ، ثم رحل الى القيروان واستوطنها حتى مات
ولقد عرفنا من قبل شيئا عنه ونحن نتحدث عن الرحلات العلمية
وكذلك عند الحديث عن انتشار المذهب والفقه المالكي بالمغرب
الادنى ، وأبو عمران الفاسى ممن أوتى حظا في الجمع بين علوم
شرعية شئى كالفقه والحديث والقراءات ، ويقول عنه عياض (٥) أنه

- (١) عياض: المصدر السابق ، ص ٦١٩ - ابن خلكان : المصدر
السابق ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٠ وهو الذى اعطانا توضيحا عن
الكتاب واسمه بالكامل .
- (٢) وفيات الاعيان ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٢
- (٣) ترجمته موجودة بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٧٠٠ - ٧٠٦
- الدباغ : نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٤ ابن القاضى : حذوه الاقتباس
القسم الاول ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ - ابن السراج : المصدر
السابق ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ -
عبد الهادى التازى : جامع القرويين ، المجلد الثالث ،
ص ١٥٧ - ١٥٨ - عبدالعزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية
ج ٣ ، ص ٤٩ .
- (٤) ابن القاضى : نفس المصدر والقسم اعلاه ، ص ٣٤٤ - مجهول :
بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ص ٤٤ - ٤٥
عبد الهادى التازى : نفس المرجع والجزء اعلاه ، ص ١٥٧ .
- (٥) المدارك : ج ٢ ، ص ٢٠١

(ذا معرفة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وخرج من عوالى (١)
حدیثة نحو مائة ورقة) .

ومما يجدر ذكره أن لابی عمران الفاسى دور كبير فى قيام
دولة المرابطين ، وذلك عندما وجه زعيم الملتئمين من قبيلة
جدالة الصنهاجية التى تعيش فى جنوب المغرب الأقصى الى
أحد تلاميذه هناك وهو وجاج بن وزلو ببعث أحد طلبته الى مواطن
قبيلة جدالة لتفقيهم فى الدين كما هو مبسوط مشتهرفى كتب
التاريخ والأدب .

ومن علماء الحديث الافريقيين المتأخرين ممن رحل الى
الأندلس وأثرى فيها الحياة العلمية ، عبد الله بن محمد بن على
بن شريف ، المعروف بالباجى (٢) ، وهو من باجة القيروان
(ت ٣٧٨هـ) ومن الفقهاء والمحدثين المكثرين ، وقد رحل

(١) على الحديث ، مصطلح حديثى يعنى علو درجة
الاسناد وقربها من النبى صلى الله عليه وسلم . وينقسم
الى قسمين : الاسناد العالى المطلق ، وهو ما قرب
رجاله سنده من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب قلة
عدد هم ، واذا قيسوا بسند آخر يرد فى ذلك الحديث
نفسه بعدد كثير . وأما الاسناد العالى النسبى فهو
ما قرب رجال سنده من امام من ائمة الحديث كمالك والاعمش
وغيرهما ، أو قربوا من كتاب من الكتب المعتمدة المشهورة
كالكتب الستة والموطأ . وسمى نسبيا لأن العلوفيه
اضافى لاحقيقى .

أنظر صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص

٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) الضبى : بغية الملتئمين فى تاريخ رجال أهل الأندلس ،

ص ٣٣١ .

الى الاندلس كما ذكرنا ، فعاش فيها حتى توفي . ومن علماء
الحدِيث الافريقيين ، ممن رحل الى الاندلس كذلك محمد بن
الحسن الطنبى (١) (ت : ٣٩٠ هـ) وهو فقيه محدث ، رحل صغيرا
الى الاندلس ، وبقي فيها الى أن توفي ، ومنهم كذلك محمد بن القاسم
بن ابي حاج القروى (٢) (كان حيا عام ٤٠٠ هـ) ، وهو محدث
ذو رواية واسعة . وقد بقى هناك حتى توفي .

ومن بين الذين رحلوا الى الأندلس ، اسحاق بن الوليد
بن موسى بن اسحاق بن ابراهيم بن عبد وس القروى الذى لا تُعرف سنة
وفاته ، وهو فقيه محدث وقد سمع في بلدة القيروان عن محمد
بن ابي زيد القروى . ويذكر ابن بشكوال عنه ، أنه ذو علم
بالحدِيث وبصر بالرجال . (٣)

وأخيرا ههنا عالم حدِيث افريقى مشهور ، سكن الأندلس
وهو أبو عمرو السقايسى (٤) ، من أشهر المحدثين الذين سكنوا الأندلس
وأثروا فيها الدراسات الشرعية ، ومما يوثق عن سعة علمه بالحدِيث
(أنه من حفاظ الحدِيث المشهورين به وبطريقة ، وبأسماء رجاله
منسوبا الى معرفته وفهمه ، وكان يملئ الحدِيث من حفظه
ويتكلم على أسانيده ومعانيه ، ذاكرا للغريب ، والآداب ، ممن عنى
بالرواية ، وشهر بالفهم والدراية) . (٥)

(١) عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى
منتصف القرن العشرين ، ص ٢٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلاة ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

(٣) ابن بشكوال : نفس المصدر اعلاه ، الجزء الاول ، ص ١١٢ .

(٤) ترجمته عند ابن بشكوال : نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ - مخلوف
المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٥) ابن بشكوال : نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

علوم القرآن :

- علوم القرآن في عصر الولاة .
- علوم القرآن في عصر الأغلبة .
- علوم القرآن في عصر الفاطميين .
- علوم القرآن في عصر الزييين .

- علوم القرآن :

توطئة :

لعل من الواجب قبل أن نتحدث من علوم القرآن في إفريقيا خلال الفترة موضع الاهتمام ، أن نعطي نبذة مختصرة لعلوم القرآن من حيث بدايتها وفروعها وبعض أمورها في المشرق الاسلامي ، لا رتباط ذلك بحد يثنا عن دراسات علوم القرآن في إفريقيا .

غنى من القول بأنه لم يكد القرن الثاني الهجرى ينته ، حتى كانت العلوم الشرعية قد استقرت أسسها ، وتقننت قواعدها المختلفة . ومن بين تلك العلوم : علوم القرآن الكريم التي إنبثقت منه وحده ، كالقراءات والتفسير وغير ذلك . ومن المعروف أن علم القراءات الذي يعنى كيفية النطق بالقرآن ووجوهه المحتملة (١) كان أسبق في الظهور من التفسير وغيره من العلوم الأخرى . ونحن بالطبع لا يهمننا من هذا إلا الإشارة الى أن علم القراءات قد استقرت أسسه في الدولة الاسلامية على يد سبعة من العلماء أصبح المعول على قراءاتهم فى الأمصار الاسلامية . ولقد مثل كل واحد من أولئك العلماء السبعة ، مدرسة خاصة به فى القراءات متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم . (٢)

(١) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٨ - محمد الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله ، ط ٢ ، ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء وما ورد فى جزئيه من طبقات القراء وأسمائهم وشيوخهم - مخلوف : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ١٨ - ١٩ - عبد السلام الكوننى : المدرسة القرآنية فى المغرب ، ص ٥٣ - ٥٤ (نقلا عن ابن الجزرى فى غاية النهاية ، وكتابه الآخر : النشر فى القراءات العشر والذهبى فى كتابه : معرفة طبقات القراء الكبار عبر الأجيال) .

ولقد ظهرت هذه المدارس السبع في كل من الحجاز والشام والعراق ، وأصبح لها شهرة عريضة (١) في كل العالم الاسلامي ، والى جانب هذه المدارس نشأت ثلاث مدارس أخرى ، فأصبح عددها عشر مدارس ارتبط بها علم القراءات (٢) .

والى جانب علم القراءات ، عرف المشرق علوماً أخرى استخلصها المسلمون من القرآن العظيم كالتفسير ، وعلوم أخرى مثل : ناسخ ومنسوخ القرآن ، وأحكامه وأعرابه ، وأعجازه ، وفوائده ، وقصصه وغريبه (٣) ... الخ .

وفي هذا الوقت الذي شهد فيه المشرق ذلك الازدهار العلمي في علوم الشريعة ومنها علوم القرآن ، كانت إفريقية تولى جهودها العلمية في الاهتمام بالفقه للحاجة العظمى اليه في الناحيتين : التعبدية والدينية . وبالطبع فقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً . غير أن أهل إفريقية ما لبثوا بعد لآى أن أخذوا يولون علوم القرآن العناية التي تستحقها . وسنرى من خلال حديثنا عن دراسات علوم القرآن ، أن هذه العلوم قد لقيت من الاهتمام والعناية والعطاء ما لم تلقه أى علوم شرعية أخرى فيما عدا الفقه طبعاً . وليس من شك في أن تلك العناية وذلك العطاء الشر الذي ستأتى على ذكر أبعاده ، قد جاء من احترامهم العميق لكتاب الله والشغف بكنوزه العظيمة .

وفي الحقيقة ، فانه اذا فاتت المغاربة ، شرف تأسيس مدارس القراءات تلك التي أشرنا اليها ، واذا فاتهم كذلك شرف الاسهام في علوم القرآن الأخرى من تفسير وخلافه ، فان مما يؤثرو ويذكر لهم أنهم أسهموا بعد ذلك في إثراء

(١) مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٨-١٩ - عبد السلام الكونني : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٢) عن هذه المدارس أنظر عبد السلام الكونني : نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٣-٥٤ ، (نقلا عن ابن الجزري في كتابه : النشر في القراءات العشر) .

(٣) عن علم التفسير ورجاله ومناهجه أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٩٥ - ٢٠٦ - ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٣٧-١٥٠ - ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٣٥-٤٩ - محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ، ص ١٥-٣٣ ، وغير ذلك ...

علوم القرآن دراسة ومذاكرة وتأليفاً ، راءاً اعترف فيه لهم المشاركة كما ستعرف بالامامة والمشيخة في علوم القرآن . وسيلمس المتبع لدراسة علوم القرآن في إفريقيا من جهة أخرى أن المغاربة لم يتركوا جانباً من جوانب علوم القرآن ، الا وقد اهتموا به دراسة ومذاكرة وتأليفاً .

على أننا لاحظنا في متابعتنا لعلوم القرآن في إفريقيا خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، بأن علماء المذاهب الفقهية ، والمذاهب الدينية السياسية ، الذين عاشوا في إفريقيا وقتذاك ، لم يكونوا سواء في إهتماماتهم بعلوم القرآن . فالواقع ، أنه فيما عدا علماء المالكية ، لم نعر على ما يدل على اسهامات أتباع بقية المذاهب الفقهية كالحنفي والشافعي ، أو أتباع المذهبين الإباضي ، والشيعي ، اللهم الا ما هو ثابت من إهتمام بعض علماء المذهب الشيعي بالتفسير أو التأويل .

وثمة أمر آخر ، لاحظناه كذلك ، وهو أنه باستثناء إهتمام علماء مدينتي القيروان بعلوم القرآن ، لم تتضح لدينا أي اسهامات لعلماء بقية مدن وأقاليم إفريقيا في علوم القرآن هذه . ونستثنى من ذلك العصر الزيري ، الذي ظهر فيه علماء من بقية مدن إفريقيا في تلك العلوم .

علوم القرآن في عصر الولاية :

علينا بادىء ذي بدء أن نشير الى أننا لا نملك معلومات توضح لنا بجلاء سيرة دراسات علوم القرآن في هذا العصر . غير أن ما هو مؤكد هو أنه حيثما حلَّ المسلمون ، كان يحل معهم كتابهم الخالد : القرآن الكريم . وعند ما جاء المسلمون الى المغرب فاتحين ، كان من الطبيعي أن يحرصوا على نشر القرآن الكريم في هذا القطر . وما من ريب في أن الفضل في دخول القرآن الكريم وقد جاء عبر خطوتين : - محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في المصاحف - يعود لطالعة الفاتحين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تصدوا لنشره بين أبناء البلاد الأصليين (١) .

- أولاً: القراءات :

ليس لدينا شمة شك في أن تلك الجموع من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تقاطروا على المغرب فاتحين ومعلمين ، يمكن إعتبارهم بمثابة بعثات قرآنية ، جهزت في تلاوة القرآن الكريم على مسامع السكان ، وارشادهم الى تعاليمه العظيمة . ونحن نتفق مع عبد السلام الكنوني في أن المغاربة - وقد اجتذبوا للدين الجديد بعد أن تبينت لهم حقائقه - ، قد حاولوا تقليد المسلمين الفاتحين وغيرهم ، محاكاةً لهم من جهة ، وتأثراً وانفعالاً بالقرآن الكريم حتى ولم تكن قد صحت بعد لغتهم العربية من جهة أخرى (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فانه فيما يتعلق بمدارس القراءات التي عرفت في افريقية خلال عصر الولاية ، فاننا لا نعرف شيئاً عنها ، وان كان يغلب على الظن

(١) أنظر عبد السلام الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ٢٩-٣٣ .

(٢) المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ٢٢ .

أن إفريقية قد عرفت خلال هذه العصر كل أو معظم القراءات المعروفة آنذاك ، فلم يقتصروا على حرفٍ أو مذهب واحد في القراءة . ونحن بالطبع لم نشر إلى هذا الاحتمال ، إلا لأن المغرب بعد ذلك عرف الاقتصار على حرف واحد أو مدرسة في القراءة واحدة كما سنعرف بعد قليل .

أما من علماء أو أعلام القراءات في هذا العصر ، فاننا للأسف لم نوفق في العثور على ما يشير إليهم تنصيماً ، بيد أن ما يمكن قوله هو أن كل التابعين الذين وفدوا على إفريقية سواءاً من استقر منهم فيها أو رحل ، وسواءاً أفراد البعثات العلمية الرسمية أو الفردية يمكن إعتبارهم أئمة وقراء مبكرين . ولعل المقرأ الوحيد الذي يظن أنه قد عاش في مصر الولاية ، هو كروم بن خالد المغربي التونسي المكنى بأبي خالد . وقد يقال كروم بن خليل أبو خليل . فقد رحل إلى المدينة فقابل الإمام نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، وقرأ عليه (١) . ولم يشير ابن الجزري إلى سنة وفاة كروم بن خالد ، لكننا نعرف أن نافعاً بن عبد الرحمن بن أبي نعيم قد توفي سنة ١٦٩ هـ (٢) . ومن هنا غلب على ظننا أن يكون كروماً قد عاش في مصر الولاية .

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) هذا ما يقوله ابن الجزري : نفس المصدر أعلاه ، ج ٢ ، ص ٣٣٣-٣٣٤ -
وان كان قد أورد كذلك بعض الأقوال من وفاة نافع ، فقال : قيل سنة ١٧٠
وقيل ١٦٧ أو ١٥٠ أو ١٥٧ هـ . ولكنه أورد أولاً سنة ١٦٩ هـ كما هو
في المتن .

- ثانياً : التفسير :

أما عن التفسير ، وهو أحد أهم جوانب علوم القرآن الكريم ، فلا شك أنه قد لقي فناية هامة في إفريقية باعتباره مرتبطاً بكتاب الله الكريم نفسه ، لتدبر معانيه ومقاصده وفهمه . ومع أننا لا نستبعد أن يكون المغاربة قد عرفوا خلال عصر الولاة حلقات التفسير بمجرد انتهاء الفتح ، فأننا في الواقع لم نعثر على أى دلالات واضحة ترشدنا الى مفسرين بعينهم ، أى اقتصروا على علم التفسير وحده . ويصدق هذا على التابعين الذين قدموا إفريقية سواء من استوطن منهم إفريقية ، أو الذين رحلوا عنها فيما عدا ما ذكر من تصدى فكرة مولى ابن عباس للتدريس فى جامع القيروان عند ما جاء إفريقية واستوطنها البعض الوقت (١) . وما من شك أن من بين تلك العلوم الشرعية التى كان يلقونها فكرة فى الجامع ، علم التفسير ، لا سيما وأن فكرة من اشتهر باهتماماته فى التفسير الذى تلقاه من أستاذه ومولاه عبد الله ابن عباس (٢) . وأما بالنسبة لأبناء البلاد الأصليين . فلم نعرف أى ذكر لمفسرين فى هذا العصر ، حاشا ما يمكن اعتبارهم من مفسرى عصر الأغالية الذين عاشوا فترات طويلة من عمرهم فى عصر الولاة ، إلا أن وفياتهم كانت فى عصر الأغالية كما سنعرف عند حديثنا عن علوم القرآن فى عصر الأغالية ، وذلك بالطبع تمشياً مع ما سرنا عليه من منهج تنظيمي وموضوعي بالنسبة لمسيرة الدراسات الشرعية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

وفيما يتعلق بعلوم القرآن الأخرى ، فلم نعثر على أى مجهودات توضح لنا أبعاد دراسة علوم القرآن .

(١) أنظر قبل ص : ١٠٨

(٢) أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

علوم القرآن في عصر الأغلبية :

وإذا كانت مسيرة دراسات علوم القرآن لم تتضح صورتها تماما في عصر الولاة ، فإنها في عصر الأغلبية كانت على النقيض من ذلك . فلقد شهد هذا العصر ازدهارا بالنسبة لتلك العلوم في الكم والنوع . ففيه اقتضرت افريقية على حرف ووجه واحد في القراءة حسبما سنعرف بعد هنيهة ، وفيه عرفت افريقية مصنفات متخصصة في جوانب علوم القرآن . ومن ناحية الكم ، فقد طالعنا بعض المصادر المتخصصة في علوم القرآن وغيرها بأسماء عدد من القراء والمفسرين ، ممن تخصص في فرع واحد من علوم القرآن ، أو جمع بين علوم القرآن وغيرها من العلوم الشرعية . .

- أولا : القراءات :

وعلى أية حال ، ففيما يتعلق بالقراءات ، نجد لدينا ذكراً لمقرئ مبكر خلال هذا العصر ، هو حسنون الدباغ ، ولا نعرف منه أكثر من هذا . قال أبو العرب التيمي (١) إنه من قراء القرآن المعروفين بالقيروان ، واليه تنسب طريقة معينة في ترتيل القرآن أو ما يطلق أبو العرب عليه اللحن (٢) ، فذكر أنه ينسب إليه اللحن الحسنوني .

ومن علماء القراءات في افريقية كذلك أبو يحيى زكريا بن يحيى بن ابراهيم بن عبد الله المعروف بالوقار (٣) ، وهو مصري الأصل ، قدم افريقية فسي سنة ٢٠٥ هـ . وذكر ابن فرحون (٤) أنه قرأ القرآن على نافع المدني ، وعنه

(١) كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة أعلاه .

(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٤) الديباج المذهب ، ص ١١٨ .

أخذ أبو عبد الرحمن المقرئ حرف نافع بن أبي نعيم ، وأن محمد بن برغوث القروي روى عنه القراءة ، وذكر كذلك أنه توفي في سنة ٢٥٤ هـ ، وقيل ٢٦٣ هـ .

ومن قراء عصر الأغالية ، أبو عبد الله محمد بن برغوث القروي (١) ، فقد أخذ القراءة من عدد من العلماء ، وروى عن نافع بن أبي نعيم (٢) ، وروى القراءة عنه أبو العرب محمد بن أحمد التميمي ، ويذكر المالكي (٣) أن أبا العباس عبد الله ابن أحمد بن طالب المتوفى سنة ٢٧٥ هـ أو ٢٧٦ هـ كما عرفنا من قبل ، طلب في أيام توليه القضاء في إفريقية من محمد بن برغوث المتصدر للقراءة في جامع القيروان ، ألا يقرئ الناس إلا بحرف نافع . وقد توفي ابن برغوث كما يذكر ابن الجزري عام ٢٧٢ هـ (٤) . ومنهم أبو عبد الرحمن المقرئ (٥) الذي أشرنا إليه في حديثنا عن أبي يحيى زكريا الوقار ، وذكرنا عن ابن فرحون أنه تلقى القراءة بحرف نافع من أبي زكريا الوقار (٦) المذكور .

والآن وقد استعرضنا أسماء من أسعفتنا الظروف بذكرهم من القراء نود الإشارة إلى موضوع مهم ، وهو انتشار قراءة نافع بن أبي نعيم المدني في المغرب الأدنى ، بل في بقية المغرب . ولعل السبب في ذلك هو ما شار حول هذا الموضوع من خلاف في دخول القراءات إلى المغرب والأندلس وتاريخ

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٢) لا شك أنه روى القراءة من نافع بن أبي نعيم بطريق غير مباشر ، والا فلا يعقل أن يكون بينه وبين أستاذه نافع أكثر من مائة سنة ؟ وقد عرفنا من قبل أن نافعاً توفي على الأشهر سنة ١٦٩ هـ بينما توفي محمد بن برغوث سنة ٢٧٣ هـ .

(٣) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٣٧٨ . ولا شك أن ذلك قد حدث في ولايته الأولى للقضاء ، وليس في الثانية التي توفي على أثرها وهي المؤرخة بعام ٢٧٥ هـ .

(٤) ابن الجزري : نفس المصدر أعلاه والجزء والصفحة .

(٥) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٦) انظر الصفحة السابقة .

ذلك ، ثم دخول قراءة نافع والاختلاف في أولية من قام بذلك . يقول عبد السلام أحمد الكنوني (١) : أن ابن الجزرى صاحب كتاب : النشر في القراءات العشر يذكر أن أهل الأندلس وأهل المغرب لم يكونوا يعرفون شيئاً من القراءات المختلفة حتى جاء أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي وهو أحد كبار علماء قراء الأندلس (٢) (ت ٤٢٩ هـ) ، فأدخل القراءات الى الأندلس وبالتالى المغرب بعد ذلك . ونحن بالطبع يهمنى الإشارة الى أنه فيما يختص بالمغرب ، فإن ما ذكره ابن الجزرى مخالف للوقائع التاريخية . فالحقيقة أن المغرب الأدنى وهو ما يهمنى هنا عرف التخصص في قراءة معينة ، وهى قراءة نافع المدنى . وقد عرفنا عند حديثنا عن القراء الذين عاشوا في مصر الأغلبية ، أنهم كانوا يقرؤون بحرف نافع ، مع أننا لا ننكر أنه كانت هناك قراءات أخرى - وما ذكرناه عن أحمد بن طالب القاضى لابن برغوث بأن يقرئ الناس بحرف نافع فقط ، دليل على صدق ما أشرنا اليه . ثم لدينا دليلاً آخر على أن المغاربة عرفوا القراءات المختلفة ، ولكنهم كانوا يركزون على قراءة نافع . ورد في كتاب آداب (٣) المعلمين لمحمد بن سحنون عندما كان يتحدث عن التعليم بالكتاب ما نصّه : (ويلزمه (أى المعلم) أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة ، وهو مقراً نافع . ولا بأس أن أقرأهم لغيره إذا لم يكن مستبشعاً ، مثل " يَبْشُرُكَ " و " وَلَدَهُ " و " جِرم على قَرْيَةٍ " ، ولكن يقرئها " يَبْشُرُكَ " و " وَلَدَهُ " و " حَرَامٌ على قرية " وما أشبه هذا . وكل ما قرأ به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا فإن أهل المغرب الأدنى عرفوا معظم القراءات ، ولكنهم اقتصرُوا على قراءة نافع لأن نافعاً كما هو معروف امام قراءة المدينة المنورة .

- (١) المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ٥٤-٥٥ .
- (٢) ترجمته عند عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤٩-٧٥٠-السيوطى : طبقات المفسرين ، ص ٥ . وكلاهما يرجح أن وفاته كانت سنة ٤٢٩ هـ ، وليس سنة ٤٤٠ هـ كما ذكر الكنوني في ص ٥٤ .
- (٣) ص ١٠٢-١٠٣ ، وانظر الحواشى في الصفحتين السابقتين .

وقد عرفنا من قبل شدة تعلق المغاربة بأرض الحرمين : مكة والمدينة ، ثم لأن نافعاً كما ذكر كان شيخ الامام مالك بن أنس ، إمام المذهب المالكي في القراءة ، وكان يصلى خلفه ، بينما كان نافع يأخذ من مالك موطأه (١) . ومن هنا كان من الطبيعي أن يأتى أهل افريقية بقراءة أو مد رسة نافع في قراءة القرآن الكريم .

على أننا ما نلبث أن نفاجأ في ترجمة لأحد قراء العصر الفاطمى ، من أنه هو الذى قدم بقراءة نافع على أهل افريقية . فقد ذكر من أبى عبد الله محمد بن خيرون المعافى الأندلسى الذى استوطن القيروان وتوفى بها سنة ٣٠٦ هـ (٢) ، أنه قدم بقراءة نافع على أهل افريقية ، وأن الغالب عليهم قبل مجيئه قراءتهم لحرف حمزة بن حبيب الزيات الكوفى ، وأن حرف نافع لم يكن يعرفه آنذاك سوى خاصة من الناس حتى قدم ابن خيرون به (٣) . هذا ما يقوله من ترجم لابن خيرون . لكننا ونحن لا نملك ما ندفع به هذا القول سوى ما قلناه سابقا ، لا نستبعد أن يكون ابن خيرون صاحب الأولوية فى نشر قراءة نافع فى افريقية بشكل واسع . لا صاحب الأولوية فى ادخاله (٤) . ومهما يكن فقد عرفت المغرب الأدنى قراءة نافع فى عصر الأغالية ، سواء كان ابن خيرون هو الذى جاء بها ولا سيما أنه قضى مدة طويلة من عمره فى مصرهم ، ولم يشهد من عصر الفاطميين الا مقدأ واحدا فقط ، أو أن المغرب الأدنى عرف حرف نافع بجهود من سبقه ممن أشرنا اليهم سابقا .

-
- (١) انظر مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٩ - الكونى : المرجع السابق ، ص ٥٥
 (٢) من سنة وفاته والاختلاف فى ذلك انظر بعد ج ١ ، ص ٤٢١
 (٣) ابن الجزرى : غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢١٧ - عبد السلام الكونى ، المرجع السابق ، ص ٥٥ (نقلا عن المقرئ فى نفخ الطيب) .
 (٤) انظر (عبد السلام الكونى الموضوعى : المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

- ثانياً : التفسير :

لعل أهم ما ميز مسيرة دراسات التفسير في عصر الأغلبية ، أنها عرفت عدداً من المفسرين الذين كانوا يتصدون لدراسته ومذاكرته في حلقات العلم في الجوامع وغيرها ، كما أنها أي مسيرة دراسات التفسير - قد عرفت مصنفات في التفسير - كان لها أهمية في المغرب الأدنى ، وفي بقية المغرب والأندلس.

ويأتي في مقدمة المفسرين المشهورين لا في هذا العصر فقط ، بل وفي كل عصور فترات الرسالة أبو زكريا يحيى بن سلام بن ثعلب أو ابن أبي ثعلب التيمي ولائاً من تيم ربيعة البصري الإفريقي (١) (ت. ٢٠٠ هـ) . وأبو زكريا يحيى بن سلام من أبناء المشرق الذين استوطنوا إفريقية وعاشوا بها مدة مديدة من عمرهم حتى أصبحوا ينسبون إليها . وقد عرفنا من قبل شيئاً من دوره في إثراء الدراسات الحديثة لكن العلم الذي اشتهر به هو التفسير . فلي أننا نستدرك فنقول بأن من حق الأمانة والانصاف أن نشير إلى أننا فيما عدا كتابه في التفسير لا نعرف أي نشاط آخر له ، والمؤكد أن شهرته كمفسر جاءت من تصنيفه لكتابه : التفسير المشهور باسمه (٢) .

ومهما كان الأمر ، فإذا مضينا نطالع ما ذكر من كتابه : التفسير ، أمكننا أن نحكم على مكانة ابن سلام العلمية في المغرب بل وفي المشرق . والواقع

(١) ترجم له كل من ابن العرب التيمي : المصدر السابق ، ص ٣٧-٣٩ - المالكي : المصدر السابق ، ص ١٢٢-١٢٥ - الداودي : طبقات المفسرين ج ٢ ، ص ٣٧١-الزركلي : المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ١٤٨ . ويـرى في حاشيته رقم (١) من نفس الصفحة أن ضبط ابن سلام بالتشديد أولى حسبما رجّحته المصادر التي نقل منها . كما أنه رجّح أن ينطق ابن سلام بدون ال التعريف لأنه هو الأصوب .

(٢) الداودي : نفس المصدر والجزء والصفحة أعلاه - الزركلي : نفس المرجع والجزء والصفحة أعلاه - محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ، ص ٤٣ .

أن تفسير يحيى بن سلام كانت له وما تزال أهمية كبيرة بين الكتب التي ألفت في التفسير. فهذا الكتاب يعتبر كما يقول محمد الفاضل (١) بن عاشور: حلقة مهمة في تسلسل تطور علم التفسير بين المصنفات التي صفت في منتصف القرن الثاني الهجري ، والتي تنتهج التفسير بالأثر أو المأثور ، والتي يمثلها تفسير عبد الملك بن جريج (٢) المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وبين المصنفات التفسيرية التي ظهرت في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري والتي تنتهج التفسير بالأثر والنقد في آن واحد معاً ، والتي يمثلها تفسير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٣). ذلك لأن تفسير يحيى بن سلام يقوم على إبراز الأخبار المسندة ، ثم التعقيب عليها بالنقد والاختيار المبني على المعنى اللغوي والتخريج الاعرابي على حرف واحد في القراءات ، وهو قراءة ابن مدينه البصرة : أبو عمرو ابن العلاء البصري (٤) .

وتفسير يحيى بن سلام مهم من ناحية ثانية ، ذلك لأنه يعتبر من أقدم التفاسير المحفوظة ، التي لم تعبت بها الظروف منذ عصر صاحبها ، فلقد بقي منها أجزاء عديدة بتجزئة مؤلفها نفسه ، وما هو جدير بالذكر أن تفسير ابن سلام يقع في ٣٠ جزءاً ، أي ما يعادل ٣ مجلدات ضخمة بعرف اليوم (٥) .

وتأتي أهمية تفسير يحيى بن سلام من ناحية ثالثة ، من أنه أقدم مجهودات علماء افريقية العلمية في التفسير ، فهو في هذا الشأن يعتبر فاتحة

(١) التفسير ورجاله ، ص ٤٢-٤٣

(٢) عن تفسير عبد الملك بن جريج . أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٠٥- ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٢ - محمد الفاضل بن عاشور : نفس المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) عن تفسير محمد بن جرير الطبري أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٠٦ ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٩-١٥٠ - محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢-٤٣ .

(٤) محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢-٤٣ .

(٥) محمد الفاضل بن عاشور : نفسه ، ص ٤٣-٤٤ .

بواكير مصنفات التفسير هناك ، ولقد أفسح هذا المصنف الطريق الى تكاثر مصنفات التفسير فيما بعد .

وكيفما كان الأمر ، فقد نال هذا الكتاب شهرة عريضة في المغرب الأدنى والأندلس ، والمشرق . ولقد قال فيه ابن الجزري (١) : أنه ليس لأحد من المتقدمين مثله . أما أثره في الأندلس ، فلقد حرص علماءها على ادخاله الى بلادهم كما فعل محمد بن وضاح الصدقي (٢) ، بل واختصاره لابرازه الى أبناء بلده سهلاً يسيراً ، كما فعل العالم الأندلسي الآخر أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ هـ (٣) .

وما دنا لا نزال نتحدث عن تفسير يحيى بن سلام ، فاننا نود الإشارة الى أننا لا نتفق مع الطاهر المعموري (٤) فيما ذهب اليه من أن التفسير لم يحتل بأفريقية مكانة مهمة كغيره من العلوم ، لعدم الحاجة اليه من جهة ، ولضعف استعداد الأفريقيين من جهة أخرى . كما أننا لا نتفق معه كذلك فيما يراه من أن أشهر من كتب في التفسير من الأفريقيين ابتداءً من يحيى بن سلام ، ومروراً بمكي بن أبي طالب ، وانتهاءً بأحمد بن عمار المهدوي اللذين سنترجم لهما بعد في موضعه ، لا يعتبرون إفرازاً علمياً في التفسير مما أنتجته البيئة الأفريقية . ويقول صراحة ان أفريقية لم تكن هي التي دفعتهم الى وضع تفاسير اشتهرت بنسبتها الى أفريقية ، بل الأجواء الخارجية من مشرقية وأندلسية هي التي بعثت فيهم تلك الهممة . فبالنسبة لما ذكره من أن التفسير لم يلق الاهتمام المطلوب في أفريقية ، فان ظهور أعداد من المفسرين فيها ، سواء في عصر الأغلبية ممن سنتطرق لذكرهم بعد قليل ، أو غيرهم في عصر الفاطميين

(١) محمد الفاضل بن عاشور : المصدر السابق ، ص ٤٣ - الزركلي : المرجع

السابق ، ج ٨ ، ص ١٤٨ .

(٢) أنظر عبد السلام الكونني : المرجع السابق ، ص ١٢٥-١٣٥ .

(٣) أنظر عبد السلام الكونني : نفسه ، ص ١٣٢ ، ١٦٥-١٧٠ .

(٤) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي في تقديمه

لعلم التفسير ، ص ٣٢-٣٣ .

والزيريين دليل واضح على مقدار الاهتمام بالتفسير . وصحيح أن التفسير فى افريقية لم يرق الى المكانة التى بلغتها علوم شرعية أخرى كالفقه والحديث ، وكذلك لم يرق الى ما بلغتة القراءات من اهتمام فى افريقية ، إلا أن ذلك لا ينفى عدم وجود مفسرين كما لا يجيز لنا اتهام المغاربة بضعف الاستعداد العلمى فى التفسير .

وفيما يتعلق بالشق الثانى من رأيه فيما يختص بأصول وتكوينات المفسرين المشهورين ك يحيى بن سلام ومكى بن أبى طالب وأحمد بن عمار المهدوى فاننا وان كنا نتفق معه فى أن ابن سلام مشرقى الأصل والنشأة والتكوين العلمى غير أن الأثر العلمى الذى تركه فى افريقية وعلى رأسه التفسير ، قد أسبغ على البلاد تقدما علميا معروفا . فلا يمكننا أن نفغل دور تفسير ابن سلام وتأثيره فى الأجيال الافريقية . أما مكى بن أبى طالب وأحمد بن عمار المهدوى ، فان الاتفاق على أنهما ولدا وعاشا فى افريقية ما يدل على أنهما أصلاء هذا القطر . على الرغم من أنهما قد عاشا بعد ذلك فى الأندلس كما سنعرف .

وبالإضافة الى ابن سلام ، فان أسد بن الفرات المتوفى سنة ٢١٣ هـ كما عرفنا يمكن اعتباره من المفسرين أيضا فى عصر الأغالية . فلقد ذكر عنه أنه كان يقرأ بعض التفاسير فى دروسه على طلبته ومريديه (١) . ومن المفسرين كذلك فى هذا العصر أبو داود العطار (٢) (ت ٢٤٤ هـ) وقد ذكر أنه هو الذى روى تفسير شيخه يحيى بن سلام عنه ، وأن محمد بن وضاح الصدقى ، الذى ذكرنا أنه أدخل تفسير ابن سلام الى الأندلس أخذ رواية تفسير ابن سلام عنه .

ومن المفسرين أيضا محمد بن يحيى بن سلام ابن الفقيه المحدث

(١) مياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧٣-٤٧٥ - ابن السراج : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٤٩ مع الحواشى .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربى ، ج ٤ ، ص ١٠ - عبد السلام الكوننى ص ١٣٥ .

يحيى بن سلام نفسه ، فقد روى أن له زيادات على تفسير والده أفردت باسناد عنه . ويذكر ابن خير الأندلسي (١) في فهرسته أنه - أي ابن خير - ، قد تلقى زيادات محمد بن يحيى على تفسير أبيه من عدد من شيوخه في الأندلس ، الذين تلقوها من يحيى بن محمد بن يحيى بن سلام من أبيه محمد بن يحيى .

ثالثا : علوم القرآن الأخرى :

ليس لدينا في الواقع ما يشير الى اسهامات المغاربة في علوم القرآن الأخرى ، سوى ما ذكر من تأليف الفقيه المشهور محمد بن سحنون المتوفى ٢٥٦ هـ لكتاب كبير في أحكام القرآن . (٢)

(١) وهي فهرسة ما رواه من شيوخه ، تحقيق فرانسسكو كوديرا وخليان ريباره ، ط ٢ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب ص ٢٧ - عبد السلام الكونني : المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

- علوم القرآن في عصر الفاطميين :

تابعت علوم القرآن جملة تطورها وازدهارها في عصر الفاطميين ، فقد توسعت المصادر والمراجع في ذكر العديد من القراء ، وكذلك في ذكر مصنفات البعض منهم في القراءات . أما التفسير ، فقد عرف في عصر الفاطميين مصنفات عدة ، ولكنها شيعية الانتماء ، ويمكن أن نقول بان الازدهار قد مس كذلك بقية علوم القرآن الأخرى .

أولا : القراءات :

لعل أشهر القراء في هذا العصر ، هو محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي القروي المكنى أبي عبد الله (١) (ت ٣٠٦ هـ) . ومحمد بن

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي مقرئ مشهور (ت ٣٠٦ هـ) في القيروان ، وله ابن يسمى محمدا أيضا - وقد ترجمنا له في الممتن كما سيأتي بعد قليل - ومن هنا وقع الخلط لدى معظم المصادر بين أبي عبد الله محمد بن عمر بن خيرون الأب ، وبين الابن أبي جعفر محمد بن محمد بن عمر ابن خيرون (ت مقتولا عام ٣٥١ هـ على يد الشيعة) . وما زاد في دفع المصادِر في الخلط هذا بين الأب وابنه بالاضافة الى تشابه التسمية ، اشتغال الأب والابن بعلم واحد ، هو القراءات .

أنظر هامش ص ٥٢-٥٣ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس الذي حققه بشير البكوش . وعلى كل حال فبالنسبة للأب محمد بن عمر بن خيرون فقد ترجم له مجموعة من المؤرخين منهم المالكي : نفص المصدر أعلاه والجزء ص ١٣٥-١٣٦ ، (وفيه أنه توفي عام ٣٠٥ هـ ، وهو الوحيد بين كل المؤرخين الذين ترجموا لابن خيرون ، الذي قال ذلك) - ابن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ، ص ١٠-١١ (ويخلط بين محمد بن عمر خيرون هذا وبين ابنه أبي جعفر محمد) - الضبي : بغية الملتبس : ص ٧٣-٧٤ (وهو يخلط كذلك بين الأب وابنه) - الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٤ - ابن الجزري : غايصة النهاية ، ج ٢ ، ص ٢١٧ (وهو يسميه باسمه الدال عليه محمد بن عمر بن خيرون) - محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨١ .

عمر بن خيرون، قدم إفريقية واستطونها وبث فيها علمه . ولقد اتفق على إمامة ابن خيرون في علم القراءات ، وأشار معظم من ترجم له على أنه أخذ القراءات عن كثير من علماء المشرق المشهورين ، وقد عاد إلى القيروان فنشر فيها علم القراءات بين طلبته (١) . وذكر ابن الجزرى (٢) عن الداني المقرئ الأندلسي المشهور - وهو أحد رجالات القرن الرابع الهجرى - ، أن ابن خيرون أقرأ الناس بقراءة نافع من رواية ورش ، كما ذكر أيضا أنه كان (يأخذ أخذاً شديداً على مذهب الشيخة من أصحاب ورش (٣) وسلك أصحابه في ذلك طريقه ، وكذلك من أخذ عنهم السى اليوم) (٤) . ولقد سبق لنا أن ناقشنا رأى ابن الجزرى الذى يقول فيه بأن ابن خيرون هو الذى قدم بقراءة نافع إلى المغرب الأدنى ، وقد كانت تغلب عليهم قراءة حمزة . وقلنا إن ابن خيرون ربما كان أول من نشر قراءة نافع بشكل واسع وهو ما يدل عليه قول ابن الجزرى (يجتمع عليه الناس ، ورحل إليه القراء من الآفاق) (٥) . وعلى أية حال فقد ترك ابن خيرون كتباً في القراءات منها : كتاب الابتداء والتمام ، وكتاب الألفات واللامات (٦) .

-
- (١) ابن القرظى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠ - ابن الجزرى :
المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٧ - مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨١ .
- (٢) غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
- (٣) ورش : هو أبو عثمان بن سعيد ، وقيل سعيد بن عبد الله بن عمرو بن سليمان بن إبراهيم ، وقيل سعيد بن هدى ، أبو سعيد . وقيل أبو القاسم وقيل أبو عمرو القرشى بالولاء ، القبطى المصرى الملقب بورش . وهو من شيوخ القراء المشهورين . وقد أخذ القراءة عن نافع ، وهو رواية مدرسة نافع فى القراءة ، بجانب موطنه أبى موسى عيسى ابن ميقاد الملقب بقالون . وبهما معا اشتهرت مدرسة نافع المدنية . وتوفى ورش عام ١٩٧ هـ .
- انظر ابن الجزرى : نفس المصدر أعلاه ، ج ١ ، ص ٥٠٢-٥٠٣ .
- (٤) ابن الجزرى : نفسه ، ص ٢١٧ .
- (٥) ابن الجزرى : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .
- (٦) ابن الجزرى : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

ومن القراء في هذا العصر ممن وردت أسماؤهم عرضاً في ترجمة محمد ابن خيرون المعافري : محمد بن محمد بن عمر بن خيرون ، وشقيقه علي بن محمد ابنا المقرئ محمد بن عمر بن خيرون نفسه (١) . وكذلك أبو بكر الهواري المعلم ، وعبد الحكيم بن ابراهيم ، وعلي بن محمد البجائي ، وكلهم قد سمع وتلقى القراءة بحرف نافع برواية ورش عن محمد بن عمر بن خيرون ذاته (٢) .

ومن قراء عصر الفاطميين المعروفين : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القصري (٣) (ت ٣٢١ هـ) وهو في الحقيقة فقيه ومحدث ومقرئ في الوقت نفسه ، ولعله هو نفسه أبو جعفر أحمد بن أبي بكر الذي أشار اليه ابن الجزري على أنه واحد ممن تلقى القراءات عن ابن خيرون المعافري (٤) .

ومن جمع بين علوم شتى ومنها القراءات من علماء هذا العصر ، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ هـ كما عرفنا سابقا ، وأبو العرب تلقى علومه في القراءات على يدي محمد بن برغوث المقرئ الذي مر بنا ذكره عند الحديث عن القراءات في عصر الأغالية (٥) .

ومن هؤلاء أيضا أبو سليمان ربيع بن سليمان بن مطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، والذي أشرنا مرارا الى أدواره في نشر المذهب المالكي والدراست الشريفة . فقد ذكر الداوودي (٦) أن ربيعا القطان كان ذا علم بالقرآن ، قراءة وتفسيرا ومعنى . ولقد سمع خلال رحلته الى المشرق لعدد من

-
- (١) ابن الجزري : المصدر السابق، ص ٢١٧ .
 - (٢) ترجمة ابن خيرون من ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .
 - (٣) الزركلي : المرجع السابق ، ج ١ ص ٢٠٦ .
 - (٤) ترجمة ابن خيرون من ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .
 - (٥) ابن الجزري : نفسه ، ص ١٠٤ .
 - (٦) طبقات المفسرين : ج ١ ، ص ١٧٠-١٧١ .

علماء القراءات بجانب سماعه لعلماء الفقه والحديث هناك (١) . ومن القراء العلماء الذين ورد ذكرهم في افريقية ضمن ترجمة ربيع القطان ، أبو محمد بن يزيد المقرئ (٢) والحقيقة أننا لا نعرف منه أكثر من اسمه فقط .

ومن علماء القراءات المتأخرين في عصر الفاطميين ، محمد بن الحسين ابن محمد بن ابراهيم بن النعمان المقرئ (٣) . وقال ابن القرظي (٤) عنه أنه ممن كانت له عناية بالقرآن وقرأ على عدد من العلماء بمصر . ولقد غادر محمد بن الحسين بن النعمان القيروان بعد عام ٣٦٠ هـ الى الأندلس ، حيث بقي هناك حتى توفي سنة ٣٧٨ هـ (٥) .

ومنهم كذلك أبو جعفر عمر بن مثنى ، الذي نجهل تاريخ وفاته ، غير أن المعروف عنه أنه عاش في عصر الفاطميين ، لأنه عاصر عددا من علماء افريقية المشهورين وقتذاك وعلى رأسهم أبي اسحاق الجبنياني (٦) . وقد ذكر مياض أن ابن مثنى اشتهر بالقراءة برواية ورش ، كما أنه كان ذا معرفة بعلم القرآن الأخرى كالنسخ والمنسوخ والاعراب والخاص والعام (٧) . الخ .

-
- (١) الداودي : طبقات المفسرين : ج ١ ، ص ١٧١ .
 - (٢) الداودي : نفسه ، ص ١٧١ .
 - (٣) ترجم له كل من : ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ١٣٢ - ابن القرظي المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٣ .
 - (٤) تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٣ .
 - (٥) هذا ما أشار اليه ابن الجزري : نفسه ، ص ١٣٢ - أما ابن القرظي : نفسه ، ص ١١٣ فقد قال ان وفاته كانت عام ٣٧٨ هـ .
 - (٦) انظر مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ و .
 - (٧) مياض : المدارك ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

ثانياً : التفسير :

ليصل لدينا حقيقة ما يشير الى التفسير ورجاله في عصر الفاطميين بالنسبة لعلماء المالكية ، سوى ما ورد باقتضاب في بعض المصادر المتخصصة . ومع ذلك فلم نعثر إلا على ذكر لأربعة علماء فقط هم : أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان ، وأبو جعفر أحمد بن زياد ، وأبو سليمان ربيع القطان وأبو جعفر عمر بن مثنى . فأبو الأسود موسى القطان المتوفى سنة ٣٠٦ هـ كما مر بنا سابقا : عرفناه مدافعا قويا عن المذهب المالكي ، كما عرفناه فقيها من الفقهاء المعدودين ، لكنه بالإضافة الى ذلك يعتبر مفسرا ، وقد ترجم له الداوي في كتابه طبقات المفسرين (١) . ومعلوم أن هذا الكتاب لا يترجم الا للمفسرين فقط ، ومن هنا جاز أن نقول عن موسى القطان أنه كان مفسرا . وهذا الأمر ينطبق أيضا على أبي جعفر أحمد بن زياد (٢) (ت ٣١٩ هـ) ، وأبي سليمان ربيع القطان (٣) المتوفى سنة ٣٣٣ هـ اللذين أشرنا اليهم سابقا . فهما متعدد المواهب في الفقه والحديث والتفسير ، وقد وردت لهما ترجمتان عند الداوي .

ويمكننا أن نضيف الى هؤلاء الأربعة أبو جعفر عمر بن مثنى ، فهو بجانب كونه مقرئا ، فقد كان عالما بالتفسير كما يقول عياض (٤) .

بيد أن عصر الفاطميين قد شهد توسعا في علم التفسير الشيعي ، على يد عالمين من أبرز علماء المذهب الاسماعيلي آنذاك ، وهما : قاضي القضاة أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن حيون المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، حسبما عرفنا من قبل ، وباب الأبواب جعفر بن منصور اليماني الذي أشرنا الى دوره في

(١) الجزء الثاني : ص ٣٤١-٣٤٣ .

(٢) مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨١١ .

(٣) الداوي : طبقات المفسرين ، ج ٢ ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٤) الدارك : ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

الفقه الاسماعيلي من قبل فلقد ألف كلاهما كتباً في علم التفسير أو التأويل كانت ذات أهمية كبرى في خدمة المعتقد الشيعي الاسماعيلي .

فأبو حنيفة النعمان بن حيون كان منظرًا شيعيًا بلغة اليوم ، وألّف في سبيل خدمة مذهب كتباً جمّة ، وقد أشرنا في حديثنا عن الفقه الاسماعيلي الى بعض كتبه . وقد شارك في التأليف في جوانب شتى ، ومن بينها علم التفسير أما التأويل كما يعرف عن الشيعة . ولعل أهم كتاب له هو كتاب : أساس التأويل الذي يعتبر أساس المذهب الباطني الذي تعتمد عليه الدعوة والفكر الشيعي الاسماعيلي (١) .

وللتأويل عند الشيعة الاسماعيلية في الواقع دور خطير ، لأنه العلم الذي يعني (بباطن المعنى ، أو رمز ، أو جوهره ، وهو حقيقة مستورة وراء لفظة لا تدل عليها ، وما سمي التأويل تأويلاً ، الا أنه رجوع الى المآل والمرجع ، من أُل الشيء يؤول اذا رجع وفاد ، كما ينقل عبد السلام الكنوني في كتابه (٢) عن مقدمة عامر تامر لكتاب أساس التأويل لأبي حنيفة النعمان بن حيون نفسه .

ولقد اختص الأئمة من الفاطميين بالتأويل وقصروه على أنفسهم ، لأنهم ورثة علي بن أبي طالب الذي يعتبر عند الشيعة صاحب التأويل أو الباطن ، ذلك لأنه كما يقولون قد اختصه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو صاحب التنزيل بعلم التأويل والحقيقة وتعاليمها وما ترمز اليه . وقد تناقل أبناءه من الأئمة هذا العلم منه واختلفوا به (٣) .

(١) عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٢) المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ١٧٣ .

(٣) عبد السلام الكنوني : نفس المرجع والصفحة أعلاه .

ومع أنه ليس من مهمتنا الخوض في هذا الموضوع ، الا أننا نرى بعض أتباع الفاطميين كالنعمان بن حيون ، وجعفر بن منصور اليمن يؤلفان كتباً في التأويل باقرار واطلاع من الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (١)

ومهما يكن من أمر ، فان كتاب أساس التأويل للنعمان بن حيون قام على أساس تفسير أو تأويل بعض الآيات من القرآن الكريم وليست كلها . خاصة الآيات التي اعتقد الاسماعيلية أنها تؤيد مذهبهم وما يدعون اليه (٢) على أن كتاب أساس التأويل لم يأت كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٣) متطرفاً في التأويل الذي عرفه كتاب جعفر بن منصور مثلاً ، أو غيره من كتب التأويل اللاحقة .

لكن التأويل نحى بعد ذلك عند جعفر بن منصور اليمن معاصر أبي حنيفة النعمان بن حيون والذي اكتنفه الخليفة المعز لدين الله بحبه ورعايته منحى مغرقاً في التأويل لدرجة الغلو . وذلك في كتبه التي ألفها ، مثل كتاب تأويل الزكاة وكتاب الكشف ، وكتاب الفترات والقمرات ، وكتاب أسرار النطقاء . ففي كتابه تأويل الزكاة ، غالى كثيراً في تأويل بعض آيات القرآن الكريم ، بل لقد ذهب كما يقول حسن ابراهيم حسن (٤) وطه شرف الى تأويله بعض الأئمة . ونفس الشيء يمكن أن يقال من كتبه التي أشرنا اليها آنفاً ، وهذه الكتب على الرغم من أنها تعتبر كتب مناظرات وسير وتاريخ ، الا أنها لم تخل من تأويلات خطيرة لبعض ما ورد فيها من آيات قرآنية (٥) .

(١) أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٤ -

٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ .

(٢) عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) المعز لدين الله ، ص ٢٦٢ .

(٤) المعز لدين الله ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

ثالثا : علوم القرآن الأخرى :

الواقع أن هذا الجانب من العلوم القرآنية هو أقل الجوانب بسرواً خلال عصر الفاطميين ، شأنه في ذلك شأن العصور السابقة . ولعل أقصى ما نستطيع قوله هنا ، هو أن أبا الأسود موسى القطان الذي أشرنا إليه فسى حديثنا من التفسير في هذا العصر ، ألف كتابا في أحكام القرآن ، جاء فسى ١٢ جزءاً (١) .

ثم لدينا عالم القراءات الآخر : وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن زياد القيرواني المتوفى سنة ٣١٩ هـ كما عرفنا ، وقد روى أنه ألف هو الآخر كتابا في أحكام القرآن جاء في ١٠ أجزاء (٢) .

وأخيرا أبو جعفر عمر بن مثنى الذى عرفناه مقرئاً من مقرئى هذا العصر ، وهو وان كان لم يترك لنا مؤلفات في علوم القرآن ، الا أنه كان ذا معرفة واسعة بها وخاصة النسخ والنسخ والخاص والعام والغريب... الخ .^(٣)

(١) الداودى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ - مخلوف : المصدر السابق ،

ص ٨١ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

(٢) مخلوف : نفس المصدر السابق ، ص ٨١ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ نقصة ، ص ١٣ .

(٣) مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ .

علوم القرآن في عصر الزيريين :

في تتبُّعنا لعلوم القرآن في عصر الزيريين ، كانت الملاحظة الأولى التي لفتت انتباهنا هي أن افريقية شهدت وقتذاك توسعاً كبيراً في علوم القرآن في الكم والنوع . ففي الكم ظهر خلال هذا العصر العشرات من القراء سواء أولئك الذين اختصوا القراءات وغيرها من علوم القرآن بالدراسة والتعليم والتلقين ، أو الذين اختصوها - أي علوم القرآن - ، بالدراسة والتعليم والتأليف والتصنيف . أما من حيث النوع ، فقد ظهرت خلال هذا العصر مصنفات في علوم القرآن ضخمة كان لها تأثير كبير في افريقية وفي خارجها كذلك . ويمكننا أن نقول في اطمئنان ان ما عرفه هذا العصر من تقدم في علوم القرآن وتوسعها يفوق كل ما عرفته افريقية في العصور السابقة .

وفي الحقيقة ليس لدينا ما يعلل هذا الاهتمام بهذا الفرع من علوم الشريعة ، الا اذا اعتبرنا أن الجمود الذي أصاب الدراسات الفقهية في هذا العصر ، كان الدافع وراء الاهتمام بعلوم القرآن التي كانت في منتصف القرن الرابع والقرن الخامس الهجريين قد ازدهرت في كل الدولة الإسلامية .

والملاحظة الثانية التي خرجنا بها من تتبُّعنا لأحوال علوم القرآن من خلال هذا العصر ، هي أنه زادت فيه فرص الاحتكاك بعلماء القراءات وغيرها في مصر بدرجة أولى ، ثم في الأندلس من بعد . فلقد تأثرت مدرسة القرآن القيروانية بمدرسة مصر تأثراً كبيراً ، وهو ما أكدته رحلات جلّ علماء القيروان المفاربة الى مصر للنهل من شيوخ علوم القرآن المشهورين بها من أمثال أبي الطيب عبد المنعم بن غليون وغيره .

والأمر نفسه يمكن أن يقال - ولكن مع الفارق - ، بالنسبة للأندلس . فقد تأثر علماء القيروان بعلماء الأندلس المختصين في علوم القرآن ، ولكن ذلك التأثير لم يكن مطلقاً ، فقد أثروا هم أيضاً في رفقاءهم الأندلسيين عند ما فضّل البعض منهم استيطان الأندلس .

أولا : القراءات :

أشرنا الى أن هذا العصر شهد العشرات من علماء القراءات وخلافهم ونحن بالطبع لن نض في تفصيلهم فرداً فرداً ، وحسبنا أن نشير الى بعضهم وخاصة من كانت له مجهودات تأليفية في القراءات . وعلى أية حال فإن من الأسماء اللامعة التي تطالعنا من قراء هذا العصر : أبو ابراهيم اسماعيل بن أحمد القسري ، ويعرف بالمهدي (١) (ت . ٣٨٠ هـ) . وقد كان قارئاً حاذقاً متصدراً ، وله رحلة الى مصر ، سمع خلالها لعدد من علمائها ، وعاد الى بلاده ، فسمع منه الكثيرون ومن أبرزهم محمد بن سفيان الهواري الذي سنترجم له بعد قليل . ومن العلماء القراء الذين تصدوا للاقراء والتدريس ، أبو حفص عمر بن مهران القروي (٢) (ت بعد ٣٩٠ هـ) فقد كان قارئاً فارقاً حاذقاً كما يصفه ابن الجزري . ومن تصدى للتدريس والاقراء في نهاية القرن الرابع أبو علي الحسن بن علي الجلولسي القيرواني (٣) .

ويعتبر أبو عبد الله محمد بن أبي زيد الفقيه القيرواني المشهور المتوفى سنة ٣٨٩ هـ الذي أشرنا الى أدواره في نشر المذهب المالكي والدراستات الفقهية والحديثية من القراء المعروفين في القيروان كذلك . وهو ممن كان يقصده الأندلسيون لتلقي القراءة عنه . ومن أولئك الذين أخذوا القراءة عنه العالم الأندلسي المشهور أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكي (٤) . ولأبي محمد عبد الله بن أبي زيد في القراءات مؤلفات منها : رسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة ، ورسالة الى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن (٥) .

-
- (١) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١-١٦٢ .
(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج ١ ، ص ٩٨ .
(٣) ابن الجزري : نفسه ، ص ٢٢٦ .
(٤) السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٥١ .
(٥) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

ومَنَّ جمع بين علوم شتى ومنها القراءات : أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على الجبنياني المتوفى سنة ٣٩٩ هـ الذي كنا قد عرفنا بعضاً من سيرته من قبل . وكان لأبي اسحاق الجبنياني في القراءات حظاً طيباً ، ويقول الداودي (١) عنه أنه كان (حسن القراءة للقرآن ، بحسن تفسيره ، وإعرابه ، وناسخه ومنسوخه) .

ويعد أبو الحسن على بن خلف المعافري القابسي العالم القيرواني المبرز المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، في عداد القراء المعروفين أيضاً فأبو الحسن القابسي لم تقف به همته العلمية على على الفقه والحديث فضلاً عن علم التربية ، بل كان مبرزاً في علوم أخرى ومن بينها القراءات ، بل انه اشتهر في البداية بالقراءات وكانت له رحلة الى المشرق سمع فيها من بعض المقرئين ، ثم عاد الى بلاده . (فأقرأ الناس بالقيروان دهرًا ، ثم قطع الاقراء لما بلغه أن بعض أصحابه استقرأه السلطان فقرأ عليه) (٢) .

ويأتي أبو عبد الله محمد بن سفيان الهواري (٣) (ت ٤١٥ هـ) على رأس القراء المشهورين والمبرزين في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري . وتأتى مكانته وأهميته من اقتضاره على علم القراءات وحده ، فأوسعته دراسة ومذاكرة ، ليس هذا فحسب ، بل وقد ألف فيه مؤلفات قيمة . ويقول عنه هياض (٤) ما نصه (محمد ابن سفيان الهواري المقرئ القيرواني ، أبا عبد الله ابن محمد ، أخذ من القابسي ورحل الى عبد المنعم بن غليون ، وكان الغالب عليه علم القرآن) ، وفي موضع

- (١) طبقات المفسرين ، ج ١ ، ص ١-٢ .
- (٢) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١٧ .
- (٣) ترجمته موجودة باستفاضة عند هياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧١٢ -
- الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٦-١٥٧ - ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ابن قرحون : المصدر السابق ، ص ٢٧١ -
- مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٠٥-١٠٦ .
- (٤) المدارك ، ج ٢ ، ص ٧١٢ .

آخر قال (١) أيضا (قال حاتم الطرابلسي ، كان رجلاً فاقلاً فهما ، حلواً متقللاً
أشهر من في المغرب في وقته بالقراءات وأبصرهم بها) . أما ابن الجزري (٢) فقد
تناول فيما يأخذه من مصادره المختلفة ، معظم أحواله وشؤونه ، وأعطى تفاصيلاً
واسعة من شيوخه في مصر كابن غليون وغيره ، ثم طلبته في إفريقية . وقد أشار كما
ذكر عياض إلى أن محمد بن سفيان الهواري قد غادر بلاده إلى مكة قاصداً الحج
عام ٤١٣ هـ ، فحج وجاور هناك ثم انتقل إلى المدينة ، فتوفي بها سنة ٤١٥ هـ (٣) .
ولمحمد بن سفيان الهواري في القراءات كتاب مشهور هو كتاب الهادي السدي
كان له سمعة طيبة في الأندلس وغيرها (٤) وكتاب اختلاف قراءة الأمازيغ في عدد آي
القرآن . وكتاب الارشاد في مذهب القراءة وكتاب التذكرة في القراءات (٥) .

ومن اِختَصَّ بالقراءة وحدها من علماء إفريقية في مصر الزيريين
أبو جعفر أحمد بن علي الأزدي القيرواني (٦) (ت ٤٢٧ هـ) ، وهو من رحل كذلك
إلى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبد المنعم بن غليون ، ثم عاد إلى بلاده ، فقرأ
عليه عدد من القراء المعروفين آنذاك .

ومن اشتهر بالقراءات من علماء العقد الثالث من القرن الخامس

(١) المدارك ، ج ٢ ، ص ٧١٢ .

(٢) طبقات القرآن : ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٣) عياض : المصدر السابق ، ص ٧١٢ - ابن الجزري : المصدر السابق ،
ص ٤٧ بينما شذَّ ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب المعالم بقوله ان محمد بن
سفيان توفي سنة ٤٠٨ هـ .

(٤) عياض نفسه ، ص ٧١٢ - ابن الجزري : نفسه ، ص ٧١ (وقد أشار فقط
إلى كتاب الهادي وحده) .

(٥) ابن خبير : فهرسة ما رواه عن شيوخه : ص ٢٥ ، ٣٨ ، ٣٩ - مخلوف : المصدر
السابق ، ص ١٠٦ .

(٦) ابن الجزري : نفسه ، ج ١ ، ص ٩١ .

الهجرى ، أبو عمران : موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي (١) المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وأبو عمران الفاسى عرفناه رحالة فى طلب العلم ، وعرفناه كذلك مدافعا بلسانه ، وقلبه عن المذهب المالكى ، وبيننا جهوده فى دراسات الفقه والحديث أيضا . غير أن ما لم نعرفه عنه آنذاك ، هو أنه كان من القراء المشهورين فى القيروان بجانب ما ذكر . بل انه فى رحلته التى رحل فيها الى المشرق تلقى القراءات عن عدد من علمائها فى الحجاز والعراق ، ويقول عنه ابن الجزرى (٢) بأنه عندما عاد الى القيروان (أقرأ الناس بها مدة ، ثم ترك الاقراء ، ودارس الفقه وأسمع الحديث الى أن مات) . وفى مكان آخر (٣) يقول عنه انه (كان يقرأ بالقراءات ويحفظها مع معرفة بالجرح والتعديل) . . ويذكر (٤) مخلوف فيما ينقله من مصادره أنه كان عالما بالقراءات السبع ، ويجود القرآن) . ومن علماء هذه الفترة كذلك أبو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندى (٥) (ت ٤٣٥ هـ) وهو ممن جمع بين علوم شتى ، ومن بينها القراءات ، وقد قرأ على أبى عبد الله محمد بن سفيان الهوارى الذى ترجمنا له من قبل .

- (١) ترجمته موجودة بتوسع عند : عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠٢ - ٧٠٦ . الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٩ - ١٦٤ - ابن القاضى : جذوة الاقتباس ، القسم الاول ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ - ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ - ابن السراج : المصدر السابق ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - مجهول : بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، ص ٤٤ - ٤٥ - عبد الهادى التازى : جامع القرويين ، ج ٣ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ - عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المفريية ، ج ٣ ، ص ٤٩ .
- (٢) طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .
- (٣) طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .
- (٤) شجرة النور الزكية ، ص ١٠٦ .
- (٥) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

على أن أشهر شخصية افريقية على الإطلاق في علوم القرآن فامة ،
والقراءات خاصة ليس في عصر الزيريين فقط ، بل وفي كل الفترة الزمنية موضوع
الرسالة ، هو أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسى
القيرواني . ثم الأندلسي (١) (٣٥٥-٤٣٧ هـ) .

ولقد أجمع كل من تعرض لمجريات الحياة العلمية في افريقية على أن مكي
ابن أبي طالب ، كان واحداً من أبرز أقطاب العلوم الشرعية والعربية في افريقية
ثم الأندلس وقتذاك . وهذا الاجماع جاء من التتبع الشديد لتفاصيل حياته
العلمية الحافلة . والواقع أن معظم متبعي سيرته العلمية قد أمدونا بشيء
غير يسير من أحواله وشؤونه بصورة لم نعهد لها الا لقليل من العلماء كسحنون
ابن سعيد مثلاً ، بل لعلنا نقول بأننا لم نعثر على ترجمة ما لعالم تنقص تاريخ
ولادته ووفاته ساعة ويوماً وشهراً وسنة (٢) . وما من ريب في أن ذلك دليل واضح على
مقدار ما تعكسه مكانة هذا العالم العلمية من تقدير واحترام .

(١) لمكي بن أبي طالب ترجمة واسعة جداً عند أكثر من ١٥ مؤرخاً تقريباً
وعلى كل فان أوسع ترجمة له رأيناها موجودة عند : القفطي ، (جمال
الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) : إنباه الرواة على أنباء النحاة
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج ٣ ، ص ٣١٣-٣١٩ ، وقد أشار المحقق
في هامش ص ٣١٣ الى حوالي ١٤ مصدراً وردت فيها ترجمة مكي بن أبي
طالب : ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الخامس ، ص ٢٧٤ -
٢٧٧ - ياقوت : معجم الادباء ، ج ١٩ ، ص ١٦١٤-٢١٧١ - ابن الجزري :
المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩-٣١٠ - الداودي : المصدر السابق :
ج ٢ ، ص ٣٣٧-٣٣٨ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٢٨٦ . وغير
ذلك .

(٢) قال المؤرخون عند ولادته (ولد بالقيروان عند طلوع الشمس أو قبل طلوعها
لسبع بقين من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة) وقيل سنة أربع وخمسين
وثلثمائة . وقالوا عن وفاته (وتوفي مكي بن أبي طالب رحمه الله يوم السبت
عند صلاة الفجر عند طلوع الفجر) وقد فن ضحى يوم الاحد لليلتين خلتا من
المحرم سنة سبع وثلثين وأربعمائة بقرطبة) .
أنظر ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ - القفطي : إنباه
الرواة على أنباء النحاة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ وغيرهما .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد فقط ، بل طافوا مع مكى بن أبى طالب البلدان التى نزلها والشيخ الذين أخذ عنهم فى القيروان ومصر ومكة ، كل ذلك مؤرخاً (١) . كما أشار الى تلاميذه الكثر من الأفريقيين والأندلسيين (٢) . ورصدوا ما حكاه نفسه من مؤلفاته ومواقع التأليف لبعضها فى مكة وقرطبة وبيت المقدس (٣) . ثم ذكروا تأليفه ، غير أنهم لم يكونوا فى ذلك سواء ، فمنهم من أشار الى بعضها (٤) ، ومنهم من أشار الى الكثير منها (٥) ، ومنهم من تقصّاها جميعها بما فيها من أجزاء وهى التى تبلغ أكثر من ثمانين مصنفاً فى علوم القرآن جملةً (٦) ، منها ما اتيح لنا احصاؤه فى القراءات ، حيث بلغت أكثر من أربعين كتاباً . والبقية فى التفسير وعلوم القرآن الأخرى . ومن هنا فليص غريباً أن نفهم سرّ ذلك الاهتمام بمكى بن أبى طالب ، وهو الذى أثرى علوم القرآن على مستوى الدولة الإسلامية . هذا مع ما تمتع به من سيرة شخصية فاضلة ، فهو حسن الخلق والفهم ، جيد الدين والعقل ، مجود للقرآن ، خيراً فاضلاً ، متواضعاً ديناً ، مجاب الدعوة ومشهوراً بالصالح (٧) .

وفيما يتعلق بمصنفاته فى علم القراءات التى تبلغ أكثر من أربعين كتاباً فان من العسير أن نورد ها كلها ، غير أننا نكتفى بالإشارة الى أكثرها شهرة

(١) أنظر ابن خلكان : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - القفطى :

المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - القفطى : نفسه ، ص ٣١٤ -

٣١٥ - ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) راجع مثلاً ابن الجزرى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣١٠ .

(٤) الداودى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ - ابن الجزرى : نفسه

ص ٣١٠ - الزركلى : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٥) كابن خلكان مثلاً : نفسه ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - وقد أشار الى الكثير منها ، ثم

قال معقّباً : ولولا خوف التطويل لأستوفيت ذكرها .

(٦) كالقفطى مثلاً : نفسه ، ص ٣١٥ - ٣١٩ ، حيث سرد كل تلك المصنفات

بأجزائها .

(٧) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ - القفطى : المصدر السابق

ج ٣ ، ص ٣١٤ - ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

وأهمية محيلين القارئ الى بقيتها في كتب التراجم والطيفات التي أشارت الى ذلك وهذه المصنفات هي (١) :

- ١ - كتاب التبصرة في القراءات ، ٥ أجزاء ، وقد نص على أنه ألفه في القيروان . (٢)
- ٢ - كتاب الرعاية لتجويد القرآن ، ٤ أجزاء .
- ٣ - كتاب شرح التمام والوقف ، ٤ أجزاء .
- ٤ - كتاب الكشف على وجوه القراءات وعللها ، ٢٠ جزءاً .
- ٥ - كتاب الموجز في القراءات ، جزءان .
- ٦ - كتاب التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف منه ، جزءان .
- ٧ - كتاب الوقف على كلاً وبلى في القرآن ، جزء واحد .
- ٨ - كتاب التذكرة لاختلاف القراء السبعة ، جزء واحد .
- ٩ - كتاب شرح الادغام الكبير في الخارج ، جزء واحد .
- ١٠ - كتب الاختلاف بين قالون وكل من القراء الآتين : أبو عمر بن العلاء وابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي وحمزة . وكل كتاب يقع في جزء واحد .

ولعل في هذا ما يوضح بعض مكانة مكي بن أبي طالب العلمية . ويبقى أن نشير هنا بشئ من الاسهاب الى ما سبق أن ذكرناه من رأى الباحث التونسي الطاهر المعموري ، الذي يرى بأن عطاءات ابن أبي طالب العلمية ليست وليدة البيئة الافريقية ، ولكنها تعود لتأثير البيئة المشرقية والأندلسية (٣) .

في البدء نشير الى أننا لا ننكر بأن مكي بن أبي طالب قد تأثر بالبيئة العلمية في المشرق ، وكذلك في الأندلس . لكننا نود أن نقول وبناءً على أقوال مؤرخي سيرته ، انه قد ولد عام ٣٥٥ هـ في القيروان وقضى فيها

(١) من هذه المصنفات وغيرها من مصنفات علم القراءات . أنظر القفطي : نفس

المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٥-٣١٩ .

(٢) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٣) أنظر قبل ص ٤٢١ - ٤٢٢

طفولته وشبابه . وقد تلقى آنذاك علوم القرآن وخاصة القراءات على يد ابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي (١) . ولعل في هذا ما يدل على أن تكوينه العلمي في القراءات ، قد انبنى على أيدي علماء القيروان . ثم غادر القيروان وعمره ١٣ عاماً كما أشار المؤرخون بعد أن أكمل القراءات إلى مصر حيث اختلف إلى بعض المؤيد بين بالحساب وهي عبارة القفطي (٢) بنصها ثم عاد إلى القيروان ليستكمل بها علومه ، ثم ذهب ثانية إلى مصر (بعد أن أكمل القراءات بالقيروان) (٣) وذلك في سنة ٣٧٧ هـ . ومن مصراتجه إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج ، ثم رجع إلى القيروان (وبقي عليه شيء من القراءات ، فعاد إلى مصر ثالثة فمضى سنة اثنتين وثمانين ، فاستكمل ما بقي عليه) (٤) . ثم عاد إلى القيروان في سنة ٣٨٣ هـ ، وأقام هناك يقرئ الناس حتى سنة ٣٨٧ هـ ، حيث غادر بلده إلى مكة وظل فيها حتى سنة ٣٩٠ هـ ، ثم عاد إلى مصر في سنة ٣٩١ هـ وظل فيها بعض سنة ٩١ هـ ، ثم غادرها إلى بلاده عام ٣٩٢ هـ (٥) . وأخيراً غادر بلاده نهائياً في عام ٣٩٣ هـ إلى الأندلس حيث استوطنها إلى أن توفي سنة ٤٣٧ هـ (٦) .

هذا هو ما يقال من تأثير البيئة الشرقية والأندلسية في ابن أبي طالب . وبعملية حسابية نرى أن مكى بن أبي طالب لم ينقطع عن بلده القيروان البتة . فمنذ عام ٣٦٨ هـ عند ما غادر بلاده لأول مرة وعمره ١٣ عاماً لم ينقطع عن بلده سوى ثلاث سنوات متتاليات فقط . ولما كان قد ولد عام ٣٥٥ هـ ، وغادر القيروان نهائياً إلى الأندلس عام ٣٩٣ هـ ، فإنه قد أمضى في بلده دون ريب معظم هذا الشطر من عمره الذي يبلغ وقتها ٣٧ عاماً . وهذه المرحلة من السن في تصورنا جزيلة العطاء ، فهي تمثل شرح الشباب لا سيما وأننا قد عرفنا أن نبوغه قد بدأ مبكراً في سنٍ لم يتعد فيها الثالثة عشر من عمره .

-
- (١) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .
 (٢) انباه الرواة ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .
 (٣) القفطي : نفس المصدر والجزء ، ص ٣١٤ .
 (٤) القفطي : نفسه ص ٣١٥ .
 (٥) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ - القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ .
 (٦) ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ - ابن الجزري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٠ .

وانذا كان مكى بن أبى طالب قد ألف معظم تأليفه فى الأندلس كما صرح هو (١) نفسه ، فان من غير المعقول ألا يكون ذلك العطاء قد جاء وليد البيئة التى نشأ فيها وترعرع ، وكانت ذات أثر فى تخصصه فى علوم القرآن بشكل أساسى .

وقيل أن نختتم الحديث عن علماء القراءات فى القيروان خلال العصر الزيرى ، نرى لزماً علينا أن نشير الى عالمين مشهورين فى القراءات بصفة خاصة وغيرها من العلوم بصفة عامة ، وهما على بن فضال المجاشعى ، وأبو الحسن على ابن عبد الفنى الحصرى . ولعل وجه ختم الحديث عنهما من جهة ، وذكرهما معا هنا من جهة أخرى راجع الى أنهما وإن كانا من علماء القراءات بالقيروان فى عصر الزيريين إلا أنهما قد عاشا فترة من الزمن بعد منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن فى الامكان أن تغفل دورهما وهما اللذان أثريا علوم القرآن بعلمهما الغزير ومؤلفاتهما القيمة فى القراءات .

فعلى بن فضال بن على بن غالب بن جابر المجاشعى الفرزدقى التميمى القيروانى (٢) (ت ٤٧٩ هـ) أحد علماء المشرق الذين قدموا القيروان فأقام بها مدة من الزمن . ولئن كنا لا نعرف مقدار تلك المدة التى قضاها فى القيروان إلا أننا لا نستبعد أن يكون قد أحدث فى البلاد أثراً طليماً كبيراً . لا سيما وأنه أحد المشهورين بالتصنيف فى كل علوم القرآن . ونحن بالطبع لا نعرف متى غادر القيروان . وكل الذى نعرفه أن قد توفى فى بغداد سنة ٤٧٩ هـ (٣) .

- (١) ابن الجزرى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٠ .
(٢) السيوطى : طبقات المفسرين ، ص ٢٣-٢٤ - الداودى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢١-٤٢٢ .
(٣) الداودى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٤٢٢ .

على أن حظنا من المعلومات القيمة عن على الحصرى القيروانى (١) ، كانت بلا شك أفضل حالاً من معلوماتنا عن ابن فضال المجاشعى ، فالحصرى أولاً قيروانى الأصل بإتفاق جميع من ترجم لهم ، ثم أنه ابن خالة ابراهيم الحصرى الأديب القيروانى المشهور والذى سنترجم له . ثم أنه عاش أغلب سنوات عمره فى القيروان قبل أن يفاد رها بعد سقوطها على يد قرب بنى هلال فى منتصف القرن الخامس الهجرى .

وكيفما كان الأمر فإننا نقول باطمئنان أن على الحصرى القيروانى (ت ٤٨٨ هـ) هو أحد علماء القيروان المتأخرين ممن كانت له شهرة عريضة فى القراءات أجمع على ذكرها والاشادة بها كل من ترجم له (٢) . ويكفى أن نذكر بأن القراءات هى المادة التى تخصص فيها وقضى جل عمره فى تدريسها والتف فى القصيدة الرائية المشهورة فى قراءة نافع التى تجاوزت مائتى بيت ، والتى فنى المختصون بشرحها والتعليق عليها (٣)

ولقد بلغ من شغف على الحصرى القيروانى بالقراءات أنه كان يقتبس قواعدها ومصطلحاتها فى شعره ، كما كان يضمن العديد من آيات القرآن فى شعره أيضاً (٤) . وبلغت مكانته فى علم القراءات أنه يقوم بتوجيه الأسئلة المتعددة الى مشاهير القراء فى المغرب طالبا اجابتهم عليها (٥) . وهذا فى الواقع ليس غريباً على الحصرى ، فقد (كان إماماً فى القراءات السبع) (٦) ، كما كان شاعراً مبرزاً مشهوراً حسبما سنعرف فى موضعه .

- (١) من ترجمته انظر بعد ج ٢ ، ص ٧٠٨
 (٢) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ وما بعدها - ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٠-٥٥١ - محمد المرزوقى والجيلاتى بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ٣٣-٣٤ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٠-٣١
 (٣) محمد المرزوقى والجيلاتى بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٣-٣٤ ، ٦٢٠
 (٤) محمد المرزوقى والجيلاتى بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٣-٣٤
 (٥) ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٠
 (٦) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٨

فمن علماء مدينة تونس المبكرين : علي بن حجاج التونسي (ت ٣٨٩) ، وهو كما يقول ابن الجزري (١) (امام مقرئ مصدّر معروف ، رحل الى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبد المنعم بن غليون ، وتصدّر بتونس ، فقرأ عليه أبو بكر بن هتيق أبو عبد الله وفتح بن عبد الله بن البابوسي) . ومن علماء القراءات في مدينة تونس كذلك فتاح بن عبد الله بن البابوسي : أبو عبد الله بن أبي محمد التونسي ، وهو من مشايخ الاقراء بالمغرب كما يقول ابن الجزري (٢) ، وقد مر بنا قبل قليل انه أحد من تلقى القراءات على ، علي بن حجاج التونسي .

ومن علماء القراءات بمدينة المهدية ، يطالعنا ، اسم أبي الحسن علي بن أبي غالب المهدوي ، كواحد من علمائها المختصين بالقراءات وحدها . وهو أحد الذين رحلوا الى مصر ، فأخذوا من أبي الطيب عبد المنعم بن غليون (٣)

ومن أبناء مدينة المهدية : نجد ذكرا لعالم قراءات آخر وهو أبو حفص عمر بن حسين المقرئ المعروف بابن النفوسي : وقد عاش حياته بالمهدية ولقد تلقى ابن خير (٤) العالم الأندلسي المشهور بعض تأليفه في حدود عام ٤٣٢ هـ . بيد أن أشهر من انجبتهم مدينة المهدية من علماء علوم القرآن وخاصة القراءات ، هو أبو العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي (٥) ،

(١) غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٢) غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ، ج ١ ، ص ٥٦٠-٥٦١ .

(٤) فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص ٢٤-٢٥ ، ٣٨-٣٩ .

(٥) ترجمته موجودة بتوسع عند : ابن يشكوال : الصلاة ، ص ٨٦-٨٧ - ابن الجزري

المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٢ - السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٥١ -

الداودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ - مخلوف : المصدر السابق ،

ص ١٠٨ - الكونى : المرجع السابق ، ص ٦٧-٧٢ .

(ت بعد ٤٣٠ هـ) (١) وأبو العباس أحمد بن عمار المهدوي سمع في بلده افريقية من عدد من شيوخه القراءات كأبي الحسن القابسي ، ومحمد بن سفيان الهواري وغيرهما (٢) . ولا تذكر لنا المصادر التي ترجمت له أي معلومات إضافية أخرى من ولادته ونشأته ، وكما قضى من الوقت في موطنه افريقية ، قبل أن يغادرها إلى الأندلس في حدود عام ٤٣٠ هـ . على أن الشيء المؤكد هو أن أحمد بن عمار المهدوي افريقي الأصل قلبا وقالبا . وأن أقصى مدة قضاها في الأندلس لم تزيد عن ١٠ سنوات ، حيث ذكرت بعض المصادر أنه توفي عام ٤٤٠ هـ هذا إذا طرحنا ما تردد من أقوال عن أنه توفي بعد ٤٣٠ هـ وهو العام الذي دخل فيه الأندلس . ولعل في هذا ما يقلل من قيمة رأى الطاهر المعمرى الذي يعتبر أحمد بن عمار المهدوي أحد الذين أثرت فيهم البيئة الأندلسية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن أحمد بن عمار المهدوي بلغ مكانة مرموقة في بلده افريقية وفي الأندلس . وقد ألف عددًا من المؤلفات في القراءات والتفسير فمن كتبه في علم القراءات كتاب الهداية إلى مذاهب القراء السبعة (٤) ، وكتاب شرح الهداية نفسه ، وكتاب الكفاية في شرح مقارئ الهداية (٥) ثم كتاب الموضح في تحليل وجوه القراءات (٦) .

ومن علماء مدينة باغاية أو باغيا بأقصى افريقية ، أبو العباس أحمد

(١) لم يحدد ابن يشكوال سنة وفاته ، في حين ذكر ابن الجزري أنه توفي بعد الثلاثين وأربعمائة نقلا من الذهبي السيوطي فقد قال بأنه توفي في حدود سنة ثلاث وأربعمائة . ولا شك أن هذا وهم من السيوطي . وسكت الداودي عن ذكر سنة وفاته في حين أشار مخلوف إلى أنه توفي سنة ٤١٤ هـ . أما الكونوني فقد ذكر أنه توفي سنة ٤٣٢ هـ . من هنا رجحنا أن تكون وفاته بعد ٤٣٠ هـ .

(٢) ابن يشكوال : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٨٦ - ابن الجزري : نفس المصدر أعلاه والجزء ص ٩٢ .

(٣) انظر قبل ص ٤٢١ - ٤٢٢

(٤) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٢ - الكونوني : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٥) ابن خبير : فهرست ما رواه من شيوخه ، ص ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤٤ .

(٦) الكونوني : نفس المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧٣ .

بن على بن أحمد بن محمد بن عبد الله الريعى الباغائي المقرئ (١) (٣٤٥-٤٠١ هـ)
وعلى بن أحمد الباغائي عاش في بلده افريقية مدة ثلاثين عاما ، ثم غادرها عام ٣٧٦ هـ
الى الأندلس فظل قريبا الى أن توفي عام ٤٠١ هـ كما ذكرنا . ولقد رحل في مدة
بقائه في افريقية الى مصر حيث قابل هناك عالم القراءات المشهور عبد المنعم بسن
غليون . وقد أثني عليه الداودي في كتابه ، فقال : انه (لا نظير له في حفظ
القرآن قراءاته وأعرابه وأحكامه وناسخة ومنسوخه) (٢) .

(١) له ترجمة عند الداودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ - عادل نويهض :
معجم أعلام الجزائر ص ٢٧ = ٢٨ .
(٢) طبقات المفسرين ، ج ١ ، ص ٥٣ .

ثانيا : التفسير :

لم يكن حظ علم التفسير من الانتشار في عصر الزيريين كحظ علم القراءات الذي شهد ذلك ازدهار الذي فرضناه آنفا . ولكن مع ذلك فلم تخل الساحة من مفسرين كانت لهم مكانتهم سواء في المذاكرة أو المدايسة كما نظن - ، أو في التأليف والتصنيف كما هو مؤكد .

ومهما يكن فان أبا محمد عبيد الله بن أبي زيد القيرواني ، أضاف الى التفسير في هذا العصر أثرا علميا تمثل في كتابه : تفسير أوقات الصلوات (١) . وكذا الأمر بالنسبة لأبي الحسن علي بن خلف المعافى القابسي الذي ألف كتابه : المنقذ في شبه التأويل (٢) .

علي أن أشهر من ألف في التفسير في هذا العصر : مكي بن أبي طالب الذي ألف بضعة مؤلفات مهمة قيمة منها : كتاب الهداية الى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه ، ويقع في ٧٠ جزءا . وكتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره في ١٠ أجزاء ، وكتاب الاختلاف في الذبيح من هو ؟ وكتاب تفسير مشكل المعاني والتفسير في ١٥ جزءا وغير ذلك (٣) .

ومن علماء التفسير المتأخرين في القيروان ، أبو الحسن علي بن عبد الغنى الحصرى ، وقد كان شديد الاهتمام بتفسير يحيى بن سلام (٤) الذي أشرنا اليه سابقا .

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .
(٢) عياض : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٦١٩ .
(٣) القفطي : المصدر السابق ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ .
(٤) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني ص ٣٤ .

وفيما يتعلق بالتفسير والمفسرين في بقية مدن وأقاليم افريقية ، فلم تشر المصادر الا الى أبي العباس أحمد بن عمار المهدوي ، الذي ألف كتابا مهما في التفسير (١) ، وكتابا آخر يدعى التحصيل في مختصر التفصيل (٢) .

ثالثا : علوم القرآن الأخرى :

كانت علوم القرآن الأخرى تحتل المرتبة الثالثة في التسلسل بالنسبة بالنسبة لعلوم القرآن جملة ، والمصنفات التي ألفت فيها شحيحة لا توضح لنا المدى الذي بلغته هذه العلوم آنذاك .

وعلى أية حال فان ما لدينا من معلومات حول هذه العلوم لا تتعدى الإشارة الى ماصنّفه ابن أبي زيد القيروان ، وهو كتاب البيان عن اعجاز القرآن (٣) ، وماصنّفه مكي بن أبي طالب من كتب نذكر منها : كتاب اختصار احكام القرآن في ٤ أجزاء ، وكتاب الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ، وفي ٣ أجزاء وكتاب الايجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه ، في جزء واحد ، وكتاب بيان اعجاز القرآن ، وكتاب مشكل غريب القرآن في ٣ أجزاء (٤) وغير ذلك .

ثم ماصنّفه احمد بن علي الريعي الباغائي من كتاب في احكام القرآن على مذهب الامام مالك بن أنس. (٥)

-
- (١) ابن الجزري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٢ - الداودي : المصدر السابق ج ١ ، ص ٥٦ - الكنوني : المرجع السابق ، ص ٣٧ .
(٢) الكنوني : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١٩٩-٢٠٤ .
(٣) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .
(٤) القفطي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٥-٣١٧ .
(٥) الداودي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ .

الفصل الثالث

الدراسات الشرعية

(٣)

الأثر العلمى للصراع المذهبى فى افريقية

- بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية
- بين المالكية والأباضية
- بين المالكية والشيعة

الأثر العلمى للصراع المذهبى فى افريقية بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية

١ - نبذة عن دخول المذاهب الكلامية افريقية وأهم معتقداتها :

لعل من الضرورى هنا أن ننبه بادرى ذى بدء الى أننا نقصد بالمذاهب الكلامية تلك التى تعارف المؤرخون وكتاب الفرق الاسلامية على انها تعنى المذاهب الكلامية العقائدية البحتة ، والتى تأتى على راسها فرق المعتزلة والمرجئة والجبرية ... الخ . اما المذاهب الدينية السياسية كالخوارج والشيعة - ولل كلام جانب كبير فى معتقداتها - ، فان الحديث عنها كان مستقلا دائما عند المؤرخين وكتاب الفرق . ولذلك فقد إختصيناها أى المذاهب الدينية السياسية الخوارج والشيعة - بفصلين مستقلين .

ومنذ أن تمذهب المغاربة بالمذهب المالكي كما عرفنا سابقا (١) ، لم ينفكوا ياقومون أى اتجاه يؤثر - كما يرون - على الشريعة الصافية الواضحة . ولقد كانوا يترسمون فى ذلك خطي زعيم مذهبهم الامام مالك الذى لم يكره شيئا كرهه للجدل والتنظير . كيف لا وهو الذى كان يعتقد أن الجدل فى الدين مفسدة للدين ؟ . وكيف لا وهو الذى كان يتسائل كثيرا عن جدوى البحث فى قضايا عقائدية مبتدعة عن ذات الله وصفاته والجبر والاختبار وخلق القرآن ... الخ ؟ ، وكيف وهو الذى كان يحض أتباعه على الاهتمام بالكلام الذى تحته عمل من الدين فقط ، أى الفقه ، الذى يضبط اعمال الناس ويحكمها ويرد الفروع على الأصول (٢) ... الخ ؟

ومن هنا فقد كره أتباعه وثلامذته الكثيرون فى الحجاز ومصر والمغرب تلك التيارات الفكرية التى طم سيلها وقتذاك فى المشرق وابتدأ من نهاية القرن الأول الهجرى . ولقد كان نصيب أتباعه المغاربة من ذلك الكره النصيب الأوفى والقدر الأعلى .

(١) أنظر قبل ص ٢٧٦ وما بعدها

(٢) حول هذه المواقف للامام مالك من المذاهب الكلامية أنظر عبد الرحمن

الشرقاوى : أئمة الفقه التسعة ، ص ٢٨-٢٩ .

ولذلك فلن ندهش اذا عرفنا بأن المغاربة - وقد حددوا موقفهم النهائي بالتمذهب بالمذهب المالكي - ، قد اختاروا الابتعاد عن العلوم العقلية النظرية والاهتمام بالعلوم النقلية من فقه وحديث وعلوم القرآن . ولذلك فلم يعد مشيراً للدهشة أن تتكون في افريقية مدرسة فقهية متميزة ، ولما يمض سوى أقل من قرن على دخول المذهب المالكي بلاد المغرب .

بيد أن المغاربة ما لبثوا أن فوجئوا ببعض التيارات الكلامية الخطيرة تقتحم حياتهم - كما اقتحمت حياة زعيم مذهبهم من قبل - ، ويظل أوارها يهب بين الفينة والفينة ، مما يجبرهم على التعامل معها والرد عليها بشتى المواقف ، سواء بالمعارضة الصامتة أو المواقف المتشددة أو بالمواجهة العلمية تاليفا ومناظرة والتحلى بالجدل والنظر - وهو سلاح المذاهب الكلامية - إذا لزم الأمر علاوة على مقاطعة أتباعها وعدم مائلتهم . ولقد جر هذا الأسلوب الى مقاطعة بعض فقهاء المالكية أنفسهم ، بعد أن أحست غالبية الفقهاء مجرد احساس في ميل بعض الفقهاء لبعض الآراء الكلامية ، حسبما سنعرفه في موضعة .

وكانت أهم التيارات الكلامية التي اقتحمت حياة المغاربة ، وتواصلت توسعا وانكماشاً في فترات زمنية متفاوتة ، هي آراء التيار الاعتزالي ، أو معتقدات المعتزلة ، وهي القضايا العقائدية التي شغلت العالم الاسلامي آنذاك .

على أن وجه الحق هنا هو أن افريقية لم تعرف وقتذاك كل قضايا الأصول الخمسة التي يقوم عليها مذهب المعتزلة ، وهي التوحيد ، العدل ، الوعيد ، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) ، فقد

(١) عن مذهب المعتزلة وأصوله الخمسة وما تشعب عنها ، انظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٨٣ - ٣٠١ ، ضحى الاسلام ، الجزء الثالث ، ص ٢١ - ٢٧ ، ظهر الاسلام ، الجزء الرابع ، ص ٧ - ٤١ ، ٧٤ - ٨٣ . فقد عالج هذا الموضوع معالجة تاريخية بموضوعية ودقة - محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص

صرفت أهم القضايا التي تشعبت عن الأصل الأول ، وهو التوحيد ، كمسائل خلق القرآن ، والأسماء والصفات ، وكقضية الجبر والاختيار التي تفرعت من الأصل الثاني وهو العدل

وإذا ما رحنا نبحث عن السبل التي تسرب مذهب المعتزلة إلى افريقية من طريقها . لوجدناها تتدرج تحت سبل مباشرة وأخرى غير مباشرة فبالنسبة للسبل المباشرة ، ذكر المؤرخون أن واصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة وأحد مؤسسيه (٨٠-٣١٠هـ) بعث أحد دعاته إلى بلاد المغرب ويدعى عبد الله بن الحارث الذي أفلح في جذب كثير من البربر إلى مذهبهم وخاصة في المغرب الأقصى (١) . وقد ظهر مذهب المعتزلة نتيجة للجهود تلك في المغرب الأوسط ، حيث كان له وجود كثيف هناك (٢) . وليس بعيد أن يكون قد عرف في المغرب الأدنى .

أما السبل غير المباشرة التي أدت إلى تسرب مذهب المعتزلة ، ومن ثم التمكين له فهي متعددة . ولعل أهمها هو أن كثيرا من الأحناف في المشرق قد مالوا إلى تعاليم المعتزلة ، وخاصة بعد أن أصبح الاعتزال المذهب الرسمي لبعض خلفاء الدولة العباسية (٣) . ومن هنا فقد مكن فقهاء الأحناف في افريقية الذين كان لهم وجود كبير فيها حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل لمبادئ الاعتزال أن تنتشر هناك . وسبيل آخر أدى إلى شيوع آراء مذهب الاعتزال وهو تذهب

- (١) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٣٠٠ - السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ (نقلا من البلخي في كتابه فضل الاعتزال) .
(٢) السيد محمد أبو العزم داود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .
(٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٧١ ، ١٦٣-١٦٥ ، ١٩٦ وما بعدها
سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

معظم أمراء الأغلبية به ، وما من ريب أن أولئك الأمراء الأغلبية كانوا يصدرون في ذلك من ميلهم الى تقليد من تعصب لمذهب المعتزلة من خلفاء بني العباس ، وهم المأمون والمعتصم والواثق ، كما هو معروف (١) .

غير أن الغريب في الأمر أنه في الوقت الذي نبذ خلفاء بني العباس وابتدأوا من الخليفة المتوكل مذهب المعتزلة ، واصل الأمراء الأغلبية تأييد مذهب المعتزلة ورجالاته وعكفوا كذلك على تأييد الفقهاء الأحناف في صراعهم ذي الشقين : الحنفي والاعتزالي ضد خصومهم المالكية ، حتى السنوات الأخيرة من عهد الدولة الأغلبية

والسبيل الثالث غير المباشر ، كان بالطبع ذلك الذي ترفده وحدة الثقافة الاسلامية . فغير خاف أن ما كان شائعا وقتذاك في المشرق من اختلافات مذهبية ، وصراعات بين العقليين والنقليين . كان يتردد صداه في كل الأقاليم الاسلامية . والأدلة والشواهد أوضح من أن نحدد ها ونحصرها ، فالرحلات المتبادلة للعلماء بين صقع وصقع ، ورحلات الحج للمغاربة بصفة خاصة ، والاستيطان المؤقت ، أو الدائم ، كل ذلك كان كفيلا بأن تنتشر عن طريقه التيارات والآراء المختلفة .

والى جانب مذهب المعتزلة ، عرفت افريقية تيارا كلاميا آخر . وهو —————
الارجاء ، أى مذهب المرجئة (٢) . وهى قضية لا كتبها الألسن كثيرا ، غير أن أخطر ما فيها أنها أدت الى اختلاف شديد ، ليس بين دعائها والمتحلين لها وبين المالكية ، بل بين فقهاء المالكية أنفسهم .

(١) أنظر أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٦٣-١٨٢ - محمد أبوزهرة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٧-١٧٤ .

(٢) من المرجئة وآرائهم المختلفة ، أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٧٩-٢٨٢ ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣١٦-٣٢٩ .

كما عرفت افريقية تيارا كلاميا آخر بجانب تيار الارجا ، بل هو حقيقة متولد منه ، لكنه تيار افريقي محلي ، أى أنه لم يكن قادما من المشرق ، وانما انبثق من افريقية ، ذلك التيار تمثل فى اختلاف بين فقهاء المالكية وقع فى مصر الأغلبية حول قضية عرفت بمسألة الايمان والاستثناء فيه ، وقد وقعت بين فقيهين من أشهر فقهاء افريقية وقتذاك ، هما محمد بن سحنون بن سعيد ، ومحمد بن عبدوس . ولقد استمرت هذه القضية تشور لفترة طويلة من الزمن بين مؤيديهما حسبما سنعرف بعد .

على أن قضية الايمان مالبثت أن ظهرت ثانية خلال العصرين الفاطمي والزهري . وتأثير خارجي بين فقهاء المالكية كذلك . وقد قادت إلى نفس النتيجة التى تكشفت من القضية الأولى كما سنعرف بعد ذلك .

والى جانب هذا كله ثارت بعض القضايا الكلامية ، وخاصة فى الثلث الأخير من القرن الخامس الهجرى قضية الكفار ، وهل يعرفون الله عز وجل أم لا ؟ وثار بين فقهاء المالكية كذلك ، كما سنوضحه بعد .

وعلاوة على هذا وذاك ، فقد أثرت بعض القضايا الفقهية بين فقهاء المالكية وفقهاء الحنفية ، مثل مسألة الوجه الشرعى فى النبذ وشربه . وقد وقف بعض فقهاء المالكية يوضح وجهة نظر المالكية فى ذلك سواء كان ذلك من طريق المناظرات أو التأليف .

هذا الى جانب بعض القضايا البدعية التى وقف حيالها بعض فقهاء المالكية موقفا متشددا ، وشرفوا يواجهون ذلك التيار البدعى بالمقاومة الشديدة تارة ، وبالتأليف والتصنيف تارة أخرى . (١)

(١) عن كل هذه القضايا أنظر بعد موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم ، ص :

ب- موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم :

إذا مضينا نستطلع مواقف فقهاء المالكية من المذاهب الكلامية من أهل البدع والأهواء ، في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فلن تأخذنا الدهشة بناءً على كرههم العميق للجهل والتفلسف والتنظير العقائدي أو غيره بأنهم قد قاوموا كل من رفع لآراء البدعية تلك ، وعاملوه بكل عنف وقسوة ، واستخدموا معهم كل مواقف الخصومة من مواجهة مباشرة إلى مقاطعة سلبية إلى مواجهتهم بنفس سلاحهم أي الجدل والمناظرة ، إلى غير ذلك من المواقف .

ففي عصر الولاية ، هب الفقيه المشهور عبد الله بن فروخ المتوفى عام ١٧٥ هـ كما عرفنا سابقاً ، يعلن رأيه بصراحة وعنفي في المعتزلة ، فيرميهم (باللعنات) ، بل ويستجيز ذلك لهم (١) . وكأن عبد الله بن فروخ يرد بذلك على من اتهمه بأنه من المعتزلة (٢) . وقد أصر على أن ينفي عن نفسه كل تهمة ترمي به بالميل للمعتزلة ، فرفض ذات مرة أن يصلي على جنازة أحد المعتزلة المعروفين آنذاك (٣) .

وكان قرينه الآخر ، وهو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل يشاركه نظره تلك في المعتزلة ، وكثيراً ما كان يجابه رجالها في إفريقية ويقرعهم ، ويسفه آراءهم الاعتزالية (٤) .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ : ص ١٢٠-١٢١ - عياض : المصدر السابق ج ١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ - ابن السراج : المصدر السابق ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٧٢٣-٧٢٤ .
- (٢) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١٢٠ - عياض : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٣٤١ .
- (٣) وهو المعروف بابن صخرة المعتزلي . وكان مع ابن فروخ صديقه عبد الله بن غانم القاضي والبهلول بن راشد . وقد طلبوا من ابن غانم أن يصلي عليه ، فقال : (كل حي ميت ، قد مو دابتي) ، وقالوا لابن فروخ ذلك ، فقال مثل ما قال صديقه كذلك فعل صديقهما البهلول بن راشد .
- انظر عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .
- (٤) المالكي : نفسه ص ١٥٩-١٦٠ .

وجاراهما معاصرهما الثالث البهلول بن راشد المتوفى عام ١٨٣ هـ
كما عرفنا كذلك من قبل ، وكان شديداً في ذلك ، بل ان شدته كانت تتعدى الى
تلامذته حينما كان يشك بأنهم قد يبادلون رجالات المعتزلة الحديث .
ولعل في هذا الموقف الذى نرويه عنه ما يدل على ذلك . روى المالكي (١) من بعض
أصحاب البهلول أنه قال : (كنت جالسا عنده ومعه رجل عليه لباس حسن وهيئة
فقال له البهلول " أحب أن تذكر لى ما نحتاج به القدرية . فسكت الرجل حتى
تفرق الناس ، ثم قال له " يا أبا عمرو ، انك سألتنى عما نحتاج به القدرية وهو
كلام تصحبه الشياطين ، لأنه سلاح من سلاحهم ، فتزينه فى قلوب العامة وفسى
مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك ، فلا آمن أن يحلوا بقلبه منه شئ " ،
فيقول : سمعت هذا الكلام فى مجلس البهلول ، فقال له : " والله لأقبلن رأسك ،
أحييتنى أحياءك الله " .

أما فى عصر الأغلبية ، فقد كانت المواجهة شديدة بين فقهاء المالكية
والمعتزلة من فقهاء الأحناف (١) الذين كانوا مدعومين من قبل بعض الأمراء
الأغلبية ، بالإضافة الى مقاومتهم لأهل الأهواء والبدع الآخرين الذين كثر عددهم
فى هذا العصر .

فبينما الفقيه المشهور يحيى بن سلام يملأ البلاد فقهاء وحديثا وتفسيراً
كما ذكرنا من قبل ، يفاجأ بأنه قد اتهم بالارجاء أى الميل لمبادئ المرجئة
وفاجأ كذلك بوقوف زملائه الفقهاء ضده موقفاً مدائياً ، فيحزنه ذلك ويقسم أشد
الأيمان بأنه ما عبد الله على شئ من الارجاء قط ، ويستغرب كيف صدق الفقهاء

(١) لا نعتقد أن كل فقهاء الأحناف فى افريقية وقتذاك كانوا معتزلة ، وعلى أية
حال فقد عقد الخشني فى كتاب : قضاة قرطبة وطبقات علماء افريقية فصلاً تحدث
فيه عن فقهاء الأحناف المتمذهبين بمذهب المعتزلة .
أنظر الخشني : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٨٠-١٨٣ ، ١٨٧-١٩٧ ، ٢١٩-
٢٢٢ . (الوارد ضمن كتاب طبقات علماء افريقية لأبى العرب التميمي) .

عنه ذلك ، وهو الذى كان يحدّثهم عنه أنه بدعة ^(١) .

ولم يكن فقهاء المالكية بافريقية وحدّهم الذين وقفوا ذلك الموقف العدائى من يحيى بن سلام ، بل كان فقهاء المالكية بمصر كعبد الله بن وهب وغيره يقف ذلك الموقف منه . وعند ما تبين لهم حقيقة موقف يحيى بن سلام ، يزول غضبهم منه . ويرفعوا عنه العزل - ان جاز هذا القول - وذلك بعد ما وثقوا من أن رأى يحيى بن سلام فى مسألة الايمان قد نقل عنه محرّفا ^(٢) .

أما الفقيه المالكى المبرز : أسد بن الفرات المتوفى حسبنا عرفنا عام ٢١٣ هـ فقد كان شديداً مع أهل البدع والمذاهب الكلامية ، وخاصة المعتزلة وقضيتهم الأشهر والأبرز ، وهى خلق القرآن . فما حفظ عنه أنه كان يسفه آراءهم فى مسألة خلق القرآن ^(٣) ، حتى انه واجه معتنقى ذلك الرأى من الفقهاء الأحناف بالعنف ، بل بالضرب ^(٤) . والغريب فى الأمر أنه مع موقفه ذلك ، يرمى بالقول بخلق القرآن ، مما جعل سحنون بن سعيد ينتفض وينفى ذلك بشدة ^(٥) .

ويقف معاصره عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى على الأرجح عام ٢٢٧ هـ من قضية خلق القرآن مواقف شديدة ، ومن ذلك موقفه من أحد فقهاء الأحناف فى حضرة الامير الأغلبى : الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣-٢٢٦ هـ) حتى انه كان يفضب الامير بصراحته الشديدة . ^(٦)

-
- (١) أبو العرب التميمى : المصدر السابق ، ص ٣٧-٣٨ .
 (٢) أبو العرب التميمى : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٣٨-٣٩ .
 (٣) أبو العرب : كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ٨٢ - المالكى : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٨١-١٨٢ (ولقد روى ان أسداً كان يبدع من يقول بأن القرآن مخلوق . وقد تناول بالهجوم أحد رجالات المعتزلة المشهورين فى المشرق وهو بشر المريسي ، وتوعدّه) .
 (٤) أبو العرب : نفس المصدر أعلاه والصفحة - المالكى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٨٢ .
 (٥) أنظر أبو العرب التميمى : نفسه ، ص ٨٢ .
 (٦) أبو العرب : نفسه ، ص ٨٢ - المالكى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

ويبدو أن رحلات بعض فقهاء الحنفية الى العراق وقتذاك كانت سببا في تحريك قضايا الكلام ، بما يقدمون به من أفكار اعتزالية ، أو مؤلفات مذهبية اعتزالية . كانوا يبادرون الى طرحها في افريقية وينادون بها ، بل ولا يستتروا في ذلك . ولعل في هاتين الواقعتين ما يؤيد ذلك فسلیمان بن عصفور المعروف بالقراء ، أحد فقهاء الأحناف في العصر الأغلبی ، رحل الى العراق ، ثم عاد يطرح مبادئ مذهب الاعتزال على شكل مؤلفات تتناول قضايا القرآن وغيرها (١) .

والفقيه الحنفي الآخر عبد الله بن الأشج - لم يذكر المؤرخون وفاته - ارتحل الى العراق ، ثم عاد الى القيروان . وقد تساءل فيما كان يشغل أهل القيروان من القضايا ؟ . ولما قيل له : في الأسماء والصفات ، قال : لقد تركت الناس بالعراق (يتوافقون في مسألتين : مسألة القدر ، ومسألة الوعد والوعيد) (٢)

وتتوالى مواقف فقهاء المالكية ضد القائلين بخلق القرآن والارجساء وغير ذلك من القضايا حتى أننا نرى فقيها مالكيًا معروفًا وهو عون بن يوسف الخزاعي (ت ٢٣٩ هـ) يستغنى في رجل من القائلين بخلق القرآن ، مات ، فقال لسائله (ان وحدتم من يكفیکم مؤونته فلا تقبروه ، فسكتوا ، ثم سأله ثلاثا كل ذلك يجيبهم بمثله ، فقالوا : لا نجد ، فقال : اذهبوا فواروه من أجل التوحيد (٣) ومهما كان في فعل عون هذا من رأى ، فاننا لم نورد ذلك الا لتوضيح ماهية العلاقة بين فقهاء المالكية ، وأهل المذاهب الكلامية .

(١) الخشتی : قضاة قرطبة وعلما افريقية - تصحيح عزت العطار الحسيني ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٢) الخشتی : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٨٧ .

(٣) عياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٢٩ - ابن السراج : المصدر السابق ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص ٨٠٩ .

أما الفقيه الأبرز والأشهر على الإطلاق : سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠ هـ فقد كان القدوة في المواقف المتشددة مع المعتزلة وأهل البدع ، والأهواء . وقد حمد له المؤرخون مواقفه تلك وأكبروها . وفي الحق لقد تعددت مواقفه ، فمن مواجهة شديدة وتقريع ، الى مقاطعة وصد ، الى مناظرات علمية ، وغير ذلك . وسنكتفي بذكر أشهر مواقفه فقط .

فقد ترك صلاة الجماعة في جامع القيروان ، لأن الامام به كان أحد القائلين بخلق القرآن (١) ، وكادت السياط أن تلهب ظهره ، عندما رفض الصلاة وراء القاضي الحنفى عبد الله بن أبي الجواد ، الذى شكاه الى الأمير الأغلبى محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢ هـ) فأمر الأمير بضربه خمسمائة سوط لو لم يتدخل وزيره فيمنع ذلك بحسن تدبيره . ولقد تعرض فى عهد هذا الأمير أيضا لمحنة طويلة بسبب مسألة خلق القرآن ، وقد ناظر فيها القاضي الحنفى ابن أبي الجواد - وسنعرف ذلك فى موضعه - ، الى درجة أن الأمير أمر بقتله ، لو لم يتدخل وزيره فى الأمر أيضا (٢) .

والموقف التالى الذى نرويه عنه يمثل رأى فقهاء المالكية فى القضايا العقائدية والسياسية التى كانت مثارة وقتذاك . ذكر المالكي (٣) عن الفقيه يحيى بن عون الخزاعى الذى تحدثنا عنه قبل قليل أنه قال : (دخلت مع سحنون على ابن الفصار ، وهو مريض وكان من أصحابه ، وأصابه فى علقته قلق ، فقال له : يا ابن الفصار ، ما هذا القلق الذى أنت فيه ؟ ، قال : الموت والقدر على الله عز وجل ، فقال له سحنون : ألسنت مصدقا بالرسول أو لهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار ؟ ، وأن أفضل هذه الأمة - بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ؟ ، وأن الله تعالى يرى يوم القيامة ؟

(١) أنظر سعدى أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص ٤٢ .

(٢) أنظر بعد ص ٧٦٩-٧٧٠

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

وأنه (على العرش استوى) ، ولا تخرج على الأئمة بالسيف وان جاروا ؟ ، قال :
إني والله الذي لا إله إلا هو . ف ضرب سحنون بيده على ضبعيه ، وقال له :
مت اذا شئت ، مت اذا شئت ، وخرج عنه .

ويواصل طلبه سحنون وتلامذته النجباء الوقوف بشدة ضد أهل الكلام
والمتكلمين فيتصدى ابنه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ كما عرفنا من قبل
لكل من يتجاسر على المناادة بآراء المعتزلة ، ويخوض معهم مناظرات يغلب عليها
الجدل ، وهو الذي دفعته تلك الأمور إلى أن يتحلى بالجدل والمناظرة^(١) ،
ليجابه المعتزلة بنفس سلاحهم . وإذا كنا سنرجئ الحديث عن المناظرات
العلمية إلى مكانها بعد ، فإن ما هو مناسب هنا ذكر بعض مواقفه من الفقهاء
الأحناف ، ومن زميله ورفيق دربه محمد بن عبيدوس . ف فيما يتعلق بموقفه من
الفقهاء الأحناف الذين كانوا يجاهرون بآرائهم الاعتزالية من حيث مسائل خلق
القرآن ، ورؤية الله سبحانه وتعالى ، وقضايا الجبر والاختيار ، روى أنه كان على
خلاف مع قاض إفريقية وقتذاك سليمان بن عمران (ت ٢٧٠ هـ) ، وقد ضايقة هذا
القاضي مضايقة شديدة جعلته يستغيث بالأمر محمد بن أحمد بن محمد
الأغلبى (٢٥٠ - ٢٦١ هـ) فأغاثه الأمير وأمنه ، ثم ما زال بالأمر حتى وافق على
عزل إمام جامع القيروان المعين من قبل القاضي سليمان بن عمران ، وتولية
القضية عبد الله بن طالب المتوفى سنة ٢٧٥ هـ كما ترجمنا له سابقا ، على الصلاة .
فلما حان يوم الجمعة انتصب ابن طالب على المنبر يقول : (الحمد لله الذي
يشكر على ما به أنعم ، والحمد لله الذي عذب على ما لو شاء منه عصم ، والحمد
لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يرى)^(٢) .
وبالطبع فقد أغضب هذا الأمر القاضي الذي حاول أن يثنى الأمير عن قراره دون
جدوى .

(١) ذكر أن محمد بن سحنون أول من ألف في الجدل من المالكية . أنظر الحجوى
الغاسى : الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى ، ج ٢ ، ص ١٢٩-١٣٠ .
(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١١-١١٢ .

بيد أن القضية الخطيرة التي شجر الخلاف عليها بين فقهاء المالكية بعضهم بعضا ، كانت هي مسألة الايمان التي تعد أصلا رئيسيا من أصول المرجئة العقائدية . وخلاصة هذه القضية التي ثارت بين محمد بن سحنون ومحمد بن عيدوس زميله ورفيق دربه العلوي المتوفى عام ٢٦١هـ ، ثم بين أصحابهما ومن تعصب لهما من فقهاء المالكية ، أن محمد بن سحنون رفع الهميان محمدا بن عيدوس كان يستثنى في مسألة الايمان . وكان يقول : أنا مؤمن عند الله . ولذلك عارض محمد بن سحنون ذلك الاعتقاد الذي يوافق مذهب المرجئة ، فكان ينكر على محمد بن عيدوس ذلك ويقول ان (المرء يعلم اعتقاده ، فكيف يعلم أنه يعتقد الايمان ، ثم يشك فيه ؟ وقد جرى بينهما تنازع شديد ، وانقسم معظم فقهاء المالكية وقتها الى فريقين ، فريق يعارض محمد بن سحنون ، حتى انهم سمووا بالمحمدية والسحنونية ، وفريق عرف بالعيدوسية وبالشكوكية - زيادة في توسع شقة الخلاف - نسبة الى محمد بن عيدوس (١) . ولقد استمرت ذيول هذه المسألة وقتسا غير يسير تتور بين فقهاء المالكية بعضهم بعضا ، حتى أن منهم لم يكتف بأن يؤيد أحد الرجلين : محمد بن سحنون ، أو محمد بن عيدوس (٢) ، بل امتدت الخصومة الى معارضة بعضهم بعضا (٣) وقد شغلت هذه القضية فقهاء المالكية من يومها

(١) هياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٣-١١٦ ، ص ١٢٣-١٢٤ -
الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٩-٤٤٠ مع الحواشي .

(٢) كان الفقيه ابراهيم بن عتاب الخولاني (ت ٢٦١هـ) ، يقف مؤيدا لمحمد بن سحنون في مسألة الايمان ولا يكتفي بذلك بل كان مغاليا جدا ، حتى انه لم يصل الى جنازة ابن عيدوس مصيبة منه .

أنظر الخسني : قضاة قرطبة وطبقات علماء افريقية ، تصحيح عزت العطار الحين ، ص ٢٠٥-٢٠٦ - هياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧١

(٣) مثل خصومة الفقيه حمديس (ت ٢٨٩هـ) الذي يؤيد محمد بن سحنون

للقاضي حماس بن مروان (ت ٣٠٣هـ) المؤيد لمحمد بن عيدوس .

أنظر هياض : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٢٥٤-٢٥٥ - الدباغ :

المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٥ .

حتى انتهاء العصر الأغلبى ، ثم تجددت ثانية بين فقهاء المالكية أيضا فى العصر الفاطمى حسبما سنعرفه بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن اللغسط حول تلك القضية ما كان ليظهر لولا سوء الفهم الذى رافقها . وقد ذكر مؤرخو الطبقات المغربية أن ما حدث لم يكن سوى مجرد تحريف فى نقل رأى محمد بن عيسى فى مسألة الايمان تلك . ولقد رووا عنه أنه لم يكن يرى مسألة الاستثناء فى الايمان بدعة فحسب ، كما يقول محمد ابن سحنون ، بل انه كان يخاف أن تصل الى حد الكفر (١) .

وعلى أية حال ، فقد أفادت هذه المسألة الناحية العلمية عند ما تمخض فنسها انبعثت حركة تأليفية حسبما سنعرفه فى موضعه بعد . وما من ريب فى أنها أسهمت فى تثبيت اعتقاد الناس من منظور يخالف منظور فرقة المرجئة .

وفى عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) عادت مسألة خلق القرآن تطل برأسها ثانية ، ويستمد دقاتها من نفوذ الأمير نفوذاً واستطالة شديدتين . وكان الفقيه الحنفى الذى يدين بالاعتزال محمد ابن عبدون (ت ٢٩٧ هـ) ، والذى تولى قضاء افريقية عام ٢٧٥ هـ الموجه لتلك القضية واثارتها . وينسب للفقيه المالكى المشهور سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢ هـ) ، الفضل فى التصدى لتلك القضية سواء بمؤلفاته فى ذلك ، أو بالمناظرات العلمية التى ناظر فيها المعتزلة فى مجلس الأمير ابراهيم بن أحمد ، حسبما سنعرف بعد (٢) .

ثم عادت القضية ، أى قضية خلق القرآن ، تثور من جديد فى عهد الأمير أبى العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ) ، وهو

(١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٤ - الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ، ص

٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢) أنظر بعد ص ٤٧٣

ابن الأمير المذكور سابقا . ولقد عمد أبو العباس الى انتهاج أسلوب مغاير
لأسلوب أسلافه في تأييد هم لمسألة خلق القرآن . فلم يكتف بالتأييد الافتقادي
العلني ، بل أمر بكتابة منشورات تدعو الى القول بخلق القرآن بالقوة والاكراه
الأمر الذي أثار علماء المالكية وأغضبهم (١) . وكان الذي تولى عظم هذا الأمر
وأقنع الأمير بذلك هو الفقيه الحنفي ذو الميول الاعتزالية محمد بن شعيب الصديني
الذي ولاه أبو العباس القضاء في نفس العام ، الذي تولى هو فيه المرة ، أي
عام ٢٨٩ هـ (١) .

وعند ما قتل الأمير أبو العباس عام ٢٩٠ هـ عزل ابنه زيادة الله
(٢٩٠-٢٩٦ هـ) القاضي محمد بن شعيب الصديني ، وولى بدلا عنه الفقيه
المالكي حماس بن مروان (ت ٣٠٣ هـ) ، وكتب مخاطبا الخاصة والعامة قائلا
(اني عزلت منكم الجافي الجلف المبتدع ووليت حماس بن مروان لرأفته ورحمته
وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة . فرضيت الخاصة والعامة ، وسروا بذلك) .

وعند ما قامت الدولة الفاطمية عام ٢٩٦ هـ لم نعد نرى في تراجم
العلماء والفقهاء المالكية ، أي اشارات لصراعات مذهبية مع المعتزلة . بل عد منا
أي ذكر للمعتزلة في عصرهم . وهكذا اختفت المسائل التي كان يثور الخلاف
حولها كقضايا خلق القرآن والأسماء والصفات والجبر والاختيار لتحل محلها
قضايا خلاف مذهبي بين المالكية والشيعة ، وهي وان كانت ذات مساس بجوانب
مقائدية وفقهية وسياسية ، الا أنها تختلف مذهبيا بالطبع من مذهب أهل
الكلام كثيرا .

(١) الخشني : طبقات علماء افريقية الوارد ضمن كتاب طبقات وعلماء افريقية
لأبي العرب ، ص ٢٣٨ .

(٢) أنظر عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغلبية ، ص ٢١ (نقل
من الدباغ في المعالم) ١

لكن عصر الفاطميين تميز بالخوض في مسألة الايمان والاستثنا فيه ، وقد شجر الخلاف في هذه المسألة بين فقهاء المالكية أنفسهم كما ذكرنا من قبل ، ان وقف القاضي حماس بن مروان الذي أشرنا اليه قبل قليل ، يؤيد موقف محمد ابن عيّدوس شيخه في تلك المسألة . وقد وقف يشايعه في موقفه هذا الفقيه أبو الفضل الممسي (ت ٣٣٣هـ) في حين وقف الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (ت ٣٣٧هـ) يخاصمهما خصومة شديدة . ولقد وصل الأمر بأبي ميسرة أنه طلب من أبي الفضل الممسي أن يتوب من قوله ، بل وعول على أن يأخذ عليه محضرا بذلك ، مما حدى برفقائهما الفقهاء الى التدخل والاصلاح بينهما (١) .

على أن الخلاف حول مسألة الايمان ما لبث أن شجر ثانية بين فقهاء المالكية وخاصة بين الفقيه أبي محمد بن التبان (ت ٣٧١هـ) والفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٨٩هـ) (٢) . ولقد جد حول مسألة الايمان تلك جديد ، ان روى أن الفقيه أبا الحكم محمد بن حكيم الرعي الزيات ، قد جاء بمسألة الايمان فألقاها على مسامع فقهاء افريقية المعاصرين له . وأدى الأمر الى اشتعال الخلاف حولها بين الفقهاء وخاصة ابن التبان وابن أبي زيد كما ذكرنا آنفا (٣) . ويبدو أنه ليس هناك كبير اختلاف بين هذه المسألة وبين المسألة التي دار الخلاف حولها في عصر الأغالبة شطرا من الوقت في عصر الفاطميين .

أما خلال العصر الزيري المتأخر ، فلم نعد نسمع شيئا من أهل الكلام وقضايهم ، وكل ما ذكر هو أنه أثيرت في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري مسألة (الكفار هل يعرفون الله تعالى أولا ؟) . وقد نشب حولها لخلاف بين فقهاء المالكية ، حتى وضع الفقيه أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠هـ) حدا لتلك المسألة (٤) .

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٣-٣١٤ ، ص ٣٦١ .
 (٢) عياض : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٧-٥٢٨ -
 الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٧-٧٨ .
 (٣) عياض : نفسه ، ص ٥٢٧-٥٢٨ ، ٥٣٥-٥٣٦ - الدباغ : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٧٨ .
 (٤) عياض : نفسه ، ص ٧٠٥-٧٠٦ .

جـ - الأصداء العلمية للصراع المذهبي بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية :

إذا كنا قد تعرفنا على بعض صور مشرفة لأوجه مقاومة المغاربة لأتباع المذاهب الكلامية ، فإن الجانب العلمي من تلك المواقف لا يقل اشراقا ووضوحا عنها . ولقد مرت المقاومة العلمية - ان جاز هذا التعبير - بمرقتين أو وسيلتين ، هما : الجانب التأليفي ، تأليف المؤلفات للرد على أهل المذاهب الكلامية والجانب الآخر ، جانب المناظرات العلمية . وهذان الجانبان اثنان من ثلاثة سبل انتهجها فقهاء المالكية بعد مع الشيعة كما سنعرف في موضعه ان شاء الله .

الحركة التأليفية :

كان من الطبيعي أن لا يكتفى فقهاء المالكية بمجرد المقاومة والمقاطعة لأتباع المذاهب الكلامية ، بل حرصوا على مواجهة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة في كل ما يتعلق بالقضايا التي كانوا يثيرونها وقتذاك ، وهي مسألة خلق القرآن ، ومسألة الأسماء والصفات والجبر والاختيار ، ومسألة الايمان بصفة خاصة .

وإذا كان عصر الولاة لم يشهد حدوث جهود تأليفية للرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فإن عصر الأغالية حفل بصورة خاصة بظهور مؤلفات عديدة قبل فقهاء المالكية ، ومن قبل المعتزلة حول تلك القضايا الآتفة الذكر . فالفقيه محمد بن سحنون بن سعيد يؤلف العديد من الكتب التي توضح وجهة النظر الصحيحة حول القضايا الاعتقادية ، مثل كتاب : الحجة على القدرية ، وكتاب الرد على الفكرية ، وكتاب الرد على أهل البدع في ثلاثة أجزاء ، ورسالة في أدب المناظرة في جزئين (١) ... الى غير ذلك .

(١) مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦-١٠٧ .

وفقيه مالكي آخر يخوض غمار الرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فيكتب عدة كتب ، ذلك هو الفقيه يحيى بن عمر الكنانى الأندلسى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ومن تلك الكتب نذكر : كتاب الرؤية ، أى كأنما هو رد على المعتزلة الذين ينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وكتاب الرد على المرجئة الى غير ذلك (١) .

والحق يقال أن مسألة خلق القرآن ، هى أهم القضايا التى كان يثور النزاع حولها ، والتى كانت قطب الرمح فى الحركة التأليفية كما نظن ، رغم أننا لم نعثر الا على اشارات يسيرة جدا من تلك المؤلفات . وعلى أية حال فان فقهاء الأحناف المعتزلة كانوا حسبما تشير أكثر المصادر السابقين الى التأليف فى تلك المسألة ، ثم شرع فقهاء المالكية يردون عليهم .

فمن أولئك الفقهاء الأحناف سليمان بن أبى مصفور ، المعروف بالفراء فقد ذكر الخشتى (٢) أنه كان (له كتب فى مذهبه : فى خلق القرآن) ، وان لم يذكر اسما تلك الكتب صراحة . ومنهم كذلك الفقيه محمد بن الكلامى الذى صنف كتابا يؤكد فيه القول بخلق القرآن . ويبدو أن السبب فى ذلك هو أن الفقيه المالكي سعيد بن الحداد المتوفى سنة ٣٠٢ هـ ، صنف كتابا يرد فيه على القائلين بخلق القرآن . وأثار هذا التصارع العلمى بين الرجلين فقيهما مالكي آخر ، وهو ابراهيم بن محمد الضبى المقتول لاحقا فى عصر الفاطميين عام ٢٩٧ هـ فصنف كتابا يناقض فيه الكلامى ، ويسفه ما جاء فى كتابه الأنصف الذكر (٢) ، مما دفع بالفقيه محمد بن هيدون - الذى كنا قد أشرنا الى دوره فى التأليب على من ينكر خلق القرآن - ، الى أن يستغل الفرصة لاحقا بالتنسيق

(١) مياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢) قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، تصحيح عزت العطار ، ص ٢٨٦ .

مع الملاءة في الوشاية بالضبي عند عبيد الله المهدي أثناء دخوله القيروان (١).

وعند ما ثارت مسألة الايمان والاستثناء فيه بين محمد بن سحنون ومحمد بن عيّدوس ، وانقسم قطاع كبير من فقهاء المالكية الى سحنونية وشكوكية ، كان هذا مدعاة للإختلاف الى التأليف حول تلك المسألة .

وفي الحق ، لقد تزعم محمد بن سحنون ومن وقف معه من فقهاء المالكية وقتذاك ، ذلك الاتجاه ، رغم كل ما عرفناه من نفى الفقيه محمد بن عيّدوس لما اتهم به . وهكذا نرى محمد بن سحنون يؤلف كتابا بعنوان : كتاب الايمان والرد على أهل الشرك (٢) . واتبعه فقيه مؤيد له ، وهو الفقيه عبد الله بن غافق التونسي (ت ٢٧٥ هـ) (٣) فوضع رسالة في مسألة الايمان كان لها صدى طيبا في افريقية وقتذاك (٤) .

ويتعصب فقيه ثان لمحمد بن سحنون ، وهو الفقيه يحيى بن عمر الكنانى ، فيؤلف كتابا حول تلك المسألة ويسميه - فيما يدل على مغزاه العميق - كتاب الرد على الشكوكية (٥) . ويتبعه الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي البجلي الذي أشرنا اليه أنه أحد من مال الى المذهب الشافعى (٦) ، فيصنف كتابا بعنوان : الرد على الشكوكية (٧) أيضا .

-
- (١) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .
 (٢) مياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٤-٢٣٥ .
 (٣) هكذا رجح مياض : نفس المصدر السابق أطله والجزء ، ص ٢٧١-٢٧٢ ، وان كان قد ذكر الأقوال الأخرى . فقال قبل سنة ٢٧٧ هـ ، وقيل ٢٧٣ هـ .
 (٤) مياض : نفسه ، ص ٢٧١-٢٧٢ .
 (٥) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .
 (٦) أنظر قبل ص ٤٥٩ .
 (٧) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

وحظيت الخلافات الفقهية بين المالكية والحنفية فيما يتصل بالوجه الشرعى فى مسألة النبيذ ودرجته ، ومسألة شربه (١) ، بالعديد من المؤلفات من قبل فقهاء المالكية . وكان لمحمد بن سحنون أيضا دور معروف فى ذلك . فقد صنف كتابا بعنوان تحريم المسكر ، وهو الكتاب الذى طالبه فيه والده أن يتحرى الدقة والموضوعية فى رده على القائلين بعدم التحريم (٢) . ومن كتبه كذلك : كتاب الاباحة ، وكتاب الأشربة (٣) .

وفى عصر الأغلبية ثارت قضية بين الفقيه يحيى بن عمر الكنانى الذى مربنا ذكره ، وبين عدد من فقهاء المالكية أصحابه ومؤيديهم ، وهى قضية حضور مجلس مسجد السبت ، ومسجد السبت هذا كان أحد المساجد المعروفة آنذاك فى القيروان ، وكان يغص بالعباد والزهاد ، ويشاركهم بعض فقهاء القيروان ، وكانوا يتخذون من كل يوم سبت فرصة للالتقاء هناك وتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم تتداول حكايات الصالحين ، ومن ثم يقف أحد المنشدين فيلقى أشعارا ملحنة تحت على الزهد والعبادة تعرف بالرقائق . ولقد رأى الفقيه يحيى بن عمر فى ذلك بدعة ، فأخذ يشدد النكير بعدم حضوره حتى انه أودى فى سبيل ذلك (٤) .

(١) لا يفهم من هذا أن الأحناف يبيحون شرب الخمر فهو محرم دون شك عند كل المذاهب الإسلامية ، غير أن لهم رأيا فى النبيذ ، فهم يفرقون بين نبيء العنب ومطبوخه ، ويبيحون شربه ما لم يبلغ بشاربه عدم التمييز) . وهذا ما لا يذهب اليه المالكية إطلاقا .

أنظر عبد العزيز المجذوب : المرجع السابق ، حاشية رقم ٤ ص ٧٢ (نقلا من القاضى عياض كتاب المدارك) المخطوط والم محفوظ بالمكتبة الوطنية بتونس ، العدد ٤٨١٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ١٠٧ .

(٤) المالكى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٩-٤٠١ ، وأنظر الحاشية رقم ١ ، ص ٩٩ م - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

ونحن لا يهمننا بالطبع الا ما انعكس من أثر علمي على الدراسات الشرعية من جراء الخلاف ، وذلك عندما وقف يحيى بن عمر معارضا ذلك ، ومؤلفا كتابا (في النهي عن حضور مسجد السبت) (١) . ولسنا في حاجة الى القول بأن ذلك قد أفاد العلم ومسيرة الدراسات الشرعية دون شك .

المناظرات العلمية :

والى جانب خوض غمار التأليف للرد على أتباع المذاهب الكلامية ففى القضايا التى كانوا يثيرونها ، وقف فقهاء المالكية يعقدون المناظرات العلمية مع فقهاء المعتزلة . بيد أن وجه الحق هنا ، هو أن معظم تلك المناظرات كانت بمبادرة أولية من فقهاء الأحناف المعتزلة ، ومن بعض الأمراء الأغلبية الذين شايعوهم فى تلك القضايا .

فمن أوائل هذه المناظرات ، تلك التى جرت بين الفقيه المالكي المشهور أسد بن الفرات والفقيه الحنفي المعتزلي سليمان بن أبي صفور المعروف بالفراء^(٢) والذي أشرنا اليه سابقا . وذلك أن أسدا كان يحدث يوما بحديث رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، فأنكر سليمان ذلك ، الأمر الذي أغضب أسدا بسن الفرات فقام اليه فضربه ضربا شديدا (٣)

وموقف علمي آخر لا يرقى الى مستوى المناظرة ، وهو أن أسدا كان يفسر

(١) المالكي : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠١ - الدباغ : نفس المصدر

السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٢) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٨٢ - المالكي : المصدر السابق ،

ص ١٨٢ .

(٣) بيد وأن هذه الحادثة لا تختلف كثيرا عن الحادثة التى قبلها ، فالتشابه كبير بينهما ، حتى فى اسمي الرجلين المعتزليين . ففي الأولى عرفنا أن اسمه سليمان بن أبي صفور المعروف بالفراء ، وفى الحادثة الثانية أشار المالكي : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، أن اسم الرجل سليمان ابن حفص . غير أننا مع إيراد الحادتين معا نميل الى أن الحادتين جرت مع شخص واحد فقط .

القرآن ، فتلى القارئ ؛ (وَجُوهٌ يُؤْمِنُ تَأْتِرُ رَوِثَهَا نَظَرَةً) (١) . فقال له أحد فقهاء الأحناف المعتزلة : ان المقصود بالنظر الانتظار ، ففهم أسد غرضه وهو نفى رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقام اليه مهددا بضربه ، وأمرأ ايماها بالاعتراف بالرؤية البصرية المجردة ، مما دفع الرجل الى الاندفاع قائلا : (نعم ننظره) . (٢)

وكثيرا ما كان أسد بن الفرات يقرع المعتزلة ويسفه آراءهم ، ان يروى أنه كان مرة يفسر قول الله سبحانه وتعالى : (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاقْبِذْ نِي) (٣) . فقال أسد عندها (ويل لأهل البدع ، هلكت هوالكهم ويزعمون أن الله عز وجل خلق كلاما ، يقول ذلك الكلام المخلوق : لا اله الا أنا) (٤) .

وفي عصر الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) جرت مناظرة في مجلسه بين بعض فقهاء المالكية وبعض فقهاء الأحناف المعتزلة ، حول مسألة خلق القرآن . وذلك أنه روى أن الفقيه المالكي عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى عام ٢٢٧هـ - كما عرفنا من قبل - ، دخل على الأمير الأغلب فوجد فقيهين أحدهما مالكي والآخر معتزلي يتناظران في مسألة خلق القرآن وكلاهما يصصر على رأيه . وقد وقف عبد الله بن أبي حسان ينكر بالطبع مسألة خلق القرآن بشدة ، حتى أنه لم يتورع من تجريح الأمير نفسه عندما حاول المعتزلي أن يحصل على مساندته له في مناظرته لابن أبي حسان اليحصبي ، مما أغضب الأمير (٥) .

(١) سورة القيامة : آية رقم ٢١ ، ٢٢ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

(٣) سورة طه : آية رقم ١٢ ، ١٣ .

(٤) أبو العرب التميمي المصدر السابق ، ص ٨٢ - المالكي : نفس المصدر

السابق أعلاه والجزء ، ص ٨٢ .

(٥) أنظر أبو العرب : نفس المصدر السابق ، ص ٨٩-٩٠ - المالكي : نفسه ،

ص ٢٠١-٢٠٢ .

وكانت هذه المسألة ، أى مسألة خلق القرآن أهم مثار النزاع بين الفريقين كما ذكرنا من قبل . وفى هذا الخصوص روى أبو العرب التميمي (١) ، أن مجلساً ضم الفقيه المالكي موسى بن معاوية الصحاحي والفقيه الحنفي المعتزلي عبد الله بن أبي الجواد - والذي كان قاضياً وقتذاك - ، فأثيرت تلك المسألة فقال موسى : سمعت فلاناً وفلاناً ، وذكر جماعة من أهل العلم يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر . فقال له ابن أبي الجواد : لقد أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك . وكان موسى بن معاوية قد كف بصره .

وعند ما استبد الأمير أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ولسى عهد أخيه محمد (٢٢٦-٢٤٢ هـ) بالأمر دونه وفوض له الأمر والنهي (٢) ، شرع يرفع ثانية مسألة خلق القرآن . ودعا بها على المنابر في الساجد . ولقد كان حريصاً على معرفة رأى الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد ، بل على موافقته للقول بخلق القرآن كرها . ولذلك وجه في طلبه للحضرة للمناظرة . وبالفعل جاء سحنون الى مجلس الأمير ، وهناك أخذ القاضي الحنفي المعتزلي ابن أبي الجواد يوجه له الأسئلة حول تلك المسألة . فكان جواب سحنون له : (أصلح الله الأمير ، أما شيء أبتديه من نفسي فلا ، ولكن الذى سمعت ممن تعلمت منه وأخذت ديني عنه أنهم كانوا يقولون : ان القرآن كلام الله ، وليس بمخلوق (٣) . فقال له ابن أبي الجواد : أيها الأمير انه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي ، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره . فقال لداود بن حمزة (٤) : ما تقول يا دود ؟

- (١) كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .
- (٢) عاد الأمير محمد بن الأغلب فاسترد سلطانه وامرته من أخيه أحمد بعهد أحداث كبيرة ، ثم نفاه الى مصر ، ومن مصر توجه الى العراق حيث بقى الى أن توفي هناك .
- (٣) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ج ١ ، ص ٨٢-٨٣ الحواشي المقصود به محمد بن سحنون الذى روى القصة عن أبيه . أنظر أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .
- (٤) أحد قواد الأمير أحمد بن الأغلب ، أنظر أبو العرب التميمي : نفس المصدر أعلاه ، ص ٤٦٤ .

قال : أصلح الله الأمير ، قتله بالسيف راحة له ، ولكن اقتله قتل الحياة ، يؤخذ عليه الحملاء (١) ، وينادى عليه بسماط القيروان لا يفتى ولا يسمع أحدا ، ويلزم داره ، ففعل ذلك أبو جعفر (٢) وترك قول من أشار عليه بقتله وأمر بأحد عشر حميلا ، فكان ممن تحمل به ابن هلاقة وغيره ، ومنع الله عز وجل القوم من قتله (٣) .

ويبدو أن قضايا خلق القرآن وقضايا القضاء والقدر وغيرها التي كانت مشاعة آنذاك ، كانت تدفع ببعض فقهاء المالكية إلى التصدي لها حتى قبل وقوعها حماية لمعتقدات الناس من البلبلة والتشويش . ومن هنا نرى فقيها مالكيًا معروفًا ، وهو الفقيه عون بن يوسف الخزامي المتوفى عام ٢٣٩ هـ يملأ على طلبته اجابة لمناظرة محتملة مع القدرية ، تتقل عليهم الطريق . ذكر المالكي (٤) عن عون ابن يوسف قوله : (اذا أردت أن تكفر القدرى فقل له : " ما أراد الله عز وجل من خلقه ؟ " فان قال : " أراد منهم الطاعة " ، فقد كفر ، لأن منهم من عصى وكل اله لا تتم طاعته ، فليس باله . وان قال : أراد منهم المعصية ، فقد كفر لأن منهم من أطاع ، وكل اله لا تتم ارادته فليس باله . قال فان قال لك المسؤول : ما أراد منهم ؟ فقل : أراد منهم الذى أراد لهم والذى كان لهم . - يريد ما سبق لهم (٥) عنده فى اللوح المحفوظ -) .

(١) المقصود بذلك : الضمنا ، وهو ما أشار إليه صراحة الدباغ : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٩٦ - فى روياته لأحداث تلك المناظرة .

(٢) كنيه الأمير أحمد بن الأغلب : انظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٣) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٤٦٢-٤٦٥ - مياض : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦١٠-٦١١ مع شئ من الاختلاف - الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٤-٩٦ ، مع اختلاف يسير فى الرواية .

(٤) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٥) جملة اعتراضية من المالكي يوضح فيها ما قصده عون بن يوسف من كلامه ذلك .

على أن الفقيه محمد بن سحنون تحمل عبئا كبيرا في مسألة المناظرات مع المعتزلة سواء^١ بمحضر الأمير الأغلب أبي الفرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٥٠-٢٦١هـ) الذي عاش محمد بن سحنون في عهده ، أو مع فقهاء الأحناف المعتزلة . وفي كل تلك المناظرات كان محمد بن سحنون العلم المجلس .

ولنبداً بمنظارته مع الأمير أبي الفرائق . فقد روى أن الأمير وجه في طلب محمد بن سحنون ، وعند ما قدم عليه ، سأله الأمير عن قوله في يزيد بن معاوية بن أبي سفيان . ففهم محمد بن سحنون المغزى الذي يرمى اليه الأمير ، بحكم كونه معتزليا ، أى أنه عرف مقصد الأمير الذى يريد أن يحملـه على معتقده في مرتكب الكبيرة ، وهى احدى الأصول الخمسة التى يقوم عليها المذهب الاعتزالي^(٢) . فكان من جواب محمد بن سحنون له : (أصلح الله الأمير ، ما أقول ما قالت الاباضية ولا ما قالت المرجئة . قال : وما قالت؟ . قال : قالت الاباضية : ان من أذنب ذنبا فهو من أهل النار ، وقالت المرجئة : لا تضر

(١) فى أصل النص ، لم يرد حقيقة أنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فالواقعة روت أن الأمير سأله ما تقول فى (يزيد) فحسب. لكن المعقول أنه يقصد هنا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لأن السياق يدل على ذلك . فالأمير كان يريد معرفة رأى محمد بن سحنون فى أعمال يزيد التى أفاض المؤرخون وبعض الفقهاء فى ذكرها كما هو معروف .

(٢) نعتقد أن هذا هو المغزى الحقيقى من سؤال الأمير لمحمد بن سحنون عن يزيد بن أبي سفيان . لأن المعتزلة لهم رأى فى مرتكب الكبيرة ، وأنه نفس منزلة بين المنزلتين ، وفى هذا الصدد نعتقد أيضا أن التوفيق جانب سعد زغلول عبد الحميد : المراجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩ عند ما فسر سؤال الأمير لمحمد بن سحنون على أنه قصد به امتحان محمد بن سحنون فى موقفه من الأمويين والعباسيين فإذا وقف محمد بن سحنون الى جانب الأمويين مسن خلال قوله فى يزيد فانه سينكشف موقفه السياسى المعادى للعباسيين . ونحن نستبعد أن يكون السؤال ذا مغزى سياسى ، ونرجح أنه ذوى مغزى مذهبى بدليل أن السياق كله يدل على ذلك .

الذنوب مع التوحيد . أما يزيد (١) عظيما جسيما ، ويفعل الله في خلقه ما أحب ثم انصرف (٢) .

ولمحمد بن سحنون موقف مناظرة آخر مع أحد المعتزلة في مجلس أحد وزراء الأغلبية الذين لا يميلون الى رأى المعتزلة . وكان ذلك المعتزلى ويدعى أبو سليمان النحوى قد قدم من المشرق ، وكان يقول بخلق القرآن . فطلب الوزير من محمد بن سحنون أن يناظر هذا المعتزلى ، فكان مما قاله له ابن سحنون : (تقول أيها الشيخ أو تسمع ؟ ، فقال له الشيخ : قل يا بنى ، فقال محمد : أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ ، فسكت الشيخ ولم يحرجوا ، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشئ . فقال له محمد : كم سنة أتت عليك أيها الشيخ ؟ ، فقال له : ثمانون سنة ، فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد : قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته - وفي نسخة : اذا دفن ولم يصل عليه - فقال بعضهم : يصل على ، وأجمعوا أنه اذا جاوز السنة لا يصل على ، وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت في عداد الموتى ، فقد سقطت الصلاة عليه باجماع ، ثم قام فسر بذلك على بن حميد وأهل المجلس (٣) .

وليس من شك في أن مناظرة محمد بن سحنون تلك تدل على مقدرة جدلية تعتمد على زاد لا ينفذ من التشبع بالثقافة الدينية . ولقد طلب - من بعد - من محمد بن سحنون أن يوضح لهم ماذا يعنى بسؤاله للمعتزلى ، فقال لهم : (ان قال ان كل مخلوق يذل لخالقه ، فقد كفر ، لأنه جعل القرآن ذليلا لأنه يذهب الى أنه مخلوق . وقد قال الله عز وجل : (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٤) . وان قال انه لا

(١) هكذا وردت في النص ، وقد علق محقق المدارك أحمد بكير محمود في الحاشية أن المقصود بها ربما : (فكان ذنبه) أو ما يقارب ذلك . لكن نعتقد أن الكلمة الأنسب ، ربما هي : أتى يزيد عظيما جسيما ويفعل الله ... الخ) .

(٢) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢-١١٣ .

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

(٤) سورة فصلت : آية رقم ٤١-٤٢ .

يذل فقد رجع الى مذهب أهل السنة لأنه لا يذهب (في هذه الحالة) (١) الى أنه مخلوق ، الذي هو صفة من صفاته (٢) .

وثمة مناظرة أخرى مع الفقيه المعتزلى سليمان بن أبى عصفور المعروف بالفراء ، والذي مربنا ذكره من قبل . وقد سأل محمد بن سحنون سؤالاً له مغزاه ، فقال له : (يا أبا عبد الله . الله سمي نفسه) ؟ فأجابه محمد بن سحنون قائلاً : الله سمي نفسه لنا ، ولم يزل ، وله الأسماء الحسنى (٣) . وقد علق محمد بن حارث الخشتى (٤) على سؤال سليمان الفراء لمحمد بن سحنون أنه سؤال قصد به الافحام والاسكات . لأن محمد بن سحنون لو أجاب بقول : نعم ، فقد أثبت على نفسه الاقرار بحدوث الأسماء والصفات . لكن محمد أفسد عليه تدبيره .

ومن المناظرات العلمية المدوية ، والتي دارت حول مسألة خلق القرآن تلك التي خاضها الفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد مع أحد فقهاء المعتزلة وهو القاضي عبد الله بن الأشج قاضى الأمير الأغلبى ابراهيم الثانى المتوفى عام ٢٨٩ هـ . وهى مناظرة عميقة الأثر ، دلت على قدرة جدلية منطقية كبيرة لدى سعيد بن الحداد . فقد تصدى لابن الأشج وللأمير معا ، ووضح لهما خلال تلك المناظرة بأدلة عقلية ومنطقية استحالة أن يكون القرآن مخلوقاً . ولم يكن أمام الأمير الا أن يسلم بهزيمته وهزيمة قاضيه ، غير أنه قال له أخيراً : أنت لا تضطرنى الى مذهبك وأنا أضطرك الى مذهبى (٥) .

١) زيادة اقتضاها السياق ، وقد وضعها على ذلك النحو محقق الجزال أول من رياض النفوس حسين مؤنس .

(٢) المالكي : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠-٣٥١ .

(٣) الخشتى : قضاة قرطبة وعلما افريقية ، تصحيح عزت الحسنى ، ص ٢٥٦ .

(٤) نفس المصدر السابق أعلاه والصفحة .

(٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠-٧٥ .

الأثر العلمى للصراع المذهبى فى افريقية بين المالكية والاباضية :

أ - نبذة عن دخول المذهب الخارجى بلاد المغرب :

قبل أن نتصدى للحدث عن الانعكاسات العلمية للخلاف المذهبى بين المالكية والاباضية فى افريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة الزمنية موضع اهتمامنا ، تستدعى ضرورة المنطق التاريخى أن نعقد نبذة تاريخية عن كيفية دخول المذهب الخارجى بلاد المغرب والأسباب التى أدت الى انتشاره بين البربر ، وما رافق ذلك من أحداث سياسية وعسكرية ، ثم الأماكن التى استقر فيها . . الخ .

يرى كثير من المؤرخين قدامى ومحدثين أن بلاد المغرب العربى

لم تعرف من فرق الخوارج سوى فرقتين فقط ، هما الفرقة الاباضية والفرقة الصفرية (١) . وفى هذا الصدد يشير محمود اسماعيل عبدالرازق (٢)

الى أن ما تردد من أقوال عند بعض المؤرخين تشير الى انتشار آراء بقية فرق الخوارج الأخرى فى المغرب أمر " مشكوك " فيه . (٣) وعلى

(١) السلاوى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، ج ١ ، ص ١٢٤-١٢٥

سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربى ج ١ ، ص ٢٨٧ مع الحواشى (نقلا عن عدة مصادر) محمود اسماعيل عبدالرازق الخوارج فى بلاد المغرب ، ص ٤٤ مع الحواشى (نقلا عن مصادر مختلفة) رفعت فوزى عبدالمطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ، الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية ص ٢٠-٢٤ ، ٢٧-٣٠ ، (نقلا عن مصادر واسعة) الحبيب الجنحاني : المغرب الاسلامى - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (قرن ٣-٤ هـ / ٩-١٠ م) ص ١٩٠-١٩٢ نقلا عن المصادر الاباضية .

(٢) الخوارج فى بلاد المغرب ، ص ٤٣-٤٤ مع الحواشى

(٣) ردّ محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع اعلاه ، والصفحتين السابقتين ، على تلك الاقوال التى قالت بانتشار آراء بقية الفرق الخارجية الاخرى كما ناقش الآراء الاخرى التى شككت فى انتشار فرقتى الاباضية والصفرية فى بلاد المغرب ، ورد عليها بموضوعية مهمة .

أية حال فإن ما تمخّضت عنه مجريات الأحداث السياسية والعسكرية للخوارج في المغرب العربي منذ أن تسربت إليه آراء الخوارج لا تتحدث إلا عن فرق : الاباضية والصفرية فحسب .

أما عن التحديد الزمني لتسرب المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب ، فالواقع أن المصادر والمراجع التي تعرّضت لذلك . لم تستطع تحديد زمن دقيق واضح ، بيد أنها أشارت إلى أن المذهب الخارجي قد ظهر في المغرب بفرقتيه : الاباضية والصفرية في وقت متقارب أو متزامن وذلك في أوائل العقد الأول من القرن الثاني^(١) الهجري .

ولقد انتشر المذهب الخارجي للفرقتين الاباضية والصفرية في بلاد المغرب وقتذاك على أيدي داعيتين اثنتين للفرقتين معاً . هما : عكرمة بن عبد الله مولى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء ، ص ٢٨٦ (فيما ينقله عن مصادره المختلفة) محمود اسماعيل عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ٤٧ ، ٥٤ (نقلا عن مصادر متعددة كذلك) فوزي عبد المطلب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٩ - عوض خليفات : نشأة الحركة الاباضية ، ص ١١ ، ١٣٣-١٣٤ - الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ١٩٢-١٩٣ - الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٨٢) وفيها ذكر صراحة دون أن يشير لمصادره أن مذهب الخوارج قد دخل افريقية عام : ١٠٠ هـ ، ص ١٥٧ ، وفيها دون أن يشير لمصادره كذلك أن المذهب الاباضي ، دخل افريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠ هـ وما بعدها تقريبا .

الذى دعى الى آراء الفرقة الصفريّة ، وسلمة بن سعيد الحضرمي
الذى تبني الدعوة للفرقة الاباضية وتروى المصادر التاريخية
للاباضية بأنهما قد قدّما من المشرق معا . لذلك الغرض. (١)

فالى عكرمة بن عبد الله يعود امر انتشار تعاليم الفرقة
الصفريّة ، إذ يذكر المؤرخون أن عكرمة قدم القيروان في أوائل
القرن الثاني الهجري وبالتحديد قبل عام ١٠٤ هـ (٢) ، حيث
عمل على نشر الدعوة الخارجية الصفريّة بين البربر . وقد نجح
في استمالة البعض من رؤساء وزعماء القبائل البربرية من أمثال
ميسرة المطغرى الذى قاد أول صورة خارجية ضد ولاية الدولة
الأموية ، وأبى القاسم سمكو بن واسول زعيم قبيلة مكناسة وغيرها . (٣)

ولقد تابع تلامذة عكرمة بعد ذلك نشر تعاليم فرقتهما
الخارجية بين قطاع كبير من البربر وخاصة بربر المغرب الأقصى
موطنهم الأصلي (٤) . كما انتشرت تعاليم الفرقة الصفريّة

-
- (١) محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب
ص ٤٦ رفعت فوزى عبدالمطلب : الخلافة والخوارج
في المغرب العربى ، ص ٢٧ - ٢٨ - عوض خليفات : فضاء
الحركة الاباضية ، ص ١١ ، ٣٣ - ١٣٤ . صالح باجيرة :
الاباضية بالجريد ، ص ٢٣ ، وكلهم ينقلون ذلك عن
مؤرخى الاباضية المغاربة كالشماخيفي السير ، والدريجيني
في طبقات المشائخ .
- (٢) عوض خليفات : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٣٣ (نقل عن البكرى
في كتابه : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب)
- (٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع السابق اعلاه
ص ٤٧ - ٤٨ عوض خليفات : نفس المرجع السابق اعلاه
ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٤٨ - عوض خليفات
نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

بين الأفارقة الذين كانوا يشكلون عنصرا سكانيا مستقلا آنذاك في المغرب ، وذلك بوساطة زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الافريقي الذي تلقى مبادئ الدعوة على يد عكرمة نفسه (١) . وبالإضافة الى المغرب الأقصى تغلغلت مبادئ الدعوة الصفرية في جنوب المغرب ، أي بلاد السودان (٢) ، وفي بعض أجزاء المغربيين الأدنى والأوسط. (٣)

أما مبادئ الفرقة الاباضية ، فقد ظهرت في المغرب في وقت متقارب مع مبادئ الفرقة الصفرية كما ذكرنا آنفا . والى سلمة بن سعيد الحضرمي يعود امر ظهورها وانتشارها في بلاد المغرب . ولقد ذكر المؤرخون أن سلمة بن سعيد ، قد وفد الى بلاد المغرب للدعوة للاباضية تنفيذا لأوامر زعيم المذهب آنذاك أبي عبيدة مسلم بن كريمة التميمي الذي كان يقيم في مدينة البصرة . (٤)

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٥٠١

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١ رفعت

فوزي عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١ -

الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا

ص ١٨٢ .

(٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٤ - ٥٥ - رفعت

فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٢٧ - ٢٨ - عوض

خليفة : نفسه ، ص ١١ ، ١٣٦ (وقد أشار الى

أن سلمة بن سعيد قدم القيروان قبل عام ١٠٤ هـ) .

ولقد اتخذ سلمة بن سعيد من المغرب الأدنى ميداناً
لنشاطاته ، حيث أفلح في اكتساب انصار لدعوته في اقليم
طرابلس ، وخاصة بين القبائل التي تقيم في جبل نفوسة ، كما
أفلح في تدريب بعض أبناء طرابلس وغيرها ، لتولى امر الدعوة
للمذهب بين أبناء جلدتهم . (١)

والى جانب جهود سلمة بن سعيد في الدعوة للاباضية
تابع أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر ، وهو أحد
أبناء إفريقية الذين تلقوا علومهم على يد شيخ المذهب بالبصرة ،
مواصلة نشر تعاليم ، المذهب الاباضي بين بربر قبيلة نفوسة
بالجبل مما جعل الجبل يعد ذلك (دار هجرة) (٢) ، ولم
يقتصر انتشار المذهب الاباضي على قبيلة نفوسة وحدها ، بل انتشر
بين القبائل الاخرى كذلك . (٣)

ولقد قدر للمذهب الاباضي ان تستقر قواعده بعد ذلك
على أيدي الطلبة الذين ذهبوا الى البصرة عام ١٣٥ هـ ، ثم

- (١) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٥٤ -
٥٥ - رفعت فوزي عبد المطلب : المرجع السابق
ص ٢٧ - ٣٠ - عوض خليفات : المرجع السابق ،
ص ١٣٦ - ١٣٧ .
- (٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع ، ص ٥٤ (نقلاً
عن ابن حوقل في كتابه صورة الأرض) .
- (٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٥ - رفعت
فوزي عبد المطلب : نفس المرجع ، ص ٥٣ - ٦١

عادوا في سنة ١٤ هـ لينشروا ويثبتوا دعائم المذهب في بلادهم
أى المغرب الأدنى وأجزاء من المغرب الأوسط (١) وأما عن انتشاره
في المغرب الأقصى ، فإننا في الواقع لم نعثر لدى المؤرخين
قدامى ومحدثين على ما يشير الى ذلك .

وكيفما كان الأمر فقد انتشرت آراء وتعاليم الفرقتين
الخارجيتين : الاباضية والصقرية ، في كل بلاد المغرب على
النحو الذى أشرنا اليه آنفا . ولقد أدت الظروف والاحداث
التاريخية الداخلية التى تعرض لها المغرب وقتئذ والتى سنطرق
بابها بعد قليل الى انتشارها انتشارا واسعا بين البربر .
كما سهلت الظروف الخارجية التى تعرضت لها الدولة الأموية
من فرض تمذهب البربر بالمذهب الخارجى بل والثورة على
الدولة الاموية نفسها ، ثم العباسية .

ويمكن للمتتبع للاحداث السياسية في المغرب آنذاك أن يقرر
أن البربر الخوارج هم الذين شكلوا الأحداث السياسية والعسكرية
للمغرب منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - حيث تسربت الدعوة
الخارجية- وحتى العقد الثامن منه تقريبا . وكانوا وقتها هم

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٥٥ - رفعت فوزى : المرجع السابق

ص ٢٧ - ٢٨ - عوض خليفات : نفس المرجع السابق
ص ١٣٦ - ١٣٧ - صالح باجية : المرجع السابق ،
١٦ ، ٣٤ ، ٣٥ - على يحيى معمر : الاباضية بين
الفرق الاسلامية ص ٢٣٢ - صالح مفتاح - برقة طرابلس
من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر
ص ٥٠ - ٥١

السلطة المهيمنة على شئون المغرب واحداثة .

على أن الشئ الجدير بالتنوية هنا هو أن المذهب الخارجي بفرعية : الاباضي ، والصقري لم ينتشر بين كل القبائل البربرية ، فقد أحجبت بعض القبائل عن التمدد به (١) كما أن بعض القبائل البربرية التي كانت قد مالوا إليه من قبل ، لم تستمر على خارجيتها فقد انسحبت منه كما هو ثابت تاريخيا (٢) .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية المذهب الخارجي والتحديد الزمني لذلك والمناطق التي انتشر بها ، فإن الحاجة تستدعي كذلك أن نذكر الأسباب والبواعث التي دفعت البربر الى التمدد بالمذهب الخارجي ، بل والتمسك به الى الدرجة التي جعلتهم يثورون على الدولتين الاموية والعباسية في سبيل نصرة مذهبهم .

لقد قيل الكثير عن تلك الأسباب التي تعددت مناحيها واتجاهاتها . ونحن بالطبع ليس من مهمتنا تنفيذ تلك الأسباب واخضاعها للتحليل والتدقيق التاريخيين للوقوف على الأصوب فيها ، بقدر ما يهمننا الاسارة الى أهمها والتي لقيت اجماعا من قبل المؤرخين قدامى ومحدثين على السواء .

(١) أنظر رفعت فوزى عبد المطلب : المرجع السابق ، ص ٦٠ -

٦١ - ويضرب المثل بقبيلتين : صنهاجية وأوريقة .
فصنهاجية ظلت في غالبيتها بعيدة عن المذهب الخارجي وكذلك أوريقة في المغرب الأقصى .

(٢) أنظر رفعت فوزى عبد المطلب : نفس المرجع السابق ،

ص ٦١ - ٦٢ .

ومهما يكن من أمر ، فإن غاية ما نستطيع قوله هنا ، هو أن ثمة أسباب عديدة ، أدت الى أن يلقي المذهب الخارجي القبول لدى البربر . ويأتى في مقدمة تلك الأسباب : عوامل دينية وسياسية واقتصادية تلازمت جميعها في دفع البربر للأخذ بالمذهب الخارجي ، وتعاليمه وشعاراته (١) . فلقد راع البربر أن ينظر اليهم - رغم اسلامهم - ، بذات النظرة التي ينظر بها لغير المسلمين وذلك في الحقوق والواجبات . فمن الناحية الدينية فوجئوا بالتفريق في المعاملة بينهم وبين العرب ، لا سيما وهم الذين استهواهم في الدعوة الخارجية المبدأ الذي يجعل من أعلى السلطات السياسية في الدولة اسلامية فضلا على غيرها حقا متاحا لكل مسلم دون النظر الى جنس أو لون ، أو وضعه الاجتماعي . . الخ . كما ساء لهم التشكيك في اسلامهم والاعتداء على أعراضهم واموالهم ، ومن الناحية السياسية البحتة ، ساء لهم التفرقة في المعاملة بينهم وبين العرب في الحروب والمغانم (٢).

- (١) عن تلك الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية المتلازمة : أنظر سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٢٨١ - ٢٨٦ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ص ٢٠٨ - ٢١٦ - محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٣٣ - ٤١ - رفعت فوزى عبد المطلب : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧٢ . وقد أشار هؤلاء الى منقولاتهم عن المؤرخين القدامى وما هداهم انفسهم الى التحليل التاريخي للبواعث والأسباب التي دفعت بالبربر للتمذهب بالمذهب الخارجي .
- (٢) أنظر ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤ (لمعرفة القضايا التي كان يشتكى منها المغاربة كما عبروا هم عن ذلك قبل أن يثوروا على الدولة الأموية) .

ومن الناحية الاقتصادية ، وهى القضية التى اشعلت الثورة الكبرى ودفعت بهم الى الارتقاء فى ظل المذهب الخارجى - باعتبار أن الباعث الاقتصادى كان وثيق الارتباط بالباعثين الدينى والسياسى - من هذه الناحية أغضبتهم السياسة المالية الخاطئة التى انتهجتها بعض ولاء الدولة الأموية ، مثل الاشتطاط فى جمع الأموال من البربر بشتى الطرق والوسائل ، حتى تلك التى تحشكك فى اسلامهم ، وتعتبرهم وأرضهم فيئا لا بد أن نطلق عليها قواعد الفبيء من التخميم وخلافه كما هو معروف . (١)

كل هذه الأسباب متداخلة أدت الى أن يلقي المذهب الخارجى تجاوبا هائلا بين البربر فى مدة زمنية قصيرة ، ليس هذا فحسب بل وخوض ثورات متلاحقة ضد العرب كما هو ثابت تاريخيا ، وكما سنتطرق اليه بعد قليل بايجاز ، فلقد بدت لهم الدعوة الخارجية الوسيلة التى تحقق لهم وجودهم وحقوقهم وتحفظ لهم كيانهم . ولقد تزامن ذلك مع حدثين مهمين أولهما : ضعف الدعوة الخارجية فى المشرق بسبب ما تلقته من ضربات قاصمة من الأمويين (٢) والأمر الثانى ، ضعف الدولة الأموية وتردّي أوضاعها منذ وفاة الخليفة

- (١) عن السياسة المالية الخاطئة من حيث دواعيها ومن قام بها من الولاة ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع والجزء السابق ، ص ٢٦١ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ - السيد عبدالعزيز سالم ، نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ ، ٢١٣ - ٢١٤ - رفعت فوزى عبد المطلب : نفس المرجع السابق ص ٦٩ .
- (٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٢٤

هشام بن عبد الملك^(١)، ولذلك فلقد تضافرت كل تلك الأسباب جميعها الى أن يعلن البربر ثورتهم الضخمة ضد الدولة الأموية، فالعباسية بعد ذلك .

وقبل أن نختتم الحديث عن الأسباب التي أدت الى تمذهب البربر بالمذهب الخارجي، لا يفوتنا أن نشير الى أن هناك تفسيرات أخرى جاءت على أقلام بعض المستشرقين وهي التي تفسر سبب اقبال البربر على المذهب الخارجي بالرغبة في الغنائم والطمع بها والتي لم تتحقق لهم عندما اسلموا . وليس الأمر أمر عقيمة . هذا ولما لم تتحقق لهم تلك الرغبة تمردوا باسم المذهب الخارجي^(٢) ولقد انبرى رفعت فوزى عبد المطلب^(٣) الذي أشار الى ذلك لتنفيذ تلك التفسيرات ، موضحا عدم وجهتها وصوابها . كما أن فريقا آخر من المستشرقين وخاصة الفرنسيين ، قد ربطوا بين انتشار المذهب الخارجي في بلاد المغرب، وبين نحلة الدونانية المسيحية التي عاشت في المغرب من قبل في ظروف مشابهة لظروف البربر في ظل حكم الولاة في عهد الولاة الأموية . ذلك الارتباط الذي ينطوي على دوافع سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى ، ففي حين يشكّل الدافع أو العامل الديني أهمية ثانوية .^(٤) ولقد

(١) محمود اسماعيل عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ٢٤

(٢) رفعت فوزى عبد المطلب : المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣

(٣) الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، ص ٣٣-٣٧

(٤) محمود اسماعيل عبد الرازق : نفس المرجع السابق ،

حاشية ، رقم ٢١٧ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

تصدى محمود اسماعيل عبدالرازق (١) الذى أشار هو الآخر الى هذا التفسير لتنفيذ تلك الآراء ، موضحا عدم تمشيها مع الوقائع التاريخية من جهة ، ومستعينا بالرد عليها بانتقادات بقيّة المستشرقين الآخرين لها ، من جهة أخرى .

أما التفسير الأخير الذى صادفنا ونحن نستطلع تلك الاسباب فهو ما جاء على ألسنة بعض الباحثين العرب وخاصة المغاربة منهم ، الذين يرون - في مبالغة واضحة دون شك - أن تمذهب البربر بالمذهب الخارجى ، إنما جاء كردّ فعل قومى ضد العرب الذين أساءوا اليهم . (٢)

وأيا ما كان الأمر ، فإن الشئ الذى لا يمكن دفعه هو أن مبادئ الخوارج قد انتشرت بين معظم البربر انتشار النار بين الهشيم في تلك الفترة ، أى في العقد بين الأولين من القرن الثانى الهجرى . ولقد أدى ذلك الى اعلان البربر الثورة الكبرى ضد العرب وولادة الدولة الاموية . ولقد استمرت ثوراتهم ما يقارب نيفا وخمسين سنة أو أكثر .

وفي الواقع لقد تزعم البربر الصقرية الثورة أولا ، فخاضوا ضد الدولة الاموية حروبا ومعارك ضخمة كان النصر حليفهم في موقعتين

- (١) الخوارج : في بلاد المغرب ، حاشية ٢١٧ ، ٥٧
(٢) أنظر مثلا عبدالله العروى : تاريخ المغرب محاولـة
في التركيب ، ص ١١٤ - ١١٥ - صالح باجية : المرجع
السابق ، ص ٢٣ وجارهما محمود اسماعيل عبدالرازق رغم
عدم كونه مغربيا في ذلك : نفسه ، ص ٤١

مهمتين هما : موقعة الأشراف عام ١٢٢ هـ أو أوائل ١٢٣ هـ وموقعة
بقدورة عام ١٢٣ هـ ثم قُدِّرَ للجيش الأموية أن تَفْلَ بعض قوتهم
في عدة معارك أهمها معركتا القرن عام ١٢٥ هـ ثم الاصل عام
في نفس العام أيضا . (١)

بيد أن نتيجة هاتين المعركتين لم تقض على ثورتهم
فقد وصلوا الثورات ضد الدولة الأموية، ثم الأسرة القهرية
التي حكمت المغرب معترفة بالخلافة الأموية فالعباسية، ثم ما لبثت
أن خلعت طاعتها بعد . وعند ما زالت هذه الأسرة تولت
الدولة العباسية عن طريق ولايتها المتعاقبين على المغرب ومحاربة
الصقرية (٢)، مما اضطرهم في النهاية إلى الانكفاء في دولتهم
التي أقاموها في المغرب الأقصى في مدينة سجلماسة عام
١٤ هـ ، وهي الدولة التي ظلت قائمة حتى تسنى للفاطمييين
القضاء عليها ٢٩٦ هـ . (٣)

- (١) عن ثورات الصقرية والمعارك التي خاضوها ، أنظر سعد زغلول
عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ - ٣٣٩ -
السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ - ٢٢٩
٢٥٤ - ٢٥٧ - محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع
السابق ، ص ٦٢ - ٨١ - رفعت فوزي عبدالمطلب : المرجع
السابق ص ٧٣ - ٨٠ ، ٩٥ - ١٠٩ ، ١١٥ - ١١٩
(٢) سعد زغلول : نفس المرجع السابق ، ٧٥ - ٨١ - رفعت
فوزي عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٨ ،
١٦٦ - ١٧٢ .
(٣) عن الدولة المدارية ، ظروف قيامها وشؤونها السياسية
والاجتماعية ، ثم سقوطها ، انظر سعد زغلول عبد الحميد
نفسه ، ج ٢ ، الفصل الرابع ، ص ٤٠٧ - ٤١٦ ، محمود
اسماعيل عبدالرازق : نفسه ص ٢١٢ - ١٤٣ ، ٢١٠ - ٢٢٨
حيث أرخا لهذه الدولة وكل ما جاء عنها في كتب المؤرخين
القدامى والمحدثين والمستشرقين .

أما الخوارج الاباضية، فقد دخلوا حلبة الصراع السياسى والعسكرى متأخرين عن الخوارج الصقرية . ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يعيشون فى طرابلس وبقية المغرب الأدنى كإقليم الجريد . وبالطبع فقد كانت هذه المناطق قريبة من القيروان العاصمة من جهة ، ثم قرب المغرب الأدنى النسبى للخلافة وقاعدتها الامامية مصر، التى كانت تجيش الجيوش ضد الخارجيين على الدولة سواء الأموية أو العباسية من جهة أخرى. (١) وعلى أية حال فقد خاض الاباضية الثورات منذ عام ١٢٦ هـ عندما اصطدموا بالأسرة القهرية ، ثم تتابعت اصطداماتهم العسكرية مع الأسرة نفسها فى عامى ١٣١ هـ - ١٣٢ هـ . (٢)

غير أن ثورتهم الكبرى التى كانت نقطة تحول مهم كانت عام ١٤٠ هـ عندما نجحوا لأول مرة فى إعلان إمامة الظهور فى جبل نفوسة بقيادة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى . حيث نجح فى ضم أجزاء عديدة لدولته الاباضية ومنها إقليم الجريد ولقد خاض الاباضية عدة معارك ضد ولاية الدولة العباسية كانت نتائجها سجالا بين الفريقين . ولئن

- (١) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ - رفعت فوزى عبدالمطلب : المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (٢) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٨ - ٣٢٤ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٥ - رفعت فوزى عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص ١١٩ - ١٢٤ -

سقطت بعد ذلك امامتهم في جبل نفوسة بمقتل ابي الخطاب (١) المعافى ودخولهم طور الكتمان وإمامة الدفاع كما كانوا (٢) يُعَبِّرون. فقد استطاعوا بعد أقل من عقدين من الزمن أن يستغلوا الظروف التاريخية المناسبة ، فيقيموا دولتهم ثانية في المغرب الأوسط في مدينة تاهرت عام ١٦١ هـ بزعامة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية ، وهى الدولة التى ظلت قائمة حتى أسقطها الفاطميون عام ٢٩٦ هـ فيما اسقطوه من دول بالمغرب كما هو معروف تاريخيا . (٣)

وبقيام لدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ كانت قد استقرت خريطة توزيع القوى السياسية والمذهبية في المغرب كله . فلقد قامت في المغرب الأدنى : الدولة الأغلبية نفسها ، وقامت في المغرب الأوسط الدولة الرستمية الاباضية ، وقامت في المغرب الأقصى دولتان هما : الدولة الادريسية السنية والدولة المدراية الخارجية الصفرية . والظاهرة السياسية المهمة التى صاحبت

- (١) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ٣٤٧-٣٥٥ - ٣٦١ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ص ٨٢-٩٥ - رفعت فوزى عبد المطلب : المرجع السابق ، ص ١٣٧-١٤٥ - ١٥١ - ١٥٨ ، ١٥٣ - ١٨٠
- (٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٨٩ - رفعت فوزى عبد المطلب : نفسه ، ص ١٦٣ .
- (٣) عن الدولة الرستمية بتاهرت ، ظروف قيامها ، وامراؤها وشؤونها السياسية والاجتماعية والعسكرية) ، ثم سقوطها أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٩-٤٠٦ (الفصل الثالث) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ١٤٤-٢٠٨ ، ٢٢٩ - ٢٣٤ - فقد تناولا كل ماجاء عن هذه الدولة من أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين بما فيهم مؤرخو الاباضية ، ثم أقوال المستشرقين كذلك .

قيام الدولة الاغلبية هي أن الخواج ركنوا الى المودعة والمسالمة لاسيما وقد تحقق لهم تطبيق حلمهم بقيام دولتين في المغربيين الأوسط والأقصى ، كانتا تُعتبران عن آمانهم وعن نظرتهم السياسية والدينية ، ثم رأوا وخاصة الاباضية ، في الدولة الأغلبية تعبيراً للشعور (١) بالاستقلال فانكفأوا في المناطق التي استقروا فيها يعيشون حياتهم وفق مذهبهم الاباضى الذى اختاروه.

يبقى أن نشير الى أن الخواج الاباضية ، وهم الذين سيقصر حديثنا عنهم لأنهم عاشوا في المجال الجغرافي الذى نوه رخ لحياته العلمية وهو المغرب الأدنى- كانت تبعيتهم السياسية سواء في اقليم الجريد أو جبل نفوسه تتناقل حيناً بين الدولة الأغلبية والدولة الرستمية وإن كانت في كثير من الأحيان لصالح الدولة الرستمية ، أما من الناحية المذهبية فلا نزاع على انتمائها للدولة الرستمية. (٢)

وأخيراً فإن ما هو جدير بالتنويه إليه هنا هو أن كل مؤرخى الاباضية القدامى والمحدثين ينفون عن أنفسهم صفة الخارجية ، ويرون أن مذهبهم مخالف عقائديا وفقهيا للمذهب الخارجى ، بل إنهم يعتبرون أنفسهم يشكلون المذهب الخامس

(١) أنظر ، قبل ص ٧٥

(٢) أنظر ما قلناه قبل ص ١٩٤-١٩٥ عن تبعية جبل نفوسه واقليم الجريد السياسية والمذهبية .

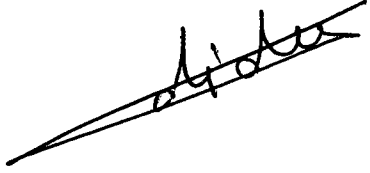
بين مذاهب السنة ، ويصرون في كل مناسبة على أن رميهم بالخارجية إنما هو خطأ تاريخي عظيم ارتكب بحقهم . (١)

ويبدو أن كثير من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين يوافقون الاباضية في نظرتهم تلك ، بناءً على ما لاحظوه من الاعتدال الذي صبغ حركتهم في النواحي العقائدية والفقهية والسياسية . (٢)

(١) نكتفي بكتاب واحد فقط ، يعكس كل أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين من الاباضية في بعد مذهبهم الاباضى عن الخارجية وذلك الكتاب ألفه على يحيى معمر وهو مؤرخ وعالم اباضى محدث بعنوان : الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث . والكتاب كما يفهم من عنوانه ، قام على مناقشة هوية المذهب الاباضى مع كتاب المقالات عند المؤرخين القدامى وكتاب المقالات من العرب والمستشرقين في العصر الحديث . والواقع أنه يصعب علينا الاشارة الى كل الصفحات التى أوردها على يحيى معمر والتى تؤكد بالأدلة والبراهين العقلية والنقلية أن المذهب الاباضى بعيد كل البعد عن الخوارج والخارجية أنه مذهب اسلامى من ضمن المذاهب الاسلامية المعروفة . وعلى سبيل المثال أنظر الباب الثالث ص ٢٤٣ - ٢٤٩ - الباب الخامس ص ٣٥٢ - ٣٦٠ .. الخ .

(٢) أنظر تقديم محمد حمد الحارثي (سفير سلطنة عمان لدى تونس عام ١٩٧٦م) لكتاب صالح باجية : المرجع السابق ، حيث يذكر بعضاً من المؤرخين القدامى الذين شهدوا للاباضية (بأنهم على السنة) كالمبرد في الكامل وابن حزم ، وابن حجر ، والعلامة السند وبني في حاشيته على البيان والتبيين للجاحظ في الجزء الثاني ، وانظر على يحيى معمر : الاباضية بين الفرق الاسلامية ، ص ٦ (حيث يورد نص كلام المبرد في الكامل بشأن المذهب الاباضى) . =

أما عن الباحثين المحدثين ، فقد وافقهم عدد منهم :
محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، ص ٨٥ -
٨٦ - أحمد أمين : فجر الاسلام : ص ٢٦٠ - ٢٦١ -
عزالدين التنوخي : في مقدمته لكتابي : ديوان أبي
بكر بن أحمد بن سعيد الستالي الاباضي (أنظر
على يحيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣) وكتاب
مسند الربيع بن حبيب الاباضي في مقدمته للكتـاب
أنظر باجية : نفس المرجع السابق ، تقديم محمد بن حمد
الحارثي (الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي
في ليبيا ، ص ١٥٩ - ١٦٠ . وغير ذلك .



ب - الاصداء العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والاباضية :

لعل السؤال الطبيعي يطرح نفسه هنا هو : لم حصرنا الأصداء أو الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي في المالكية والاباضية وحدهما ، مع أن المذهب المالكي لم يظهر في المغرب إلا بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، هذا من جهة ، ومع أن المذهب الاباضي لم يكن وحده في الميدان من جهة أخرى ؟ — هذا التساؤل في الواقع له وجاهته التي لا تنكر ، غير أن ما انجلست عنه الأمور : مذهبيا وجغرافيا في المغرب الأدنى ، هو الذي دفعنا الى طرح مسألة الأصداء العلمية بالصورة التي جاء بعاليه . ذلك لأن المذهب المالكي قد أصبح ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري مذهب الأغلبية السكانية ، ليس في المغرب الأدنى وحده ، بل وفي بقية المغرب والأندلس كما عرفنا من قبل . هذا من الوجهة المذهبية ، كما أن المذهب الاباضي قد استقر من الوجهة الجغرافية في المغرب الأدنى ، وهو المحيط أو الاطار الجغرافي الذي نؤرخ لحياته العلمية كما هو مفهوم .

على أن ذلك يجب أن لا ينسينا أنه توجد ثمة اشارات محدودة لأصداء علمية برزت نتيجة للصراع أو إن شئنا الدقة للخلاف المذهبي بين الخوارج بفرعهم : الاباضية والصفرية ، وبين جمهرة أهل السنة في افريقية والمغرب كله أحيانا . وهذه الاشارات على قلتها قد تفيدنا في توضيح بعض معالم هذه الفقرة .

وفي الحق ، فإن تلك القلة في الانعكاسات العلمية

هى نتيجة طبيعية لعدم وضوح معالم الصراع المذهبى بين الفريقين آنذاك . فنحن فى الحقيقة لم نلمس من خلال متابعتنا لكتب التاريخ العام ولكتب التراجم والطبقات التى أرخت للحياة العلمية لافريقية والمغرب وقتذاك أى صراعات مذهبية علمية بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج بيد أن ما نستطيع أن نؤكد أنه هو أنه كان هناك نفور بين الفريقين ضد بعضهما البعض . ولدينا بعض ما يثبت بأن فقهاء السنة فى افريقية قد ناصروا الخلافية الاموية فالعباسية ضد خصومهم من الخوارج ، على الرغم من أنهم لم يكونوا على وفاق دائم مع ولاية الدولتين فى المغرب آنذاك . (١) ولعلنا نستطيع تفهم ذلك الموقف من علماء السنة تجاه الخوارج والذى جاء نتيجة للإختلاف المذهبى بين الفريقين من جهة ولما أحدثته معظم ثورات الخوارج المتعاقبة من آثار سيئة على الأمن والاستقرار . فى ربوع المغرب من جهة أخرى . (٢)

وكيفما كان الأمر فقد ظفرنا ببعض الاشارات للأصـداء العلمية التى نجمت عن الخلاف المذهبى بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج ، روى المالكى أن الوالى حنظلة بن صفوان (١٢٤-١٢٧ هـ) لما ثار عليه الخوارج ، وخاصة فى مدينة

(١) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص

(٢) أنظر مثلاً ما فعلته قبيلة ورفجومة التى لا يعتبرها الكثير

من المؤرخين من الخوارج الصفرية ، من أعمال سيئـة فى القيروان عندما دخلوها من تنكيل وتعذيب بالسكان وربط دوابهم فى جامع القيروان . راجع : رفعت فوزى

عبد المطلب : المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٣٢

طنجه ، جمع علماء افريقية ، وخاصة أفراد البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز ، وطلب اليهم كتابة رسالة الى أهل طنجة — (ليقصدى بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها) (١) فكان أن أُملى العلماء رسالة مهمة نورد ها بنصها : (من حظلة بن صفوان السى جميع أهل طنجة . أما بعد فإن أهل العلم بالله ويكتابنة سنة نبية ، محمد صلى الله عليه وسلم ، (قالوا) إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل الى عشر آيات : آمة ، وزاجرة ، ومبشرة ومنذرة ، ومخبرة ومحكمة ، ومشتبه ، وحلال ، وحرام ، وأمثال فآمة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخير الأولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة بوء من بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يُجتنب ، وأمثال واعظة . فمن يطع الأمة ، وتزجر الزاجرة ، فقد استبشر بالبشرة وانذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويرو العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ونية صالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) (٢) .

وصدى علمى آخر نجم عن الخلاف المذهبى ذكره الآن . فقد ذكر أن خالد بن أبى عمران التجيبى (ت ١٢٥ أو ١٢٧ هـ) الذى كنا قد ترجمنا له من قبل ، أنه قدم المدينة المنورة فأتى القا سم بن محمد بن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بمسائل معينة . (فأبى عليه أن يجيباه ، فقال لهما خالد : (إننا بموضع جفاء في هذا المغرب ، وأنهم حطلونى هذه المسائل ،

(١) كما عبر بذلك : المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٧

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٧

وقالوا لي: إنك تُقدِّمُ على المدينة وبها (أبناء) (١) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلمهم لنا ، وإنكما إن لم تفعلًا كانت حجة لهم ، (فماشئتما) (٢) ، فقال له القاسم : سل فسألها خالد فأجاباه ، فيما سألهما فيه. (٣) ومع أن المالكي لم ينص حقيقة على أن تلك المسائل التي طرحها خالد بن أبي عمران على التابعيين المذكورين كانت نتيجة للخلاف المذهبي بين جمهرة أهل السنة ، وبين الخوارج ، إلا أننا لانستطيع أن نفهم منها إلا أنها كذلك . فخالد بن أبي عمران عاصر آنذاك عنفوان الانتشار الخارجي عقائديا وفقهيا ، بدليل أن المالكي (٤) يقول معقبا على تلك الواقعة ، بأن تلك الإجابة قد احتوتها مدونة سحنون الفقهية ، وهو الأمر الذي أشرنا إليه (٥) من قبل . وهكذا نرى أن الدراسات الشرعية قد جنت من جراء ذلك ، قدرا غير يسير من ذلك العطاء العلمي .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الصدى العلمي أو الاثر الثقافي الأبرز والاوضح في الانعكاسات العلمية للصراعات المذهبية بين الخوارج ، وجمهرة أهل السنة في بلاد المغرب آنذاك هو ظهور المذهب المالكي هناك كردّ فعل مباشر لمواجهة تلك التيارات من النزعات الخارجية وبعض الآراء البدعية التي ظهرت بين

(١) زيادة اقتضاها بسياق وضعها محقق الكتاب ، حسين مؤنس .

(٢) زيادة اقتضاها السياق وضعها المحقق حسين مؤنس

(٣) المالكي : نفس المصدر السابق ، والجزء أعلاه ، ص ١٠٣

(٤) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٥) أنظر ، قبل ، ص ٣٣٣

البربر آنذاك (١) ، وذلك في محاولة للحفاظ على الاسلام النقي الصافي . هذا الى جانب تأثير معظم الاسباب الاخرى التي أدت الى انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب ، والتي لا يمكن اغفال أصلها الديني المتفق وهذا السبب الذي أشرنا اليه . (٢)

وعندما استقرت خارطة توزيع القوى للمذاهب الفقهية والمذاهب الدينية السياسية على النحو المشار اليه في الفقرة الاولى من هذا الفصل ، تكشفت لنا حقيقة تاريخية مهمة ، وهي أن كلا المذهبين : المالكي والاباضي قد ركنا الى ما يمكن تسميته بتعايش الامر الواقع بينهما . فلم نلاحظ الخلاف الذي كان قائما على قلته - بين الخوارج وجمهرة أهل السنة قبل ذلك . ولسنا نشك في أن ثمة اعتبارات قد اكتنفت ذلك ، نجملها في الآتي :

- (١) مثل تلك التي أثارها البرغواطيون في المغرب الأقصى ، وهي آراء بدعية منحرفة عن جادة الاسلام نادى بها في بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى يدعى صالح بن طريف ، وذلك في القرن الثاني من الهجرة . ولقد دعى هذا الرجل الذي ادّعى النبوة الى نحلة ، وهرطقة تقوم على سن تشريع خاص بالنسبة للجوانب التعبدية كالصلاة والصوم وصفة الوضوء مخالفة للاسلام تماما . وفي جانب المعاملات سن قواعد بشأن الطلاق بعيدة عن روح الاسلام وتعاليمه كما أنه وضع لهم قرآنا من ثمانين سورة .
- اكثرها منسوبة الى اسماء الانبياء صلوات الله عليه وسلامه . وقد ظلت هرطقة برغواطة مدة طويلة منذ عهد صالح بن طريف هذا وعهود اولاده واحفاده الذين خلفوه والذين نجحوا في تأسيس دويلة لهم في المغرب الأقصى . وقد تلاشت وانتهت هذه الدويلة وتلك الهرطقات التي كانت ترفعها عام ٣٥٢ هـ .
- انظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٢-٢٣٧
- (٢) انظر قبل ص ٣٠٠ - ٣٠٣

الاعتبار الاول أن المذهب الاباضى كان باتفاق عدد من المؤرخين السنة أقرب الفرق الدينية السياسية للمذاهب الفقهية السنية وأكثرها اعتدالا كما مر بنا في الفقرة الاولى . وإذا جاز لنا أن نقف قليلا عند الأصول العقائدية والفقهية للاباضية والمذاهب السنية ، فإن من حق النزاهة أن نستطلع آراء الاباضية أنفسهم فيها . فالواقع أن على يحيى معمر ، وهو مؤرخ وعالم اباضى محدث حصر الأصول العقائدية والفقهية للمذهب الاباضى من كتب قدامى ومحدثي الاباضية . فَخَلَصَ الى أنه ليس هناك كبيراختلاف بين الاباضية والمذاهب السنية (١) . ورغم أن على يحيى معمر لم يدع أن هناك تطابقا متكاملا بين الاباضية وأهل السنة في تلك الأصول ، الا أنه اوضح التقاء كبيرا في معظم تلك الأصول بين الفريقين (٢) . ومع ذلك فقد ظل بينهما بعض نقاط اختلاف (٣)

ونحن في الواقع لم نشر الى ذلك الا كى ندلل على أننا

-
- (١) الاباضية بين الفرق الاسلامية ، ص ٢٤٣ - ٢٤٩
- (٢) أشار الى ذلك بقوله : أن هناك التقاء بين الاباضية والاغلبية المطلقة من أهل السنة في تأويل المتشابه والقدر وهناك التقاء مع الكثيرين من أهل السنة في الصفات ومرتكب الكبائر ، وهناك التقاء ، مع بعض الائمة في صفة الكلام (القرآن مخلوق أو غير مخلوق) - والرواية ، والخلود .
- (٣) أنظر على يحيى معمر : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٤٨-٢٤٩ صالح باجية : المرجع السابق ، ص ٥٠ - ٥٢ - السيد محمد ابو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

لم نلمس رغم المعاشية والتجاور الطويلين بين المالكية والاباضية في المغرب الأدنى صراعات مذهبية مهمة ، ولكي نوضح هذه النقطة نضرب مثلا باقليم الجريد ، فالجريد كانت تعيش فيه أغلبية اباضية كما عرفنا سابقا . ولقد ذكرنا آنفا أن الاقليم لم يكن حكرًا على المذهب الاباضى وحده ، فقد كانت تعيش في بعض مدنه وخاصة في مدينتي : قفصة وتوزر جماعات من السنة (١) ، ومع ذلك فقد تعايش الجميع هناك جنبًا إلى جنب .

الاعتبار الثاني : على الرغم من ذلك التقارب العقائدى والمذهبى بين المالكية ، الاباضية ، فإن الخلاف ، أولئك الصراع المذهبى كان يمكن أن يظهر بصورة مخالفة لما ظهر عليه لو لم ينحسر الاباضية في المناطق المتناهي عن مناطق الكثافة السكانية المالكية سواء في الاطراف البعيدة أو في رؤوس الجبال .

الاعتبار الثالث : يبدو أن الاباضية وقد أفلحوا في قيام دولة لهم في تاهرت بالمغرب الأوسط لم يكن عندهم الرغبة في الدخول في مناظرات ومجالس جدل علمية مع المالكية ، وبالتالي فإننا لا ننتظر شيئًا ذا بال في ظل سلبية أحد أطراف الصراع .

الاعتبار الرابع : أنه ربما تكون هناك صور لصراع مذهبى بين الفريقين - بناءً على الاختلاف المذهبى بين الطرفين - ولكن المصادر ، وبالذات المصادر الاباضية لم تفصح عنها . والواقع أن المصادر الاباضية عدا كونها لا تزال مخطوطة في أغلبها ، فإن الاباضية أنفسهم كانوا لا يطلعون الآخرين على كتبهم ومصادرهم .

(١) أنظر ، قبل ص ١٦٨ - ١٦٩

ولعل أقصى ما عرفناه من مواقف تطرف للصراع المذهبي بين المالكية والاباضية . هو أن الاباضية كان لهم آراء سيئة في مخالفتهم من المذاهب السنية، ومنها المذهب المالكي . ومع ذلك فقد احتفظوا بها في بطون الكتب ، دون أن تظهر على أرض الواقع في المغرب الأدنى (١) . وفي المقابل فإن أقصى ما عرفناه من مواقف من السنة ضد الاباضية في المغرب الأدنى هو ما عمد إليه الامام سحنون بن سعيد ، عندما تولى قضاء افريقية من اخراج اتباع المذاهب الكلامية ، والدينية السياسية ، ومنهم الاباضية من جامع القيروان ، ومنعهم من التحليق فيه (٢) . ثم موقف آخر ، وهو أنه عندما تغلب المذهب المالكي على المذهب الاباضي في مدينة الحامة على أثر الضربات التي وجهتها الخلافة الفاطمية لهم آنذاك ، عمد المالكية الى غسل المساجد بالماء الكثير كناية عن تطهيره من النجاسة . (٣)

الاعتبار الخامس : مما يدل على أنه لم يكن هنالك صراع مذهبي بين المالكية والاباضية في المغرب الأدنى ، بالاضافة لما ذكرناه من اعتبارات أن الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي (أمد الثقافة بزاد لا ينفذ) . كما يقول على الشابي في تقديمه لكتاب صالح باجية (٤) ، لم يكن وليد الصراع المذهبي بين المالكية

(١) أنظر صالح باجية : المرجع السابق ، ص ٧٢-٧٣

(٢) أنظر المالكي : المصدر السابق ، ص ٢٧٦-٢٧٧

(٣) صالح باجية : نفس المرجع السابق ، ص ١٥١

(٤) مقدمة كتاب : الاباضية بالجريد بقلم على الشابي

والاباضية ، ولكنه كان بين الاباضية أنفسهم عند ما انقسموا الى قسمين : وهبية ونكارية (١). ولعلنا نضيف ايضا مانجم من آثار علمية اخرى ظهرت نتيجة لظهور اجتهادات فقهية بين الوهبية الاباضية أنفسهم والتي تمثلت في اجتهادات نفات بين نصر النفوس وغيره (٢) . ثم ماظهر من انعكاسات ثقافية للصراع المذهبي العقائدي بين الاباضية والمعتزلة في المغرب الأدنى . ذلك الصراع الذي كان عنيفا بين الفريقين وتمثل في شيوع المناظرات بينهم (٣) ، رغم وجود نقاط التقاء بين الفريقين دون ريب . (٤)

الاعتبار السادس : هو أنه لوكان المذهب الصفرى ، هو الذى استقر في المغرب الأدنى بدلا من المذهب الاباضى لربما كنا قد لمسنا صراعات مذهبية ، ومن ثم أصدا ١٤ وانعكاسات

(١) انقسم الاباضية في المغرب الادنى الى قسمين وهبية ونكارية ، على أثر تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الامامة من تاهرت . فأنكر عليه البعض حق الامامية . ومن ثم خرجوا عليه . ثم انكروا بعد ذلك توريث الامامة . ومن ثم خرجوا عليه وعلى الائمة من بعده بينما رضى فريق كبير من الاباضية امامه عبد الوهاب . قسموا بالوهبية تبعاً لذلك نسبة اليه . وقد مال الاباضية النكارية الى التطرف ، بينما صبغ طابع الاعتدال : مواقف الاباضية الوهبية .

أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٥-٣٢٦ ، على يحيى معمر ، الاباضية بين الفرق الاسلامية) ، ص ٢٥٨-٢٦٢ ، صالح باجية : المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧ مع الحواشي .

(٢) انظر على يحيى معمر : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٦٤-٢٧١

(٣) صالح باجية : نفس المرجع اعلاه ، مقدمة على الشايبى ،

ثم ص ٤٢ - ٤٤ - ٤٧ .

(٤) صالح باجية : نفسه ، ص ٥٢

علمية مترتبة عليها . ذلك لأن الصفرية كانوا دون ريب من فرق الخوارج المتطرفة ، ولا يفوتهم في ذلك سوى فرقتي الأزارقة والنجدات ، كما هو معلوم تاريخيا (١) . وبصرف النظر عن تفاصيل المبادئ العقائدية والفقهية للصفرية التي لا تعنينا في هذا المجال ، فإن ما يهمنا الإشارة إليه . هو أن بعض مبادئهم العقائدية والفقهية ، وخاصة مسألة الكفر واللايمان يختلفون فيها اختلافاً بيناً مع الأباضية، فبينما يرى الأباضية مثلاً في مخالفتهم من المسلمين أنهم موحودون ، نصادى الصفرية بتكفيرهم (٢) ومن هنا لازمت القسوة والعنف حركاتهم . فلو أن المذهب الصفرى هو الذى استقر فى المغرب الأدنى لكان قد قدّر فيما يبدو أن ينشب الصراع . المذهبي بينه وبين المذهب المالكي .

ونخلص من هذه النقطة التى ربما تكون قد طالت مناقشتها هو أننا لا نتوقع أن نجد أصداء علمية مهمة للخلاف المذهبي بين المالكية والأباضية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضع اهتمامنا . فبالنسبة لأقليم الجريد ، فلعل كل ما صدقناه من انعكاسات علمية لا يتجاوز موقفاً واحداً ، تمثل في صورة مناظرة وقعت بين علماء مالكية ، أو إن شئنا الدقة طلبه مبتدئين وبين عالم

(١) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ،

ص ٢٥ - ٤٤ - ٤٥ (نقلاً عن اعتقاد فرق المسلمين) .
السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ (نقلاً عن البغدادي من الفرق بين الفرق ،
والاشعري : مقالات الإسلاميين والمقرئ في الخطط)
محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٤٥ مع
الحواشي (نقلاً عن الرازي في اعتقاد فرق المسلمين) .

اباضى . والواقع أن هذه المناظرة تبدو (١) بسيطة ساذجة لا يمكن أن تلبي تطلُّعنا الى معرفة الصدى العلمى الذى ترتب عليها .

أما بالنسبة لجبل نفوسة ، فإننا عبثا نحاول العثور على مادة توضح لنا الآثار العلمية التى نجمت عن الخلافات المذهبية بين المالكية، وبين الاباضية ، فلم تشر المصادر التاريخية ، وغيرها من كتب التراجم والطبقات الى شىء من ذلك البتة كما أن المراجع التى أرخت لبعض نشاطات الاباضية العلمية لم تشر الى شىء ايضا . والظاهر أن الاباضية قد تقوقعوا في جبلهم ، ولم يفتحوا علميا - إن جاز هذا - إلا على أبناء مذهبهم ومن خالفهم في تاهرت (٢) . ولا نعتقد أن الجبل الذى عرف اعدادا من الفقهاء والعلماء الاباضية كان خاملا

- (١) هذه المناظرة جرت عند ما ضعف شأن الاباضية في مدينة الحامة على اثر ما وجهته لهم الدولة الفاطمية . ففي ذلك الوقت تنفس السنيون في المدينة الصعداء ، وانتهزوا فرصة مرور احد علماء الاباضية وهو أبو عمر محمد عثمان بن خليفة السوفي بالمدينة ونزوله بها . دبروا أن يسألوا سوءا فيه شىء من المغالطة ، فإذا أجاب بالحق ، ألزموه الحجة ، وإذا أجاب باجابة اخرى استأنفوا سوءا له كذلك والموضوع الذى دبروا سوءا له عنهم هو : هل يجوز في مذهبكم تزويج نساءنا ، فإذا استعظم ذلك وأجاب كيف لا يجوز ذلك وقد جازعندنا تزويج اليهوديات والنصرانيات فكيف نساءكم فضحوه . وهكذا كان فقد أجاب الاجابة المتوقعة ، مما دفعهم اليه الاستنكار عليه . إذ كيف يضعهم في منزلة اليهود والنصارى ثم قاموا عليه ، وشتموه وصفعوه ، وطرده من البلده . أنظر صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥١ (نقلا عن الدرجيني في الطبقات) . محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص ١٥٤ - ١٦٣
- (٢)

في ابراز علماء جبل أومناظرة . فالرستميون كما تروى لنا المصادر
كانوا كثيرا ما يستعينون بعلماء الجبل لمناظرة خصومهم ، كما
حدث عند ما أرسل الامير الرستمى الثانى عبد الوهاب بن
عبد الرحمن بن رستم الى علماء الجبل ، يطلب منهم مساعدتهم
في مناظرة خصومة من المعتزلة الواصلية ، فكان أن ذهب الفقيه
مهدى النفوسى الذى كنا قد اشرنا اليه سابقا ونفر آخر غيره
فدخلوا في مجادلات علمية افحمت أولئك الخصوم . (٢)

- (١) انظر قبل ص ٣٣٥
(٢) سعد زغلول : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(نقلا عن مؤرخى الاباضية)

الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية
والشيعة والاسماعيلية

أ - نبذة عن دخول المذهب الشيعي الاسماعيلي افريقية وانتشاره
وأهم معتقداته :

تكاد تتفق معظم المصادر والمراجع على أن أول تسرب
للدعوة الشيعية في بلاد المغرب قد تم قبيل منتصف القرن الثاني
الهجري بقليل عندما بعث الامام جعفر الصادق بداعيتين له لبثت
الدعوة هناك . ويبد أن جعفر الصادق قد رأى بثاقب فكرة أهمية
الدعوة الى آل البيت في أرض المغرب البعيدة عن الدولة العباسية ،
هذا من جهة ، واستغلالا لأوضاعها - أي بلاد المغرب - التي كانت
تمزقها الاضطرابات والانقسامات من جهة أخرى . فكان أن بعث في عام
١٤٥ هـ بداعيته : أباسفيان ، والحلواني الى هناك . (١)

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٠ - القاضي النعمان :
كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوى ص ٢٦ - ٢٧ -
برنارد لويس : أصول الاسماعيلية ، ص ١٤٤ - محمد كامل حسين :
طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، ص ٢٣ (وينفرد
بالقول بأن الداعي الاسماعيلي اليمنى ابن حوشب الذي بعث
أبا عبدالله الشيعي - وهما قد عاشا في القرن الثالث الهجري -
هو الذي بعث أباسفيان والحلواني ، مع أن اكثر المصادر
السنية والشيعية ، والمراجع الحديثة تجعل من رحلة
أبي سفيان والحلواني قبيل منتصف القرن الثاني الهجري) .
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب
ومصر وسورية وبلاد العرب ، ص ٤٦ (نقلا عن ابن الاثير في
الكامل والمقریزی في اتعاظ الحنفاء ، وقد ذكر ابان جعفر
الصادق هو الذي بعثهما) .

وقد خاطبهما بقوله : (بالمغرب أرض بور فاذهبوا واحرثا حتى يجيئ صاحب البذر) (١) ، (كما أوصاهما بأن يبسطا ظاهر علم الأئمة " صلوات الله عليهم " وينشروا فضلهم ، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية الى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية) . (٢)

وبالفعل فقد نزل أبو سفيان في منطقة تدعى مرماجننة في حين نزل الحلواني في منطقة تدعى : الاريس ، وكلتاهما في المغرب الاوسط ، وقد باشر الداعيتان الدعوة للمذهب الشيعي هناك وخاصة بين قبيلة كتامة ، وهي من كبرى القبائل البربرية ، حيث أفلحا كما تشير المصادر في تنفيذ ما كلفا به . (٣)

ويبدو من المؤكد ان الاحداث في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري ، سواءً تلك الأحداث السياسية التي كان المغرب وخاصة الادنى يعيشها ، أو تلك التي كانت تمر بها الدعوة الشيعية الاسماعيلية في المشرق قد اقنعت القائمين بأمرها بأن الظروف قد سحنت لاستئناف بث الدعوة في بلاد المغرب التي توقفت لقرن ونصف تقريبا ، والعمل على اقامة الدولة الفاطمية الاسماعيلية هناك . ولهذا فقد جند القائمون بأمر تلك الدعوة داعية من أشهر دعائهم وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي - ويقال الصنعاني كذلك - المشهور بأبي عبد الله

(١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، والصفحة

(نقلا عن ابن الأثير والمقريزي) .

(٢) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص ٢٦-٢٧

(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧-٣٠ .

الشيعة للقيام بتلك المهمة باعتبار أن الداعيتين السابقتين قد حرثا البلاد ووطأها ، فلم يبق الا مجيء صاحب البذر الذي أشار به الامام جعفر الصادق .

وفي الواقع ، فاننا لن نضيف جديداً الى ما ذكره مؤرخو السنة والشيعة القدامى أو المؤرخون المحدثون عن تفاصيل مهمة أبي عبد الله الشيعي ، والخطوات التي مرت بها تلك المهمة ، حتى كللت بالنجاح ، فهي أشهر من أن تعرف . ولعل غاية ما نستطيع قوله هو أن ابا عبد الله الشيعي توجه الى بلاد المغرب الأوسط وبالتحديد منطقة زواوة حيث تعيش أغلبية قبيلة كتامة عام ٢٨٠ هـ مستغلاً المناخ الطيب الذي حققته الدعاية لشيعة هناك . وتروى المصادر أن أبا عبد الله الشيعي قد استخدم الكثير من ضروب الدهاء والحنكة للوصول الى مسعاه ، سواء في قصة توصله الى البربر الكتاميين ، أو في الافصاح عن حقيقته مهمته ، والهدف الأساسي من وجوده بين ظهرائهم ، تم الخطوات الدقيقة في نشر المذهب الاسماعيلي وتطبيق مبادئه بين البربر هناك . (١)

ولقد رأى أبو عبد الله الشيعي ، بعد أن اطمأن الى النجاح

(١) عن تكليف ابي عبد الله الشيعي بمهمة بث الدعوة الاسماعيلية في المغرب والعمل على اقامة الدولة الاسماعيلية هناك والخطوات التي رافقت ذلك انظر القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٣٠ - ٢٨٧ (تفاصيل واسعة جداً) - ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٥٧ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦ - ٥٥ (وقد تناول بالحدث تلك الاحداث مدعمة باقوال عدد من المصادر السنية والشيعة ، ثم المراجع الحديثة الاجنبية والمعرية) .

الكبير الذى حققته الدعوة الاسماعيلية بين بربر كتامة وغيرهم أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة لإعداد الى مرحلة المواجهة المسلحة مع القوى السياسية الكبرى في المغربين الأوسط والأدنى ، وخاصة الدولة الأغلبية التى تردت أوضاعها السياسية والاقتصادية آنذاك في عهد آخر أمرائها زيادة الله الثالث، وصولا الى تحقيق الهدف المنشود ، وهو اقامة دولة الفاطمية هناك (١) .

وفى تلك الأثناء نجح امام العصر الشيعى في الرحيل الى المغرب بعد أن وردت الأخبار بنجاح أبى عبد الله الشيعى في تهيئة المناخ الصالح لمجيئة (٢) . وتروى المصادر الشيعية وخاصة سيرة جعفر الحاجب قصة مغادرته ودخوله بلاد المغرب وما جرى له في جو مهيب تغلفه الجلالة والكرامة (٣) .

(١) عن الظروف السيئة التى كانت تعيشها الدولة الاغلبية في اخريات حياتها ، أنظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٨ - ١٣٦ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٨ - ١٨٢ (بتوسع شديد) - السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ - ٣٢٠ ، ٥١١ - ٥١٥ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الاغلبية سياستهم الخارجية ص ١٩١ - ٢٠٨ .

(٢) القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ١٥٧ - وما بعدها محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٢٤ - حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ٥٠ - ٥٦

(٣) استنار الامام وسيرة جعفر الحاجب ، ص ١٠٧ - ١٣٣ مقال نشره المستشرق الروسى : ايفانوف ، ترجمة محمد كامل حسين ، مجلة كلية الاداب بالجامعة المصرية ، المجلد

الرابع ، ج ٢

وكيفما كان الأمر فقد استقر المطاف أخيراً بإمام العصر
الاسماعيلي وهو عبيد الله الذي تلقب فيما بعد بالمهدي فـي
سجل ماسة عاصمة الدولة المدراية ، إنتظاراً لما تسفر عنه
الاحداث هناك . ولكنه ما لبث أن قبض عليه وأودع السجن ولده .^(١)

وعند ما نجح أبو عبد الله الشيعي في القضاء على
الدولة الأغلبية وإسقاطها في عام ٢٩٦ هـ ، توجه للمغرب الأقصى
لتخليص إمامه من سجن الدولة المدراية . ولقد تهيأ لـه
ذلك بالفعل وبعد أن اطاح بالدولة المدراية .^(٢) ومن مدينة
سجل ماسة أعلن امام العصر الاسماعيلي عبيد الله قيام الدولة الفاطمية
كأول دولة اسماعيلية ، ثم كرس ذلك الاعلان رسمياً بمدينة رقادة
بافريقية عام ٩٧ هـ ، كما أعلن الخلافة الفاطمية بتلقبة بالمهدي
أمير المؤمنين .^(٣) وعلى هذا النحو قامت الدولة الفاطمية
بالمغرب والتي تعاقب على أمرها في هذا الدور المغربي من حياتها
أربعة خلفاء ، هم عبيد الله المهدي ، ثم القائم بأمر الله والمنصور
ثم المعز لدين الله الذي ارتحل الى مصر عام ٣٦٢ هـ كما
هو معروف .^(٤)

- (١) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق، ص ١٦٣ - ١٦٥ ،
٢٧٦ - ٢٧٨ - ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ -
١٥٦ ، حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٤
- محمد كامل حسين ، نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٤ - ٢٥
(وقد انفرد هو دون غيره بأن الاغالبية هم الذين قبضوا عليه
في سجل ماسه ، بمعنى أنه كان يعتبر دولة بني المدرار تابعة
للدولة الأغلبية . ولا شك أن هذا خطأ تاريخي كما هو
معروف .)
(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ - سيرة جعفر
الحاجب ص ١١٣ - ١١٩ ، ١٢٢ وما بعدها - ابن
عذارى نفس المصدر السابق اعلاه ، ص ١٥٣ - ١٥٧ ، حسن
ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ .
(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٧ - ٢٩٩ -
ابن عذارى : نفسه ، ص ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٦٠
حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٤) انظر قبل ص ٧٨ - ٧٩

ونحن بالطبع لا يعنينا من مجمل الأوضاع السياسية المذهبية للدولة الفاطمية في المغرب منذ أن تسربت الدعوة الى بلاد المغرب وحتى القضاء عليها نهائيا في عهد المعز بن باديس الصنهاجى إلا ماله مساس بالانعكاسات العلمية على الدراسات الشرعية .

وفي الواقع فإن المتتبع لتلك الأطوار التي مرت بها الدعوة للمذهب الشيعى في المغرب منذ أن استقر الأمر به للدولة الفاطمية سيلحظ حتما ذلك الصراع العنيف الذى وقع بين غالبية السكان وهم مالكي المذهب ، وبين الشيعة الاسماعيلية ، سيلحظ كذلك أن ذلك الصراع قد اكتسب أشكالا شتى من المواقف ، سواء كانت مواقف مقاومة سلبية أو إيجابية ، أو حتى مسلحة بالاضافة الى الجدل العلمى الذى تمثل في شيوع المناظرات العلمية وكثرة المؤلفات بين الفريقين .

وفي الحق ، فإن ذلك الصراع العنيف ، كان أمرا طبيعيا نظرا للاختلاف المذهبي : سياسيا وعقائديا وفقهيا بين المذهبين : المالكي والاسماعيلي ، فغير خاف أن المذهب الاسماعيلي يقوم على أسس ومبادئ سياسية لا توافقهم عليها المذاهب السنية ومنها المذهب المالكي . ومن هنا ثار الصراع السياسى والمذهبي بين الفريقين ، عندما شرع الشيعة الاسماعيلية يطبقون عمليا تلك الأسس والمبادئ لمذهبهم .

ولعل من الضروري قبل التصدى للممارسات العملية للمذهب الاسماعيلي التي طبقها الفاطميون في افريقية ، ثم ردود الفعل من قبل المالكية ، رعية وفقهاء ، أن نتحدث بإيجاز عن أهم تلك الأسس والمبادئ التي يقوم عليها المذهب الاسماعيلي فمن الناحية السياسية يرى الاسماعيلية ، بل ومعظم

فرق الشيعة ، أن الامامة تعتبر أصلاً من أصول الدين ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، وهي واجبة بالتعيين والتنصيب وليس بالاختيار كما يذهب أهل السنة . ويرون جميعاً أن الامامة وراثية الى يوم القيامة في الوصي على بن أبي طالب وفي ذريته من السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بمقتضى حديث غد يرخم الذى ينسبه الشيعة الى الرسول صلى الله عليه وسلم . (١)

وعلى هذا ، فإن الأئمة هم على وأبنائهم من فاطمة فالامامة تنتقل من الأب الى الابن الأكبر بالتعيين ، ولا تنتقل من أخ الى أخ بعد انتقالها من الحسن الى الحسين : رابنى على بن أبى طالب . (٢) وهذا المبدأ هو أساس وجود المذهب المذهب الاسماعيلية أو الفرقة الاسماعيلية التي ظهرت نتيجة

-
- (١) عن مسألة الامامة عند فرق الشيعة ، أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٦٦ - ٢٧٤ ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ - ٢٢٠ ظهر الاسلام ، ج ٤ ، ص ١٠٩ - ١١٤ (وقد تتبع معظم اقوال المؤرخين السنة والشيعة حول هذا المبدأ أو المسألة) برنارد لويس : أصول الاسماعيلية ص ٨٣ - ٩٦ ، (في تقصى دقيق لهذا المبدأ وتطور مفهومه عند الشيعة من المصادر السنية والشيعة ومن مؤلفات المستشرقين الأوربيين) - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١ - ٣٣ ص ٦٥١ عن معظم المصادر والمراجع العربية والاجنبية والمصادر الاسماعيلية المنشورة حديثاً - محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ٣ - ٩ .
- (٢) برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ١١٢ (عن التوبختى في كتابه فرق الشيعة) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٢ .

للتصرف الذى قام به جعفر الصادق من نقل الامامة من ابنه الأكبر اسماعيل الى ابنه الآخر موسى الكاظم . ولذلك فلم يقر فريق كبير من الشيعة الامامية ذلك فانقسموا تبعاً لذلك الى فرقتين : الاثنى عشرية الاسماعيليه كما هو معروف.^(١)

ولقد رافق هذا المبدأ الخاص بالامامة مسائل أربع نشأت نتيجة وتلازمت معه ، وهى العصمة أى عصمة الأئمة ، والمهدية والرجعة ، وهى متعلقة بالمهدية ثم التقية^(٢) ، وهى ذات شأن عظيم عند الشيعة الاسماعيليه بالذات .^(٣) ولقد دفع هذا الاعتقاد فى مسألة الامامة فرقة الشيعة - ماعدا الفرقة الزيدية^(٤) الى الطعن

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٧٢-٢٧٣ - ضحى الاسلام -

ج ٢ ، ص ٢١٢-٢١٣ - ظهر الاسلام ، ج ٤ ، ص ١١١ ، ١٢٧ ،
برنارد لويس : نفس المرجع السابق ، ص ٩٤-١١٦ ، محمد
كامل حسين : نفس المرجع السابق ، ص ٩-٢٢ وغير ذلك .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٢٦-٢٤٩ (وقد تناول
هذه القضايا فى تقصى دقيق وتحليل منطقي تاريخي وناقشها
مناقشة موضوعية) .

(٣) أنظر محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٦١ - حسن ابراهيم
حسن وطه أحمد شرف : المعزلدين الله ، ص ٢٣٧ .

(٤) مع اعتراف الشيعة الزيدية بأفضلية على بن أبى طالب وبأحقية
فى الخلافة على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، الا أنهم لم
ينكروا خلافتيهما . فزيد بن على زين العابدين بن الحسين
بن على بن أبى طالب الذى تنسب اليه الفرقة الزيدية
يجوز إمامة المفضل مع وجود الافضل . كما أن نظرتهم
الى مسألة التفضيل التى رفعتها فرق الشيعة كلها ، كانت
معتدلة . فهم يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم
قد عين على بن أبى طالب بالوصف لا بالشخص .

أنظر أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٧٢ ، ضحى الاسلام :
ج ٣ ، ص ٢١٢ .

في خلافة الخلفاء الراشدين : ابي بكر وعمر وعثمان ، فضلاً عن طعنهم في خلافة الأمويين والعباسيين كما أنهم قد جرّموا أكثرية الصحابة وأزواج الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، نتيجة لمواقفهم من على ابن ابي طالب كما يرون هم . ولم يستثنوا سوى نفر يسير من الصحابة . (١)

ومما يلحق بمسألة الامامة الولاية ، وهي إحدى دعائم الاسلام السبعة عند الاسماعيلية ، وقد كان لها دور خطير في المعتقد الشيعي . فلقد رأوا أنها أفضل دعائم الاسلام وأقواها ولا يستقيم الدين الا بها . ويقضى مبدأ الولاية بوجوب اتباع الائمة وأوامرهم والخضوع التام لهم ، وليس مجرد حبسهم فحسب. (٢)

(١) الحق أن المصادر السنية هي التي أشارت الى ذلك . وقد ذكرت ان الشيعة قد تناولوا بالتجريح كل الصحابة وزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ماعدا - كما تقول تلك المصادر - ، على بن ابي طالب ، والمقداد بن الأسود ، عمار بن ياسر - وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري . عن هذا انظر مثلاً ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ،

ص ١٥٩ .
(٢) عن مسألة الولاية وكونها أفضل دعائم الاسلام عند الاسماعيلية أنظر القاضي النعمان : كتاب دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر قيسى ، الجزء الأول وقد بدأه بالحدِيث عن أهمية الولاية أو الايمان كدعامة أولى للاسلام ، وأنظر كذلك مقدمة المحقق ، ص ٩ - ١٢ فهي تلقي الضوء على هذا الموضوع - محمد كامل حسين : نفس المرجع السابق : ص ١٥٥ .

ولقد قام على مبدأ الولاية هذا الذى يعتنقه الشيعة
الامامية بفرعيتهم : الاثنى عشرية والاسماعيلية ثلاثة أسس هى :

١- الفيض الالهى . وهو الفضل الذى أفاء الله به
به على الأئمة من المعرفة والعلم ، وهو الفيض الذى اختص به
الأئمة وراثة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وعلى ذلك فهم
فوق الناس علما وفوق الناس قدرا . (١)

٢- مبدأ الاستشار ، فالامام يمكن أن يكون غير ظاهر ،
وعلى الرغم من ذلك تجب طاعته . وأنه لا يخلو عصر من امام للناس
وهو المهدى المنتظر الذى لا بد أن يظهر فيملاء الأرض عدلا ،
كما ملئت جورا . وهذا المبدأ هو ما يعنى نظرية المهد وبيعة
التي رفعها الاسماعيلية في المغرب وتلقب بلقبها أول خلفائهم
وهو عبيد الله المهدى (٢) .

٣- عصمة الأئمة ، فالامام ليس مسوء ولا امام اياً كان من
الناس ، ولا حق لأحد أن يخطئه مهما يأتى من أفعال وتصرفات
وأن ما يفعله من أفعال تبد وغير سليمة ، له ما يبرره ويسوغه . (٣)

-
- (١) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٦١-٦٢
(٢) محمد أبو زهرة : نفس المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ولزيادة
التفاصيل عن مسألة المهدوية ، أنظر البحث الواسع الذى
كتبه كل من : برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٨٥-
١٤٣ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٥-
٢٤٦ .
(٣) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦٢-٦٣ ، وأنظر البحث الممتع
الذى كتبه حول هذه النقطة أحمد أمين ، ضحى الاسلام :
ج ٣ ، ص ٢٢٢-٢٢٥ ، ٢٢٦-٢٣٥

وسنرى أن هذا المبدأ قد أثار عليهم حفيظة المغاربة بالدرجة الأولى الذين لم يستطيعوا استيعاب تعدى الخلفاء الفاطميين حدودهم البشرية الى أبعد من ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن بعضا من الباحثين يرى أن السبب في ذلك ، هو تأثير الشيعة الاسماعيلية بالاقطار الفارسية القديمة والهندية ، والفلسفة الاغريقية المبنية على الرجعة والنشأج والحلول . . الخ . (١)

ومن مبادئ الاسماعيلية الرئيسية : عقيدتهم في تأويل علم الباطن . فالعلم في نظرهم علمان : علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علم الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، العلمين معا لعلى بسن أبى طالب الذى ورثهما بدوره الى الأئمة من أبنائه . وفى نظرهم أن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الامام علم الباطن ، بل أن عنده علم باطن الباطن (٢) . ولقد ترتب على ذلك أن أولوا ألفاظ القرآن تأويلات مجازية توافق نظرتهم تلك . وبعض تلك

(١) أنظر أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٧٠ - ٢٧٤ - ٢٧٦ -

٢٧٧ - برنارد لويس : مقدمة المرجع السابق التى كتبها عبدالعزيز الدورى ، ص ٢٢ ، ثم ماجا في الكتاب نفسه بقلم برنارد لويس ، ص ٤٨ - ٥٠ ، ١٨٧ - ١٩٣ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ - محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٧١ - ١٧٣ (وان كان محمد كامل حسين : لا يرى بأن الاسماعيلية قد دانوا بفكرتى التناسخ والحلول . بناء على ماجا في كتبهم المنشورة حديثا بالمعنى الذى فهمه أهل السنة ، وقد اختفت فكرة الحلول بالذات من الدور الفاطمى كله)

(٢) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦١ . وللاستزادة عن مسألة تأويل الباطن ، أنظر أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ ، ضحى الاسلام ، ظهر الاسلام ، ج ٤ ، محمد كامل حسين ، نفسه ، ص ١٦١ - ١٧٠ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٤ وما بعدها

التأويلات تحل آراء جد خطيرة تكاد تكون خارجة عن الاسلام (١) . ويرى أحمد أمين (٢) ان الاسماعيلية قد أخذوا في مذهبهم بمذ هـب الـافلاطونية الحديثة وطبقوها على مذهبهم الشيعى تطبيعا غريباً وهذا المبدأ كان أحد الأسباب لتسميتهم بالباطنية أو الباطنيين (٣) وفي هذا الصدد يرى محمد أبو زهرة . (٤) أن بعضاً من اعتقاداتهم في التأويل كانت من الخطورة الى الحد الذى كانوا يسترون كثيراً منها ولا يعلنون إلا عن قدر تسمح الظروف باعلانه .

ومن مبادئهم العقائدية التى أخذت بالافلاطونية الحديثة، ذلك الجانب الذى يتعلق بالأسماء والصفات التى وردت فى القرآن الكريم . فقد جعلوها للعقل الكلى الذى أشار اليه الفلاسفة

- (١) أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٧٣ - محمد أبو زهرة - المرجع السابق والجزء ، ص ٦٠ .
- (٢) فجر الاسلام ، ص ٢٧٢ - وأنظر محمد كامل حسين ، نفس المرجع السابق ، ص ١٧٦ .
- (٣) أحمد أمين : نفس المرجع اعلاه ، ص ٧٣ - برنارد لويس : نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٧٣ - ٧٥ - ١٠٣ محمد كامل على حسين : نفسه ، ص ١٤٧-١٤٨ - محمد أبو زهرة نفسه ، ص ٦١ - ٦٢ (ويقول أبو زهرة أن شمة سببين آخرين لتسميتهم بالباطنية كذلك السبب الأول : أنهم سموا بالباطنية لاستخفافهم عن الناس الذى كان نتيجة للاضطهاد الذى لقوه أولاً ، ثم صار عندهم حالة نفسية دائمة . والسبب الثانى ، أنهم قالوا فى كثير من الأحيان : بأن الامام مستور . واستمر ذلك حتى قامت دولتهم فى المغرب ، هذا بالاضافة الى قولهم بعلم الظاهر والباطن) .
- (٤) تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج ١ ، ص ٦٢

الذى هو المبدع الأول ، الذى أبدع النفس الكلية ، أو المبدع
الثنائى . . الخ نظريتهم (١) تلك . وهذا الجانب آثار
كذلك حفيظة المغاربة الذين رأوا في ذلك كفرا بواحا .

أما أهم المبادئ الفقهية التى تميز بها المذهب الشيعى
والذى أثار تطبيقاتها العملية ثائرة المغاربة ،
فقد كانت كثيرة وخاصة تلك التى تتعلق بجانب العبادات . فمن بين
تلك القضايا : ابطال صلاة التراويح واسقاط عبارة : الصلاة
خير من النوم في صلاة الفجر ، وزيادة عبارة : حى على خير
العمل في الأذان . والجهر بالبسملة في الصلاة ، وزيادة
الفنون في صلاة الجمعة في الركعة الثانية ، واطفال صلاة الضحى ،
وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة . . الخ وتأخير الصلوات عن
أوقاتها . . الخ . (٢) وفيما يختص بالصوم من حيث تحديد بدايئة
الشهر ونهايته ، فقد نحا في ذلك منحى يعتمد على الفلك
والحساب ، وكانت لهم آراء اجتهدية في ذلك لا تعنينا هنا
وقد تأولوا حديث رؤية الهلال ، بأنها رؤية استبصار لا رؤية
ابصار . (٣)

- (١) أنظر محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٥٧-١٥٩ ، حيث
ناقش تجريد هم الله ، عز شأنه من كل صفه وكان ميررهم
في ذلك هو التنزيه المطلق لله وهذا لا يتأتى الا بتوحيده
الله الذى يعنى بأن ينفي عنه سبحانه جميع ما يليق بمبدعاته
التي هي الأعيان الروحانية ، ومخلوقاته التي هي الصور الجسمانية
من الأسماء والصفات . . الخ معتقد هم ذلك .
- (٢) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ط ١ ، ص ٢٩٤-٢٩٥ - المالكي
المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤١-٤٣ ، ٥٥ وغير ذلك - عياض :
المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٨-٥١٤ - ٥١٧ الدباغ
المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤-٢٧ - ج ٣ ، ص ٥٥ ، ٤٧ ، أحمد
بن عامر : الدولة الصنهاجية ص ٧٤-٧٥ عبد العزيز المجذوب
المرجع السابق ، ص ١٧٥-١٨٠ - السيد أبو العزم داود : المرجع
السابق ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ . وكل هؤلاء المحسنين ، اعتمدوا
على نقولات مؤرخي التاريخ والطبقات ومؤرخي الفرق .
أنظر السيد أبو العزم داود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٧
مع الحواشى (نقلا عن المؤيد في الدين في كتابه
السيرة المؤيدية) .

وفيما يتعلق بجانب المعاملات الفقهي ، فقد أسقطوا الحنث عن طلق البتة ، وأحاطوا البنات بالميراث في وجود ابن الابن ، وإباحة نكاح المتعة . . الخ . (١) وسنرى أن إثارة هذه المعتقدات وغيرها ، بل تطبيقها على أرض الواقع ، كانت من الأسباب الإضافية للصراع المذهبي العنيف بين المالكية والاسماعيلية .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية دخول المذهب الشيعي الاسماعيلي وانتشاره في بلاد المغرب وأهم الأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا المذهب ، فإن من الضروري أن نستعرض بإيجاز كيفية تطبيق الفاطميين لمبادئ مذهبهم عمليا ، توطئة لرصد ردود فعل المغاربة على تلك المبادئ والممارسات .

ففي البدء ، جاء أول تطبيق عملي لمبادئ الاسماعيلية في رفع عبارة : حى على خير العمل ، وذلك عندما دخل أبو عبد الله الشيعي القيروان ، إثر سقوط الدولة الأغلبية في رجب سنة ٢٩٦ هـ (٢) كما أن الداعي أمر في أول خطبة خطبت بالقيروان بأن يتضمن الدعاء في الخطبة : الصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين على وعلى الحسن والحسين ، وعلى فاطمة الزهراء (صلوات الله عليهم أجمعين) . (٣)

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ -
عبد العزيز المذجوب : نفس المرجع السابق ، ١٢٨ - ١٢٩ ،
(نقلا عن عدد من المصادر المختلفة) - السيد أبو العزم
داود : نفس المرجع السابق ص ٢٩٧ (عن عدد من
المصادر المختلفة) .

(٢) القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٢٥٠

(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ٢٤٩ - ٢٥٠

وفي الكتاب الذى كتبه أبو عبد الله الشيعي الى البلدان بالأمان ذكر بأن السبب في خروجه ، هو طلب ثأر أولياء الله : آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغتصبين ، لاسيما وأنه عمل جهده في إنباتهم . (١) ورجوعهم الى الحق - في نظرة - ، وعند ما عزم على الخروج الى سجلماسة لاطلاق سراح امامة ، حرر كتابا جعله نُسخاً . وبعث بكل نسخة منه الى معظم المدن بافريقية لقراءته . هذا الكتاب بشرح وجهة نظر أبي عبد الله فيما فعله وما سيفعله ومن جملة ما أشار اليه في كتابه رواية الشيعة لحد يثالثين الذين يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم (إنى تارك فيكم الثقلين بعدى ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتى أهل بيتي . . الخ) (٢)

وعند ما قامت دولة الفاطمية فعليا تولى عبيد الله الامامة والخلافة ، وتلقب بالمهدي في مدينى رقادة والقيروان اثر دخوله اليهما في ربيع الاخر عام ٢٩٧ هـ ، شرع يطبق مبادئ مذهبهم عمليا وبالقوة والشدة كما تشير الى ذلك كثير من مصادر السنة المختلفة . فغداة تلقية البيعة أمر بأن يدعى على المنابر في رقادة والقيروان بالدعاء (بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى علي (عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين . وعلى الأئمة من ولده) (٣) . وقد أورد القاضى النعمان في كتابه افتتاح (٤)

-
- (١) القاضى النعمان : نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤
 (٢) القاضى النعمان : نفسه ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ - ٢٧٣ مع الحاشية ، رقم (١) ص ٢٧٢
 (٣) القاضى النعمان : نفسه ، ص ٢٩٣
 (٤) ص ٢٩٣ - ٢٩٤

الدعوة نص ذلك الدعاء كما أمر به المهدي . وقد أمر المهدي أيضا بكتابة خطاب أو منشور بمعنى أدق قرىء على منبر القيروان ونسخت منه نسخ الى بقية المدن ، وهو كتاب طويل ، أورد فيه المهدي الكثير عن الأوضاع التي مرت بها الدعوة الشيعية الاسماعيلية ، حتى تحقق لها اعلان الخلافة وأشار في جملة ما أشار اليه أحقية آل البيت بإرث النبوة ومقاليد الامامة بأخذه ميراث جده النبي وأبيه الوصي (صلوات الله عليهما) . (١)

وفي حين لم يذكر القاضي النعمان في كتابه السابق شيئا عن سب الصحابة (٢) ، عندما دخل عبيد الله المهدي رقادة والقيروان ، ذكرت المصادر السنية أن عبيد الله المهدي أظهر التشيع القبيح ، وسب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه حاشا من ذكرنا منهم قبل قليل انهم مستثنون من ذلك التجريح ويقول المؤرخون أن عبيد الله زعم أن الصحابة عدا أولئك المستثنون ارتدوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم . (٣)

ويذكر ابن عذارى (٤) ومن أخذ عنه أن الشعراء مدحوا عبيد الله (بالكفر) ومنهم الشاعر محمد البديل ، الذي قال فيه مادحا :

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى	حل بها الكش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ربيح

-
- (١) القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ - ٣٩٥
 (٢) لعل هذا شيء طبيعي من القاضي .
 (٣) أنظر قبل ، ص ٥١١ . والحاشية رقم - ١ - من نفس الصفحة
 (٤) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

أما القاضي النعمان (١) فلم يشر إلى أبيات الشاعر محمد ابن البديل تلك ، ولكنه أورد بعضاً من مديح الشاعر سعدون الوريثيني في الخليفة المهدي ، وفي داعيته أبي عبد الله وذلك اثر دخول المهدي القيروان ، ومن جملة ما أنشده :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقد وه أركان كل أمير
هذا الامام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحذور
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور
حتى يفوز من الخلافة بالمني ويفاز منه بعدله المنشور

ولعل البيت الذي يعكس ما ذكره المؤرخون عن رضا الخليفة المهدي بما يقال عن تأليهه ، هو ذلك الذي خاطب فيه سعدون الوريثيني الخليفة المهدي مادحاً داعية أبي عبد الله قائلاً :

أشبهت موسى وهو حيَّك التي تلقى فتلقف كل إفاك مسحور (٢)

ويروى ابن عذارى (٣) ومن نقل عنه أن صيغة القسم الذي كان يُحلف به أيام عبيد الله المهدي ، وخاصة من قبل قبيلة كتامة : (وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برفادة) .

وفيما يتعلق بالتطبيق العملي لفقه العبادات الاسماعيلي ، وأصل الفاطميون في عهد المهدي ما أمر به الداعي أبو عبد الله الشيعي من المناداة : بحى على خير العمل ، وبالجهر بالبسملة . (٤)

(١) افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٠-٣٠١

(٢) افتتاح الدعوة ، ص ٣٠١

(٣) البيان المغرب، ج ١ ، ص ١٦٠

(٤) المالكي : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٥٥-٥٦ ، عياض : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٢٥٣ - الدباغ : المصدر السابق، ص ٢٧٨

ويروى عدد من مؤرخي التراجم الافريقية أن المهدي ودعاته طالبوا الفقهاء والعلماء المالكية في نفس عام ٢٩٧ هـ بضرورة الاعتراف بتفضيل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على كل الصحابة (١)، كما يروى أولئك المؤرخون أن دعاة الشيعة كانوا يطلبون من العلماء بأن يشهدوا أن عبيد الله : رسول الله " (٢) . وفي هذا الصدد يذكر حسن ابراهيم حسن (٣) فيما يروي عن مصادر عدة اعتمد عليها أن دعاة عبيد الله المهدي أسرفوا في الصاق صفات التقديس بال خليفة بأمر منه مثل قولهم : هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحجة الله على خلقه ، وأن بعض الدعاة كانوا كثيرا ما يقولون لبعضهم البعض هو رسول الله . ويقول بعض لبعض آخر : (هو الله الخالق - الرازق) .

ويذكر عبده بدوي - دون أن يذكر سنده - أنه قد قيل عن المهدي (كلام كثير منه أنه ادعى النبوة ، وأنه كان يسمع في مجلسه بالقول بأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليس خاتم المرسلين) (٤)

ويجاري عبد العزيز المجذوب (٥) حسن ابراهيم فيما أشار اليه بل ينقل عنه حرفياً . وقد زاد فقال بأن المقولة الخطيرة السابقة

-
- (١) الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ - ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .
(٢) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٤٩ - الدباغ : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .
(٣) تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ (نقلا عن أبي شامة في كتابه : الروضتين فيما يتصل بالقول : هو الله الخالق الرازق) ١/٢
(٤) مع حركة الاسلام في افريقية ، ص ٤٢
(٥) الصراع المذهبي بافريقية الى قيام لدولة الزيرية ، ص ١٢٠

وهي أن المهدي - معاذ الله - هو الله الخالق الرازق ، قد أشار إليها ابن عذارى ، في حين أننا لم نر في كتاب بن عذارى ما يشير لذلك . ويشير المجذوب (١) أن المهدي بدعائه بالصلاة على شخصه ، قد أدعى النبوة ، كما أنه يذكر بأن المهدي رضى من دعائه أن يؤلهوه ولم ينكر عليهم ذلك .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا التعليق على ماورد من آراء خطيره للكشف عن مدى وقوعها أولا ، بقدر ما يعيننا اظهار ما تردد - ان صححت الروايات تلك - من آراء خطيرة أدت الى ردود فعل غاضبة من المغاربة .

على أن الشيء الواضح للمتتبع لأحداث تلك الفترة وخاصة تلك الممتدة بين عامي ٢٩٧ - ٣١٠ هـ سيلحظ انها كانت فترة صعبة الوطأة على أهل السنة ، فقد أخذ الفاطميون يطبقون بكل شدة تعاليم مذهبهم السياسية والعقائدية والفقهية ، وعاملوا بكل قسوة كل من خالف ذلك حسبما سنعرف بعد ، سواء أفيما يتعلق بالمناداة بحى على خير العمل ، أو بالنسبة لمسألة التفضيل أى تفضيل على بن أبى طالب على غيره من الصحابة ، أو بالنسبة لعدم الافتاء بمذهب غير مذهب الدولة الفاطمية (٢) أو ما رآه المؤرخون من غلو شديد في مدح المهدي وخاصة بعد بنائهم المهدية (٣) ذلك الغلو الذى عبر عنه ابن عذارى (٤)

- (١) الصراع المذهبي بافريقية ، ص ١٦٩ ١٢٠
 (٢) ابن عذارى المصدر السابق ، والجزء ، ص ١٥٩
 (٣) كهذه الأبيات : ليهنك أيها الملك الهمام
 حططت الرحل في بلد كريم
 ومنها : هي المهدية الحرم الموقى
 كأن مقام ابراهيم فيه
 وان لثم الحجيج الركن أضحى
 قدوم فيه للذهر ابتسام
 رعتك لك الملائكة الكرام
 كما بتهامة البلد الحرام
 ثرى قد ميك ان عدم المقام
 لنا بعراص قصركم التثام
 أنظر ابن عذارى : المصدر السابق - الجزء ، ص ١٨٤ .
 (٤) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٤

عندما أورد الشعر بقوله : "فقلت شعرا" افريقية في انتقاله واستيطانه من الشعر ما ذكرنا أبياتا منها ليستدل بما فيها على ما كان يستحله ويجوز عنده من الأشعار) .

وقبل أن نترك الحديث عما جرى في عهد عبيد الله المهدي من ممارسات وتطبيقات لا بد أن نشير الى بعض تصرفات وصفها بحق السيد أبو العزم داود (١) بالحقايات الغربية ، سواء التي أمر بها هو نفسه ، أو تلك التي ارتكبها رجاله ودعااته . فمن بين تلك التصرفات والحقايات الغربية ما أمر به الخليفة - إن صحت الرواية - بتعليق رؤوس حيوانات على دكاكين القيروان وكتب تحت كل رأس اسم صاحبها من الصحابة . ومنها - ولعلها ذات دلالات خطيرة - أنه نصب شخصا سبائياً يسب بأسجاع محفوظة فهم منها سب النبي صلى الله عليه وسلم كقوله - العياذ بالله - ألعنوا الغار وماوعى ، والكساء وماحوى) ، ونحن نستبعد مع السيد أبو العزم (٢) أن يكون هذا بتدبير من المهدي ، فلا يعقل كما يبدو لنا أن يأمر المهدي بسب النبي صلى الله عليه وسلم ، والعياذ بالله ، وهو الذي يعتبر نفسه ابناً له يستمد نفوذه من اسمه عليه الصلاة والسلام .

وفي عهد القائم بأمر الله والمنصور ابنه لم ترو لنا المصادر شيئاً عن الممارسات العملية التطبيقية للمذهب الاسماعيلي سوى بعض الاشارات . ولعلنا لسنا في حاجة الى كبير ذكاء لنستنتج بأن السب يعود في ذلك لإنشغال الخليفين الفاطميين بالثورة الكبرى

(١) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقيا ، ص ٣٠٤

وأنظر تلك التصرفات : عياض ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣١٨

(٢) الأثر السياسي والحضاري للمالكية ، ص ٣٠٥

التي شنها عليهما الثأر الخارجي أبو يزيد مخلد بن كيداد . ولذلك
فقد حاولا كما يظهر ، التخفيف من غلواء تطرف مذهبهما بعدم استشارة
حفاظ أهل السنة . غير أن الرقع اتسع على الخارق فيما يبدو ، فقد
وقف أهل السنة مع أبي يزيد ضد الدولة الفاطمية كما هو معروف .

ومع ذلك فقد أورد لنا ابن عذارى^(١) أن القائم بامر الله وأصل ما قيل
عن والده المهدي من سب الصحابة . كما أنه عامل بشدة
فقهاء المالكية ، من تحدثه نفسه بالتأليف إلا بما يوافق طروحات
الشيعة (٢) - ان جاز هذا التعبير - .

أما في عصر المنصور وهو الذي تصدى للقضاء على ثورة أبي
يزيد حتى أفلح أخيراً ، فيبدو أن تطبيقات الشيعة لأسس مذهبهم
لم تنقطع - وان لم تشر المصادر صراحة إلى انقطاعها أو استمرارها - .
وما قد يتبادر للأذهان من أن تحالف أهل السنة مع أبي يزيد وخروجهم
على الدولة الفاطمية قد تم في عهد المنصور لا يصح ان يعتبر دليلاً ،
فلقد كان خروجهم في عهده نتيجة لتراكمات السنين منذ عهد المهدي . وقد
استغلوا ثورة أبي يزيد للوقوف في وجه الشيعة . والاثار التي أشار
إليها مؤرخو التراجم والطبقات كدليل على مواصلة الخليفة المنصور لتطبيق
مبادئ مذهبهم ، هو تشدده في مسألة تحديد بداية شهر الصوم ونهايته
ومعاقبة كل من يخالف ذلك (٣) كما سنعرف بعد قليل .

(١) البيان المغرب، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) انظر بعد ، ص ٥٣٣ .

(٣) مثلما جرى لقاضي برقة أبو عبد الله محمد بن إسحاق الجبلي

في سنة ٣٤١ هـ ، أنظر الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ،

ص ٤٧ .

أما في عهد المعز ، فقد نحي في تطبيق مبادئ المذهب الاسماعيلي ورفع شعاراته منحي خطيراً . ولقد حمل كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على المعز لدين الله ، وقد رأوه يرضى بصفات وألقاب يوسم بها لا تليق بالبشر . فبالنسبة للدعاء لشخصه ، فقد استمر اطلاق لفظ (صلى الله عليه وسلم) ولفظ (عليه السلام) على الخليفة من رجاله ودعائه^(١).

ويشير ابن عذارى بان معداً ، وهو اسم المعز لدين الله (ادعى النبوة ، وجعل من ينادى فوق صومعة القيروان : أشهد أن معداً رسول الله ، فارتج البلد لذلك ، وداخل أهله الرعب)^(٢) . ولقد عاد ابن عذارى^(٣) . فأكد بعد ثلاث صفحات من كلامه السابق على ادعاء الخليفة المعز للنبوة من على صومعة القيروان ، غير أنه ذكر بأن الرعب قد داخله هوأي داخل المعز عندما لمس الضجة الكبرى التي أثارها ادعائه ذلك .

(١) أنظر القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٣ - ٣٣٩ - سيرة جعفر ، ص ١١٩ ، ١٢١ حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المعز لدين الله (وقد تردد لفظ صلى الله عليه وسلم ولفظ عليه السلام في كل صفحة ورد فيها ذكر المعز عند مؤرخي الشيعة وخاصة القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسابرات الذي اعتمد عليه المؤلفان في كل صفحات الكتاب تقريباً) . وكتاب المجالس والمسائرات يعتبر سيرة ذاتية للمعز تابعها القاضي النعمان متابعة معاصر يوماً بيوم وحدث بحدث كما صرح بذلك في الكتاب ، وكما صرح في اختتامه لكتاب افتتاح الدعوة ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ - عن عزمه عن تأليف ذلك الكتاب الذي هو المجالس والمسائرات . وبالطبع فقد كانت تلك الكتب والسير معروفة لدى أهل السنة بالمغرب الأدنى آنذاك .

(٢) البيان المغرب، ج ١ ، ص ٢٨٢

(٣) البيان المغرب، ج ١ ، ص ٢٨٥

د. محمد

أما عبد العزيز المجذوب (١) فيقول بأن المعزل لم يكتف بادعاء النبوة ، بل قد تأله فعلاً وادعى الربوبية علناً . وفيما يتصل بالتطبيق العملي لفقه العبادات الاسماعيلي . فقد وأصل المعزل تطبيق مبادئ مذهبه الفقهية فيما يتعلق بالدعوة بحى على خير العمل وبالجهر بالبسملة والتكبير على الجنائز خمساً . الخ . (٢)

بيد أن النعمة الكبرى التي تعرض لها المعز سواها من أهل السنة ، أو من المؤرخين القدامى ومن بعض الباحثين المحدثين ، كانت بسبب سكوته ، بل قبوله ورضاه عن قصائد المدح التي قيلت فيه من شاعره الأشهر ابن هانى الاندلسي . فقد رأى فيها هوالاً كقرا بواحا ، وهى قصائد عديدة سنعرض لها بعد ان شاء الله .

غير أن أشهر ما أثار النعمة على المعز - وهى نعمة صادقه في موضعها - بضعة أبيات أغرق ابن هانى فيها في إضفاء صفات التقديس على المعزل لدرجة رفعته فوق منزلته البشرية . ومن بين تلك الأبيات الاشد خطورة وإغراقاً :

فكأنما أنت النبی محمد وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار (٣)

(١) الصراع المذهبي بافريقية ، ص ١٧٠

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٢٤
(وذلك في منشور أصدره الى ائمة المساجد في كافة أنحاء البلاد عام ٣٤٩ هـ)

(٣) من القصيدة الرائعة : أنظر ابن هانى الاندلسي : ديوان ابن هانى الاندلسي ، تحقيق اكرم البستاني ، ص ١٤٦ - ١٥٣

وكذلك : (١)

أقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخر السعوات العلا وتنزل القرآن من فيك مدحا

ومن قصيدة أخرى : (٢)

وعلمت من مكنون سر الله ما لم يوت في الملكوت ميكائلا
لو كان آتى الخلق مأوتيته لم يخلق التشبيه والتأويلا

ومن هذه القصيدة :

لولاك لم يكن التفكير واعظا والعقل علما والقياس دليلا
لو لم تعرفنا بذات نفوسنا كانت لدينا عالما مجهولا

وفي الحق فان تلك القصائد وما جاء فيها ، كانت تعبيرا
عن آراء الشيعة في الأئمة حسبا أشرنا الى ذلك من قبل وأوضحنا
مقدار نظرهم المقدسة للامام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى
فبعضها تعبير كذلك عن الجانب العقائدي من مذهبهم الذي يتعلق
بأسماء الله وصفاته التي جعلوها للعقل الكلي الذي يعنى الصمد
الأول .. الخ تلك الآراء البدعية .

واذا ما ذهبنا نتقصى التطبيقات العملية للمذهب الشيعي الاسماعيلي
في عهد الزيريين أو الصنهاجيين منذ رحيل المعز الى مصر عام
٣٦٢ هـ وحتى عام ٤٤٠ هـ ، وهو العام الذي قطع فيه المعز بن باديس

-
- (١) من القصيدة الحائية ، أنظر ابن هانيء الاندلسي ، نفس الديوان
السابق ، ص ٧٥ - وما بعدها .
- (٢) من القصيدة اللامية انظر ابن هانيء الاندلسي : نفسه ص ٢٥٦
وما بعدها .

الخطية للفاطميين في افريقية وخطب للعباسيين ، فان ما يمكن ملاحظته هو أن الزيريين كانوا مدفوعين - حتى ولو على غير اقتناع - بالدعوة على المنابر للخلفاء الفاطميين في مصر بنفس النمط الذي سارت عليه الخلافة الفاطمية ، بأن مكوثها في المغرب . وفي عهد بلقين أوبلكين بن زيري الذي تولى حكم افريقية بعد رحيل المعز مباشرة حرص على أن يستمر في الدعوة للمذهب الشيعي ، كما تشدد في قضايا النزاع مع فقهاء المالكية كقضية التفضيل وغيرها^(١) . والحرص على تهئية المناخ الصالح لنشر المذهب الشيعي استمر كذلك في عهد خلفائه وان كان على درجات متفاوتة .

بيد أن الشيء المؤكد ، هو أن عهد الزيريين تميز بالفتور في الولاء للمذهب الشيعي . فعدا ما ذكرنا بعاليه ، لم نر منهم حرصا على تطبيق مبادئ الشيعة الاخرى ، وخاصة في جانب فقه العبادات . (٢) ولا ريب في أن لذلك العديد من العوامل التي لاحظناها بكل دقة المؤرخون المحدثون والتي سنشير الى بعضها عند التعرض لردود فعل المغاربة تجاه الصراع العنيف مع الشيعة .

-
- (١) أنظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٣٢-٣٣٣ .
(٢) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الاول من الرياض : ص ١٩ م -
٢١ م - حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٣٤-٣٣٧ -
عبده بدوي : المرجع السابق ، ص ٨٣ - ٨٥ - اسماعيل العربي : دولة بني حماد : ص ١٠٧ - ١١١ - عبد الحليم عويس : دولة بني حماد : ص ١٦٧ - ١٦٩ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ ،
الفرد بل : المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٥ .

ب - موقف فقهاء المالكية من المذهب الشيعي والدولة الفاطمية :

بعد أن أوضحنا شيئا عن أهم معتقدات المذهب الاسماعيلي وما طبقوه منها على أرض الواقع في افريقية . علينا ان نستعرض بإيجاز مواقف الفقهاء المالكية ، وهم من هم في تشدد هم وكرههم للبدع والضلالات ، وبعدهم عن التفلسف والتتظير الذي تميز به المذهب الاسماعيلي .

لانزاع في أن المغاربة قد وقفوا في وجه الخلافة الفاطمية ودعاتها ، مواقف متشددة لا هوادة فيها ، فلم يهنوا ولم يضعفوا وقاوموها بشتى انواع المقاومة ، بالمواجهة الشديدة تارة ، وبالمعارضة الصامتة تارة ثانية ، وبالمداواة والتقية الثالثة وبالمواجهة المسلحة تارة رابعة ، وبالمقاطعة وعدم ملاءمة من يخضع لنفوذها ويضعف تارة خامسة ، واخيراً بالقلم والحجة والبرهان . (١)

وكتب التاريخ المغربية وكتب التراجم والطبقات الافريقية التي تناولت الأحداث في الدور المغربي من عصر الخلافة الفاطمية ، ثم في العهد الزييري تكلمت عن تلك المواقف باستفاضة أحياناً وبإيجاز أحياناً أخرى ونحن هنا لن نتحدث عن تفاصيل تلك المواقف التي نسبت بين الفريقين : السنة والشيعية ، لأن ذلك لا يبرهننا كثيراً . ولعل

(١) جمع أحد الباحثين وهو أبو لبابة حسين تلك المواقف التي وقفها فقهاء المالكية ضد الدولة الفاطمية ، ثم ضد دعائها في العهد الزييري في كتاب اسماءه (موقف متصوفه افريقيه وزهادها من الاحتلال العبيدي) تناول فيه بالحد يث شتى تلك المواقف بروح لا تخلو في الحقيقة من التعصب .
عن تلك المواقف أنظر : أبو لبابة حسين : نفس المرجع اعلاه ، ص ٥ - ٩٥ .

ما يهمننا منه هو الجانب العلمى من تلك المواقف كما هو مفهوم . على أن ذلك لا يتسق إلا بالحدوث عن أهم جوانب تلك المواقف التى ذكرناها آنفا .

وفي الحق فان المغاربة وعلى رأسهم الفقهاء المالكية ، عارضوا الخلافة الفاطمية منذ أن بسطت نفوذها على بلادهم ولقد عبر العامة عن ادعاء الخليفة عبيد الله المهدي الغيب الذى يرافق ذلك القسم الذى كان يحلف به رجال كتامة ، والذى أشرنا اليه سابقا بطريقة ذكية تفضح ادعاءات عبيد الله المهدي تلك . فكان أن احتالوا على وضع بيتين من الشعر لهما دلالتهما بين يدي المهدي من حيث لا يشعر . وقد عبر البيتان أصدق تعبير عن تهكم العامة بتلك المسألة . وهذان البيتان هما :

بالجور قد رضينا لا الكفر والحقاقة
يا مدعى الغيوب من كاتب البطاقة (١)

كما أن الناس لا بد أن يكونوا قد تأثروا وقتذاك بما ثار من تشكيك حول مهدوية عبيد الله التى كان داعية أبو عبد الله قد أشار إليها . (٢) ولقد رآع الناس ذلك ، وراعهم كذلك تخلُّص عبيد الله من داعيته —هـ أبى عبد الله الذى قامت دولة عبيد الله على أكتافه ، وذلك بقتله هو وأخيه (٣) . وأثار عبيد الله الشكوك حوله كذلك عندما تخلص أيضا

-
- (١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠
(٢) أنظر القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ١٥٨ - ابن عذارى نفس المصدر السابق ، والجزء اعلاه ، ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر اعلاه ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وانظر ما قاله قاتله له عندما همَّ بقتله فقد قال ان الذى أمرني بقتلك هو من أمرت الناس بطاعته ، وانخلعت من الملك بعد توطئته .

من أقرب معاونيه من كتامة الذين تعاطفوا مع الداعي أبي عبد الله (١). هذا بالإضافة الى ما شهدوه من تطبيق عملي في جانبى الفقه والمعاملات ، لم يألوه ويعرفوه عن الشريعة الا سلامة النقية الواضحة

أما الفقهاء ، وقد لمسوا الدلالات الخطيرة لمبادئ الشيعة الاسماعيلية ، وخاصة تلك التى طبقوها عمليا كما عرفنا سابقا فقد افزعهم ذلك ، فوقفوا تلك المواقف التى ذكرناها قبل قليل ، ولعل أول تلك المواقف التى واجه بها فقهاء المالكية الشيعة هى مواقف المواجهة المباشرة المتشددية . وفي هذا الصدد تحمّل الفقيه جبلة بن جمود الصدفى (ت ٢٩٧هـ) عبء تلك المواجهة الشديدة . فقد ارتفع صوته مستنكرا مبادىهم ومعلنأ (كفرهم) أى كفر بنى عبيد الله كما كان يطلق على الفاطميين وقتذاك (٢). كما أن مما ينسب اليه : إبتدأه الى مقاطعة صلوات الجمعة في مسجد القيروان وغيره من المساجد وذلك عند ما تبين له ما يتم فيها من قبل مؤذنى وخطباء الدولة الفاطمية (٣).

(١) القاضى النعمان : نفسه ، ص ١٦٧ وما بعدها ابن عذارى : نفسه ص ١٦٧ ، ١٧٢ .

(٢) ما يدل على ذلك ، ان عبيد الله المهدي لما دخل مدينة رقادة ترك جبلة سكنى قصر الطوب في ضواحي مدينة سوسة وجاء الى القيروان ، وعندما سئل عن ذلك ، قال (كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر ، والان حل هذا العدو مساحتنا ، وهو أشد علينا من ذلك) ولذلك فقد كان يقوم يوميا بدور الحراسة للقيروان ويقف تجاه مدينة رقادة من الصباح حتى المساء ، ثم يعود الى داره ويقول (أحرس عورات المسلمين منهم فاذا رأيت منهم شيئا حركت المسلمين عليهم). وكان كثيراً ما يصرح بأن جهاد هؤلاء القوم (أى الفاطميين أفضل من جهاد أهل الشرك) .

أنظر عياض : المدارك ، ج ٢ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ عياض : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٢٥٢ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ويعلق المالكي (١) على تصرف جبلة ذلك بقوله (فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم ، وهو أول من نبه على ذلك) . ويذكر مؤرخو ترجمته أنه رغم كل مواقفه منهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء تجاهه . (٢)

وممن وقف من الشيعة ومذهبهم مواقف متشددة مدافعا عن الشريعة النقية الواضحة التي لا غموض فيها عدد من فقهاء البلاد الذين عاصروا عنفوان المد الشيعة ، فكان أن تصدوا لذلك ، وقد واجهت الدولة الفاطمية موقفهم العدائي ذلك بقسوة بالغة ، فحكمت على عدد منهم بالقتل ، وضربت بعضا آخر ونكلت به وسجننت فريقا ثالثا ، ثم مالبت أن أجبرته بترك الفتيا بمذهب مالك وبالتعهد بعدم القا الدروس .

وقد أورد مؤرخوا التراجم والطبقات أسماء كل أولئك الفقهاء فمن الذين ذهبت أرواحهم فداء الشريعة والسنة الفقيهان : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون ، والفقيه أبو بكر بن هذيل ، اللذان قُتلا عام ٢٩٧ هـ في عهد الخليفة المهدي ، لأنهما رفضا ان يشهدا بأن المهدي (هو رسول الله) كما طالبهما دعائه بذلك حسيما تشير الى ذلك كتب الطبقات المغربية . (٣)

- (١) رياض النفوس : ج ٢ ، ص ٤٣
(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣٨ - عياض : نفسه ، ص ٢٥١ ، وغيرهما
(٣) هذا ما ذكرته المصادر السنية المغربية ، أنظر عن هذا مثلا المالكي ، ج ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٥ ، ٢٦٦ - ٢٦٨ أما أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ط ١ ، ص ٢٩٥ غقد أشار الى مقتل الفقهاء فقط دون أن يشير الى اسباب قتلهم . ولا بد من التنبيه هنا الى ان المالكي : والدباغ ومعه ابن ناجي مكمل ومعلق الكتاب قد أشاروا الى انه حادثة مقتل الفقهاء كانت عام ٢٩٩ هـ وهذا في الحقيقة وهم منها فالحادثة وقعت عام ٢٩٧ هـ كما أشار أبو العرب التميمي وكما أشار محقق الجزء الثاني من الرياض بشير البكوش في حاشية رقم (١) ص ٤٧ ومحمد الاحمدى أبو النور ، ومحمد ماضور محققا الجزء الثاني من المعالم ، حاشية رقم (١) ص ٢٦٤

ومن أولئك الذين قتلوا كذلك في عهد الخليفة المهدي،
الفقيه محمد بن ابراهيم المعروف بالسنجري وحسن بن مفرج اللذان
ضربا بالسوط ، ثم قتلًا بالرماح عام ٢٩٩ هـ ، لانهما كانا
يفضلان بعض الصحابة على بن ابي طالب رضى الله عن الجميع . (١)

ومنهم أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري
الذى قتل عام (٣٠١ هـ) (٢) وعروس الموءذن (ت ٣١٧ هـ) الذى
قتل لانه لم يقل في اذانه عبارة : حى على خير العمل (٣) . ومنهم
ايضا ابو القاسم بن مفرج ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله
السدرى وقد قتل عام (٣٠٩ هـ) في عهد الخليفة المهدي . (٤)

وممن ضرب ضربا مبرحا نظرا لمواقفة المتشددة ، عدد من
الفقهاء ، وذلك في عهدى الخليفتين المهدي والقائم بأمر الله
أبرزهم : أبو عبد الله محمد بن العباس الذهلى المعروف بدعده
(ت ٣٢٩ هـ) وقد ضرب لانه (كان شديد البغض لبني عبيد

-
- (١) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ -
ابن عذارى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ١٨٧ (وعنده
انهما قد قتلًا عام ٣٠٩ هـ)
(٢) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢ - ٥٤ -
الدباغ : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٨٨ -
٢٩٢ هـ .
(٣) أبو العرب : نفس المصدر اعلاه ص : ٢٩٤ - المالكي : نفسه
ص ١٥٢ - الدباغ : نفسه ، ج ٣ ، ص ٥ .
(٤) المالكي : نفسه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٦٦ - ١٧٥ .

كثير السبِّ لهم لا يخاف في الله لومة لائم (١) ، ولأنه كان يفتى بمذهب الامام مالك (٢) . وأبوجعفر أحمد بن الثمار (ت ٣٢٩ هـ) ، وقد ضرب ايام الخليفة المهدى هو وأخوه . (٣) .

وكذلك : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالفلانسي (ت ٣٦١ هـ) وقد (امتحن على يد أبي القاسم بن عبيد الله الرافضي ، ضربه سبعمائه سوط وحبســـــــــــــــــه في دار البحر أربعة أشهر بسبب تأليفه كتاب الإمامة) كما يقول عياض في مداركه . (٤)

كما لجأت الخلافة الفاطمية الى سجن بعض العلماء الذين وقفوا منها موقفاً عدائياً ، فلم يرضوا بأن يفتوا بمذهبها ، بل أصروا على الفتوى بأحكام مذهبهم المالكي ، ولم يكتفوا بذلك بل واصلوا عقد حلقات الدروس في المساجد وغيرها . ومن أبرز هؤلاء نذكر الفقيه المالكي المشهور أبو بكر محمد بن وشاح اللباد (ت ٣٣٣ هـ) فقد سجنوه فترة من الزمن ، ثم أطلقوا سراحه على أن لا يفتى بمذهب مالك ولا يعقد حلقات الدرس لا في بيته ولا في المساجد . (٥)

-
- (١) عياض: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٥
 (٢) عياض: نفس المصدر والجزء والصفحة اعلاه .
 (٣) عياض: نفسه، ص ٣٣٨ - ٣٣٩
 (٤) الجزء الثاني، ص ٥٢٤
 (٥) المالكي: المصدر السابق ج ٢، ص ٢٨٧ (عن منعه من الفتوى والسماح واجتماع الطلبة) عياض: نفسه ج ٢، ص ٣٠٩ - ٣١٠

على أن بعض فقهاء البلاد ، فضل اللجوء الى المداواة والتقية لمواجهة المذهب الشيعي والدولة الفاطمية ، ومن أولئك الذين فضلوا ان يلوذوا بمذهبهم السني تحت شعار التقية والمداواة أبو محمد يونس بن محمد الورداني (ت ٢٩٩ هـ) حيث فضل الاستتار تحت مهنة رعي البقر ، على أن يسلم للشيعنة بمطالبهم (١) ، ومنهم الفقيه أبو بكر القمودي الذي فضل مداواة الشيعة عندما لمس غضبهم الشديد منه وتهديدهم اياه نظرا لمواقفة التي كان قد وقفها من قبل من المذهب والدولة . (٢)

بيد أن أخطر تلك المواقف بلاشك هي المواجهة المسلحة ضد الدولة والمذهب الشيعي التي عكست بصدق نظرة علماء وفقهاء المالكية للمذهب الشيعي ورجالاته هذه المواجهة التي هيا لها حدث داخلي خطير ، واجه الدولة الفاطمية كساد أن يطيح بها . نعننى بذلك ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد التي أتاحت السبيل لفقهاء المالكية للمواجهة المسلحة مع المذهب الشيعي والدولة الفاطمية على نحو ما سنعرف على التو .

ذلك أنه في عهد الخليفة الفاطمي الأول المهدي شهدت الخلافة في عام ٣١٦ هـ (٣) بداية تمرد خارجي ابا ضى مالبث

(١) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٤٥ - ٤٦
(٢) الخشني : كتاب طبقات علماء افريقية الوارد ضمن كتاب ابي العرب التميمي : كتاب طبقات علماء افريقية ، ص ٢١٤ .

(٣) هذا ما أعتمد عليه محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٢٤١ ، (نقلا عن ابن حماد في أخبار بني عبيد ، وابن الاثير في الكامل) - صالح باجيعة : المرجع السابق ، ص ١١٧ (نقلا عن ابن حماد والدرجيني في الطبقات) . كما ان ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ١٩٣ ، اعتمد هذا التاريخ كبداية لتمرد ابي يزيد .

أن تحول الى ثورة عارمة قادها رجل بربري اباضى المذهب ومن فرقة النكارية التي انقسمت عنها الاباضية في المغرب، ويعرف ذلك الثائر البربري بأبى يزيد مخلص بن كيداد اليفرنى الزناتى المعروف تاريخيا بصاحب الحمار لاشتهاره بركوبه. (١) ويعرف كذلك بابى يزيد فقط .

وأياً ما كانت الأسباب التي دفعت بأبى يزيد للتمرد فالثورة ضد الدولة الفاطمية (٢) فان الدافع الرئيسى المعلن هو استنكار مبادئ الشيعة الاسماعيلية وتطبيقاتهم العملية لها. (٣) ومن هنا أعلن تمرد وثورته على الدولة الفاطمية ، واقد زادت ثورته اشتعالا في عهد الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله . وبدا كما لو أن الخلافة الفاطمية ستتهوى بين يديه في عهد القائم ، غير أن ثورته تلك ما لبث أن قضى عليها الخليفة الفاطمى الثالث اسماعيل المنصور عام ٣٣٧ هـ ، بعد أن أفلح في القبض على أبى يزيد الذى مات بعد قليل متأثرا بجراحه .

(١) لاشتهاره بركوب الحمار في أول أمره ، أنظر مثلا : ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، ص ٥٦ - ٥٧ - عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٨ - محمد الشاذلى ، دولة صاحب الحمار ونقوده ، وهو بحث قدمه الى المؤتمر الرابع للآثار الذى نظمته جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ ، ص ٥٨٥ -

٥٨٩ - ٥٩٢ .

(٢) عالج محمود اسماعيل عبد الرازق : كل ما قيل عن الأسباب التى دفعت بأبى يزيد والخوارج الاباضية للثورة ، سواء ما ذكره المؤرخون المسلمون أو المستشرقون ، وهى الأسباب التى تعددت مناهيها من اسباب اجتماعية الى اسباب حضارية الى اسباب مذهبية الى غير ذلك .

أنظر محمود اسماعيل عبد الرازق : نفس المرجع السابق

ص ٢٣٦ - ٢٣٧ مع الحواشى
(٣) هذا ما يعتبره محمود اسماعيل : نفسه ، ص ٢٣٧ ، الاعتبار الاول في ثورة أبى يزيد مع عدم نفيه لتأثير بقية تلك الاسباب التى أوردها كذلك ، وهذا ايضا ما يؤكده ويصر عليه مؤرخ اباضى معاصر وهو سليمان بن الحاج داود بن يوسف الصوخرى الجزائى ، فهو يعتبر ثورة أبى يزيد ثورة جهاد في سبيل الله وقد صنف كتابا بعنوان : ثورة أبى يزيد جهاد لاعلاء كلمة الله . أنظر سليمان بن الحاج داود : نفس المرجع أعلاه ص ٢٣ - ٢٥

ولعل الأمر الذى يعنيننا من تلك الثورة هو ما وقع إبانها من تحالف بين السنة وعلى رأسهم فقهاء المالكية بين أبى يزيد للقضاء على المذهب الشيعى والدولة الفاطمية ، وقد وقع ذلك التحالف عام ٣٣٣ هـ ، عندما عول أبو يزيد على الاستيلاء على مدينة القيروان توطئة للقضاء المبرم على الدولة الفاطمية فى المهدية . (١)

ولقد نظر فقهاء المالكية الى انضمامهم لابی يزيد من جهة ومحاربة الدولة الفاطمية من جهة أخرى بنظرة دينية ، ذلك أنهم رأوا أن الخروج مع أبى يزيد (متعين لكفر بنى عبید) (٢) ولأن أبى يزيد الخارجى الاباضى من أهل القبلة كما يرون . ولذلك فقد وجب الخروج على أولئك الذين لا يمكن اعتبارهم من أهل القبلة . (٣)

وعلى الرغم من ذلك ، فان فقهاء المالكية كانوا لا يرون الدخول فى طاعة أبى يزيد مخلد بن كيداد لو قدر له الانتصار على الشيعة فلعل الله يسلط عليه اما ما عاد لا يخرجهم عنهم . (٤)

وصرح أحد الفقهاء وهو أبو الفضل المسمى آنذاك بأن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين ، ذلك لأنهم

(١) كان المالكي : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٢-٣٤٦ - وعياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٨-٣٣١ - هما خير من عالج مسألة تحالف فقهاء المالكية مع أبى يزيد وما تمخض عن ذلك التحالف من أحداث .

(٢) عياض : نفس المصدر السابق ، والجزء أعلاه ، ص ٣١٨

(٣) وهذا رأى الفقيه ابواسحاق السبائي بصفة خاصة ووافق عليه بقية الفقهاء .

أفظر عياض : نفسه ، ص ٣١٨

(٤) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٩

قد قرأ القرآن الكريم من أوله الى آخره ، فلم يجد فيه ما يوجب القعود .
كما أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي فرض لازم في رأيه (لأن الخوارج
من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام ويورثون ويورثون وبنوا عبيد ليسوا
كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الاسلام ، فلا يتوارث معهم)
ولا ينسب اليهم (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد عزم فقهاء المالكية وعلى رأسهم
عدد من أبرز فقهاء ذلك الوقت كأبي الفضل الممسي ، وأبي
العرب التميمي ، وربيع القطان ، وأبي اسحاق السبائي وغيرهم
على الخروج مع أبي يزيد في حربه ضد الفاطميين وبالفعل فقد واجهوا
مع أبي يزيد جموع الشيعة في موقعة عرفت بموقعة وادي الملح
عام ٣٣٣ هـ . ولقد انتهت المعركة باستشهاد حوالي ثمانين عالما
منهم أولئك النفر المذكورين (٢) آنفا . وينسب المؤرخون الى أبي
يزيد مخلص بن كيداد تعمده التقاعس في المعركة . مما كشف أهل
السنة وأدى الى انتصار الشيعة عليهم (٣) .

ومن المناسب هنا أن نشير الى أن استعدادات فقهاء
المالكية لمواجهة الشيعة ، وما اتسمت به تصرفاتهم آنذاك ، جاءت
تعبيراً صادقا تعبير عن وجهة نظرهم في الشيعة ، سواء في

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨
(٢) المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ،
وأنظر الحاشية رقم ٣ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ . بقلم المحقق ،
فهذه ذات أهمية عظيمة في توضيح زمان ومكان المعركة - عياض :
نفس المصدر السابق اعلاه ، والجزء ، ص ٣١٩ - ٣٢١ - والديباغ
المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠ - ٣٦ .
(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢١ - ابن عذارى : المصدر السابق
والجزء ص ٣١٨ .

الخطبة التي خطبوها وقتذاك والتي أعلنوا فيها كفر بنى عبيد وشرعية مقاتلتهم (١) أو ما كتبوه على البنود من آيات بينات وأقوال توسم الشيعة بالكفر والمروق عن الاسلام . (١)

- (١) جاءت الخطبة بتفصيل واسع عند المالكي . ومنها ان الفقيه الخطيب خطب يوم الجمعة من عام ٣٣٣ هـ على المنبر فحرض الناس على الجهاد ، وما يعده الله للمجاهدين ، مضمناً خطبته العديد من الايات التي تحتللي الجهاد ثم قال (يا أيها الناس جاهدوا من كفر بالله ، وزعم انه رب من دون الله تعالى وغير احكام الله عز وجل ، وسب نبيه واصحاب نبيه وأزواج نبيه) ثم اخذ يرمي عبيد الله المهدي بالكفر وادعاء الربوبية ، والطعن على الرسل والتكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم ، والسب له ولاصحابه وازواجه ، ثم اخذ يستمطر عليه (اللعنات) والخزى ، ودعا عليه وعلى شيعته . . الخ وأنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤
- (٢) من ذلك أن بيع السقطان وهو واحد من أبرز من استشهد في تلك المعركة خرج معه بندان أي علمان : الأول مكتوب فيه لا اله الا الله محمد رسول الله ، والثاني المكتوب فيه (نصر من الله وفتح قريب) (سورة الصف آية ١٣) على يد آل يزيد ، اللهم انصره على من سب نبيك) ثم بند ثالث مكتوب فيه " قاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلمهم ينتهون " (سورة التوبة آية ٢) وكتب الفقيه مروان الزاهد على بنده " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدورهم " (سورة التوبة آية ١٤) .
- وكتب الفقيه ابو الحسن السبائي على بنده بعد البسملة (لا اله الا الله محمد رسول الله ، (أبو بكر الصديق) (عمر الفاروق) وكتب الفقيه ابراهيم بن العمشاء على بنده (لا اله الا الله محمد رسول الله " لا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا " (سورة التوبة آية ٤٠)
- انظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ عياض : نفسه ، ص ٣٢٠ - ٣٢١

على أن فقهاء المالكية وقد انجلت الامور عن مقتل العديد منهم لم يهينوا ولم يضعفوا ، فقد عادوا يقفون من الدولة الفاطمية مواقفهم المتشددة السابقة ، كما أنهم لجأوا الى مقاطعة وعدم موالاته رجالا لدولة والمتغربين منها . (١) وواصل البعض منهم تحديه بعدم تنفيذ أوامر الشيعة بتطبيق بعض اتجاهاتهم الفقهية التعبدية . ومن أولئك القاضي أبو عبد الله محمد بن اسحاق الجبلى الذى قتل عام ٣٤١ هـ في عهد الخليفة اسماعيل المنصور لرفضه ان يفطر الناس حتى تتحقق الرواية (٢) أى رواية هلال العيد ، ولقد وجد من العلماء من رأى ضرورة مداراة الشيعة واتقاءهم وخاصة فيما يتعلق بأمر المناداة بحى على خير العمل كالفقيه على بن محمد بن مسرور الدباغ (ت ٣٥٩ هـ) (٣)

وفي العهد الزيرى الذى بدأ فور مغادرة المعز لدين الله الفاطمى المغرب عام ٦١ - ٣٦٢ هـ ، واصل فقهاء المالكية اعلان رأيهم في الشيعة . وقد جاهدوا بالعديد من الآراء التى رموا فيها الفاطميين بالكفر البواح (وبلعنهم) وأن حالهم حال المرتدين والزنادقة . وحرموا التعامل معهم أيا كانت صيغة

-
- (١) أنظر مثلاً عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ -
٣٦٤ - ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٨ - ٣٧٩ ، ٣٨١ -
٣٨٤ - ٣٨٩ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧
(٣) عياض : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ٥٢٧ -
الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ٧٥ - ٧٦ .

ذلك التعامل . (١) ولقد دعاهم هذا الى مقاطعة كل من تسول له نفسه من الفقهاء والدفاع عن الفاطميين ، كما حدث من مقاطعتهم للفقهاء البراذعي الذي ألف كتابا في نسب بني عبيد كما سبق وان ذكرنا عند محدثنا عن الفقه . (٢) ولم يكتف فقهاء المالكية بذلك ، بل عارضوا كل من يتصدى للتشكيك فيما ينسب للفاطميين من كفر ، كما فعلوا مع الفقيه ابي اسحاق ابراهيم بن حسن التونسي (ت ٤٤٣ هـ) عند ما أفتى بأنه لا يجب تكفير كل الشيعة ، فمع ان هناك فريقا منهم كافر مباح الدم الا ان هناك فريقا آخر وهم الذين يذهبون الى تفضيل علي بن ابي طالب على الصحابة لا يجب تكفيرهم . وقد قاد هذا الفقهاء الى التشدد مع هذا الفقيه والطلب منه التبرؤ من أقواله على ما سنعرف بعد ان شاء الله . (٣)

أما عن موقف الزيريين من المذهب الشيعي الاسماعيلي والدعوة اليه فقد وصلوا رسميا تطبيق مبادئ المذهب في الأمور الحياتية والجوانب التعبدية (٤) . غير أنهم ابتداء من عهد ثاني امراءهم وهو المنصور بن بلكين قد أخذوا يوازنون بين الالتزام بالمذهب الشيعي ، وبين كره ورفض أغلبية السكان لهم . واخيرا

(١) انظر تلك الآراء التي صرح بها الفقهاء ابوا سحاق الجيتاني (ت ٣٩٩ هـ) وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٧٩ هـ) وأبو بكر اسماعيل بن عذرة (كان معاصرا لابن ابي زيد) وأبي الحسن القاسمي (٤٠٣ هـ) وأبو القاسم بن شبلون (كان معاصرا لابن ابي زيد) وأبو محمد بن الكراني (كان معاصرا لابن ابي زيد) وأبو نصر الداودي (٤٠٧ هـ) وغيرهم عند عياض : نفسه ، ص ٥١٣ - ٥١٥ ، ٧١٨ - ٧٢٠ .

(٢) انظر قبل ص ٣٧٥

(٣) انظر بعد ص ٥٧٣

(٤) انظر ما قلناه عن الالتزام الزيري : المذهبي والرسمي قبل

رأوا ان يكسبوا ثقة الغالبية الكبرى للحفاظ على نفوذهم . ومن هنا فقد بدأوا يتحللون تدريجيا عن الانتماء المذهبي للخلافة الفاطمية مع الحرص على الحفاظ على الانتماء السياسى لها .

ولقد أسهب كثير من المؤرخين المحدثين في شرح أبعاد تلك الخطوات وتوصلوا بحق الى القول بأن الفتور في الانتماء المذهبي هو ما طبع العهد الزيرى وخاصة عهود المنصور بن بلكيس وباديس ابنه ، ثم المعز بن باديس بن المنصور (١) . ومما ينسب للمنصور من مواقف تجاه بعض المبادئ الشيعية ، موقف له دلالتة حيث ذكر بآته رفع اليه عام ٣٨١ هـ بان شخصا قذف بعض الصحابه رضى الله عنهم فأمر بقتله وصلبه . (٢) كما ان مما ينسب للمعز من دلالة على التحول المذهبي هو تعمده عام ٤٠٧ هـ مخالفة الشيعة الذين يكرهون ويسبون أبا بكر وعمر بن الخطاب ، فكان أن ذكرهما بخير وترضى عنهما ، الأمر الذى فهمه الناس وكأنه إشارة الى تبذل حقيقى حيال الشيعة ، فبدأوا بها جمونهم ويقتلونهم ابتداء (٣) من ذلك التاريخ وحتى الانفصال السياسى والمذهبى عن الخلافة الفاطمية بعد ذلك .

ومهما يكن من أمر فان الشئ الذى لاجدال فيه هو أنه كان لمواقف فقهاء المالكية الاثر الأكبر في ذلك التحول في الانتماء المذهبى نهائيا عن الخلافة الفاطمية عام ٤٤٠ هـ (٤) ، والرجوع الى المذهب المالكى مذهب الأغلبية الذى ظل منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى الان المذهب الوحيد للأغلبية العظمى للمغاربة

(١) انظر ما ذكرناه عن ذلك الفتور المذهبى ، قبل ص ٥٢٧

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦

(٣) الطاهر احمد الزاوى تاريخ الفتح العربى في ليبيا ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، وتجاوزنا رواية ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ٢٧٤ التى يقول فيها ان المعز خرج في بعض الاعياد الى المصلى فكتبه جواده فقال عند ذلك (ابوبكر وعمر) مما اغضب الشيعة فهموا بقتله لكن عبيده ورجاله ومن كان يكتنم السنة قاموا عليهم فقتلوه شر قتله) فالرواية الاولى معقولة اكثر من الرواية

(٤) عن الانفصال السياسى والمذهبى للزيريين عن الخلافة الفاطمية انظر قبل ص ٨٨

ج - الأصداء العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة :

على الرغم من أن الصراع المذهبي بين السنة والشيعة كان حاداً وعنيفاً في الفترة التي كانت الخلافة الفاطمية تقيم فيها بافريقية إلا أن الجانب العلمي من ذلك الصراع لم يكن متساوياً مع أوجه الصراع الأخرى التي أوضحناها من قبل . وفي الحقيقة فليس في الأمر غرابة ، فذلك أمر طبيعي يحدث دائماً في مثل تلك الظروف التي تقف فيها السلطة تدعم مذهبها ومعتقداتها . فالدولة الفاطمية كما لا يخفى كانت تسعى إلى إخماد أي معارضة لها ، وخاصة تلك التي تتسلح بالجدل العلمي الذي هو أشد أوجه الصراع أثراً وتأثيراً .

ومن ثم فلا غرابة أن يحتل الجانب العلمي المرتبة الأخيرة من أوجه ذلك الصراع وإذا عرفنا أن كثيراً من علماء إفريقية آنذاك قد آثروا المعارضة السلبية ، وآثر بعضهم التقية^(١) لا تضح لنا الموقف بجلالة .

ومع ذلك فهذا لا ينفي أنه لم تكن هناك أصداء علمية للصراع المذهبي بين المذهبين : فلقد كان هناك العديد من الآثار العلمية للصراع ، وهي على قلتها قد أحدثت دون ريب أثراً إيجابياً في مسيرة الدراسات الشرعية ، فضلاً عن أنها قد أسهمت في تثبيت العقيدة الصحيحة سواء ما يتصل بالجانب الفقهي أو العقائدي ، وأوحتي الجانب المتصل بأمر الإمامة

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢

الذى كان له دور عظيم في بلورة المذهب الاسماعيلي .

والأصداء العلمية التي ترسخت على الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في افريقية وقتذاك مرت عبر قنوات ثلاث كما يتراءى لنا تلك القنوات هي : حلقات العلم والمعرفة والدرس والمؤلفات والمصنفات العلمية والمناظرات أو المجالس .

حلقات العلم والدرس :

فحلقات العلم في الجوامع والمساجد والبيوت كانت أظهر أثر علمي للصراعات المذهبية آنذاك فلقد كان الطلبة يتحلقون حول شيوخهم فقهاء المالكية يتلقون عنهم ما يثبت عقيدتهم وما يحافظ على شريعتهم . والأمثلة اعسر من أن تحصيها . فقد كانت حلقات الدروس تتناثر في مساجد وبيوتات معظم المدن الافريقية وكانت الدولة الفاطمية تفيق بعض الأحيان فتستشعر الخطر الذى يأتيها من حلقات الدروس فكانت تبادر لمنع فقهاء المالكية من التجمهر والقاء الدروس وتسجنهم في ديارهم وتهدد من يفعل ذلك بالعقاب الصارم (١) لكن ذلك لم يثن فقهاء المالكية عن مواصلة دورهم العلمى الذى كسبه بطابع الجهاد ضد الشيعة . فكانوا يستمرون في القاء الدروس والتحليق في المساجد الصغيرة وفي بيوتاتهم اصراراً منهم على التصدى للعد الخطير للمذهب الشيعى . ولم تغلح محاولات الدولة في منعهم . ولعل في الحادثة التالية

(١) انظر المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ،

ما يوضح طبيعته هذا الموقف، أى حرص علماء المالكية على التصدى للمعتقد الشيعى بكل ما أوتوا . روت كتب التراجم والطبقات أن الفقيه المالكى أبا بكر بن اللباد (ت ٣٣٣ هـ) كما عرفنا من قبل أمتحن أيام الخليفة عبيد الله المهدي ، وسجن لأنه كان يفتى بغير مذهب السلطان ، وهو المذهب المالكى بالطبع ، ولقد أمر الخليفة بإطلاق سراحه بعد ذلك على أن لا يفتى ولا يجتمع إليه احد ولا يفتى الا بمذهب الدولة ، والا يجتمع عليه أحد - وهو بيت القصيد هنا - غير أن الفقيه المالكى لم ينصع الى ذلك ، فقد شرع بفتح باب دارة خفية لالقاء الدروس على طلبته . (١) . ولندع عياض (٢) يروى ذلك لنا بأسلوبه الدقيق قال (فلزم داره ، وأغلق بابه وكان ربما خرج الى المسجد ، فيأتى الطلبة الى بابه ، فتفتح لهم خادمة فاذا اجتمعوا اتته ، فيدخل وتقلق عليهم . فيقرأون . وكان منهم أبو محمد التبان وابن ابى زيد رحمهما الله تعالى وغيرهم . وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتل بأعراقهم ، فأقاموا على ذلك الى أن توفى رحمه الله تعالى .

ومع أن هذه الحادثة تكاد تكون فردية ، فاننا لانرى ما يمنع من تعميمها ، ذلك لأن الشىء المؤكد هو ان الفاطميين منعوا الكثير من علماء وفقهاء المالكية من الافتاء بالمذهب المالكى كما مر بنا سابقا (٣) . ولسنا في حاجة الى القول بأن الافتاء كان

(١) نفس المصدر السابق ، والجزء اعلاه ، ص ٢٨٧ - عياض : المصدر

السابق والجزء ، ص ٣٠٩

(٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٣٣٥

عادة ما يتم في حلقات الدروس والمذاكرة .

أما حلقات الدرس والمذاكرة التي كانت تعقد علنا والتي تركت تأثيرها العلمي دون شك فلم تنقطع كما قلنا آنفا . ولعل فيما سنورده الان من دلائل وإشارات ما يسلط الضوء على الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي نعنى به حاليا . فعند ما بدأ أهل السنة يتأهبون لملاقاة الثائر أبي يزيد مخلص بن كيداد البغرنى للانضمام اليه ضد الشيعة ، وذلك ابان محاصرة لعاصمة الدولة الفاطمية المهدية انتصب الفقيه المالكي أبو العرب التميمي (ت ٣٣٣ هـ) للتدريس في المسجد الجامع بالقيروان . فلم يجد ما يناسب الوضع ويدفع بمعتقدات الشيعة سوى أن يقرى الناس كتابي الامامة للعالم القيرواني محمد بن سحنون (١) وليس الى الشك من سبيل بأن هذا العمل كان ردا عمليا على غلو الشيعة في مسألة الامامة . ويقول أبو العرب نفسه معقبا على تصرفه ذلك - وهو أمر له دلالة الكبيرة - (كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب ، فوالله الذي لا اله الا هو لقراءة هذين الكتابين على في هذا الموضع أفضل عندي من جميع ما كتبت) (٢)

ودليل ثان نسوقه ، وهو أن ربيع القطان المتوفى سنة ٣٣٣ هـ قتيلا في حرب أبي يزيد مع الشيعة كما عرفنا من قبل استجمع شجاعته مستغلا فترة التمكين التي سنحت للسنة ، فاتخذ له حلقة في جامع القيروان يظهر فيها السنة ، ويجتمع عليه للفقهاء فيها عدد من

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٠
(٢) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة اعلاه .

الفقهاء المشهورين من أمثال أبي الازهر بن معتب، ومحمد بن احمد السيوري ، وأبي محمد عبدالله بن ابي زيد وغيرهم. (١)

ودليل ثالث نوره للدلالة على المغزى الذى تحمله حلقات الدرس والمذاكرة، اذ يروى عياض^(٢) أن الفقيه العابد أبا اسحاق ابراهيم بن احمد السبائي (ت ٣٥٦هـ) وهو الذى وقف من الشيعة مواقف شديدة (كان مما شغل به نفسه ، ذكر فضل الصحابة والثناء عليهم لانتشار أمر المشاركة^(٣) ، فما كان أحد يذكر الصحابة الا فى داره) . ولنا بالطبع أن نتصور مقدار ما ينعكس على الدراسات الشرعية من فائدة نتيجة لذلك . فلا بد أن يحدث ذلك تيارا علميا دافقا .

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٣٢١ - ٣٢٤
- (٢) المدارك : ج ٢ ، ص ٣٧٨ .
- (٣) المشاركة ، هم الشيعة كما أضحى علي تسميتهم بذلك المغاربة وقتذاك ، وقد جاءت هذه التسمية نسبة الى أبي عبدالله الشيعى الذى عرف وشهر بالمشركي كما يقول القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٥٢ ، ثم أصبحت بعد ذلك نطلق على الشيعة وعلى من يتمذهب بالمذهب الشيعى واشتقوا لها فعل وهو تشرق ، أى تمذهب بالمذهب الشيعى ، وقد جرت هــ هذه الكلمة على السنة مؤرخى التراجم والطبقات المغربية : كطبقات أبي العرب ، وطبقات الخشنى والرياض والمدارك والمعالم وغير ذلك كلما ورد ذكر للشيعة أو من مال اليهم من المغاربة .
- أنظر حول هذا الموضوع ما كتبه حسين مؤنس فى حاشية رقم (٣) ص ٤٢ - ٤١ م من الجزء الاول من كتاب : رياض النفوس .

وفى موضع آخر يقول عياض (١) عن أبى الحسن السبائي أنه لما (اشتهر أمر بنى عبید ، وفتح دعائهم أبوابهم ، ودعوا الى كفرهم ، قال أبو اسحاق لاصحابه : أفتحوا باب دارى تأخذ فى ذمهم والتحذير منهم) . ولا نتصور أن ذمهم والتحذير منهم الا اذا طابع علمى وفقهى دون ريب .

وأخيراً فان هناك دليلاً رابعاً اذ يروى عياض (٢) كذلك أن الفقيه أبا سعد خلف بن عمر المعروف بابن اخى هشام الريعى الخياط (ت ٥٣٧١ هـ) كان يجتمع هو وعدد من العلماء الفقهاء من أمثال أبى الازهر بن معتب ، وأبى محمد عبد الله بن أبى زيد ، وابن النيان ، وأبى الحسن القابسى (للتفقه فى جامع القيروان عندما ظهر أمر أبى يزيد على بنى عبید) .

واذا أمعنا النظر فيما انتهجه الفاطميون من سبل لنشر مبادئ مذهبهم عبر حلقات الدرس والمعرفة ، لوجدنا أنهم لم يقصروا فى الدعاية لمذهبهم مطلقاً ، وكيف لا وهم الذين يعتبرون الدعاية أحد أهم الأسس التى يُعتمدُ عليها لنشر المذهب (٣) وفى هذا الصدد تحضرنا عبارة محمد كامل حسين (٤) الذى يقول (بأن الدعاية كانت من صميم عقيدة الاسماعيلية وفلسفتهم) . ولقد حشد الفاطميون جهودهم فى سبيل نشر مبادئ مذهبهم على نطاق واسع بين السكان عن طريق حلقات الدرس فى المساجد وقصور الخلفاء .

(١) المدارك ، ج ٢ ، ص ٣٧٨

(٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٤٨٨

(٣) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، ص ١٣٠

(٤) طائفة الاسماعيلية : ص ١٣١

بيد أن الفاطميين كانوا بالاضافة الى رغبتهم في استماله السكان الى مبادئ مذهبهم ، حريصين على نشر خصائص وحقيقة المذهب الشيعي الاسماعيلي بين الأتباع الخالص والدعاة في حلقات أخرى أطلق عليها مدارس الدعوة (١) وقد انتصبت تلك المدارس في المهديّة أيام الخليفة المهدي ، والقائم ابنه ، ثم في مدينتي المنصورية أيام الخيفة المنصور والمعز لدين ابنه (٢) . وعند ما رحل الفاطميون الى مصر واصل الزيريون خلفاءهم في حكم البلاد رعاية تلك المدارس الخاصة بتبليان حقيقة المذهب الاسماعيلي . (٣)

ولقد تميز عهد الخليفة المعز بالدعاية المنظمة للمذهب الاسماعيلي ، ومرت الدعاية تلك عبر طريقين أو اتجاهين سارا جنباً الى جنب ، الاتجاه الأول وهو الذي يخاطب الناس العاديين من سنة وشيعة . وكان اعتماده على حلقات المساجد الجامعة والمساجد الكبيرة . وفي هذه الحلقات كان دعاة الشيعة وعلى رأسهم القاضي النعمان يقرأ على سامع الناس برامج خاصة كالنصائح أو الوصايا وقضايا فقهية وعقائدية واضحة معتمدة في ذلك على كتب علم الظاهر . وكانت هذه البرامج تشكل ما يمكن اعتباره منشورا صادرا من الخليفة نفسه . وكان غالبا ما يتم إثر إنتهاء المناسبات الدينية الاسبوعية كصلاة الجمعة ، أو السنوية كصلاة العيدين (٤) ، ويرى حسن ابراهيم (٥) حسن أن هذه الحلقات هي أساس مجالس الحكمة التي شاعت في مصر في الدور المصري للخلافة الفاطمية .

-
- (١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٩
 (٢) حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٣١
 (٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣
 (٤) حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .
 (٥) المعز لدين الله ، ص ٢٣٣

ولم يكتف الخليفة المعز بذلك ، فقد فتح أبواب قصره فـ في المنصورية امام الناس لسماع المحاضرات التي كان يلقيها وعامة وعلى رأسهم القاضي النعمان ، وهي مستمدة أيضا من كتب المذهب التي تعول على علم الظاهر ككتاب دعائم الاسلام . (١) وقد زاد الخليفة فأباح الاطلاع على الكتب التي تحتويها مكتبة القصر لمدارستها وانتساخها والتعلم منها والتفقه عليها) كما يقول القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسائرات . (٢)

وكان الخليفة نفسه يعقد في قصرة المجالس العلمية التي يحضرها عادة كبار رجال الدولة والدعاة والعلماء والأدباء فيلقى عليهم من علومه في كل فن تقريبا من فنون المعرفة كالفقه والفتيا وعلم التوحيد وغير ذلك . (٣)

أما الاتجاه الثاني فقد كان مقصورا على الأتباع والاشباع من الدعاة وكانوا يخضعون لبرنامج علمي - ان جاز هذا- يتلقون من خلاله أسرار المذهب الشيعي أو علم الباطن الذي كان يعرف بعلم آل البيت . (٤) أيضا . وكان الخليفة حريصا على التنبيه على داعي دعائه لشرح وتذليل كل ما يصعب على الأولياء فهمه ، حتى يتاح لهم بعد الترويح لمبادئ المذهب ، وكان المعز غالبا ما يشارك بنفسه في هذه الحلقات الخصوصية

-
- (١) حسين ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
- (٢) فيما ينقله عنه حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٣٦
- (٣) حسين ابراهيم حسن وطه احمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥
- (٤) حسين ابراهيم حسن وطه احمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٥ (عن القاضي النعمان في المجالس والمسائرات) .

فيقرأ على الاتباع كتب الباطن ، وخاصة أولئك الذين لديهم الاستعداد لفهم أدق أسرار التأويل الباطن . (١) .

ومن المهم أخيراً أن نشير إلى ما ذكره عبدة^(٢) بدوى بشأن حلقات الدرس تلك أو مدارس الدعوة فهو يرى - وليس ما يمنع من موافقته - أن الفاطميين انتهجوا أسلوباً جديداً في الدعوة لمذهبهم يقوم على تشكيك الفرد ، ثم تسلط عليه بالحجج العقلية ، تمهيداً للوصول إلى موافقتهم على مبادئ مذهبهم ، ويعتقد أن ذلك الأسلوب قد جاء نتيجة لالتقاء الفكر العربي بالفكر الفارسي والعقلية الأفريقية^(٣) ، مما أدى إلى أن ينتج تمخض عن ذلك أسلوب معين يمكن تسميته بالطابع الفاطمي .

ومما يدعم رأي عبده بدوى ما أشار إليه القاضي النعمان في كتابه (٤) المجالس والمسايرات من نصيحة نصحه إياها الخليفة المعز لدين الله . فقد قال له الخليفة مانصه : (متى ناظر كـ مـ ترى أنه الحن بالحجة منك ، فاستتر بالباطن ، يعني أن يقطع كلامه ، ويؤمى إلى أن في ذلك باطن لا يتهياً له ذكره ، ولا يتمادى في الكلام إلى أن يظهر عليه مخاصمه ، فيكون ذلك فتنة ، وداعياً إلى الإصرار على ما هو عليه ، ولكن بيقية على شبهة من أمره ، ان كان قد وجل في مناظرته ، وان علم أنه أحن منه قبل المناظرة ، لم يناظره واستتر كذلك بالباطن ما أمكنه لان احتجاج المبطلين ربما شبهوا به وخيلوا للسامعين انه الحق) . ومن هنا لم يكن اعتماد الاسماعيلية

-
- (١) حسن إبراهيم حسن وطه احمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥
 (٢) مع حركة الاسلام في افريقية ، ص ٤٤
 (٣) مع موافقتنا لعبده بدوى ، فيما قاله ، إلا أننا لا نوافقه فيما أشار إليه عن العقلية الأفريقية وتأثيرها في الطابع الفاطمي الذي تمخض عن التقاء الفكر العربي بالفكر الفارسي . ذلك لاننا لم نعثر على أى دلالة تؤيد ذلك .
 (٤) فيما ينقله عنه حسن إبراهيم حسن وطه احمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

في نشر وبث الدعوة لمذهبهم الا على الدعاة المأذونين ، أى أولئك الذين وصلوا درجة من العلم بالباطن توفى لهم للقيام بالمهمة على أحسن وجه . (١)

الحركة التأليفية :

كان أمام أهل السنة سبيل آخر لمنافحة ومدافعة المعتقد الشيعى ، ذلك السبيل هو التأليف والتصنيف في المواضيع التى يثيرها المذهب الاسماعيلى ، ونستدرك هنا فنقول بأن تلك التأليف والمصنفات التى سنشير اليها بعد قليل لم ينص فيها حقيقة على أنها جاءت كرد فعل لدعاوى المذهب الاسماعيلى الفقهية والعقائدية والسياسية . لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها كذلك في الواقع ، اذ تكفى نظرة متأنية مدققة على ماتحمله تلك التأليف لمصنفات من مضامين لتؤكد فحوى ماذهب اليه .

وفي الواقع ، فان لدينا العديد من الأمثلة التى توضح ذلك . فعندما يستغرب فقهاء المالكية تصرفات الفاطميين التى طبقوها واقعياً ينبرون الى تصنيف كتب في مسألة نسب الشيعة وهو الأمر الذى يجر عليهم النقمة من قبل الفاطميين الذين لم يتورعوا عن قتل من سولت له نفسه ذلك ، وهذا كان حال أبى جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافى الذى قتله الفاطميون عام ٣٠١ هـ . بسبب تصنيفه لكتاب نسب الشيعة . (٢)

(١) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : نفس المرجع السابق ، ص

٢٣٧ .

(٢) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ - ٥٣ - مع

حاشية ، ص ٥٢

وتشغل مسألة الامامة من وجهة نظر الشيعة بال فقهاء المالكية في يادرون الى التصنيف فيها من منظور سني دون شك - وهذا ما فعله أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله الزبيرى - القلانسى (ت ٣٦١ هـ) فقد صنف : كتاب الامامة ، مادعى الخليفة القائم بأمر الله الى ضربه وسجنه والتكيل به (١) ولقد سبق لنا أن لمسنا حرص أبى العرب التميمى في استقراء كتابى : الامامة لمحمد بن سحنون ، في ذلك الوقت الذى هبّت فيه رياح المعارضة على الفاطميين من قبل أهل السنة ، والثائر ابى يزيد مخلص بن كيداد . (٢)

وعندما يشتد الشيعة في الدعوة لمذهبهم ، وخاصة في عهد الخليفة عبيد الله المهدى ، يصنف الفقيه المالكى المشهور سعيد بن الحداد المتوفى عام ٣٠٢ هـ ، كتابا في الرد عليه وهو كتاب المقالات . (٣) ومع اننا لم نستكنه فحوى الكتاب حقيقة الا اننا لانستبعد ان يكون قد استهدف المذهب الشيعى في جملة ما استهدف من المذاهب . ولعل اعتقادنا يزاد يقينا اذا ما عرفنا أن سعيد بن الحداد نفسه ، كان الفقيه الأشهر الذى تصدى للشيعة وناظرهم وجادلهم حسبما سنعرف بعد قليل . والقرينة الأخرى ان سعيد بن الحداد لا يستغرب منه

-
- (١) أنظر قبل ، ص ٣٣٥ .
 (٢) أنظر قبل ، ص ٥٤٥ .
 (٣) الزيدى : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

الرد على المذهب الشيعي ، وهو الذي صنف كتابا أسماه : الرد على الشافعي ، وهو الذي قيل عنه انه مال الى المذهب الشافعي في بعض أوقات حياته . (١)

وفي فترة من فترات اشتداد ذلك الصراع المذهبي ، نرى فقيها مالكيًا ثان يكتب كتابا ، بعنوان : كتاب تجديد الأيمان من شرائع الاسلام . ذلك الفقيه هو أحمد بن عبد الرحمن القصري (ت ٣٢٢ هـ) (٢) .

ويصنف الفقيه المالكي أبو محمد عبد الله بن أبي زييد القيرواني ، الذي عاصر الخلافة الفاطمية في دورها المغربي ، ثم رحلها الى مصر ، عدة كتب تخدم ذلك الغرض ، وهو الرد على دعاية المذهب الشيعي ، مثل كتاب : الاقتداء بأهل السنة ، وكتاب الذب عن مذهب مالك ، الى غير ذلك . (٣)

وعند ما كان الشيعة يثيرون بعض القضايا الفقهية والعقائدية كان علماء وفقهاء المالكية يتصدون للرد على تلك القضايا الشيعية ، فيصنفون العديد من الكتب التي تعكس الرأي الموافق للشريعة الصحيحة كما وردت بهذا الشأن في القرآن والسنة . ومن هنا نرى الفقيه أبا بكر بن اللباد ، والذي مربنا ذكره كثيرا يصنف كتابا في الطهارة (٤) ، وربما كان ذلك الكتاب ردا على ما يعتبره الشيعة في الطهارة كدعامة من دعائم الاسلام

(١) الدباغ : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٥ -

٢٩٦ .

(٢) المالكي نفس المصدر السابق والجزء اعلاه ، ص ١٩٨

(٣) عياض : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٤٩٤

(٤) عياض : نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٥

السبعة عندهم .

ونرى فقيهاً آخر ، هو عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور
التجيبى المعروف بابن الحجاج (ت ٣٤٦ هـ) يكتب في ذلك
الصدد كتابا ، وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم
والا زمان (١) . وقد يكون في ذلك ردا على الشيعة الذين
لهم رأى مغاير في مسألة تحديد شهر الصوم ونهايته ، على
النحو الذى عرفناه سابقا .

ونرى فقيها ثالثا ، وهو أبو محمد عبدالله بن أبي
زيد يكتب كتابا تصب في ذلك الاطار ، مثل كتاب تفسير أوقات
الصلوات وكتاب فضل قيام رمضان (٢) . وهو أمر يعكس رغبة
السنة كما يبدو لنا في تثبيت صلاة القراويح ، وما جاء فيها ،
وهى التى أبطلها الشيعة كما ذكرنا سابقا .

وعندما كانت تناثر مسألة العصمة ، وهى مبدأ من مبادئ
الشيعة فى أئمتهم كما سبق أن رأينا ، يتصدى علماء وفقهاء
المالكية للتصنيف فى هذا الصدد . فنرى أبا بكر بن اللباد الذى
أشرنا إليه آنفا ، يصنف كتاباً عدة ككتاب عصمة النبيين ، وكتاب
إثبات الحجة فى بيان العصمة . (٣) وليس من شك بأن عنوانى
هذين الكتابين يدلان دلالة واضحة على المغزى الذى فرضته
طبيعة الصراع وقتذاك .

(١) عياض : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤٢

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦

وكيفه^١ كان رأينا في مغزى تصنيف تلك الكتب السابقة بما تحمله من مضامين ، سواء^٢ ، إذا اعتبرناها أثراً مباشراً لذلك الصراع المذهبي أو اعتبرناها كما لو أنها امتداداً طبيعياً للحركة العلمية في افريقية ، فاننا لا نستطيع أن نغفل أمراً مهماً ، وهو أن عصر الفاطميين قد عرف عدداً من الفقهاء الذين أثروا الدراسات الشرعية على وجهها لخصوص بالعطاء الغزير . ففيه ظهر أبو العرب التميمي الذي قيل ان مؤلفاته بلغت . ٣٥٠ كتاباً أو جزءاً بمعنى أدق (١) ، ثم محمد بن حارث الخشني ، الذي قيل انه ألف مائة ديوان (٢) ثم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد الذي صنف العشرات من الكتب (٣) . أفلا يعطينا ذلك انطباعاً بأن نشاط الحركة التأليفية على الصورة التي ذكرناها وفي عصر الفاطميين ، كان أحد الردود على نشاط الفاطميين في نشر مذهبهم في افريقية آنذاك

وعلى أية حال ، فاذا تجاوزنا ذلك كله ، فان الشيء المؤكد هو أن تلك المؤلفات كان لها أثرها الكبير في تثبيت العقيدة الصحيحة في نفوس الناس من منظور سني . وهذا أثر ايجابي على الدراسات الشرعية دون ريب .

وماد منا قد أشرنا الى مصنفات السنة الدينية والسياسية في عهد الفاطميين ، فان من الضروري أن نعيد الى الذاكرة ما ذكرناه سابقاً عن مؤلفات الشيعة الفقهاء . غير أنها على كل حال قد اسهمت

(١) أنظر قبل ، ص ٣٥٨-٣٥٩

(٢) أنظر قبل ، ص ٣٧٣

(٣) أنظر قبل ، ص ٣٧٧

في اثرء الدراسات الشرعية ، حتى ولو عن طريق غير مباشر .
فقد فقد عرفنا أن القاضي النعمان ألف العديد من الكتب الفقهية
ككتاب : دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام
وهذا الكتاب بالذات جاء يخدم صراحة المعتقد الشيعي ، وقد
ألفه بطلب من الخليفة المعز كما أشرنا الى ذلك من قبل .^(١) ومن
الكتب التي كتبها القاضي النعمان : كتاب الطهارة ، وكتاب
كيفية الصلاة ، وكتاب الاقتصار ويشتمل على مسائل فقهية
مستمدة من ائمة أهل البيت ، كما ذكرنا عند حديثنا عن الفقه .^(٢)

هذا وينسب للخليفة الفاطمي الثالث وهو المنصور
تصنيف كتاب بعنوان : تثبيت الامامة لمولانا علي بن أبي طالب^(٣) .
وان كان هذا الكتاب ينسب أيضا للقاضي النعمان .^(٤)

أما الخليفة المعز لدين الله فقد عرفنا أثناء حديثنا
عن الفقه الشيعي ، أنه ينسب اليه تصنيف كتاب الروضة الذي
يحتوي كثيرا من الجوانب الفقهية ، وكتاب آخر ، هو : المناجاة
وهو فقه كذا .^(٥)

-
- (١) أنظر قبل ، ص ٣٦٧ .
(٢) أنظر قبل ، ص ٣٦٧ .
(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، ج ٣ ، ص ٣٥٤
(٤) كارل بروكلمان : نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة
(٥) أنظر قبل ص ٣٦٨

المناظرات العلمية :

عرف عصر الفاطميين ، وبعض من عصر الزيريين العديد من المناظرات العلمية بين السنة والشيعة ، وفي الحق ، فقد كان الكثير منها ان لم نقل كلها . بطلب واصرار من دعاة الفاطميين ، وأحيانا الخلفاء على ما سنعرفه على التتو . ولقد تمخضت تلك المناظرات عن انتصار أهل السنة فيها بما أوردوه من حجج وبراهين دينية وأدبية ومنطقية . . الخ حسبما روته لنا المصادر السنية التي لم يكن أمامنا سواها . أما المصادر الشيعية الفاطمية المعاصرة فلم نشر الى ذلك مع أن القاضي النعمان قد أشار عرضا لبعض الاشارات لمناظرات جرت بين السنة ودعاة الشيعة ، كانت الغلبة فيها للشيعة كما يقول ، وهو ما سنشير اليه في موضعه بعد قليل .

وما من ريب في أن أغلب المناظرات العلمية تلك قد جرت في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي ، سواء تلك التي رعاها هو بنفسه أو تلك التي رعاها دعاة وقضاته ، وفي الواقع فليس بدعا أن تكون تلك المناظرات قد حدثت في عهد الخليفة عبيد الله ، فلقد حشدت الخلافة الفاطمية وقتذاك كل اسلحتها لمواجهة ومقاومة أهل البلاد لها ، واستخدمت في سبيل نشر وتثبيت مذهبها وبالتالي وضعها السياسي كل الوسائل ، من تشدد مع المخالفين لتطبيق مبادئ المذهب الى العقوبات الصارمة التي تصل الى القتل والى غير ذلك كما عرفنا آنفا . ولذلك فمن الطبيعي أن يستخدموا سلاح الجدل العلمي ويشرعوه في وجه مخالقيهم من السنة ولا سيما وهم الذين اصطبغ معتقد هم بمظهر فكري جدلي . ومن هنا فقد رأى الخليفة عبيد الله ان تصارع الفكرة الفكرة ويجادل الرأي الرأي . وهذا أمر أشار اليه داعيته أبو عبيد الله الشيعي

بكل وضوح عندما عارض تشدد شقيقة أبي العباس في معاملة الناس فقال له (ان دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة)^(١)

ولعل أول ذكر يصادفنا لتلك المناظرات العلمية بين الفريقين هو ما أشار اليه بعض المؤرخين من مناظرة أبي العباس الشيعي للفقير المالكي أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون (ت ٢٩٧ هـ) (٢) ، في مسألة التفضيل أي تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الصحابة بما فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عن الجميع .

وفي الحق فان تلك المناظرة لم تقع مواجهة بين أبي العباس ، وابن البرذون ، غير أنه حفظ عن ابن البرذون انه كان يقول : (كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقيم الحدود بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويعينه على أموره . فلو لم يكن عنده امام هدى ، مستحقا للتقدمة ، مافعل مافعل) (٣) . ويبلغ

- (١) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ : ص ٣٢ (نقلا عن النويري ، في نهاية الأرب) .
- (٢) ذكر كل من المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ - أن مقتل ابن البرذون كان عام ٢٩٩ هـ - وقد أشار محقق كتاب الجزء الثاني من المعالم محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور بأن ذلك خطأ لان ابا العباس الشيعي الذي أمر بقتلهما قتل عام ٢٩٨ هـ مع أخيه أبي عبد الله ورجح ان مقتل ابن البرذون كان عام ٢٩٧ هـ ولا شك أن هذا لترجيح موافق للصواب ، فالي جانب ما ذكرناه فأنني قد تأكدت من ذلك يقينا عند ما أشار أبو العرب التميمي في كتابه المحن ، ص ٢٩٥ ، الى أن مقتل ابن البرذون وابن هذيل كان عام ٢٩٧ هـ ولا شك أن تحديد أبي العرب ذلك ، تحديد دقيق لانه أقرب للحدث وربما يكون قد عاصره . فهو كما عرفنا سابقا قتل عام ٣٣٣ هـ في موقعة وادي الملح المذكورة سابقا التي وقعت مع الشيعة الدباغ : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ص ٢٦١ - ٢٦٢

قوله أبى العباس الشيعى . فيرد عليه قائلا : (كان يوسف الصديق من أعوان العزيز بمصر ، يعينه في أموره ، فما كان فيه نقص ليوسف ولا زيادة في مقدار العزيز) . ثم نراه يأمر بقتله . (١)

ومع هذا فان رأى في جواب أبى العباس الذى بيد وكلمة حق أريد بها باطل ، فان الفقيه المالكي لم يقل كلامه ذلك عبثا ، فقد كانت قضية التفضيل قائمة وقتذاك على قدم وساق . ولم يكن الا امر يقتصر على ذلك ، وانما كان يجر الى الطعن على الخليفيتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . ولذلك فما كان الفقيه المالكي الذى (كان بارعا في العلم يذهب مذهب النظر) (والذى لم يكن في شىء عاصره أقوى على الجدل والمناظرة واقامة الحجة على المخالفين مثله) (٢) نقول ما كان له أن يسكت عن ذلك . فكان أن تفوه بما تفوه به وكانت النتيجة أن أعتبر ذلك سببا من أسباب مقتله كما لاحظ ابن ناجى مكمل ومعلق كتاب المعالم . (٣)

وموقف آخر أولنقل مناظرة أخرى تولى أمرها أبو العباس الشيعى كذلك . ونحن وان لم نطلع على تفاصيل ما دار فيها . الا أننا عرفنا ما تمخض عنها من رد فعل . اذ يروى الخشنى (٤) أن الفقيه

-
- (١) الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٢ .
(٢) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٤٧
(٣) كان ابن ناجى مكمل ومعلق كتاب معالم الأيمان دقيقا في روايته لهذه الحادثة فقد أوضح بأن ذلك السبب كان أحد أسباب مقتله ، ولكنه لم يكن السبب كله . أنظر الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٤
(٤) كتاب طبقات علماء افريقية الوارد ضمن كتاب طبقات علماء افريقية لابی العرب التميمي : ص ٢١٤

المالكى أبا بكر الغمودى المعروف بالفيلسوف (كان حاد القنابصيرا بوجوه الكلام عارفاً بأبواب المناقضة متدرباً في صنعة المعارضة) ناظرة أبا العباس الشيعى ذات مرة مناظرة أفحمت الداعى الشيعى وأخرجته. وقد أدى هذا بابى العباس الى أن يتهدد أبا بكر بتوعده: (ويحـرك له أصبعه، ويقول له: وانك لتظهر لأهل البيت ما أرى منك من البغضاء وتنصب في توجيه أمرك ما أسمع من حجاجك) ولم يكن أمام أبى بكر وقد خشى على نفسه سوى الاعتذار، والتقرب اليهم تقية، فولوه أمر السكة، ورياسة دار الضرب بالبلاد. (١)

أما المناظرات العلمية الدامغة التى لقيت شهرة عريضة آنذاك فهى التى تصدى لها الفقيه المالكى الأشهر سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢ هـ) وكان أبا العباس أحد أطرافها الرئيسيين. تلك المناظرات تفاوتت عدداً وموعداً ومضموناً وهى التى وفرت لسعيد بن الحداد سمعة وصيتاً عريضاً، وشأناً وافراً من قبل معاصريه، ومن قبل مؤرخى التراجم والطبقات. فلقد أكبر الجميع فيه شجاعته فى التصدى للمد الشيعى الخطير، وأكبروا فيه قدرته العلمية الفائقة التى تعتمد على زاد لا ينفذ من التفهم للمشرية الإسلامية السمحة، من تمكن من قواعد الجدل والمناظرة، بل لقد غفروا له تمذهبه وقتاً من الأوقات بالمذهب الشافعى (٢) - حتى ولو بدون تقليد - وتبدلت نظرة رفقاءه الفقهاء فيه الى اعجاب وتقدير.

وقبل أن نتعرض لظروف تلك المناظرات ومواضيعها، علينا أن نعرف بابن الحداد، فهو أبو عثمان سعيد بن محمد الغسانى المعروف بابن الحداد نسبة الى جدة لأمه. وقد سمع لعدد من الشيوخ كسحنون بن سعيد وغيره وسمع منه عدد من شيوخ افريقية من أمثال

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، والجزء، ص ١٥١-١٥٨.

(٢) انظر قبل، ص ٣٤٥.

ابنه عبد الله ، وأبي العرب التميمي وأحمد بن موسى الثمار وغيرهم .
وقد مال الى مذهب الشافعي من غير تقليد ، مما حدى ببعض الشيوخ
الى تنقصه ، وقد أشتهر بأنه (كان أحد رجال زمانه في المناظرة
والرد على الفرق مقدما في ذلك) (١) . وقال الدباغ (٢) : (وكان
مذهب أبي عثمان المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه . وأخبرني
بعض أصحابه أنه سمع كان يقول : ما حرف من القرآن إلا واعدت له
جوابا ولكن لم أجد له سائلا) وروى الخشنى (٣) عنه فقال : (كان
أبو عثمان هذا قليل الاشتغال بجمع الكتب وبالرواية ، وكان
يقول : انما هو النظر والخير ، فلو دخلت المشرق ما كانت له فيه
حاجة غير الخبر) ويمتدح الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين (٤)
سعيدا ، ويثنى على اقتداره في علم الجدل والمناظرة ، ويشيد بعلو
كعبه في علوم اللغة .

وفي انتصابه للرد على الشيعة ، يقول عنه الخشنى (٥)

-
- (١) الدباغ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .
(٢) معالم الايمان : ج ٢ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ (نقلا عن الخشنى
في كتاب قضاة قرطبه ، وطبقات علماء افريقية) .
(٣) قضاة قرطبة وطبقات علماء افريقية ، نشر وتصحيح عزت العطار
الحسيني ، ص ٢٠١ .
(٤) ص : ٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٥) قضاة قرطبة وطبقات علماء افريقية ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(وكانت لابي عثمان مقامات كريمة ومواقف محمودية في الدفع عن الاسلام ، والذب عن السنة ، ناظر فيها أبا العباس المخدم^(١) أخا أبي عبد الله الشيعي الصنعاني ، بملء فمه ومنى نفسه مناظرة القرن المساوي ، بل مناظرة المتعزز المتعالي ، لم يتلغم لفظاً المقام ولا أحجم لهيبه السلطان ، ولا خاف ما خيف عليه من سطوة الحدثان ، ولقد قال له ابنه محمد يوماً اتق الله في نفسك ولا تبالي في مناظرة الرجل ، فقال له حسبى من له غضبت وعن دينه ذبيبت)

ولقد سأله كثير من أصحابه أن يلجأ الى التقية ، أى مجارة الشيعة ، ولكنه رفض قائلاً : (انى أربيت على التسعين . وما بى الى العيش من حاجة . وقتيل الخوارج^(٢) ، خير القتلى ، ولا بد لى من المناظرة والمناضلة عن الدين ، وأن أبلغ ذلك عذراً . ففعل ذلك وصدق ونصح ، رحمه الله)^(٣) ويقول الدباغ^(٤) : (وكان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة ، وله في ذلك مقامات مشهورة

(١) لعله خطأ مطبعي أو سهو من الخشنى ، والا فالمشهور أنه كان يعرف بالمخطوم ، وبذلك وصفته معظم المصادر السنية ووصفه القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ بهذا الاسم - وكذلك وصفه جعفر الحاجب : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٦ - أما المصادر السنية فقد ذكرت ذلك كلما ورد ذكر أبي العباس ، مما يصعب علينا الإشارة الى مواضع ذلك .

(٢) هو يعنى بلا شك : الشيعة ولا نعرف سراً الصافق اسم الخوارج عليهم الا اذا فهم منه الخروج عن الشريعة السمحة الواضحة .

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١

(٤) معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

هذا

وآثار محمودة ، ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب ، حتى مثلة أهل
القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة) . (ولم يدخل في قلوب
القوم له من الاجلال والمهابة ما دخل لسعيد الحداد) كما
يقول الخشني (١) أيضا .

ولقد استدعى أبو عثمان سعيد بن الحداد أكثر من مرة
من قبل الخليفة المهدي وداعيته أبي العباس وأبي عبد الله الشيعيين
ومن قاضية محمد بن عمر المروزي (٢) ، وعقدوا وأياه عدة مجالس
مناظرة. وكانت هذه المجالس تضم أحياناً الداعيتين معا ، كما
أن أحد فقهاء المالكية وهو أبو الاسود موسى القطان (٣) كان
يشارك سعيد الحداد في بعض تلك المجالس حسبما سنعرف بعد قليل

والقضايا التي دارت حولها تلك المناظرات كانت
متعددة ، ولكنها لم تخرج عن عكس وجهة نظر الشيعة في
مبادئ مذهبهم الشيعي السياسية والفقهية والعقائدية التي كنا
قد أشرنا إليها من قبل . ونحن لن نورد كل تلك المجالس .
ولكننا سنكتفي بتسليط الضوء على أهم ما تضمنه كل مجلس من
قضايا .

- (١) كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ٢١٤
(٢) محمد بن عمر المروزي (ت ٣٠٣ هـ) فقيه حنفي تولى
القضاء للخليفة الفاطمي الأول : المهدي . وقد لقي
منه السنة عنتا كبيراً ، ولقد أمر الخليفة بقتله بعد أن جار
الناس بالشكوى منه .
أنظر المالكي : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٤٤ مع الحاشية
رقم ١٨٤ من نفس الصفحة ، ص ٥٢ - ٥٤ - ابن حماد
أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٥٢
(٣) أنظر ترجمته قبل ، ص ٣٦١ .

ولعل أولى تلك المجالس ، ما أشار اليه مفصلا المالكي (١) ،
وذلك عندما بعث الداعي أبو عبد الله الشيعي يستدعي سعيد
بن الحداد ، وكان المجلس يضم أحد فقهاء القيروان الذي كان
متوليا لقضاء افريقية قبيل قيام الدولة الفاطمية . ولما ضمهم المجلس
شرع أبو عبد الله يسأل القاضي المالكي عن السنة ومعناها ، فتلجج
القاضي في الاجابة ، فما كان من سعيد بن الحداد إلا أن تصدى
للاجابة فأوضح له ما تعنيه السنة في كلام العرب مستشهدا في ذلك
بالشعر ، ثم تطرق الى معناها الاصطلاحي .

ولقد تشعب عن تلك المناظرة وذلك الرد من سعيد بن
الحداد الكثير من القضايا بين الرجلين ، فقد تساءل أبو عبد الله
عن الطرق التي انتقلت عنها السنة الى الاسانيد ؟ فأجابه سعيد
اجابة مقنعة ، ثم سأله عن القياس وما هو دليل السنة عليه ؟ فأجابه
كذلك اجابة مقيدة معتمداً ومستشهداً بآيات من كتاب الله تعالى .

ومند ما تطرق الحديث عن الخمر وحدها سأل أبو عبد الله
الشيعي أبا الاسود موسى القطان الذي كان مرافقا لسعيد بن الحداد
ان يأتيه بالدليل من القرآن ، غير أن موسى القطان أجابه مستشهدا
على وجوب الحدّ بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم المعروف
الذي ينص على الحد (٢) ، مما جعل الشيعي يستشيط غضبا ويقول

- (١) رياض النفوس ، الجزء الثاني ، ص ٧٦ - ٨٦ (وهو أطول المجالس
التي عقدها سعيد الحداد مع الشيعة) .
(٢) هذا الحديث ، هو الذي رواه الامام أحمد في المسند ٩ : ٤٩ ،
رقم ٦١٩٧ " عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من
شرب الخمر فاجلدوه فان شربها فاجلدوه ، فان شربها
فاجلدوه فقال في الرابعة أو الخامسة فاقتلوه " .

له معنناً أطالبك بدليل من القرآن ، وتأتيني بحديث ؟ فتدخل
سعيد الحداد في الحديث ، موضحا السبب الذي حداد بأبي
الأسود بالأجابة مستشهدا بالحديث ثم تطرق الحديث بينهما كذلك
الى موضوع الحديث الذي ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في
وصفه كبار أصحابه بأوصافهم العظيمة (١) فأثار أبو عبد الله مسألة
قول الرسول صلى الله عليه وسلم في علي بن أبي طالب : وأقضاكم
علي . ولقد فهم موسى بن القطان من ذلك خطأ من مكانة بقيصة
الصحابه ، فكرر على اسماعه نص الحديث ذلك الذي يتضمن مدحا
لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما . غير أن أبا عبد الله أخذ ينكر علي
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما قيل عن هروية بالراية يوم حنين - هذه
رواية الشيعة - (٢) ولذلك فهو غير حقيق أن يكون أشد الصحابة
في دين الله - وهو ماورد في الحديث عن الرسول صلى الله
عليه وسلم - ولم يكن أمام موسى القطان وسعيد الحداد الا الرد
عليه ردا علمياً موثقاً .

-
- (١) هذا الحديث لم يروه من أصحاب السنن سوى الترمذى في صحيحه
رقم (٣٨٧٩) . وقد خرجه صاحب المقاصد الحسنة ص ٤٧ ،
وصاحب كشف الخفاء ، الجزء الاول ، ص ١١٧ .
أنظر الحاشية رقم ٢٨١ ص ٧٩ من الجزء الثاني من كتاب
رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش .
- (٢) انظر رواية أهل السنة ، المخالفة لذلك والتي تروى على العكس
من ذلك أن عمر بن الخطاب كان من ضمن الذين ثبتوا مع الرسول
صلى الله عليه وسلم . أنظر حاشية رقم ٢٨٢ ص ٧٩ من
الجزء الثاني من رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش .

وفي نفس المجلس أثار أبو عبد الله ما جاء في القرآن الكريم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يبي بكر (لا تحزن وإن الله معنا) (١) ذلك لأن الشيعة كانوا يرون أن حزن أبي بكر (كان مسخوطاً) (٢) ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه عنه (٣) . فرد عليه أبو عثمان رداً وافياً شافياً ، ثم أثيرت مسألة البغض والحب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسألة ضرورة إطلاق لفظ صلى الله عليه وسلم عليه ، ومسألة الولاية . الخ . ولقد أجاب سعيد عن كل هذه القضايا اجابات موفقة محمودة .

ومجلس ثان (٤) ، وقد تعمّد أبو العباس الشيعي أن يستدعي سعيد بن الحداد ليستفزه ، وفي هذا المجلس كان أبو العباس يثير قضية جدلية عن العالم وأنه أعلم من المتعلم أبداً ، وذلك للتوصل للطعن بأبي بكر الصديق الذي كان يعتمد كثيراً على قضاء علي بن أبي طالب ، وفتاويه . فلم يسع سعيد سوى تبيان حقيقة الموقف معتمداً على أدلة من القرآن الكريم ، ومن السواقع . وقاد الحديث عن هذه المسألة تشعب للحديث عن قضايا أخرى لغوية كالا ستفهام عن المقصود بالمحصنات ، هل هن المتزوجات ، أم العفاف؟ وفي كل ذلك كان سعيد يجيب اجابات سديدة موفقة مضمناً حديثه بعض آيات من القرآن ومستشهدا ببعض احاديث تفيد المعنى . كما جرد الحديث الى قضايا أخرى طويلة ، كان سعيد فيها العلم المبرز .

-
- (١) سورة التوبة ، آية رقم ٤٠
 (٢) هذا تعبير المالكي ، ولعله يقصد أن الشيعة كانوا يرون أن أبا بكر قد استحق سخط الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أبدى الحزن في الغار .
 (٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١
 (٤) المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٨٦ - ٩٦ وهو مجلس طويل ، ويأتي في المرتبة الثانية كثرة بين تلك المجالس .

ومجلس ثالث (١) ، وكان مع الخليفة المهدي ، وقد بعث اليه بغرض مناظرته . وفي هذا المجلس أثار الخليفة ، مسألة الولاية ، أي ولاية علي بن أبي طالب ، وما جاء في حديث عبد ير خم عن الرسول صلى الله عليه وسلم : (من كنت مولاه ، فعلى مولاه . الخ)^(٢) ولذلك فقد تساءل الخليفة وهو الذي ينتسب الى الامام علي بن ابي طالب رضى الله عنه : لم لا يكون الناس عبيداً لنا . فأجابـه أبو عثمان عما تعنيه كلمة الولاية لغويا واصطلاحا ، معتمداً في ذلك كله على ماتدخره ذاكرته من الآي والا حاديث وأمثال العرب وكلامهم .

ومجلس رابع (٣) ، وكان الداعي اليه هذه المرة القاضي محمد ابن عمر المروذى ، وقد أثبت فيه مسألة قيام رمضان أو صلاة التراويح ، وتركزت حجة القاضي على أن قيام رمضان كان بأمر عمر بن الخطاب ، ولذلك فهو بدعة في نظر الشيعة . فما كان من سعيد بن الحداد الا أن أوضح له ، أصل البدعة ، مستشهداً بآي من القرآن بشأن البدعة الحسنة ، ولم يملك المروذى سوى أن يختتم المجلس بالتهديد بقتل كل من صلى صلاة القيام ، مما جعل سعيد بن الحداد يذكره بماقاله له في أول المجلس عن عدم الحاجة الى المناظرة ، لأنه يعرف ما ستسفر عنه .

ومجلس خامس ، مع أبي عبد الله الشيعي كذلك ، وقد

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٦٠
 (٢) لم يرو هذا الحديث من أصحاب السنن سوى الترمذى في جامعة (حديث رقم ٣٧٩٧) وابن ماجه في سننه (حديث رقم ١٦ ، ١٢١) والامام احمد في مسنده ج ٤ ، حديث (٣٦٨) انظر حاشية رقم ٣٣ من ص ٥٩ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس .
 (٣) المالكي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٦٠-٦١
 (٤) المالكي : نفسه ، ص ٦٢-٦٣

ثارت فيه قضايا عدة . فقد ذكر الداعي مسألة خطيرة ، وهي زعمة بأن القرآن يقر أن محمداً ليس بخاتم النبيين ، فلما قال لــــه سعيد ومن اين جاء بذلك القول؟ قال ابو عبد الله من قولــــه تعالى (. . وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (١) فخاتم النبيين غير رسول الله فقال سعيد له موضحاً بأن تلك الواو ليستكمــــا يظن من واوات الابتداء ، بل هي من أدوات العطف كقولــــه تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢) ، ثم سأله : فهل من أحد يوصف بهذه الصفة غير الله عز وجل ؟ وفي هذا الصدد يروى المالكي أن سعيداً تكلم يوماً عند أبي عبد الله كلاماً جعل أحد رجاله ينادي باللعنة الذي كان حاضراً المجلس يغضب ، حتى أنه هم بقتل سعيد فمنعه أبو عبد الله من ذلك . ثم التفت أبو عبد الله لسعيد معتذراً طالباً منه عدم الغضب موضحاً له قيمة ومكانة ذلك الرجل ، وأنه اذا غضب غضب له اثنا عشر ألف سيفاً ، أى يغضب لغضبي أنصاره الكثر . فقال له أبو عثمان (ولكن أنا يغضب لغضبي الله الواحد القهار الذي أهلك عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقرونأ بعد ذلك كثيراً ") (٣)

وأخيراً ، فاذا كان لنا من تعليق على هذه المجالس فهو أن تلك المجالس لم تشر إليها سوى المصادر السنية وخاصة كتب الطبقات والتراجم للمغاربة المعاصرين من أمثال

-
- (١) سورة الاحزاب ، آية رقم ٤٠
 (٢) سورة الحديد ، آية رقم ٣
 (٣) تضمين للآية ٣٨ من سورة الفرقان

محمد بن حارث الخشني^(١) ، وأبى بكر المالكي الذي كان يعيش قريباً من ذلك العصر . أما كتب الشيعة المعاصرة فلم تشد رالى تلك المجالس . وكل ما استطعنا العثور عليه في كتاب افتتاح الدعوة^(٢) وهو أن أبا العباس الشيعي قد تصدى لمناظرة بعض فقهاء المالكية فأفحسهم وأسكتهم . فهل هي هذه المناظرات التي أشرنا اليها ، أو الى بعضها ؟ وهل حقيقة أن أبا العباس قد أفحم فقهاء المالكية ، أم أنهم هم الذين غلبوا ؟

ومهما يكن فقد افتقدنا بعد ذلك أى ذكر للمناظرات أو للمجالس العلمية عند مؤرخى التراجم والطبقات طوال بقية الدور المغربى للخلافة الفاطمية . غير أننا ما نلبث أن نرى فى عهد الزيبيين وخاصة أولهم بلكين بن زبرى (٣٦٢ - ٣٧٣ هـ) إصراراً على استفزاز علماء المالكية واستدراجهم للمناظرة والمجادلة . فكان أن تصدى له العالم القيروانى المشهور أبو محمد عبد الله بن اسحاق المعروف بابن التبان (ت ٣٧١ هـ) كما عرفنا سابقاً .

وتولى أمر الدعوة للمناظرة عامل القيروان في عهد بلكين المعروف بابن المحتال ، فقد طلب هذا العامل من فقهاء المالكية مناظرته في بعض القضايا . ولقد بادر ابن التبان فطلب من رفقاءه ان يتيحوا له الفرصة للذهاب الى العامل ومناظرته ليبيح روحه دونهم حسب تعبير عياض في مداركه .^(٣) ولندع عياض^(٤) يروى لنا نص ما دار في ذلك المجلس : (ويقال أنه قال لعبد الله : لما دخل عليه جئتكَ عن قوم إيمانهم مثل الجبال ، أقلهم يقينا أنا فحدث

(١) أنظر تلك المجالس في كتابه : قضاة قرطبه وطبقات علماء

افريقية ، ص ٢٥٧ ، وما بعدها

(٢) ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٣) المدارك ، ج ٢ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢

(٤) المدارك ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٤

بعض من حضر ، قال : كنت مع عبد الله ، وقد احتفل مجلساً بأصحابه ،
وفيهما الداعيان : أبو طالب ، وأبو عبد الله (لعنهم الله) (١) . وقد
وجه الى ابن التبان ، فاذا به داخل وعينه توقدان ، كأنهما عينا
شجاع . فدخل وسلم ، فقال أبطأت عنا يا أبا محمد ، فقال : في
شغلك ، كتاب ألفت في فضائل أهل البيت الساعة . أتأتى به
المجلد ودفعه الى . فقال : يا أبا محمد ناظر هو؟ لا الدعاء
قال : في ماذا ؟ قال في فضائل أهل البيت فقال لهما : ماتحفظان
في ذلك . قال له أبو طالب : أنا احفظ حديثان - ولحن - ،
ثم سأل الآخر ، فقال له : وأنا احفظ حديثان ، فقال : فيماذان
الحديثان اللذان تحفظ أنت ؟ فقال له : هما يحفظان حديثان
ونطق بلحنهما - وأنا احفظ في ذلك تسعين حديثاً ، فأولسى
بهما الرجوع الى . ثم قال عبد الله : يا أبا محمد ، من أفضل أبوبكر
أوعلي ؟ قال : ليس هذا موضعه ، فقال : لا بد ، فقال : أبوبكر
أفضل من علي : فقال عبد الله : أيكون أبوبكر أفضل من خمسة
جبريل عليه السلام سادسهم ؟ فقال أبو محمد : أيكون علي أفضل
من اثنين ، الله ثالثهما (٢) ؟ أنى أقول لك ما بين الوجهين ، وأنت
تأتينى بأخبار الآحاد ، فضايق عبد الله ، وقال : فمن أفضل عائشة
أوفاطمة فقال له : هذا آخر سوءك الأول ، قال : لا بد . قال
عائشة رضى الله عنها وسائر أزواج النبی صلى الله عليه وسلم أفضل
من فاطمة قال من أين ؟ فقال له قال الله تعالى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ إِنْتَقِيتِنَّ) (٣) فيقال ان بعض الدعاء قال

- (١) هذا هو تعبير عياض الذى استمطر (اللعنات على الشيعة)
(٢) إشارة الى الآية الكريمة (تَانِيَّائَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) آية ٤٠ من سورة التوبة .
(٣) سورة الأحزاب ، آية رقم ٣٢

له في هذه المسألة . أيما أفضل امرأة أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها خديجة الكبرى ، وزوجها علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووالداها الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، أو امرأة أمها أم رومان وأبوها عبد الله بن أبي قحافة ؟ فقال له أبو محمد : أيهما أفضل عندك ، امرأة إذا طلقها زوجها ، أو مات عنها تزوجها عشرون زوجاً ، أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لاحد فيحكى ان أبا عبد الله قال له : يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين ، ومن يوثق بك . أدخل العهد وخذ البيعة . فعطف عليه أبو محمد وقال له : شيخ له ستون سنة ، يعرف حلال الله وحرامه ، ويرد على اثنين وسبعين فرقة . ويقال له هذا ؟ لو نُشِرتُ بين اثنين . ما فارقت مذهب مالك ، فلم يعارضه) .

وفي نفس الفترة نرى حدوث مواجهة علمية أكثر منها مناظرة تقع بين أحد شيوخ المالكية وأحد رجالات الشيعة . فقد روى عياض أن الفقيه المالكي عمر بن خلف المعروف بابن أخي هشام الربيعي الخياط (ت ٣٧١ هـ) ناظره بعضهم فقال له : أنتم تقولون من سب عائشة قتل . والله يقول : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .) (١) الآية والرسول إنما جلد أصحاب عائشة : فلم تأخذوا بالقرآن ولا بالسنة ! فقال له أبو سعيد : قال الله تعالى : (أُولَئِكَ مُبَرَّذُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) (٢) ليضرب مثل البراءة بما في القرآن وبعد القرآن من سبها فقد رد القرآن . ومن رد حرفاً منه فقد كفر باجماع) . (٣)

(١) سورة النور ، آية رقم ٤

(٢) سورة النور آية رقم ٢٥ ، ٢٦

(٣) عياض : المصدر السابق ، الجزء ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠

وفي عهد الأمير المعز بن باديس الصنهاجي ، حدثت مناظرة علمية حول الشيعة ومبادئهم ، ولكنها في هذه المرة وقعت بين فقهاء المالكية بعضهم بعضا ، وذلك أن الفقيه ايل اسحاق ابراهيم بن الحسن التونسي استفتى في أمر الشيعة وشرعية معاملاتهم ، وذلك عام ٤٣٧ هـ ، فأفتى بأن الشيعة على ضربين : الأول (كافر مباح الدم والضرب) ، والاخر (الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة لا يلزمهم الكفر، ولا تبطل نكاحاتهم) (١)

وبالطبع فقد أغضبت هذه الفتوى فقهاء المالكية الذين كانوا متشددين مع الشيعة لاسيما بعد أن لمسوا من المعز بن باديس الرغبة في التخلص من المذهب الاسماعيلي ، ولذلك فقد طلبوا منه العدول عن فتواه ولكنه رفض ، فرفع الموضوع الى المعز الذي استدعاه ونفراً من فقهاء المالكية للمناظرة بحضوره (٢) . ولندع عياض (٣) يقص علينا تفاصيل تلك المناظرة ، فقد ذكر أن المعز لما استدعى العلماء لمناظرة أبي اسحاق وناظروه (فأظهروا الانابة الى قولهم ، والرجوع اليهم ، ثم خلا باصحابه ، فأنكروا عليه رجوعه عن قولهم ، وأنه الحق الذي لا يجب سواه ، وكان رأى الفقهاء سد هذا الباب للعامة على هذه (الكفرة) وأن بنى عبيد زنادقة ، وأن الداخل في دعوتهم وان لم يقل بقولهم ، كافر لتوليها الكفرة) .

ومهما يكن من أمر فقد تمسك أبو اسحاق بفتواه السابقة مما أثار حفيظة الفقهاء والعامه عليه ، لاسيما وأن فتواه تلك قد استحسنت لدى الشيعة ولذلك فقد رماه الفقهاء بالتضليل والتبديع ، وحركوا

-
- (١) عياض: المصدر السابق والجزء ، ص ٧٦٦ - ٧٦٧
(٢) عياض: نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ص ٧٦٧
(٣) نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٧٦٧ - ٧٦٨

عليه الشعراء ينتقدونه ، حتى أدى الامر بالمعز الى انشاء سجل يحكى واقعة ابي اسحاق ، ويعلمن التبرؤ من قوله له وأمر بقراءة _____ على منبر القيروان في أحد ايام الجمع من عام ٤٣٨ هـ ، قبل الصلاة. (١)

(ثم أمر السلطان باحضاره في ذلك اليوم ، اثر الصلاة وأحضر معه الفقيه أبا القاسم اللبيدي في بقية مشيخة الفقهاء وكبيرهم ، والفقيه أبا الحسن بن المغربي والقاضى بأبا بكر بن محمد بن أبي زيد ، خاصة من بين سائر الفقهاء ، وكان هذان الفقيهان من أشد الناس ، وحكم في المسألة اللبيدي ، فحكم بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، وأن يقول ، كنت ضالا فيما رأيته ونطقت به ، ثم رجعت عن ذلك الى مذهب الجماعة ، فكانوا على ذلك . وكأنه استعظم الامر على المنبر ، وقال ها أنا اقول هذا بيتكم . فساعده وقنعوا منه يقول ذلك يحضره السلطان والجماعة ، وأن يقوله في مجلسه ويشيعه عن نفسه ، فافترقوا على ذلك) . (٢)

ويعلق القاضى (٣) عياض بأن الامر الذى لاجدال فيه ان الحق هو ما قاله أبو اسحاق غير أنه أخطأ في إصراره على فتواه لأن (رأى الجماعة كان أسد للحال وأولى بعائدة الخير) .

(١) عياض : المصدر السابق ، ص ٧٦٨ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٧٦٨

(٣) نفسه .

الفصل الرابع

الدراسات الأدبية واللغوية

- مدخل
- النشر
- الشعر
- اللغة والنحو

مدخل :

قبل أن نتصدى للحديث عن الدراسات الأدبية واللغوية في افريقية خلال الفترة الزمنية التي اخترناها رحاباً زمنياً للرسالة . نجد لزماً علينا أن نلقى الضوء على العوامل التي أثرت في مسيرة هذه الدراسات وقتذاك سلباً وإيجاباً ، ثم التعرض في ايجاز لملامح الحركة الأدبية واللغوية ذاتها ، ورصد اتجاهاتها وتطوراتها .

إن المتتبع للحركة الأدبية في افريقية سيلحظ دون ريب أن الاهتمام بالدراسات الأدبية واللغوية هناك قد تأخر لفترة طويلة نسبياً ، لكنه سيلحظ أيضاً أن الاهتمام بتلك الدراسات ما لبث أن أخذ حقه بعد ذلك ، فانبعثت نهضة أدبية ، وازدهرت وتطورت ، بل بلغت من الازدهار حداً جعلها تحتل مكاناً مرموقاً في مسيرة الحركة الأدبية العربية عموماً وتسهم في اثرائها كما سنعرف بعد .

وإذا أردنا مناقشة أسباب تأخر الإهتمام بالدراسات الأدبية الذي طال أمده أكثر من قرن ونصف قرن ، أى منذ المحاولات الأولى للفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ التي يعتبر قيامها نقطة تحول مهمة في تاريخ افريقية لوجودها تتدرج في عناصر مختلفة صبغت الحركة الأدبية بصبغتها آنذاك .

فبادئ ذي بدء نجد أن بلاد المغرب انفردت دون غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى بأن مدة فتحها قد طالت كثيراً ، وأن العرب لم يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على هذه البلاد ، إلا بعد سبعين عاماً من المحاولات الأولى للفتح كما هو معروف تاريخياً .

ومن المؤكد أنه في ظل طول أمد الفتح ، وما رافق ذلك من اضطرابات وفتن ، لم يكن من اليسير أن يظهر أى نشاط أدبي وقتذاك . كما أن من الطبيعي

أن يكون إهتمام الفاتحين العرب مصروفاً الى نشر الاسلام والدراستات الاسلامية بين البربر أولاً وقبل كل شئ*.

وبالاضافة الى هذا ، فإن ثمة عنصر ثانٍ كان سبباً في تأخر الإهتمام بالدراستات الأدبية بل بالأدب عموماً . فعلى الرغم من جهود الفاتحين العرب في نشر الاسلام واللغة العربية بين البربر ، وعلى الرغم من عظم الدور العلمى الذى لعبته مدينة القيروان منذ تأسيسها ، وعلى الرغم من جهود البعثات العلمية ، سواء كانت رسمية ، أو فردية ، فى نشر الاسلام واللغة العربية بين السكان ، على الرغم من ذلك كله ، فإن الحركة الأدبية لم يُقدّر لها البروز والظهور آنذاك . صحيح أن اللغة العربية انتشرت بين من أسلم من البربر بالضرورة وكانوا كثرة - ، نتيجة لجهود الفاتحين والولاة ، ولأنها لغة العبادات ، ولغة التخاطب والوظائف ، ولعجز اللغة البربرية من مجاراتها بعد دخول البربر حظوة الاسلام الا أن الانتشار شئ ، وتشرب روح اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها شئ آخر والأدب باعتباره نتاجاً ابداعياً وجدانياً يعتمد على الموهبة والاستعداد أولاً ، والحصيلة أو الخلفية الثقافية الكبيرة ثانياً ، يتطلب وقتاً طويلاً حتى تتفتح القرائح وتظهر الملكات ، وينشأ بالتالى أدب محلى . وفى إعتقادنا أن هذا الأمر جدد يديهى . فلا يمكن أن يظهر أدب بين قوم لم يتشبعوا بعد باللغة العربية ولم يصلوا الى درجة الانفعال بها ، كما لا يمكن ذلك حتى تكون دوافعهم قد تمثلت الأدب العربى نشراً وشعراً وأقاصيصاً ومسامرات فى أيام العرب وغيرها .

ولقد كان من المنتظر - كما يتراءى لنا - ، بعد أن هدأت حركة الفتح وأسلم المغرب قيادته للعرب المسلمين ، أن تؤدى العوامل المساعدة لازدهار الحياة الأدبية سواء المباشرة أو غير المباشرة فى ظهور حركة أدبية محلية ، لولا العوائق المعروفة التى اكتنفت بلاد المغرب ، فأخرت الإهتمام بالدراستات الأدبية . فالأحداث المؤسفة التى شهدتها بلاد المغرب منذ العقد الأول من القرن الثانى الهجرى ، وحتى العقد الثامن منه ، من حروب دامية بين العرب والبربر من جهة ، والولاة العرب والجند العرب من جهة أخرى - كما هو معلوم

وكما سبق أن ألمحنا اليه - ، جاءت لتؤخر انبعث نهضة أدبية محلية في هذه البلاد . ولسنا في حاجة الى القول بأن الأدب دائما هو مرآة صادقة تعكس طبيعة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتفيا الأدب ظلالتها وانكماشاً وتوسعا ، وتوقفاً وازدهاراً .

وثمة عنصر أخير أدى الى تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية في افريقية ، وهو عنصر تنفرد به افريقية دون سائر الأمصار الإسلامية . ذلك العنصر يتلخص في أن الاهتمام بالدراسات الشرعية في افريقية أسهم بطريق غير مباشر في تأخر الاهتمام بالدراسات الأدبية . وهذا القول - على ما فيه من غرابة - ، بيد وغير بعيد عن الصواب ، فتحت تأثير هبوب رياح التيارات الخارجية المتطرفة ورياح البدع والضلالات التي انتشرت في المغرب آنذاك ، لم يكن أمام المغاربة سوى الاهتمام بالدراسات الشرعية وحدها ، فكرسوا لها جل وقتهم ، وكأنما كان الاهتمام بالدراسات الشرعية وحدها وقتذاك مطلباً دينياً - وربما قومياً - واجباً .

على أن ذلك كله لا ينسبنا أن ثمة حركة أدبية بسيطة كانت تتفاعل في المغرب الأدنى خلال هذه الفترة التي حصرناها بين الفتح وقيام الأغلبية تلك الحركة ذات شقين : شق جاء عفويًا وتمثل في تيار شعري ، جاء نتيجة لاستعمار الخلاف بين الولاة العرب والجنود العرب ، فاستخدم كلا الطرفين سلاح الشعر . وشق آخر يمكن اعتباره بمثابة حركة أدبية وافدة سواء بالمؤثرات التي تبنتها ، وهي انتصاب الأسرة المهيمنة لحكم بلاد المغرب وخاصة يزيد بن حاتم الذي شجع الأدب والأدباء ، أو بالعناصر التي صنعتها ، وهو ما تمثل في تقاطر الأدباء واللغويين على افريقية اما يدعوات رسمية من المهيمنة ، أو برغبات فردية محضة . (١)

(١) عن تلك الحركة الأدبية الوافدة ودور يزيد بن حاتم فيها أنظر تقويم محمد محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية ، ص ٤٩-٥٤ .

أما وقد أثينا على ذكر مسببات تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية خلال تلك الفترة التي أشرنا إليها ، فإن الوقت قد حان للتحدث عن المسببات التي أدت الى تقدم الدراسات الأدبية ، بل وتطورها وازدهارها فيما بعد .

سبق وذكرنا أن قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ ، كان نقطة تحول مهمة في مسيرة الحركة الأدبية ، وهو قول صحيح لا غبار عليه - فقيام الدول المستقلة ومن ثم استقرارها أمر مؤثر جدا في تطور الأدب والدراسات الأدبية ، بل وفي تطور الحياة العلمية عموما (١) ، وإن كان ذلك في الأدب أبرز وأظهر . ولقد اتضح هذا بصورة جلية في افريقية ، فما أن قامت الدولة الأغلبية واستقرت قواعدها ، حتى رأينا الدراسات الأدبية تأخذ مكانها في مسيرة الحركة العلمية ، وهو الأمر الذي توالى بعد ذلك في عهدى الفاطميين والزييريين . ولقد أدى انفراد الأغلبية بحكم افريقية انفرادا مطلقا ، إلا من سلطة اسمية للخلافة العباسية ، الى انصرافهم الى بناء دولة بكل مقوماتها الحضارية لهم هناك . وسمح لهم الاستقرار النسبي الذي عرفته افريقية في عهدهم بتحقيق أهدافهم . فعمت البلاد في عهدهم نهضة شملت كافة ضروب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية (٢) ، وكان من الطبيعي أن تشمل الحياة العلمية ، والدراسات الأدبية اقتضاء .

ومما أدى الى نشاط الدراسات الأدبية في عهد الأغلبية وما تلاه من عهد أن ظروفنا شتى اسهمت في ذلك كإعدام الروح العنصرية بين البربر والعرب بل وزيادتها ، ولا سيما وأن البربر ، رأوا في قيام الدولة الأغلبية تعبيرا عن الشعور بالاستقلال كما ذكرنا سابقا (٣) . ثم الرخاء والثراء الذي أصابته الدولة من جراء

(١) راجع ما قلناه قبل من عوامل ازدهار الحياة العلمية في افريقية

(٢) من التقدم الحضارى الذى بلغته افريقية فى عهد الأغلبية . أنظر مثلاً عثمان الكعاك : المجتمع التونسى على عهد الاغالبه ، ص . ١٤٤ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٧٥

فتحها الصقلية عام ٢١٣ هـ ، مما ترتب عليه بحبوحه من العيش وانعكست آثارها
فى تهيئة المناخ الصالح لتقدم الدراسات الأدبية . ولذلك انطلق أبناء البلاد
سواء كانوا من البربر أو العرب الى ابتهاج تلك الظروف السانحة فملأوا البلاد
شعرا ونثرا ونموا .

ولقد زاد من اشتعال جذوة الأدب والدراسات الأدبية فى عهد
الأغالبة ، أن الامراء الاغالبة أنفسهم بحكم كونهم عرباً خلص ، كان يهزهم كما يقول
محمد عبد المنعم خفاجى (١) البيان الجيد ، وتدفعهم أريحياتهم الى تشجيع
الأدباء واللغويين والنحاة وتقريبهم . هذا الى جانب أن معظم أولئك الأمراء
كانوا يفرضون الشعر ويتذوقونه .

والحق ان الأسباب والعوامل التى دفعت بالدراسات الأدبية قد ما
نحو الامام ، كانت متعددة ، علاوة على ما أسلفنا ذكره منها . فعلى سبيل
المثال نذكر من أهم تلك الأسباب توافد الادباء النحاة على افريقية واستيطانهم
بها ، ثم رحلات المغاربة الى المشرق وما تضيفه من انكااء الحس الأدبى لديهم
ثم الرغبة فى اضافة جو من المهابة والأبهة على الدولة ، ارضاء للشعور الذاتى
من جهة ، وخلق شعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة من جهة أخرى .

وفى عصر الفاطميين تضافرت معظم تلك العوامل السابقة فى تقدم وازدهار
الدراسات الأدبية من استقرار سياسى نسبى ، ومن رخاء اقتصادى عيم نتج عن
اتساع رقعة البلاد بضمها أجزاء واسعة من المغرب الكبير ، الى الرغبة فى تشجيع
الأدب ورجالاته ، الى تمتع خلفاء الفاطميين أنفسهم بالحس والذوق الأدبى ،
ولاسيما أن معظمهم ممن فرض الشعر وتذوقه ، الى الرغبة الطاغية فى جعل
بلاطهم أكثر توهجا وتألقاً من بلاط العباسيين فى بغداد والأمويين فى قرطبة .

(١) قصة الأدبية فى ليبيا من الفتح الاسلامى الى اليوم ، الجزء الأول ص ٦٢

إضافة إلى تأثير عوامل إزدهار الحياة العلمية سالفه الذكر التي ألمحنا إليها من قبل .

بيد أن الباحث الرئيسي الذي أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصر الفاطميين بالإضافة لما ذكر ، هو باحث الاختلاف المذهبي الذي أفاد الحركة الأدبية أيما إفادة . فلقد نشط الفاطميون في الترويج لمبادئ مذهبهم فاصطنعوا العديد من الأدباء والشعراء واللغويين يمجدون دلتهم ويمتدحون مذهبهم ويغالون في إضفاء صفة الاجلال والمهابة عليهم . وحفز ذلك أدباء وشعراء البلاد ممن تمذهبوا بالمذهب المالكي ، - وهو مذهب الأغلبية العظمى - ، إلى الانبراء في التصدي لأولئك الأدباء المحسوبين على الدولة بنفس سلاحهم الذي شرفوه ، وهو سلاح الأدب ، فكان أن خلق ذلك كله تياراً أدبياً قوياً نشيطاً . فامتدت بالتالي الأبحاث اللغوية والأدبية ، وأصبحت سوق الأدب نافقة في عصرهم (١) .

أما عصر الزيبريين ، فلم يكن الا الشرة الناضجة التي تكونت نتيجة لتضافر معظم العوامل السابقة التي أشرنا إليها ، والتي أسهمت في انبعساك وتقدم النشاط الأدبي في العصرين السابقين ، علاوة على تأثير عوامل ازدهار الحياة العلمية الطبيعية التي أشرنا إليها سابقاً .

بيد أن إزدهار الحركة الأدبية وتطورها في عصر الزيبريين لم يكن نتيجة للعوامل السابقة التي كانت قد را مشتركاً بين العصور السابقة فحسب ، بل انغرد هذا العصر بعوامل أخرى ، منها ما جاء عقوياً طبيعياً ، ومنها ما جاء قصداً ، فأدى بالإضافة لما سبق إلى تقدم الدراسات الأدبية واللغوية التي

(١) حول تأثير العامل المذهبي في اثراء الدراسات الأدبية واللغوية في افريقية في عصر الفاطميين وللاستزادة ، أنظر محمد عبد المنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، ج ١ ، ص ١١٣-١١٧ - عبدة قليلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج ١ ، ص ٣٥ - رايح بونار : المرجع السابق ، ص ١٨٥ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٢٨١ .

بلغتها البلاد في هذا العصر الذي يعتبر العصر الذهبي للحياة الأدبية على وجه الخصوص .

فلم يكن قيام الدولة الزيرية وانفرادها بحكم البلاد انفراداً مطلقاً الا من تبعته سياسية اسمية ومذهبية بالخلافة الفاطمية في الدور الأول من حياتها . نقول لم يكن ذلك وحده واضحاً في استمرار الاهتمام بالحياة العلمية ومن بينها الحياة الأدبية دون شك . ذلك أنه رافق ذلك عامل آخر كان له دوره المؤثر هو الشعور القومي الذي استفزه واستفزه قيام هذه الدولة البربرية الصرفة ، فانطلق أبناء البلاد يبدعون ويثرون الحياة العلمية بأوجهها المختلفة . وفي اعتقادنا أن الأمر لم يقتصر على إرضاء الشعور العنصري لدى البربر فحسب ، بل أرضى شعور العرب المقيمين والمتأصلين في تلك البلاد أي افريقية ، الذين رأوا في الدولة الزيرية دولة عربية المنزع والهوى ، بتوجهها نحو الثقافة العربية قلباً وقالها (١) .

(١) لعل الزيريين بالإضافة الى تشيعهم بالثقافة العربية ، كانوا يصرون فسي تشجيعهم للعلم والعلماء والأدب والأدباء من أنهم كانوا يرون أنفسهم عرباً . ومن هنا كانوا يصرون على تأكيد حقيقة انتسابهم الى قبيلة حمير كل ما سنحت الظروف الى ترديد ذلك . ويكفي دليل واحد نسوقه ليؤكد ما قلناه . فقد نسب الى المتصور بن بلكين بن زيري (٣٧٣-٣٨٦هـ) ثاني أمراء الدولة الزيرية قوله وهو يبرر حسن معاملته للناس (ان أبي وجدى أخذنا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لا آخذهم الا بالاحسان ، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير) .

أنظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٠ .
ولقد جرى كثير من المؤرخين القدامى على أنها نسبهم بالجد الأكبر لقبيلة حمير . ومن أولئك : ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٣-٣٤٤ في ترجمته لزيري بن مناد جد الزيريين ، وفي ترجمة بلكين بن زيري ابنه في الجزء الاول ، ص ٢٨٦ ، وفي ص ٤١١ من نفس الجزء فسي ترجمته باديس بن بلكين ، وفي المجلد الخامس ، ص ٢٣٣-٢٣٦ في ترجمة المعز بن باديس ، وفي ص ٣٠٤-٣٠٦ الجزء الاول في ترجمة تميم بن المعز بن باديس ، حيث أوصله الى سام بن نوح . ونحن نورد هذا لا على أساس =

وإذا كان الاستقرار النسبي المؤثر في دفع الحركة العلمية قدما ، قد را
مشاركا بين العصور السابقة للعصر الزيري ، أعني العصر الأغلبي والعصر الفاطمي
الا أنه كان أوضح وأبرز في عصر الزيريين ، لا سيما بعد أن تمخضت الأحداث
السياسية عن انكفاء الزيريين على أنفسهم بعد الانقسام العائلي الذي تم بموجبه
قيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط (١) ، وأدى هذا بهم الى الالتفاف لرفع
شأن دولتهم والاهتمام بها ، وتكريس جل أوقاتهم في رعاية الحركة العلمية
والأدبية على وجه الخصوص .

ومما أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصرهم الرخاء والثراء
الاقتصادي العظيم الذي تحقق لهم ، صحيح أن العصريين السابقين تمتعوا
بمحالات كبرى من الرخاء الاقتصادي ، لكن الرخاء الذي شهدته عصر الزيريين
فاق كل ما شهدته تلك العصور السابقة ، وذلك نتيجة للتحوّل الذي طرأ على
طريق التجارة بين غرب افريقية ومصر (٢) ، مما كفل حياة ناعمة لينّة للمجتمع
الافريقي في عصرهم ، وخلق مناخاً صالحاً لانتعاش الحياة الأدبية .

وكان من حظ الدولة الزيرية كما يتراءى لنا أنها كانت الوريثة للتمدن
الاسلامي والتحضّر الذي كانت قد رعته الأنظمة السياسية التي سبقتها ، ثم
سلمتها اياه يافعا ، أسهمت هي في تطوره وسوقه بعيدا نحو الازدهار والتطور .

وأخيرا ، فإن مما أسهم في تنشيط الدراسات الأدبية واللغوية ، بل
وازدهارهما ، أن قيض الله للبلاد شخصا كان له دور عظيم في ذلك . ذلكم
هو الأمير المعز بن باديس ، الذي يعتبر الباعث الحقيقي للنهضة الأدبية
الشاملة التي شهدتها افريقية آنذاك . وليس في الأمر غرابة اذا ما عرفنا أن

= أننا نؤيد صحة نسب الزيريين الى حمير أو نستبعده ، بل لنستدل به على
أنهم كانوا يرون أنفسهم عربا خلص .

(١) أنظر قبل ص ٨٧ - ٨٨

(٢) أنظر الحبيب الجنماني : المغرب الاسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية ،

ص ١٣ - ٢٦ .

المعز كان واسطة عقد الامراء الزيريين ، وأبسطهم طولاً ونفوذاً ، ثم أن عهده كان أطول عهودهم زمناً ، فقد امتد حكمه الى ما يصل الى نصف قرن من الزمن . ومن هنا فقد حرص على أن يجعل بلاطه لا يقل روعة وبهاءً من البلاطات الزاهية في الأندلس والقاهرة وبغداد وغيرها . اضافة الى ذلك ، فقد فطر هو نفسه على حب العلم والأدب ، لا سيما وهو ذو الحس والأدب المرفه . ومن هذا كله يتضح لنا كيف أفاء على الإرب والأدباء من التشجيع والرفاية ، وببيتين لنا بالتالى ازدهار عهده بأبرز الأدباء واللغويين ذكرا وأبعدهم صيتاً . ولقد أطنب كثير من المؤرخين القدامى وبعض من الباحثين المحدثين فى وصف مقدار ما وصلت به الحياة الأدبية (١) فى عهده الذى وصفه بعضهم بحق بأنه العصر الذهبى للأدب. (٢)

يبقى أن نشير أخيراً الى أهم ملامح الحركة الأدبية الافريقية خلال الفترة موضع الاهتمام . وفى الحق فإن أول ما يتبادر للمتتبع للحركة الأدبية الافريقية من ملاحظات ، هو أن افريقية لم تعرف كل فنون الأدب التى عرفها المشرق ، وعرفت الأندلس كذلك . ففى النثر لم تعرف البلاد القصص مثلاً ، كما أنها لم تعرف المقالة أيضاً . وإذا كانت قد عرفت المقامة فإنها قد عرفت بها بشكل محدود جداً . وفى الشعر لم تعرف افريقية الموشحات ولا الأزجال ، كما أن طرفها لبعض الأغراض الشعرية كان ضعيفاً باهتاً الى الدرجة التى لا يكاد يبين

(١) أنظر مثلاً : ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الخامس ، ص ٣٣١-٣٣٦ . ابن مغازى : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٩٥-٢٩٨ . أبو القاسم كروو عبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ١١١-١١٥ . حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٢٢٢ . بساط العقيق ، ص ٧٧-٨٢ . عبد الرحمن باغى : حياة القيروان ومواقف ابن رشيق منها ، ص ٧٨-٧٩ . ٩٦-١٠٢ . عبد الرؤوف مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، ص ٧٤-٧٧ . أحمد بن عامر : الدولة الضمائية ، ص ٥٠-٥٤ . محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ١٤-١٥ . عبدة قليلة : المرجع السابق :

ص ٣٥-٣٦ .

(٢) أبو القاسم كروو عبد الله شريط : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١١٣ . أحمد بن عامر : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٥٠ . عبدة قليلة : المرجع السابق ص ٣٦ .

فيها ، مثل الخمريات ولعل في طبيعة المغاربة المنشودة والمحافظة على العقيدة النقية ما نأى بهم عن طرق هذا اللون من ألوان الشعر إلا قليلاً .

والملاحظة الثانية التي نلاحظها من تتبعنا لملاح الحركة الأدبية الإفريقية ، هي أن بعض أوجه الحركة الأدبية بمعناها الواسع من نثر وشعر ولغة ونحو قد حظيت بالغلبة والظهور في بعض العصور السياسية السابقة دون بقية الأوجه أو بمعنى أدق أن بعض أوجه الحركة الأدبية كانت أوسع انتشاراً من بقية الأوجه الأخرى .

والملاحظة الثالثة التي تبّدت لنا نحن نستقرئ أهم ملاح الحركة الأدبية واللغوية الإفريقية ، هي أن الحركة الأدبية هناك كانت تقتفي دون ريب مثيلتها في المشرق . بمعنى أن الحركة الأدبية الإفريقية تأثرت في كثير من مناحيها بالحركة الأدبية في المشرق . ولكننا نستدرك فنقول بأن ذلك لم يكن مطلقاً ، لتماثل العناصر الأساسية التي كونت الثقافة والأدب العربي في المشرق والمغرب ، كما لاحظ ذلك بحق أبو القاسم كروو عبد الله شريط في كتابيهما : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب^(١) عند تناولهما لحقيقة التشابه بين الأدب بين المشرقي والمغربي حسبما سنعرف بعد .

أما الملاحظة الرابعة والأخيرة كما تتراءى لنا في أهم ملاحح الحركة الأدبية ، فهي أن الدراسات الأدبية واللغوية لم تتساو مع الدراسات الشرعية في كمها ونوعها . وعلى ذلك فهي تمثل المرتبة الثانية في تسلسل مسيرة الحياة العلمية بعد الدراسات الشرعية .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٥٠ .

النشر :

- النشر في عصر الولاة .
- النشر في عصر الأغابة .
- النشر في عصر الفاطميين .
- النشر في عصر الزيريين .

- الأدب :

أولا : النشر :

من المعروف أن النشر يشكل أحد فرعي الأدب بجانب الشعر، كما أن من المعروف أن النشر ينقسم بدوره إلى نوعين رئيسيين، أولهما: النشر الفني، ويضم عدة فروع كالكتابة الديوانية أو السلطانية، وهي المكاتبات الرسمية التي تصدر عن الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء للولاة والعمال وغيرهم أو العكس. وكالرسائل الإخوانية المتبادلة بين الأدباء وغيرهم، كالخطب والوصايا وغير ذلك. وثانيهما هو النشر التأليفي الأدبي المتمثل في تأليف مؤلفات أدبية بالمعنى الدقيق للأدب، ثم المقامة، والمقالة، والقصة... الخ.

- النشر في عصر الولاة :

ذكرنا من قبل أن عصر الولاة لم يُقدَّر له أن يشهد نشاطاً أدبياً مزدهراً، وإن كان هو العصر الذي بزغت فيه تباشير النهضة الأدبية التي عرفت أفريقيا بعد ذلك. بيد أن هذا لا يعني خلو هذا العصر من نشاط نثري. فعلى سبيل المثال كان هناك نشاط نثري فني لا بأس به، لاسيما وأن ظروف بلاد المغرب السياسية استدعت وجوده، وبالأخص المكاتبات الرسمية بين الخلافة في المشرق والولاة، وبين الولاة والخارجين على الدولة، ونفس الشيء يمكن أن يقال من الخطب.

- النشر الفني :

فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية. حفظت لنا المصادر إشارة إلى رسالة بعث بها الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي (٢٤٠-٢٢٧هـ) إلى خواجه طنجة، وهي الرسالة التي أشرنا إليها من قبل عند حديثنا عن الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية والاباضية (١). والرسالة بالطبع كانت تحمل روح ذلك

(١) أنظر قبل، ص ٤٩٢-٤٩٣

العصر من الناحية الأدبية ، فقد اتسمت بالبساطة ، والبعد عن التكلف والتزييق الأدبي الذي عرفته المكاتبات الرسمية بعد ذلك .

ومع أن المؤرخين أشاروا الى أن عصر الولاة بعد ذلك ، وخاصة في عهد الأسرة الهلالية التي تولت أمر المغرب الأدنى مدة تصل الى ربع قرن من الزمن ، قد حفل بالمكاتبات الرسمية بين الخلافة العباسية والولاة من جهة ، وبين الولاة والخارجين عليهم من جهة أخرى (١) . الا أننا لم نوثق في العثـور على نصوص تلك المكاتبات لمعرفة كتابها من ناحية ، ولتبيان مكانتها الأدبية من ناحية أخرى . غير أن المرجح أن أسلوبها لا يحمل أى خلاف لطبيعة كتابة وروح ذلك العصر . والأمر نفسه يمكن أن يقال عن المكاتبات الرسمية التي حفل بها عهد آخر واليين عباسيين للمغرب الأدنى ، وهما ، هرثمة بن أمين ، ومحمد بن مقاتل العكي (٢) .

ولئن لم تـخلد لنا المصادر أسماء كتّاب عصر الولاة ، إلا أنها احتفظت لنا بذكر كاتب أدبي كانت له مكانة في الترسل والانشاء . ذلك الكاتب هو خالد بن أبي ربيعة الافريقي (كان حياً سنة ١٤٠ هـ) فقد فاصر خالد بن أبي ربيعة عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع مؤسس الأسرة الفهرية التي حكمت المغرب ، من عام ٢٧٠ حتى ١٤٠ هـ وقد استكتب عبد الرحمن خالد بن أبي ربيعة ، فجعله مسؤولاً عن المراسلات الرسمية . ومع أننا لم نعثر على شيء ذي بال من كتاباته ، وكذلك عن تفاصيل ترجمته ، الا أننا عرفنا أنه هو الذي حرر الكتاب الرسمي الذي بعثه عبد الرحمن الى الخليفة الأموي مروان بن

-
- (١) من تلك المكاتبات الرسمية التي أشار اليها المؤرخون دون أن يوردوا نصوصها ، أنظر مثلاً : الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ . الى غير ذلك
- (٢) من تلك المكاتبات أنظر كذلك : الرقيق القيرواني ، نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٠٧ - ٢١١ .

محمد يعترف له فيه بالطاعة ، وعرفنا بأنه هو الذى حمل الكتاب الرسمى الى الخليفة فى دمشق . وفى دمشق قابل الكاتب المشهور عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب ، حيث انعقدت أواصر صداقة بينهما (١). ثم عاد الى بلده ليمارس مهمته فى تحرير الرسائل الرسمية التى كان عبد الرحمن بن حبيب يبعثها الى الآفاق . وعند ما خلع عبد الرحمن طاعة الدولة العباسية حرر خالد بن أبى ربيعة الكتاب الرسمى الذى نص على خلع طاعة الخليفة المنصور ، والذى قرئ على المنابر فى سائر بلاد المغرب (٢) .

ومهما يكن ، فان خالد بن أبى ربيعة وصف بأنه كاتب (مترسل بليغ ، نشأ فى الدواوين ، وله رسائل مجموعة فى الأدب نحو مائتى ورقة) كما يقول ابن النديم (٣) .

وإذا مضينا نبحث عن الرسائل الاخوانية باعتبارها ضرباً من ضروب النشر الفنى ، فلن تأخذنا الدهشة اذا عرفنا أنها انعدمت تقريباً خلال هذا العصر . وهو أمر طبيعى دون ريب . ومع أن بين أيدينا رسالتين بعثتهما العابد الزاهد العالم أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي (٤) (ت قبل ١٢٠هـ) (٥) الى صديقه : الفقيه البهلول بن راشد المتوفى عام ١٨٣هـ ، والفقيه عبد الله بن فروخ المتوفى عام ١٢٥هـ حسبما عرفنا سابقاً . أما رسالته للبهلول ، فقد غلبت عليها البساطة فى التعبير ، ووضوح المعنى لا سيما وهى رسالة نصح . وقد

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٥١-١٥٣ .
 - (٢) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ويسميه خالد بن ربيعة بدون (أبى) - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .
 - (٣) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٥٥ .
 - (٤) ترجم له المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٠-٢٢٠ .
 - (٥) هذا هو التاريخ المعقول لوفاته . ولا عبرة لما قاله المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٢١١ . من أنه توفى سنة ١٧٢هـ ، ذلك لأن المالكي نفسه يذكر بأن يزيد بن حاتم المهلبى شهد وفاة رباح وصلى عليه والمعروف تاريخياً أن يزيد بن حاتم توفى سنة ١٧٠هـ . انظر ما ذكرناه من ولايته قبل ، ص ٦٩ . ومن هنا أشرنا الى أنه توفى قبل عام ١٧٠هـ . أولعله فى نفس العام الذى توفى فيه يزيد بن حاتم .

ضمن رباح بن يزيد الرسالة بالعديد من الآيات القرآنية الكريمة ، كما استشهد فيها بالعديد من الأحاديث النبوية. (١)

أما رسالة رباح بن يزيد الأخرى لعبد الله بن فروخ ، فهي على غرار الرسالة الأولى من حيث خلوها من الرونق الأدبي ، ومن حيث وضوح فكرتها ومن حيث تضمينها بعض الآيات الكريمة ، والاستشهاد ببعض الأحاديث النبوية وان كانت قد تميزت عن الأولى باشتغالها على بعض أقوال الحكمة . وقد جاءت هذه الرسالة ردا على رسالة كان قد بعثها له عبد الله بن فروخ (٢) .

وفيما يتصل بالخطابة ، سواء كانت سياسية ، أو كانت دينية ، فقد انعدمت الإشارة اليها تقريبا . وكل ما أمكننا العثور عليه منها : خطبتان سياسيتان ، أحدهما لعبد الرحمن بن حبيب بن أبي حبيدة مؤسس الأسرة الفهرية كما عرفنا من قبل ، والأخرى لأبي الخطاب عبد الأعلى بن المح المعافري الاباضي (ت ٤٤٤ هـ) أول أئمة الظهور الاباضية في المغرب الأدنى حسبما عرفنا من قبل أيضا .

أما خطبة عبد الرحمن بن حبيب التي ألقاها من على منبر القيروان من عام ١٣٧ هـ ، والتي أعلن فيها خلع طاعة الخليفة العباسي المنصور ، فان النتف اليسير الذي وصلنا منها ، لا يمكننا من الحكم على مكانتها الأدبية (٣) . وأما الخطبة الأخرى التي خطبها أبو الخطاب في جموع الاباضية أثناء الاستعداد لا قتحام مدينة القيروان ، وذلك قبل وفاته بقليل ، فهي وان كان قد ورد عنها شيء غير يسير ، الا أنها كانت تعبر عن روح العصر الأدبي الذي عرفه مصر الولاة ان بدت عليها البساطة في التعبير ، ووضوح الفكرة وجنوحها الى مخاطبة العقل ، وخلوها من الرونق الأدبي (٤) .

(١) أنظر نص الرسالة عند المالكي : المصدر السابق ، ص ٢١٦-٢١٨ .

(٢) أنظر نصها عند المالكي : المصدر السابق ، ص ٢١٨-٢٢٠ .

(٣) من تلك الخطبة أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٣٤-١٣٥ .

ابن عذارى : المصدر السابق والجز ، ص ٦٧ .

(٤) عن نص تلك الخطبة أنظر أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا ،

ص ١٧٨ و أنظر تعليقه عليها كذلك في ص ١٨٠ .

٢ - النشر التأليفى :

من الطبيعى أن لا نوفق فى العثور على أى اسهامات فى النشاط النشرى التأليفى فى هذا العصر ، الذى ذكرنا أنه يمثل عصر النشوء الأكبسى . وينطبق هذا على مدينة القيروان آنذاك ، كما يصدق على بقية مدن وأقاليم افريقية . ولسنا فى حاجة الى القول بأن الاهتمام بنشر المذهب المالکى والتأليف فى مجال الفقه بصفة خاصة كان أهم ما يشغل العقول آنذاك ، ويصرف أبناء البلاد عن الاهتمام بالأدب والتأليف فيه ، اضافة الى تأثير العوامل سالفه الذكر فى تأخر الاهتمام بالأدب خلال هذا العصر .

النثر في عصر الأغلبة :

أهم ما يلاحظه الدارس للحركة الأدبية واللغوية في عصر الأغلبة هو أن النثر بقسميه الرئيسيين وبما يتدرج تحتها من فروع وأنواع ، كان أقل أوجه الحركة الأدبية طاء ، سواء كان ذلك بالنسبة للشعر ، أو بالنسبة للدراسات اللغوية والنحوية . على أن ذلك لا ينفي حقيقة أن ما حفظ من ذلك النثر القليل بأنواعه المختلفة قد لسه التطور الأدبي كما ونوعا قياسا الى عصر الولاة الذي سبقه .

١ - النثر الفني :

على الرغم من الاستقرار النسبي الذي عرفته افريقية في عصر الأغلبة ، الا أنه لم يخل بالطبع من الفتن والقلقل الداخلية والخارجية . ومن هنا فقد حفل هذا العصر بالكثير من القضايا السياسية والعسكرية التي استوجبت اللجوء للمكاتبات الديوانية أو الرسمية ، سواء ما كان من مراسلات بين الخلافة العباسية ، وبين بعض أمراء الأغلبة ، أو ما كان بين بعض أمراء الأغلبة وبين عمالهم والخارجين عليهم ، وعلى الرغم من أن المؤرخين القدامى أشاروا الى ظروف تلك المكاتبات ، الا أنهم لم يزودونا الا بنصوص القليل منها ، كما أنهم ضنوا علينا بذكر الكتاب الذين أوكل اليهم أمر تلك المكاتبات .

ولعل من أول النماذج القليلة التي حفظها لنا المؤرخون ، والتي تبودلت في أول عصر الأغلبة ، الرسالة التي بعثها الأمير ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية الى الشاعر عليه : خريش بن عبد الرحمن بن خريش الكندي .^(١) والرسالة في الأصل عبارة عن رسالة تهديد وتقريع ، ولكنها تحمل في مضامينها

(١) عن ثورة خريش بن عبد الرحمن بن خريش الكندي على ابراهيم بن الأغلب وما تخفى فيها ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ مع الحواشي .

روح السخرية والازدراء بقليل من التأنيق اللفظي . وقد ختمها ابراهيم بعسدة أبيات يفتخر فيها بنفسه ، ويتوعد خريشا ويتهدده (١) .

أما في عهد ملوك خلفائه من أبناء الثلاثة الذين تولوا الحكم بعده عبد الله (٩٦-١٠١ هـ) وزيادة الله المعروف بزيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣ هـ) والأغلب (٢٢٣-٢٢٦ هـ) ، فلم يقدر لنا لسوء الحظ العثور على نماذج أو نصوص المكاتبات العديدة التي كانت متداولة وقتها بين الخلافة وبينهم من ناحية (٢) ، وبينهم وبين الخارجيين عليهم من ناحية أخرى (٣) . هذا فضلا عن أننا لم نحظ بالتعرف على الكتاب الرسميين الذين كان يضمهم البلاط الأغلبى وقتئذ .

وفي عهد الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢ هـ) صادف أسماؤنا لأول مرة ذكر لكاتب رسمي له وهو نصر بن حمزة الجروى . ولم يتسن لنا أن نعرف منه أكثر من أنه غدا ذا أهمية كبيرة في عهد الأمير محمد ، ثم ازدادت مكانته وأهميته عندما استبد ولي العهد الأمير أحمد شقيق الأمير محمد بشؤون الامارة دون أخيه . فقد رقااه الأمير أحمد الى مرتبة الوزارة ، بالإضافة الى رتبة الكتابة (٤) . أما عن مكانته في الترسل والانشاء ، فلم تسعفنا المصادر بالتنويه الى ذلك .

أما عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) ، المعروف بابراهيم الأصغر أو الثانى ، فقد كان عامرا بالنشاط الأدبى ولا سيما جانب المراسلات الديوانية أو السلطانية . ولا غرابة فى الأمر اذا عرفنا أن هذا الأمير يعتبر واسطة فقد الأمراء الأغلبية ، ويعتبر عهده أطول العهود الاغلبية زمنا . كما أن عهده يعتبر ذروة العصر الاغلبى فى كافة الجوانب خاصة

-
- (١) أنظر رابح بونار: المغرب العربى ، ص ١٠٨ حيث أورد نص الرسالة .
 (٢) أنظر من تلك المكاتبات ، سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ٦٤ مع الحواشى .
 (٣) من تلك المكاتبات ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ .
 (٤) سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ٧٩ ، ٨١ .
 (٥) سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١١٤ - ١٢٩ .

الجانبيين : الأدبي والعلمي (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإننا في عهده طرق أسماعنا لأول مرة ، ذكر ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل الديوانية ، وهو أمر له دلالة من حيث الإشارة الى ما بلغته البلاد من رقي وتطور أدبي ، كما أننا تعرفنا على العديد من نصوص الرسائل الديوانية ، فضلا عن أننا ازددنا تعرفا بعدد من أسماء الكتاب اللامعين في هذا العهد والعهديين اللذين بعده . وفوق هذا وذاك ، فإن عهد ابراهيم الثاني عرف نشاطا نشريا تأليفيا حسبما سنشير اليه بعد قليل .

ومن أوائل الكتاب الأدباء اللامعين الذين عرفهم عهد الأمير ابراهيم الكاتب الأديب أبو العباس محمد بن أحمد بن حيون المعروف بالبريدى (٢) (ت ٢٧٦هـ) ولقد بلغ البريدى من المكانة الأدبية ما جعل الأمير يوليه أمر المكاتبات الديوانية بيد أنه ما لبث أن سخط عليه فسجنه . ولقد حاول البريدى أن يستعطف الأمير بأن يعفو عنه ، فبعث له برسالة ، حفظ شطر كبير منها لحسن الحظ .

والرسالة من الحلاوة والطلاوة والمكانة البلاغية ، ما يسمح لنا أن نورد ها هنا ، لماتثله من ايضاح للجو الأدبي الذى كانت تعيشه بلاد افريقية وقتذاك ولايضاح الفرق بين ما بلغه النشر الفنى - على قلته - ، فى عصر الأغلبة وبين ما كان عليه النشر فى عصر الولاة ، فلقد خاطب البريدى الأمير بقوله : (أعز الله الأمير ، لكرم العفو ، وعلو قدره ، وجليل خطره نسى الله عز وجل به فسمى نفسه العفو الغفور . والطبع البشرى مركب على النقص ، مقرون بالزلزل الا ما خص الله به الأنبياء ، وأودعه السادات الأمراء ، من طهارة الأخلاق ونزاهة الأنفس ، ولست أيد الله الأمير ممن يدعى العصمة والبراءة من الهفوة ، ولست

(١) أنظر قبل ، ص ١٦٩ لمعرفة دوره فى تأسيس بيت الحكمة .

(٢) هذا ما يقوله ابن عذارى : الصدر السابق والجزء ، ص ١٢١ - سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٣٠ - حسن حسنى عبد الوهاب الورقات ، القسم الاول ، ص ٢٤٧-٢٤٨ - وانفرد ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط ، أو الجزء الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، ص ٣٠٠ (وهو الذى نقلنا عنه النص) يذكر اسمه ولقبه مختلفا . فيسميه أحمد القديدى .

أمت اليك الا بفضلك على ، واحسانك الى ، ولا أعرفك ، بل أذكرك ، أن من غرس غرسا فواجب أن لا يجتثه ، وأن أبطأ بسوقه ، بل يحدد بمداد موارده العذبة حتى تمتد خيطانه ، وتورق أغصانه ، أفاذك الله بما أودعك من معالى الأخلاق . من ترك العفو عن مقرر معترف ، لا يعرف الا فضلك ولا يرجو الا عدلك . ولو كنت أقر الله الأمير عوانا فى الخدمة ، لكان عفوك أكبر من ذنبى ، وفضلك فى حلمك أعظم من جرمى ، فكيف وأنا بكر فى خدمتك . لم أقف على حدودها ، ولا معرفة اقتسام مراتبها ، فان يكن ذنب فعلى غير قصد أو زلة ، فليست من عمد . وما ذهبت به الأفواه ونطقت به الألسن وعرفه الخاص والعام بيانا واضحا ، أنك ممن عفى الله عز وجل ذكره بقوله : " وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (١) ، وقال عز وجل : " وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (٢) . فلا أحد بمعالى الأخلاق والا متثال لأدب الله أحق منك ، لما وهب الله لك من كريم الطبع ، وصحة المركب ، فاعتبر أمرى فما سألت الا سؤال من دحضت حجته ، وأحاطت به زلتته ، وأوبقه جرمه ، فالحظنى بعين عفوك ، وأضف على ستر نعمتك (٣) . وقد ختم الرسالة بعدة أبيات يطلب فيها صفح الأمير ، لكن دون جدوى ، فقد قضى عليه أخيرا . (٤)

-
- (١) سورة التوبة : آية رقم ٢٢ .
 (٢) سورة آل عمران : آية رقم ١٣٣ .
 (٣) ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط ، والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكنانى ، ص ٣٠-٣٢ .
 (٤) ابن مغازى : المصدر السابق ، ص ١٢١-١٢٢ - سعد زغلول عبد الحميد المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٠ .

ومهما يكن فإن الأمر الذى يشدنا للرسالة ، هو ما يتجلى فيها من تألق فى اللفظ ، وما فيها من محسن يدعى من سجع وخلافه ، وما فيها من التفات ومزاوجة ، وقدرة على استخدام مختلف لحروف الجر ... الخ ، ويرى رابح بونار (١) أن هذه الرسالة تدل على مقدار تشبع البريدى بأسلوب الكاتب ، المشهور : الجاحظ وغيره من أدباء فن الترسل فى المشرق وقتذاك .

ومما يؤكد ارتقاء النثر الفنى ، وخاصة النثر الادارى أو النثر الرسمى - ان جاز هذا - ، الرسالة التى بعثها الأمير ابراهيم بن أحمد للداهى أبى عبد الله الشيعى الذى بدأت حركته فى الدعوة للشيعه فى عهد هذا الأمير كما سبق أن ذكرنا من قبل . والرسالة فيها شئ من الطول ، وتتسم بصفتين رئيسيتين الترغيب والترهيب ، وفى ثنايا ذلك جهد كاتبها أن يوضح الغرضين الانفيين بكل ما أوتى من قدرة بلاغية تكمن فى أسلوب الترسل والترشيح (٢) .

وفى عهد هذا الأمير حظى بلاطه بوجود شخصية أدبية وعلمية لامعة هى شخصية الكاتب الأديب الرياضى أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى (ت ٢٩٨ هـ) ، الذى كان له دور فى اثراء النثر الادارى والتأليف فى افريقية وكان له دور كذلك فى اثراء الدراسات العلمية التطبيقية أو التجريبية حسبما سنعرف بعد . وأبو اليسر الشيبانى بغدادى الأصل ، ترفع فى بلده العراق ، وتلمذ على يد أبرز الكتاب المشهورين آنذاك ، من أمثال الجاحظ والمبرد ، وابن قتيبة ، كما تأثر بالشعراء المشهورين آنذاك فى العراق ، من أمثال أبى تمام والبحترى وغيرهما . وقد ترك بلده العراق ، وطوف فى الجزء الغربى من الدولة الاسلامية ، أى الأندلس والمغرب ، ثم استقر به المقام فى افريقية . وهنا لقى التشجيع والتكريم من الأمير ابراهيم الذى عينه رئيساً لديوان الانشاء ، وهذه

(١) المغرب العربى ، تاريخه وثقافته ، ص ٥٥ ، ١٠٥ .
(٢) أنظر نص تلك الرسالة عند القاضى النعمان : كتاب اقتتاح الدعوة ، ص ٥٦ -

أول مرة يمر بنا ذكر هذا الديوان . وقد استمر أبو اليسر يعمل في خدمة
مخدومه الأمير ابراهيم ثم ابنه عبد الله ، ثم حفيده زيادة الله حتى سقطت
الدولة الاغلبية عام ٢٩٦ هـ . ولما دخل الخليفة عبيد الله المهدي القيروان
ورقادة عرف له قدره ، فاستمر يعمل في خدمته كاتباً ومشرفاً على بيت الحكمة
القيرواني حتى توفي عام ٢٩٨ هـ (١) . وأبو اليسر الشيباني أول كاتب يحظى
بترجمة واسعة لدى المؤرخين القدامى والمحدثين ، مما يدل على علو كعبه
الأدبي . ومن وصفه وأثنى على مكانته الأدبية المؤرخ والأديب القيرواني ابراهيم
الرقيق (٢) ، فقد وصفه بالأدب الرفيع ، والترسل البليغ ، والشعر الرائع ، مع
مضافة الفكر ومكارم الاخلاق) . وقال أيضاً عنه (وكان ضارباً في كل علم وأدب ،
كتب بيده أكثر من كتبه مع براعة خطه وحسن وراقته) ... الخ ماحلاه به من نعوت .

ومن الكتاب المشهورين أيضاً في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ،
وخليفته من بعده ، الكاتب محمد بن أحمد بن الفرج البغدادي (ت ٢٩٠ هـ)
وهو ممن وفدوا الى افريقية والعراق ، فألحقه برئيس ديوان الانشاء أبي اليسر
الشيباني (٣) ، ويقول حسن حسني عبد الوهاب (٤) ، أنه كانت له (مشاركة عالية
في فنون الأدب) .

ومن الكتاب اللامعين أيضاً ، عبد الله بن الصانع (ت ٢٩٦ هـ) ، وهو
من أبناء القيروان ، وقد تولى وظيفة الكتابة في ديوان الخراج في عهد الأمير
ابراهيم بن أحمد (٥) . وفي عهد الأمير زيادة الله الثالث (٢٩٠-٢٩٦ هـ) ،

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ٢٤٤-٢٤٧ -
(نقلًا عن غير واحد من المؤرخين القدامى) .

(٢) فيما ينقله عنه حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٣) الورقات ، القسم الاول ، ص ٢٤٦ .

(٤) نفس المرجع والقسم والصفحة أعلاه .

(٥) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٩ - حسن حسني

عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٢٣٠ -

ازدادت مكانته ، وعلت منزلته ، فرقاه الأمير الى رتبة : صاحب البريد ، بالاضافة الى رتبة الكتابة (١) . ولقد لعب ابن الصانع دورا في الأحداث التي انتهت اليها الدولة الاغلبية في أخريات أيامها ، وانتهى به الامر مقتولا عام ٢٩٦ هـ ، أى نفس العام الذى سقطت فيه الدولة الاغلبية (٢) . وما ينسب لابن الصانع أيضا موهبة شعرية اشتهر بها آنذاك (٣) .

وقبل أن نختتم الحديث عن المكاتبات الرسمية ، والكتاب الذين ذكروا خلال هذا العصر ، لا يفوتنا الإشارة الى المكاتبات التي حررها الأمير زيادة الله ، والتي يهاجم فيها الداهي أبا عبد الله الشيعي ، ويوضح حقيقة دعوته والتي أمر أن تقرأ على المنابر .

وأيا ما كان الرأى في حقيقة ما ورد في تلك المكاتبات ، وأيا ما كان رأى المؤرخين (٤) في زيادة الله ، فإن تلك الرسائل التي أمر بقراءتها على المنابر تعتبر بدون ريب قطعاً أدبية ، فيها بلاغة وفصاحة ، وفيها سمو ورقى أدبى (٥) .

واذا مضينا نبحث عن الرسائل الاخوانية ذات التعبير الأدبى خلال هذا العصر ، لوجدنا الإشارة اليها تكاد تنعدم . ويبدو أن الإهمال قد لف الإشارة الى هذا اللون من ألوان النشر الفنى ، كما لف غيره خلال هذا العصر ، أو لعل طبيعة التوجه الأدبى لهذا العصر لم تكن منحرفة الا الى الشعر ، والدراسات اللغوية والنحوية .

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق والجزء ، ص ٢٣٠ .
 (٢) من دوره ذلك ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ، ص ١٦٢-١٦٣ ، ١٧٥-١٨٢ .
 (٣) أنظر بعد ص ٦٦٥ - ٦٦٦
 (٤) أنظر تقويم سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٥٩ وما بعدها ، لفترة حكم زيادة الله من عدد من المؤرخين .
 (٥) عن تلك المكاتبات ، أنظر القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ١٨٥ - ١٩١ ، ١٩٢-١٩٧ .

ومع ذلك فان وفاضنا لم يخل من التعرف على صور من هذا اللون الأدبي . فبين أيدينا رسالة بعث بها العالم النحوى أحمد بن أبى الأسود النحوى (١) الى صديقه له وكان قد وقع بينهما خلاف أدى الى تهاجرهما فترة من الزمن . وقد جهد ذلك الصديق ما أمكنه أن يسترضى صديقه أحمد بن الأسود دون جدوى . ولم ير أحمد بن أبى الأسود بدا من أن يبعث الى صديقه برسالة يوضح له فيها موقفه منه . وما جاء فى الرسالة (... أما بعد ، فان طول الترداد يورث الملاك ، وقلة غشيان الناس أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم : (زَرَّغَبًا تَزودُ حَبًّا) . وللقلوب نبوة ، فان اكرهت لم يكن لما يتولد منها لذه ، ولا بد من استجماعها الى غاياتها . وأسأل الله أن يجعلها منا عزمة ، ومنك سلوة ، والملتقى ان شاء الله فى داره وجواره ، حيث لا نحاسب ولا نصاحب) . (٢)

فهذه الرسالة كما يبدو ولا تخلو من مسحة أدبية واضحة . ورسالة أخرى أمكننا العثور عليها ، وهى رسالة عتاب بعثها أبو محمد عبد الرحيم بن عبد ربه العبدى الزاهد (٣) الى صديقه الفقيه المشهور سحنون بن سعيد ، يعتب فيها عليه قبوله تولى القضاء . والرسالة (٤) على الرغم من قصرها فانها تترك فى النفس تأثيرا جميلا - من الناحية الأدبية المحضة - بما فيها من محسنات بديعية كالطباق والمقابلة .

ومثلما كان حظنا ضئيلا من الرسائل الاخوانية ، كان حظنا ضئيلا أيضا من لون آخر من ألوان النثر الفنى ، وهو الخطابة . ويصدق هذا على الخطب السياسية والدينية معا . ولا نقصد بالدينية بالطبع خطب المناسبات

-
- (١) أنظر ترجمته بعد ، ص ٧٢٨ - ٧٢٩
- (٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ - الفيروزآبادى : البلغة فى تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٣٢ .
- (٣) ترجمته موجودة عند أبى العرب التميمي : المصدر السابق ، ص ١١٣ - المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٧ - ٣٣٤ (بتوسع) .
- (٤) عن نصها أنظر المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣٢٩ .

الدينية التعبدية كخطب الجمع والأعياد . ومع يقيننا بأن الإهمال ربما كان السبب في ذلك ، لا ننسى أن روح العصر على مستوى الدولة الإسلامية نفسها ، كانت تتميز بالفتور في الاتجاه ثم الخطابة . إذ حلت الرسائل الديوانية والمنشورات محل الخطابة ، لضعف القدرة عليها ، ولقلة الدواعي إليها كما يرى أحمد حسن الزيات (١) .

ومهما يكن فإن بين أيدينا مقتطفات من خطبة خطبها الفقيه عبد الله بن طالب (ت ٢٧٦ هـ) على منبر القيروان ، وكنا قد أشرنا إلى ظروفها سابقاً فنسرد حديثنا عن موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية (٢) . ومن اللائم أن نعيد الآن ذكر هذه المقتطفات ، فعندما اعتلى ابن طالب المنبر قال : (..الحمد لله الذي يشكر على ما به أنعم ، والحمد لله الذي هدب على ما لو شاء منه عصم ، والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يرى) . هذه المقتطفات على قصرها ، تحمل كما يتراءى لنا معظم خصائص الخطابة من افتتاحها بالحمد ومن عذوبة ألفاظها ، واقتباسها من القرآن ، ثم ما فيها من سجع في كلفتي : استوى واحتوى ، إلى غير ذلك .

على أن اللون الأدبي الذي كثر طريقه خلال هذا العصر ، كان الوصايا والمواظ . وفي تصورنا أنه ليس في الأمر غرابة إذا ما عرفنا أن معظم من طرق هذا اللون كانوا من العلماء والعباد الزهاد الذين زهى بهم هذا العصر . وتأسيساً على ذلك ، فلسنا في حاجة إلى كبير عناء لنكتشف أن معظم تلك الوصايا والمواظ جاءت تحت على الزهد والقناعة ، والتأدب والتأسي بسير

(١) تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا ، ص ٢١٩ .

(٢) أنظر مقتطفات تلك الخطبة ودواعيها قبل ص ٤٥٨

الصالحين والزهاد بل بتعاليم الاسلام نفسه (١) . ومن هنا فلن نطمع أن نجد فيها عناية بالتدقيق الأدبي كثيرا الا في القليل منها (٢) .

ومن بين تلك الوصايا والمواظ التي لم يخل سطر واحد منها من رونق أدبي ، تلك التي أملاها العابد الزاهد أبو علي شقران بن علي الفرضي على تلميذه المصري الشهير ذو النون (٣) ، وقد اتصل به وطلب اليه تزويده بمواظته . فمن بين أهم تلك المواظ من الناحية الأدبية التي نتحدث عنها الآن قوله : (يا أخى إِنْ لِلَّهِ عز وجل عباد آ غلبوا فآلفوا ، وطلبوا فرحلوا ، وقصدوا فوصلوا أولئك الرهبانيين والأخبار وعمال الله الأبرار ، أولئك قوم كرمت نفوسهم على الله فركبوا مطية النجاة الى الله ، وأحياهم الله عند ذل حياة الأصفياء ، ثم أمدهم بمعونات الأقوياء . فسبحانه ما أكرمه فيما أعطاهم وخولهم ، ولقد دقاهم فأجابوا ولقد قبلوا فأصابوا) (٤)

ولقد سمعه مرة يخاطب نفسه ويقول : (أواه! ألا مريد صادق ؟ ألا فتى نمت عليه الحقائق ؟ . مالى لا أرى الصادقين ؟ مالى عدت أهل اليقين ؟ ألا فجدوا ، فان الطريق واضح ، ثم اسمعوا منى ، وانى لكم ناصح ، فكم يلق من هوذا مكرم محبوب الى من هو موبخ بما جنى محقور ، ثم يؤمر به الى لظى مجرور ، ويحكم ان الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، ولنعم دار المتقين ثم قال : ألا لسهج خدوم ؟ ألا تشكل ندوم ؟ ألا حبيب كتيب ؟ ألا صفى لبيب ؟

-
- (١) من تلك الوصايا والمواظ ، أنظر مثلا المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ (الموعظة التي بعثها عبد الخالق المتعبد المعروف بالفتات الى أحد أصدقائه) ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ ، (حيث الموعظة التي بعثها اسماعيل بن رباح الى أحد أصدقائه كذلك) ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ (حيث ذكر الموعظة التي وعظ بها الفقيه محمد بن سحنون أحد أفراد بنى الاغليب) .
- (٢) أنظر من ذلك مثلا : الموعظة التي وعظ بها الفقيه أحمد الصواف (٢٩١ هـ) طالب العلم ، والتي تدل على المسحة الأدبية التي تشع منها .
- أنظر رباح بونار : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ (حيث ورد نص تلك الموعظة .
- (٣) أنظر ترجمته عند ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٥ - ٣١٨ .
- (٤) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥

ألا تائب يتوب ؟ ألا خادِم يذوب ؟ ألا راغب فى الجزيل ؟ ألا عارف بالجليل ؟
أين من استراحت بواطنه بحب الله تعالى ؟ . أين من ظهرت على جوارحه شواهد
الهيبة ؟ أين من اقترب الرب تعالى من سرائره ؟ أين من دانت لمعاملة الله
مز وجل ظواهره ؟ أين من خبر الطريق ؟ أين من نظر بالتحقيق ؟ أين من
أدناه فلم يبرح ؟ أين من شوق فلم يفرح ؟ أين من شجى فباح ؟ أين من بلى
فناح ؟ أين من قبل ففرح ؟ أين من وصل فغنم ؟ أين من لزم فاجتنبى ؟
أين من بكى بعويل ؟ أين من صرخ بغليل ؟ أين من رضى فطاب ؟ أين من نخل فذاب ؟ أين
من شفه الوداد ؟ أين من جد باجتهاد ؟ أين من همه الحبيب ؟ أين من دهره غريب ؟
أين من طالع الكشوف ؟ أين من صال بالمعروف ؟ أين عماله الكرام ؟ أين خدامه القيام ؟
أين من ذكره غذاه ؟ أين من قلبه يراه ؟ يا أخى هل كانوا البركات على المسلمين ما أبصرهم بعلوم
أهل اليقين ؟ ما أغوصهم فى بحار المستنطقين ؟ ما قولك فى رجال أتنهم
فوائد العطايا والمواهب ؟ ، جعلنا الله منهم وفيهم وحشرنا فى زمريتهم (١) .

هذا النص يمثل لنا قطعة أدبية رائعة ، حيث التأنق اللفظى ،
والتفتن فى العبارات والأخيلة ، والقدرة البالغة فى استخدام المحسنات البديعية
وبالجملة فالقطعة تشيع فيها روح أدبية لم يخل منها سطر ، ولم تخل منه كلمة .
ومن هنا فقد حرصنا على أن نأتى بها بتمامها .

ومن المواظف القليلة التى حفظت عن بعض الأدباء واللغويين ، تلك
التي أشير إلى أن العالم اللغوى عبد الملك بن فطنى القهرى (ت ٢٥٣ هـ) -
والذى سنترجم له بعد - ، وعظ بها الفقيه عبد الله بن غانم فى مرضه الذى مات فيه ،
أن روى أنه دخل عليه فقال له : (رفع الله ضجعتك من هذه العلة إلى آفاق
وراحة ، وأعاد عليك ما عودك من الصحة والسلامة ، فطالما صححت وعوقبت أصلحك

(١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .

الله ، فاصبر لحكم ربك ، فان الله عز وجل يجب أن يصبر على بلواه ، كما يجب أن يشكر على نعماءه (١) .

وما من ريب في أن هذه الموعظة على قصرها لا تخلوا من رونق أدبي جميل . ويعتقد رابع بونار (٢) أن هذه الموعظة يشتم منها روح جاحظية .

وأخيرا ، فان عصر الأغلبية ، لم يخل من لون من ألوان النثر الفني كان سائغا في الدولة الإسلامية ، وهو الحكمة . والحكمة كما هو معروف عبارة عن قول موافق للحق وسالم من الحشو ، وهو خلاصة الحنكة وثمرتها التجربة (٣) . وقد اشتهر بقولها آنذاك عدد من الفقهاء المعروفين كالفقيه أحمد بن سليمان (٤) ، المعروف بالصواف (ت ٢٩١ هـ) الذي ترجمنا له من قبل ، والفقيه عبد الجبار (٥) بن خالد بن عمران السوني (ت ٢٨١ هـ) ، وقد سبقت ترجمته ، والفقيه عيسى بن مسكين (ت ٢٩٦ هـ) ، الذي ترجمنا له من قبل كذلك .

ومن أقوال الحكمة الجيدة التي كان عبد الجبار بن خالد كثيرا ما ينطق بها نجترى شيئا يسيرا منها فنورده هنا مثل : " من قلَّ كلامه ، قلَّت آثامه " ، وكذلك : " من كان في الله هُمة ، قلَّ في الدنيا والآخرة غم " ، وأيضا : " ولنولا الفضول لصفّت العقول ، ولكان المجهول عندك معقول " . ومن الحكمة التي تشد الانتباه لروعتها : " من وبَّخك فقد نفعك ، ومن نفعك فقد رفعك " (٦) الخ

ومن أقوال الفقيه عيسى بن مسكين التي تدخل في باب الحكمة ، قوله : " اشرف الغنى ترك المني " ، وقوله : " من قاسى الأمور على المستور " ، ومن تلك الحكم أيضا : " من أطلق طرفه كثر أسفه " ، ومنها : " في تقلب الأحوال ، علم جواهر الرجال " (٧) ... الخ .

(١) رابع بونار: المرجع السابق، ص ١٠٣ (نقلا عن حسن حسني عبد الوهاب:

في المنحيات المدرسية) .

(٢) نفس المرجع السابق أعلاه والصفحة .

(٣) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٨ .

(٤) أنظر مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٥) أنظر مياض : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٢٦٣ .

(٦) مياض : نفسه ، ص ٢٦٣ .

(٧) مياض : نفسه ، ص ٢٢٥ .

٢ - النشر التأليفى :

يتملك العجب أنفسنا ، ونحن نتطلع الى الحركة الأدبية فى عصر الأغلبية ، فلا نجد ثمة مؤلفات أدبية تملأ الساحة ، وتتناسب مع النهضة العلمية الشاملة التى شهدتها البلاد فى هذا العصر . ومبعث العجب يكمن بالاضافة لما ذكر فى أننا لا نتصور انعدام وجود تلك المؤلفات فى مجتمع أخذ بكل أسباب النهضة الأدبية ، وفى ظل مناخ مشجع للعطاء برفاية أمراء محبين للأدب ورجاله .

بيد أننا على أية حال ، لم نعدم مطلقا الاشارة الى وجود مؤلفات أدبية آنذاك . فلقد ذكر بأن الأديب الكاتب أبو اليسر الشيبانى ، الذى أشرنا اليه آنفا ، خاض مجال التأليف الأدبى ، وترك لنا عدة مؤلفات منها : " لقط المرجان فى الأدب " ، ويقول حسن حسنى عبد الوهاب (١) أنه جاء على نسق ميون الأخبار لابن قتيبة ، وان كان أكبر حجما منه . ومن بين تلك الكتب التى عرفت له " قطب الأدب " و " المرصعة والمديحة " ، وهى كتب من نوع الرسائل النثرية فى الأدب (٢) . كما أننا تعرفنا على مصنفين أدبيين كما يعتقد (٣) ، وهما " راحة القلب " و كتاب (الزهر للأمير الاغلبى محمد بن زيادة الله بن محمد بن الاغلب (ت ٢٨٦ هـ) . يبقى أن نشير فى ختام حديثنا عن النشر فى عصر الأغلبية ، أننا لم نوفق لسوء الحظ فى العثور على ما يدل على وجود نشاطات نثرية مختلفة ، سواء فى بقية المدن الافريقية ، أو فى بقية الأقاليم الافريقية الأخرى . وإذا جاز لنا أن نعلق ، فأننا نقول بأن ذلك يعد أمرا طبيعيا فى ظل ضعف النشاط النثرى كله على مستوى العصر نفسه .

-
- (١) الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٤٦ .
 - (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم والصفحة .
 - (٣) نقول كما يعتقد ، لأن ابن البار فى كتابه : الحلة البراء ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، قال وهو يترجم للأمير الاغلبى الشاعر محمد بن زيادة الله بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب ، بأنه كان (أدبيا ظريفا ، ألف كتاب : (راحة القلب) وكتاب (الزهر) ، بالاضافة الى كتاب فى تاريخ أسرته بنى الاغلب .

النشر في عصر الفاطميين :

مثلما كان النشر في عصر الأغلبية أقل أوجه الحركة الأدبية ظهورا و بروزا ، كان كذلك في عصر الفاطميين وخاصة فيما يتصل بالنشر التأليفى الأدبى . أما النشر الفنى ، فهو وإن كان أحسن حظا فى الإشارة من النشر التأليفى الأدبى ، إلا أنه لم يزد هرسوى بعض ألوان منه دعت دواعى الى وجودها بكثرة ، كالمواظ والصايات التى كان الخلفاء الفاطميون يعظون بها أتباعهم .

١ - النشر الفنى :

حفل عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى (٢٩٦-٣٢٢هـ) بكثرة المكاتبات الرسمية التى كانت تتبادل بينه وبين ولى عهده أبى القاسم الذى كان مكلفا ببعض الفتوحات فى المغرب ومصر (١) ، وتلك التى كانت تتبادل بينه وبين قواده ورجال دولته (٢) . وبلغت تلك المكاتبات من الكثرة حدا لدرجة تعذر علينا استقصاؤها فى المصادر التى أشارت الى ذلك . بيد أن الاشارات العديدة والكبيرة لتلك المكاتبات لم يرافقها إيراد نصوصها الا فيما ندر . والواقع أننا كنا نمنى النفس فى العثور على تلك النصوص حتى يتسنى لنا الحكم على مقدار ما بلغه فن الكتابة من رقى وتطور من جهة ، ولنتعرف على من اضطلع بكتابة تلك الرسائل الرسمية من جهة أخرى . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فلم تجد علينا المصادر الا بنماذج يسيرة جدا من تلك المكاتبات ، وهى التى أشار اليها القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة (٣) .

(١) أنظر ابن هدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،

١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) أنظر ابن هدارى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، وغير ذلك .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨١-٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤-٢٩٩ .

وعلى أية حال فإن النذر اليسير من تلك النصوص التي حفظت لنا ،
يكفيها للدلالة على التطور الذي رافق الكتابة الرسمية من حيث الشكل والمضمون .
فلقد اصطهنت المكاتب الرسمية آنذاك بميزات كثيرة ، منها متانة الأسلوب
ورصانة العبارة ، والحرص على استخدام المحسنات البديعية المختلفة وسجع
وطباق ومقابلة . وكذلك التفنن في استخدام الجمل الافتراضية ، والاستشهاد
كثيرا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والتأكيد على استخدام عبارات التمجيد
والتفخيم للخليفة . أما من حيث المضمون ، فلقد اتسعت المعاني واتسعست
أغراضها من دون ريب . فقد أصبحت هناك معاني لا يخلو منها كتاب رسمى على
ما نتصوره وملاحظتنا للقليل من النماذج المحفوظة ، كالتأكيد على الحقائق
الشيوعية التي هي من قبيل المسلمات عندهم . وهي التذكير أبدا بالحقائق
المغتصب من الخلافة الذي استعاده الفاطميون ، والولاية الواجبة الطاعة على
الناس ، مع التركيز على ترديد عبارات أو ألفاظ شيعية اسماءيلية محضة ، من أمثال
حجة الله في أرضه ، وابن رسول الله ، أو ولد رسول الله ، وولي الله ، والامام
أمير المؤمنين ، وهي ألفاظ خاصة بالخلفاء الفاطميين ، وكذلك أولياء الله ،
وهم أتباعهم^(١).... الخ .

وكيفما كان الأمر ، فإننا إذا تركنا ذلك وبحثنا عن أهم الكتاب في عهد
الخليفة الفاطمي الأول لوجدنا من حسن الحظ ذكرا لعدد منهم كآبي عبد الله
الشيوعي الذي قتل عام ٢٩٨ هـ ، وكآبي اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني الذي
كان متوليا شؤون ديوان الرسائل في عصور أمراء الأغلبية الثلاثة الآخرين حسبما

(١) راجع تلك النصوص عند القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٢٨٠ -
٢٨٩ ، وهو الكتاب الذي بعثه الداعي أبو عبد الله الشيوعي الى عامل
القيروان غداة نجاحه في اطلاق سراح عبيد الله المهدي من سجن بني
المدرار في سجلماسة ، وكذلك الكتاب الثاني ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، وهو الكتاب
الذي كتبه أبو عبد الله الشيوعي بأمر من الخليفة عبيد الله ، الذي كان تهيأ
لدخول القيروان . ثم الكتاب الذي كتبه الخليفة ، ص ٢٩٤ - ٢٩٩ ، أمر
أن تنسخ منه نسخ وترسل للندن ، وهو ان لم يشر الي كاتبه ، الا أنه
جاء يعكس كل خصائص الكتابة الفنية والمذهبية التي أشرنا اليها في المتن .

ذكرنا من قبل . ولقد استكتبه الخليفة عبيد الله المهدي أيضا ، وظل يسراول مهام منصبه حتى توفي عام ٢٩٨هـ (١) . ثم استكتب الخليفة كاتباً آخرًا هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن أحمد بن هارون البغدادي الذي ما لبث أن رُقِيَ الى وظيفة صاحب ديوان البريد ، بالإضافة الى الكتابة ، وذلك عام ٣٠٠هـ (٢) . هذا ولم تزودنا المصادر بمعلومات عنه أكثر مما سبق ذكره . ومن الكتاب الذين ذكر أنهم كانوا ضمن كتاب الخليفة عبيد الله المهدي وقتذاك كاتب يدعى أبو غانم الكاتب (٣) . وهذا أيضا هو جل ما نعرفه عنه . ومن العجيب أن ابن حماد صاحب كتاب : " ملوك بني عبيد وسيرتهم " ، الذي أشرنا اليه مرات عديدة سابقا ، لم يعن بذكر كتاب الخليفة ، وهو يأخذ نفسه بمنهج محدّد في نهاية ترجمته للخلفاء الفاطميين يذكر فيها قضاة وحجاب وأصحاب بيوت المال في عهد كل منهم (٤) .

وفي عهد الخليفة القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ) لم يقدر لنا التعرف على أى نشاط نشأ فيما يتصل بالمكتبات الرسمية . ويبدو أن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد البقوني قد أخذت عليه كل سنوات عهده ، فانكأ معزولا ومحاصرا في عاصمته المهدية . وعلى الرغم من أن عهد ابنه الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ) قد شهد تداول كتابات رسمية بين الخليفة وقواده ورجال دولته (٥) ، الا أننا لم نستطع العثور على نماذج تلك المكتبات ، ولا على معرفة كتابها .

-
- (١) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٣ ، وانظر كذلك قبل ص
 - (٢) ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة أعلاه ، ص ١٦٩ .
 - (٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨١ .
 - (٤) أنظر ص ٥٢ من الكتاب .
 - (٥) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٦٤-٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ .

وفيما يتصل بالكتاب الرسميين في عهد الخليفة القائم بأمر الله ، فان غاية ما عرفناه أنه أقر أبا جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي على منصبه اللذين كان يتولاهما من قبل كما عرفنا آنفا (١) . أما في عهد الخليفة المنصور ، فقد عد منا الاشارة الى أى كاتب من كتاب الدولة الرسميين . وقد أغفل ابن حماد (٢) الاشارة الى ذلك في ترجمته للخليفة المنصور ، وكذلك في ترجمة أبيه الخليفة القائم من قبل .

أما عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٢هـ) أى عهده المغربي الذي يعيننا هنا - ، فقد كان حافلا بالنشاط النثري الاداري ان أن سلطان الدولة الفاطمية الذي شمل بلاد المغرب كلها على وجه التقريب ، تطلب تبادل الرسائل الدبلوماسية بين الخليفة وقواده ورجال دولته من جهة وبين الخليفة والملوك والأمراء المجاورين لدولته برا وبحرا من جهة ثانية ، وبين الخليفة وبعض الثائرين عليه من جهة أخيرة . ولعل من حسن الحظ أن كثيرا من تلك المكاتبات ، قد حفظت نصوصها (٣) . وليس يساورنا شك في أن النثر الاداري

-
- (١) ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٩ .
 (٢) ملوك بني عبید وسيرتهم ، ص ٨٧-٨٨ ، ٨١-٨٢ .
 (٣) أنظر بعضا من نصوص تلك الكتب عند : القاضي النعمان : كتاب المجالس والسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي و ابراهيم شبوح ومحمد البعلوي ، ص ١٦٨-١٧٣-١٧٤ (حيث رد الخليفة المعز على رسالة الخليفة الاموي عبد الرحمن بن الناصر) ، ص ٣٦٧-٣٦٩ (حيث نفس الرسالة التي بعثها الخليفة المعز الى امبراطور الدولة البيزنطية) . وكذلك ص ٤٤٤ - ٤٤٥ (حيث نص رسالة أخرى الى امبراطور بيزنطة) و ص ٣٤٥ (حيث نص رسالة المعز لدين الله الى الاخشيدي صاحب مصر) - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٣٠١-٣٠٣ (حيث نص رسالة المعز لدين الله الى الحسن الافصم القرمطي) - أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ٢٠٨-٢٠٩ (حيث نص رسالة الامير عبد الله بن المعز لجوزر الصقلي) (نقلا عن أبي علي منصور العزيزي الجوزري صاحب كتاب : سيرة الاستاذ جوزدر) - عبد المجيد عطية وعبد الرزاق الحليوي : تميم بن المعز ، ط ١ ، ص ٩٩-١٠٤ ، (حيث بعض نماذج لنصوص رسائل متبادلة بين المعز وولاة جوزر الصقلي) (نقلا عن سيرة الاستاذ جوزر) الى غير ذلك من النصوص .

جاء متوافقا مع روح العصر الذى كانت تحياه الدولة الاسلامية فى المشرق والمغرب على السواء . فالنصوص التى حفظت لنا تمثل قطعاً أدبية لا تقل عن مثيلاتها فى المشرق من اغراق فى التأنيق اللفظي ، ومن اغراق فى الصنعة والتكلف ، السى الاستخدام المبالغ فيه فى المحسنات البديعية . هذا مع التوسع فى استخدام الخصائص التى تميزت بها الكتابة الفاطمية كاستخدام الألفاظ الشيعية الاسماعيلية المعتادة ، مثل ولى الله ، والا امام ، وصلوات الله عليه ... الخ . وكذلك الاغراق فى اسباغ صفات الاجلال والتعظيم للخليفة مع ترديد المسلمات الشيعية المعروفة ، وهى الحق المفصرب فى الامامة ، وحق الولاية الواجبة على الناس ، وعلم الولى الذى هو فوق علوم البشر ... الخ .

ولعل أصدق رسالة (١) ديوانية تعكس التطور الكبير الذى أصاب المكاتبات الرسمية من حيث الشكل والمضمون ، تلك التى بعثها الخليفة المعز لدين الله الى النائب عليه الحسن بن أحمد الأخصم النائب القرمطى (٢) ، وقد بعثها له الخليفة المعز عشية قدومه من افريقية الى مصر . فتلك الرسالة بلغت فيما يبدو لنا الذروة فى الروعة الأدبية ، واذا استخدم فيها المعز كل ما أوتي من بلاغة وفصاحة ، وتفنن فى استخدام المحسنات البديعية المختلفة ، وما زاد فى قيمتها الفنية استخدام أسلوب الترغيب والترهيب من قبل الخليفة ، وكذلك أسلوب الاستفهام والتعجب اللذين لم يخل منهما فقرة من الفقرات . ثم القدرة الفائقة على استخدام المترادفات ، وكذلك القدرة المتمكنة فى الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى كل سطر من سطور الرسالة تقريبا .

(١) أنظر نص الرسالة بتمامها عند حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شوقي : المرجع السابق ، ص ٣٠١-٣٠٧ (نقلا عن المقرئى فى اتعاظ الحنفا) .

(٢) من ثورة الحسن الأخصم وصراعه مع الفاطميين والخليفة المعز ، أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١٠٦ -

أما من حيث المضمون ، فقد كانت الرسالة كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) الغاية في فن الدبلوماسية السياسية ، والدبلوماسية المذهبية . فبالنسبة للشق السياسى ، فقد حاول الخليفة أن يتعرض بالتفصيل لجميع قضايا الخلاف السياسى مع ذلك الثائر . ومن جهة الشكل المذهبى ، فقد شغلت المضامين المذهبية كل أجزاء الرسالة . ان تناول الخليفة فيها كل مسلمات المذهب الشيعى الاسماعيلى التى كنا قد أشرنا اليها من قبل ، مثل الحق الألهى الأزلى لهم فى الخلافة والامامة ، الى التذكير بالنعمة التى تحل بمغتصبى حقهم فى الخلافة من العباسيين أو غيرهم ، الى نظرية تقديم الأئمة ، الى الطاعة التامة الواجبة للأئمة ... الخ . مع التركيز على اى مصطلحات الشيعة الاسماعيلية المحضة التى أشرنا اليها من قبل .

ومن المثير للدهشة أن لا يتهىأ لنا التعرف على الكتاب الذين كان يضمهم بلاط الخليفة المعز لدين الله آنذاك . فعدا جودر الصقلى (٢) المشهور بالأستاذ (ت ٣٦٢ هـ) ، الذى كان أحد كتاب الخليفة المعروفين ، لم نوفق فى العثور على ذكر لكتاب آخرين غيره . نعم لقد ذكر بأن القائد الفاطمى المشهور جوهر الصقلى (٣) (ت ٣٨٦ هـ) كان يعرف بجوهر الكاتب ، لكننا فيما هدا رسالته التى بعثها للمصريين عند افتتاحه لمصر (٤) ، لم نتبين أى نشاط نشرى سابق له فى افريقية .

وأيا ما كان الأمر بالنسبة للمكاتبات الرسمية فى عصر الفاطميين الا أنها كانت بدون ريب أفضل حظا من غيرها من ألوان التعبير الأدبى .

-
- (١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .
 - (٢) أنظر ترجمة مفيدة له عند الزركلى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .
 - (٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ١٤٦-١٤٧ .
 - (٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ١٠٠ .

فالبرسائل الاخوانية وهى لون من أعذب ألوان النشر الفنى ، لم تكن متداولة آنذاك ، على الرغم من أن العصر لم يخل من الكتاب والأدباء واللغويين المرموقين . ومن غير المستبعد أن يكون الإهمال قد لف هذا الجانب الممتع من النشر مثلما لف غيره .

على أن هذا العصر ازدهى بلون آخر من ألوان التعبير الأدبى ، وذلك هو المواظ والصايات التى كانت شائعة فى العصر الفاطمى . وفى الحقيقى فان ثمة دواعى فرضت ذىوع هذا اللون من ألوان التعبير الأدبى . فالفاطميون باعتبارهم دعاة لمذهب يختلف كثيرا عن مذهب الأغلبية الكبرى من السكان ، كان لابد لهم من دعاة يتصدون لتقريب الناس وتأليفهم له . ثم أن الغموض والابهام الذى يتميز به المذهب الشيعى الاسماعيلى ، كان يتطلب أناسا أكفاء يخضعون^(١) لتدريب مكثف لفهم طبيعة المذهب ، ولنشر ما تقتضى الظروف نشره وقت الحاجة .

ومن هنا ، فان فن الدعاية التى تشكل عنصرا رئيسيا فى المعتقد الشيعى الاسماعيلى حسبما عرفنا من قبل^(٢) . استوجبت أن يخضع الداعى لمنهجين رئيسيين : أولهما أخلاقى ، ويهدف الى بث صفات الخير كلها فى شخصية الداعى ، وثانيهما تعليمى مذهبى ، ويهدف الى غرس مكونات الثقافة المذهبية فى شخصية الداعى أيضا . ولذلك فقد كثرت الوصايات والمواظ من قبل الأئمة التى تتطرق الى الجانبين معا فى تكوين شخصية الداعى .

ولقد جاءت تلك الوصايات والمواظ التى كان الأئمة يبتونها دعاتهم متينة السبك ، جزلة الألفاظ ، واضحة العبارة ، تميل الى القصور والايجاز ، حتى تكون أكثر وقعا فى النفس^(٣) .

(١) أنظر القواعد التى وضعها الفاطميون فى الدعاة ومواصفاتهم ، أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٣٢-٢٤٠-٢٦٢-

٢٦٦ .

(٢) أنظر قبل ، ص ٥٤٧-٥٤٩ .

(٣) أنظر بعض تلك المواظ والصايات عند القاضى النعمان : كتاب المجالس والسيارات ، ص ٨٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٢ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ وغير ذلك .

ومن ألوان النثر الفنى الذى عرفه عصر الفاطميين ، وان لم يكن بصورة واسعة ، الخطب السياسية المذهبية التى كان الخلفاء الفاطميون يخطبونها فى صفوف الناس سواء فى المناسبات الدينية كالجمع والأعياد ، أو فى المناسبات الأخرى (١) . وما من ريب فى أن عصر الفاطميين لم يخل من الدواعي التى تتطلب الخطابة ، لا سيما وهم يعيشون فى مجتمع يناصبهم العداء اللئيل وأطراف النهار . ومن هنا فقد اهتموا باللجوء الى وسيلة توضح نواياهم وأهدافهم دون لبس أو ابهام ، ولذلك فقد أولوا الخطابة جزءا كبيرا من عنايتهم . وتمثلت تلك العناية فى أنهم كانوا يتولون بأنفسهم الخطابة حتى يكون تأثيرها أوقع فى نفوس أتباعهم وخصومهم على السواء ، ولم يعهدوا لأحد أن يتولى أمر الخطابة الا نادرا .

ولعل الخطبة التى تعبر أصدق تعبير عن الاتجاه المذهبي للفاطميين من جهة ، وتعكس جلّ خصائص أسلوب فن الخطابة من جهة أخرى وهى الخطبة التى خطبها الخليفة المنصور فى الناس فى ميد الفطر عام ٣٣٤ هـ ، وهو العام الذى استشرى فيه خطر ثورة أبى يزيد . ومما جاء فى تلك الخطبة قول المنصور : (اللهم انك أخرجتنى من المهاد والوساد ، وجنبتنى الرقاد ، وحالفتنى السهاد وسلكت بى مغاور البلاد ، اللهم احكم لى على مخلد بن كيداد "فَرَمَوْنَ نِى الْأَوْتَانِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ" (٢) . اللهم

(١) لم تقتصر الخطب على الخلفاء الفاطميين أو من ينيبونه عنهم ، ولكن كان لأهل السنة مشاركة فى ذلك . ولقد مررنا سابقا ونحن نتحدث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الحياة العلمية ، الخطبة التى خطبها الخطيب المالكي - وهو أحمد بن محمد بن أبى الوليد - فى جموع السنة ابان الاستعداد لمقاتلة الشيعة والتأهب للانزواء تحت قيادة الثائر البربرى أبى يزيد مخلد بن كيداد

من ظروف هذه الخطبة ونصها الكامل ، أنظر المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤ مع الحواشى .

وهناك خطبة دينية غير مذهبية تنتمى الى هذا العصر ، وقد نسبت الى الفقيه المشهور ، ربيع القطان ، وهى خطبة بليغة عكست كل خصائص الخطابة أنظر نص هذه الخطبة عند المالكي : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٣٣٤ .

(٢) سورة الفجر آية رقم ١١٢ بدون ذكر حرف الواو من كلمة : فرعون .

أنزلهم بالمرصاد ، اللهم انك تعلم أنى سلاله نبيك ، وابن رسولك ، وبضعه من لحمه ، ونقطة من دمه ، ما قلت فغرا ولا لردا ، اللهم انك تعلم من أين أقبلت ، وإلى أين انتهيت ، وما فيك لاقيت ، اللهم انى بذلت مهجتي ونفسي فى سبيلك مجاهدا لعدوك ، طالبا الثأر لنبيك ، وابتغاء مرضاتك ، حتى تعيد فى الأرض حق عبادتك ، ويحكم فيها بحكمك ، انك أهل المن والطول (١) .

فهذه الخطبة فلاوة على القضايا السياسية المذهبية التى تثيرها فانها تميزت بمتانة الأسلوب وهدوء الألفاظ ، وقوة التأثير ، والاقتباس من القرآن الكريم ، وهى المميزات التى تميزت بها الخطب فى الدولة الإسلامية (٢) .

ومن ألوان النثر الفنى التى انفرد بها عصر الفاطميين فى افريقية دون غيره : التوقيعات التى شغف بها الخلفاء الفاطميون منذ عهد الخليفة عبيد الله المهدى ، حتى عهد المعز لدين الله . والتوقيعات كما هو معروف لون جذاب من ألوان التعبير الأدبى . ويتلخص فيما يعلق به الخليفة أو الملك أو الامير أو الوزير على ما يرفع اليه من الكتب ، وتمتاز التوقيعات بأنها تجمع بين القصر والجمال ، وقد تكون بمثابة بيت من الشعر ، أو آية ، أو مثل (٣) .

والخلفاء الفاطميون كانوا ذوى ثقافات واسعة ، ومن هنا اهتموا بالتوقيعات التى تترك أثرا جميلا فى نفوس الأتباع . ومما اشتهر من توقيعات فى عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى توقيعه بعزل القاضى أبى اسحاق بن أبى المنهال فى سنة ٣١١ هـ ، فقد وقع على خطاب عزله مخاطباً القاضى (لم نعزلك عن حرجة ، وانما عزلناك للينك ومهانتك) (٤) . ثم ما لبث

(١) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٥٩-٦٠ .

(٢) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ، ص ١٧٦ .

(٣) أحمد حسن الزيات : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٨ .

أن أعاده بعد عام واحد للقضاء ، فوقع في خطاب تعيينه مخاطبا له : (وانما كنا منزلناك للينك ومهانتك ! وردناك لدينك وأمانتك !) . (١)

وشغف المعز لدين الله بالتوقيعات أيضا ، لكنها لم تكن موجزة مثل توقيعات المهدي ، بل غلب عليها الطول والاستقصاء مع احتفاظها بخصائص فن التوقيعات (٢) . والملاحظة الأخرى لتوقيعات المعز أنها كانت موجهة غالبا لشخص واحد ، وهو قاضيه وداعيته الأبرز والأشهر القاضي النعمان ، الذي كان يرفع الى خليفته كل أمر يهمه من شؤون القضاء ، وشؤون تنظيم الدعوة ، وكل ما يخدم الثقافة المذهبية الاسماعيليه ، وأحيانا أموره الشخصية . ولم تكن كل توقيعات المعز طويلة ، بل كان بعضها قصيرا موجزا ، مشرق العبارة . ومن تلك التوقيعات التي وقعها الخليفة المعز والتي لا نستطيع كتم ادجابتنا بها ، التوقيع الذي وقع به الخليفة للقاضي النعمان عندما رأى جزع القاضي على وفاة الخليفة المنصور والد المعز . فوقع له : (يا نعمان ، ليحسن فزاؤك ويجمع صبرك ! فمولاك مضى ، ومولاك بقي ، وأنت واجد عندنا ما كنت واجدا عنده ، ونحن كنا سببك عنده ، ولن ينقطع ذلك السبب لدينا لك ان شاء الله تعالى ، فطب نفسا ، وقرمينا ، وليحسن بنا ظنك ، وتسكن الى ما تحبه لدينا نفسك) (٣)

بقي أن نشير أخيرا الى أن عصر الفاطميين لم يخل من أناس نطقوا بالحكمة ، والقول المأثور . وقد اشتهر بذلك عدد من الفقهاء تماما مثل ما عرفه العصر الاغلبى من قبل . فمنهم أشير الى أنه اشتهر بقول الحكمة الفقيه سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢ هـ) ، وهو ممن عرضنا له أثناء حديثنا عن انتشار

(١) ابن هذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٩ .

(٢) أنظر مثلا القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسابرات ، ص ١٢٢ ،

١٢٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ .

(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٣ .

المذهب المالكي في افريقية ، وتردد اسمه كثيرا عند الحديث عن الدراسات الشرعية . ومنهم الفقيه ربيع القطان (١) (ت ٣٣٣ هـ) ، وهو كذلك أحد الذين تردد اسمهم كثيرا عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكي . وعند التعرض للدراسات الشرعية ، ثم الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (٢) المتوفى عام ٣٣٧ هـ ، وغير ذلك .

ولقد كان سعيد بن الحداد أكثرهم طرقا لهذا اللون المتبع من النثر الفنى . فمن حكمه ما نصه : " من تحب الى العباد بمعاصي الله تعالى بغضه الله الى من تحب اليه بمعصيته " ، وكذلك : " ما استنقذت النفوس بمثل ترك مساعدتها " وأيضا : " انما هو دين مروءة ، فمن عرى فهمهما فقد عرى من كل خير " و : " أعظم من ذنب المذنب تركه الاعتراف بذنبه (٣) " ، الى غير ذلك من الأقوال العديدة التي تدل على البراعة الأدبية المميزة .

-
- (١) أنظر مياض : المصدر السابق ، ص ٣٥٩-٣٦٠ (حيث بعض تلك الأقوال الماثورة) .
- (٢) أنظر المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ (حيث الإشارة الى إشتهاره بقول الحكمة) .
- (٣) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٠٥-١٠٩ (حيث الإشارة الى هذه النصوص وغيرها) .

٢ - النشر التأليفى :

أيا ما كانت الأسباب فى تفسير قلة الانتاج الأدبى فيما يتعلق
بالتأليف الأدبية بالمعنى المفهوم والدقيق لها ، فان الحقيقة المؤسفة أننا
لم نعثر على أى ذكر لنشاط تأليفى أدبى فى هذا العصر ، أى عصر الفاطميين .
ويبدو أن ذلك يرجع الى المناخ المذهبى الذى ساد افريقية فى عهد الخلفاء
الفاطميين ، الذين كان اهتمامهم مركزا فى نشر المذهب الشيعى الاسماعيلى
بين المغاربة الرافضين له . وكما سبق أن أوضحنا فى مجال الدراسات الشرعية
أن المغاربة - بدورهم - قد قاوموا هذا المذهب أشد المقاومة . وليس ثمة شك
فى أن هذا المناخ الذى اصطبغ بالصراع العنيف بين الخلفاء الفاطميين وبين
الكثرة الغالبة من المغاربة المالكية قد ترك بصماته على الانتاج الأدبى فى ذلك
العصر . وعلى أية حال فان المؤلفات ذات الصفة المذهبية التى وصلت إلينا من
ذلك العصر لم تخل من قيمة أدبية طيبة . فبين أيدينا ثلاث مؤلفات من نتاج
ذلك العصر ، أولها كتاب المجالس والمسابرات للقاضى النعمان بن حيون ،
وثانيها كتاب الهمة وفضل الأئمة للقاضى النعمان كذلك ، والمؤلف الثالث
كتاب : تلقيح العقول للأديب بركة بن أبى اليسر الشيبانى (ت ٣٤١ هـ) .

أما كتاب المجالس والمسابرات فهو كتاب قيم متعدد الجوانب
والاهتمامات واذنا تجاوزنا الإشارة الى قيمته وأهميته التاريخية والوثائقية
والمذهبية ، فان قيمته الأدبية لا تقدر .

فكتاب المجالس والمسابرات ، كتاب أدبى ممتع ، طريف فى موضعه .
ان يعد من كتب أدب السيرة ، فقد ألف القاضى النعمان مادته من ملازمته شبه

الدائمة للخليفة المعز لدين الله ، ومن آرائه المتعددة في شتى جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والمذهبية التي كانت تعيشها الدولة في عهد المعز ، بالإضافة الى بعض أحداث جرت في عهد الخلفاء والسابقين . كما أن الكتاب كان يرصد مواقف المعز من القضايا الداخلية والخارجية التي كانت تشهدها الدولة وقتذاك .

أما من حيث القيمة الأدبية للكتاب ، فهو قطعة أدبية رائعة كما وصفه بحق حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) في تقرّظهما للكتاب . ذلك لأن الكتاب يمتاز بأسلوب سهل رقيق ويمتاز بالانسجام الكبير بين ألفاظه ومعانيه . والكتاب يعد انعكاسا صادقا للأدب الشيعي الاسماعيلى في صورته الأولى .

أما المؤلف الأدبى الثانى ، فهو : كتاب الهمة وفضل الأئمة للقاضى النعمان (٢) نفسه ، والكتاب كما يوصىء عنوانه ، ألف بقصد تبيان فضل الأئمة وحاجة الناس لهم ، ويسعى بالإضافة الى هذا ، لبث روح التفانى والاخلاص فى نفوس الأتباع ، أى الدعاة ، لتهيأتهم بما يثبتهم فيه من المثل والأخلاق ، النبيلة الى ممارسة دورهم الخطير فى نشر الدعوة ، ملاوة على تعدد مناصبه التاريخية المذهبية الأخرى (٣) .

ولا شك أنه لا يقل من حيث قيمته الأدبية عن المجالس والمسابرات ، ويرى حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٤) أن الكتاب يمثل الأدبى الاسماعيلى فى صورته المبكرة أحسن تمثيل .

(١) المعز لدين الله ، ص ٢٦٤ .

(٢) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٣٦٧ من مؤلفات القاضى النعمان

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٦٤-٢٦٦

(٤) نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٦٤ .

والمؤلف الأدبي الثالث والأخير والذي ينتمى الى عصر الفاطميين ، فهو كتاب : " تلقيح العقول " للأديب : بركة بن أبي اليسر الشيباني ، كما ذكرنا آنفا . والكتاب عبارة عن مجموعة من الأمثال ، ويقع في ١٥٧ بابا من الأبواب الصغيرة (١) . ويبدو أنه قد ألفه في بداية عهد الخليفة المعز (٣٤٣-٣٦٥هـ) لأنه توفي في نفس العام الذي تولى فيه المعز الخلافة ، أى عام ٣٤١هـ .

يبقى أن نشير قبل أن نتأهب لترك الحديث من النثر في عصر الفاطميين ، الى أننا لم نعثر على أى نتاج نثرى كانت تتجاوب أصداؤه في بقية المدن الافريقية . أما النثر الاباضى سواء فى جبل نفوسة (٢) ، أو فى اقليم الجريد (٣) ، فلم يكن واضحا آنذاك . وكل النماذج التى أشير الى أنها قد تنتمى الى عصر الفاطميين لا تروى ظمأ ، ولا تشفى غلة .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربى ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٢) أنظر أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ٢٠٨-٢١٣ .

(٣) أنظر صالح باجنية : المرجع السابق ، ص ١٥٧-١٦٣ .

- النشر في عصر الزيريين :

لم يبلغ النشاط الأدبي في مجال النشر في عصر من العصور السابقة ما بلغه من ازدهار ورفق في عصر الزيريين الذي نؤرخ لحركته الأدبية هنا . ولقد أصاب ذلك الازدهار والرفق الدعامات الثلاث التي يقوم عليها النشاط النشرى ، وهى الشكل والمضمون والكم . غير أن نشاط الدراسات النثرية بقسميها الرئيسيين : النثر الفنى ، والنثر التأليفى لم يكن متساويا خلال هذا العصر فى عطاءاته . فالنثر التأليفى كان أكثر بروزا وظهورا من النثر الفنى . وفى هذا من الدلالة ما فيه ، على أن البلاد دخلت وقتذاك المجال الأرحب من الدراسات الأدبية وهو مجال التأليف والمجاميع الأدبية . وكفى به دليلا ينهض على صدق مقولة تقدم الدراسات الأدبية فى هذا العصر .

١ - النشر الفنى :

أهم ما يلاحظ على مسيرة النشر الفنى فى عصر الزيريين أن بعض ألوانه المتمعة التى عرفت بها افريقية من قبل قد اختفت فى هذا العصر مثل الوصايا والمواظ والخطابة ، والتوقيعات وغيرها . ولعل السبب فى ذلك يكمن فى ضعف الدواعى الداعية لها فى هذا العصر . واللونان اللذان تلمسنا شواهد لهما هما المكاتبات الديوانية أو الرسمية ، والرسائل الاخوانية فحسب . ومن البدهى أن الحاجة الى المكاتبات الرسمية لا يمكن أن تنتفى فى ظل دولة كبيرة مثل الدولة الزيرية . كما أن الرسائل الاخوانية لا يمكن انقطاعها فى هذا العصر الذهبى للأدب ، بل لعلها كانت الدليل الواضح على مقدار الرفق الأدبى الذى بلغته الحياة الأدبية فى العصر الزيرى .

أما المكاتبات الرسمية ، فعلى الرغم من أن هذا العصر قد عرف كتابا كبارا لهم قيمتهم الأدبية التى خلدها كتب التاريخ والأدب حسبما سنعرف

بعد قليل ، إلا أننا لم نوفق في العثور على نماذج أو نصوص لمكتابات ديوانية^(١) تنتمي الى هذا العصر ، حتى يتهياً لنا الحكم على مقدار ما بلغته من رقى وتطور متوقع من حيث الشكل والمضمون هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لتتعرف على كتابها . وعلى كل حال فإننا قد عثرنا على ما هو أبلغ في الدلالة على مقدار ما بلغته المكتابات الرسمية كما ونوعاً وقتذاك . فهناك دليلان مهمان غاية الأهمية الأول : أن هذا العصر ازدهم بعدد كبير من الكتاب المرموقين ذوي الثقافات الأدبية المتنوعة والواسعة . والثاني : أن الكتابة الديوانية بلغت شأواً بعيداً من الاهتمام . فقد غدا ديوان الانشاء في عصر الزيريين جهازاً حكومياً من أبرز الأجهزة^(٢) . وفي هذا ما يضع الدولة الزيرية في مصاف الدول الكبيرة التي أولت الكتابة كل عنايتها . ولهذا فلم يعد مدهشاً لنا أن نعرف بأن ديوان الانشاء في عهد المعز بن باديس كان يضم وحده مائة كاتب من الكتاب المعروفين والبارزين^(٣) .

وكيفما كان الأمر ، فإذا تلفتنا نبحث من أهم وأبرز الكتاب خلال العصر الزيري لوجدنا كما قلنا عدداً وفيراً منهم . ففي عهد الأمير بلكين بن زيري (٣٦٢-٣٧٣ هـ) تعرفنا على كاتب مشهور هو : عبد الله بن محمد الكاتب الذي كان يلي أمر القيروان بالإضافة الى الكتابة آنذاك . وقد اشتهر بأنه كان

(١) على الرغم من الإشارة الواسعة لهذه المكتابات في معظم المصادر ، كذلك التي كانت تتبادل بين الأمراء الصنهاجيين والخلفاء الفاطميين من جهة ، وبينهم وبين عمالهم وقوادهم من جهة أخرى .

- أنظر مثلاً ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، الى غير ذلك .

(٢) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ٥٤ - أحمد بن عامر ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

شا عرا بارعا له أشعار جزلة . وقد استمر عبد الله الكاتب الى أن قتل عام ٣٧٧هـ يتولّى أمر منصبه في عهد الأمير المنصور بن بلكين بن زيرى (٣٧٣-٣٨٦هـ) (١) .

وفى عام ٣٨٣هـ عهد الأمير المنصور بن بلكين الى شخصية أخرى بتولى أمر المنصبين الخطيرين اللذين كان عبد الله الكاتب يتولاهما من قبل . ذلك الشخص هو : محمد بن أبى العرب الكاتب (٢) ، وهو ربما يكون أحد أحفاد الفقيه المالكي المشهور أبو العرب التميمي الذي عرفنا دوره العلمي المؤثر من قبل . وعلى أية حال فإن معلوماتنا عن محمد بن أبى العرب الكاتب لا تزيد عما ذكر ، فلا نعرف انتاجا أو أسهما أدبيا له ، كما أننا لا نعرف على وجه اليقين أو التقريب سنة وفاته .

ومن الكتاب المرموقين في العصر الزيرى أيضا : الأديب الشاعر عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى التميمي القيرواني (٣) (ت ٤٠٥هـ) . وعبد الكريم النهشلى من رموز الأدب الافريقى الذين أنبتتهم التربة الافريقية ، وسنفرد له لاحقا حديثا مسهبيا عن مكانته الأدبية والنقدية . أما ما يخصنا هنا ، فهو الحديث عن مكانته ككاتب ، فقد ذكر بأنه كان أحد كتاب الدولة الزيرية حقيقى عهد الأمير باديس بن المنصور (٣٨٦-٤٠٦هـ) (٤) . ويرى المنجى الكعبى (٥)

(١) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٣) تتبع المنجى الكعبى ترجمته في كل المصادر والمراجع التي كتبت عنه وقد خرج بانطباع مفاده أن النهشلى لم يوف حقه ، ولذلك فقد تتبع كل ذكر له في المظان المختلفة في كتاب بعنوان : النهشلى القيرواني ، جمع فيه كل شاردة وواردة عنه .

(٤) المنجى الكعبى : النهشلى القيرواني ، ص ٥٧-٥٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمرى في مسالك الأبصار) . على أنه صحح ما قاله ابن فضل الله العمرى من أن النهشلى ظل كاتباً حتى عهد تميم بن باديس . فنفى المنجى الكعبى : نفس المرجع ، ص ٥٨ أن يكون النهشلى قد ظل كاتباً حتى عهد تميم لأنه ليس هناك أمير صنهاجى يدعى تميم بن باديس كما أشار ابن فضل الله العمرى . ولكن هناك أمير يعرف بتميم بن المعز بن باديس الذى خلف أباه المعز في الامارة . ولما كان النهشلى قد توفى عام ٤٠٥هـ ، فإن أمر كتابته للأمير تميم بن المعز الذى تولى الامارة عام ٤٠٤هـ ليس أكثر من وهم ولعل مرده كما يرى المنجى الكعبى - وهلى على حق - اضطراب في النقل من ابن فضل الله العمرى .

(٥) نفس المرجع أعلاه ، ص ٥٧ .

أنه كان من كتاب الدولة الفاطمية، وبالذات الخليفة المعز لدين الله . لكننا في الواقع لا نميل الى تأييد هذا القول لافتقارنا الى الأدلة التي تدعم هذا الرأي .

ومن كتاب عصر الزيريين المشهورين أبو الحسن محمد بن اسماعيل بن اسحاق ، المطبق بأبي الحسن الكاتب (١) (ت ٤٠٨ هـ) . وقد قال ابن رشيق (٢) منه بأنه (من بيت شعر وكتابة ، وكان أبوه من جلة أهل زمانه في الرياسة والكتابة وعلم الدواوين ، وابتدأ الشعر ، وكذلك ولده المذكور) .

ومنهم الحسن بن علي الكاتب المعروف بابن زنجي الكاتب (٣) (ت ٤١٦ هـ) ، ويصفه ابن رشيق بأنه (من بيت كتابة ورئاسة وعلم) (٤) . وكان بالإضافة الى هذا شاعرا بارعا مشهورا .

ومنهم أيضا ، محمد بن عطية الكاتب المعروف بابن حيان الكاتب المغربي (٥)

(١) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، جمع وتعليق زين العابدين التوسمي ، ص ١١٩-١٢١ - الصفي : الوافي بالوفيات : الجزء الثاني ، ص ٢١٤-٢١٦ - عبد الرحمن باغى : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٦٧-١٦٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار) وقد أورد عبد الرحمن باغى خطأ ما ذكره ابن فضل الله العمري واهما من أنه توفي عام ٤٤٨ هـ . بينما الصحيح أنه توفي عام ٤٠٨ هـ كما ذكر ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٢٠ .

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١١٩ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٣-٨٧ - عبد الرحمن باغى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٣-٢١٤ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار) .

(٤) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٨٣ .

(٥) الصفي : نفس المصدر أعلاه ، ج ٤ ، ص ٩٥-٩٧ - حسن حسني عبد الوهاب الورقات ، القسم الثاني ، ص ٢١٨-٢١٩ - بساط العقيق في حضارة القيروان - شاعرها ابن رشيق ، ص ٨٠ مع الحاشية .

ويذكر الصفدي (١) أنه كان متوليا شؤون الكتابة في (كتابة الحضرة) ، أي الحضرة الزيرية مع الكاتب المشهور ابراهيم الدقيق . ويقول حسن حسني عبد الوهاب (٢) بأنه كان أحد حملة الأقلام في عهدى الأمير باديس بن المنصور والمعز ابنه .

ومن الكتاب المشهورين أيضا : أبو اسماعيل الكاتب ابراهيم بن غانم بن عبد ون الملقب بابن غانم الكاتب (٣) (ت ٤٢١ هـ) . وكان بالإضافة إلى شهرته بالكتابة ، شاعرا مبرزا من شعراء القيروان الذين أثنى عليهم ابن رشيّق في كتابه الأنموذج (٤) .

ومنهم الكاتب المشهور عبد العزيز بن محمد القرشي الطارفي . وقد اشتهر بالنثر . وكان فيه : (فارس الفرسان ، وواحد الزمان ، ما بين تزوير مقامة مبتدعة ، وتصدير خطبة غير مفترعة ، إلى الرسائل السلطانية ، والمكاتبات الاخوانية) (٥) .

ويضيّق بنا المجال لو استقصينا كتاب هذا العصر جميعهم ، فهم في الواقع كثيرون ، لكننا نختتم الحديث عن الكتابة والكتاب بكتابين كانا أشهر كتاب الدولة الزيرية على الإطلاق ، ومن الكتاب المعدودين في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

-
- (١) الوافي بالوفيات : ج ٤ ، ص ٩٥ .
(٢) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيّق ، ص ٨٠ .
(٣) ابن رشيّق : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٢٢-٢٥ - الصفدي : نفس المصدر السابق أعلاه ، ج ٦ ، ص ٧٨-٧٩ - عبد الرحمن باغى : نفس المرجع السابق ، ص ١٦٩-١٧٠ .
(٤) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٣ .
(٥) عبد الرحمن باغى : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٢١١-٢١٢ (نقلا عن ابن فضل الله العمري) .

فأولهما الكاتب الأديب والمؤرخ المشهور أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم المعروف بالرفيق القيرواني (١) (ت ٤٢٥ هـ) ، وهو من ألمع الكتاب الذين عرفتهم افريقية . تولى رئاسة ديوان الانشاء ، أى ديوان الرسائل منذ عهد الأمير المنصور وابنه باديس ، ثم حفيده المعز ، وظل يمارس مهمته مدة تصل الى نصف قرن من الزمان ، وكان يسمى خلالها بكاتب الحضرة ، أى الحضرة الصنهاجية (٢) . وقد أثنى ابن رشيق (٣) معاصره على مكانته فى فن المكاتبات فقال منه (شاعر سهل الكلام ، محكم ، لطيف الطبع قويه ، تلوح الكتابة على الفاظه . قليل الشعر ، غلب عليه رسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة الى الآن) . ويرى حسن حسنى عبد الوهاب (٤) أن ابن رشيق يقصد بعبارة : (الى الآن) : أى الى عام ٤٢٥ هـ ، وهو العام الذى ألف فيه ابن رشيق كتابه : الأنموذج .

ومما يدل على مكانته فى فن الكتابة الرسمية أن معظم من ترجم له من المؤرخين نعته بأهم صفتين رئيسيتين له وهما : أنه كان كاتباً (٥) ومؤرخاً (٦) .

-
- (١) من ترجمته الواسعة وسنة وفاته والاختلاف فى ذلك أنظر بعد ، ص ٧٧٨-٧٧٩
 (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٣٨ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .
 (٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨ .
 (٤) الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٤٢ .
 (٥) ممن نعته بالكاتب : ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٨ الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٩٢ - حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٣٨ - الزركلى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٧١ - الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا حاشية رقم ١ ، ص ١٨٨ (نقلا عن ياقوت الحميرى فى معجم الأدباء) .
 (٦) من مكانته فى علم التاريخ ، أنظر بعد ص ٧٧٨-٧٨٠ .

والكاتب الآخر المشهور هو الأديب الرياضي الفلكي : أبو الحسن
 علي بن أبي الرجال التاهرتي الشيباني (١) ت ٤٢٥ هـ . وأبو الحسن علي بن
 أبي الرجال تاهرتي الأصل ، إلا أنه قدم القيروان مبكرا ، فالتحق بخدمة الدولة
 الزيرية (٢) . ولقد أوصله نبوغه الى محل رفيع في البلاط الزيري ، لذلك رأيناه
 يعهد اليه بتربية وتثقيف الأمير المعز بن باديس (٣) ، الذي تولى الحكم عام
 ٤٠٦ هـ . وما ينسب اليه من جلائل الأعمال أنه كان السبب الرئيسي في إثناء
 الأمير المعز من المذهب الشيعي وتحوله الى مذهب الأغلبية : المذهب
 المالكي (٤) . أما مكانته العلمية فقد كانت ذات جوانب متعددة ، إذ كان كما ذكرنا
 كاتباً بارعاً ، وهو الأمر الذي أهله لتولي رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء (٥) ،
 وإن كنا لا نعرف متى تم ذلك على وجه التعيين ؟ . وبالإضافة الى ذلك كان
 شاعراً متمكناً (٦) ، وهذا هذا وذاك فهو ذو اهتمامات معروفة بعلمى : الفلك
 والرياضيات ، حتى أن له فيها مؤلفات حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

ومما يدل على المكانة الأدبية التي بلغها أنه كان يحيط الأدباء
 والشعراء المشهورين آنذاك من أمثال ابن رشيق ، وابن شرف وغيرهما برعايته

-
- (١) أنظر ترجمته ووفاته والاختلاف في ذلك ، أنظر بعد ، ص ٨٠٧ - ٨٠٩
 (٢) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ ، ويقول عنه أنه من أشرف تيهرت
 (يقصد تاهرت) . وأنه نشأ في قرطبة ، ثم قدم القيروان والتحق بخدمة
 الدولة الزيرية) - عبد العزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ، الجزء
 الاول ، ص ٢٧٧ (ويقول عنه انه نشأ بقرطبة وعاش بنوت) .
 (٣) ابن مغازي : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ .
 (٤) ابن مغازي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء والصفحة .
 (٥) لم يشر الى توليه رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء ممن ترجم له سوى
 عبد الرحمن باغي : المرجع السابق ز ص ١٤٦ - ١٤٧ ، وهو مع ذلك لا يقطع
 قطعاً أكيدا ولكنه لا يستبعده .
 (٦) عن مكانته الشعرية ، أنظر بعد ، ص ٧٠٤

وَحَدِّسَهُ. وهذا ما دفعهم الى أن يهدى اليه البعض منهم مؤلفات—
الأدبية (١) جريا على العادة التي كانت شائعة وقتذاك.

وانا ما نحينا الكتابة الرسمية والكتاب جانبا وبحثنا عن اللون
النثرى الآخر الذى ذكرنا أنه قد ازدهر فى عصر الزيريين ، فإننا على الرغم من
قلة النماذج له التى بين أيدينا واثقون من أن النثر قد بلغ أوج تقدمه وتطوره
من حيث الشكل بالدرجة الأساسية - على مقاييس التطور المعروفة آنذاك بالطبع -
فتلك النماذج القليلة (٢) كافية لنتبين الاتجاه العام الذى سلكته المكاتبات
الاخوانية فى افريقية آنذاك ، فهى لا تخرج من حشو الرسائل بالصنعة والتكلف
فى الكلام المسجوع والمحلى بألوان البديع من جناس وتورية وطباق ومقابلة ، الى
تقليب الجمل على المعنى الواحد ... الخ .

وانا جاز لنا أن نورد نصا واحدا من تلك الرسائل الإخوانية ، فإننا
لا نجد خبرا من الرسالة الإخوانية الأدبية الممتعة التى ذاع أمرها وانتشرت عند
مؤرخى الأدب فى الأندلس والمغرب والمشرق أيضا . وهى الرسالة التى
بعثها الأديب القيروانى المسكن والوفادة ، التاهرتى الأصل أبو على الحسن بن
محمد التميمي ، القاضى التاهرتى المعروف بابن الربيب (٣) (ت. ٤٢٠ هـ) الى

- (١) كما فعل ابن رشيق الذى أهدى اليه كتاب : العمدة فى محاسن الشعر
وآدابه ونقده ، وكما فعل زميله الشاعر الأديب الناقد ابن شرف الذى
أهدى اليه كتاب : مسائل الانتقاد أو اعلام الكلام .
أنظر ابن رشيق : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ص ٣ -
ابن شرف : مسائل أو رسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (اعلام
الكلام) ، تصحيح وضبط عبد العزيز أمين الخانجي ، ص ١٥ .
- (٢) من تلك النماذج للرسائل الإخوانية القليلة التى عثرنا عليها : الرسالة
التي بعثها ابن رشيق للأديب أبي الحسن على بن أبي الرجال ، وهو
يهدى اليه كتابه العمدة ، والرسائل التى كان يبعثها الحصرى القيروانى
الضريير الى أصدقائه فى الأندلس .
- من رسالة ابن رشيق أنظر ابن رشيق : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه
ونقده ، ص ١٥-١٨ . ومن رسائل الحصرى ، أنظر محمد المرزوقى والجيلانى
بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ٩١-٩٩ .
- (٣) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، =

صديقه الأديب الأندلسي أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الوزير والكاتب الأندلسي المشهور. والرسالة (١) في الأصل قصد منها نقده الحالة الأدبية في الأندلس، والافتخار بمثيلتها في القيروان خاصة .

ومما جاء فيها : (إني فكرت في بلدكم أهل الأندلس ان كان قرارة كل فضل ، ومقصد كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، وإن بارت تجارة أو صناعة فاليكم تجلب ، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ورفعهم من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الهيبان ، ووثبة الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العبي ، وشعر البكي ، وانتسر البغات ، تتشعب الحفات (٢) ، وتنافس الناس في العلوم . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن علماء الأمصار ونوا فضائل أعيانهم وقلدوا الكتب فأثروا أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين ، ولسان صدق في الآخرين ، وعلماءكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله ، لا يبرح وثابت على كعبه لا يتزحزح ، يخاف أن صنف أن يعنف أو تخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .) (٣) - ويحصى ابن الربيب فينقد تقاس أدباء وعلماء الأندلس في نشر انتاجهم ، بل وضعفه ، ثم يخاطب صديقه بقوله : (فإن

- ص ٧١-٧٢ - المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، حاشية رقم ٢ ، ص ١٥٦ .
وقد قال المحقق احسان عباس بأنه قد استمد ترجمته من ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار . ولقد أطلق عليه اسم : الحسين بينما سماه ابن رشيق الحسن ، وكذلك فصل المقرئ في متن الصفحة رقم ١٥٦ .
(١) من أشار إلى تلك الرسالة ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ١٣٣ - المقرئ : نفس المصدر أعلاه ، والجزء ، ص ١٥٦ ، مع اختلاف يسير في الألفاظ بين المصدرين .
(٢) تتشعب الحفات : اتخذ هيئة الشعبان ، والحفات : حيوان كالشعبان ينفخ فحيمه ويثب مثل وثبة ، ولكنه غير مؤذ . أنظر الحاشية رقم (٢) ص ١٣٤ - التي علق بها محقق المجلد الاول من الذخيرة لابن بسام : احسان عباس .
(٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ١٣٣-١٣٤ .

قلت : إنه كان ذلك من علماءكم ، وألفوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روجة راكب^(١) أو دلجة قارب ، لو نفت ببلدكم مصدر ، لأسمع ببلدنا من في القبور ، فضلاً عن في المصدر والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبدربه منكم الذي سماه ب : " العقد " ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، إذ لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومثاقب ملوكه بنتيجة سلكه ، لكنه أكثر وطول ، وأخطأ المفضل ، وأطال الهزيسيف غير مفصل ، وقعد به ما قعد بأصحابه وترك ما يعينهم واغفـال ما يهمهم . فأرشد أخاك . أرشدك الله - إن كان عندك في ذلك الجلية ، ويبدك فصل القضية إن شاء الله (٢) .

ولقد أجابه الأديب الأندلسي برسالة أدبية ضافية يوضح له فيها حالة الحركة الأدبية في بلاده الأندلس^(٣) . وبالطبع فنحن ليس من مهمتنا تتبع ذلك ، ولكننا رغبتنا في اظهار ما بلغته حالة النثر الفنى فى افريقية وقتئذ من خلال رسالة ابن الربيب التى جاءت تعكس كل خصائص النثر الفنى الذى بلغته من حيث الشكل ، مع ما فى الرسالة من مضامين توضح حالة الحركة الأدبية فى افريقية وقتئذ .

وقبل أن نغادر الحديث عن النثر الفنى وفروعه التى طرقها الأدباء فى العصر الزيرى ، لا يفوتنا الإشارة الى أن هذا العصر عرف نماذجاً للون من ألوان التعبير الأدبى وهو الحكمة ، وقد نطق بها عدد من الفقهاء ، - وهو أمر أصبح كظاهرة عامة - من أمثال : ابن التيان المتوفى عام ٣٧١ هـ ، وأبى اسحاق^(٤)

(١) عند المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥٨ (روجة راكب) .

(٢) ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ١٣٤ .

(٣) ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد الأول ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤) مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١٢ - ٥١٣ ، ٥٢٣ (حيث الإشارة الى نماذج الحكمة فى أقوال ابن التبان وأبى اسحاق الجنبانى) .

الجبنيانى المتوفى عام ٣٩٩ هـ، وقد ترجمنا لهما من قبل عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية فى نشر المذهب المالكي وفى الدراسات الشرعية . وكذلك من الفقهاء الذين اشتهروا بقول الحكمة الفقيه النفوسى أبو عبد الله محمد بن بكر (٣٤٥-٤٤٠ هـ) ، وقد ترجمنا له كذلك من قبل عند حديثنا عن دراسات الفقه الاباضية . ولعل فى النموذجين اللذين نورد هما الآن لأبى عبد الله محمد بن بكر النفوسى ما يوضح لنا حقيقة ما بلغه الأدب من رقى فى العصر الزيرى من خلال لون الحكمة هذا . قال أبو بكر : " هم أهل الزمان كالسيخة إن ابتلت زلقت ، وإن جفت خدشت " ، وكذلك قوله : " كالتيس إن اجتمعوا تناطحوا ، وإن افترقوا تصايحوا " (١) .

(١) أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

٢ - النشر التأليفى :

ذكرنا آنفا أن افريقية دخلت فى عصر الزيريين المجال الأرحب والأوسع من الدراسات الأدبية ، وهو مجال التأليف والمجاميع الأدبية الكبيرة ، وهو قول صحيح لا غبار عليه ، فلقد ازدحم هذا العصر بصفة خاصة بأدباء كبار كان لهم أثرهم العظيم فى إثراء الدراسات الأدبية الافريقية ، ليس على مستوى عصرهم فحسب ، بل وعلى مستوى كل العصور الافريقية حتى الآن . فلقد وجد فى هذه العصر معظم رموز الأدب الافريقى الذى يشار اليه بالبنان حتى الآن من أمثال : النهشلى القيروانى والقزاز القيروانى وابراهيم الحصرى والرقيق القيروانى ، وابن رشيق وابن شرف والحصرى الضرير ، وغيرهم ممن ملأ البلاد انتاجا أدبيا غزيرا فى شتى المجالات الأدبية حسبما عرفناه من قبل ، وحسبما سنشير اليه الآن ، ثم لا حقا إن شاء الله .

ولعل من أوائل أولئك الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاتهم واسهاماتهم ، الأديب والشاعر المشهور أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى التميمى القيروانى (ت هـ . ٤٠٤هـ) . والنهشلى القيروانى عربى الأصل وينتسب الى قبيلة تميم المشهورة ، وقد ولد بمدينة المحمدية أو السيلة كما تعرف أيضا ، وهى احدى مدن اقليم الزاب ، ثم قدم القيروان ، فالتحق بخدمة الدولة الزيرية ، وتولى منصب الكتابة فى بلاط الزيريين حتى عهد الأمير باديس بن المعز^(١) (٣٨٦-٤٠٦هـ) . على أن الكتابة لم تكن مجال النهشلى الأديب الوحيى فقد كان شاعرا وناثرا وناقدا بجانب ذلك . وإذا كنا سنؤجل الحديث عن مكانته الشعرية الى ما بعد ، فإن ما يعنيننا هنا هو انتاجه الأديبى النثرى الذى خلفه ونعنى بذلك (كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله^(٢)) ، الذى كان له شهرة فى دنيا

(١) المنجى الكعبى : النهشلى القيروانى ، ص ٣٨-٥٨ .

(٢) هكذا رجح المنجى الكعبى بعد بحث طويل هذا العنوان لكتاب النهشلى القيروانى . أنظر المنجى الكعبى : نفس المراجع أعلاه ، ص ٢٧ ، ١٥٤ ، ١٦٧ .

الأدب في العصور الأولى (١) . وكتاب الممتع من أهم كتب المجاميع الأدبية في تاريخ الأدب العربي بما يتضمنه من مادة غزيرة منتقاة من الأدب العربي إلى الجاهلي والإسلامي تسهم في إرواء ثقافة الشاعر والناثر على السواء ، وهو في الوقت نفسه خير معين للناقد في ممارسة رسالته (٢) . والممتع من كتب الأدب التي جاءت على نسق كتاب الكامل للمبرد ، والأمالى لأبي علي القالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وزهر الآداب للحصري القيرواني ... الخ . بالإضافة إلى أنه من كتب النقد المعروفة .

وممن أسهم في إرواء الحركة التأليفية الأدبية آنذاك ، الأديب والعالم اللغوي النحوي المشهور أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني المعروف بالقزاز القيرواني (٣) (٣٢٢-٤١٢ هـ) (٤) . والقزاز القيرواني شخصية أدبية

-
- (١) المنجى الكعبي : المرجع السابق ، ص ١٧٧-١٧٨ .
 (٢) المنجى الكعبي : نفسه ، ص ١٧٩-١٨٠ .
 (٣) تصدى المنجى الكعبي إلى تأليف كتاب عنه . وقد أطلق عليه العنوان الآتي : " القزاز القيرواني - حياته وآثاره) . ولقد تتبع في هذا الكتاب كل ما يتصل بالقزاز في حياته وشيوخه وتلامذته وأولاده ، إلى غير ذلك مما يتعلق بأدق تفاصيل حياته ثم من ترجم له . وفي الشق الثاني من الكتاب تطرق إلى كل شاردة وواردة عن آثاره الأدبية واللغوية على وجه الدقة والتفصيل . ومن هنا فقد اكتفينا في الترجمة للقزاز القيرواني وفي التعرض لآثاره الأدبية على هذا الكتاب وحده لشموليته .
 (٤) فيما يتعلق بتاريخ وفاته ، فقد كانت في عام ٤١٢ هـ ، وذلك باتفاق كل من ترجم للقزاز . ولكن الاختلاف كان في تحديد عمره ، وبالتالي سنة ولادته . فمن قائل أنه توفي وهو في السبعين من عمره . ومن قائل بل في التسعين . وقد حقق ذلك المنجى الكعبي فتوصل إلى ترجيح أنه ولد في حدود عام ٣٢٢ هـ فهو بالتالي قد توفي في التسعين من عمره .
 أنظر المنجى الكعبي : القزاز القيرواني - حياته وآثاره ،

متعددة الجوانب والاهتمامات . وقد عاصر الد ولتين الفاطمية والزييرية معا .
ذلك لأنه ولد عام ٣٢٢ هـ . وهذا يعنى أنه قد عاش أربعين عاما فى ظل
الخلافة الفاطمية . وقد كان خلالها شعلة تتوهج أدبا ولغة ونموا . وكان
الخليفة المعز لدين الله يجله ويقدره ، وقد اصطحبه معه الى مصر عندما
غادر المغرب عام ٣٦٢ هـ . غير أن القزاز القيروانى ما لبث أن عاد الى بلاده
بعد مدة ، حيث ظل هناك الى أن توفى عام ٤١٢ هـ (١) .

وإذا كنا سنترك الحديث عن مكانته الشعرية الى موضعها فيما بعد ،
فإن الخلق بنا الآن أن نعرض الى اسهاماته فى دنيا النشر التأليفى . فقد
أهدى القزاز للحركة الأدبية الافريقية مجموعة من الكتب القيمة منها : التعريض
والتصريح ، وهو كتاب تتكون مادته الأدبية من مجموعة من النوادر والحكايات التى
تدور بين الناس فى التعريض من كلامهم (٢) . وكتاب : " شرح رسالة البلاغة " ،
وهو كتاب يقع فى عدة مجلدات (٣) ، ثم كتاب : " ما أخذ على المتنبي من اللحن
والغلط (٤) " . ويقع فى جزأ واحد ، وهو من كتب النقد أيضا . وللقزاز كذلك
كتاب ثالث هو : " كتاب أبيات معان فى شعر المتنبي " (٥) ، وهو كتاب تدور
مادته الأدبية على استعراض معانى الحكمة والأخلاق التى دارت فى شعر
المتنبي .

ومن مصنفات القزاز الأدبية أيضا : " كتاب معانى الشعر " ، وهو
لا يمت بصلة الى الكتاب السابق : أبيات معان فى شعر المتنبي ، كما يرى المنجى
الكعبى (٦) . والكتاب السادس والمهم : كتاب " أدب السلطان (٧) والتأديب له " ،

-
- (١) المنجى الكعبى : المرجع السابق ، ص ٣٠-٣٢ .
(٢) المنجى الكعبى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٤٥ ، ٧٥-٧٧ .
(٣) المنجى الكعبى : نفسه ، ص ٤٥ ، ٧٧ .
(٤) المنجى الكعبى : نفسه ، ص ٧٧-٧٩ .
(٥) المنجى الكعبى : نفسه ، ص ٤٥ ، ٧٩ .
(٦) القزاز القيروانى - حياته وآثاره ، ص ٤٥ ، ٧٩-٨٠ .
(٧) المنجى الكعبى : القزاز القيروانى - حياته وآثاره ، ص ٤٥ ، ٨٠-٨١ .

وهو من أضخم مؤلفاته ويقع في عشرة أجزاء . وقد جاء على نسق المؤلفات التي تعنى بالآداب السلطانية ، وهو معنى طرقه الأدباء المشاركة من قبل مثل ابن المقفع والجاحظ وغيرهما .

ومن الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفات قيمة ، الأديب الشاعر : أبو اسحاق : ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن تميم الحصري القيرواني (ت ٤١٣ هـ) . و ابراهيم الحصري أحد أدباء القيروان المبكرين الذين عرفهم العصر الزيري ، وهو كما يتراءى لنا ثالث أربعة أدباء تتلمذ على أيديهم الرميل الثاني من أدباء بلاد افريقية الذين يأتى على رأسهم ابن شرف وابن رشيق الحصري الضريب وغيرهم . والأربعة الأدباء هم : النهشلي والقزاز و ابراهيم الحصري نفسه والرقيق الكاتب والمؤرخ .

بيد أن الغموض للأسف لف جزءا غير يسير من حياة ابراهيم الحصري رغم أنه قد عاش طويلا ، فقد قارب الثمانين من عمره (٢) ، وذلك بعكس ما حظى

(١) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١٨ - ٢٠ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، الجزء الثاني ، ص ٩٤-٩٧ - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٥٤-٥٥ - الصفدي : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص ٦١-٦٢ - ابن السراج : الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ - أبو القاسم كروو عبد الله شريط : شخصيات من المشرق والمغرب ، ص ٢٨٧-٢٨٩ - عبد الجبار الشريف وعلي دبه : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب ونمو الألباب - دراسة ومنتخبات ، ص ١١-١٢ . وغير ذلك من المؤرخين القدامى والمحدثين . وقد تفاوتت الاشارة الى اسم الحصري بين مصدر وآخر ، وبين المراجع بالتالي فهناك من اكتفى بذكر اسمه ولقبه فقط هكذا ابراهيم الحصري ، وهناك من نسبته نسبيا كاملا وهناك من اكتفى بالاشارة الى اسمه واسم أبيه وجده ، ثم لقبه .

(٢) اختلف في سنة وفاة ابراهيم الحصري اختلافا بينا . فابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٠ يقول انه توفي عام ٤١٣ هـ ، وتابعه في ذلك ياقوت : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٩٥ . أما ابن خلكان : نفس المصدر أعلاه =

به زملاؤه النهشلي والقزاز والرقيق . لكننا على أية حال ظفرنا من ترجمته بمعلومات مهمة سواء كان ذلك فيما يتصل بمكانته الشعرية التي سنتطرق اليها لاحقا ، أو مكانته في فن النثر التأليفى من طريق مؤلفاته التي خلّدت له .

وأهم مؤلفات ابراهيم الحصرى ، وأشهرها ، وأعظمها تأثيرا وأثرا هو كتاب : " زهر الآداب وثمر الألباب " (١) ، وهو الكتاب الذى وضع الحصرى

= والجزء ص ٩٥ . أما ابن خلكان : نفس المصدر السابق والمجلد ص ٥٤ . فقد ذكر أنه توفي عام ٤١٣ هـ ، ثم ذكر أنه قيل بل ٤٥٣ هـ (نقلا عن ابن بسام فى الذخيرة) . لكن ابن خلكان عاداته التاريخ الأول ، ووقف الصفدى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢ ، نفس موقف ابن رشيق . أما ابن السراج : نفس المصدر السابق والجزء والقسم ، ص ٢٧٨ فقد (اعتمد سنة ٤١٣ هـ ، وحدها . أما الباحثون المحدثون فإن أكثرهم يميل الى تأييد ابن بسام فيما ذكره من أن الحصرى توفي سنة ٤٥٣ هـ ، فمن أولئك أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨١ . وقد ترددوا فقالوا فى ص ٢٧٩ أنه توفي عام ٤١٣ هـ وقالوا فى ص ٢٨١ أنه توفي عام ٤٥٣ هـ . وان لم يفتنعا بذلك . وكذلك فعل عبد الجبار الشريف وعلى د ب : نفس المرجع السابق ، ص ١٢ . وقد اعتمدا فقط عام ٤٥٣ هـ . وذلك تأسيسا بزكى مبارك الذى حقق كتاب الحصرى الأشهر : زهر الآداب وقد أوحى ذلك الاختلاف الى الشاذلى بويحيى الى التصدى لتحقيق سنة وفاة الحصرى بالاعتماد على الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية والأدبية وذلك بكتابة مقال بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى . وقد اثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الأصوب منطقيا وتاريخيا وأدبيا هو أن وفاة الحصرى كانت عام ٤١٣ هـ وليس عام ٤٥٣ هـ .

أنظر الشاذلى بويحيى : مقال بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤ م ،

تونس ، ص ٩ - ١٨

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٩٦ - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٥٥ - الصفدى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٦٢ - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الثانى ، ص ٥٨٤ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع السابق ، ص ٢٨١ . وانفردا وحدهما بالقول بأن اسم الكتاب : زهر الآداب وثمر الألباب - عبد الجبار الشريف وعلى د ب ابراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، ص ١٥ وما بعدها . وكل هؤلاء المؤرخين القدامى والمحدثين ونفر آخر غيرهم أجمعوا على أهمية شهرة كتاب زهر الآداب .

في مصاف مؤلفي المجاميع الأدبية المشهورين كالجاحظ والقالى والمبرد وابن
هدريه، والنهشلى القيروانى وغيرهم (١). ولقد بناه ابراهيم الحصرى على طريقة
كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢). وتتألف مادته الأدبية من مختارات،
شعرية ونثرية، ونوادر، وملح وطرائف، كالتى كانت تتضمنه كتب المالسى،
والبيان والتبيين، والعقد الفريد والى غير ذلك (٣). ولقد اختط ابراهيم الحصرى
منهجية لا تختلف عما كانت تسير عليه تلك المجاميع الأدبية من نهج يجمع بين
التنوع والتلوين (٤).

وفى الحق فإن كتاب زهر الآداب يعتبر من أهم كتب الأدب الخالص بما
يشتمل عليه من مضامين وقيم أدبية واجتماعية ونقدية وتاريخية ووصفية الى غير ذلك،
كما يعتقد عبد الجبار الشريف، وعلى د ب فى كتابهما: ابراهيم الحصرى صاحب
زهر الآداب وثمر الألباب (٥). وإن كان المأخذ الوحيد عليه أنه تجاوز الانتاج
المغربى، فلم يعره اهتمامه (٦)، تماما مثل ما فعل الأديب الأندلسى ابن هدرى
فى كتابه: العقد الفريد.

ومن مؤلفات الحصرى الأخرى عدة كتب منها: "نور الطرف ونور
الطرف" (١)، وهو مختصر لكتاب: "زهر الآداب"، ويقع فى جزء واحد، وقد

-
- (١) المنجى الكعبى: النهشلى القيروانى، ص ١٧٨-١٧٩.
- (٢) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط: نفس المرجع السابق، ص ٢٨١-٢٨٣.
- (٣) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ج ٥، ص ١٠٥-١٠٦. أبو القاسم كرو
وعبد الله شريط: نفسه، ص ٢٨١، ٢٨٣- عبد الجبار الشريف وعلى د ب:
نفس المرجع السابق، ص ١٥-١٩.
- (٤) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط: نفسه، ص ٢٨٤-٢٨٥. عبد الجبار الشريف
وعلى د ب: نفسه، ص ١٦-٢٤.
- (٥) ص ٢٤-٢٩.
- (٦) عبد الجبار الشريف وعلى د ب: نفسه، ص ٢٤- المنجى الكعبى: نفس
المرجع أعلاه، ص ١٧٨. وان كان لا يرى أن ذلك هيبا بقدر ما هو جهد
مأثور تاريخى لأدباء المغرب الذين كان لهم الفضل فى جمع مادة الأدب
المشرقى جمعا لا مثيل له.
- (٧) الصمدى: نفس المصدر السابق، ص ٦١- أبو القاسم كرو وعبد الله شريط: =

يسمى : النورين أيضا (١) . ومنها : كتاب : " جواهر النوادر ولوح الملح المسلح " (٢) كما أسماه هو ، أو : " جمع الجواهر في الملح والنوادر " (٣) كما أسماه ونقله بعض من مؤرخي الأدب القدامى .

ومن مصنفات الحصرى القيروانى التى بلغت شهرة عريضة ، كتاب : المصون فى سر الهوى المكنون (٤) ، وقيل الدر المكنون . ويقع فى جزء واحد وهو ذو قالب أدبى طريف فى بابه ، ان هو عبارة (من دراسة تحليلية لعاطفة الحب فى مظاهرها) (٥) . ويرى الشاذلى (٦) بويحيى أن هذا الكتاب ربما

-
- = نفسه ، ص ٢٨٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٥ ، ص ١٠٦ .
- (١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٩٧ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ - نبينا يسميه ابن بسام : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ كتاب : النور والنور .
- (٢) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
- (٣) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٥ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .
- (٤) ياقوت : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٦-٩٧ ويسميه المصون والدر المكنون - الصفدى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٦١ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ . وقد أشار الى أن الكتاب يعرف كذلك : المصون فى الدر المكنون . فى حين أغرب ابن بسام : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ . فقال إن اسم الكتاب هو : (المصون من الدواوين) .
- (٥) الشاذلى بويحيى : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى - مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الاول ، ١٩٦٤ م ، ص ١٧ .
- (٦) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى ، ص ١٧-١٨ .

يكون أصلا من الأصول لكتاب الأديب والعالم الأندلسي المشهور: ابن حزم القرطبي المعروف بكتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) ومن مصنفات الحصرى أيضا ، كتاب : طيبات الأغاني ، مطربات القيان " . ويقول أبو القاسم (١) كرو وعبد الله شريط إن هذا الكتاب مفقود . وقد أشار إليه الحصرى نفسه فى كتابه : جواهر النوار ، أو جمع الجواهر ، كما هو مشهور .

ويعتبر الكاتب والمؤرخ والأديب إبراهيم الرقيق (ت ١٢٥٤هـ) ، الذى عرفنا دوره من قبل فى الكتابة الرسمية ، أحد الأديباء الذين أسهموا فى تنشيط واعداق الحركة الأدبية الأفريقية بمؤلفاتهم القيمة الممتعة . فقد كان الرقيق أحد الذين فتح لهم الباب فى التأليف سواء فى التاريخ أو الأدب .

فمن مصنفاته التى خلدت له نذكر : كتاب : نظم السلوك فى مسامرة الملوك ، ويقع فى أربعة أجزاء ، وهو على نسق كتب الآداب السلطانية كما يوسى عنوانه بذلك (٢) . وكذلك كتاب : الأغاني ويقع فى مجلد واحد ضخمة ، وهو على نسق كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني كما يدل عليه عنوانه أيضا . ومن كتبه كتاب : " النساء " (٤) ، ويتضمن أخبار النساء الشاعرات وغيرهن ، وكتاب : المتيمين (٥) وليس هناك ما يفيد عنه سوى ذكر اسمه فحسب .

وللرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات تتناول الخمرات ، أشهرها كتاب : قطب السرور فى وصف الأنبة والخمر (٦) ، ويقع فى جزأين . وهذا

-
- (١) شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ٢٨٢ .
 - (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٤٥ - مقدمة المنجى الكعبى محقق تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيرواني ، ص ٢٣ .
 - (٣) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٦ .
 - (٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ - مقدمة المنجى الكعبى ، ص ٢٣ .
 - (٥) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ .
 - (٦) هذا هو العنوان الصحيح للكتاب كما أشار الى ذلك حسن حسنى عبد الوهاب والشاذلى بويحيى ، لا كما أورد المنجى الكعبى محقق القطعة المحفوظة من كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق : نفسه ، ص ٢٣ . من أن اسمه كتاب قطب الدور فى الأنبة والخمر . =

الكتاب على عكس ما يوحي به عنوانه ولا يتضمن الا القليل من المادة عن الخمرة (١)، والا فهو في معظمه مختارات وطرائف (من أمثال الحكماء ومنثور البلغاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء ، مالا يستغنى عنه شريف ولا يجوز أن يخلو منه ظريف) (٢) . ويرى الشاذلي (٣) بويحيى أن كتاب قطب السرور (لا يوجد له مثيل في نوعه بين مؤلفات المشرق) .

أما الأديب الافريقي الذي غمرت مؤلفاته الأدبية ساحة الأدب ، لا الافريقي فحسب ، بل والعربي أيضا ، فهو الأديب الشاعر الناقد طائر الصيغ ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٤) (٣٩٠ - ٤٥٦ هـ) (٥) . وابن رشيق

-
- = أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٤٤٥ - الشاذلي بويحيى : حول نشر كتاب قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ، السنة ١٩٧٠ م ، ص ٨ .
- (١) الشاذلي بويحيى : نفس المقال أعلاه ص ٩ .
- (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٥ (نقلا عن مقدمة الرقيق نفسه للكتابه ذلك) .
- (٣) الشاذلي بويحيى : نفس المقال أعلاه ، ص ٩ .
- (٤) لم يحظ أديب من أدباء افريقية بمثل ما حظى به ابن رشيق من اهتمام واسع الا القليل جدا . فمن بين من ترجم له من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين نذكر : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الثاني والجزء ، رقم ٨ ، ص ٥٩٧-٥٩٩ - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٨٥-٨٩ . ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٨ ، ص ١١٠-١٢١ مقدمة محقق كتاب العمدة لابن رشيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ص ١٤٠-١٤١ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣١٣-٣٢٠ - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص ٦٢-٦٣ وقد أشار الى حوالي ٢٣ مصدرا ومرجعا جاءت فيها ترجمة ابن رشيق - كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٣-٣٤٤ . وبالإضافة الى هؤلاء فقد اختصه أربعة من الباحثين المحدثين بكتب مستقلة تترجم له وتترجم لعصره الأدبي من خلاله مثل : حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق - عبد الرحمن باغى : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها - عبد الرؤوف عبد العزيز مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر - أما الباحث الرابع عبد العزيز الميمنى الراجكوتى الذى جمع شعر ابن رشيق وابن شرف فى كتاب أطلق عليه : النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين .
- (٥) هناك اختلاف شديد فى تاريخ ولادته وتاريخ وفاته بين أولئك المؤرخين =

- كما نعتقد - لسنا في حاجة الى التعريف والترجمة له ، فهو في الحقيقة أشهر من أن يعرف . كيف لا ، وهو واحد من أعظم من أنبتتهم الساحة الأدبية على مستوى الدولة الإسلامية حتى الآن ؟ . ومع ذلك فإن من ضرورات المنهج أن نلم ببعض شؤون حياته . فقد ولد بالمحمدية أو الميلية ، ثم قدم الى القيروان ولم يتعد العشرين من عمره ، فالتقى بكبار أدبائها وعلمائها المشهورين من أمثال : القزاز القيرواني ، وابراهيم الحصري ، وابراهيم الرقيق وغيرهم ، ثم ما لبث أن أوصله نبوغه الأدبي الى بلاط الأمير المعز بن باديس ، حيث لقي منه حذبا وحظوة لا مثيل لها (١) . وقد جمعه بلاط المعز بمعاصره الشاعر المشهور ابن شرف ، حيث شجر بينهما تنافس كبير في تزعم النشاط الأدبي داخل قصر المعز وخارجه . وقد أدى ذلك الى أن ينشب بينهما تلاحى وخصومة أفادت الحياة الأدبية من حسن الحظ . وظل ابن رشيق في معية المعز حتى سقطت القيروان عام ٤٤٩ هـ بيد الهلاليين ، ثم ذهب معه الى عاصمته الجديدة المهدية حتى توفي المعز عام ٤٥٤ هـ . وبعد وفاة المعز التحق ببلاط ابنه تميم ، الا أنه ما لبث أن غادر المهدية في نفس العام الى صقلية ، حيث استقر به المقام هناك حتى توفي عام ٤٥٦ هـ (٢) على الأرجح .

وابن رشيق في الحق نموذج متكامل للأديب الشامل ، فهو شاعر بارع (٣) ، وهو ناثر متمكن بليغ وهو ناقد يتمتع بثقافة واسعة وهو عالم لغوي (٤) ،

= القدامي والمحدثين الذين أشرنا اليهم آنفا . وكذلك بين غيرهم ممن لم يتسن لنا الاطلاع على ترجماتهم لابن رشيق . ولكن الذي يبدو أن الأكثرية تميل الى أن ولادته كانت عام ٣٩٠ هـ ، ووفاته كانت عام ٤٥٦ هـ حسبما أشرنا في المتن .

(١) تتبع تلك الأحداث وسردها بشيء من البسط أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع السابق ، ص ٣١٢ - ٣١٤ - معتمدان في ذلك على أقوال كثير من المؤرخين القدامي ولذلك رأينا الاكتفاء بأقوالهما هنا .

(٢) أنظر أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٣) من مكانته الشعرية أنظر بعد ص ٧٠٥ - ٧٠٧ .

(٤) أنظر بعد ، ص ٧٤٩ .

كل ذلك في آن واحد . وهو مع ذلك كان ذا اهتمام بالتاريخ وأحداثه . ومن هنا فقد حظى باهتمام كبير من قبل مؤرخي الأدب وغيرهم الذين ترجموا له ترجمات اختلفت طولا وقصرا . كما أنه كان محط اهتمام كثير من الباحثين المحدثين الذين بهرتهم المكانة الأدبية العظيمة له ، فصنفوا عددا من الكتب تدور حول دوره الأدبي في الحياة الأدبية الإفريقية آنذاك حسبما أشرنا آنفا .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترك ابن رشيق مجموعة كبيرة من التأليف الأدبية القيمة . فمن تلك التأليف : " كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " . وقد ألفه في عام ٤٢٠ هـ ، وقدمه للأديب والكاتب المشهور أبي الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني رئيس ديوان الانشاء في دولة المعز (١) آنذاك . وهو كتاب أدبي من أجل كتب الأدب بجانب صفته الأساسية ، وهو النقد الأدبي .

والعمدة يقع في جزأين ، متعدد الأبواب والفصول في قضايا صناعة الشعر ودوره وأثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء ، وجمع الأخبار والروايات وتعريف الشعر ومذاهبه المختلفة (٢) . وعلى هذا فهو من هذه الوجهة كتاب أدبي خالص (٣) ، مما جعل ابن خلدون يقول (٤) عنه : (هو الكتاب

(١) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مقدمة المحقق ، ص ٣ - ٤ ، مقدمة المؤلف ، ص ١٥ - ١٧ - حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٩ - عبد الرحمن باغی : المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٩ - ١٣٠ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن رشيق : قراصة الذهب في نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق الشاذلي بويحيى ، ص ٥ - ٦ - حسن حسني عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه ص ١٣٠ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع السابق ، ص ٣١٧ - ٣١٩ - عبدة قليلة : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، مع الحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة .

(٤) فيما ينقله عنه حسن حسني عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٣٠ .

الذى انفرد بصناعة الشعر وأعطاهما حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . وما يدل على مكانة كتاب العمدة الأدبية الفائقة ، أنه قد أولع به الأدباء قدامى ومحدثين ، فعلقوا عليه الحواشى والشروح (١) .

ومن كتب ابن رشيق ذائعة الصيت أيضا كتاب : "قراضة الذهب" فى نقد أشعار العرب (٢) ، وهو كتاب يعنى بالدرجة الأساسية بسرقات الشعراء أو أنه يعنى بمعنى آخر بالشعر الابداعى ويعيد المعنى المبتكر الذى يستخدمه أو يستخدم ما يقاربه بعض الشعراء الى صاحبه الأسمى ، سواء أكان قد وفق فى الاستخدام أم فشل فيه . وذلك منذ العصر الجاهلى حتى عصره ، أى عصر ابن رشيق (٣) . والكتاب على الرغم من أنه فى عداد كتب النقد ، إلا أن أسلوبه ومواضيعه ومختاراته الأدبية الشعرية لا تقل روعة ومكانة من قيمته النقدية .

والكتاب الثالث الذى كان لا يقل شهرة عن سابقه هو كتاب : "نموذج الزمان فى شعراء القيروان" (٤) . وقد وضع فيه ابن رشيق تراجم لأكثر

-
- (١) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٠-١٣١ ، حيث الإشارة الى تلك الحواشى والشروح .
- (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٣١ (ويسميه "قراضة الذهب فى أشعار العرب) = أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣١٤ (ويطلقان عليه "قراضة الشعر") - عبده قليلة ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ - كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .
- (٣) أنظر ابن رشيق : قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق ص ٦-٧ كذلك مقدمة المؤلف ، ص ١٩-٢١ .
- (٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٣٢-١٣٣ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ . وهذا الكتاب مفقود وان كان الكثير من المؤرخين القدامى من أمثال الصفدى وابن فضل الله العمري ، وياقوت وغيرهم قد نقلوا عنه كثيرا . وقد عمد أحد الباحثين المحدثين ، وهو زين العابدين السنوسى الى جمع ما تناثر من كتاب الأنموذج فى كتب المؤرخين القدامى على شكل مختارات فلق عليها - وقد نشرت هذه المختارات بعد وفاة زين العابدين السنوسى فى شكل كتاب صغير يحتوى على بعض تراجم الأنموذج ، وقد رأى أبو القاسم محمد كرو الذى عهد اليه كتابة المقدمة لهذه المختارات أن يطلق عليها اسم شعراء القيروان من أنموذج الزمان . أنظر ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٥-٨ .

من مائة شاعر من شعراء القيروان وأفريقية المعاصرين له . وهو كتاب (١) أدبى رائق يدل على ما يتمتع به ابن رشيق من مكانة في دنيا الأدب سواء اكلان ذلك من حيث أسلوبه النثرى المتأنق ، أو فيما يتعلق باختياراته وموضوعاته ، أو ذوقه الأدبي إن شئنا . وكما رأى بعض نقاد الأدب العربى أن أبا تمام في كتابه : الحماسة ، كان أشعر منه في شعره ، فإن ابن رشيق يعتبر في أنموذجه أشعر منه في شعره (٢) ، على الرغم من علو كعبه في الشعر . ويكفى أن نذكر بأن ابن خلدون (٣) اعتبره (أشعر شعراء عصره) والكتاب في شقه الآخر من كتب النقد الادبى ، مثل العمدة وقراضة الذهب ، والكتاب بعد هذا يعتبر من الكتب التى تتدرج في التأريخ للأدب .

ولابن رشيق كتاب آخر عني بطبقات الشعراء ، هو كتاب : " الروضة الموشية في شعراء المهديّة (٤) " . وقد دَوّنه في آخريات حياته عندما استقر بالمهديّة قبل أن يغادرها الى صقلية .

وبالإضافة الى هذه الكتب القيمة ، ترك ابن رشيق مجموعة من الرسائل الأدبية الصغيرة ، التى جاءت فى أكثرها ردا على منتقديه من أمثال ابن شرف وغيره ، مثل : رسالة : " الأشكال ودفع المحال " و " نقض الرسالة الشعوزية والقصيدة الدمية " و " نسخ الملح وفسخ الملح " و " الرسالة المنقوضة " و " نجح الطلب " و " ساجور الكلب " و " قطع الانفاس " (٥) ... الخ .

- (١) عده حسن حسنى عبد الوهاب المأثرة الخالدة لابن رشيق .
- أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .
- (٢) عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٢١٤-٢١٥ .
- (٣) فيما ينقله عنه أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣١٤ .
- (٤) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق ، ص ١٣٣ (نقلا عن الصفدى) .
- (٥) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه والصفحة (نقلا عن الصفدى) .

وقبل أن نختم الحديث من النثر عامة والنثر التأليفي خاصة، لا يفوتنا الإشارة إلى أديب لا مع غنى الحركة الأدبية والأفريقية بمؤلفاته وابتكاراته .
 ذلك الأديب هو الشاعر الأديب الناقد أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني المعروف بابن شرف (١) (ت. ٤٦٠هـ) . وابن شرف أحد أشهر شعراء أفريقية وفحولها الكبار ، وهو من بلدة اجرابية (٢) بليبيا الآن ، ثم قدم إلى القيروان . وقد جذبه توهجه لتأليفها الأدبي ، فالتقى هناك بكبار أدبائها وشعرائها من أمثال إبراهيم الحصري ، والقزاز القيرواني ، وإبراهيم الرقيق وغيرهم . ولقد قادته موهبته الأدبية إلى بلاط الأمير المعز بن باديس حيث غدا يشار إليه بالبنان - هو وزميله ابن رشيق من بين كل الأدباء الذين كان يضمهم بلاط الأمير . وكما ذكرنا من قبل فقد اشتعلت جذوة المنافسة بينه وبين ابن رشيق ، مما أدى إلى تلاحيهما وتخاصمهما (٣) ، وكان الأمير المعز نفسه يعمل كثيرا على انكفاء الخصومة بينهما (٤) ، وفي كل ذلك كان الأدب والحركة الأدبية ترحان دائما . وعند ما سقطت القيروان عام ٤٤٩هـ بيد الهلاليين رافق ابن شرف الأمير المعز في عاصمته المهدية ، غير أنه ما لبث أن غادرها إلى صقلية مثل صديقه اللدود ابن رشيق ، حيث اتصل بصاحبها ولكنه عاد فغادر صقلية إلى الأندلس ، حيث اتصل بأمرائها وأدبائها ، وظل يتنقل بين مدنها حتى وافته المنية عام ٤٦٠هـ (٥) .

- (١) ترجم لابن شرف عدد كبير من المؤرخين قدامى ومحدثين ، فمن أولئك :
 ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٣٧-٤٣ - ابن دحية : المطرب من اشعار اهل المغرب ، تحقيق ابراهيم اليباري ، ص ٦٦-٧٢ - الصفدي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٧-١٠١ - الكلبى : فوات الوفيات ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ٢ ، ص ٤١٠-٤١٣ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط ، المرجع السابق ، ص ٣٢١-٣٢٧ - محمد عبد المنعم خفاجى : مقدمة الأدب في ليبيا ، ج ١ ، ص ١٠٨-١١٢ . وغير ذلك .
- (٢) محمد عبد المنعم خفاجى : نفس المرجع أعلاه ، ج ١ ، ص ١٠٨ .
- (٣) الصفدي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٧ - الكلبى : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤١٠ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .
- (٤) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع أعلاه والصفحة
- (٥) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣٢١-٣٢٢ - محمد عبد المنعم خفاجى : المرجع السابق ، ص ١٠٨-١١٢ .

ولقد أهدى ابن شرف كما ذكرنا آنفا الحركة الأدبية مجموعة من المصنفات الأدبية القيمة من حيث الشكل والمضمون . فمن بين تلك المصنفات نذكر ، كتابه : " أبقار الأفكار " (١) ، ويقع في جزئين ، ويقول ابن دحية صاحب كتاب المطرب (٢) من أشعار أهل المغرب أنه (اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر) ، ومن كتبه أيضا كتاب " ملح الملح " (٣) ، وهو الكتاب الذي عارضه فيه ابن رشيق برسالته : " نسخ الملح وفسخ الملح " حسبما أشرنا من قبل ،

على أن أشهر مصنفات ابن شرف القيمة من الناحيتين : الأدبية الخالصة والنقدية ، هو كتاب : " اعلام الكلام " أو " مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد " . وهذا الكتاب في الواقع حمل أكثر من اسم ، بل حتى اختلف الاسم الواحد له (٤) . ويرى أحد الباحثين (٥) أن اعلام الكلام هو نفسه كتاب مسائل الانتقاد ، وليس كتابا آخر مستقلا .

(١) الصفدي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٢ - الكتبي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٤١٠ - ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ٦٦ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣٢٣ .

(٢) ص ٦٦ .

(٣) ابن دحية : نفس المصدر أعلاه ، ص ٦٦ - ويسميه ملح الملح . ويبدو أنه تصحيف ، والا فالمعقول أن يكون اسمه : ملح الملح ، كما أشرنا في المتن والسبب في ذلك أن ابن رشيق له كتاب بعنوان " فتح الملح ونسخ الملح " الذي أشرنا إليه سابقا . وقد ألفه ليعارض به كتاب ابن شرف هذا .

(٤) فهو قد حمل اسم اعلام الكلام ، واسم : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد . حسبما أشرنا في المتن ويطلق عليه رسائل الانتقاد كذلك بدلا من مسائل الانتقاد .

أنظر أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ - محمد عبد المنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٥) هو عبد العزيز أمين الخانجي مصحح وضابط ألفاظ هذا الكتاب لابن شرف . أنظر ابن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (اعلام الكلام) ، صححه وضبط ألفاظه عبد العزيز أمين الخانجي ، المقدمة ، ص ١٠ .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب اعلام الكلام (مسائل الانتقاد بلطف
الفهم والانتقاد) كتاب أدبي طريف وممتع في بابه وموضوعه ، فعدا القيمة أو
الهدف الأساسى لتصنيفه ، وهو النقد الأدبى ، فهو كتاب أدبى رائق النثر
بما يحتوى عليه من المحسنات البديعية المختلفة . كما أنه - وهذا تطور أدبى
مهم - قد جاء على شكل مقامات اخترع ابن شرف شخصية راويها ، كما اخترع^(١)
من قبل بديع الزمان الهمذاني فى مقاماته شخصية ميسى بن هشام ، فجاء
الكتاب - رغم عدم جودة موضوعه - ، قطعة أدبية رائعة تدل على مقدار ما بلغت
الحركة الأدبية الافريقية من ازدهار وتطور فى عصر الزيريين .

على أن ابن شرف لم يكن وحده الذى اشتهر بتحرير المقامات
أو أنه السباق فى ذلك . فقد ذكر بأن محمد القرشى الطارقى ، الذى ترجمنا
له ونحن نتحدث عن الكتاب فى العصر الزيرى كان أحد الذين اشتهروا بتحرير
المقامات المبتدعة ، وإن لم نعثر على نصوص أو نماذج لتلك المقامات المبتدعة^(٢) .

(١) ابن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد ، ص ٣-١٥ - مقدمة
المؤلف نفسه .

(٢) أنظر عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٣١٢ (نقلا من ابن فضل الله
العمري) .

الفصل الرابع

الشعر

- الشعر في عصر الولاة
- الشعر في عصر الأغابة
- الشعر في عصر الفاطميين
- الشعر في عصر الزييين

- الشعر في عصر الولاة :

لعل من الضروري هنا أن نعود بالأذهان الى ما سبق وقلناه من قبل من أن عصر الولاة ، على الرغم من الظروف العديدة التي شرحناها ، والتي أدت الى تأخر الاهتمام بالأدب ، قد شهد حركة أدبية بسيطة ، تفاعلت أصدائها في أرجاء البلاد . وذكرنا أيضا أن تلك الحركة الأدبية المتواضعة كانت ذات شقين : شق جاء عفويا غير مباشر ، وشق آخر كان بمثابة حركة أدبية واقدة بمؤثراته التي تنبته ، وبمناصره التي صنعتها .

أما فيما يتصل بالشق الأول الذي أسهم في انبعاث حركة أدبية لا بأس بها آنذاك في هذا العصر ، فإنه قد جاء نتيجة طبيعية أوجان شئنا الدقة صدى للخلافات التي شجرت بين بعض الولاة العرب ، وبين الخارجيين عليهم من رؤساء الجند العرب المقيمين بأفريقية وقتذاك ، وإن لجأ كلا الطرفين لاستخدام سلاح الأدب ، مع ما استخدموه من سلاح وعدة في مقارعة بعضهم بعضا . ولم يكن ذلك السلاح الأدبي ، سوى سلاح الشعر الماضي الفتاك ، الذي لا جدال في أن العرب كانوا يجيدون استخدامه .

ومن المألوف والحالة كذلك أن تكون الأغراض الشعرية التي دارت على ألسنة أولئك الذين أوتوا نصيباً من الشاعرية ، لا تخرج من أغراض محددة تتفق مع الظروف التي فرضتها الأحداث آنذاك . ومن هنا فقد رأينا النصوص التي حفظت من تلك الفترة لا تتجاوز في أغراضها الشعرية : الفخر والوهد والهجاء ، والعتاب .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل الذين حركت الأحداث السياسية شاعريتهم في ذلك العصر ، أبو الخطار الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبي^(١)

(١) ترجم له كل من : ابن الأبار : الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٦٦-٦٦ - إبراهيم الدسوقي جاد الرب ، شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٦-١٧ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(ت ١٣٠ هـ) (١) ، أحد العرب اليمنية الذين كانوا برفقة الوالى الأموى : بشر بن حنظلة الكلبى (١٠٢-١٠٩ هـ) فقد حُفظت له مقطوعة شعرية فى الوعيد تدور فى فلك العصبية القبلية التى كانت فائضة وقتذاك بين المضربة واليمنية (١) ويقول ابراهيم الدسوقي جاد الرب أن تلك القطعة تركت أثراً مدوياً وقتها فى المشرق والمغرب معا .

ومن الشعراء الذين عرفهم عصر الولاة ، وعرف آثاراً شعرية لهم ، أبوداود سليمان بن حميد الغافقى (٤) (ت ١٣٥ هـ) ، وقد وصفه (٥) ابن الأبار بقوله : (فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره ، وأحسن الناس لسانا ، وأبلغهم السى المعرفة بأيام العرب وأخبارها ، ورواية لوقائعها وأشعارها) . وسليمان بن حميد الغافقى أحد رجالات العرب بافريقية الذين فاصروا عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى تولى أمر افريقية عام ١٢٧ هـ ، والذين دخلوا فى خدمته ، غير أنه ما لبث أن أمر بسجنه . ويبدو أن هذه الحادثة كانت سببا فى تحريك كوامن الشعر لدى هذا الفارس والشاعر المعروف ، فشرع ينظم الشعر . ولسوء الحظ فإنه لم يحفظ من ذلك العطاء الشعرى له سوى نص واحد يقع فى عدة أبيات ، وافتخر فيها الشاعر بنفسه ويقومه (٦) . ويمتاز هذا النص بجزالة الألفاظ ورصانة العبارة ، وقوة الجرس مثلما كان شعر الفخر يتميز به فى المشرق (٧) .

(١) الوحيد الذى أشار الى سنة وفاته هو الزركلى : نفس المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

(٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٧ .

(٤) ترجمته موجودة عند ابن الأبار : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٢-٨٣ .

حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٣٣-١٣٥ -

ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ص ٧٣-٧٤ .

(٥) الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٦) أنظر نص القطعة عند ابن الأبار : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٨٣ -

حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٣٥ -

ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٣ .

(٧) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٤ .

وفى رِبَّانَ ولاية الوالى العباسى الأُغلب بن سالم بن مقال التميمى (١٤٨-
١٥٠هـ) ، احتدم الصراع بينه وبين أحد الثائرين العرب عليه ، وهو الحسن
ابن حرب الكندى (١) . ومن الطبيعى أن يسهم النظم فى ذلك الصراع بين الرجلين
اللذين كانا يتمتعان بموهبة شعرية . ولقد احتفظ المؤرخون من ذلك النظم
بمقطوعتين شعريتين تنتميان الى الفخر تبودلتا بين الرجلين (٢) . وما هو جدير
 بالذكر أن المقطوعتين جاءتا على نسق واحد وزناً وقافيةً وحركة روى ، وعدد
أبيات ، وهذا أمر شائع معروف فى حلقات الصراع العربى كما يقول ابراهيم الدسوقي
جاء الرب (٣) .

وشهدت الفترة التى تلت وفاة الوالى يزيد بن حاتم المهلبى (ت ١٧٠هـ)
والتي تعاقب على حكم بلاد افريقية والمغرب خلالها عدد من الولاة المهالبة
تباراً شعرياً قوياً ، تجاوب مع أصدائه البلاد ، وذلك بين الولاة والأمرء المهالبة ،
وبين مناوئهم ، فجاشت النفوس بأشعار قوية فى الوعيد والعتاب والفخر .

فمن أوتر منه قوله للشعر ، الوالى الفضل بن روح بن حاتم المهلبى
(١٧٧-١٧٨هـ) ، الذى ثار عليه رجل من الجند العرب المقيمين فى افريقية
ويدعى عبد الله بن الجارود العبدى أو العبدوى (٤) . ولقد تبادل الرجلان الرسائل
التي احتوت على مقطوعات شعرية فى التهديد والوعيد (٥) ، جاءت كذلك على نسق
واحد من حيث الوزن والقافية وحركة الروى ، وعدد الأبيات (٦) .

(١) عن تلك الأحداث أنظر ابن عذارى : المصدر السابق - والجزء ، ص ٧٤ -

٧٥ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤٨-٣٥٠ .

(٢) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٨ -

٦٩ ، ٧٢ - ابراهيم الدسوقي : جاد الرب : المرجع السابق ، ص ١٨-١٩ .

(٣) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٩ .

(٤) عن تلك الأحداث أنظر الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ١٨٦-٢٠٠ -

ابن عذارى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٨٦-٨٨ - سعد

زغلول عبد الحميد : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ٣٧٦-٣٨٤ .

(٥) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٧-٧٨ -

ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٢٠-٢١ .

(٦) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢١ .

وعند ما استبد عبد الله بن الجارود بالأمر بعد مقتل والي السابق الفضل بن روح ، استخدم الشعر في كثير من مواقفه السياسية ، فعلاوة على الأبيات السابقة التي بعثها للفضل بن روح ، حفظت له أبيات في الفخر والوعيد كتلك التي افتخر فيها بنفسه بعد أن أفلح في الفتك بأحد رؤساء جنده (١) . وكالتى بعثها متوعداً الأمير المهلبى العلاء بن سعيد والى اقليم الذاب آنذاك (٢) .

ومن الذين أنطقتهم الأحداث السياسية تلك شعراً ، مالك بن المنذر الكلبي ، الذى كان والياً على مدينة مسيلة بالزاب من قبل الفضل بن روح بن حاتم ، والمقطوعة الشعرية التي حفظت عنه تنتمى الى غرض الفخر ، وكان قد ألفها أثناء لقاء له مع عبد الله بن الجارود (٣) .

ومن الأمراء المهالبة الذين أوتوا حظاً من الشاعرية ، والذين حفظت عنهم قطعة شعرية الأمير العلاء بن سعيد عامل الزاب من قبل والي الفضل بن روح بن حاتم . وهى أيضاً فى الوعيد ، وقد بعث بها الى عبد الله بن الجارود يتوعدده فيها بالثأر منه لقتله للوالى الفضل بن روح (٤) .

ومنهم سعيد بن يزيد بن حاتم ، وقد اشتهرت له قطعة شعرية فى النصح (٥) وعبد الله بن يزيد بن حاتم المهلبى أخوه ، وقد خلّدت له قطعة من

-
- (١) أنظر نص المقطوعة عند الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥ - ٨٦ - والرجل الذى فتك به ابن الجارود هو صديقه وقائد جيوشه محمد بن الفارس .
- (٢) أنظر نصها عند الرقيق القيروانى : نفس المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ - ابن الأبار : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٣) أورد نص المقطوعة كاملة ، ومقطوعة ابن الجارود فى الرد عليها : ابن الأبار نفسه ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٤) هذه القطعة جاءت رداً على القطعة التي افتخر فيها ابن الجارود بنفسه ، والتي أشرنا إليها فى الحاشية رقم (٢) أعلاه .
- (٥) ابن الأبار : نفسه ص ٧٩ - ٨٠ ، حيث أورد نص تلك القطعة ، والظروف التي دعت لها .

الشعر في العتاب (١) .

وقبل أن يأذن مصر الولاة على الانتهاء ، شهد عهد آخر الولاة العباسيين في افريقية ، وهو محمد بن مقاتل العكبي (١٨١-١٨٤ هـ) خروج أحد رجالات العرب المقيمين بافريقية عليه ، وهو تمام بن تميم الدارمي التميمي (٢) . وكما سلف من عادة ، فقد تبادل الرجلان الرسائل التي تشتمل على نظم شعري من باب الوعيد (٣) ، جاء على نسق واحد من حيث الوزن والقافية وحركة الروي ، وعدد الأبيات .

يبقى أن نشير ونحن نتأهب لترك الحديث عن هذه النقطة الى أن مصر الولاة عرف أول محاولة شعرية جاشت بها نفس أحد أبناء البلاد الافريقية ، وممن ولدوا فيها ودرجوا على ثراها وتنفسوا هوائها ، نعى به القاضي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (٤) (ت ١٦٠ هـ) الذي ذكر بأنه (أول مولود ولد في الاسلام بعد فتح افريقية) (٥) . فلقد حفظ من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم مقطوعة شعرية تندرج ضمن غرض الحنين والتشوق (٦) .

-
- (١) ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٨١-٨٢ - ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ ، حيث الاشارة الى ظروف تلك المقطوعة ، وكذلك نصها الكامل .
- (٢) عن تلك الاحداث أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ٢٠٥-٢١١ ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ٨٩-٩٢ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق والجزء ص ٣٩٠-٣٩٥ .
- (٣) ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٨٨-٩٠ - ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥ ، حيث نص المقطوعتين .
- (٤) أنظر ترجمته قبل ج ١ ص ٣٢٢
- (٥) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٦ .
- (٦) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٩ .

والمقطوعة الشعرية تلك جاءت ضمن رسالة كان قد بعثها القاضي عبد الرحمن
ابن زياد بن أنعم الى أحد أبنائه في القيروان ابان رحلته الى العراق .
ومن أبيات تلك المقطوعة :

ذكرت القيروان فهاج شوقي	وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعبيس نصا	على الابل المضرة العتاق
فأبلغ أنعما وبنى أبيه	ومن يرجى له ولنا التلاق
بأن الله قد خلى سبيلـي	وجد بنا السير الى فراق (١)

أما وقد تهيأ لنا ابراز ملامح الحركة الشعرية التي جاءت عفوية في عهد
بعض الولاة الأمويين والعباسيين ، وكذلك التنويه لبعض أولئك الذين استفزتهم
الظروف والأحداث ، فاستنطقتهم شعراً ، فان من الملائم هنا أن نتحدث عن الحركة
الشعرية الوافدة التي ذكرنا من قبل أنها امت البلاد في عهد يزيد بن حاتم
المهلبى .

لعلنا لا نكون مبالغين اذا قلنا بأن ولاية يزيد بن حاتم المهلبى لأفريقية
التي امتدت من عام ١٥٥ حتى عام ١٧٠ هـ أى حوالى ستة عشر عاماً ، تعتبر نقطة
تحول مهمة تركت آثارها الحسنة فى البلاد فى شتى مناحى الحياة السياسية
والاقتصادية والعمرانية والعلمية . واذا كان ليس من مهمتنا التحدث عن أعماله
الجليلة فى تلك المناحى (٢) ، فان ما هو خليق بالاشارة اليه هنا التنويه بجهوده

-
- (١) أبان المالكى : نفس المصدر السابق ، ص ٩٩ - وابن أبى دینار: المصدر
السابق ، ص ١٨-١٩ مايعنيه هذا المعلم الجغرافى فقالا ، انه فحص من أحد
فحوص إفريقية أو القيروان وسمى بذلك لأنه كان يتمرق السحاب عنده .
- (٢) عن جلائل الأعمال تلك : أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ،
ج ١ ، ص ٣٥٨-٣٦٤ ، ٣٦٤-٣٧٠ مع الحواشى .

العلمية ، والأدبية منها على وجه الخصوص . ذلك أن يزيداً بن حاتم منذ أن استقرت له الأمور في البلاد عمل على إضفاء جو ثقافي وأدبي في البلاد يُحيى به تقاليد أسرته العريقة في تشجيع الأدب والأدباء . وفي الحق فإن ذلك لم يكن مستغرباً منه ، وهو الذي وصف بأنه (كان جواداً سرياً مقصوداً ، مدحاً)^(١) . ولذلك فقد رأيناه يستقدم بعض الأدباء والشعراء المشاركة ممن زاع صيتهم آنذاك ، إلى جانب أن بعضاً من الشعراء والأدباء ، وقد ترامت إلى أسماعهم عطايا الأمير يزيد وهداياهم ، قصدوا بلاطه ، وأسهم هؤلاء وأولئك في إنعاش حركة أدبية نشطة في البلاد تعيدها إلى وريثها بكرمه وجوده ، ليس هذا فحسب بل ، وبمشاركته أيضاً . (٢)

وها نحن نعرض أبرز من أمّ بلاطه من الشعراء المشاركة . أما اللغويون والنحاة الذين قد موأ عليه ، فسوف نعرض لهم بعد أن شاء الله . ولعل أبرز من وفد على يزيد بن حاتم طمعاً في نواله الشاعر المشهور أبو أسامة ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي أحد شعراء الدولة العباسية المجيدين ، ممن طارت شهرتهم في الآفاق . وقد امتدحه بقصيدة خالدة ، نالت لدى مؤرخي الأدب شهرة عريضة^(٣) .

- (١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢١-٣٢٢ .
 (٢) عن بعض محاولاته الشعرية ، وكذلك عن حسه وذوقه الأدبي والنقدي : أنظر ابن خلكان : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ٣٢٥ - ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٦ .
 (٣) أنظر ابن خلكان : المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣٢٢-٣٢٣ - ابن الأبار : المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٧٤-٧٥ .
 حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٤١-١٤٣ ، حيث نص القصيدة .

ومع أننا لا نعرف على وجه اليقين ، ولا على وجه التقريب ، متى غادر
ربيعه بن ثابت الرقى افريقية ، وكما أمضى فيها ؟ إلا أننا لا نستبعد أن يكون
قد أضفى على البلاد حركة شعرية طيبة ، لا سيما وهو الشاعر الطائر الصيت ،
كما أننا لا نستبعد أن يكون قد ترك أثرا وتأثيرا لدى الشبيبة الافريقية آنذاك .

ومن الشعراء الذين وفدوا على يزيد بن حاتم ، محمد بن عبد الله بن
مسلم المعروف بابن المولى ، وقد مدحه بعدة مقطوعات شعرية ، سارت بها
الركبان (١) وهو ممن قصده كذلك أيام ولايته على مصر (٢) .

والشاعر المشهور : المسهر التميمي ، الذي قصد افريقية طمعا فـ
عطايا يزيد بن حاتم ، وقد حفظ منه مدحه بقصيدة سائرة مشهورة (٣) ، دفعت
بيزيد الى اغداق الجوائز عليه . ويظن حسن حسنى عبد الوهاب (٤) أن المسهر
التميمي مكث لفترة طويلة من الزمن في افريقية . وإذا ما ثبت ذلك ، فإنه يعطينا
دون ريب وانطبعا حسنا عن الحركة الشعرية في افريقية آنذاك .

وممن وفد على يزيد بن حاتم ، بل ممن قدم معه ، المعمر بن سنان
التميمي ، وهو وإن لم يكن من الشعراء إلا أنه كان من ذوى الأدب ، ومن رواته .

(١) ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ - حسن حسنى
عبد الوهاب : المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٤٥ - ١٤٦ - حيث
الاشارة الى تلك المقطوعات .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلكان : نفسه ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ - حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه
ص ١٤٤ ، حيث الاشارة الى بعض أبيات تلك القصيدة .

(٤) الورقات : القسم الاول ، ص ١٤٤ .

وقد أشار الى اهتمامه بالأدب : ابن الأبار (١) ، والى قصة قدمه مع يزيد بن حاتم ، فقال : " وكان زميله فى طريقه اذا ركب فماريته لأتسلى به واستماعه من حديثه ، وكان المعمر من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها وعنه أخذ أهل افريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب " .

والجملة الأخيرة من كلام ابن الأبار ، وهى قوله : وعنه أخذ أهل افريقية ... الخ تغنينا عن التعليق ، فلسنا بعدها فى حاجة الى ذكر ما أفادته الحركة الأدبية من وفادة هذا الراوى المؤرخ للأدب . ويقول حسن حسنى عبد الوهاب (٢) أن المعمر بن سنان ظل فى افريقية حتى ولاية الفضل بن روح بن حاتم المهلبى (١٧٧-١٧٨ هـ) حيث توفى هناك .

ومما ينسب من يمن الطالع ليزيد بن حاتم ، أن المعمر بن سنان لم يكن وحده الذى أثرى الحركة الأدبية بما اشتهر من صحبته ليزيد بن حاتم المهلبى وللولاة المهالبة من أهل بيته . فقد كان للمعمر دور أدبى عن طريق ابنه عامر ، الذى كان شاعرا مشهورا ، وقد امتدح ابراهيم بن الأغلب قبل وبعد أن يتولى امرة افريقية (٣) . ولقد أهدى ذلك البيت أيضا للحركة الأدبية شاعرا وأديبا ثالثا ، هو : حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمر الذى عاش فى العهد الأغلبى ، ومات فى منتصف القرن الثالث الهجرى (٤)

- (١) الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ١٠٧ .
- (٢) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٣٧ .
- (٣) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٣٨ .
- (٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع أعلاه ، والقسم ، ص ١٣٨-١٣٩ .

- الشعر في عصر الأغلبة :

تستلقت نظر الباحث ، وهو يتتبع حركة الشعر واتجاهاته ورجالاته ففى افريقية خلال عصر الأغلبة العديد من المؤشرات ذات الدلالات الايجابية التى كان لها أثرها الطيب فى مسيرة الدراسات الأدبية هناك . ولعل أول تلك المؤشرات هى أن افريقية عرفت وقتذاك ولأول مرة شعراء أوتو نصيبا من الشاعرية أنبتهم التربة الافريقية . أى أننا بدأنا نجد من أبناء البلاد الأصليين سواء كانوا عربا أو بربرا ، من فرض الشعر ونظمه ، مما يصدق معه اطلاق لقب شاعر عليهم . وهذا بالطبع أمر له دلالة البالغة.

ومما تبدى لنا من مؤشر حسن ، ونحن نتمعن النظر فى الحركة الشعرية خلال هذا العصر ، وهو أن بعض أولئك الشعراء الذين أظهرهم العصر الأغلب كانوا من فقهاء وزهاد المالكية على وجه التعيين .

والمؤشر الثالث الذى لفت نظرنا ، هو أن معظم الأمراء الأغلبة الذين حكموا افريقية ابتداءً من الأمير ابراهيم بن الأغلب أولهم ، وانتهاءً بزيادة الله الثالث آخرهم ، قرضوا الشعر ونظموه فى أكثر المعانى والاغراض . ولم يكن الأمر قاصراً على الأمراء الذين تولوا سدة الحكم فحسب ، بل شارك فى قول الشعر ونظمه عدد آخر من الأمراء المهالبة ، ممن كانوا يتولون حكم الولايات وقيادة الجيوش .

وشمة مؤشر رابع تابعناه ، ونحن نرقب ذلك الانتاج الذى خلفه عصر الأغلبة ، وهو أن شعراء طرقت معظم أغراض الشعر المعروفة ، وان كانت الغلبة والظهور قد رافقت بعض الأغراض الشعرية دون الأخرى ، مثل الرثاء ، والهجاء ، والمديح ، وشعر الزهد . فقد كانت هذه الاغراض أحفل فى الظهور والاهتمام دون بقية الاغراض . هذا فى الوقت الذى لم تلق بعض الاغراض مثل الغزل أى قدر ملحوظ من الاهتمام والظهور تقريباً .

والمؤشر الخامس والأخير في سلسلة ملاحظتنا على الحركة الشعرية في العصر الأغلي أن المعاني والأخيلة ، أو أدوات البناء الشعري عموماً وأشكالها ، جهدت على أن تتمشى مع طبيعة روح العصر الأدبي التي كانت تسوده الحركة الشعرية في المشرق بصفة أساسية ، والاندلس بدرجة أقل ، وإن كانت قد قصرت في أن تبلغهما بالطبع .

وأياً ما كان الأمر ، فإذا قضينا نترجم لأبرز الشعراء وأشعارهم خلال هذا العصر ، فإن ضرورة المنطق تستدعي تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية والاجتماعية كما أشار إلى ذلك بحق رابح بونار (١) . وهذه الأقسام الثلاثة هي : الشعراء الأمراء ، والشعراء الفقهاء والزهاد ، والشعراء الأدباء الخالص.

(١) المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص ١٠٧ .

- الشعراء الأمراء :

لا براح في أن الأمير ابراهيم بن الأغلب (١٨٤-١٩٦ هـ) مؤسس الدولة الأغلبية ورأسها ، يُعد في طليعة الشعراء الأمراء الأغلبية . وهو واحد من أشهر شعراء العصر الأغلبى . فقد حُفظ عنه الكثير من القطع الشعرية التي تدل على ملوكعبه في الشعر . وكيف لا يحدث هذا ، وهو الذى وصف بأنه (كان عالماً أدبياً شاعراً خطيباً) ؟ (١) .

وفي الحق فان شاعرية ابراهيم بن الأغلب قد تجلت قبل أن يتولى الإمارة فقد روى أنه كانت له مقطوعات شعرية في الوعيد والفخر والهجاء في مناوئيه ومناوئى ولاية افريقية قبله (٢) .

وعند ما تولى الإمارة دعت ظروف ودواعى الى أن يستخدم ، وهو الشاعر الأديب سلاح الشعر الماضى في مواجهة مناوئيه الخارجين عليه . ومن الطبيعى أن تكون الأغراض التي طرقها في أشعار امرته لا تختلف عن الأغراض التي طرقها من قبل أن يتولى الإمارة ، وذلك لتشابه الدواعى والظروف (٣) .

-
- (١) ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٣ .
(٢) من تلك الأشعار ، أنظر ابن الأبار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٥-٩٦ . ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٧٢٥-٧٥٢ .
(٣) راجع ابن الأبار : نفسه ، ص ٩٨ ، حيث الإشارة الى شعر الوعيد ، ص ١٠٤ حيث الإشارة الى شعر الفخر . - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩-٣٠ ، حيث الإشارة الى أشعار الوعيد ، ص ٧٦-٧٧ حيث الإشارة الى نصوص الفخر .

ومن أبنائه لصلبه ممن اشتهر بقول الشعر وفرضه الامير زيادة الله الأول ،
ابن ابراهيم بن الأغلب : (٢٠٢-٢٢٣ هـ) ، فقد كان شاعرا متضلعا في الشعر ،
رغم قلة شعره . ويقول ابن الأبار عنه (١) : (كان أبوه ابراهيم بن الاغلب إذا
قدم عليه أحد الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء ، أصحابهم ابنه زيادة الله هذا ،
وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته ، وأفصحهم لسانا ، وأكثرهم بيانا . وكان
يعرب كلامه ولا يلحن ، دون تشايق ولا تقصير ، ويصوغ الشعر الجيد) . ووصف
ابن الأبار (٢) مكانته في الادب فقال عنه بأنه كان أمتن إخوته أدباً بعد أبيه .

وقد أفلت من الشعر الذي كان يصنعه ويكتمه ، كما يقول ابن الأبار (٣)
بضعة مقطوعات جيدة في شعر الوعيد ، والشكوى ، والنسيب ، كانت كلها تدل
على أصالة شعرية ، وقدرة فائقة على التعبير . (٤)

أما الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣-٢٢٦ هـ) ، وهو ثالث
إخوته ممن تولى الامارة ، فقد (كان له حظ من الادب يصوغ به مقطعات من الشعر)
كما يقول ابن الأبار (٥) . لكننا لم نظفر من تلك المقطعات إلا بثلاثة أبيات فـ
النسيب (٦) ، وهي على تفرد ها وقصرها تتسم بالعبارة البارة كما يرى ابراهيم
الدسوقي جاد الرب . (٧)

-
- (١) الحلة السيرا : ج ١ ، ص ١٦٣ .
(٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ١٦٨ .
(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٥ .
(٤) من تلك المقطوعات : أنظر ابن الأبار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٦٥
- ١٦٦-١٦٧ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٣٣ ،
١١٢-١١٣ ، ٢٣٣-٢٣٤ .
(٥) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٦٨ .
(٦) ابن الأبار : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٦٩ - ابراهيم الدسوقي
نفسه ص ٢٣٤ .
(٧) نفسه ص ٢٣٤ .

وكان الأمير محمد ابنه (٢٢٦-٢٤٢هـ) الذي تولى الامارة بعده، لا يقل حظاً من الأدب عن أبيه، وقد حفظت له قصيدة في الفخر، تعتبر من أطول نصوص الفخر في العصر الأغلبى (١)، رغم أنها لم تكن ذات متانة شعرية، لا فتقارها الى قوة الجرس المطلوبة عادة في شعر الفخر (٢).

هؤلاء الأمراء الأغلبية الحكام كانوا في نظر مؤرخي الأدب أشهر الأمراء الحكام وأقربهم الى صفة الشاعرية. أما بقية الأمراء الآخرين. فقد كانوا أقل حظاً في الشاعرية منهم، وإن كان بعضهم قد خلف شيئاً من الشعر في أغراض الفخر والحنين وغيره. مثل الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٣) (٢٦١-٢٨٩هـ)، وابنه الأمير عبد الله بن ابراهيم بن أحمد (٤) (٢٨٩-٢٩٠هـ)، وحفيده زيادة الله (٥) (الثالث) بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد (٢٩٠-٢٩٦هـ).

وإذا تركنا الأمراء الأغلبية الحكام جانباً، فهناك نفر آخر من أفراد البيت الأغلبى أثرى الحركة الشعرية بآثاره وأدبه. فمن أبرز أولئك الأمراء

-
- (١) عن تلك القصيدة: أنظر ابن البار، نفس المصدر السابق، ص ١٧٠-١٧١ - ابراهيم الدسوقي: نفس المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.
- (٢) ابراهيم الدسوقي: نفسه، ص ٧٩-٨٠.
- (٣) حيث ذكر بيتان في الفخر له، انظر ابن البار: نفسه، ص ١٧٢ - ابراهيم الدسوقي: نفسه، ص ٨٠.
- (٤) وقد روى له ثلاثة أبيات في شعر الحنين قالها وهو في صقلية بعيداً عن القيروان.
- انظر عثمان الكعاك: المجتمع التونسي على عهد الأغلبية، ص ٤٠ - ابراهيم الدسوقي: نفسه، ص ٢٥٤.
- (٥) وقد رويت له أربعة أبيات في الفخر. انظر ابن البار: نفسه، ص ١٧٨ - ابراهيم الدسوقي: نفسه، ص ٨٥-٨٦.

أحمد بن سفيان بن سواده بن سفيان بن سالم بن عقال ، الذي كان واليا على اقليم الزاب ، ثم طرابلس في عهد الامير أبي العباس محمد الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب المتوفى عام ٢٤٢ هـ كما عرفنا سابقا . فقد كان أحمد هذا شاعرا معروفا ، وما ينسب اليه مقطوعتان في الفخر ، تدل على شاعرية قوية متمكنة (١) .

ومنهم محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب ، الذي كان واليا على طرابلس في عهد الامير ابراهيم بن أحمد بن محمد المتوفى عام ٢٨٩ هـ ، وقد وصفه ابن البار (٢) بقوله : كان عالما أدبيا شاعرا خطيبا ، مع عشرة لآخواته ولين جانب لآخدائه . لا ينادم إلّا أهل الادب . وقد قتل عام ٢٨٤ هـ على يد ابن عمه الامير ابراهيم بن أحمد (٣) . وما حفظ عنه أبيات حسنة في شعر الحنين (٤) .

ومن الأمراء الأغلبية كذلك في عهد الامير ابراهيم بن أحمد ، مجير بن ابراهيم بن سفيان ، الذي كان واليا على صقلية من قبل الامير ابراهيم الثاني ، ثم ما لبث بعد ذلك أن وقع أسيرا في يد الروم ، حيث بعث الى القسطنطينية . ولقد بعث من أسره في القسطنطينية بقصيدة طويلة " اشتهرت آنذاك اشتهاً كبيراً

(١) من هذا الامير ، ومن تلك المقطوعتين ، أنظر ابن البار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٢-١٨٣ ، ١٨٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٨١-٨٥ .

(٢) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٧٩-١٨٠ .

(٣) من ظروف مقتله : أنظر سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ١٤٠-١٤١ ، ١٤٣ .

(٤) ابن البار : نفسه ص ١٨١ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٥٣-٢٥٤ ، حيث الاشارة الى النص .

وهى فى غرض الشوق والحنين (١) . ويرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب أن هذه القصيدة تعتبر من شعر الروميات ، وقد سبق بها مجير بن سفيان أبا فراس الحمدانى فى روميته بأكثر من قرن من الزمان .

على أن أكثر الأمراء الأغلبية انتاجا شعريا سوا الحكام منهم أو الآخرين هو أبو عقال غليون بن الحسن بن غليون (٣) (ت. ٢٩٠ هـ) ، وقد يعرف بأبى عقال المغربى (٤) . وأبو عقال غليون كان فى بداية حياته من المتهتكين ، غير أنه عاد فتاب توبة نصوحة ، حيث تزهد وتكشف ، وانقطع عن الدنيا . وقد غادر أخيرا بلده : افريقية واتجه الى مكة المكرمة ، حيث ظل هناك حتى توفى عام ٢٩٠ هـ . ومن هنا جاء كل شعره فى الزهد تقريبا (٥) .

ولم تكن المرأة الأغلبية بمنأى من قول الشعر وقرضه : فقد ذكر بأن الأميرة مهربة الأغلبية أخت أبى عقال غليون بن الحسن رثت أخاها أربعة أبيات تعتبر من الشعر الجيد (٦) .

-
- (١) عن هذا الأمير وعن تلك القصيدة ، انظر ابن البار : نفسه ، ص ١٨٥ - ١٨٦ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٥٣-٢٥٤ . ويسميه (مجير الدين) نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .
- (٢) له ترجمة واسعة عند المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٧-٤٤٢ . ويسميه أبو عقال بن علون * فى حين أن المشهور هو غليون بن الحسن بن غليون ، كما أشار الى ذلك محقق الجزء الاول من الرياض ، حاشية رقم ٢ ص ٤٢٧ .
- (٣) كما ينقل ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ١٥٣ عن الرسالة القشيرية .
- (٤) عن أشعار الزهد تلك أنظر المالكي : نفس المصدر السابق ، ص ٤٤١-٤٤٢ نقول تقريبا لان له قصائد فى مدح زميله الزاهد المتعبد أبى هارون الاندلسي . انظر المالكي : نفسه ص ٤٤١-٤٤٢ .
- (٥) المالكي : نفسه ص ٤٣٦ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣١٥ - مصر رضا كحالة : أعلام النساء ، ج ٥ ، ص ١٢٠-١٢١ .

٢ - الشعراء الفقهاء :

لم يكن قول الشعر وقرضه وفقاً على الأمراء الأغلبية ، ولا على بقية الأدباء الآخرين وحدهم ، فقد شارك بعض فقهاء البلاد في إرواء الحركة الشعرية بفيض لا يأمن به من شعرهم المتعدد المعاني والاغراض ، فمن أوائل الفقهاء الذين أوتوا شيئاً من الشاعرية: الفقيه المالكي عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى عام : ٢٢٧ هـ وهو أحد الفقهاء الذين كنا قد عرضنا لهم من قبل أثناء حديثنا من الفقه في العصر الاغلبى . وما حفظ عنه من شعر أبيات أربعة في شعر الشكوى (١) . وأيضاً الفقيه عبد الملك بن نصر . وقد اشتهر له من الشعر مقطوعة تقع في أربعة أبيات رثى بها الفقيه المشهور سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠ هـ (٢) ومن العباد الذين قالوا الشعر نذكر حاتم الجبيلي الذي نظم قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتاً في رثاء عبد الرحيم بن عديد المتعبد (٣) .

ومن الفقهاء الذين روى عنهم شيء من الشعر ، نذكر الفقيه محمد بن داود . ومعلوماتنا في الحق عن محمد بن داود لا تتعدى مجرد معرفته اسمه فحسب ، غير أن ما عرفنا به هو مقطوعة شعرية جيدة في الرثاء ، قالها في رثاء صديقه الفقيه محمد بن سحنون (٤) المتوفى عام ٢٥٦ هـ كما أشرنا لذلك من قبل .

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب :
المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٣ .
- (٢) المالكي : نفسه ، ص ٩٠ . - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٩٥ .
- (٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٣٣ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٩٥ .
- (٤) مياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب :
المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

بيد أن أبعد أولئك الفقهاء ذكراً في الشعر وأشهرهم فيه في هذا العصر الاغلبى الذى تؤرخ له كان بلا مراة الفقيه المشهور أحمد بن أبى سليمان داود المعروف بالصواف (١) (ت ٢٩١ هـ) ، وأحمد بن أبى سليمان أحمد ممن تتلمذ على الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد وأفاد منه ، ومن هنا كان يعبر فى شعره دائماً عن تقديره العميق له ولابنه محمد بن سحنون كذلك . ويبدو أن مكانته الشعرية كانت تزامم مكانته فى الفقه . ومما جاء فى الثناء على مكانته الادبية ، ما ذكره عياض (٢) من أنه كان أديباً وراوية للشعر ، مكثر القول فيه . ونقل عياض (٣) أيضاً من أحد مصادره التى اعتمد عليها ، أنه كان له بالشعر عناية فى أول أمره ، فلما صار الى درجة العلم وصحبة العلماء ترك قوله .

وكيفما كان الأمر ، فإن بين أيدينا انتاجاً شعرياً غزيراً له فى بعض أغراض الشعر كالرثاء والزهد وغيرهما . فأما ما يتصل بالرثاء ، فقد روى أنه نظم قصيدة تقع فى ثلاثمائة بيت - وهو أمر له دلالة البالغة هنا - فى رثاء الفقيه محمد بن سحنون . على أنه لم يبق من تلك القصيدة الطويلة سوى أربعة وخمسين بيتاً ذكرها المالكي (٤) وحده ، وفى رياضة . ويقول مطلع تلك القصيدة :

ألا فابك للإسلام إن كنت باكياً	لحبل من الإسلام أصبح واهياً
تعلم حصن الدين وانهى ركنه	عشية أمسى فى المغابر ثاوياً
راماماً حباه الله فضلاً وحكمة	وفقهه فى الدين كهلاً وناشياً

-
- (١) ترجم له ترجمة واسعة كل من المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ - ٤١٣ - عياض : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٢-٢٤٥ .
- (٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٣) المدارك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٤) رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٣٥٧-٣٦٠ .

وعلى كل فان ما بقى منها طويل ويبلغ أربعة وخمسين بيتا ، كلها ذات سبك قوى متين ، فيها حرارة العاطفة ولوعة الأسى . وعند ما توفي الفقيه عبد الله بن طالب (ت ٢٧٥ هـ) رثاه أحمد بن أبي سليمان الصواف كذلك بقصيدة طويلة ، لم يُشر إلا الى ستة أبيات منها فقط (١) .

والغرض الشعرى الآخر الذى قال فيه أحمد بن أبي سليمان وأجاد ، وهو غرض الزهد وما يسمى بالشعر الروحى . ولقد ترك العديد من القصائد الطوال فيه ، التى توضح نظرتة للحياة ومواقفه الداعية الى إثارة العبادة والعلم ، والسرغبة فى العزلة ، والانقطاع عن الدنيا والتبرم بها ، والندم على ما فات الى غير ذلك (٢) . ولقد ترك قصيدة تعبر عن موقفه من الشعر الذى زهد فيه الشعراء وهى جيدة ذات سبك حسن (٣) على الرغم من قصرها .

وثمة فقيه آخر أوتى شيئا طيبا من الشاعرية ، وهو الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن سليم بن أراب بن سهيل الفارسى الملقب بزُرر (ت ٢٩١ هـ) ، فقد ذكر بأنه كان (حافظا للغريب بصيرا بالعربية ، راوية للشعار يحسن الصنعة لها جيد القول فيها) (٥) . ويقول المالكي (٦) عن إنتاجه والطابع الذى يغلب

-
- (١) رياض النفوس ، ج ١ ، حاشية رقم ٣ ، ص ٣٨٧ .
(٢) المالكي : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٤١٠-٤١٣ - ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤٢-١٤٧ .
(٣) ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
(٤) ترجم له الخشتي : المصدر السابق ، ص ١٩٠ - المالكي : نفسه ، ص ٤١٤ - ٤١٦ . وقد نبه محقق الجزء الاول من الرياض حسين مؤنس الى اسمه كاملا بناء على ما أستفاه من مصادر مختلفة .
انظر المالكي : نفسه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤١٤ ، ويقول فى نفس الحاشية ان زرر لقب له وليس اسمه .
(٥) المالكي : نفسه ، ص ٤١٥ .
(٦) نفسه ، ص ٤١٥ .

عليه : (وشعره كثير جداً ، واكثره في توحيد الله عز وجل ، والرد على الزنادقه والملحد بين والكذابين) . على أنه لم يزودنا من شعره الكثير جداً ، إلا بمقطوعة واحدة تقس في خمسة أبيات (١) ، وقد أتت صورة صادقه تعكس الطابع الذي تميز به شعره الذي أشار اليه المالكي .

وأخيراً ، فإن الفقيه عيسى بن مسكين (ت ٢٩٦ هـ) ، الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا من الدراسات الشرعية في العصر الاغلبى ، كان من الفقهاء الذين عُرف عنهم قولهم للشعر ، ولقد وصفه مياض (٢) بالفصاحة واجادة الشعر ومما حفظ عنه من ذلك الشعر الذي كان جيداً ، ثلاث قطع في الشكوى والتوجع بعد أن هدّه الكبر وذهب عنه الشباب (٣) . ولعل من أمتع تلك القطع ، القطعة التي ذكر منها هذان البيتان (٤) :

لما كبرت أتتني كل داهية وكل ما كان مني زائدا نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وان مشيت تصحبني ذات اليمين مصا

-
- (١) المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٥ .
(٢) المدارك ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .
(٣) أنظر مياض : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٢٢٦ - ابراهيم الدسوقي :
المصدر السابق ، ص ١١٤-١١٥ .
(٤) مياض : نفسه ، ص ٢٢٦ .

٣ - الشعراء الأدباء :

ونقص بذلك أولئك الذين طغت عليهم صفة الأدب عامة ، وصناعة الشعر خاصة ، وسواءً كانوا من الثائرين على الدولة الاغلبية ، أو غيرهم . فمن أوائل أولئك نذكر خريش بن عبد الرحمن بن خريش الكندي (توفي مقتولا عام ١٨٦ هـ) . وهو أحد الثائرين على الامير ابراهيم بن الاغلب ابان امارته . وقد نسب اليه قطعة في شعر الوعيد بعث بها الى الامير ابراهيم ، وهي على قصر أبياتها تدل على شاعرية حسنة لدى خريش الكندي (١) .

ومن أولئك الثائرين على ابراهيم بن الاغلب ممن كان له شئ من الشعر ، عمران بن مجالد بن يزيد الربيعي (توفي مقتولا كذلك عام ١٩٦ هـ) . وقــد أورد ابن الأبار (٢) له مقطوعة واحدة في شعر الفخر .

أما الشاعر الذي يمكن اعتباره بحق شاعراً أصيلاً ، فهو عامر بن المعمر ابن سنان التيمي ، و عامر بن سنان سبق لنا أن تعرضنا له أثناء حديثنا عن والده المعمر بن سنان ، الذي كان أحد شعراء عصر الولاة . ولقد وقف عامر بن سنان هذا يعاضد ابراهيم بن الاغلب بشعره وسيفه حتى قيل أن يتولى الامارة . فقد روى أنه نظم قصيدة مدح في ابراهيم أيام تصديه لثورة تمام بن تميم التيمي على والي افريقية محمد بن مقاتل (٣) العكي (١٨١-١٨٤ هـ) . وعند ما انتصر ابراهيم على الشاعر خريش الكندي الذي ذكرناه آنفاً امتدحه عامر كذلك بقصيدة حسنة (٤) . ولكن عامراً قد استهوتته فكرة الثورة والتمرد . فخرج على ابراهيم بن الاغلب مع الشاعر عمران بن مجالد الربيعي الذي ترجمنا له قبل قليل . غير أن ابراهيم ما لبث وأن عفا عنه بعد ذلك (٥) .

-
- (١) ابن الأبار: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٢-١٠٣ .
 - (٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ١٠٥-١٠٦ .
 - (٣) ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦-١٠٧ .
 - (٤) ابن الأبار : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٠٧ .
 - (٥) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٠٦ .

ومن شعراء عهد الامير ابراهيم بن الأغلب ، القائل
 الفارسي والشاعر المجيد حمزة بن السبّال المعروف بالحرون (١) . ولقد رويت
 له عدة قطع شعرية في مدح ابراهيم بن الاغلب ، كما رويت له قطعة واختلط فيها
 الفخر بالوheid (٢) . وكذلك الشاعر المعروف بأبي المخرجي - هذا كل ما نعرفه
 عنه - وذكر القاضي عياض في مداركه (٣) أنه كان أحد جلساء وشعراء الأمير
 ابراهيم بن الاغلب . ويظهر أن منه الشعرى المشهور هو الهجاء . فقد ذكر
 عياض (٤) أيضا أنه هجا الفقيه عبد الله بن غانم الرميني (ت. ٩٠ هـ) بشعراشتهر
 آنذاك .

ومن شعراء العصر الاغلبى الشاعر يعقوب بن يحيى الذى عاش فى
 عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١-٢٢٣ هـ) ، ويبدو أنه كان شاعر
 الأمير . وقد حفظت عنه مقطوعة شعرية محرّضة تقع فى أربعة أبيات . وقد
 قالها محرّضا الامير للتخلص من بعض الثائرين عليه (٥) آنذاك .

ولقد عرف عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب شاعرا آخر
 مشهورا هو الحسن بن منصور المذحجى ، أحد رجال العرب النابهيين
 آنذاك . وقد قال ابن البار (٦) عنه بأنه (كان يجمع الى شرف آبائه وأهل
 بيته ، علما واسعا وأدبا غزيرا ، وأقل ما تصرف فيه الشعر ، وكان بصيرا باللغة
 نافذا فى النحو فالما بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، هذا وتنسب
 اليه عدة مقطوعات جيدة فى الرثاء والمديح والنسيب (٧) .

-
- (١) ابن البار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٧-١٠٨ .
 (٢) ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .
 (٣) الجزء الاول ، ص ٣٢٣ .
 (٤) المدارك ، ج ١ ، ص ٣٢٣-٣٢٤ .
 (٥) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ابراهيم الدسوقي
 نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٦-٢٤٨ .
 (٦) الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ١٨٧ .
 (٧) ابن البار : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١٨٧-١٨٨ - ابراهيم
 الدسوقي : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

ومن ألع القراء الذين عرفهم العصر الاغلبى : ابن العباس محمد
ابن حيون الكاتب المعروف بالبريدى : (ت ٢٧٦هـ) ، الذى كنا قد تلمسنا دوره
فى نشاط الحركة النثرية إبان توليه الكتابة للامير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن
الاعلب . فالبريدى بالاضافة الى شهرته فى النثر ، كان شاعرا مجيدا . ومما
حفظ عنه من شعر جيد الأبيات الثلاثة التى نظمها فى ختام رسالة الاستعطاف
التي بعث بها الى الامير ابراهيم بن أحمد من محبسه . والابيات من الشهرة
والجودة بحيث لا ترى غضاضة فى أن نورد ها هنا ، فهى توضح لنا مقدار ما
بلغته الحركة الشعرية آنذاك من تطور .

قال البريدى مخاطباً الأمير :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم	قد قادنى نحوك الانعاف والندم
ياخير من مدت الأيدى اليه أما	ترتبى لمن قد بكاه فندك القلم
بالغت فى المسخط فاصفح صفح مقتدر	إن الملوك إذا ما استرحموا رَحَموا ^(١)

وشاعر آخر مشهور لا يقل مكانة عن البريدى ، عرفه هذا العصر . وهو
عبد الله بن الصائغ الكاتب وصاحب البريد (ت ٢٩٦هـ) الذى كنا قد عرفنا
دوره فى الحركة الادبية من طريق وظيفته الرسمية فى ديوان الانشاء فى عهد

(١) هذه الابيات متنازع عليها ومختلف فيها أشد الاختلاف فابن عذارى :
المصدر السابق والجزء ، ص ١١٥ . يقول انها لمحمد بن حيون المعروف
بالبريدى هذا الذى نترجم له فى المتن . وكذلك يقول ابن البار :
نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٥-٢٦٦ وان كان لم يقطع بذلك ،
فقد أورد ها فى معرض الاشارة الى الاختلاف فيها بين من يقول انها
للبريدى وبين من يقول انها للحاجب الاموى الاندلسى جعفر بن عثمان
المصحفى ، وقد قالها مستعظفا الحاجب الاموى المشهور المنصور بن أبى
عامر . وأورد ابن البار : نفسه ص ٢٦٦ أيضا رأيا ثالثا وهى أن هذه
الابيات تنسب الى الشاعر الاندلسى أبو عمر بن دراج القسطللى .

آخر الأمراء الاغالبية الأمير زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم (٢٩٠-٢٩١ هـ) ، وكذلك دوره السياسي الذي اضطلع به آنذاك فقد كان عبد الله بن الصائغ شاعرا مجيدا ، كما يقول ابن الابار (١) . ولقد أورد له عدة مقطوعات شعرية رائعة المعاني والأسلوب : (تمثل قمة ما وصل اليه الشعر المغربي في القرن الثالث الهجري ، كما ذكر ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٢) . ومعظم تلك المقطوعات جاءت في غرض واحد ، هو النسيب . وفي الحق فاننا لا نستطيع أن نتجاوز البيتين اللذين صاغهما ، ارتجالا ومن فوره ، عند ما طلب منه الامير زيادة الله أن يجعل من عجز بيت ، وهو : " فقد صرت بعد البين أقنع بالهجرى) . قال :

ولى كبد لولا الأسى لتصدفت وقلب أبى أن يستريح الى الصبر
وقد كنت أخشى هجرهم قبل بينهم فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر (٣)

وأخيرا فان هناك شاعرا آخر عاش ردحا من الزمن في عصر الاغالبية ، وتولى ديوان الانشاء في بلاطات الامراء الثلاثة الاخيرين منهم ، ثم توفي ففى صدر العصر الفاطمى ، أى عام ٢٩٨ هـ . ونعنى بذلك الأديب الرياضى الكاتب أبو اليسر ابراهيم الشيبانى ، الذى كنا قد ترجمنا له عند حديثنا عن النثر الفنى والتأليف . وفي الحق فاننا لم نعثر له الا على بيت واحد من الشعر ، قاله وهو وجود بأنفاسه وهو :

يكاد جسمى من نحول الضنى تحمله أنفاس موا دى (٤)

-
- (١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .
(٢) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٣٣٦ .
(٣) ابن الابار : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١٧٧ .
(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

- الشعر في عصر الفاطميين :

لعل أهم مظهر نلاحظه على الحركة الشعرية في افريقية خلال عصر الفاطميين ، هو غزارة الانتاج الشعري الذي خلفه هذا العصر . وما من ريب في أن معظم ذلك الانتاج الشعري الغزير قد جاء نتيجة للتحويل السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية ، والذي تَلَسَّنا بصماته أو آثاره على ما سبق من حقول الحياة العلمية التي تعرضت لها الدراسة من قبل . بيد أن ذلك التحويل السياسي والمذهبي كان أكثر تأثيرا في الحركة الشعرية - التي عادة ما تكون المرأة الصادقة لمجمل نواحي الحياة المختلفة - من أي حقول على أو أدبي آخر .

فلقد سخرت الدولة الفاطمية منذ أن قامت طاقات من استحوذت عليه من الشعراء لخدمة معتقدها المذهبي ، والدفاع عنه ، ومدح خلفائها والاشادة بهم . وبالمقابل تصدى الشعراء المناصرون للمذهب المالكى الى مناهضتهم . ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تكون محصلة ذلك محصلة شعرية وفيرة . زد على ذلك أن لغزارة الانتاج الشعري في هذا العصر سببا آخر ، ألا وهو رغبة الخلفاء الفاطميين في جعل بلاطاتهم لا تقل روعة ومكانة عن بلاطات منافسيهم في بغداد وقرطبة بصفة خاصة ، وغيرها من البلاطات بصفة عامة . ومن هنا ازدحم على أبوابهم الكثير من الشعراء الذين أثروا الحركة الشعرية بنتائجهم الغزيرة .

وفيما عدا هذا فبا مكاننا القول انه ليس ثمة ما يميز الحركة الشعرية كثيرا في عصر الفاطميين من عصر الاغالبة . فلقد تتابع ظهور شعراء افريقيين من نبت الارض الافريقية ، سواء كانوا عربا أو بربراً . والأمر الجديد هنا أن بعض أقاليم ومدن افريقية عرفت شعراء أصلاء أرضها ، عاشوا مبرزين ينتسبون اليها .

وكما عرف عصر الاغالبية نوهيات ثلاث من الشعراء ، وهم الشعراء الأُمراء
والشعراء الفقهاء ، والشعراء الأدباء الخُلص ، كذلك عرف هذا العصر ، بل
واشتهر بهذه النوهيات الثلاث من الشعراء .

وفيما يتصل بالاغراض الشعرية التي قام على سوقها ذلك الانتاج الشعرى
الغزير الذى خلفه عصر الفاطميين فان شعراء طرَقوا كسابقيهم فى العصر الاُغلبى
أكثر اغراض الشعر المعروفة ، وان كانت الغلبة والظهور لبعض الاغراض دون
الاُخرى مثل المديح والهجاء بصفة خاصة ، ثم الفخر والوصف ، وما يعرف
بالشعر الروحى . على أن الغرض الشعرى الأُحفل كان بلا مراء المديح ،
وانزوت بعض الاغراض الاخرى التى كانت سائدة من قبل مثل الرثاء والزهد
تقريباً .

وأخيراً ، فان أدوات البناء الشعرى من معان وأخيله وغيرها من ضروب
البناء الشعرى مما تمثَّلت كسابقتها فى العصر الاُغلبى مع طبيعة روح العصر
الادبى التى كانت تعيشها الحركة الشعرية فى الدولة الاسلامية .

- الشعراء الخلفاء :

أشرنا آنفا الى أن عصر الفاطميين عرف نوصيات ثلاث من الشعراء ، وهم الشعراء الخلفاء ، والشعراء الفقهاء ، ثم الشعراء الأدباء الخُص ، ومن البيدهي أن نتطرق بالحديث عن الشعراء الخلفاء جريا على ما احتذينا من منهج عند حد يثنا عن الشعراء في العصر الأغلب .

عرف من الخلفاء الفاطميين الذين تولوا الخلافة في الدور المغربي نظمهم للشعر ، وإن كان حظهم قد اختلف كما ونوعاً من واحد لآخر . فالخليفة صبيد الله المهدى (٢٩٦-٣٢٢ هـ) على الرغم من أنه كان (مفوهاً فصيحاً عالماً أديباً) ، كما يقول ابن الأبار (١) ، إلا أنه لم يعرف عنه سوى مقطوعتين احدهما في الوعيد ، وتتكون من عدة أبيات ، بقي منها بيتان فقط . وهى التى بعثها الى أحد خصومه في المغرب الأقصى (٢) . والمقطوعة الأخرى فى الفخر ، وتقع فى أربعة أبيات ، يفتخر فيها بنفسه وبشجاعته وبحيويته الجرارة (٣) وتتميز بجزالة معبرة ، وجرس قوى .

أما الخليفة القائم بأمر الله ابنه (٣٢٢-٣٣٤ هـ) فقد كان أغزر شعرا من أبيه ، وقد احتفظ له المؤرخون بمقطوعتين احدهما فى ما يسمى بالشعر الروحى وقد بعثها الى والده فى عام ٣٠٣ هـ ، عند ما أخفق فى فتح مصر . وتقع فى أحد عشر بيتا ، وهى عبارة عن (تسبيحة غريبة تصدر اسم الجلالة (الله) كل بيت منها وختمه) . (٤)

-
- (١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٣ .
 - (٢) ابن الأبار : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١٩٣ - ابن عذارى :
 - المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٨ .
 - (٣) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص ٢٠٠-٢٠١ .
 - (٤) ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٨٧-١٨٨ .

وهى فى الوعيد ، وتقع فى أربعة عشر بيتا (١) .

ويقول ابن البار (٢) ان الأديب العباسى أبا بكر الصولى أجابه بمقطوعة ماثلة لمقطوعته ، وذلك بأمر من الخليفة العباسى المقتدر .

وكان الخليفة المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) لا يقل شاعرية عنهما . وقد عرفت له مقطعتان الأولى وتتكون من ٨ أبيات بعثها ضمن كتاب الى ولده المعز لدين الله ريان مطارده للشاعر البربرى أبى يزيد مخلص بن كيد (١) . وهى مقطوعة اختلطت فيها الشكوى بالفخر (٢) . والمقطوعة الأخرى فى الفخر . وقد قالها وهو يتأهب للنصر الوشيك على أبى يزيد مخلص ، وهى أفضل من الأولى من حيث القيمة الشعرية ، فقد تميزت بقوة الجرس ، وجزالة العبارة (٤) كما هو شأن شعر الفخر عادة .

ولم يتخلف الخليفة المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٢ هـ) عنهم ، فقد كان شاعرا أيضا (٥) وأديبا . وكان له شعر يميل فيه الى استخدام الصنعة والمحسنات البديعة التى كانت سائدة فى عصره آنذاك (٥) . ولقد نسبت اليه عدة مقطوعات جاءت كلها فى النسيب (٧) . ولعل أشهر المقطوعات ، تلك التى لم يبق منها سوى هذين البيتين :

(١) ابن البار : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٧ ، ولم يورد منها سوى أربعة أبيات - ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع السابق ، ص ٣٨-٣٩ ، وقد أورد النص بأبياته كلها .

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(٣) ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١١٣-١١٤ .

(٤) ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع أعلاه ، ص ٨٧ .

(٥) محمد عبد الغنى حسن : الامير الشاعر تميم بن المعز ، سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ١١٠ .

(٦) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ، ص ٩٧ (نقلا عن العقاد فى كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون) .

(٧) من تلك النصوص أنظر محمد عبد الغنى حسن : نفس المرجع أعلاه ، ص ١١-١٣ .

أطلع الحسن من جيبك شمساً فوق ورد في وجنتيك أطلا
وكان الجمال خاف على الور د جفافاً فمد بالشعر ظلاً (١)

فلقد رأى فيهما ابن خلكان (٢) (معنى غريباً بديعاً) . وفصل محمد
عبد الغنى حسن (٣) ذلك المعنى الغريب البديع بما في البيتين من خيال جميل
وصوره مستحسنة ، وحسن شاعري مرهف دقيق ، وأهو الصورة المستلحة المخترعة
وكفى .

بقي أن نشير قبل أن نترك الحديث عن الشعر الخلفاء إلى أن أعظم
وأنبع شاعر أنبته البيت الفاطمي قاطبة هو الأمير تميم بن المعز لدين الله (٣٣٧-
٣٧٤ هـ) (٤) . وعلى الرغم من أن تميماً لم يل الخلافة لا في دور الخلافة الفاطمية
المغربى ، ولا في دورها المصرى ، إلا أننا لا نستطيع إغفال ذكره كشاعر أمير من
أمراء الفاطميين ، كان له في الشعر دولة ساقطة الذرى . وكيف لنا أن نغفل

(١) محمد عبد الغنى حسن : المرجع السابق ، ص ١٢ ، وإن كان يقول إنها نسبت
إلى شاعر فاطمي مصرى آخر هو ظافر الحداد . (أنظر ص ١٢-١٣) . على أن
المؤلف فاته كذلك أن يشير إلى أن هذين البيتين ينسبان إلى الأمير
تميم بن المعز نفسه ، كما أشار هو إلى محمد عبد الغنى حسن نفسه إلى ذلك
في ص ٥٤ نقلاً عن ابن سعيد المغربى صاحب كتاب المرقصات) . وليس ثمة
اختلاف في البيتين إلا في صدر البيت الثانى ، فبدلاً من : فكان الجمال... الخ
قال عن بيتي تميم في نفس صدر البيت الثانى : فكان العذار... الخ .

(٢) فيما ينقل عنه محمد عبد الغنى حسن : نفسه ص ١٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٢ .

(٤) كما حدد ذلك محمد عبد الغنى حسن في كتابه تميم بن المعز ص ٢٧ -
عبد المجيد عطية وعبد الرزاق الحليوى في كتابهما : تميم بن المعز ص ٨ ،
الذى ألفاه عنه ، وذلك من نقولاهما عن أحد المؤرخين .

ذلك وهو كما وصفه ابن الأبار : (شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع ، وكان فيهم كابين المعترف في بني العباس غزارة علم ومكانة أدب ، وحسن تشبيهه ، وابداع تخييل ، وكان يقتفى آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره) (١) . ولم يكف ابن الأبار بهذا الوصف فزاد فقال : (وشعر تميم مدون ، ومحاسنه كثيرة ، وتصرفاته بدیعة) (٢) .

على أن سوء الأقد بيد وهنا ، وهو أن كل شعر تميم بن المعز المدون (٣) والمحفوظ جاء في دور الخلافة الفاطمية المصرية ، وكانت مناسباته وليدة أجواء ذلك الدور . فكيف نصنفه ضمن شعراء البيت الفاطمي في الدور المغربي ؟ هذا التساؤل بلا شك له وجاهته التي لا تدفع . بيد أننا نبادر فنجيب بأن شاعرية الأمير تميم بن المعز لا يمكن أن تكون قد جاءت وليدة للدور المصري وحده فهو قد ولد عام ٣٣٧ هـ ، والخليفة المعز ارتحل إلى مصر عام ٣٦٢ هـ . ومعنى ذلك أنه عاش بأفريقية ٢٥ عاما ، وهي سن تظهر فيها المواهب والملكات عادة . والشئ الآخر أن تميما توفي عام ٣٧٤ هـ ومعنى ذلك أنه عاش في مصر ١٢ عاما . فهل كانت هذه السنوات الاثنتي عشر بكل عطائها الشعرى الغزير ، هي وحدها التي كونت شخصيته كشاعر ؟ . وبعد فلا يخامرنا شك في أن شاعرية الأمير تميم قد رأت النور في أفريقية ، وأن شعره في الدور المغربي ربما يكون قد طواه الضياع أو النسيان .

(١) ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء والصفحة .

(٣) له ديوان شعري ضخيم يحتوى على معظم فنون الشعر ، اهتدى إليه أخيرا

حيث طبع عام ١٩٥٧ م .

انظر محمد عبد الغنى حسن : نفس المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧ .

— الشعراء الفقهاء —

كما عرف العصر الاغلبى عددا من الفقهاء الذين أوتوا حظا من الشاعرية ، فقد عرف هذا العصر أيضا عددا منهم ، وهم كسابقهم الذين عرفهم العصر الاغلبى من أشهر الفقهاء الذين رووا الدراسات الشرعية بانتاجهم . ولعل من أوائل الفقهاء والشعراء فى هذا العصر ، الفقيه أبو عثمان سعيد بن الحداد الغسانى (ت ٣٠٢ هـ) ، الذى كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية ، وعن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبى بين المالكية والشيعة . وقد أثنى المالكى (١) على شاعريته ، فقال عنه : (كان يقول الشعر ويجيده ، ثم أورد له عدة مقطوعات تقع كلها فى غرض الشكوى (٢) ، وتدل على شاعرية جيدة .

والفقيه الثانى الذى نظم الشعر فأجاده هو المحدث أبو العزب التميمى (ت ٣٣٣ هـ) ، الذى كنا عرفنا عنه كثيرا عند حديثنا عن الدراسات الشرعية وغيرها . ولقد أثنى عليه هو الآخر المالكى (٣) ، فقال عنه : انه كان (يصنع الشعر ويجيده) ، ومقبَّ فأورد له عدة مقطوعات تقع كلها فى غرض الشكوى والاسى (٤) .

على أن أغزر أولئك الفقهاء شعرا وأبعدهم شاعرية ورفاهة حـس خلال عصر الفاطميين هذا هو الفقيه المشهور ربيع القطان (ت ٣٣٣ هـ) . وهو كذلك أحد الفقهاء الذين عرضنا لهم عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية فى نشر المذهب المالكى ، وكذلك عند حديثنا عن الدراسات الشرعية . وقد أثنى عليه

-
- (١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٠ .
(٢) نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ١١٠ - ابراهيم الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١١٥ - ١١٦ .
(٣) نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٣١٠ .
(٤) نفسه ، ص ٣١١ - ٣١٢ - ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١١٧ .

- الشعراء الأدياء :

وازدهم هذا العصر بعدد كبير من الشعراء الأدياء الخُلص الذين أسهموا في تنشيط الحركة الأدبية عموماً ، والحركة الشعرية على وجه الخصوص بعطائهم وانتاجهم الثر . على أن وجه الحق هنا يفرض علينا الإشارة الى أن أكثر أولئك الشعراء كانوا من الدائرين في فلك الخلافة الفاطمية المتغنيين بأمجادها ومذهبها . ومن الطبيعي ألا تكون شمة غرابية في هذا تأسيساً على ما سبق أن ذكرناه من قبل عن الدواعي التي فرضت هذا الوضع .

كما عرفت افريقية أيضاً شعراء آخرين غمروا البلاد بانتاجهم الشعري ، ولكنهم للأسف ظلوا مجهولين لدى مؤرخي الأدب وغيرهم ، فلم يعرف عنهم شيء ذي بال .

وأياً ما كان الأمر ، فإن من أوائل الشعراء الذين عرفهم عصر الفاطميين ، وبالذات عهد الخليفة عبيد الله المهدي (٢٩٦-٣٢٢ هـ) الشاعر محمد البديل الكاتب (١) . وقد رأينا محمد البديل الكاتب هذا يهيب واقفاً يمدح الخليفة المهدي ابان حلوله بمدينة رقادة قادما من سجلطاسه عام ٢٩٧ هـ بالأبيات المشهورة التي يقول مطلعها :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح (٢)

وهي الأبيات المفارقة في الغلو ، والتي رأى فيها أهل المغرب كفرةً بواحاً . وهذه الأبيات تعكس تماماً نظرة الشيعة الاسماعيلية للأئمة ،

(١) ابن هذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٦ - ابراهيم الدسوقي : المرجع

السابق ، ص ٥٨-٦٠ . محمد البعلوي : شعراء إفريقياون معاصرون

للدولة الفاطمية ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، ١٩٧٣ م

(٢) انظر قبل نص تلك الابيات ، ص ٥١٨

وتعكس أيضا كل خصائص نظرية التأويل التي عرضنا لها من قبل ، أو ما يسميه
ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) - وهو على حق - بالصيغة الفاطمية التي لازمت
منذ ذلك الحين الأدب الاسماعيلي .

وعلى كل حال ، فلم تكن تلك الابيات كل ما نظمه محمد البديل الكاتب
من شعر ، فقد ذكر بأنه امتدح الخليفة عبيد الله المهدي كذلك بعدة أبيات
لم يبق منها سوى بيتين ، وذلك بمناسبة إنتهائه من بناء مدينة المهديّة (٢) عام
٣٠٨ هـ .

ومن الشعراء المبرزين ممن عاصر الخليفة عبيد الله الشاعر المعروف :
سعدون الوريثي ، وقد يقال الوريثي (٣) . وسعدون الوريثي ، شاعر مكثّر
متمكن . عاصر الدولتين الأغلبية والفاطمية . ومن هنا فقد أتينا به في عداد
شعراء العصر الفاطمي ، وفقاً لما سلكناه من نهج نعتمد فيه تاريخ الوفاة شرطاً
للمعاصرة . ومع أننا لا نعرف بالضبط تاريخ وفاته ، إلا أن الشيء المؤكد هو
أنه عاش حتى مجيء الدولة الفاطمية . وعاش ردحاً من الزمن في خلافة الخليفة
المهدي .

-
- (١) شعر المغرب في خلافة المعز ، ص ٥٦-٥٧ .
(٢) محمد اليعلاوي : شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مجلة
حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٩٧٣ م .
(٣) القاضي النعمان : إفتتاح الدعوى ، ص ٣٠٠-٣٠١ ، ويسميه المورجيني
- المالكي المصدّن السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ويقول محقق هذا الجزء حسين
مؤنس في الحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة أن سعدون الوريثي يعود الى
أصل بربري (نقلاً عن حسن حسني عبد الوهاب) - ابراهيم الدسوقي
جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٣٧ ويسميه هنا بالوريثي ، وكذلك في
ص ٢٠٢ ، أما في ص ١٩٧ فيسميه الوارثيني - محمد اليعلاوي : نفس
المقال أعلاه ، ص ١٦٦ - رابح بونار : المرجع السابق أعلاه والجزء ، ص ١٦٨ -
ويسميه سعدون الوريثي .

ويبدو أن سعدون الوريثي كان من الشعراء الذين لا يرون غضاضة في التنقل بأهوائهم وميولهم حيثما تكمن المصلحة الذاتية . فلقد عرفت له قصيدة طويلة ميمية قالها في رثاء الفقيه المالكي المشهور يحيى بن عمر (١) الأندلسي الأصل ، القيرواني الدار والوفاة والذي كنا قد ترجمنا له من قبل . وهي قصيدة من ميون الشعر ، وتقع في . هـ بيتا هذا على الرغم من عدم خلوها من مأخذ .

غير أن هذا الشاعر ما أن تقتصب الخلافة الفاطمية في افريقية والمغرب حتى نراه يبادر فيمجدها ، ويتقرب الى أول خلفائها بقصائد المختلفة الأغراض والأهواء . فلقد روى بأنه امتدح الخليفة بقصيدة تقع في أكثر من ١٤ بيتا ، وذلك إبان قدومه من سجلماسة الى مدينة رقادة عام ٢٩٧ هـ (٢) . وفي الحق فإن القصيدة لم تكن مدحا كلها ، فقد اختلط المدح بها بالوهيد الذي كان يرسله الشاعر صارخا ومتوهدا أهداه الخلافة في المشرق بقدم الجيوش الفاطمية الجرارة الى المشرق لضمه الى سلطة الخلافة الفاطمية واسقاط الخلافة العباسية (٣) ، وهو الأمر الذي ما انفك الفاطميون يحلمون به أبدا ، ولسعدون الوريثي كذلك قصيدة أخرى في مدح الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وقد أشرنا اليها من قبل منذ حديثنا عن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة ، كما أشرنا الى قصيدته في مدح الخليفة الآتفة الذكر .

وعرف عهد الخليفة عبيد الله المهدي شاعرا ثالثا هو : أبو عبيد الله ابن حبوسى الفاسي (٤) ، الذي عمل قصيدة في مدح الخليفة عند بنائه لمدينة

-
- (١) انظر المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٤٠٤-٤٠٦-ابراهيم الدسوقي : نفس المرجع السابق ، ص ١٩٧ (ويقول ان عدد أبياتها خمسين بيتا) ، ص ٢٠١-٢٠٧ (حيث تحليل لقيمة القصيدة الشاعرية) .
- (٢) أنظر القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٠-٣٠١- أنظر كذلك قبل ص ١٩٥ - محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص ١٦٦-١٦٧ .
- (٣) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ .
- (٤) لم يشر الى هذه الشاعر ومقطوعته التي لم يبق منها سوى بيتين فقط ، الا ابن حماد وحده . أنظر ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١-٤٢ .

المهدية ، وهى قصيدة كما يبدو وطويلة ، لم يبق منها سوى بيتين فقط . وثمة شاعر رابع عاش فى عهد الخليفة المهدى ، وهو أبو بكر أحمد (ابن ابراهيم بن أبى عاصم (ت ٣٠٨ هـ) . وقد ذكر بأنه كان شاعرا معروفا ، وبالإضافة الى ذلك كان مشهورا يعملو كعبة فى علوم اللقمة . ومن أسف أنه لم يصلنا من شعر أبى بكر أحمد ابن ابراهيم هذا سوى بيت واحد . قد يكون مطلقاً لقصيدة أو مقطوعة غزلية .

ومن الشعراء الذين طوت الأيام اسمه فلم تذكره ، ذلك الشاعر الذى وقف بين يدي الخليفة المهدى يمتدحه لبنائه مدينة المهدية ، ثم لا يكتفى بذلك بل شرع يضيف على المهدية صفات التقديس والالجال (٢) حسبما جرت عليه العادة من صيغ القصيد بالصيغة الفاطمية التى تركز على التأويل كما أشرنا آنفا . ويرى محمد اليعلاوى (٣) أن فى القصيدة نَفْساً شبيهة بنفس الفقهاء الشعراء ، ولذلك فهو يظن أن هذا الشاعر ربما يكون أحد فقهاء القيروان الذين ساندوا الفاطميين وتحولوا الى جانبهم .

ومن الشعراء المرموقين الذين عايشوا الخلفاء الثلاثة الأول : المهدى والقائم ، والمنصور ، الشاعر المشهور أبو جعفر أحمد بن محمد المرونى أو المروزى . وأبو جعفر أحمد المروزى هو ابن الفقيه والقاضى الشيعى أبى عمر محمد بن عمر المروزى (ت ٣٠٣ هـ) الذى ولاه القضاء الخليفة المهدى ، والذى كان قد تناول على عدد من علماء وفقهاء القيروان وقتذاك حسبما مر بنا سابقا (٤) .

-
- (١) ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٤ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ حيث يحلل المؤلف القصيدة من الناحية الشعرية والمذهبية - محمد اليعلاوى : المقال السابق ، ص ١٦٤ .
- (٢) نفس المقال السابق أعلاه والصفحة .
- (٣) ترجم له كل من : ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٦٦ - ٦٨ وقد لقبه المروزى بالزأى - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ص ٣٩٥ - ٣٩٦ ، ويدعو المروزى بالذال - محمد اليعلاوى : المقال السابق ، ص ١٥٧ - ١٥٩ ، ويقول ان لقبه المروزى . ولا شك أن ذلك بعيد ، ومرة يقول المروزى ، وثالثة : المروزى .
- (٤) أنظر قبل ج ٢ ، ص ٦٣ هـ

ولقد تمتع أبو جعفر هذا بشاعرية طيبة ، كما أنه عرف عنه سرعة البديهة الحاضرة في قول الشعر المناسب للأحوال والظروف (١) . وقد ترك عدة مقطوعات شعرية تدل على شاعرية جيدة متمكنة . ومن بين تلك المقطوعات الستى نسبت إليه مقطوعته في الهجاء التي هجا فيها أحد خصوم الخليفة المهدي (٢) ، وكذلك تلك التي هجا فيها الشاعر البربري أبا يزيد مخلص بن كيداد الخارج على الخلافة ، وهي إلى الرجز أقرب (٣) . وللمروزي مقطوعة في مدح الخليفة المنصور بن القائم (٣٣٤-٣٤١ هـ) ، قالها وهو جريح من مطاردته لأبي يزيد (٤) . وعند ما تمكن الخليفة من القبض على أبي يزيد ، وما تبع ذلك من وفاته متأثراً بجراحه ، انتصب المروزي يمتدح خليفته ، ويصّب قارص الكلام المذموم على أبي يزيد (٥) .

والشاعر محمد بن المنيب (٦) ، كان أيضاً أحد الشعراء الذين حاسوا حول بلاطات الخلفاء الفاطميين يمدحونهم ويبجلونهم ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل كانوا ينتقصون خصومهم ويلصقون بهم كل رذيلة . وقد ترك قصيدة تقع فسى ١١ بيتاً في الهجاء قالها بمناسبة قضاء الخليفة المنصور على أبي يزيد مخلص بن

-
- (١) ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٢٣٤ (حيث الاشارة الى ذلك ويلقبه بالموذري - حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣٩٥-٣٩٦ .
- (٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ، ص ١٠١-١٠٣ - عباس الجوارى : الأدب المغرب خلال ظواهره وقضاياها ، ص ٦٥ (حيث نص تلك المقطوعة) .
- (٣) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٣ - محمد البعلاوى : نفس المقال السابق ، ص ١٥٩ (حيث نص المقطوعة) .
- (٤) محمد البعلاوى : نفسه ، ص ١٥٨ (حيث الاشارة الى المقطوعة وكذلك نصها) .
- (٥) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٦٦ (ويدعو أبا يعلى المروزي) - محمد البعلاوى : نفسه ، ص ١٥٨ (حيث نص المقطوعة) .
- (٦) لم يشر الى هذا الشاعر سوى ابن حماد : نفس المصدر السابق أطله ، ص ٧٤ كما لاحظ ذلك محمد البعلاوى : نفسه ، ص ١٦٠ .

كيداد (١) .

ومن الشعراء المَخلِّقِينَ في عصر الفاطميين ، الشاعر سهل بن ابراهيم الوراق (٢) . وسهل بن ابراهيم هذا يبدو أنه كان شاعر أهل السنة الذي يلهج لسانه بمدحهم ، كما يلهج بدم مخالفيهم الشيعة (٣) . شعره الذي وقفنا عليه يدل على ذلك . فقد روى أنه رثى الفقيه المتكلم المشهور سعيد بن الحداد الغساني المتوفى عام ٣٠٢ هـ بمقطوعتين ، احداهما مينية ، وتقع في ٢٣ بيتا ، والأخرى رائية ، وتقع في ٩ أبيات . وكلتا المقطوعتين تدل على

- (١) ابن حماد : المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥ - محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٦٠-١٦١ (حيث نص المقطوعة) .
- (٢) لم يزودنا المؤرخون بالقدامى بأى معلومات ذات بال عنه ، وكذلك فعل المؤرخون المحدثون . فالمالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢ لا يشير الا الى أن اسمه سهل بن ابراهيم الوراق ، ثم يورد له المقطوعتين اللتين رثى بهما سعيد بن الحداد ، ثم لا يزيد على ذلك شيئا . وابن عذرى : المصدر السابق ، ص ٢٩٣ لم يشر الا الى اسمه سهل بن ابراهيم فقط ، وذلك في معرض حديثه عن الابيات التي قالها في حصار مدينة سوسة ، أما المؤرخون المحدثون . فان ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٨٨-٨٩ ، ١٠٤-١٠٧ ، ١٩٧-١٩٨ لا يمدنا بشيء مهم عنه البتة . فهو لم يعرض الا على اسمه فقط ، وكذلك اشعاره . والباحث الذي حقق بعضا من أحداث حياة سهل الوراق هو : محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٤٢-١٤٣ . ومثله البشير اليكوش : حقق الجزء الثاني من رياض النفوس في حاشية رقم ٦٥٤ ص ١١٢ من نفس الجزء .
- (٣) بجانب شعره في هجاء الشيعة ، ومدح أهل السنة الذي أشرنا اليه في المتن أورد محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص ١٤٢ (نقلنا من المالكي ، جملة مفيدة تدل على ذلك ، فقد ذكر اليعلاوي في نقله عن المالكي أن الشاعر ابن قستار وكان حيا في عهد الخليفة المعز لدين الله سئل ذات مرة عما اذا كان هو أشعر ، أم سهل الوراق ؟ فقال بما انه أشعر من سهل في مدح الشيعة ، وسهل أشعر منه في هجوهم .

شاعرية حسنة (١). وبجانب هاتين المقطوعتين هناك مقطوعة في الفخر (٢)، قالها
يشيد بمدينة سوسة التي تصدت عام ٣٣٥ هـ لأبي يزيد مخلص بن كيداد، السدي
تكشفت نواياه لأهل السنة بعد الموقعة المشهورة التي وقعت عام ٣٣٣ هـ، وذهب
ضحيتها عدد كبير من فقهاء القيروان المعروفين حسبما أشرنا سابقاً.

على أن أشهر قصائده، تلك القصيدة التائية (٣) التي تتكون من
٣٦ بيتاً، والتي هجا فيها الفاطميين هجاءً عنيفاً مراً. فبدأ فيه سهل بن
ابراهيم كل دعاوى الشيعة الاسماعيليين السياسية والمذهبية بل وهدمها ونقضها.

وثمة شاعر قيرواني مبدع فرضت عليه الظروف أن يتقرب أخيراً إلى
الفاطميين، وخاصة الخليفة المنصور بن القائم، ونعني به الشاعر المشهور:
أبو القاسم محمد بن عامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري القيرواني (٤) (ت ٣٤٥ هـ)
وأبو القاسم الفزاري كما اشتهر يُعدُّ في الحقيقة أحد أعلام النهضة الأدبية في
في العصر الفاطمي الذير أثرها بزخم كبير ممتع كمّاً ونوعاً. وهو دون ريب كما

-
- (١) أنظر نص المقطوعتين عند المالكي: نفس المصدر السابق والجزء، ص ١١٢ -
١١٥ - محمد اليعلاوي: المقال السابق، ص ١٤٨-١٥٣. وانظر كذلك
تحليل اليعلاوي لهاتين القصيدتين من حيث قيمتهما الشعرية.
- (٢) لم يبق منها سوى بيتين فقط، أنظرها عند ابن عذاري: نفس المصدر
السابق والجزء، ص ٢٩٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفس المرجع
السابق، ص ٨٨ - محمد اليعلاوي: نفسه، ص ١٤٤.
- (٣) أنظر محمد اليعلاوي: نفسه، ص ١٤٤-١٤٨ (نقلاً عن المالكي)، حيث
نص القصيدة وتحليل اليعلاوي لها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: المرجع
السابق، ص ١٠٤-١٠٧ حيث الإشارة إلى القصيدة دون ذكرها مع تقويمه
لها.
- (٤) لم يشر المالكي: نفسه، ص ٤٨٧ وما بعدها، وهو الأصل الذي نقل عنه
كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين، لم يشر إلا إلى اسمه أبو القاسم
الفزاري. ولقد تتبع محمد اليعلاوي: نفسه، ص ١١٩ الأقوال التي نسبت
عن الفزاري ونسبه فتوصل إلى أن اسمه الكامل هو كما أوردناه في المتن،
وذلك بناءً على ما ورد لأبيه وجده من تراجم في بعض مصاد رطبقات النحويين
واللغويين.
- (٥) محمد اليعلاوي: نفسه، ص ١٢٠ (نقلاً عن حسن حسني عبد الوهاب في المجلد)

يتضح من متابعة قصائده أحد شعراء أهل السنة ، بل أن محمد اليعلاوي (١) يرى أنه قد يكون أحد فقهاء القيروان آنذاك . ولقد وقفنا على إنتاج شعري غزير له يدل بما لا يدع مجالا للريبة على قوة الشاعرية وأصالتها عنده .

فمما نعرفه له يدل على حقيقة انتعائه المذهبي ، تلك المقطوعة التي تتكون من ١٣ بيتا (٢) ، والتي هجا بها الفاطميين هجاءاً مرأ ، أزرى فيها بمذهبهم ومرتكزاته التي يقوم عليها . وبالإضافة الى هذا ، فقد حمل عليهم حملة شديدة إزاء تنقصهم للصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة الخليفيتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وعندما انضم علماء المالكية الى الناصر أبي يزيد مخلص في حربه التي شنها على الفاطميين هب أبو القاسم يجرّد سلاح النظم ، فصنع قصيدة مطوّلة تقع في ٦٧ بيتاً عُرفت بالقصيدة الرائية (٣) . وهذه القصيدة كما يرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٤) تمثل مكانة قيمة في دنيا الأدب المغربي آنذاك . فقد

-
- (١) شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، ص ١٢٠ ، ١٤٤ .
- (٢) من هذه المقطوعة أنظر المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٤-٤٩٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ١٠٨-١٠٩ (حيث النص وتحليل قيمته الشاعرية والمذهبية) - محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ص ١٢٦-١٢٧ (حيث النص وتعليقه عليه) .
- (٣) أنظر المالكي : نفس المصدر السابق أطلّاه والجزء ، ص ٤٨٩-٤٩٤ (حيث نص القصيدة الرائية والظروف التي قيلت فيها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب نفس المرجع السابق ، ص ٨٩-١٩٢ وقد أشار الى الظروف التي قيلت فيها القصيدة - دون أن يذكرها بل أورد بضعة أبيات منها ، ثم وهو الأهم تحليله لها من حيث قيمتها الشاعرية) - محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص ١٢٢-١٢٥ (وقد أورد نص القصيدة بتمامها ، ثم علق عليها .
- (٤) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٨٩-٩٠ .

اظهرت الافكار فيها اطراداً طبيعياً مع ما فيها من طول ، كما أنها تنضح بانفعال صادق حار . وهذه القصيدة الرائية على الرغم من أنها قد قيلت أساساً في مدح أبي يزيد مخلص ، إلا أنها في الحقيقة تعتبر من قصائد الفخر (١) . وقد افتخر فيها الفزاري بمدينة القيروان ومكانتها الدينية والعلمية ؛ ومن هنا حظيت بالخلود في بطون كتب مؤرخي الطبقات المغربية . وعند ما مات الفقيه المالكي أبو الفضل المحسبي عام ٣٣٣ هـ مقتولاً في الموقعة التي وقعت بين السنة العاشرتين مع أبي يزيد وبين الشيعة ، رثاه أبو القاسم الفزاري بقصيدة مبنية تقع في واحد وثلاثين بيتاً (٢) .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وانتهى الأمر بمقتل أبي يزيد مخلص بن كيدان كما هو معروف ، طلب الخليفة المنصور بن القائم أبا القاسم الفزاري ، وقد تنامت إلى أسماعه بالطبع أهاجيه فيه وفي بني بيته ، وتناسى إلى أن هاته كذلك إمتداحه لعدوه اللدود أبي يزيد . غير أن الشاعر انتابه الهلع ، ثم ما لبث أن ذهب إلى الخليفة مشيعاً بدعاء الفقيه الصالح أبي القاسم السبائي (٣) .

وبعد وأن الشاعر قد اضطر إلى مداراة الخليفة المنصور . قد وُجِّع قصيدة

-
- (١) كما لاحظ ذلك بحق إبراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ - محمد البعلاوي : المقال السابق ، ص ١٢٥ . وقد قال بمنتهى الدقة : أنها تعتبر قصيدة هجاء للفاطمين ، ولا قصيدة مدح لأبي يزيد مخلص ، بل هي في قسمها الآخر قصيدة مدح للقيروان وأهلها . ومن هنا حازت إعجاب مؤرخي الطبقات الإفريقية كالدباغ صاحب معالم الإيمان وغيره .
- (٢) أنظر نص القصيدة عند المالكي : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ - ٣٠٥ - إبراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٩٨ (٢٠٨-٢١١) (حيث نص القصيدة وتوقيمه لها) - محمد البعلاوي : نفسه : ص ١٣٧ - ١٤١ (حيث القصيدة بتمامها وتعليق البعلاوي عليها) .
- (٣) المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

طويلة اشتهرت بالقصيدة الفزارية (١)، التي تعتبر من غرر قصائد المدح (٢) ففى افريقية ليست فى العصر الفاطمى فحسب ، بل فى كل العصور موضوع الرسالة . وهذه القصيدة تمتاز بالفصاحة التى تتجلى فى أبياتها ، والتى تشهد بالقدرة اللغوية الفائقة ، وهى جزلة التراكيب ، تشع منها موسيقى شاعرية تتناسب مع الموضوع . وقد استعرض الفزارى فى هذه القصيدة مقدار ما تختزنه ذاكرته من عارث ثقافى (٣) ، فقد استهل قصيدته بذكر مائة علم من أعلام العرب من سُرارة العرب وأشرفهم (٤)

وقد نالت هذه القصيدة التى عرفت بالفزارية نسبة اليه ، شهرة عريضة فى المغرب وكذلك فى المشرق حتى أنها أفردت بالشرح دلالة على فناية أهل الأدب بها (٥) .

-
- (١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٦٨ - محمد اليعلاوى : المقال السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢٧ .
- (٢) اعتبرها ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق أعلاه والصفحة أشهر مدحة ، بل أشهر قصيدة تنتمى الى العصر الذى ألف فيه كتابه السابق شعر المغرب حتى خلافة المعز . وبالطبع فجاد الرب لم يتحدث من شعراء عهد المعز ولا من شاعره الأشهر ابن هانىء الأندلسى . ومن هنا قال عن القصيدة الفزارية ، ما قاله آنفا .
- (٣) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٨ - ٧٠ .
- (٤) محمد اليعلاوى : نفس المقال السابق ، ص ١٢٠ - وقد ترجم فى الصفحات : ١٣٠ - ١٣٤ لحوالى ٣١ علما منهم فى الحواشى .
- (٥) لم يتبعين لبراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٩ - ولا لمحمد اليعلاوى : نفسه ، ص ١٢٧ من شارح القصيدة الفزارية ، الذى لم يشرح من القصيدة الا ٣٣ بيتا ، وهى التى وردت فيها أسماء سُرارة العرب ، وأشرفهم الذين أشار اليهم الفزارى فى قصيدته تلك .

ويضيق بنا الحال لو مضينا نترجم لكل شعراء العصر الفاطمي ، فهم كثيرون فعلا ، غير أننا سنكتفى بالقول أن هناك عددا من الشعراء كانوا أقل شهرة ممن (١) فرضنا له كما أن هناك عددا آخر لم نقف الا على أسمائهم ، أما أشعارهم فلم يصل إلينا منها شيء (٢) وعددا آخر بقيت أشعارهم ، ولم تخلصد أسمائهم (٣) .

وفيما يتصل بشعراء بقية أقاليم ومدن افريقية الذين عرفهم هذا العصر بالاضافة الى أبي خزر الحامي الذي أنجبت له بلاد الجريد ، ويوسف ابن عبد الله القصبي الذي أهدته مدينة قفصه حسبا أشرنا آنفا (٤) ، فإن هذا العصر عرف ثلاثة شعراء مشهورين أنبتتهم ثلاث مدن هي سوسة وتونس وطرابلس فلقد أنجبت مدينة سوسة شاعرا مشهورا هو أحمد بن أفلح (٥) ، وقد يقال له بلج السوسي . وحفظت عنه قصيدة قالها بمناسبة رفع أبي يزيد مخلد بن كيداد حصاره عن مدينة سوسة عام ٣٣٥ هـ . والقصيدة عبارة عن مقطوعة في الفخر يتغنى فيها الشاعر بمدينة سوسة (٦) .

-
- (١) انظر محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٥٤ - رابع بونار : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
- (٢) راجع محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص ٩٥-٩٦-٩٧ .
- (٣) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٦٢-١٦٣ .
- (٤) انظر قبل ، ص ٣٦٢ .
- (٥) هذا ما رجحه حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٥٧ - وكذلك محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٥٥-١٥٦ . وقد أورد الأقوال التي قيلت من الاختلاف في لقب الشاعر هذا . ويبدو أنه قد اعتمد أخيرا لقب أفلح هذا . أما ابراهيم الدسوقي جاد الرب : في المرجع السابق ، ص ٨٨ فقد أسماه أحمد بن بلج السوسي .
- (٦) انظر نص المقطوعة عند حسن حسني عبد الوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه والقسم والصفحة - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٦٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨-٨٩ (حيث قام بتحليل المقطوعة) .

أما مدينة تونس ، فقد أهدت البلاد ليس على مستوى مصر
الفاطميين وحده ، بل على مستوى كل العصور شاعرا آخر مبرز ، هو علي بن
محمد الايادي (١) التونسي (ت ٣٦٥ هـ) (٢) . وعلى الرغم من أن تاريخ وفاته
تجعلنا نضعه ضمن شعراء العصر الزيري ، إلا أن الايادي قال كل شعره في
الفاطميين ، بل ولم تقم له شهرة إلا بما صنعه من شعر فيهم .

وعلي الايادي شاعر مرموق محلق ، عربي الأصل ، وينتسب إلى فرع
من قبيلة الأثياح النازلة آنذاك بالقرب من مدينة المسيلة باقليم الزاب ، فهو
على هذا ليس من قبيلة إِيَاد المشهورة كما قد يتوهم (٣) ، كما أن انتسابه إلى
ذلك الفرع من قبائل بني هلال يعني أن إفريقية عرفت نزوحا هلاليا قبل الزحف
التاريخي المشهور الذي تم في منتصف القرن الخامس الهجري .

وكيفما كان الأمر فقد ولد هذا الشاعر في مدينة تونس ، وبها ترعرع
ثم جذبه البلاط الفاطمي في المهدية فالمنصورية ، وهناك شرعت مواهبه الشعرية
تتفتح ، حتى أصبح من أبرز شعراء إفريقية . وقد أجله الخلفاء : القائم
والمنصور والمعز ، فأكرموه وقد روا شاعريته (٤) .

أما شاعريته فلا نزاع على قيمتها الكبيرة في دنيا الأدب . ولقد وصفه
الاديب الإفريقي المشهور ابن شرف القيرواني (٥) ، بقوله : (وأما علي بن الايادي التونسي فشعره

-
- (١) تتبع ترجمته أوردها في شيء من الطول : محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧ -
٩٩ من أقوال كل من حسن حسني عبد الوهاب في مجمل تاريخ الأدب
التونسي ، والشاذلي بويحيى في رسالة الدكتوراة التي أعدها عن الحياة
الأدبية في إفريقية في العصر الزيري ، وغير ذلك من مصادر ومراجع وأقوال .
(٢) كما اعتمد ذلك فيما بيده محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٨ (نقلا عن حسن حسني
عبد الوهاب في المجمل) .
(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧-٩٨ .
(٤) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٨-٩٩ .
(٥) مسائل الانتقاد - اعلام الكلام ، ص ٢٦-٢٧ ، وانظر كذلك محمد اليعلاوي :
نفسه ، ص ١٠٠ مع الحاشية .

المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو يحترى الغرب ، يصنف الحمام فيرق الأنام ، ويتشعب ، فيعشق ويحبب . ولقد حصل الايادى على شهرة تعدت حدود وطنه افريقية الى المشرق (١) . وما ينهض دليلا على أصالته ومكانته كشاعر محلق أن الشاعر المشهور ابن هاني الأندلسي الذي وفد على المعز لدين الله هجاه شعراء افريقية فلم يجيبهم . وقد صرح بأنه لن يجيب أحدا منهم ، إلا أن يهجو على الايادى (٢) فيجيبه .

وعلى الرغم من هذه المكانة العريضة لعلى الايادى ، فقد ضاع شعره ، ولم يبق منه سوى اثني عشر قصيدة ومقطوعة (٣) . يبدو أن ما بقي من شعره هو على كل حال من رائق الشعر وأملحه . ولعل أغلب فن شعرى قاله وأجاده كان الوصف . فقد ترك ثلاثة نصوص ، الأولى فى وصف أسطول الخليفة القائم بأمر الله والثانية فى وصف قصر البحر بالعاصمة المنصورية (٥)

-
- (١) أنظر محمد البعلاوى المقال السابق ، ص ١٠٠-١٠١ حيث الاشارة الى تأثر الشاعر المشرقى السرى الرخاء يعلى الايادى فى احدى مقطوعاته المدحية ، وكذلك الاشارة الى خلط المشاركة فى قصيدة لعلى الايادى ، حيث نسبوها للشاعر المشرقى ألوأهراء الدمشقى . وما يدل على اشتهار شعر الايادى فى المشرق حتى فى حياته أن الشريف الرضى ، أورد احدى مقطوعات الايادى الغزلية فى كتابه : طبقات الخيال .
- أنظر محمد البعلاوى : نفسه ، ص ١١٥-١١٦ .
- (٢) ابن رشيق : العمدة ، الجزء الاول ، ص ١١١- محمد البعلاوى : نفسه ص ٩٣ (ويبدو أن البعلاوى يستبعد ذلك الخبر . لأن ابن هاني كمنّا يعتقد لم يكن هجاء ، على أننا نعتقد أن ابن رشيق بحكم قرب حياته من حياة كلا الشاعرين ابن هاني وعلى الايادى أصدق خبرا على كل حال .
- (٣) كما حصر ذلك وتتبعه محمد البعلاوى : المقال السابق ، ص ١٠٠-١١٨ . من مختلف المصادر والمراجع التى تحدثت عن الايادى .
- (٤) من هذا النص ، أنظر محمد البعلاوى : نفس المقال السابق ، ص ١٠٨-١١٢ ، حيث تناول الباحث هذا النص بالتعليق والتقويم - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٢١٥-٢٢٢ ، حيث حلل المؤلف قصيدة الايادى ، وبين روعتها وقيمتها الشعرية فى دنيا الأدب .
- (٥) محمد البعلاوى : نفسه : ١٠٤-١٠٧ (حيث النص بتمامه والتعليق عليه) =

والثالثة فى وصف جبراد أحد أمراء (١) البيت الفاطمى وهذه النصوص الثلاثة، (تشهد له ببراعة فائقة فى تصريف وجوه الخيال فى شعره الوصفى) كما يقول محمد اليعلاوى (٢). وأما ابراهيم الدسوقى جاد الرب (٣) فقد أخذه الانبهار بشاعرية الأيادى وقدرته الفائقة على الوصف، فقال: (لقد أثبت المغرب أن فى السويداء رجالا، فان طابق أبو تمام والبحترى، وشبه البحترى وابن المعتز وبرزا فى الوصف، وحرص بعض هؤلاء وكثير من المحدثين على حسن التخلص فصنعهم صنع الأيادى يحده معجم واسع، وعلم جم بالتراث القديم المعاصر، وتسلسل له عبارة صائبة، ونواتيه خيال نشط مقرب).

على أن للأيادى كذلك مقطوعات أخرى فى المديح الخالص بالاضافة الى ما فى قصائد الوصف سالفه الذكر من مديح. فقد ترك قصيدة فى مدح المنصور بن القائم عند ما أمر الخليفة القائم والده بالبيعة له عام ٣٣٤ هـ (٤). وله كذلك قصيدة فى مدح الخليفة المنصور عند قضاؤه على أبى يزيد بن مخلد (٥). والأيادى فى مدحه للفاطميين لا يفرق اغراق معاصريه فى إهمتفاً صفات القداسة كما أن مدحه لم يصطبغ بالصيغة الفاطمية التى كنا قد ألمحنا إليها من قبل.

- = - ابراهيم الدسوقى جاد الرب: نفس المرجع السابق، ص ٢٢٧ -
 ٢٢٨ - (حيث النص وتحليل قيمته الشعرية).
 (١) محمد اليعلاوى: المقال السابق، ص ١١٢-١١٣ (النص والتعليق عليه)
 - ابراهيم الدسوقى جاد الرب: نفس المرجع السابق، ص ٢٢٢-٢٢٣ (النص وتحليله).
 (٢) نفس المقال السابق، ص ٩٩.
 (٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٢٨.
 (٤) محمد اليعلاوى: نفسه، ص ١١٣-١١٥ (نقلا عن الداوى صاحب الدرة المضيئة). وقد انفرد اليعلاوى بالاشارة الى هذه المقطوعة دون ابراهيم الدسوقى جاد الرب الذى تتبع شعر المديح فى المغرب من الفتح وحتى عهد المعز لدين الله.
 (٥) الزاوى: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا: ص ٢٥١-٢٥٢. وقد أورد بعض =

ويرى محمد اليعلاوى (١) أن طابع الاعتدال كان يطبع شعر الايادى ، فهـو بهذا ليس شاعر فكرة ودعوة ، مثل ابن هانى . وهو بشكل ما يعرف بشاعر بلاط غير ملتزم - ان جاز لنا استخدام هذا التعبير - . وهذه القصيدة التى مدح بها الخليفة المنصور كانت مزيجاً من المدح والوصف والهجاء . (٢) اختلط فيها المدح بالوصف والهجاء .

وأسهمت مدينة طرابلس فى انعاش الحركة الشعرية من طريق ابنها الشاعر والقائد الفاطمى المعروف أبى العباس خليل بن اسحاق بن ورد (٣) ، (مات مقتولا عام ٣٣٢ هـ) . و خليل بن اسحاق أحد أبناء مدينة طرابلس الذين تحزبوا للدولة الفاطمية ، فقد مواخذ ماتهم لها . ولم تبخل عليه الدولة من جهتها فعينته فى أكثر من منصب رفيع ، وذلك فى عهدى الخليفتين : المهدى والقائم بأمر الله (٤) . وقد انتهى به الأمر مقتولا عام ٣٣٢ هـ كما ذكرنا على يد الثائر البربرى الخطير أبى يزيد مخلد بن كيداد البغوى .

وأيا كان رأى فى سيرة خليل بن اسحاق التى شابتها الشوائب (٥)

==أبياتها فقط - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المصدر السابق ، ص

١٠٢-١٠٣ ، وقد أوردها بتمامها مع تقويمه لها .

(١) نفس المقال السابق ، ص ١٠٠-١١٥ .

(٢) وذلك فى تصويره الدقيق حسبما يتراعى لنا الى وصف سلخ جلد الثائر : أبى يزيد مخلد بن كيداد وحشوه بالتبن ، كما اشتهر وعرف تاريخياً ، من حادثه سلخ أبى يزيد . أنظر ابن حماد : ص ٧٦ ، وأنظر استنكار محققا كتاب ابن حماد : التهامى تغرة وعبد الحليم عويس لذلك الفعل ، فى حاشية رقم (١) ، ص ٧٦ .

(٣) ترجم له ترجمة حسنة : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٢-٣٠٤ .

ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٦٢-٦٣ - محمد

اليعلاوى : المقال السابق ، ص ٦٨ (نقلا عن الجوزى صاحب سيرة

الاستاذ جوزر) - أحمد مختار عمرو : النشاط الثقافى فى ليبيا ، ص ٢٢٨-

٢٣٠ .

(٤) ابن الأبار : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣٠٢ .

(٥) أنظر ابن الأبار : نفسه ، ص ٣٠٢ - أحمد مختار عمرو : ص ٢٢٨-٢٢٩

أثناء تبوُّعه للمناصب التي أسندتها له الدولة ، فإن الشيء الذي لا مراة فيه أنه كان شاعرا جيدا متمكنا . ولقد وقفنا من شعره الذي حُكِّد له على قصيدتين في المديح ، الأولى منهما تقع في ١٤ بيتا ، وقد مدح بها الخليفة عبيد الله المهدي (١) ، والأخرى قالها ممتدحا الخليفة القائم بأمر الله لما اختصه (٢) . والمقطوعتان أو القصيدتان كُتبتا مشوبة بالصيغة الفاطمية التأويلية التي لازمت مدائح الفاطميين (٣) .

أما وقد وضحت لنا معظم ملامح الحركة الشعرية الإفريقية في عصر الفاطميين ، طبيعةً وشعرا ، فإن الواجب يملئ علينا أن لا نغفل أثر شاعر مشهور ، أثرى الحركة الشعرية الإفريقية وقتذاك بفيض من شعره ذي المضامين المثيرة للتساؤل ، والاستغراب ، بل والغضب والاستنكار . نعني بذلك الشاعر المشهور ابن هاني الأندلسي (٤) المتوفى عام ٣٦٢ هـ (٥) .

- (١) أنظر نصها عند ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ - إبراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ، ص ٦٢-٦٣ ، ٢٣٨ - أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .
- (٢) ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ - إبراهيم الدسوقي جاد الرب : المصدر السابق ، ص ٦٣ مع تحليل وتقويم لها .
- (٣) إبراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٣-٦٤ .
- (٤) ترجم له ترجمة واسعة بعض الشيء ، ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢١-٤٢٤ (وقد أشار محقق الكتاب احسان عباس في حاشية الصفحة ٤٢١ إلى أن لابن هاني ترجمة في أكثر من ١٠ مصادر مشرقية وأندلسية - ياقوت : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ص ٩٢-١٠٥ (عن أكثر من مصدر) - الصغدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٢-٣٥٥ (وقد جاءت قريبا من ترجمة ابن خلكان ، ويسميه محمد بن إبراهيم بن هاني ويكنيه بأبي القسم وأبو الحسن) . - أكرم البساتني ناشر ديوان ابن هاني في مقدمة الديوان ، ص ٥ - ٨ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ٢٩٤-٣٠٩ .
- (٥) هذا ما رجحه ابن خلكان : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٤٢٤ ووافق عليه الصغدي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣٥٢ =

وقبل أن نتحدث عن ذلك الأثر الذى أحدثه حلول ابن هانسى فى افريقية ، وعن شعره وخصائصه ، تقتضى دواعى المنطق أن نعقد ترجمة مختصرة له ، توضح من خلالها مسيرته فى الحياة ، قد تفتحت فيناه على الحياة ، وحتى أغضتہما عام ٣٦٢ هـ فى نهاية غاضدة ، بعد حياة قصيرة حافلة بالعطاء ، والفقر والثراء . ولقد اتفق المؤرخون على أن أبا القاسم محمد بن هانى الأزدي الأندلسى ولد فى مدينة اشبيلية ، لأب افريقى عربى ينتسب الى المہالبة ، نزح من مدينته المہدية الى الأندلس ، وبالأذات اشبيلية التى استوطنها هو وأسرته ، وفى اشبيلية تلقى ابن هانى علومه ، وتفتحت شاعريته . غير أنه ما لبث أن انجذب الى بريق العاصمة قرطبة ، فانتقل اليها واختلط بمثقفىها ، ثم رحل الى مدينة البعيرة ، وظل فيها فترة ، حتى أنه قد يطلق عليه الشاعر الالبيرى (١) . وفى كل تلك التنقلات كانت شاعريته تتصقل وتتبلور . ثم قادته قدماه ثانية الى مدينته اشبيلية اتصل بأميرها وصاحبها . غير أن إنصرافه الى حياة اللهو والمجون ، وما طرأ على فكره من ميل الى المذهب الشيعى ، كل ذلك جعله منبوذا فى نظر أهل اشبيلية . مما اضطره الى مغادرتها ، بل الأندلس كلية والنزوح الى افريقية (٢) .

ولقد انتهى به المطاف فى افريقية الى أن يحل على الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله فى فاصتيه : المہدية والمنصورية ، الذى سمع به فأنابه واستقطبه (٣) .

= وان كانا قد ذكرنا تاريخنا آخر كقول ثان وهو عام ٣٦٥ هـ ، ولكنهما يبدون قد اعتمدا التاريخ الذى أشرنا اليه فى المتن .

- (١) أكرم البستانى : مقدمة ديوان ابن هانى ، ص ٥٠ .
- (٢) أكرم البستانى : المرجع السابق ، ص ٥-٧- أبو القاسم كرو وعبد الله شويط : المرجع السابق ، ص ٢٩٦-٢٩٧ .
- (٣) أكرم البستانى : نفس المقدمة أعلاه ، ص ٥-٦- أبو القاسم كرو وعبد الله شويط : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

ومذ ذاك طفق ابن هاني ينشئ القصائد الطوال السائرات في مدح الخليفة وأسرته ، وفي التغني بأمجاد الدولة الفاطمية ، وتحقير خصومها السياسيين : الأمويين والعباسيين وغيرهم . ومن كل ذلك جاء طاء شعري غزير تمثل في ديوان كبير (١) ، احتوى على أكثر من عشرين قصيدة (٢) مدحية في المعز وحده ، حتى أنها سميت بالمعزيات (٣) ، وهي ما تمثل نصف الديوان .

وأيا ما كان الأمر في الضامين المذهبية التي جاء بها شعر ابن هاني ، والتي عكست بحق كل خصائص المذهب الشيعي الاسماعيلي العقائدية والسياسية ، والتي جرت عليه النقمة من قبل المؤرخين (٤) السنة وغيرهم . نقول أيا كان الرأي في طروحات ابن هاني المذهبية تلك ، فان الذي لا مرا فيه ، أنه قد أنعش الحياة الادبية في افريقية آنذاك . ويبدو أن قدومه الى افريقية قد جاء في الوقت المناسب جدا للفاطميين ، الذين ازدادت حملة أهل السنة عليهم ، وخاصة في عهد الخليفة المعز نفسه ، الذي ذكرنا (٥) من قبل ان الدعوة للمذهب الشيعي قد بلغت في عهده درجة كبيرة - ولذلك فقد كان الخليفة والخلافة والمذهب الشيعي في حاجة الى شاعر يذيع أمجادهم ، والى شاعر يؤكده على الملأ أحقيتهم في الخلافة ، فلا يفتأ يردد ذلك ويردده حتى تستقر في الأذهان

- (١) كما يقول ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .
- (٢) أبو القاسم كروو عبد الله شويط : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .
- (٣) أنظر مثلاً ابن خلكان : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، والصفحة - أكرم البستاني : نفس المقدمة ، ص ٧ . (نقلاً عن غير واحد من المؤرخين القدامى - أبو القاسم كروو عبد الله شويط : نفسه ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٣٠١ - سعد البشري : الحياة الأدبية في عصر الخلافة في الأندلس ، ص ٢٦٠ ، مع الحواشي (نقلاً عن ابن كثير صاحب البداية والنهاية وغيره) .
- (٤) انظر قبل ، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

خصائص مذهبهم السياسى والعقائدى هذا بجانب الجهود الحثيثة التى يضطلع بها الدعاة الآخرون . ومن هنا أغدق عليه المعز (وبالغ فى الانعام عليه (١) ، ففاضت إشر ذلك (حياة ابن هانىء رخاء وبذخا (٢) . ولقد حاول ابن هانىء من جهته - وعرف أنه اضطلع برسالة سياسية ومذهبية - ، أن يقصر جهده كله فى ذلك ، أى مديح المذهب والخلافة فى شخص الخليفة المعز . ومن هنا نستطيع أن نضع أيدينا على سرائر اقتضاره على غرض واحد رئيسى ، هو المدح . وكذلك نضع أيدينا على سرائر تأسى الخليفة المعز وأسنه ، وقد بلغت وفاة ابن هانىء ، وهو يتنهد ، أى المعز إلى الانتقال إلى مصر عام ٣٦٢ هـ كما هو معروف ، فيقول عنه : (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك (٣) .

وفيما يتصل بتأثيره على شعراء القيروان ، فإننا بالرغم من افتقارنا إلى الشواهد التى تدل على ذلك ، نملك دليلا واحدا لا نستبعد أن يكون له أمثلة متعددة ، فقد ذكر ابن رشيق فى أنموذجة (٤) أن هناك شاعرا إفريقيا ترسم خطى ابن هانىء ، وهو اسحاق بن ابراهيم المغربى الرافضى . عرف عنه أنه بجانب كونه رافضيا ، فقد كان اعتماده فى الشعر على أبى القاسم بن هانىء المغربى ، وله كان يتعصب . وقد دفعه إعجابه بابن هانىء إلى أن يصرح فى مجلس ضمه مع ابن رشيق قبل مقتله عام ٤٢٠ هـ على يد المعز إلى أن يقول عنه وقد ذكر المتنبى ، أن الشعر ختم به وبأبى القاسم (٥) .

- (١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٢ .
- (٢) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ص ٢٩٧-٢٩٨ .
- (٣) ابن خلكان : نفس المصدر السابق والجزء أعلام والصفحة .
- (٤) فيما ينقله عنه الصغدي : المصدر السابق ، الجزء السابع ، ص ٣٩٨ -
- (٥) الصغدي : نفس المصدر أعلام والجزء ، ص ٣٩٩ (نقل من ابن رشيق) .

أما وقد عرفنا أثر وتأثير ابن هانئ في الحركة الشعرية الإفريقية بالصورة التي رأينا ، فإنه ليس من الغريب أن يضعه نقاد الأدب ومؤرخوه في جملة شعراء الطليعة الأولى في العصور الإسلامية (١) . بل إن ابن خلكان (٢) يضعه في المرتبة الأولى بالنسبة لشعراء المغرب والأندلس ، حتى عصره ، أي عصر ابن خلكان ، كما يقول أيضا أن المغاربة يعدون ابن هانئ عند هم كالمتنبى عند المشارقة ، وقد كانا متعاصرين .

بيد أن نقاد الأدب ، وقد أجمعوا على تقدير شاعرية ابن هانئ ومكانتها ، قد اختلفوا في تقييم شعره فمنهم من أنكر عليه عدم الاختراع والتوليد ، إلا نادرا كابن رشيق الذي يقول عنه (أنه يبهر بالفاظه أكثر مما يبهر بمعانيه) (٣) ومثل ذلك الشاعر المشهور أبو العلاء المعري ، الذي كان يقول عند ما يسمع شعر ابن هانئ (وما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل القعقة في ألفاظه) (٤) .

على أن نفرا آخر من مؤرخي الأدب ونقاده لا يرون ذلك ، مثل ابن خلكان (٥) ، الذي أنكر على المعري قوله ، وعزى ذلك إلى تعصبه على ابن هانئ لحساب المتنبى ، وكذلك مثل الأديب الأندلسي الفتح بن خاقان (٦) الذي أعجب ببدايع ابن هانئ وباخترائه وتوليده ، ولم ينكر عليه (إلا كره وتجرده من الدين) . وغير ذلك .

-
- (١) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .
(٣) فيما ينقل عنه أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفس المرجع أعلاه والصفحة .
(٤) ابن خلكان : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .
(٥) نفسه : ص ٤٢٤ .
(٦) فيما يتقله عنه أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ، ص ٧ .

- الشعر في عصر الزيريين :

إذا كان أهم مظهر مادي لاحظناه على الحركة الشعرية في افريقية في العصر الفاطمي هو غزارة الانتاج الشعري ، فاننا نقول هنا أن ذلك لا يعتبر شيئاً أمام الانتاج الشعري الهائل الذي خلفه العصر الزيري في حدود ما يهمننا منه ، وهي الفترة الممتدة من اللحظة التي رحلت فيها الخلافة الفاطمية عام ٣٦٢ هـ الى مصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري . وفي الحق فانك تستطيع أن تقول ما شئت من كثافة الانتاج الشعري وغزارته . وإذا كان العصر الفاطمي قد عرف شاعراً واحداً ترك ديواناً شعرياً وهو ابن هانيء الأندلسي فان عصر الزيريين خلف العديد من الدواوين الشعرية القيمة . والواقع أننا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا بأن التراث الشعري الذي خلفه العصر الزيري - بمفهومه الزمني الذي أشرنا اليه - ، يفوق كل التراث الشعري الى خلفته العصور السابقة .

ولئن كان معظم الانتاج الشعري الذي خلفه العصر الفاطمي ، والذي قلنا انه أهم ما ميز الحركة الشعرية في العصر الفاطمي من العصور السابقة نقول بأن ذلك الانتاج قد جاء نتيجة للتحويل السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية كما أشرنا من قبل ، فان معظم الانتاج الشعري في العصر الزيري إنما جاء وليد النهضة الحضارية الشاملة التي عاشتها افريقية في العصر الزيري ، حسبما ألمحنا عند حديثنا الذي استهلينا به الدراسات الأدبية واللغوية . وبجانب ذلك لا يمكننا أن نغفل أن كثيراً من ذلك الانتاج الشعري جاء وليد نظرية الفن للفن ، وهو ذروة الرقي الأدبي كما نعتقد . على أنه أيا كان وصفه ، فهو أمر لا يمكن النظر اليه بمعزل عن النهضة الحضارية الشاملة التي بسطنا بعض أبعادها من قبل .

وهذا هذا وذاك ، فأننا لا ننسى أن كثيرا من جوانب ذلك الانتاج الشعري الغزير - ككل التيارات الشعرية زمانا ومكانا - ، جاء لتلبي مقتضيات ذاتية واجتماعية وسياسية وتاريخية ... الخ . ولعل أقرب مثل نسوقه هنا هو ما أحدثه سقوط القيروان على يد الهلالين في منتصف القرن الخامس الهجري من أصداء وانعكاسات أذكت شعر الرثاء وأجّجته ، وبرز نتيجة لذلك لونا باكيا ، جسده فطاحل شعراء هذا العصر من أمثال ابن رشيق (١) وابن شرف (٢) ، والحصري القدير (٣) ، وعبد الكريم الحلواني (٤) وغيرهم ، ذكرنا بأدب المراثي الذي عرفته الأندلس ، واشتهرت به وهو مراثي الدول والمدن .

وعلاوة على ذلك العطاء المعطاء من الانتاج الشعري ، فقد انفرد عصر الزهريين بازدهامه بالعشرات من الشعراء الذين كان الشعر فنههم الوحيد سواء كان ذلك بالنسبة لشعراء القيروان ، أو بالنسبة لشعراء بقية مدن وأقاليم افريقية . ويكفي للدلالة على ذلك ، أي على ازدهام البلاد بالعشرات من الأدباء

-
- (١) أنظر قصيدته الطويلة في رثاء القيروان عند الدباغ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨-٢٠ - عبد العزيز الميمتي السلفي الراجكوتي : المرجع السابق ص ٢٣-٨٠ .
- (٢) من قصائد في رثاء القيروان أنظر عبد العزيز الميمتي : نفس المرجع أعلاه ص ٩٨-١٠١ ، ١١٠-١١١ - محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : الحصري القيرواني ، ص ٣٨ .
- (٣) من مرثية الحصري أنظر ، محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٩-٤٠ ، ١٢٥-١٢٧ .
- (٤) أنظر مرثيته عند الدباغ : نفس المصدر السابق أعلاه ، ج ١ ، ص ١٦-١٧ - محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ص ٣٨ .

أن نشير الى أن ابن رشيق أديبنا المصنف ، لم يجد بُدّاً وهو يتأهب لتصنيف كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، من أن يترجم لأكثر من مائة شاعر (١) . ومع ذلك فإن ابن رشيق لم يستوعب كل شعراء العصر الزيري ، فهو لم يعرض مثلاً لبعض الشعراء الذين تناءت ديارهم عن عاصمة النور والعلم : القيروان كما أنه لم يلق بالاً لأولئك الذين جمعوا من بين ما جمعوا من حقول المعرفة القدرة على قول الشعر ونظمه ، كبعض الفقهاء (٢) والكتاب (٣) وغير ذلك تقريباً . ولكنه اقتصر على ذكر الشعراء الأدباء الخالص . بيد أن ثمة استدراك يقتضيه السياق هنا ، وهو التنبيه الى أننا لسنا نذهب الى القول بأن ذلك الانتاج الشعري الغزير الذي تحدثنا عنه آنفاً هو بالضرورة محصلة قطاع الشعراء الذين ضمهم كتاب ابن رشيق الأنموذج . فالواقع أن كثيراً من ذلك الانتاج كان لشعراء لم يحتو شعرهم كتاب ابن رشيق كشعر ابن رشيق نفسه ، وشعير على الحصري القيرواني الضريب وغيرهما .

(١) ابو القاسم كـرو : مقدمة كتاب شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، الذي جمعه زين العابدين السنوسي .
أنظر : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، المقدمة ، ص ٦

(٢) كالفقيه المالكي المشهور ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) ، الذي أوتي حظاً طيباً من الشاعرية ، وإن كان قد اقتصر على شعر الرثاء الذي قاله في رثاء أشهر فقهاء وقته . انظر تلك النصوص عند المالكي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ، وهي قصيدة طويلة في رثاء الفقيه ابن اللباد المتوفى عام ٣٣٣ هـ ، وص ٣٠٠ - ٣٠٥ ، وهي طويلة كذلك فسي رثاء الفقيه أبي الفضل المحسني المتوفى عام ٣٣٣ هـ .

ولقد تجاهل ابن رشيق الشاعر المشهور جداً ، وهو معاصره عبد الله ابن يحيى الشلقراطسي التنوزي الذي سنترجم له في موضعه ، وقد كان معاصراً له ولم يتوف إلا عام ٤٦٦ هـ ، أي بعد ابن رشيق بعشر سنوات فقط وحسب التنقيح لطسي أنه صاحب أشهر قصيدة مدحيه في الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) كالكاظم الشاعر عبد الله الكاتب (ت ٣٧٧ هـ) مثلاً الذي ذكرنا من قبل في ص ٦١٧ أنه كان بالاضافة الى الكتابة التي مهربها ، كان شاعراً بارعاً له أشعار جزلة .

وتسوقنا معرفتنا بنوعية الشعراء الذين احتواهم كتاب الأنموذج وكذلك الذين لم يضمهم الكتاب الى القول بأننا لا نستطيع أن نحضى فى تقسيم شعراء العصر الزيرى الى الاقسام الثلاثة التى قسمنا بها شعراء العصرين : الاغلبى والفاطمى حسبما عرفناه من قبل . فبالنسبة للأمراء الزيريين لم نتبين لهم أى محاولات شعرية . نعم ذكر بأن للمعز شعرا قليلا صرح ابن خلكان (١) على أنه لم يقف منه على شئ . ومع أننا عثرنا على مقطوعة من عدة أبيات نسبها أحد الباحثين (٢) له ، فان ذلك لا يجيز لنا أن ننظر اليه ، الا على أنه حالة منفردة لأبناء أسرته . أما ابنه تميم ، فليس جائزا لنا أن نتحدث عنه هنا ، لأنه تولى الامرة فى الفترة التى تخرج من نطاق اهتمامنا كما هو معروف (٣) تاريخها وفيما يتصل بالفقهاء الذين أوتوا شيئا من الشافعية ، فان قلة عددهم لا تحتاج منا أن نعتقد له قسما مستقلا ، كما فعلنا من قبل .

والدارس للحركة الشعرية فى افريقية فى عصر الزيريين لا يملك - وهو ما يمكن اعتباره أحد دلائل ازدهار الأدبى - ، الا أن يؤخذ وهو يرى أن الحركة الشعرية لا تعم عاصمة العلم والثقافة القيروان وحدها ، ولكنها تعم كثيرا من مدن وأقاليم افريقية ، بل ان بعض المدن النائية قد عرفت شعرا وشعراء ، وهى التى لا تكاد تذكر من بين مراكز الثقافة والعلوم عادة حسبما سنشير اليه فى موضعه .

وفيما يتعلق بالأغراض الشعرية التى احتوت ذلك التراث الشعرى الذى وصفناه بالغزارة . فالواقع أننا لسنا فى حاجة الى القول بأنه وبناء على

(١) وفيات الأعيان ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣ .

(٢) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٨٨ من أمراء الدولة الزيرية .

نعومة الحياة المتحضر وطراوتها التي عرفت بها افريقية في العصر الزيري ، فقد طرق شعراء ذلك العصر كل أغراض الشعر تقريبا . فقالوا في المديح وبرزوا وقالوا في الهجاء وأقذعوا وقالوا في النسيب وأكثروا بل وتهتك بعضهم . وقالوا في الخمريات ، وهو أمر انفرد به العصر الزيري دون بقية العصور الافريقية السابقة . فأسفوا وقالوا في الرثاء فأبكوا ، وقالوا في الوصف فأبدعوا في التشخيص وقالوا في المعاتبات والغزوا . بل ان بعضهم أوقف شعره في التخصص في غرض واحد لا يعدوه (١) لغيره ، وليس هذا فحسب ، بل ان بعضا منهم تخصص في معنى واحد من غرض واحد ، مثال ذلك الشاعر الذي أوقف شعره على وصف الحمام ، حتى غلبت صناعة الشعر ، الا فيه وحده (٢) .

ويخيل اليك أن الحياة الناعمة المليئة بالأجواء المشبعة بالأدب ومنفوانه ، قد دفعت بعض شعراء هذا العصر الى أن يتظارفوا ، أو لنقل يصطنعوا الظرف في شعرهم وقريضهم . والا فبم نفسر لجوء بعضهم الى صبغ شعره بالحديث عن الابل والقفار (٣) في هذا العصر الذي رق فيه الشعر وتهذب ، ليس في افريقية ، بل وفي الدولة الاسلامية ؟ وكيف يتسنى لنا أن نفسر أن مجيء شعر أحدهم اعرابي (٤) يدوى ؟ أو أن يأتي شعر شاعر ثان جاهلي المرمى قفري (٥) الأسلوب ؟ أو أن يذهب ثالث الى مجازاة بعض المشاركة في الاحتيال والكذب اللغوي ، واستبدال لفظة بلفظة من مخترنائه

-
- (١) كالشاعر أبي طالب الولاي حسن بن محمد الجهنى الذي فقد هدايا كبيرا من أفراد عائلته في حادثة غرق في البحر . فجاء شعره كله في الرثاء .
أنظر عبد الرحمن باغى : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٠١ ، ٢٢٦ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار) .
- (٢) كالشاعر حسين التميمي المعروف بعنصرة لشدة سواده .
أنظر عبد الرحمن باغى : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٠١ ، ٢١٩ . (نقلا عن ابن فضل الله في مسالك الابصار)
- (٣) كالشاعر القفصى الكفيف . أنظر عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٤٥١ .
- (٤) كعبد الواحد بن فتوح الكناسي : راجع عبد الرحمن باغى : نفس المرجع أعلاه والصفحة .
- (٥) كالشاعر عبد الله بن محمد ، المعروف بابن البغندادى . أنظر عبد الرحمن باغى : نفسه ، ص ٢١٨-٢١٩ .

اللغوى ، حتى اذا سئل أحال الى كتاب لم يسمع به (١) قط ؟ أو أن يسلك رابع مسالك شعراء المشرق في نظم الأقوال والحكايات (٢) ... الخ . الحق أننا لا نعزو ذلك الا الى الظرف الأدبي الذي كسى الحياة الأدبية في العصر الزيرى ، مع تسليمنا بالرغبة الدفينة ، والظاهرة الملحاحة في اقتفاء أثر المشرق والمشاركة .

وانا نظرنا الى أولئك الشعراء وأشعارهم والأغراض الشعرية التي طرعوها ، سهل علينا أن ندرك شكل القريض الظاهري ، أو شكل أدوات البناء الشعري ، فهو لا بد أن يكون في غالبه انعكاسا لطبيعة الحياة المتحضرة التي كان يحياها الناس هناك . هذا أولا ، ثم توافقا وتماثلا لما كان عليه البناء الشعري آخر في المشرق من اغداق في البديع والصنعة ، ومن شغف باستخدام الكتابة والتشبيه والاستعارة ، الى الولع بالاشارات ولطاقة التركيب ، على أنهم في الحق لم يكونوا سواء في ذلك .

وأخيرا ، فنظراً لأن هذا العصر قد ازدحم كما قلنا بعشرات الشعراء فاننا سنكتفي بالاشارة الى أولئك الذين كان لهم دور في الخصوبة الشعرية التي امتاز بها هذا العصر انتاجا وجودة سبك ، وكذلك الى أولئك الذين مرفتهم بعض مدن وأقاليم افريقية وذلك لتوضيح الحياة العلمية عامة والأدبية خاصة في عصر الزيريين هذا .

(١) كالشاعر أبي بكر متيق بن عبد العزيز الذحجي .. أنظر عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ١٠٠-١٠١ ، ١٨٠٠ .

(٢) كأبي محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاض ميته . أنظر عبد الرحمن باغى : نفسه ، ص ٩٨-٩٩ ، ٢٠٩ ، ٤٥١ .

وكيفما كان الأمر فمن أوائل الشعراء الذين أوتوا قدرا كبيرا من تلك الخصوبة الشعرية التي تحدثنا عنها ، الأديب الكاتب الناقد الشاعر عبد الكريم النهشلي القيرواني (ت ٤٠ هـ) الذي كنا قد ترجمنا له من قبل . وفي الحق ، فإن النهشلي كان إلى جانب مرافقة في تلك الجوانب التي عرضنا لها من قبل ، شاعرا مرموقا . بل إن الشعر كان صناعته الفنية الرئيسية تقريبا (١) . ومما يؤكد على علو مكانته الشعرية أن ابن رشيقي (٢) الشاعر الناقد مؤرخ الأدب ، قد أطلق عليه لقب النهشلي الشاعر . ولقد روى ابن رشيقي (٣) في أنموذجه - دونما انكار أو دفع - ، أن النهشلي سئل ذات مرة عن أشعر شعراء القيروان في عصره ، فبدأ بنفسه ، ثم تلى بالأديب الشاعر الحسين بن محمد التميمي الناهرتسي ، المعروف بابن الربيب (ت ٢٠ هـ) الذي سبق لنا أن ترجمنا له من قبل ، وسنعرض له بعد قليل أيضا .

وعندما صنف ابن رشيقي كتابه الأنموذج ، ورتب شعراءه ، كان ترتيبه بالصورة التي ظهر عليها ترتيبا مقصودا (٤) ، هدف من خلاله الإشارة إلى شعراء القيروان حسب مكانتهم الشعرية . ولذلك فقد استهل كتابه بعبد الكريم النهشلي (٥) ويرى المنجى (٦) الكعبي ، الذي ذكرنا من قبل أنه تتبع ترجمة النهشلي وتقصاها في مظانها المختلفة ، أنه لا يستبعد أن يكون له ديوان شعري ، وهو الشاعر المكر . ومع أننا لسنا متحققين من وجود ذلك الديوان ، إلا أن الشيء

-
- (١) المنجى الكعبي : النهشلي القيرواني ، ص ٦٤ .
 - (٢) فيما ينقله عنه المنجى الكعبي : نفس المرجع أولاً ، والصفحة .
 - (٣) فيما ينقله عنه المنجى الكعبي : نفسه ، ص ٦٥ .
 - (٤) كما لاحظ ذلك المنجى الكعبي : نفسه ، ص ٧٠ ، فيما ينقله ابن فضل الله العمري الذي ينقله عن ابن رشيقي مباشرة .
 - (٥) المنجى الكعبي : النهشلي القيرواني ، نفسه ص ٧٠ - ٧١ .
 - (٦) النهشلي القيرواني : ص ٦٨ - ٦٩ .

المؤكد ، أنه قد وردت له مقطوعات شعرية تجاوزت ^(١) الستة عشر مقطوعة مختلفة الأغراض من غزل ومديح ، ورثاء ، تدل كلها على شاعريته المتمكنة .

والنهلشلى من الشعراء النقاد ، الذين أثرت آراؤهم الشعرية فى أبناء عصره من الشعراء ، كابن رشيق ^(٢) مثلا . ولقد اعتبره عبد الرحمن باغى ^(٣) ، الشيخ الثانى الذى أثر فى الحياة الفكرية الصهبجية والأدبية لابن رشيق ، ووضحت شدة تأثير ابن رشيق بالنهلشلى وآرائه النقدية الشعرية فى كتابه العمدة ^(٤) .

ومن غدى الحركة الشعرية الأفريقية فى العصر الزيرى بجيد شعره ، وغزير عطائه ، العالم اللغوى النحوى الأديب الناقد الشاعر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز القيروانى (ت ٢١٤ هـ) ، حسبما عرفنا عند حديثنا عن النشر الفنى والتأليف من قبل . والقزاز نموذج للأديب الشامل ، فهو لم يكن لغويا ونحويا ولا أدبيا ناثرا ، ولا ناقدا شاعرا فحسب ، بل كان كل ذلك فى شخص واحد . ولقد وصف ابن رشيق ^(٥) مكانته الشعرية بأنه كان له شعر جيد مطبوع مصنوع . ولا يستبعد المنجى الكعبى ^(٦) الذى تقصى حياة وترجمة القزاز القيروانى أن يكون له ، وهو الأديب المرفه الشاعرية ديوان شعرى .

(١) كما تتبعها المنجى الكعبى : المرجع السابق ، ص ٧٠-١٢٥ .

(٢) أنظر عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ١٤٠-١٤٦ .

(٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٤٠ .

(٤) عبد الرحمن باغى : نفس المرجع السابق حاشية رقم ٣ ص ١٤١ ، وحواشى ص ١٤٢ ، وحواشى ص ١٤٣-١٤٤ ، حيث الإشارة الى الصفحات التى وردت فى كتاب العمدة ، الجزء الاول ، التى تدل على شدة تأثير ابن رشيق بالنهلشلى القيروانى .

(٥) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١٢٥ .

(٦) القزاز القيروانى ، ص ١٠٠-١٠٣ .

وعلى كل حال فقد أورد المنجى الكعبي (١) له عدد ١ من القصائد والمقطوعات الجميلة .

ويأتى الأديب الناثر الناقد الشاعر ابراهيم الحصرى (ت ١٣٤١ هـ) ، كواحد من صفوة شعراء افريقية فى العصر الزيرى آنذاك . ولقد أثنى ابن رشيق (٢) على شاعريته ، ووصفها وصفا صائبا فقال عنه وعنهما : (كان شاعرا نسابا عالما بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، متتبعا لآثاره . وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء) . أما ابن بسام (٣) فقد قال : (له أشعار أندى من نسيم الأسفار ، وأذكى من شميم الأزهار) .

ولا يراهم الحصرى ديوان شعر ، يعرف بديوان الحصرى كما يقول ابن خلكان (٤) ، الا أنه يعتبر فى عداد المفقود من ديوان المغاربة كما يعتقد أبو القاسم كروو عبد الله شريط (٥) . على أن النتف الذى أورده ابن رشيق ، ومن أخذ عنه ، يدل بحق على قوة الشاعرية وأصالتها عند ابراهيم الحصرى .

ومن الشعراء الذين زهى بهم العصر الزيرى وقتذاك الشاعر الأديب محمد بن ابراهيم التميمي (٦) الكموني (ت ١٤١٤ هـ) . وعده ابن رشيق شاعرا (٧)

-
- (١) القزاز القيروانى ، ص ١٠٠-١٠٣
 - (٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١٨-١٩ .
 - (٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثانى ، ج ٨ ، ص ٥٨٤-٥٨٥ .
 - (٤) وفيات الأفيان ، المجلد الأول ، ص ٥٤ .
 - (٥) شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ٢٨١ .
 - (٦) ترجمته موجودة عند : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١٠١-١٠٢ ، وهى ترجمة مختلطة مضطربة جدا - الصغدى : المصدر السابق الجزء الثانى ، ص ٤-٥ - عبد الرحمن ياغى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ (نقلا عن ابن فضل الله العمرى والصغدى) - المنجى الكعبي : القزاز القيروانى : ص ٤٢ وهو الوحيد الذى أشار الى سنة وفاته كما أثبتناها فى المتن .
 - (٧) فيما ينقله عنه الصغدى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٥ .

فصيحا لفظاً ، حسن التقسيم ، جزل الشعر ، جيد الترسيم ، ظاهر البلاغة من الشعراء العالمين بأسرار الكلام ، اذا ركب معنى أجاده . بيد أنه على الرغم من ذلك لم يمدنا من شعره الا بمنتف ضئيل .

ومن أقطاب الحركة الشعرية في افريقية الذين وردتنا الاشارات بهم ويشعرهم دون انتاجهم ، الأديب النادر واللغوى النحوى والقاضى الشاعر الحسن بن محمد التميمى التاهرتي المعروف بابن الربيب (ت ٤٢٠ هـ) . وابن الربيب عرضنا لذكره من قبل ونحن نتحدث عن النثر الفنى ، كما أننا عرفنا ونحن نعرض للشاعر النهشلى القيروانى ، أن النهشلى وضع ابن الربيب فى المرتبة الثانية من الشاعرية بعده . وعلى أية حال فان ابن رشيق (١) الذى ذكر ذلك يصف ابن الربيب بأنه قد بلغ نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب ، وأنه كان يتكلفه بعض التكليف .

ويعتبر ابراهيم الرقيق القيروانى (ت ٤٢٥ هـ) الذى أشرنا الى دوره فى النثر الفنى والتأليف فى موضعه من الشعراء المرموقين فى افريقية آنذاك ويتميز شعر الرقيق ، بأنه محكم لطيف الطبع ، قوى ، كما يرى ابن رشيق (٢) . أما حسن حسنى عبد الوهاب (٣) ، فيقول عن شعره أنه ذو طلاوة وحلاوة ورونق . ومع أن ابن رشيق (٤) يصف الرقيق بقلّة الشعر ، الا أنه يورد له مقطوعات عديدة فى أغراض شتى ، كالمديح والنسيب ، والحنين ، تضعه دون ريب فى مرتبة عليّة من الشعر .

(١) فيما ينقله عن ابن فضل الله العنبرى فى المسالك: أنظر عبد الرحمن بياغى:

المرجع السابق ، ص ١٦٨-١٦٩

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨

(٣) الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٤٠

(٤) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨-٣٤

وثمة شاعر افريقى مبرز ، كان له ولأشعاره دوى وصيت نائع آنذاك
ألا وهو الأديب الكاتب الشاعر الرياضى أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى
التاهرتى أصلاً ، القيروانى وفادة وسكنى ، والمتوفى عام ٤٢٥ هـ . وأبو الحسن
على ابن أبى الرجال ، رأيناه يضطلع برئاسة ديوان الانشاء من قبل ، ورأينا
كثيراً من المؤرخين يعززون اليه السبب فى عدول المعز بن باديس عن المذهب
الشيعى حسبما أشرنا الى ذلك من قبل . ويرى ابن رشيق (١) لأبى الحسن
على بن أبى الرجال علماً طائلاً وأدباً كاملاً . وقد أورد له فى كتابه العمدة (٢)
عدة مقطوعات شعرية أطنب ابن رشيق فى وصف ما تتحلى به من شاعرية جيدة
السبك .

ومن شعراء العصر الزيرى المتأخرين ، ممن كانت لهم شهرة عريضة
فى النظم ، الأديب الشاعر أبو العباس أحمد بن أبى القاسم بن أبى الليث
اللخمي المعروف بابن حديد (٣) (ت. ٤٥٥ هـ) (٤) . وابن حديد من معاصرى
ابن رشيق وأنداده . وقد وصف ابن رشيق شاعريته بقوله : (شاعر فكه الشعر ،
رائق التشبيه مولع به ، قليل التكلف ، قوى المنهج والظرف ، ورفض المدح والهجاء
ويخبر التصنيع خبراً جيداً ولا يركبه الا فى الاماكن التى تصلح له كما شرط حذاق
المتقدمين) (٥)

-
- (١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ، ص ١٧ .
(٢) أنظر الجزء الثانى ، الصفحات ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، وغيرها
(٣) ترجمته موجودة عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١١ -
١٥ - الصفى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٥ - عبد الرحمن
بإغى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٩ (نقلاً عن ابن فضل الله العمري فى
مسالك الأبصار) .
(٤) فيما يعتقده حسن حسنى عبد الوهاب . أنظر عبد الرحمن بإغى : نفس
المرجع السابق أعلاه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٢٠٧ .
(٥) ابن رشيق : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ١١

وتتجلى فى مختارات ابن رشيق لشعراء ابن حديد ميله الى الصنعة
الانيقة الحضريّة . تبعد عن سذاجة الطبع ، وبساطة التعبير . (١)

على أن أشهر ثلاثة شعراء أبرزهم هذا العصر ، وتميزوا بالشاعريّة
التي تضعهم فى مصاف شعراء العربيّة المبرزين فى كل العصور ، كانوا بلا مراء ،
ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) ، وابن شرف (ت ٤٦٠هـ) ، والحصرى القيروانى -
الضير (ت ٤٨٨هـ) .

ولنبداً بابن رشيق باعتباره أول الثلاثة وفاة . وابن رشيق فى الحق
تردد اسمه على مسامعنا كثيراً فيما سبق من فرض للحركة الأدبية فى افريقية فى
العصر الزيرى ، كما أننا قمنا بالاشارة الى الترجمات الواسعات التي حظي بها من
قبل المؤرخين قدامى ومحدثين . وفوق هذا ، فقد تلمسنا من كتب اسهاماته
فى مجال التكليف الأدبية والنقدية . ولقد خرجنا من كل ذلك بانطباع هو أن
ابن رشيق يعد أنموذجاً صادقاً للأديب الشامل المتعدد المواهب . ولا نستطيع
حقيقة أن نقول بأنه فى هذا الجانب من الحركة الأدبية أقدر منه فى الجانب
الآخر ، فقد كان تميزه فى كل مجالات الأدب متساوياً متماثلاً .

ولقد سبق لنا أن عرفنا أنه كان من أشهر رموز الأدب فى بلاط المعز
بن باديس ، الذى استمر يعتقد صدارته حتى سقوط القيروان على يد الهلاليين
فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، حيث التحق بعد ذلك بصقلية ، وظل فيها
الى أن وافته المنية عام ٤٥٦هـ على الأرجح .

وطيلة مدة اقامته فى بلاط المعز ، كان ينظم القصائد السائرات فى
شقى الأغراض ، تجاوباً مع الاحداث والمواقف وانفعالا بها ، وكان مع ذلك

(١) عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

لا يفتأ ينظم أعذب الشعر وأروعه ، متى ما جمعت الأيام والأزمان مع أترابه—
ولَدَّ انتَه من شعراء القيروان . وبالجملَة ، فإننا نستطيع أن نقول : انه قد
ملأ البلاد شعرا عذبا ، رائقا ، كما ملأته مؤلفاته وآراؤه النقدية .

ولقد تصدى نفر من المحدثين ، وعلى رأسهم عبد العزيز الميمنى
السلفى الراجكوتى فى كتاب ، جمع فيه أكثر تراثه الشعرى ، هو وزميله—
ابن شرف ، وأطلق عليه : النتف من شعر ابن رشيق (١) ، وزميله ابن شرف ،
القيروانيين ، كما مر بنا سابقا . وكذلك فعل عبد الرحمن باغى ، الذى كتب
كتابه : حياة القيروان وموقف ابن رشيف منها ، سالف الذكر . غير أنهما لم
يقدرا (٢) على جمع كل شعر ابن رشيق المتناثر فى بطون كتب الأدب ، ولا سيما
كتاب ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .

أما شاعريته ، فلسنا نجد بعد قول ابن بسام (٣) عنه ، أنه (ان نظم
طاف الأدب واستلم) ، وقوله كذلك عن شعره (وأما الشعر ، فانه أنسى أهله
وملك منه سَخْتَهُ وَجَزَلَهُ) ، ولا بعد قول الأديب البغدادى الاصل الأندلسى
مقاما ووفاة أبو على القالى (٤) عن ابن رشيق وشعره (شعاع القمر ، وحديث
السمر ، ومعجزة الخبر والخبر ، فات الأواخر والأوائل ، وأسكت المناظر والمماثل ،
ولا بعد قول ابن خلدون (٥) الذى قطع به قول كل خطيب ، من أنه أشعر شعراء
عصره ، نقول لا نجد تقريرا جمع فأوفى مثل هذا . ونختتم حديثنا عن شعره

-
- (١) أنظر الصفحات من ٨٧-٤ ، حيث شعر ابن رشيق .
(٢) أنظر الحاشية رقم ١ ، ص ٥٩٧ من المجلد الثانى ، الجزء الثامن ، من
كتاب ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة التى كتبها المحقق ،
احسان عباس .
(٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثانى ، الجزء الثامن ، ص ٥٩٧-٥٩٩ .
(٤) فيما ينقله عنه ابن بسام : نفس المصد رألاء والمجلد والجزء ، ص ٥٩٧-٥٩٨ .
(٥) فيما ينقله عنه أبو القاسم كروو عبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق
والمغرب ، ص ٣١٤ .

يقول اليميني الراجكوتى (١) فى تقديمه لشعر ابن رشيق ما نصه : (هذه نتيف من شعر ابن رشيق القيروانى ، أبى على الحسن مثنوته فى مطاوى ود واويسن الأدب ود فاتره ، اقتطفنا من أزاهرها ، وانتقينا من أخابرها ، لتكون نموذجاً من شعره ، ينوه بذكره ، ويميزه من أبناء عصره ، ويطيب من نشره) .

أما الشاعر الثانى الأشهر الذى ازدان به جيد الشعر الإفريقى فى العصر الزيرى ، فقد كان محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف القيروانى ، الذى غلب عليه اسم ابن شرف . وابن شرف لا مع اسمه اسمنا فيما سبق من حديث من بعض أوجه الحركة الأدبية . وقد تتبعنا ترجمته التى حظى بها فى مظانها المختلفة ، وذكرنا أنه كان ثانى اثنين اشتهر بهما بلطامير المعز بن باديس ، وقلنا فى حينه أنه اضطر الى مفارقة القيروان بعد سقوطها والاتجاه الى صقلية ، ثم الأندلس حيث شهدته بلطامير ملوك الطوائف بها ، وظل هناك حتى توفى عام ٤٦٠ هـ بمدينة اشبيلية (٢) .

وابن شرف لا نجد مندوحة فى وصفه بالأديب الشامل ، فهو ناثر ، وناقد ، ومؤرخ للأدب ويكفى أن نشير الى أنه من أوائل من سبق فى تحرير المقامات (٣) من المغاربة ، وهو مع ذلك شاعر مصقع . ولقد ترك تراثاً شعرياً ضخماً احتوى معظمه كتاب (النتف) (٤) لعبد العزيز السلفى اليميني ، حسبما أسلفنا .

أما من شاعريته ومكانته العالية فيها ، فقد قيل عنها الكثير . فهذا ابن بسام (٥) ما فتى يشيد بها ويمتدحها كلما ورد ذكر لابن شرف . وهذا الصفدى (٦)

(١) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، ص ٣ .

(٢) أنظر قبل ، ص ٦٤٠

(٣) أنظر ما قلناه من ذلك قبل ، ص ٦٤٢

(٤) أنظر الصفحات من ٨٨-١٢١ (حيث شعر ابن شرف حسب تقسيم اليميني .

(٥) الذخيرة ،

(٦) الوافى بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٩٧ .

يعتبره أحد فحول شعراء المغرب . ومن المحدثين نجد أبو القاسم كرو وعبدالله شريط^(١) يقولان عنه ما نصه : (يعد من الشعراء المجيدين في المغرب لسلاسة معانيه ، وقوة تركيبه ودقة وصفه ، ووضوح أفكاره) .

والشاعر الأشهر الثالث والأخير الذي أنجبته افريقية في العصر الزييري هو أبو الحسن علي بن عبد الغنى الحصرى الفهرى القيروانى الضرير^(٢) (ت ٤٨٨ هـ) والحصرى القيروانى الضرير ، سبق أن عرفناه عالما من علماء القراءات المتأخرين ، وقلنا وقتها ان مكانته العالية في علوم القرآن لا تجيز لنا أن نغفلها بحجة أنه عاش فترة من الزمن بعد الفترة التي حددناها رحابا زمنيا للرسالة ، وهى منتصف القرن الخامس الهجرى .

وإذا كنا قد أجزنا ذلك لأنفسنا ، أفليس من الأوجب أن نجيزه هنا في التنويه به كشاعر ، وهو الذى خلف أضخم تراث شعري عرفته افريقية لشاعر طيلة الفترة موضع الاهتمام ، متأهيك من أنه هو صاحب القصيدة التى طيفت شهرتها الآفاق حتى الآن ، وهى قصيدة (ياليل الصب) ؟ .

(١) شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ٣٢٥ .

(٢) لقد كفانا محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى عنا البحث عن الترجمات الواسعات التى حظى بها الحصرى القيروانى الضرير وشعره . من قبل المؤرخين القدامى والمحدثين ، وذلك بتأليفهما لكتاب ضخيم تتبعنا فيه كل ما جاء من الحصرى ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بحياته وسيرته منذ ولد عام ٤٢٠ هـ حتى توفي عام ٤٨٨ هـ ، أو بالنسبة لشعره الغزير والاهتمام الواسع الذى لقيه من قبل الشعراء القدامى والمحدثين وقد أطلقا على ذلك الكتاب : أبو الحسن الحصرى القيروانى .

وفي الحق فان شهرة الحصرى القيروانى الضرب ، قد قامت لا على أساس مكانته فى علم القراءات - على أهميتها - ولا على مكانته فى علوم العربية^(١) - رغم تميزه فيها - ، ولكن على مكانته الشعرية التى شهد له بها الأدينى والأبعد .

وعلى أية حال ، فان الحصرى قد ولد فى عام ٤٢٠ هـ ، كما يرى حسن حسنى عبد الوهاب ويوافق عليه محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى^(٢) ، وشب وترعرع فى تلك البيئة العلمية التى عرضنا لمعظم أبعادها . على أنه لم يكن له صوت مسموع خلال المدة التى ظهرت فيها مخائل الشاعرية عنده ، وحتى اضطرابه الى مغادرة القيروان بعد سقوطها عام ٤٤٩ هـ . ولعله كان خافتا وقتها ، أمام معالقة الشعر فى ذلك الوقت . ولقد نزل المغرب الاقصى وبالذات مدينة سيطة حيث ظل فيها مدة مديدة من الزمن ، ثم غادرها عام ٤٦٢ هـ الى الأندلس ، حيث تنقل فى أرجائها ، وخلق فيها جوا من النشاط الأدبى ، ثم عاد الى المغرب الأقصى حيث توفى عام ٤٨٨ هـ^(٣)

وأيا ما كان رأى بشأن عدم وضوح انتاجه الشعرى فى الشطر الأول من عمره ، الذى قضاه فى بلده القيروان^(٤) ، فان الحصرى قد ملأ الشطر الثانى من عمره شعرا غزيرا رائقا جيد السبك متينة ، وهو من الشهرة والذيع كما يقول محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى بحيث لا يحتاج الى تعريف وتقدير .

-
- (١) أنظر محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ٣٤-٣٥ .
 (٢) أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ص ٢٣-٢٤ .
 (٣) محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٩ - ٨٢ (بتوسع واستفاضة)
 (٤) أنظر تحليل محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى لذلك : المرجع السابق ، ص ٢٧-٣١ .

ومن مؤلفاته الشعرية التي تركها : ديوان المستحسن (١) من الأشعار . وقد أهداه للمعتمد بن عباد ، أحد ملوك الطوائف في الأندلس وهو عبارة عن مدائح فيه وفي أسرته من بني عباد ، والقصيدة الرائية (٢) ، وهي منظومة في قراءة نافع ، وتحتوي على ٢١٢ بيتا ، وقد أشرنا إليها في دراسات علوم القرآن ، وديوان المعشرات (٣) ، وهو ديوان في الشعر الغزلي ، نظمته على حروف المعجم ، وهو عبارة عن قصائد كل قصيدة تتكون من عشرة أبيات يبدأ كل بيت منها ، وينتهي بنفس حرف المعجم . ويتكون هذا الديوان من ٢٩٠ بيتا . وقد حاول الحصري في هذا اللون من الشعر أن يستعرض مهارته الأديبية الفائقة ، ولا يستبعد محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى (٤) أن يكون الحصري صاحب السبق في هذه الطريقة من الشعر . ومن مؤلفاته الشعرية أيضا مجموعة قصائد (٥) قالها في هجاء خصومه من الأندلسيين ، وكذلك قصائد مدح أخرى قالها في أصدقائه . ثم ديوان اقتراح القريح (٦) واجترح الجريح وهو ديوان شعر كله في الرثاء ، نظمته الحصري في رثاء أحد أولاده الاثريين عنده ، وقد رتبته على حروف المعجم ، ويقع في نحو ألفين وستمئة بيت . وبهذا الديوان ويقصيدة ياليل الصب قامت شهرة الحصري الذائعة حتى الوقت الحاضر.

-
- (١) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع السابق ، ص ٦٨ ، ١٠٣ .
- (٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٧-٦٨ .
- (٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٧٠ ، ٢٠٥-٢٠٦ .
- ثم الديوان ص ٢١٢-٢٤٠ .
- (٤) نفس المرجع ، ص ٢٠٦ .
- (٥) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ١٠٣ .
- (٦) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٧٠ ، ٢٤٣-٢٧٢ .
- التحليل ، ثم الديوان ، ص ٢٧٣-٤٥٤ . ثم ذيل الديوان ، ص ٤٥٥-٤٩٠ .

وأخيرا ، فان أشهر مؤلفات الحصرى الشعرية على الإطلاق ، كانت بدون شك قصيدة : يا ليل الصب ، التى طارت شهرتها فى الآفاق كما أسلفنا . وقصيدة : يا ليل الصب ، قصيدة أنشأها الحصرى فى مدح الأمير محمد بن طاهر ملك مدينة مرسية ، وهى احدى ممالك الطوائف التى عرفتها الأندلس فى القرن الخامس الهجرى . وتقع القصيدة فى ٩٩ بيتا (١) ، ولسنا فى حاجة الى القول بأن الناس قد شغلوا بهذه القصيدة منذ أن قالها صاحبها الحصرى حتى الوقت الحاضر . ولقد دفعت روعتها الأدبية وهذبتها ورقتها الكثير من الشعراء المشاركة والمغاربة القدامى والمحدثين ، الى معارضتها بعشرات القصائد . وقد تتبع محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى (٢) ، كل تلك المعارضات التى عورضت بها قصيدة يا ليل الصب ، كما أنهط تتبعها (٣) ما شتهر من الألمان التى صاغها بعض قدامى الملحنين والمحدثين ، فأشارا الى ذلك فى موضعه .

وبعد هذا ، فليس غريبا ان يثنى عليه وعلى مكانته الشعرية نقاد الأدب ومؤرخوه وغيرهم . فيقول ابن بسام (٤) عنه أنه كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب يومئذ بأفق السقوق ، ومعمر الطريق ، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأندلس المقيم) . ويقول الحميدى (٥) صاحب كتاب جذوة المقتبس عنه (شاعر أديب ، رخم الشعر ، حديد الهجر ... وشعره كثير ، وأدبه موفور) .

-
- (١) محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى : المرجع السابق ، ص ١٩٠-١٤٠
 (٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٠-٢٠١ ، ٢٤٤-٤٩٥ (حيث فيها معارضات القدامى والمحدثين) .
 (٣) نفس المرجع ، ص ١٣٩ مع الحواشى .
 (٤) فيما ينقله عنه محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى ، نفسه ، ص ٦٤ .
 (٥) فيما ينقله عنه محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٤ .

أما وقد تسنى لنا التعرف على أبرز شعراء القيروان في العصر الزيـري فإن الحاجة تقتضى أن نتعرف على حالة الشعر والشعراء في بقية مدن وأقاليم افريقية في ذلك العصر أيضا ، فالواقع أن كثيرا من مدن وأقاليم افريقية كانت موئلا لنهضة شعرية تتجاوب في أرجائها ، ولا تقل بها! وتألقا عن النهضة الشعرية التي كانت تتفيا مدينة القيروان أريجها وعبقها .

فمدينة تونس مثلا ظهر فيها ان ذاك نفر من الشعراء المرموقين ، حُق لها أن تزهب بهم . نذكر منهم ، الحسن بن عبد العزيز بن جربون التونسي^(١)، (كان حياة ٤٠٩ هـ) . ولقد ذكره ابن رشيق^(٢) في أنموذجه ، فقال منـه (شاعر مشهور ، مباحث ، د راس ، يعرف مستعمل اللغة وتركيب ألفاظ الشعر ، وينحونحوأبي القاسم بن هاني في الاجلاب والتهويل ، وان قصر من ذلك فـى المعنى وحصرها) . ويرى ابن رشيق^(٣) أن ابن جربون كان كثيرا ما يميل الى ذكر الخيل وعدة الحرب في شعره (تقوية للكلام وتنغيماً للمستمع) ؛ على أنه يرى أيضا أنه لم يجد له (معنى إنفرد به ، ولا زاد زيادة توجه له) ^(٤) .

ومن شعراء مدينة تونس كذلك ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن خليفة التونسي المعروف بالصريري^(٥) (ت ١٨٤ هـ) ^(٦) . وأهم ما يميز شعره الهجاء

(١) ترجمته موجودة باقتضاب عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٩-٨٠ . واسمه هنا الحسن بن جربون لا جربون - عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ص ٢٢٠ (نقلا عن ابن فضل الله العمري) ، وعنده اسمه الحسن بن جربون .

ص ٢٩ .

(٢) فيما ينقله عبد الرحمن باغى : نفس المرجع أعلاه والصفحة عن ابن فضل الله العمري الذي ينقل مباشرة عن ابن رشيق

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٠ .

(٤) ترجم له ترجمة لا بأس بها ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ١١١-١١٥ -

(٥) الصفدى : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٦١-٦٣ - عبد الرحمن باغى :

نفس المرجع السابق ، ص ٨٢ (عن الصفدى وغيره) .

(٦) كما أشار الصفدى : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٦١ .

المقدع ، غير أن له مقطوعات في الغزل تدل رغم انحراف مضامينها على شاعريته جيدة (١) . وهناك شاعر تونسي ثالث كان كثيرا ما يؤم مدينة القيروان ويجتمع مع شعرائها ، وفيهم ابن رشيق وغيره ، وهو عبد الواحد بن فتوح الكتامي الوراق (٢) .

ولم تكن مدينة المهدية بمنأى عن النشاطات الأدبية والشعرية منها على وجه الخصوص . فلقد ذكر بأنه برز فيها عدد من الشعراء في العصر الزيري ، نذكر منهم معد بن حسين بن جبارة الفارسي (٣) أحد الشعراء المشهورين في افريقية وقتذاك . وهو أحد الشعراء الذين طوقوا بالبلدان (وسلك طريق الشعراء في طي البلدان وقصد الاجواد (٤)) . ولمعد بن حسين بن جبارة شعر (يستغرق البناء ويستعجز الشعراء) (٥) . وبجانب ذلك يتميز شعره بأنه كثيرا منه بلغ الغاية في الحلاوة والرشاقة .

ومن شعراء مدينة المهدية كذلك عبد الله بن ابراهيم بن المثنى الطوسي ، المعروف بابن المؤدب (٦) (ت ٤١٤ هـ) . ويقول الكشي (٧) عنه أنه كان شاعرا مذكورا مشهورا ، قليل الشعر) . ومنهم أيضا علي بن عبد الكريم المعروف بابن غالب (وقد نما في الرجز نموا عجيبا) (٨) .

-
- (١) ابن رشيق : المصدر السابق ، ص ١١١-١١٥ - الصفدي بالمصدر السابق ، والجزء ، ص ٦١-٦٣ .
- (٢) عبد الرحمن باغی : المرجع السابق ، ص ٢١٢-٤٥١
- (٣) عبد الرحمن باغی : المرجع السابق ، ص ١٦٠-١٦١ (من ابن فضل الله العمري)
- (٤) عبد الرحمن باغی : نفس المرجع أعلاه والصفحة (من ابن فضل الله العمري) .
- (٥) عبد الرحمن باغی : نفسه ، ص ١٦١ (من ابن فضل الله العمري) .
- (٦) توجد له ترجمة طيبة عند الكشي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٣١-٤٣٣ -
- (٧) عبد الرحمن باغی : نفسه ، ص ١٦٣-١٦٤ (من الكشي وغيره) .
- (٨) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٣١ .
- (٩) عبد الرحمن باغی : نفسه ، ص ٢٢٤ (نقلا عن ابن فضل الله العمري)

ونافست مدينة سوسة غيرها من المدن الافريقية ، فأهدت البلاد نخبة من الشعراء المجيدين ، نشير الى واحد منهم برز واشتهر آنذاك ، وهو محمد بن عبدون السوسى ، المشهور بالوراق السوسى (١) ، فلقد كان شاعرا بليغا ، وأثنى عليه ابن رشيق (٢) ، فقال (شاعر بليغ وطىء الكلام ، كلف بعدويدة اللفظ ، والتوصل الى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش) . والوراق السوسى أحد الذين غادروا افريقية آنذاك ، وتوجه الى جزيرة صقلية عام ٣٩٣ هـ ، حيث اتصل بأميرها يوسف بن عبد الله بن محمد بن حسين الكلبى . ولقد حفظ عنه شعر رائق بديع فى غرض الحنين ، قاله متشوقا الى مدينته سوسة (٣) . وثمة شاعر سوسى آخر ، أثنى عليه ابن رشيق ، وهو على بن أحمد الصفار السوسى ، الذى كان متسعا القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة (٤) .

واشتهر من مدينة باجة ، سواء كانت باجة الزيت ، أو باجة القمح ، نفر من الشعراء مثل محمد بن أبى مفتوح المغربى (٥) الشاعر ، أحد أبناء مدينة باجة الزيت ، وقد غلب على شعره الهجاء البديهى . ومثل محمد بن خلوف أو مخلوف بن مشرق السلمى (٦) ، أو السلمى . وقد أشاد ابن رشيق (٧) بشعره فقال :

-
- (١) ترجم له ترجمة حسنة الصفدى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٥-٢٠٧ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٨٢-٨٣ - أحمد بن عامر : الدولة الضاهجية ، ص ٩١-٩٥ .
- (٢) فيما ينقله عنه الصفدى : نفس المصدر السابق ، والجزء ، ص ٢٠٥ .
- (٣) الصفدى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٥-٢٠٧ - حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٨٢-٨٣ - أحمد بن عامر ، ص ٩١-٩٥ .
- (٤) عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ (عن ابن فضل الله العمري فيما ينقله عن ابن رشيق) .
- (٥) الصفدى : نفس المصدر السابق أعلاه ، الجزء الخامس ، ص ٤٧ - عبد الرحمن باغى : نفسه ، ص ٢٣١ .
- (٦) ترجم له ترجمة مستفيضة الصفدى : نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٧ - ويلقبه بالسلمى - عبد الرحمن باغى : نفسه ، ص ٢٢٥-٢٢٦ (عن ابن فضل الله العمري) ، ويلقبه بالسلمى .
- (٧) فيما ينقله عنه الصفدى : نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

أو تثريب إذا اعتبرنا الشقراطسى من شعراء الفترة موضع الاهتمام . ففضاؤه جل عمره فى الفترة موضع الاهتمام من جهة ، وذيوع شهرته من جهة أخرى ، كل ذلك خليق بأن لا نغفل ذكره البتة .

وعلى أية حال ، فقد ولد عبد الله الشقراطسى فى مدينة توزر ، وإن كنا نجهل تاريخ ولادته ، لما بلغ سن التعليم ، التحق بحلقات شيوخ بلده من علماء المالكية ، ومن بينهم والده نيجى ، حيث تلقى علوم الشريعة على أيديهم . وبعد أن ملأ وطابه من علم شيوخه فى توزر ، ارتحل إلى القيروان عام ٤٢٩ هـ ، فتلقى العلم على أيدي شيوخها . وبجانب ذلك كانت شاعريته تتفتق وتتكون وتنصل . ثم تآقت نفسه إلى الحج ، فارتحل إلى مكة المكرمة ، حيث أدى الفريضة ، ثم عاد إلى بلده عن طريق مصر ، التى مكث فيها بعض الوقت . وفى توزر كرس نفسه للاقراء والتدريس حتى وافته المنية عام ٤٦٦ هـ (١) .

وفى الحق فإن شهرة عبد الله الشقراطسى لم تقم على مكانته فى علوم الفقه وغيره ، ولكن على شهرته فى فرض الشعر ونظمه ، فقد كان شاعرا قويا متبحرا متمكنا . ولقد قال الشعر فى كثير من الأغراض ، فى الغزل ، فى الرثاء ، فى الفخر ، وكان فى كل ذلك مجليا (٢) .

لكن شهرته فى الحقيقة كشاعر لم تقم إلا بالقصيدة التى ذاعت وشاعت شرقا وغربا . وهى القصيدة اللامية المعروفة (بالشقراطسية فى مدح خير البرية) . وقصيدة عبد الله الشقراطسى هذه ، المسماة باسمه تعتبر من ميون وغرر قصائد المديح النبوى ، وهى (طويلة بديعة على نسق واحد فى الترتيب والجودة ، وحسن السبك ، تعد أبياتها ٣٥ بيتا) (٣)

(١) الهادى مصطفى التوزرى : أعلام الافارقة - عبد الله الشقراطسى ، ص ١٦-٢٠ .

(٢) أنظر الهادى مصطفى التوزرى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٣-٣١ .

(٣) الهادى مصطفى التوزرى : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٢ .

(شاعر مطبوع . درب مذهب الألفاظ ، واضح المعاني ، سهل الطريق ، حسن التلويح) . وما اختار له من شعريصفه بأنه (شعر سلسل غير شرس ، مذهب الظاهر ، رطب المكاسر ، سالم من التعسف والاكره ، يشرب شربا ، ويلصق بالقلوب حبا) (١)

وشارك اقليم الجريدة في نهضة افريقية الشعرية خلال العصر الزيري ونستطيع أن نعد من أبرزهم يحيى بن علي بن زكريا الشقراطسي التوزري (٢) مسن مدينة توزر ، وهو أحد الفقهاء والشعراء المشهورين آنذاك . ويقول عنه الهادي مصطفى التوزري (٣) أنه كان عالما بفنون الأدب وضروبه ، وعالما بالنقد ، ويورد المعنى الدقيق في أسلوب الشعر الجاهلي . ويرى الهادي مصطفى التوزري (٤) كذلك أن شعري يحيى الشقراطسي خلا من الصفرة واللوان البديع ، وللشقراطسي قصيدة جيدة في رثاء الفقيه المالكي محمد بن أبي زيد القيرواني المتوفى عام ٣٨٦هـ

على أن أشهر شاعر خلال عصر الزيريين أهدته مدينة توزر باقليم الجريد هو بلا مرء الشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطسي (٥) (ت ٤٦٦هـ) ، ابن يحيى المذكور آنفا . وبالطبع فليس ثمة خير علينا

-
- (١) عبد الرحمن باغى : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ (من ابن فضل الله العمري) .
 - (٢) لم تزودنا كتب طبقات علماء افريقية بأى معلومة عنه . وقد حصلنا على تقریظ لترجمته وحياته وفقهه وشعره لدى : الهادي مصطفى التوزري أعلام الافارقة ، ص ٧-١٥ في معرض ترجمته للشاعر الفقيه المشهور عبد الله الشقراطسي ابنه .
 - (٣) أعلام الافارقة ، ص ١٢-١٣
 - (٤) أعلام الافارقة ، ص ١٣
 - (٥) تتبع ترجمة حياته وأشعاره ، الهادي مصطفى التوزري ، الذي ألف فيه كتابا بعنوان : أعلام الافارقة - عبد الله الشقراطسي .

والواقع أن القصيدة الشقراطية - كما يخيل إلينا - ، ذات دلالات عديدة . منها أنها تعد دليلا على مقدار حب أهل المغرب للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنها تعتبر خير مؤشر للمكانة السامية التي وصلت إليها الحركة الشعرية في افريقية آنذاك ، وأنها كانت المثال المحتذى لكل قصائد المديح النبوى . ولقد سبق الشقراطسى فى قصيدته هذه بردة البوصيرى بنحو قرنين من الزمان (١) . ويقول الهادى مصطفى التوزى (٢) ان البوصيرى نسج بردته على غرارها بحرا ومعنى ، ولم يخالفها الا فى اللفظ والقافية .

ولقد ذاع صيت القصيدة الشقراطية ، ولكن بين المغاربة بدرجة أوسع والمشاركة بدرجة أقل . وقد ظلت لفترة طويلة هدفا للتفسير والتخمين (٣) من جانب المغاربة . أما شروحاتها الكثيرة ، فقد اضطلع بها نفر هديد ممن المغاربة بصورة أوسع (٤) ، وكذلك نفر من المشاركة (٥)

ولم يتخلف اقليم طرابلس من المشاركة فى النهضة الشعرية فى افريقية خلال عصر الزيريين ، فقد لمع فيه آنذاك شاعر معروف ، هو أبو الحسن على بن أبى اسحاق بن ابراهيم الودانى ، الذى كان شاعرا رقيق الشعر ، وله فيه ديوان (٦) . ويروى أنه كان على صلة صداقة بالأديب الشاعر ابن رشيق (٧) ،

-
- (١) الهادى مصطفى التوزى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٣ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢-٣٣ .
 - (٣) أنظر الهادى التوزى : نفسه ، ص ٣٣-٣٨ .
 - (٤) أنظر الهادى التوزى : نفسه ، ص ٣٩-٤١ .
 - (٥) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٥ ، ص ١٠٨-١٠٩ .
 - (٦) عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب فى ليبيا ، ص ١٠٥ .
 - (٧) عبد المنعم خفاجى : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٠٥-١٠٦ - أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

وقد بقي من شعره مقطوعة تقع في خمسة أبيات (١) .

ولم يكن اقليم الزاب بعيدا أيضا عن الاسهام في النهضة الشعرية الافريقية حينئذ ، فقد برز فيه غير واحد من الشعراء ، نذكر منهم الأديب الشاعر المشهور أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميله (٢) . وقد أثنى على شاعريته عدد من الأدباء مثل ابن رشيق (٣) ، الذي يرى فيه شاعرا لسنا مقتدرا ، يميل الى الاستعارة ، واستخدام الزجر والعياقة ، ويقتفى أثر الشاعر الأموي المشهور عمر بن أبي ربيعة في نظم الحكايات والأقوال . أما ابن بسام (٤) ، فقد وصفه بأنه ضرب في الأدب بأعلى قدح ، وقال عن أشعاره بأنها (أشعار شاردة ، سارت على السنة الأنام ، وكتبت في جبهات الأيام) .

وقد أورد له أولئك الذين ترجموا له العديد من المقطوعات الشعرية الجيدة ، أشهرها القصيدة المدحية التي قالها في مدح أمير جزيرة صقلية ثقة الدولة الكسبي (٥) .

-
- (١) عبد المنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ٢٣٣-٢٣٤ مع الحواشي .
- (٢) ترجم له ترجمة حسنة ابن بسام : المصدر السابق ، المجلد الثاني ، الجزء الثامن ، ص ٥٢٩-٥٣٦ - ابن دحية : الطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ٤٨-٤٩ - ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الخامس ، ص ١٥٩ - ١٦٢ - عبد الرحمن باغی : المرجع السابق ، ص ٢٠٩-٢١١ (نقلا عن ابن فضل الله العمري الذي ينقل مباشرة عن ابن رشيق) .
- (٣) فيما ينقله عبد الرحمن باغی من ابن فضل الله العمري عن ابن رشيق : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .
- (٤) الذخيرة ، المجلد الثامن ، ص ٥٢٩-٥٣٠ .
- (٥) ابن بسام : نفس المصدر أعلاه والمجلد والجزء ، ص ٥٣٠-٥٣٦ - ابن دحية : نفس المصدر أعلاه والصفحات - ابن خلكان : نفس المصدر السابق أعلاه والمجلد والصفحات - عبد الرحمن باغی : نفس المرجع أعلاه والصفحات .

اللغة والنحو

- اللغة والنحو في عصر الولاة
- اللغة والنحو في عصر الاغالبة
- ، ، ، ، الفاطميين
- ، ، ، ، الزيريين

اللغة والنحو :

لعل من قبيل القول المكرر المعاد الاشارة بأن انتشار اللغة العربية قد رافق بالضرورة انتشار الاسلام ليس في افريقية والمغرب فحسب ، بل وفي كل الاقطار المفتوحة ، والى جانب تأثير عامل حتمية انتشار اللغة العربية هذا ، تضافرت فيما يتصل بافريقية والمغرب عموما ، عوامل عديدة أدت الى انتشار اللغة العربية حسبما أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن عوامل ازدهار الحياة العلمية في افريقية . ولقد أسهمت جميع تلك العوامل في تعريب البلاد المغربية . على أن المغاربة . قد استفتحت أمامهم مغالقة اللغة - ، لم يكتفوا بمجرد التأثر والتشبع باللغة العربية فقط ، ولا بمجرد الانتصاب للقراءة والتدريس والتفرغ للرواية - على أهمية - ، فحسب ، ولكنهم انتقلوا الى المشاركة والاسهام في اثراء علوم العربية عن طريق الغوص في استكشاف كنه وأداة التعبير تلك لغة ونحو . ومن هنا فقد وجدنا أنفسنا أمام اعداد كبيرة من أبناء البلاد ينقبون في علوم العربية ، فيستخرجون مادة غزيرة في اللغة والنحو والمعروض ، وهي ان لم تكن مخترعة مبتكرة ، الا أنهم أسهمت دون ريب في ارساء وتقنين قواعد اللغة والنحو التي حمل مشعلها مدرستا الكوفة والبصرة في المشرق ، كما هو معروف تاريخيا .

اللغة والنحو في عصر الولاة :

الحق أن طبيعة دراسات علوم العربية في هذا العصر لم تتعد مجرد الانتصاب للاقراء ، ورواية علوم اللغة والنحو على أبناء البلاد ولقد حمل لواء هذه الجهود لغويون ونحاة وافدون ، قدموا الى افريقية ، اما في رفقة بعض الولاة كيزيد بن حاتم المهلبى ، واما قدموا برغبة ذاتية فردية منهم .

فمن أوائل اللغويين والنحويين الوافدين على افريقية في هذا العصر عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي (١) (ت ١٧٥ هـ) (٢) وعياض بن عوانة سليل بيت عربى ، اشتهر بالعلم والأدب والنحو ورواية الأخبار (٣) . وقد ولد في الكوفة وعاش بها زمنا طويلا ، تلقى خلال ذلك كثيرا من العلوم ، ولكن النحو غلب عليه حتى اشتهر به (٤) . ولقد قادته قدماءه أخيرا الى افريقية ، حيث الأمير يزيد بن حاتم ومن خلفه من الأمراء المالية الذين كانوا يكرمونه

-
- (١) ترجم له كل من : الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ - القفطي : انباء الرواة ، ج ٢ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ - الفيروز أبادى : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٧٨ - السيوطى : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ص ٢٣٤ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٥٦ - ١٦٠ .
- (٢) الوحيد الذى أشار الى هذا التاريخ ، هو حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه ، والقسم ص ١٦٠ . على أنه لا يقطع بذلك ولكنه يغلب الظن في ذلك .
- (٣) الزبيدي الأندلسي : نفس المصدر اعلاه ، ص ٢٢٦
- (٤) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه والقسم ص ١٥٧ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .

وظل عياض يقيم في كنف المهالبة ويعلم أولادهم فترة من الزمن — غير أنه لم يقتصر علمه على أولاد الأمراء فحسب ، بل أغدق — أيضا على عدد من أبناء (١) البلاد الذين بلغوا بعد لآى شأوا بعيدا في علوم العربية مثل أبى الوليد المهرى وغيره ممن سنترجم في موضعه ان شاء الله .

ومن علماء النحو الوافدين على افريقية كذلك في عهد الأمراء المهالبة ، وخاصة الأمير يزيد بن حاتم ، أبو على الحسن بن سعيد البصرى (٢) (ت : ١٧٨ هـ) (٣) . وأبو على الحسن بن سعيد البصرى من العلماء الذين وصلتت اسماؤهم ولم تصلن آثارهم . وغاية ما عرفناه عنه أنه كان في عداد نحاة البصرة المعروفين وأنه كان كاتب سر الأمير يزيد ومباشر أمره ، وأنه بالاضافة الى ذلك كان من كبار المترسلين وكتاب الدواوين . (٤)

وعرف عهد الأمير يزيد بن حاتم المهلبى عالم لغة ونحو آخر ، هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي بالولاء (٥) (ت ١٨٢ هـ)

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٥٨
 - (٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ص ١٦١ (نقلا عن السيرافى صاحب اخبار النحاة البصريين) .
 - (٣) كما يعتقد حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٦٢
 - (٤) حسن حسنى عبد الوهاب ، نفسه ، ص ١٦٢
 - (٥) له ترجمه عند الزبيدي الأندلسى : المصدر السابق ص ٥١-٥٣ حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق اعلاه والقسم ص ١٤٦ - ١٤٨ (نقلا عن السيرافى كتابة أخبار النحويين البصريين)

ويونس بن حبيب الضبي أحد نحاة البصرة المشهورين ، وجعلـــــــــــــــــه
الزبيدي (١) في الطبقة الخامسة للمدرسة النحوية البصرية .
ومما يدل على عظم مكانته في النحو أنه سمع منه عدد من مشاهير
اللغة والنحو كالكسائي والفراء وسيبويه (٢) وغيرهم . وقد قدم
افريقية الى الامير يزيد بن حاتم الذي احتفي به كثيرا . ويعتقد
حسن حسنى عبدالوهاب (٣) اعتقادا يقرب اليقين بأن يونس
بن حبيب هذا قد انتصب للاقراء والتدريس في القيروان ، حيث
عكف على نشر علوم العربية والأدب بين أفراد الجيل الافريقي
الناهض آنذاك . على ان اقامة يونس النحوى لم تطل في افريقية
أنه عاد الى موطنه البصرة (٤) فظل هناك حتى توفى عام ١٨٢ هـ كما
أسلفنا آنفا .

وبالاضافة الى هؤلاء النحويين واللغويين الذين قدموا
على افريقية في عهود الأمراء المهالبة ، هناك نحوى مشهور
قدم الى الأمير يزيد بن حاتم ، وهو قتيبة النحوى الجعفي (٥) الكوفي
أحد كبار مدرسة الكوفة النحويه ، وجعله الزبيدي (٦) الأندلسي

-
- (١) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٤٦ ، ٥١
(٢) حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه ، ص ١٤٦
(٣) الورقات ، القسم الأول ص ١٤٦
(٤) حسن حسنى عبدالوهاب ، نفسه ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(٥) ترجم له ترجمة قصيرة : الزبيدي الأندلسي : نفس المصدر
السابق ، ص ١٣٥ - ١٣٦ ، وقد أشار محقق الكتاب محمد
ابراهيم ابو الفضل في حاشية رقم ١٠ - ص ١٣٦ - أنه
ترجم لقتيبة : أبو نعيم صاحب كتاب تاريخ أصبهان وسماه
قتيبة بن مروان ، أبو محمد الأزدائي . وكذلك أشار المحقق
الى أن له كذلك ترجمة في انباء الرواة للقفاطى : حسن حسنى
عبدالوهاب : نفسه ، ص ١٤٨ - ١٤٩ . وقد ذكر أن اسمه
قتيبة الجعفي النحوى فقط .
(٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٣١ - ١٣٥

أحد أفراد الطبقة الثالثة من أتباع هذه المدرسة - ولقد سمع منه عدد من مشاهيرها ، ثم قدم الى افريقية كما ذكرنا حيث ظل في كنف الأمير يزيد بن حاتم معززا مكرما . وبالطبع فقد مارس طيلة فترة بقاءه في افريقية تدريس علوم العربية ، حيث انتفع به عدد من أبناء البلاد الذين استهوتهم الدراسات اللغوية والنحوية من أمثال أبي الوليد المهدى وغيره . (١) ويروى لـه المؤرخون موقفا علميا نحويا جرى له في مجلس الأمير يزيد بن حاتم مع الفقيه المشهور عبد الله بن غانم الرعيني الذي ترجمنا له من قبل ، دل على علو مكانته في علم النحو (٢) . بيد أن قتيبه مالبث أن غادر افريقية الى المشرق ، حيث ظل هناك حتى توفي بعد سن عالية كما يقول حسن حسنى عبد الوهاب . (٣)

وأخيرا فان ثمة عالم لغوى ونحوى ينتمى الى عصر الولاة هو : أبو مالك أمان بن الصحامة بن الطرماح بن حكم (٤)

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق أعلاه ، والقسم ص ١٤٨ .
- (٢) أنظر المالكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ص ١٤٦ - حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه ، والقسم ص ١٤٨ - ١٤٩ .
- (٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، نفسه ، ص ١٤٩
- (٤) ترجمته موجودة عند : الزبيدي الاندلسي : المصدر السابق ص ٢٢٥ - ياقوت : معجم الادباء ج ٧ ، ص ٥١ - ٥٢ - الفيروز ابادى : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٣ - السيوطي بغية الوعاة ، الجزء الاول ، ص ٤٥٩ - حسن حسنى عبد الوهاب نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦٣

وأمان النحوى هذا ، وليس أبان كما قد ورد في بعض المصادر (١) ، من بيوتات العرب المشهور آنذاك ، وجده الشاعر المشهور الطرماح بن حكم المتوفي عام ١٠٠ هـ . وقدم والده الصحامة الى افريقية في مطلع القرن الثانى الهجرى واستقر هناك ، حيث ولد له ابنه أمان هذا . (٢) وكان أمان محل الثناء من قبل عدد من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين لعلو مكانته في علوم العربية والأدب فالسيوطى (٣) مثلاً يقول عنه : (وكان عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض شاعراً) . وكان أمان شأنه شأن غيره من كبار اللغويين والنحاة يتصدى للتدريس ورواية علوم العربية والأدب لطلبة افريقية وقتذاك (٤) . ولم تسعفنا المصادر بشيء عن وفاته وأقصى ما عرفناه في هذا الصدد ، هو أنه عاش حتى عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب الذى تولى (٥) الامرة في عام ١٨٤ هـ . ولعل هذه الاشارة ، واشارة الزبيدي الأندلسي الأخرى التى جعلت أمان وعياض بن عوانة على رأس طبقات النحويين واللغويين القرويين ، هى التى جعلتنا نعدده في عداد لغوى ونحوى عصر الولاة

-
- (١) وهو ما يعتقد حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ١٦٣ ، من أنه ليس الا تحريفاً من النساخ فحسب .
- (٢) حسن حسنى : نفسه ص ١٦٠
- (٣) بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .
- (٤) حسن حسنى : نفسه ، ص ١٦١ .
- (٥) أنظر السيوطى : نفسه ، ص ٤٥٩ - حسن حسنى : نفسه ، ص ١٦٢-١٦٣

اللغة والنحو في عصر الأغالبة :-

المتتبع لمسيرة دراسات علوم العربية في افريقية في عصر الأغالبة ، سيلحظ دون شك أن الدراسات اللغوية والنحوية توسعت خلال هذا العصر كمًّا ونوعًا . فمن حيث الكم بدأت تلامس أسماء كثيرة لعلماء لغة ونحو أنجبتهم البلاد الافريقية . والأمر الملفت للنظر في هذا الصدد هو أن الاهتمام بعلوم اللغة والنحو لم يكن قاصرا على أبناء القيروان فحسب بل شاركت بعض مدن وأقاليم افريقية في اهداء البلاد عددا من اللغويين والنحاة المعروفين . وأما من حيث النوع ، فقد شرع أولئك العلماء الذين سنترجم لهم على التو في تصنيف المؤلفات التي أسهمت في إثراء علوم العربية ، ليس على المستوى المحلي فحسب بل وعلى مستوى الدولة الإسلامية أيضا . ففي هذا ما يؤكد وضوح أثر عوامل ازدهار الحياة العلمية في افريقية بصفة عامة ، والأدبيّة بصفة خاصة .

وكيفما كان الأمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في عصر الأغالبة ، العالم اللغوي النحوي ابراهيم بن قطن المهرى (١) ، شقيق عالم اللغة والنحو المشهور أبي الوليد المهرى الذي سنترجم له بعد قليل وفي الحق فإن معلوماتنا عن ابراهيم بن قطن المهرى لا تزيد عن مجرد معرفة اسمه ، وأنه كان أحد علماء النحو في افريقية ، وأنه كان أسبق في التخصص في علم النحو من أخيه إلا أن أخاه ما لبث أن فاقه علماً وشهرة ،

(١) على الرغم من ضآلة المعلومات التي وردتنا عنه ، فقد حرص عدد من المؤرخين على أن يأتوا بها في مؤلفاتهم ، مثل : القفطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠ - ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٢٠٨ - الصفي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٤ - الفيروز آبادي : المصدر السابق ، ص ٧ - السيوطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٣ .

ومكانة ، فلم يعد يعرف ابراهيم الا القليل من الناس . (١)

أما أشهر شخصية لغوية وتحوية عرفها العصر الأغلبى ، فقد كانت بلاجدال شخصية أبى الوليد عبد الملك بن قطن المهرى (٢) (ت ٢٥٦ هـ) (٣). فلقد أثنى عليه وعلى مكانته في اللغة والنحو عدد من المؤرخين فالزبيدي (٤) الأندلسي يقول عنه : (شيخ أهل اللغة والنحو والرواية ، ورئيسهم وعميدهم والمقدم في عهده وزمانه عليهم . وكان من أحفظ الناس للكلام العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها ، وكانت الأشعار

- (١) أنظر مثلا القفطى : نفس المصدر السابق ، أعلاه والجزء والصفحة السيوطي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء والصفحة
- (٢) ترجم له كل من الزبيدي الأندلسي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ المالكي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١١ - ٣١٤ - الفيروز آبادي : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - السيوطي : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٤
- (٣) هذا هو التاريخ الصحيح . فقد ذكر المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٣٦٠ أنه عندما توفي الفقيه محمد بن سحنون عام ٢٥٦ هـ رثاه الشعراء وثم قدموا بها الى المهرى لى ينقدها نقدا أدبيا . ولقد تنبه الى ذلك أيضا حسين مؤنس محقق الجزء الاول من الرياض ، فقال في حاشية رقم (١) من ص ٣١٢ أنه توفي عام ٢٥٦ هـ ، لكن دون ان يوثق معلومته الصحيحة هاتمه بما ورد في ترجمة محمد بن سحنون - أما الزبيدي : نفس المصدر السابق أعلاه ، ص ٢٣١ - ٣٣٢ ، ومن أخذ عنه فقا قالوا بأنه توفي عام ٢٥٣ هـ ولا شك انه هنا خطأ تاريخيا لا يستقيم مع ما ذكرناه آنفا .
- (٤) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

تقرأ عليه مجردة من الشرح ، فيشرحها ، ويفسر معانيها . فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها ، وفيما كانوا يرووا عنه منها ، فلم يجدوا في شرحه خلافا لما قال أصحاب الشرح ، ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره شيئا من الخطأ .

وعبد الملك بن قطن المهرى أحد الذين تتلمذ على كبار النحاة الذين قد موا الى افريقية في عصر الولاة من أمثال عياض بن عوانه وقتيبة الجعفي النحوى ويونس بن حبيب (١) الضبي وغيرهم ، كما أنه أخذ عن أمان بن الصحامة (٢) أيضا . وهو بالاضافة الى علوه كعبه في علوم العربية ، كان شاعرا خطيبا بليغا (٣) . وفوق هـذا وذاك ، كان ناقدًا معروفًا ، وقد تجلت مكانته في مجال النقد عند ما كانت تعرض عليه أشعار المراثي التي قيلت عند وفاة الفقيه المشهور محمد بن سحنون عام ٢٥٦ هـ (٤) .

ومما هو جدير بالذكر أن أبا الوليد المهرى خاض مجال التصنيف في علوم العربية ، فمن الكتب التي ذكر بأنه وضعها : كتاب الالفاظ ، وكتاب في اشتقاق الاسماء مما لم يأت به قطرب (٥) وغير

(١) الزبيدي : نفس المصدر اعلاه ، ص ٢٢٩ - الفيروزابادي : نفس المصدر السابق اعلاه والصفحة .

(٢) انظر قبل ، ص ٧٧٠ و ٧٧١

(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٠

(٤) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠

(٥) الزبيدي : نفسه ، ص ٣٠ : الفيروزابادي : ١٣٠ - السيوطي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء والصفحة .

ذلك .

ومن علماء اللغة والنحو الذين اشتهروا في عصر الأغلبية أبو سعيد بن حرب بن غورك (١) ولا تزدنا المصادر للأسف ايضاحا عن كثير من جوانب ترجمته ، فلا تذكر لنا اسمه . ولا توضح لنا سنة وفاته . والأمر الوحيد الذى هدانا الى ادخاله ضمن لغوى ونحوى العصر الأغلبى ، هو أنه كان كما يفهم مما روت المصادر معاصرا لأبني الوليد بن عبد الملك بن قطن المهرى الذى ترجمنا له آنفا . أما عن مكانته في علوم العربية . فقد كانت واضحة لحسن الحظ ، فلقد روى الزبيدى (٢) الأندلسي انه (كان يقال انه أعلم من المهرى بالقرآن ويحدر النحو ، وكان المهرى أوسع منه رواية وأعلم باللغة والشعر) .

ومن علماء اللغة والنحو الذين زهى بهم عصر الأغلبية بجانب ما ذكرناه ؛ أبو الأسود أحمد بن أبى الأسود (٣) النحوى المكنى بأبى العباس (ت أواخر القرن الثالث الهجرى) (٤) فلقد كان أحد علماء اللغة والنحو المعدودين آنذاك ، ووصفه الزبيدى (٥) الأندلسي

(١) ممن ترجم له ترجمة لأبأس بها ، الزبيدى الأندلسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ - السيوطي : المصدر السابق ج ١ ، ص ٥٨٦ -

(٢) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ .
(٣) ترجمته موجوده عند الزبيدى : نفس المصدر اعلاه ، ص ٢٣٣ -
٢٣٤ - القفطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٢ -
ياقوت : معجم الأدباء ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ - الفيروز آبادى
ص ١٣ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٤) لم يشر الى وفاته أحد " من أولئك المؤرخين القدامى ، والوحيد الذى حدد وفاته بأنها كانت في أواخر القرن الثالث الهجرى هو حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه
والقسم ص ١٦٤ - على ان فى الحق لم يرو لنا سنده .
(٥) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ .

بقوله : (وكان غاية في علم النحو واللغة ، وهو من أصحاب أبي الوليد المهرى . وله أوضاع في النحو والغريب) . وعلى الرغم من أن الزبيدي (١) أشار إلى أن لابي الاسود النحوى (مؤلفات حسان) إلا أنه لم يعن هو ولا غيره ممن ترجم له بالتنويه بأسماء تلك الكتب التي صنفها ، ولا بما تضمنته من مواضع ، ومما يجدر ذكره أن ابا الاسود كان بالاضافة الى براعته في علوم العربية شاعرا مجيدا ، كما يقول الزبيدي . (٢)

ويعتبر العالم اللغوى والنحوى أبو عبد الله حمدون بن اسماعيل المعروف بالنعجة (٣) (ت ٢٨٥ هـ) (٤) أحد أبرز علماء افريقية المتأخرين في العصر الألبى في علوم العربية . ولقد وصفه الزبيدي (٥) فقال : (وكان مقدما بعد المهرى في اللغة والنحو ، وكان يقال انه أعلم بالنحو خاصة من المهرى ، لانه كان يحفظ كتاب سيويه) . حمدون النعجة كان له أثر علمي تمثل في تصنيفه لكتاب في النحو كما يقول الزبيدي (٦) نفسه ،

- (١) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- (٢) نفسه ، ص ٢٣٤ .
- (٣) الزبيدي : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ - القفطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ - الفيروز آبادى - المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ - السيوطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ١٦٧ - ١٦٩ .
- (٤) الحقيقة ان الذى أورد هذا التاريخ للوفاة هو حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه ، القسم ص ١٧٠ . في حين ان الزبيدي ومن تقل عنه من المؤرخين السابقين قالوا انه توفي بعد المائتين . ولا شك ان هناك فارقا كبيرا بين التاريخين . لكن منطق الأحداث يؤيد ما ذهب اليه حسن حسنى عبد الوهاب لان حمدون النعجة كان تلميذا لابي الوليد المهرى المتوفى عام ٢٥٣ هـ حسبما عرفنا في ترجمته

(٥) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٥ .

(٦) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٥ .

الا أنه لم يدلنا على عنوان ذلك الكتاب ، ولا على ما يحتويه — مواضيع . وبالإضافة الى براعة حمدون النعجة في علوم العربية فقد كان كما ينقل حسن (١) حسنى عبد الوهاب عن الصفدى في كتابه : نكت الهميان ، واحدا من علماء اللغة والنحو الذين كانوا ينتصبون للتدريس والاقراء في مجال تخصصهم .

وفيما يتصل بلغوى ونحوى بقية مدن واقاليم افريقية ، فإن لدينا لحسن الحظ معلومات عن ثلاثة من علماء اللغة والنحو وكلهم من مدينة واحدة هي طرابلس ينتمون الى هذا العصر ، وهم من الذين اشتهروا في تخصصهم في علوم العربية تقريبا . فمن أوائل أولئك اللغويين الثلاثة : محمد بن صدقة المرادى الاطرابلسي (٢) الافريقي . ولقد وصفه الزبيدي (٣) بأن كان عالما باللغة متقنرا في كلامه متجاوزا الحد في ذلك . علي ان الزبيدي لم يعن هوولا من ترجم للمرادى بأنه يمدنا بمعلومات اكثر تفصيلا مما ذكر كما أنهم أغفلوا الاشارة الى تاريخ وفاته .

والعالم اللغوى الثانى الذى أهدته مدينة طرابلس لدراسة علوم العربية هو خلف بن مختار (٤) الاطرابلسي (ت ٢٩٠ هـ) . ولقد وصفه (٥) الزبيدي بأنه (كان صاحب نحو ولغة) كما وصفه في موضع آخر بأنه كان ممن يفرض الشعر ويجيده .

-
- (١) الورقات ، القسم الاول ، ص ١٦٩
(٢) الزبيدي : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٢ - القفطي : نفس المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٢ - الصفدى : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٥٢ - السيوطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٠
(٣) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٢
(٤) الزبيدي : ص ٢٣٧ - ٢٣٨ - القفطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥١ - الفيروزابادى : المصدر السابق ، ص ٨٧ .
(٥) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٧ .

أما عالم اللغة والنحو الثالثوالأخير الذى أهدته مد ينتهـ
للحركة الادبية عموماً ، وحركة علوم العربية خصوصاً خلال عصر الأغلبية
فهو الفقيه اللغوى الاباضى ابو عبيده الأعرج . فلقد كان أبو عبيدة
الأعرج بجانب اشتهاره بعلم الفقه والكلام ، عالماً باللغة . ومما ينسب
اليه أنه كان يقرئ الطلبة عدداً من مصنفات المشاركة ، ومن بينهم
كتاب اصلاح اللغة لعبد الله بن مسلم بن قتيبة . (١)

اللغة والنحو في عصر الفاطميين :

الواقع أنه ليس ثمة ما يميز دراسات العلوم العربية في عصر
الفاطميين عن عصر الأغلبية ، فأغلب من اشتهر باللغة والنحو في
هذا العصر كانوا من الذين عاشوا الدولتين : الأغلبية والفاطمية
وان كان هؤلاء اكثر تصنيفاً من سابقهم الذين عاشوا كل حياتهم
في العصر الأغلبى ، وازافة الى هذه الخصوة التى ميزت بعض
الشيء دراسات علوم العربية في العصر الفاطمى عن العصر الأغلبى
عرف العصر الفاطمى تزايداً في عدد اللغويين والنحاة . وبالإضافة
الى ذلك فقد عرف عن أحد الخلفاء الفاطميين ، وهو الخليفة
المعز لدين الله تزلعاً في علوم العربية بشقيها : اللغة
والنحو ، وكذلك كان قاضيه وداعيته الأشهر النعمان بن حيون
وعلى أية حال فإذا مضينا نبحث عن لغوى ونحوى
عصر الفاطميين فإننا سنجد ذكراً لعالم لغوى ونحوى عاصر

(١) احمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

الدولتين الأغلبية والفاطمية ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد المكفوف (١) (ت ٣٠٨ هـ) وأبو محمد المكفوف أحد أبناء إفريقية المبرزين في علوم العربية التي تكاد تكون منه أو تخصصه العلمي الوحيد . ولقد ذكره الزبيدي (٢) الأندلسي فقال عنه : (كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب ، والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها) وفي موقع آخر يقول عنه (٣) : (وعليه قرأ الناس المشروحات ، واليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب ، وكان يجلس مع حمدون في مكتبه ، فريما استعار بعض الصبيان كتابا فيه شعر أو غريب أو شيء من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فاذا السج عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف ، فيقول له : اقرأه علي ، فاذا فعل ، قال اعده ثانية ، ثم يقول رده علي صاحبه ، ومتى شئت فتعال حتى أمله عليك) .

ولاشك أن رجلا بهذه المكانة العالية في علمي اللغة والنحو لا يستغرب منه أن يخوض غمار التصنيف في علمه الذي أحب وقضى عمره فيه . على أن من بين ما ذكر من كتب كثيرة لـه (أملأها في اللغة والعربية والغريب) (٤) لم يصلنا شيئا ذا بال عن أسماء تلك الكتب ، ولا عما تشتمل عليه من مواضيع . وبجانب هذا روى أن له كتابا في العروض نال شهرة عريضة وقتذاك ، كما

-
- (١) ترجمته مبسوطه عند الزبيدي الأندلسي : المصدر السابق ، ص ٣٦ - ٢٣٧ - القفطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٧
١٤٩ الفيروزابادي : المصدر السابق ، ص ١٣ - ١١٤ -
السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٣٦ .
(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٦ .

روى أيضاً أن له (كتاباً في شرح صفة أبي زيد الطائي للأسد) (١)، وكانت له كذلك قيمته التي لا تنكر، ومما هو جدير بالتنويه هنا أن أبا محمد المكفوف من أهل مدينة سرت باقليم طرابلس. (٢)

ومن علماء اللغة والنحو الذين ينتمون إلى عصر الفاطميين كذلك اللغوي والنحوي الشاعر أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي (٣) (٢٧٢-٣١٨) الذي كان من أمهر العلماء في علوم اللغة وغريبها، وفي النحو، كما كان مشهوراً بالحفظ أيضاً. وقد ترك اللؤلؤي كتاباً في الضاء والطاء لفي سمعة طيبة آنذاك. (٤)

ومن أبرزهم هذا العصر من علماء اللغة والنحو، أبو علي الحسن بن علي السنجي المكفوف (٥) (ت ٣٤٢ هـ)، الذي كان أحد اللغويين والنحاة الذين تلقوا علومهم على يد أبي محمد اللغوي النحوي المكفوف الذي ترجمنا له آنفاً. وأثنى المالكي (٦) على مكانته

-
- (١) الزبيدي : نفسه، ص ٢٣٧
 (٢) الزبيدي : نفسه، ص ٢٣٧
 (٣) الزبيدي الاندلسي : المصدر السابق، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ - القفطي المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧-٢٨ - ياقوت : المصدر السابق ج ٢، ص ٢١٨ - ٢٢٤ - الصفدي : المصدر السابق ج ٢، ص ١٩٨ - ١٩٩ .
 (٤) الزبيدي : نفس المصدر السابق، ص ٢٤٣ - القفطي : نفس المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧ .
 (٥) لم يترجم له من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين سوى الزبيدي : نفسه، ص ٢٤٢، على أنها ترجمة مقتضيه جداً لا تزيد عن سطر واحد . ولكن الذي ترجم له ترجمته واسعة على أنه لغوي وزاهد وشاعر هو المالكي : المصدر السابق ج ٢، ص ٤٠٦ - ٤١٠ - ثم حسن حسني عبد الوهاب المرجع السابق، القسم الأول ص ١٧٠ - ١٧٢ .
 (٦) رياض النفوس، ج ٢، ص ٤٠٦

في علوم العربية فقال عنه مانصه : (وكان عالما باختلاف العلماء
واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بالنحو واللغة وعلوم القرآن الكريم
وبالإضافة الى اشتهاره بعلوم العربية ، كان مشتهرا بالزهد والتقلل
من الدنيا ، وهو أيضا ممن أوتي شيئا من الشاعرية كما نص على
ذلك المالكي (١) . ولأبي علي الحسن بن علي المكفوف كتاب لغوي
بعنوان : (أقيسه الافعال) ، على نمط الأملى تصدى لجمعه
بعض تلاميذه (٢) .

ومنهم أبو محمد حسين بن محمد التميمي العنبري الداروني
المعروف بابن أخت العاهة (٣) (ت ٣٤٣ هـ) وهو أيضا ممن نال شهرة
واسعة في وقته لبراعته في علوم العربية والأدب والمعرفة الكبيـرة
بأخبار العرب وأيامها ووقائعها وأنسابها (٤) . ويبدو أنه كان
أحد المنتمين (٥) لغويا ونحويا الى مدرسة الكوفة التي كانت
تتقاسم زعامة علوم العربية مع مدرسة البصرة .

-
- (١) رياض النفوس ، ج ٢ ، ص ٤١٠
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٧٢
(٣) ترجم له كل من : الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ -
الفيروزابادي : المصدر السابق ، ص ٦٦٠ - السيوطي :
المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤٠ - والجزء الثاني ، ص ٤١
(٤) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٦
(٥) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

على أن أشهر شخصية لغوية ونحوية انتمت الى عصر الفاطميين ، كان بلامراء العالم اللغوى والنحوى ذائع الصيت أبو القاسم ابراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزان (١) النحوى (ت ٣٤٦هـ) . وفي الحق فان ابن الوزان لا يعتبر أحد أئمة اللغة والنحو في عصره فحسب ، بل وفي موضع البحث . ولقد أطنب الزبيدي (٢) الأندلسى ومن جاء بعده في الثناء عليه وعلى مكانته في علم العربية . فقال في معرض ترجمته له (. . .) وهو يعد امام الناس في النحو . وكبيرهم في اللغة ، وعظيمهم فى العربية والعروض) . وفي موضع آخر يقول مانصه : (وانتهى من اللغة والعربية الى ما لعله لم يبلغه أحد قبله ، وأما في زمانه فما يشك فيه) .

ولقد اشتهر ابن الوزان بحافظته الكبيرة ، فلقد روى أنه كان يحفظ أمهات كتب اللغة التى ألفها ائمة اللغة العظام من أمثال الخليل بن أحمد وابن السكيت والفراء ، وسيبويه ، وغيرهم (٣) . ويقول الزبيدي الأندلسي (٤) أنه كان يعيل الى مدرسة البصرة اللغوية النحوية ، مع علمه بمدرسة الكوفة . ولقد بالغ بعض واصفيه ،

-
- (١) الزبيدي الاندلسي : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٤٩ -
 القفطي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ - ياقوت :
 المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ - الصفري :
 المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٠ = ٥١ السيوطي ،
 المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٩
 (٢) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤٧
 (٣) الزبيدي : نفس المصدر السابق ، اعلاه والصفحه .
 (٤) نفسه ، ص ٢٤٧ .

فقال انه لو قيل أنه أعلم من العالمين اللغويين المشهورين : المبرد ،
وتعلب لما جاء في الحقيقة في قوله (١) . ومما يدل على مكانته في
اللغة بصفة خاصة وأنه خطأ الإمام الشافعي ، وهو من هو في علوم
العربية فيما ذهب اليه من تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم (٢) . علي
أن ابن الوزان رغم امامته في علوم العربية بشقيها : اللغوية
والنحوية ، الا أنه لم يحفظ عنه أنه اسهم في التصنيف في مجال تخصصه
ولعله اكتفى بالاقراء والتفرغ للرواية .

وبالإضافة الى هؤلاء اللغويين والحاة المشهورين نستطيع
أن نضيف اليهم عدداً آخراً ممن نص على أنهم كانوا لغويين ونحاة
عاشوا في عصر الفاطميين ، كأبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف
بالصيفل (٣) (ت في الأندلس عام ٣٣٠ هـ) وعامر بن ابراهيم
بن العباس الفزاري (٤) ، وعبد الله بن عبد الله الجهني القياس (٥)
النحوي (٦) ، وغيرهم . على أنه فيما عدا التنويه باسمائهم

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٢) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٩ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق القسم الأول ،

ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) القفطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ - الفيروز ابادي :

المصدر السابق ص ١٠٢ - السيوطي : المصدر السابق :

ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٥) الزبيدي : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٦) ص ١٣٤ .

وباشتهارهم بعلوم العربية ، ولم نعثر لهم على ما يشير الى تصديهم
للاقرأ والتدريس ، فضلا عن التصنيف .

وبوسعنا أخيرا ان تعد الخليفة المعز لدين الله
أحد الذين تبغوا في علمي اللغة والنحو ، بالإضافة الى الجوانب
العلمية الاخرى التي لمع فيها ، فلدينا في الحقيقة العديد من
الشواهد ، التي تدل على ذلك . فلقد روى القاضي النعمان
بن حيون في كتابه المجالس^(١) والمسائرات أن المعز طلب ذات مرة
من أحد أئمة النحويين المشهورين في وقته وهو القزاز^(٢) القيرواني
تأليف كتاب في النحو ، وإن لم يشر النعمان الى المادة التي اقترح
الخليفة على القزاز أن يضعها كتابه ، سوى ما رغب فيه الخليفة
من أن يأتي الكتاب مخالفاً لرأى العالم اللغوي ، والنحوي
المشرقي المشهور أحمد بن يحيى بن تعلقب (ت ٢٩١ هـ) في
المجال نفسه بالطبع ، ومما ذكره القاضي^(٣) النعمان عن براعة
الخليفة المعز اللغوية والنحوية أن الخليفة كان كثيرا ما يعقد
حلقات في مجلسه مع كبار العلماء ، تناقش فيها كثير من
القضايا اللغوية والنحوية ، وأقوال أئمة اللغة والنحو المشارقة
المشهورين من أمثال الخليل بن أحمد ، وابن قتيبة ، وغيرهما
وكان المعز يدلي في تلك الحلقات بأقوال علمية ينقص فيها آراء أولئك
اللغويين المشارقة ويدحضها مما يدل على تمكنه من فقه اللغة

(١) ص ، ١٣٤ .

(٢) الحقيقة ان النعمان لم يسم النحوي الذي طلب اليه الخليفة
المعز تأليف ذلك الكتاب في النحو ولكن المنجي الكعبي في
الكتاب الذي ألفه عن العالم اللغوي والنحوي الا فريقي المشهور
القزاز القيرواني والذي أطلق اسمه على الكتاب نفسه أشار
الى ذلك . وقال بأن الخليفة المعز طلب من القزاز تأليف
ذلك الكتاب في النمر ، وأنظر بعد ص ٦٤٦

أنظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص ٣٠-٣٢ ، ٤٥

(٣) المجالس والمسائرات ، ص ١٥٩ - ١٦٤

والنحو . وفي بعض الأحيان كان الخليفة كثيراً ما يعتمد الى طرح أحاجي نحويه على أتباعه الذين يعجزون عن فك معانيها (١) . علي أن الشيء الجلي الواضح الذي أشار اليه القاضي (٢) النعمان ، هو أن الخليفة كان يفسّر الكثير من القضايا اللغوية سواء تلك التي كان يرد بها على اللغويين المشاركة أو تلك التي كان يطرحها على شكل أحاجي نحويه بمنظور اسماعيلي تأويلي باطنى ، أكثر منه بمنظور لغوى ونحوى صرف .

ويمكننا أن نعتبر أيضاً القاضي النعمان بن حيون الذى تردد اسمه كثيراً قيما سبق من تقويم لبعض جوانب الحياة العلمية في العصر الفاطمي أحد الذين عنوا بعلوم العربية عن طريق تأليفه لكتاب لغوى ، هو : (الرسالة ذات البيان) التى صنفها في الرد على العالم اللغوى الكوفي عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٣) (ت ٢٩٦ هـ) ، حسبما يومى* بذلك عنوان الرسالة .

و فيما يتصل بلغوى ونحوى بقية مدن وأقاليم افريقية فقد ذكر بأن الفقيه المالكي يوسف بن عبد الله القفصي التميمي (ت ٣٣٦ هـ) الذى ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية والحدیثية ، كان يجمع الى براعته في ذلك ، البراعة في اللغة والنحو والأدب عموماً . وقد صنف كتاباً في اللغة عبارة عن مناقضة لعالمى اللغة المشرقيين : أبو عبيدة بن سلام ، وابن قتيبة . (٤)

-
- (١) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، وأنظر الحواشي كذلك في نفس الصفحات .
- (٢) نفس المصدر السابق ، ١٦٢ - ١٦٤ .
- (٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ - حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المرجع السابق ، ٢٦١ .
- (٤) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ - حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

وعرف اقليم طرابلس في عصر الفاطميين نفراً من اللغويين والنحويين ، منهم محمد بن سالم الاطرابلسي المعروف بالعقّاق (١) ، الذى كان ماهراً في علوم اللغة والنحو ، بإضافة الى نظم الشعر وكذلك أبو بكر محمد بن مؤمن بن محمد الكندى (٢) اليرفسي النحوى (ت ٣٥١هـ) وكان مشتهراً بالبراعة في علم النحو ، والحديث .

اللغة والنحو في عصر الزيـريين :-

شمل التطور والرقى علوم العربية في العصر الزيـرى مثلما شمل كافة ضروب الأدب التى عرضنا لها من قبل ، وان كانت لم تواكب الازدهار الكبير الذى عرفته الحركة الادبية : النثرية والشعرية في هذا العصر توسعا وعطاء وفي الحق فانه ليس ثمة ما يميز دراسات علوم العربية في العصر الزيـرى عن عصر الفاطميين فجل من استهر بالدراسات هذه كانوا من الذين عاصروا الدولتين الفاطمية والزيـرية ، وان كان عددهم قد ازداد هنا ، وصيغت مصنفاتهم مسحة من التعمق والعمق العلمى ، وبإضافة الى هذا ، فإن ثمة أمر تميزت به الدراسات اللغوية والنحوية في العصر الزيـرى ، وهو كثيراً من علماء علوم القرآن ، كانوا في نفس الوقت علماء لغة ونحو ، وأن أكثر مؤلفاتهم في علوم القرآن ، لا ارتباط علوم القرآن بعلوم العربية ، أى اللغة والنحو .

-
- (١) الزيـدى الاندلسى : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ - أحمد مختار عمرو : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ - صالح مفتاح : الرسالة السابقة ، ص ٢٣٥
- (٢) احمد مختار عمرو : نفس المرجع السابق اعلاه ص ٢٥٧ .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في العصر
الزيري عبد العزيز بن أبي سهل الخسني النحو اللغوي القيرواني ،
المعروف بابن البقال (١) الضرير كما نعتقد (٢) ولقد كان ابن البقال
من أئمة اللغة والنحو في إفريقية آنذاك ، مشهوراً فيهما (مفتقراً اليه
فيهما) (٣) وهو بالاضافة الى ذلك كان شاعراً مرموقاً رائق الشعر (٤) .
على اننا فيما عدا ما يمكن أن نفهمه من كلام ابن رشيق ، من أنه
كان منتصباً للأقراء والتدريس ، لم نتبين له أى مشاركة في التصنيف
في علوم العربية تلك . ولعله وقد غدا مرجعاً في اللغة والنحو ،

(١) ترجم له ترجمة لا بأس بها القفطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٨ -
١٨٠ . (وقد اشار محقق الكتاب في حاشية ص ١٧٨ الى حوالى
سته مصادر وروت فيها ترجمته الخسني الضرير) - عبد الرحمن
ياغى : المرجع السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ (نقلا عن ابن فضل
الله العمري) .

(٢) ومرد ذلك الاعتقاد يرجع الى اعتبارات ثلاثة اولها ان المنجي
الكعبي مؤلف كتاب القزاز القيرواني ، ص ٢٤ . يعتبر الخسني
احد شيوخ القزاز المغاربة ، وليس ثمة ما يمنعنا من الاخذ بذلك -
والاعتبار الثانى هو أن ابن رشيق يصرح فيما ينقله عنه
القفطي : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ١٧٨ ، بأنه
قد ادركه عندما نزل القيروان لاول مرة وقد تجاوز السبعين
وفي رواية اخرى التسعين . ومعلوم ان ابن رشيق قد جاء الى
القيروان لاول مرة عام ٤٠٦ هـ - كما يقول كارل بروكلمان : المرجع
السابق وغيره ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ ، وغيره والاعتبار الثالث ابن
البقال الخسني الضرير قد عاصر الامير باديس بن المنتصر
(٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) وانه كان يجلس الخسني كما صرح بذلك ابن
رشيق فيما ينقله القفطي : نفسه ، ص ١٧٩ .

(٣) القفطي : نفسه ، ص ١٧٨ (نقلا عن ابن رشيق) .

(٤) عن شعره وتغريط ابن رشيق ، انظر القفطي : نفسه ، ص ١٧٩ -
١٨٠ . عبد الرحمن : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

قد اطمأن الى خلود علمه وبقائه في صدور تلاميذه ، دونما الحاجة الى التصنيف .

على أن أشهر شخصية لغوية ونحوية عرفها العصر الزيري ، كان الأديب الشاعر الناقد الشاعر أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز القيرواني (٣٢٢ - ٤١٢ هـ) والقزاز القيرواني رأيناه أدبيا بارعا بما يسهم في إثراء الحركة النثرية التأليفية ، ورأيناه شاعرا جيد الشاعرية ، والجانب الأدبي الآخر الذي لم نتبينه في شخصيته العلمية هو علما اللغة والنحو .

والواقع أن تبريز القزاز القيرواني في الجوانب الأدبية التي سبق لنا أن عرضنا لها من قبل - ، لا تعد شيئا رغم أهميتها أمام مكانته في علوم العربية . ذلك لأن علوم العربية هي التي غلبت عليه (١) ، وهو الجانب الذي (فضخ به المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرين) (٢) ، وهي التي قامت على أساسها شهرته العلمية ، والتي جعلت مؤرخي طبقات اللغويين (٣) والنحويين يحرصون على وضعه بالصفة التي غلبت عليه وهي النحو في عداد اللغويين والنحاة الذين عرفتهم الدولة الإسلامية .

ولقد قلنا ونحن نتحدث عن مؤلفاته الأدبية فيما سبق من حديث عن النثر التألفي في عصر الزيريين ، ان القزاز عاش فترة عاش فترة طويلة من عمره في العصر الفاطمي ، وأنه بلغ آنذاك من المكانة

(١) القفطي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٤ - السيوطي : المصدر

السابق ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) ابن رشيق : شعراء القيروان من انموذج الزمان ، ص ١٢٥ -

القفطي : نفس المصدر ، اءلاه والجزء والصفحة

(٣) أنظر حاشية الصفحة ٨٤ من الجزء الثامن كتاب القفطي : رابطة الرواة على أنباء النحاة ، حيث الاشارة الى من كتب عنه من مؤرخي طبقات اللغويين والنحاة وغيرهم .

والتجلة - ماجعلت الخليفة المعز لدين الله يصطحبه معه الى مصر عام ٣٦٢ هـ ، الا أنه ما لبث أن عاد الى بلده افريقية ، حيث ظل هناك حتى توفي عام ٤١٢ هـ ، ومن هنا فليس غريبا ان نتوثق الصلصة بين الرجلين الى الدرجة التي يطلب فيها الخليفة من القزاز تأليف كتاب في النحو على ما سنعرف بعد قليل .

ومما يجدر ذكره وينهض في نفس الوقت دليلا على مكانة القزاز اللغوية والنحوية أنه ارتحل الى بغداد ، وان كنا نجهل متى تم ذلك ؟ - فقابل هناك العالم المشهور الآمدي العراقي صاحب كتاب : الموازنة ، حيث تتلمذ عليه (١) ، ولا يستبعد المنجبي الكعبي (٢) أن يكون القزاز قد قابل غير الآمدي ، عددا من أساطين اللغة والنحو آنذاك .

ومهما يكن من أمر ، فإن القزاز القيرواني أسهم في إثراء وإرواء الدراسات اللغوية والنحوية بمصنفاته العديدة ، ذات العمق العلمي ، الذي أهلها لكي تحتل مكانها بين مصنفات اللغة والنحو على مستوى الدولة الإسلامية

وبالإضافة الى نشاطه العلمي المتمثل في التصنيف كان له نشاط علمي آخر تمثل في التصدي للتدريس والإلقاء والرواية ولعل من أشهر من تتلمذ عليه كما هو ثابت ، الأديب الشاعر ابن رشيق ، الذي أخذ عنه علوم اللغة والنحو ويبدو أنه قد تأثر تأثرا كبيرا باستاذة وآرائه اللغوية والنحوية والنقدية ، فيما كتب من مصنفات ، كما توحى بذلك المادة الطبية التي وردت فيها آراء القزاز في كتب ابن رشيق كالعمدة وغيره . (٣)

-
- (١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص ٦ ، ٢٣ - ٣٣ .
(٢) نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٣ .
(٣) انظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص ٢٦ ، ٨٢ - ٩٩
(حيث الإشارة الى صفحات العمدة التي ورد فيها تأثير القزاز في تلميذه ابن رشيق .

وممن تتلمذ على يدى القزاز القيرواني الأديب الشاعر الناقد ابن شرف القيرواني ، وكذلك الحسن بن محمد التميمي النحوى التاهرتي المعروف بابن الربيب (١) ، الذى سبق ان عرضنا له من قبل عند حديثنا عن النثر الفني . ومن تلاميذه كذلك عالم القراءات المشهور مكي بن ابى طالب القيسى المتوفى عام ٣٣٧ هـ ، وقد قرأ عليه كتاب الظاء والضاد ، وكتاب الحروف ، وكتاب المثلث (٢) ، وغير ذلك ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله المطرز ، وهو الذى نقل كتاب القزاز: ما يجوز للشاعر في الضرورة (٣) . وغير ذلك .

ومهما يكن فان من اهم مؤلفات القزاز القيرواني في اللغة سبع مصنفات هي : الجامع ، والمثلث ، وكتاب فيه ذكر شئ من الحلي والعشرات ، والمئات ، والضاد ، والظاء ، والكلمات المشاكسة الصور . (٤)

أما كتاب الجامع فهو من كتب المعاجم اللغوية ، وهو كتاب كبير يقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، أو نحو من ذلك ، وقد اثنى عليه كثير من المؤرخين ، ووضعوه في مرتبة اشهر المعاجم اللغوية كصاح الجوهري ، وكتاب التهذيب لابي منصور الازهري (٥) وغيرهما وقد رجح المنجي الكعبي (٦) - بعد بحث مضى - أن الكتاب هذا للقزاز القيرواني وليس لأحد غيره كما توهم البعض من المؤرخين .

(١) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧

(٢) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٢٧

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٢٧

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٢٥

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٥٦ ، ٦٠ - ٦٢

(٦) المنجي الكعبي : ص ٥٦ - ٦٠

أما كتاب المثلث، فهو على غرار ما جاء في أمثلة من اهتمام
بإيراد الكلمات التي على صورة واحدة ، وتحمل مع ذلك ثلاثة
معان مختلفة ، بحسب الحركات الثلاث ، الفتح والضم والكسر (١) .
(وكتاب فيه ذكر شيء من الحل ، هو عبارة عن كتاب صنفه القزاز
متتبعا الصفات الخلقية للبشر ، وهو صغير الحجم وقد يعتبر
رسالة أو كتيب أكثر منه كتابا . (٢)

والكتاب الرابع هو كتاب العشرات ، وموضوعه ، البحث في
(المعاني المفترقة التي يعبر عنها بالفاظ متفقة) ، أي أنه يتعلق
بالحديث عن اللفظة ومعانيها المختلفة التي تصل الى عشرة ألفاظ .
وهو على غرار ما ألف في المشرق من قبل بعض اللغويين والنحاة (٣)
أما الكتاب الخامس فهو (كتاب المئات) ، وهو على نسق كتاب
العشرات ، وإن كان بالطبع القصد منه إتيان بمئات اللفظات التي
يعبر عنها بالفاظ مختلفة . (٤)

والكتاب السادس هو : الضاد والظاء ، وهو موضوع
طرفه الكثير من علماء اللغة والنحو من المشارقة والمغاربة والاندلسيين
أما الكتاب السابع والآخر فهو كتاب : (الكلمات المشاكلة الصـور)
(٥)

-
- (١) للاستزادة عن هذا الكتاب وموضوعاته ، أنظر المنجى الكعبي :
القزاز القيرواني ، ص ٦٢ - ٦٤ .
 - (٢) راجع بشأن هذا الكتاب : وما جاء فيه موسعا : المنجى
الكعبي ، نفس المرجع أعلاه ، ص ٦٤ - ٦٧ .
 - (٣) أنظر عنه : المنجى الكعبي : نفسه ، ص ٦٧ - ٧٢ .
 - (٤) المنجى الكعبي : نفسه ، ص ٧٢ .
 - (٥) المنجى الكعبي : ص ٧٢ - ٧٣ .

وهذا الكتاب لم يشر إليه في الحقيقة أى من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين ، ولكن المنجى الكعبي استنتج أن يكون أحد كتب القزاز اللغوية مما ورد عرضا له أثناء الحديث عن كتاب الحروف الذى سنتطرق اليه بعد قليل . وعلى كل فموضوع الكتاب هو البحث فيما يجيب من الكلمات المشاكلة الصور في الأمر والنهى والصفة . (١)

وللقزاز مؤلفات في النحومهمة ، يصل تعدادها الى خمسة كتب هي كتاب الحروف واعراب الدرديدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، وكتاب المفترق ، ثم كتاب مايجوز للشاعر في الضرورة .

اما كتاب الحروف فستؤجل الحديث عنه الى ما بعد الحديث عن كتبه الاربعة الاخرى سالفه الذكر ، أما كتاب اعراب الدرديدية وشرحها ، فموضوعه شرح واعراب قصيدة العالم اللغوى البصري المشهور ابوبكر بن دريد (ت : ٣٢١ هـ) المعروفة الشهيرة بالمقصورة وقد احتذى القزاز في شرحها واعرابها حذو كثير من الشعراء واللغويين والنحاة الذين تأثروا بمقصورة ابن دريد ، وبالنسبة لكتاب مايجوز للشاعر في الضرورة فهو كتاب كما يؤمى عنوانه ، يبحث عن الضرائر والضرورات النحوية التى تبيح ضرورة الوزن والقافية للشاعر أن يتجاوزها وفيما يتصل بكتابي : المعترض والمفترق ، فليس ثمة معلومات عنهما فيما عدا ما ذكر عن نسبتهم للقزاز القيرواني (٢) هذا ولم يعن المنجى الكعبي بالبحث عن الموضوع الذى يقوم ان عليه .

(١) المنجى الكعبي : نفسه ، ص ٧٣ - ٧٥ .
(٢) عن هذه المصنفات انظر المنجى الكعبي : القزاز القيرواني ص ٤٤ -

أما كتاب الحروف الذى أجلنا الحديث عنه ، فهو أشهر كتب القزاز النحوية على الإطلاق ، وفي الحق فإن لنا قبل أن نتصدى للحديث عن موضوعه وعن المكانة التى بلغها فقهاء كفتها تجاهه أما الوقفه الأولى ، فهى اننا كنا قد ذكرنا عند حديثنا عن اللغة والنحو في العصر الفاطمي ، ان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله طلب كما اشار القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسائرات من أحد أئمة اللغة والنحو السنة ، أن يؤلف كتاباً في النحو ، وضح له طريقة صنعه وقلنا في الحاشية رقم : ص . أن المنجى الكعبي اعتمداً على ما قاله كثير من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين كالقنطري وغيره ، وأشار الى أن ذلك النحو واللغوى هو أبو جعفر محمد بن عبد الله القزاز القيرواني ، الذى نعرض له الآن .

وفي الحق فإن القاضي النعمان فضلاً عن اغفال اسم ذلك النحو لم يشرفيما اذا كان النحو قد نفذ المهمة التى طلبها منه الخليفة ، أم لا ، بدليل قول القاضي (١) النعمان أن ذلك النحو قد تعاضم التأليف في الموضوع الذى طلب منه الخليفة ان يصنف فيه ؟ مع انه من غير المعقول ان يجروا على مخالفة أمر الخليفة .

والآن وقد أوضحنا هذه النقطة ، نجد في المقابل اصراراً من قبل مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين على أن ذلك النحو هو القزاز القيرواني ، هذا أولاً . والشئ الثاني هو حشد من المعلومات عن عنوان الكتاب هو كتاب الحروف ، وقد جاء على

(١) كتاب المجالس والمسائرات ، ص ١٣٤

مارسمة له الخليفة من نهج - وهنا اتفاق بين الروايين على الأقل بالنسبة لموضوع الكتاب - والشئ الثالث أن القزاز قد أُلِف الكتاب فعلا حسب رغبة الخليفة ، وبصورة فريدة غير مسبوقة مما جعلت الخليفة يثنى عليها ويشيد بها . (١)

وبناء على كل هذا ، فاننا لانملك إلا أن نرجح الرواية السنية (٢) ، ولا سيما وهي مليئة بالمعلومات المهمة التي أشار اليها عرضا القاضي النعمان ، وأن نطرح الرواية الشيعية مع أخذ ما يتفق وما اشرنا اليه منها . ومما نود الإشارة اليه أخيراً أن المنجي الكعبي لم يشر من قريب ولا من بعيد الى رواية القاضي النعمان هذه التي عرضنا لها نحن وكذلك لم يفعل مؤرخو الطبقات قبله .

أما الوقفة الثانية ، فهي أن المنجي الكعبي (٣) أثبت بعد بحث طويل ، دقيق فسي الرد على احد الباحثين التونسيين وهو الشاذلي بويحي - ان كتاب الحروف هو كتاب نحوي صرف ، وهو غير كتاب الجامع اللغوي كما ظن الشاذلي بويحي . وفي الحقيقة فان المنجي الكعبي بعد بحثه الدقيق ذلك لم يترك مجالاً للشك بأن كتاب الحروف هو فعلا غير كتاب الجامع (اللغوي) .

(١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص ٤٥ - ٤٦ ، ٤٧ ،

(٢) ٤٨ - ٤٩ . يجب أن نشير إلى أن أحد المصادر السنية وهو وفيات الاعيان لابن خلكان يعزو إلى العزيز بالله بن المعز لا إلى المعز الطلب من القزاز تأليف كتاب الحروف ، ولكن يبدو أن تلك رواية ضعيفة فالتأثير أن الخليفة المعز هو الذي طلب من القزاز ذلك كما تشير أغلب المصادر السنية ، وكذلك رواية القاضي النعمان . عن رواية ابن خلكان : انظر

المنجي الكعبي : نفس المرجع اعلاه ص ٤٨ - ٤٩ .
(٣) القزاز القيرواني ، ص ٤٦ - ٥١ مع الحواشي .

وأخيراً ، فإن الموضوع الذى قام على أساسه كتاب الحروف هو شرح الحروف التى روى النحاة أنها قد جاءت لمعنى ، وقد أجراه المؤلف على حروف المعجم . وهو كتاب مشهور كما ذكرنا من قبل ، ويقع في ألف ورقة (١) . ويرى المنجي الكعبي (٢) أن القزاز قد سبق مثلاً الى ذلك المعنى والنهج النحوى البحث دون غيره من النحويين واللغويين الذين ألفوا في ذلك المعنى ولكن بطريقة مختلفة قبل وبعد القزاز .

ومن لغويي ونحويي افريقية في العصر الزيرى ، ممن وردتنا اشارات عديدة ، لصفتيهم اللغوية والنحوية ، عبد العزيز بن خلف النحوى المغربي (٣) الذى كان بالاضافة الى مهارته في علم اللغة والنحو ، شاعرا بارعا . ويقدر عبد الرحمن ياغي (٤) أن عبد العزيز بن خلوف النحوى ، كان احد شيوخ ابن رشيق الذين تلقى عنهم علوم العربية .

ومن اللغويين والنحويين المعروفين آنذاك بافريقية ابو الفضل جعفر بن احمد النحوى الذى يقدر عبد الرحمن ياغى ايضا انه احد شيوخ ابن رشيق اللغويين والنحاه ، ولا نعرف لابي الفضل جعفر النحوى أى جهود علمية تضعه في مصاف علماء اللغة والنحو سوى ما أشار اليه ابن رشيق في كتابه العمدة من آراء لغوية ونحوية له في غاية من الأهمية . (٥)

-
- (١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ٤٩ (نقلا عن القفطي وابن خلكان)
 (٢) نفس المرجع اعلاه ، ص ٥٢ - ٥٣ .
 (٣) عبد الرحمن ياغي : المرجع السابق ، ص ١٧١ - ١٧٥ . (نقلا عن عدد من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين) فالقفطي والسيوطي وابن فضل الله العمري وغيرهم
 (٤) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٧١ .
 (٥) عبد الرحمن ياغي : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٨٠ (نقلا عن غير واحد من مؤرخي الطبقات) .

وبوسعنا ان نعتبر عالم القراءات القيرواني الاصل والمنشأ
الاندلسي السكنى والوفاة ، مكى بن أبى طالب القيسى (ت ٤٣٧ هـ)
من علماء اللغة والنحو في افريقية في عصر الزيريين ، وقد رأيناه
يتلمذ على القزاز القيرواني ، ويقرأ عليه بعض كتبه ، ومكى بن
أبى طالب يعتبر لغويا ونحويا ، لانه بجانب كتبه ذات الصيغة
اللغوية والنحوية التى أشرنا اليها في الحديث عن علم القراءات
في العصر الزيرى له كتب في النحو صُرفه مثل : (كتاب الزاهى في اللمع
الدالة على أصول مستعمل الاعراب) ويقع في أربعة أجزاء
وكتاب (دخول حروف الجر بعضها مكان بعض) وكتاب : (أصول
الظاء في نحو وقراءات القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن)
وكتاب " التذكرة لأصول العربية ومعرفة العوامل " . وكتاب (الموصول
الى تذكرة كتاب الأصول لابن السراج في النحو) (١) . الخ .

وبإمكاننا بل هو فعلاً أن نعتبر ابن رشيق الشاعر الناصر
الناقد مؤرخ الأدب الذى عرضنا له من قبل ، لغويا ونحويا ،
وكيف لا نفعل ذلك ، وقد قال ياقوت فيما ينقله عنه السيوطي : (٢)
(كان شاعراً نحوياً لغوياً ، أدبياً عروضياً) . وعلى أية حال فقد
ذكرنا لابن رشيق كتابين في الفحوالاول (كتاب الشذوذ) وقد ذكر فيه
كل كلمة جاءت شاذة في بابها والثاني (شرح كتاب الشذاذ)
نفسه . (٣)

(١) القفطي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٥ - ٣١٧

(٢) بغية الوعاة ، الجزء الاول ، ص ٥٠٤

(٣) حسن حسنى عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٣٢ .

وعالم القراءات المشهور على بن ابي فضال الجاشعي القيرواني (ت ٤٧٩هـ) ، الذى كنا قد تلمسنا اثره العلمي في افريقيه من قبل والذى قلنا انه نزل القيروان وارتحل الى المشرق ليلحق ببعض ملوكه يعتبر من علماء اللغة والنحو ، وقد ذكر بأن لمعدة مؤلفات قيمة منها كتاب (اكسير الذهب في صناعة الأدب) ، وهو في النحو ، و (كتاب العوامل والهوامل) في النحو ايضا وكتاب (الفصول في معرفة الأصول) ، و (الاشارة الى تحسين العبارة) ، وكذلك (شرح عنوان الاعراب) و (المقدمة) وايضا (شرح معانى الحروف) (١) وكلها في النحو .

وأخيراً قبل أن نختتم الحديث عن الدراسات اللغوية والنحوية في افريقية في العصر الزيرى ، لا يفوتنا الاشارة الى أن بعضاً من مدن واقاليم افريقية أسهمت خلال عصر الزيريين في إنعاش حركة العلوم العربية وتقدمها . ولعل من أشهر من تذكروا من علماء بعض مدن افريقية العالم اللغوى والنحوى اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابن الخازن المغربي (٢) (كان حياً سنة ٤٢٠هـ) وهو أحد أبناء مدينة المهدية وعلى الرغم من اننا لم نعثر على أى نشاطات علمية له سواء فيما يتعلق بالتصنيف او التصدى للاقراء والتدريس ، الا أنه اشتهر بأنه أحد علماء اللغة والنحو ، ويصفه ابن رشيق (٣) بأنه كان كثيراً ما يبحث عن الشاذ في اللغة ويضمنه اشعاره . ومما يذكر

(١) القفطي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٠

(٢) انظر ترجمة جيدة له عند ابن رشيق شعراء القيروان من انموذج

الزمان ، ص ٤٩ - ٥٢ الصفدى : المصدر السابق ، ج ٩ ،

ص ٦٨ - ٦٩ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر السابق ، ص ٤٩

أن لابن الخازن رحلة الى المشرق ، لقي فيها عدداً من شيوخ
علماء اللغة والنحو.

وفي وسعنا أن نعتبر عالم القراءات المهدوي أصلاً
الامتداد لسيرة أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي من علماء
اللغة والنحو الذين أهدتهم مدينة المهدية للعلم والعلوم
الشرعية والعربية . وقد أطلق عليه القفطي وهو يعرض لترجمته
هكذا : أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي المغربي النحوي
اللغوي المفسر الخ . وكتبه التي ألفها في علم القراءات
يمكن إعتبارها كتب لغة ونحو أيضاً

الفصل الخامس

الدراسات الانسانية

- الجغرافيا
- الفلسفة
- التاريخ

الجغرافيا

تُصادف المتتبع للدراسات الانسانية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة حقيقة مفادها أن افريقية قد قصرت بها همتها العلمية عن أن تجارى في مجال الدراسات الانسانية هاته غيرها من الأمصار الاسلامية ، كبعض بلدان المشرق أو حتى جارتها الأندلس ولا شك نستثنى من ذلك الحكم العام سوى الدراسات التاريخية ، ومع ذلك فإن لنا وقفة مع الدراسات التاريخية نقفها بعد قليل بإذن الله .

وتزداد مساحة الاستغراب عند ما نرى أن بلاد المغرب الأدنى كان لها في الفترة الزمنية نفسها التي تعنينا حضور علمي - إن جاز هذا التعبير - في حقل الدراسات الطبيعية أو التجريبية ، وأن ذلك الحضور العلمي لبعض تلك الدراسات كان من الوضوح بحيث شغل موقعا طيبا في حركة البناء العلمي على مستوى الدولة الاسلامية .

ففي علم الجغرافيا نستطيع القول أن افريقية افتقرت الى وجود جغرافيين ، ومصنفاتهم الجغرافية وما وجد من اشارات عن اشتغال عالمين هما محمد بن يوسف الوراق ، وأحمد بن أبي خالد الجزار بالجغرافيا وبالتالي التصنيف فيها ، لا يعدو أن يكون مجرد حالتين فرديتين . هذا فضلا عن أن هذين العالمين ترجع شهرتهما الى مجال التاريخ أكثر من مجال الجغرافيا ، ولذلك نؤثر الحديث عنهما في سياق حديثنا فيما بعد - عند الدراسات التاريخية . وما يقال عن الجغرافيا يمكن أن يصدق على الرحلات بمعناها الجغرافية ، أو أدب الرحلة الجغرافي الذي شاع آنذاك في المشرق وفي المغرب بعد في فترة لاحقة .

وفي الحق فإننا لا نملك الأدلة التي تفسر لنا سر — زوف
أبناء افريقية عن طَرَقِ هذه الحقول من حقول الدراسات الانسانية،
ذلك لأن كل المؤشرات تؤكد على حتمية الاهتمام بها، فمعظم
الدواعي التي دعت المسلمين الى الاهتمام بعلم الجغرافيا (١) كانت
افريقية في حاجة لها، ومن المعلوم أن (عناية العرب بالجغرافية
وليدة ظروف البيئة الى حد كبير) (٢).

فمن الناحية السياسية والادارية (٣) لا نعتقد أنه لم تكن
شمة حاجة لدى الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم افريقية
الى تنظيم البلاد اداريا، مع ما يتبع ذلك من ضرورة التعرف على
طرقها ومسالكتها ودروبها، وما تحتويه المناطق والأقاليم من ثروات
وغير ذلك؟ هذا شيء والشئ الآخر هو أننا نعرف الأهمية
الجغرافية التي يتيحها علم الجغرافيا للتعرف على موارد المياه
ومنابت الكلاء (٤) . . الخ . فكيف نتصور خلو البلاد من المصنفات
التي توضح تلك المعالم؟

(١) عن الدواعي التي أدت بالمسلمين الى الاهتمام بعلم الجغرافيا
وبفن الرحلة، أنظر نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند
العرب ص ١١-١٢، ١٣٧-١٣٨، ص ١٦٠ - عبد الرحمن
حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم
ص ٢٨ - ٦١ - كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي، الجزء
الرابع، ص ٢٣١ - ٢٣٤ - شوقي ضيف - الرحلات، سلسلة
من فنون الأدب العربي (الفن القصصي) ص ٨-١٢ - أحمد
على الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية
ص ١٦٩ - ١٧٠ .

- (٢) عبد الرحمن حميدة: نفس المرجع اعلاه، ص ٢٨ .
(٣) وهو عامل من أهم العوامل الذي أشار اليه المؤرخون من دواعي
الاهتمام بالجغرافيا .
(٤) هو كذلك من عوامل أو دواعي الاهتمام بالجغرافيا .

ثم أن الرغبة في التجارة وكسب العيش ، وهو عامل من أهم
عوامل الاشتغال بالجغرافيا والأدب الجغرافي ، ألم تكن هناك
حاجة اليها هنا ؟ خاصة اذا عرفنا أن لافريقية سواحل طويلة
هذا من جهة ، واتصال واسع ببلاد السودان من جهة أخرى ؟

ونحن فيما عدا ما ذكرناه من عوامل لن نمضي في تتبع بقية
تلك العوامل التي تؤكد على وجوب الاهتمام بالجغرافيا وبالرحلات
الجغرافية ، ولكننا نتساءل ألم تكن الرغبة في المعرفة الجغرافية
وحدها تداعب أذهان علماء بلاد المغرب الأدنى ومفكريهم ؟

ونخلص من هذا كله الى القول بأننا عبثا نحاول تبين أثر
حسّي جغرافي يتعامل مع ظروف الطقس والمكان والأوضاع السياسية
والاقتصادية لدى المغاربة في افريقية في الفترة موضع الاهتمام .

الفلسفة

واذا تركنا الجغرافيا والرحلات الجغرافية جانبا لنستطلع أثر حقل آخر من حقول الدراسات الانسانية في افريقية ، وهو الفلسفة ، فإننا سنخرج بانطباع جد مهم ، وهو أن الفلسفة لم تكن بأحسن حال من الجغرافيا هناك . فالواقع أننا عدا ما طرق أسماعنا من ذكر لرجلين أطلق عليهما لقب فيلسوف (١) - دون أن نتبين مجهوداتهما التي خوّلت اطلاق ذلك اللقب عليهما ، نقول عدا هذين الرجلين لم نعثر على أى شىء ذى بال عن الفلسفة ورجالها .

وفي الحق فإنه إذا كانت الأسباب قد أعوزتنا في تفسير عزوف أهل افريقية عن الجغرافيا والأدب الجغرافي ، فإنها بالنسبة للفلسفة لم يَعُزْنَا لحسن الحظ ، وهو ما سنطرق اليه على التّو .

(١) هما الفقيه أبو بكر القمودى ، والشاعر يعلى بن ابراهيم الابرسي . أما أبو بكر القمودى ، فقد كان أحد فقهاء افريقية المشهورين بالجدل والمناظرة ، وقد ترجمنا له من قبل (أنظر ص ٥٦٠) . وقد أطلق عليه من أرخ له لقب الفيلسوف . ولا نعرف سرا اطلاق هذا اللقب عليه ، فإذا كان السبب هو اشتهاة بالجدل والمناظرة ، فقد كان هناك نفر آخر غيره اشتهر بالمناظرة والجدل ، وقد أشرنا لهم من قبل . وإذا كان قد اشتهر بالفلسفة بمعناها الدقيق فإننا لم نتبين أى أثر فلسفى له من خلال ترجمته . وأما الشاعر يعلى بن ابراهيم الابرسي الذى عاش في العصر الزيرى ، والذى كان ذا حظ في علمي الطب والهيئة ، فقد قيل بأنه كان كذلك يذهب الى الفلسفة . وهو جل ما قيل عنه . أنظر عبد الرحمن ياغى المرجع السابق ، ص ١٠٦ (نقلا عن ابن فضل الله العمرى) .

(١) بيد أنه يحق لنا أن نأخذ على المستشرق ت . ج . دى بور، الذى أرخ للفلسفة في الاسلام عدم اشارته الى أسباب خلو افريقية من الدراسات الفلسفية وذلك عندما راح يصف واقع افريقية الفلسفي بقوله مانصه حرفيا : (فأما افريقية فشأنها " في الفلسفة " ثانوى ذلك لأن الأسباب كانت من الوضوح بحيث لا تخفى على أحد . وبالطبع فلسنا في حاجة الى كبير عناء لنستنتج بأن كره أبناء افريقية العميق للتفلسف والتنظير والجدل ، هو السبب الرئيسى في خلو البلاد من الفلاسفة وآثارهم . وإذا كان المالكية قد واجهوا تياراً تباع المذاهب الكلامية بتلك الموجة الساخطة التى رأيناها من قبل ، فإن من باب أولى أن لا يرحبوا بأى تيارات فلسفية ، لاسيما وأن الفلسفة بما تُعنى به من مضامين فكرية عقلية حول قضايا الوجود والعدم، والجوهر والعرض، وقضايا ما وراء الطبيعة أو ما يعرف بالميتافيزيقيا ، وكذلك ما تعنيه من البحث في المسائل بحثاً مجرداً من المؤثرات والاعتقادات وقضايا الوجود المطلق ، الى غير ذلك من القضايا . (٢) كل هذا كان كافياً لأن يعرض أهل افريقية عن الفلسفة ويدبروا لها ظهورهم . وهم في ذلك كانوا ينظرون الى الفلسفة نظرة اخوتهم الأندلسيين ، الذين كانوا يرون في الفلسفة على أنها (علم ممقوت لا يستطيع صاحبه اظهاره) (٣) .

-
- (١) تاريخ الفلسفة في الاسلام، نقله الى العربية وعلق عليه محمد عبد الهادى أبورية ، ط ٥ ، ص ٣٦١ .
- (٢) عن الفلسفة وتعريفاتها ، أنظر مثلاً مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٣-٧٥ - أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ، ص ١٣ ، ١٨
- (٣) فيما ينقله سعد البشرى : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الاندلس (رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١هـ / ١٤٠٢هـ (لم تطبع) ص ٣٣٦ (عن المغرى في نفح الطيب ، الذى ينقل عن ابن سعيّد المؤرخ الجغرافي في الاندلس) .

نقول هذا مع التأكيد على أننا لانملك الأدلة القطعية فيما إذا كانت افريقية قد استسلمت لتيارات الفلسفة (أم قاومتها ونفرت منها ، أم تكيفت معها ، وأخذت عنها ما يتناسب وطابعها الخاص ويتماشى وذاتها ؟) ، وكما تساءل محي الدين عزوز . (١)

ولقد كان المظنون في تصورنا أن تبلغ الدراسات الفلسفية درجة من الرقي في ظل الشيعة الاسماعيلية ، وهم الذين كانوا يعتمدون في كثير من قضايا مذهبهم الاعتقادية والسياسية على مبادئ المذهب الفلسفي للافلاطونية الحديثة (٢) . وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن تظهر مؤلفات فلسفية في عهدهم ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . صحيح أنه قد ظهرت كتب الباطن ، التي كنا قد أشرنا إليها من قبل ، ولكن كان ينظر إليها - بالرغم مما فيها من نظرات فلسفية ، على أنها كتب فقه في المقام الأول ، وليست كتباً فلسفية محضة .

وكيفما كان الأمر فإن الأثر العلمي الوحيد الذي نص على انتمائه للفترة الزمنية موضوع الرسالة هو ما ذكر عن تأليف الطبيب والصيدلي والمؤرخ والمربي القيرواني المشهور ابن الجزار لكتاب في الفلسفة عرف عنوانه : رسالة في النفس (٣) .

-
- (١) التطور المذهبي بالمغرب ، ص ٧
(٢) انظر ما قلناه عن ذلك قبل ، ص
(٣) محي الدين عزوز : نفس المرجع أعلاه ص ١٤

أما وقد أوضحنا ما أوضحناه بشأن الجغرافيا والرحلات
الجغرافية ، وكذلك بشأنه بالفلسفة ، فإننا بناءً على كل تلك
المعطيات التي تبَدَّتْ لنا نستطيع التأكيد على أن افريقية لم تُعْرَفْ
في الفترة الزمنية موضوع الرسالة من حقول الدراسات الانسانية
سوى التاريخ وحده .

التاريخ

ولعل الشيء الذى لا خلاف حوله هو أن بلاد افريقية شهدت خلال الفترة موضوع الرسالة اهتماما ملحوظا من قبل أبنائها في العناية بأخبار بلادهم وتدوين أخبارها وأخبار رجالاتها، وبمعنى آخر فقد كان هناك حرص على تسجيل وحفظ مكتسبات البلاد في المجالات المختلفة . وبما كاننا أن نؤكد بأن الحس التاريخي قد نمت مبكرا لدى أبناء افريقية .

غير أن عناية المغاربة بالتاريخ والدراسات التاريخية في الفترة موضوع الرسالة - تبدو وفي تصورنا غير تامة ، فثمّة بعض الملاحظات عليها ، وهو الأمر الذى عنيناه في الاستهلاك ، عندما ذكرنا بأن لنا وقفة مع التاريخ والدراسات التاريخية الافريقية .

ففي البدء نلاحظ أن أبناء افريقية لم يعنوا بكل مناحي التاريخ الاسلامي بمعنى أنهم لم يهتموا بالكتابة في بعض حقول التاريخ كالمغازي والسير ، أو التأريخ للمدن .

كما أن الافريقيين لم يهتموا بالتأريخ للدولة الاسلامية العامة كما فعل المؤرخون المشارقة ، وفي الأنساب لم يكن لهم الا قدر يسير من المؤلفات .

وبناء على هذا نستطيع القول: أن افريقية لم تعرف من مناحي التاريخ سوى تلك التي كانت تهتم بالناحية الاقليمية . وهو ما تمثل في ظهور مؤلفات تعنى بتاريخ افريقية ، أو تلك التي تعنى بالترجمة . وهي سلسلة المؤلفات التي كانت تهتم اما بالترجمة للأحاد من العلماء ككتب المناقب التي كثرت كثرة معروفة آنذاك،

واما الترجمة لطبقات العلماء سواء كانوا فقهاء أو محدثين أو زهادا وهذه كثرت كذلك في الفترة الزمنية موضوع الرسالة كثرة ظاهرة.

وشمة ملاحظات اخرى على الدراسات التاريخية الافريقية منها أن المغاربة مع اهتمامهم ببعض مناحي التاريخ لم يجاروا المشاركة في ذلك ، كما أنهم لم يجاروا جيرانهم الأندلسيين أيضا . ومن الملاحظات على الدراسات التاريخية الافريقية هي أنها لم تتفرد بمنهج تاريخي معين ، بل كانوا تابعين للمشاركة في منهجهم التاريخي ، سواء ما جاء منه على نسق الحوادث ، أو ما جاء على نسق السنين . وهذا ما لاحظناه من متابعتنا لما بقى من كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرفيق القيرواني .

ومن الملاحظات كذلك أن الدراسات التاريخية كانت لا ترقى كثرة للدراسات الشرعية أو الدراسات الأدبية . وهذا أمر طبيعي ليس في افريقية فحسب ، بل في العالم الاسلامي كله آنذاك .

والملاحظة الأخيرة التي تبذت لنا من ملاحظتنا للحركة التاريخية ، هي أن بعض المؤرخين مثل محمد بن أبي العرب ، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي كانوا يسلكون في تواريخهم مسلك المحدثين ، بحكم طبيعة تخصصهم ، وهو منهج عرفته المؤلفات التاريخية المشرقية من قبل .

وكيفما كان الأمر فسنمضي الآن في التعريف بالدراسات التاريخية في افريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة على نفس النهج الذي سلكناه من قبل عند تقويمنا لمظاهر ماسلف من الحياة العلمية . أي أننا سنتحدث عن الدراسات التاريخية حسب

العصور السياسية الأربعة التي عرفت بها افريقية .

الدراسات التاريخية في عصر الولاة :-

من الطبيعي الا يشهد هذا العصر اهتماما بالدراسات التاريخية ، وهو العصر الذي ذكرنا من قبل أنه كان مخصوصا بتباشير النهضة العلمية ، وليس بازدهارها ، نتيجة لما أشرنا اليه من عوامل من قبل ، ولكننا مع ذلك لم نعدم الاشارة الى أحد مؤرخي افريقية في هذا العصر ، أو إن شئنا الدقة أحد الاخباريين ، وهو الفقيه عبدالرحمن بن زياد بن أنعم (ت : ١٦١ هـ) .

ويرى سعد زغلول عبدالحميد (١) أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قد أثر في كثير من روايات المصريين لفتح المغرب والأندلس برواياته المغربية المختلفة ، كما أنه قد يكون قد تأثر برواياتهم أيضا . ويعتقد سعد زغلول (٢) أيضا من خلال الكم القليل من روايات عبدالرحمن بن أنعم للأحداث التي احتفظت بها بعض كتب المؤرخين المغاربة مثل البكري ، وابن عذارى ، وغيرهما أن عبدالرحمن بن أنعم كان يميل الى العناية بالروايات الأسطورية ، أو القصص الشعبية العجيب .

(١) تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣ .

(٢) تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣١ .

الدراسات التاريخية في عصر الأغالبة :

ولاشك أن الدراسات التاريخية في هذا العصر قد حظيت باهتمام عدد لا بأس به من أبناء افريقية الذين خاضوا في التأليف في مناح شتى من التاريخ كالمغازي والسير والانساب والتأريخ للأسرة الى غير ذلك .

ومن أوائل مؤرخي هذا العصر الفقيه المالكي عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت ٢٢٧ هـ) الذي رأيناه فقيها مالكيًا مدافعًا عن المذهب المالكي بلسانه وقلمه . وعلى الرغم من تنويعه بعض المؤرخين المحدثين على أنه أحد مؤرخي البلاد في العصر الأغلبي (١) ، إلا أننا لم نعثر على أي مساهمات تاريخية له .

ويأتي المؤرخ عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر (ت في القرن الثالث الهجري) من مؤرخي هذا العصر (٢) وهو حفيد القائد العسكري المشهور أبو المهاجر دينار ، الذي جاء افريقية فاتحاً بعد حملة عقبة بن نافع الأولى . ويرى البشير البكوش (٣) أن عيسى بن محمد يعتبر أقدم

-
- (١) من الذين أشاروا الى أن عبد الله بن أبي حسان اليحصبي كان مؤرخاً حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص ٦٩ - سعد زغلول عبد الحميد : نفوس المرجع اعلاه والجزء والصفحة .
- (٢) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٦٩ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص ٦٩
- (٣) البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الاول من كتاب رياض النفوس ، ص ١٣٠ .

مؤرخى افريقية ، كما أنَّ كتابه (فتوح افريقية) يعد المصدر الرئيسى لتاريخ الفتح الاسلامي الذى استقى من المؤرخون معلوماتهم .

أما سعد زغلول عبد الحميد (١) فإنه يرى أن عيسى بن محمد بن سليمان كان من تلامذة الفقيه المؤرخ المصرى المشهور عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) الذى يعتبر من مؤسسى أول مدرسة مصرية تاريخية . ومن هنا فإن روايات عيسى بن محمد لا تختلف بشأن فتح المغرب عن روايات أهل مصر .

وبوسعنا أن نعتبر الفقيه المشهور محمد بن سحنون بن سعيد (ت ٢٥٦ هـ) أحد مؤرخي عصر الأغالبة ، فلقد طرق هذا الرجل أبوابا كثيرة من العلوم ، ومن بينها التاريخ . ومما ينسب اليه أنه كتب كتابا في السَّير تبلغ نحو من عشرين كتابا أو جزأ . وفي التراجم والطبقات كتب كتابا في طبقات العلماء يقع في سبعة أجزاء ، وإن كنا لا نعرف عنه في الحقيقة أكثر من اسمه . ولمحمد بن سحنون أيضا كتابا في التاريخ يقع في ستة أجزاء ، وقيل بل أربعة ، وهو أيضا لا نعرف عنه سوى اسمه فحسب . (٢)

ويعتبر الأمير محمد بن زيادة الله الأغلب (ت ٢٨٣ هـ) أحد الرجال الذين أسهموا في الحركة التاريخية والأدبية ، ولقد ذكرنا من قبل أنه شارك في التأليف في الحركة الأدبية النشطة لبلاده (٣) أما في التاريخ فإنه ينسب اليه تصديده لتأليف كتاب في تاريخ أسرته أطلق عليه : تاريخ بنى الأغلب . (٤)

(١) تاريخ المغرب العربى ، ج ١ ، ص ٢٣ مع الحاشية رقم ٢٨ .

(٢) عند هذه الكتب أنظر عياض: المصدر السابق ، الجزء الثانى

ص ١٠٦ - ١٠٧

(٣) أنظر قبل ص ٦٠١

(٤) ابن الأبار الحلة السيرة ، الجزء الأول ، ص ١٨

ويأتي الفقيه الاخباري أبو سهل فرات بن محمد العبدى
(ت : ٢٩٢ هـ) على رأس مؤرخي واخباري عصر الأغالبية
المتأخرين (١) . ويقول محمد بن محمد مخلوف (٢) فيما ينقله
عن مصادره المختلفة . أن فرات بن محمد العبدى (له لسان
طويل ومعرفة بالانساب وكان أعلم الناس بالناس وأدفع الناس في
الناس حتى نسب الى الكذب) .

وأيا ما كان الرأي في فرات بن محمد العبدى فإن الأمر
الثابت هو أن كثيرا من مؤرخي الطبقات المغربية كأبى العـرب
التميمي بصفة خاصة ، وغيره ، اعتمدوا على أقواله ومروياته . (٣) ومما
هو جدير بالذكر أن فرات بن محمد العبدى يستحق نصب السبق
بانفراده عن مؤرخي بلده بالتأليف في الانساب .

الدراسات التاريخية في عصر الفاطميين :

الملاحظ على الدراسات التاريخية في هذا العصر، هو أنه
عدا ازدهارها بعدد اكبر من المؤرخين عن ذي قبل ، فإن
مناحيها قد تعددت خلال هذا العصر مصنفات عُنيت بالترجمة

-
- (١) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ص ٧٢ - حسن
حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، الحاشية
رقم (١) ص ٦٩ - سعد زغلول عبد الحميد : المرجع
السابق ، ج ١ ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣٤ - البشير
البكوش ، مقدمة الجزء الأول ، من رياض النفوس ، ص ١٣٠ .
- (٢) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٧٢
- (٣) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر اعلاه والصفحة - البشير
البكوش ، نفس المقدمة اعلاه والصفحة .

للافراد والأسر ، وهو ما عرف بكتب المناقب ، كما دخل الشيعة
الاسماعيلية طرفا في الدراسات التاريخية عن طريق المصنفات
التي تؤيد وجهة نظرهم .

ولعل أول من يأتي في مقدمة مؤرخي هذا العصر
من حيث التسلسل الزمني والمكانة التاريخية الفقيه المحدث المشهور
محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي المعروف بابن أبي العرب
التميمي (ت : ٣٣٣ هـ) وابن أبي العرب التميمي تردد اسميه
كثيرا في ثنايا الرسالة الأمر الذي يدل على علو مكانته العلمية .
وفي مجال الدراسات التاريخية صنف ابن أبي العربي مجموعة
من الكتب أهمها كتابه المشهور : طبقات علماء افريقية (١) . وهو
الكتاب الذي احتداه بعده كثير من مؤرخي لطبقات المغاربة
سواء أولئك الذين عاشوا في العصور الزمنية التي تؤرخ لها ،
أو أولئك الذين أعقبوهم ، والكتاب على الرغم مما يوحى به عنوانه ،
الا أنه تضمن الكثير من الاشارات التاريخية المهمة في مختلف
النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية . . الخ . ونحن
وإن كنا نتفق مع المنجي الكعبي (٢) محقق كتاب تاريخ افريقية
والمغرب للرفيق القيرواني فيما ذهب اليه من أنه في كثير من
كتب الطبقات المتأخرة غنى عن كتاب طبقات علماء افريقية لكننا
لا نميل الى موافقته كلية ونتفق فيما يقرب البشير البكوش في أنه
يكفي هذا الكتاب أن يكون المصدر الأساسي لكل من كتب في
تراجم رجال افريقية . (٣)

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ - محمد بن
محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٨٤ .
(٢) تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٥
(٣) مقدمة الجزء الاول من رياض النفوس بتحقيقه هو ، ص ١٤

ولأبى العرب التميمي كذلك كتاب آخر في الطبقات يعرف
بكتاب : عباد (١) افريقية وهذا الكتاب وكتاب طبقات علماء افريقية
نهج فيهما ، ابن ابى العرب نهج المحدثين في مؤلفاتهم ،
ولا يستبعد ذلك عنه اذا عرفنا أنه كان من أشهر محدثي افريقية
في العصر الفاطمي . (٢)

ومن مصنفات ابن أبى العرب التاريخية أيضا سلسلة من كتب
التراجم للأفراد ، والقبائل .
مثل كتاب فضائل سحنون ، (٣) وكتاب مناقب تميم (٤) ، وهى القبيلة
التي ينتسب اليها .

ولابن أبى العرب كذلك كتاب بعنوان : كتاب المحسن (٥)
ويقوم موضوعه على تتبع من عاش من رجال الاسلام في المشرق أو المغرب
من محن دارت عليه من قبل بعض الخلفاء والأمراء . وقد سبق
لنا أن أفدنا منه عند حديثنا عن محنة خلق القرآن التي تعرض لها
الفقهاء المشهور سحنون بن سعيد .

ومن كتب التاريخ الدقيق التي كتبها ابن ابى العرب ، كتاب
التاريخ (٦) ، ويقع في سبعة عشر جزءا . ويرى البشير (٧) البكوش
أن ابن ابى العرب سلك فيه أسلوب التأريخ على نسق الحوليات .

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ - محمد بن محمد مخلوف :
المصدر السابق ، ص ٨٤
(٢) أنظر قبل ، ص ٤٠٠ - ٤٠١
(٣) عياض : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ٣٣٥ - البشير
البكوش : نفس المقدمة اعلاه والصفحة .
(٤) البشير البكوش : نفسه ، ص ٢١٤ .
(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٣٥ - البشير البكوش : نفسه ، ص ١٤٠ .
(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٣٥ (وهو الذى أشار الى عدد أجزاء
الكتاب - البشير البكوش نفسه ص ١٤٠ .
(٧) مقدمة الجزء الاول من الرياض ، ص ١٤٠ .

ومن مؤرخي عصر الفاطميين ممن اقتصر على علم التاريخ وحده ، المؤرخ أبو علي الحسين بن أبي سعيد بن عبد الرحمن بن عبيد البصري (١) (كان حيا سنة ٣٤٦ هـ) (٢) . ولقد اشتهر الوكيل بكتابه الذي صنّفه وأطلق عليه عنوان : الكتاب المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب ، وقد اعتمد كثير من مؤرخي طبقات العلماء واللغويين والنحاة من أمثال عياض في مداركه وابن الأبار في الحله السيرة ، وأبي بكر الزبيدي الأندلسي في كتابه : طبقات اللغويين والنحويين ، على كتاب الوكيل وأفادوا منه ، وكان ذلك من حسن الحظ ، إذ حفظوا بذلك معلومات تاريخية مهمّة جدا كان يحتويها هذا الكتاب الذي فقد . (٣)

وهناك مؤرخ ابا ضي المذهب شارك كما يظن في مسيرة الدراسات التاريخية في العصر الفاطمي هو أيوب بن أبي يزيد مخلص بن كيداد الثائر الخارجي المشهور ، الذي خرج على الخلافة الفاطمية كما نوهنا من قبل . وأيوب بن أبي يزيد كان مشاركا لأبيه في الأحداث التي وقعت آنذاك ، وقد انتهى الأمر بمقتله عام ٣٣٦ هـ . وعلى الرغم من أن سعد زغلول عبد الحميد هو الذي أشار إلى أن أيوب بن أبي يزيد هو أحد

-
- (١) ترجم له حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثاني حاشية رقم (١) ص ٥٨ - البشير البكوش : مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ١٤ م (نقلا عن الخشني)
- (٢) ذكر حسن حسني عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه القسم والصفحة أن وقاته كانت عام ٣١٠ هـ - وكذلك قال سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤ - والمنجي الكعبي : مقدمة كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرفيق القيرواني ، ص ١٥ . غير أننا اخذنا في المتن برواية البشير البكوش : نفس المقدمة والصفحة اعلاه ، لأنّه ذكر بأن الوكيل قد أخذ علومه في العربية على يدي اللغوي النحوي المشهور ابن الوزان المتوفي سنة ٣٤٦ هـ البشير البكوش : نفس المقدمة اعلاه والصفحة . (٣)

إخباري افريقية وقتذاك ، إلا أننا لم نعرف عن اسهاماته التاريخية سوى ما ذكره عن نقل ابن خلدون في كتابه العبر فقرات من أخبار أيوب ورواياته (١)

ومن مؤرخي العصر الفاطمي أبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط (كان حيا بعد ٣٥٠ هـ) . ويقول البشير البكوش بأن الفقيه المؤرخ الافريقي المالكي صاحب رياض النفوس قد اعتمد في كثير من زوايا كتابه على أخبار ومرويات ينقلها عن الخراط ، سواء ما يتصل منها بالفتح الاسلامي للمغرب أو ما يتصل بمناقب الصحابة وأخبار العلماء وغير ذلك ، وأنه - أي المالكي - ، هو الوحيد الذي نقل مباشرة عن الحسين بن سعيد الخراط . (٢)

وفيما يتصل بالدراسات التاريخية الشيعية فإن الملاحظ أنه كان هناك حرص على تدوين أحوال الخلافة الفاطمية وأخبارها في الدور المغربي من تاريخها . وهذا ماوضح من اضطلاع القاضي النعمان بتلك المهمة .

وعلى أية حال فإن من أوائل المصنفات التاريخية الشيعية كتاب الإمامة الذي قيل: إن الخليفة المنصور بن القائم (ت ٣٤١ هـ) قد صنفه . ولقد ذكر كذلك بأن الذي صنف الكتاب هو القاضي النعمان وليس الخليفة المنصور . (٣)

(١) سعد زغلول عبد الحميد : نفس المرجع السابق والجزء ص ٢٥

(٢) مقدمة تحقيق للجزء الاول من رياض النفوس، ص ٢١٥

(٣) أنظر قبل ص ٥٥٦ .

وفي الحق فإن القاضي النعمان كتب سلسلة من المصنفات التاريخية القيمة التي تعكس نظرة الفاطميين الشيعة الاسماعيلية للأحداث .

فمن بين تلك الكتب المهمة كتاب افتتاح الدعوة ، وهو كتاب يتناول بالشرح والتحليل أخبار انتشار الدعوة الشيعية في المغرب منذ أن فكر جعفر الصادق في بعث دعائه الى المغرب وحتى قيام الخلافة الفاطمية ، بل وحتى خلافة الخليفة المعز لدين الله (١) وقد حمل الكتاب بجانب عنوانه المشهور سالف الذكر عناوين أخرى مثل كتاب أخبار الدولة وكذلك : شرح الأخبار عن الأئمة الأخيار أو الأطهار . (٢)

ومن مصنفات النعمان التاريخية أيضا كتابان أشار عليهما بتصنيفهما الخليفة المعز لدين الله كما يصرح هو نفسه في كتابه المجالس والمسايرات (٣) . هذان الكتابان هما : كتاب بني هاشم ، وكتاب مثالب بني عبد شمس ، وقد جاءا كتابين ضخمين جامعين في موضعهما (٤).

ولا يفوتنا - ونحن نشير الى كتب القاضي النعمان التاريخية - ، الإشارة الى الأهمية الكبيرة التي يمثلها كتاب

(١) أنظر فرحات الدشراوى : مقدمة كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان .

(٢) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، الحاشية رقم (١) ص ١١٧ .

(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١١٧ .

(٤) القاضي النعمان : نفسه ، ص ١١٧ .

المجالس والمسايرات ، فهو كتاب جامع بحق : مذهبي واجتماعي وتاريخي وعقائدي الى غير ذلك حسبما أشرنا من قبل . (١)

(٢)

هذا وقد ذكر القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات أن أحد رجالات الخلافة الفاطمية في افريقية قد صنف كتابيــــــــــــــن في سيرة بنى أمية ، وبنى العباس ، وهو الأمر الذي أغضب الخليفة المعز الذي كان ينتظر من تابعه هذا أن يكتب في سيرة الأئمة (العلويين) بدلا من أن يكتب عن خصومهم .

ومن أبرز المؤرخين المتأخرين في العصر الفاطمي أبو عبد الله محمد بن يوسف الوراق القروي المعروف بالتاريخي (٣) (ت ٣٦٣هـ) ومحمد بن يوسف الوراق أندلسي الأصل ، افريقي المنشأ والتعليم ، ثم ارتحل ثانية الى الأندلس ، فعاش في كنف الخليفة الحكم المستنصر ، الذي رعاه وقربه اليه وحفّزه على التأليف .

ونحن بالطبع قد ملنا الى اعتباره أحد مؤرخي افريقية بحكم أنه عاش فيها (ونشأ وتعلم وانتشر له صيت في العلم بأحوال

(١) أنظر قبل ص ٦١٣-٦١٤

(٢) ص ٢٨٦ .

(٣) ترجمته موجودة عند الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، ص ١٤١ - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ، ص ٣٦٦ - حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس ، ص ٧٣ - ٧٥ ، ١٤١ - ١٤٥ - كارول بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث ، ص ٩١ - عمر رضا كحالة والتاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ، ص ٨٦ - ٨٧ و ص ٢٥٧ (وعنده ان وفاته كانت عام ٣٦٢هـ) - عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المرى : دليل مؤرخي المغرب الأقصى ، الجزء الاول ، ص ٢٩ - ٣٠ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٢٢ .

افريقية والمغرب وتاريخهما (١) . ومن هنا حق لنا أن نضعه في عداد مؤرخي افريقية ، لهذا الأمر من جهة ، ولأن شهرته العلمية قامت على مؤلفاته التي اختص بها بلاد افريقية التي عاش بها مدة مديدة من الزمن من جهة أخرى .

وعلى أية حال فقد كان محمد بن يوسف الوراق القروي من المشهورين بعلم التاريخ حتى أنه لقب بالتاريخي لكثرة (٢) تأليفه فيه . على أن لمحمد بن يوسف الوراق شهرة جغرافية لا تقل عن شهرته التاريخية ، تجلت في تصنيفه لكتاب : مسالك افريقية وممالكها (٣) الذي صنفه للخليفة الحكم المستنصر . وهذا الكتاب الجغرافي كان ذا أهمية بالغة في توضيح مسالك ودروب افريقية وقد اعتمد عليه كثيرا المؤرخ الجغرافي الأندلسي المشهور أبو عبيد البكري في كتابه : المسالك والممالك (٤) . ويقول حسين مؤنس (٥) أن الوراق هو أول من كتب في (المغرب الاسلامي كتابا بعنوان المسالك والممالك) ، كما أن مما يدل على مكانة الوراق العلمية أنه هو الذي ابتكر منج الجغرافية بالتاريخ ، وهي الطريقة التي سار عليها البكري والرحالة التيجاني بعد ذلك . (٦)

-
- (١) حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص ٧٣
(٢) انظر الضبي : نفس المصدر السابق والصفحة - حسين مؤنس : نفس المرجع السابق والصفحة .
(٣) الضبي : نفسه ، ص ١٤١ - ابن الأبار : نفس المصدر السابق اعلاه الجزء والصفحة ، حسين مؤنس ، نفسه ، ص ٧٣ - ١٤١ .
(٤) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، ص ٧٣ ، ١٤١ - ١٤٥ - مجموعة من الادباء والعلماء : تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ٩١ - ٩٢
(٥) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ، ص ٧٥
(٦) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٥

أما مصنفاته في التاريخ فقد تعددت أيضا ، نذكر منها
كتابه الذي صنفه في (أخبار ملوكها والغالبين عليهم) (١) ، أي أخبار
أفريقية والغالبين على أهلها .

ومن مصنفاته التاريخية أيضا مجموعة من الكتب (في أخبار
تيهـرت (تاهـرت) ووهران ، وتنس ، وسجلطاسه ، ونكور ، والبصرة
(المغربية) هنالك) (٢) . وقد اعتمد المؤرخ المغربي المشهور
ابن عذارى في كثير من أخباره على سلسلة الكتب هذه التي كتبها
الوراق للخليفة الأموي الحكم المستنصر . (٣)

ومما ينسب إليه كذلك كتاب في الأنساب ، بعنوان :
أنساب البربر ، نقل عنه البيدق مؤلف كتاب محمد بن تومرت وغيره . (٤)

(١) كما نقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحميدى في

جذوة المقتبس وابن الأبار في التكملة وغيرهما) .

(٢) كما ينقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحميدى

والضبي وابن الأبار) .

(٣) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ - ٧٦

(٤) حسين مؤنس : نفسه ص ٧٥ - كارل بروكلمان : تاريخ

الأدب العربي ، ج ٣

الدراسات التاريخية في عصر الزيريين :

لقد تابعت الدراسات التاريخية في هذا العصر توسعها وازدهارها من حيث الكم والنوع ، فمن حيث الكم ازدادت أعداد المؤرخين في هذا العصر عن ذي قبل ، ومن حيث النوع فقد تنوعت المصنفات التاريخية في معظم مناحي التاريخ كالتأريخ للأقاليم والأقوام والترجمة لطبقات العلماء وغيرهم ، مع كثرة عددها .

ومن أوائل المؤرخين الذين عرفهم هذا العصر الفقيه المحدث المشهور محمد بن حارث بن أسد الخشني (ت ٣٦٦هـ) الذي طرق اسمه أسما عنا كثيرا فيما قبل . ولقد خاض محمد بن حارث غمار التصنيف في علم التاريخ كما خاض مجالات تصنيفه أخرى وفي الحديث والفقه وغير ذلك . ويأتي كتابه طبقات قرطبة وعلماء إفريقية على رأس أشهر كتبه التاريخية . وهذا الكتاب ترجم فيه ابن حارث الخشني لمن تولى القضاء في الأندلس منذ الفتح وحتى سنة ٣٥٦هـ . (١) كما أنه ترجم لعشرات من علماء إفريقية . ومما يلاحظ على كتابه هذا أنه قد ترجم بالاضافة الى العلماء الذين سبقوا عصره الى علماء معاصرين له ، فأورد لهم تراجم تفاوتت من حيث الطول (٢) والقصر .

-
- (١) سعد البشري : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٤ (نقل عن أكثر من مصدر) - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ١٥٠ .
- (٢) أنظر محمد بن حارث الخشني : طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب طبقات علماء إفريقية للأبي العرب التميمي ، ص ٨٠- ١٩٧ - (باب في ذكر الرجال العراقيين) وقد ترجم فيه لعلماء معاصرين له من علماء المذهب الحنفي ، وغيرهم ، بـ إنه قد أورد مناظرته لبعض منهم . (أنظر ص ١٩٥ ، ١٩٧) .

ومن مصنفات محمد بن حارث الخشني في مجال التراجم والطبقات عدة كتب منها : كتاب في تاريخ علماء المالكية ، وكتاب آخر بعنوان كتاب فقهاء المالكية ، وإن كنا لانعرف الفرق بينهما . ومنها كتاب في تاريخ علماء الأندلس ، وكتاب المولد والوفاة ، وكتاب تاريخ قضاة الأندلس . (١)

أما في مجال كتب التاريخ العامة ، فقد كتب : كتاب الافريقيين (٢) وكتاب تاريخ الأندلس (٣) وكتاب التعريف (٤) . وفي الأنساب كتب كتابا بعنوان : كتاب في النسب (٥) .

ومن المؤرخين المبرزين في هذا العصر الطبيب المشهور أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزار المعروف بابن الجزار (٦) (ت ٣٦٥ هـ) . وابن الجزار رجل متعدد المواهب فهو طبيب حاذق وصيدلى متمكن ، وهو مؤرخ وأديب أيضا . فمن مصنفاته في التاريخ نذكر كتاب " مغازى افريقية " ويتعلق كما يوحى عنوانه بالفتح الاسلامي لبلاد افريقية . (٧) ، ويقول حسن حسنى عبد الوهاب (٨) بأن الجغرافى

-
- (١) عياض : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣١
 - (٢) عياض : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء والصفحة - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ١٥٠ (ويسميه كتاب الأفاقة) .
 - (٣) سعد البشرى : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٥ .
 - (٤) عياض : نفسه ، ص ٥٣١ - البشير البكوش : نفس المقدمة اعلاه والصفحة .
 - (٥) عياض : نفسه ، ص ٥٣١
 - (٦) عن ترجمته وفاته والاختلاف فيها ، أنظر بعد ص ٧٩٥-٧٦٧
 - (٧) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ٣١٩ - البشير البكوش : نفسه المقدمة اعلاه والصفحة .
 - (٨) الورقات ، القسم الاول ، ص ٣١٩

الأندلسي أبا عبيدة البكري قد نقل عنه كثيرا في كتابه المسالك والممالك .

ومن كتب التاريخ العام التي صنفها ابن الجزار
كذلك كتاب : تاريخ الدولة أو : أخبارا لدولة ^(١) . ويعني بها الدولة
الفاطمية .

ويرى حسن حسنى عبد الوهاب ^(٢) أن المؤرخ المصرى
المقريزى في كتابه اتعاط الحنفا قد نقل عنه كثيرا . والكتاب التاريخى
العام الذى صنفه ابن الجزار هو كتاب : التعريف بصحيح التاريخ ^(٣)
وهو كتاب جليل الفائدة يدل على ارتقاء الحس التاريخى في افريقية
آنذاك ، ويقول حسن حسنى عبد الوهاب ^(٤) أن ابن أبى اصبيعة
صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وياقوت الحموى في كتابة معجم
الأدباء قد ذكراه وأثنيا عليه . أما الحبيب الهيلة محقق كتاب الحل
السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج ، فإنه يذكر بالاضافة
الى ابن أبى اصبيعه وياقوت نقولات كل من الصمدى في كتابه الوافى
بالوفيات ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ، والبغدادى فى
هدية العارفين عن كتاب التعريف هذا . ويضيف الى ذلك قوله
أنه فقد نقل عن ابن الجزار في كتابه هذا اكثر مؤرخي الطبقات المغربية
والأندلسية كالقاضى عياض في المدارك والمالكى في رياض النفوس
والدباغ في معالم الايمان والمؤرخ الاندلسي ابن حبان في كتابه
المقتبس . ^(٥)

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ٣١٨
البشير البكوش : نفس المقدمة السابقة ، ص ١٥٠ .
- (٢) الورقات ، القسم الاول ، ص ٣١٨
- (٣) ابن السراج : الحل السندسية في الاخبار التونسية ، الجزء
الاول ، القسم الثالث ، حاشية ، رقم (٢) ص ٧٦٣ - حسن
حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه والقسم والصفحة
- (٤) الورقات القسم الاول ، ص ٣١٨
- (٥) الجزء الاول ، القسم الثالث ، حاشية رقم (٢) ص ٧٦٣ .

وأخيرا فإن لابن الجزار كتابا في التراجم بعنوان : طبقات القضاة ، ترجم فيه لقضاة افريقية حتى عصره . (١) أما في الجغرافيا ، فإن له كتابا مشهورا يعرف بكتاب عجائب البلدان أو عجائب الأمصار . (٢)

وبوسعنا أن نعتبر الفقيه أبا القاسم أو أبا سعيد المعروف بالبراذعي (ت بعد ٣٧٢ هـ) أحد مؤرخي هذا العصر ، فقد صنف كتابا (في تصحيح نسب بني عبيد) ، وهو الكتاب الذي كان أحد أسباب نقمة فقهاء المالكية عليه كما أوضحنا من قبل . (٣)

ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن رشيق (ت ٣٧٦ هـ) الفقيه المحدث الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن دراسات علم الحديث . فلقد ذكر بأنه كان ذا اهتمام بعلم التاريخ ، وقد وصف بأنه كان له (تقدم في معرفة الآثار والسير والأخبار) . (٤)

ومنهم الذين عنوا بالترجمة لبعض علماء وفقهاء افريقية المشهورين آنذاك الفقيه : أبو عبد الله الحسين بن أبي العباس عبد الله بن عبد الرحمن الاجدابي (ت ٣٨٤ هـ) . فلقد صنف مجموعة من الكتب ككتاب : مناقب ربيع القطان ، وكتاب مناقب أبي الفضل المسمى ،

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣١٩

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٣) أنظر قبل ص ٣٧٥

(٤) عبد الرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ،

ص ١٨٩ - ١٩٠ (نقلا عن الدباغ في المعالم) .

وكتاب مناقب ابي اسحاق السبأى ، وكتاب مناقب ابن نصر - وكلهم فقهاء مشهورين - آنذاك . (١)

ومن مؤرخي افريقية المشهورين ايضا أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت ٤٢٢ هـ) وله كتاب مشهور يعرف بكتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وماتعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار (٢) . وللتجيبى كتاب آخر يعرف بكتاب الطبقات . (٣)

على أن أشهر وأبرز مؤرخي افريقية ليس في عصر الزيريين فحسب ، بل في كل عصور الرسالة ، كان بالامراء المؤرخ الكاتب الأديب ابراهيم الرفيق المعروف بالرفيق القيرواني (٤) (ت : ٤٢٥ هـ) . والرفيق القيرواني عرفناه أدبيا لامعا شارك في النهضة الادبية في العصر الزيرى ، كما عرفناه كاتباً مرموقاً من كتاب الدولة الزيرية . لكن مالم نعرفه بعد هو مكانته في علم التاريخ . وفي الحق فإن شهرته في علم التاريخ قد فاقت شهرته في الادب والكتابة . فلقد قال ابن رشيق معاصره فيه) . . . وغلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار

-
- (١) ترجم له كل من عياض : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٢١-٦٢٢ - الدباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦-١٠٧ - (وهو الذى أشار الى تاريخ وفاته) - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ٢١٦ (وقد ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٢ هـ) ولكن يبدو أن هذا وهم منه .
- (٢) هذا ما زودنا به البشير البكوش : نفس مقدمة الجزء الاول من الرياض اعلاه ص ٢١٦ - أما الدباغ : نفس المصدر السابق اعلاه والجزء ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - فقد أشار الى أن اسم الكتاب هو كتاب الافتخار فحسب .
- (٣) الدباغ : نفسه ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - البشير البكوش : نفسه ص ١٦٦
- (٤) ترجم له كل من ابن رشيق : شعراء القيروان من انموذج الزمان ص ٢٨ - ٣٤ الصفدى : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٩٢-٩٣ - ابن الخطيب : تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام ، حاشية رقم (١) ص ٦٩ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٧ (وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥ هـ) - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات القسم الثانى ، ص ٤٣٨-٤٤٧ (وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥ هـ)

وهو بذلك أحذق الناس) . (١)

أما ابن خلدون فقد قال عنه مانصه (ابن الرقيق (٢) مؤرخ افريقية والدول التي كانت بالقيروان ، ولم يأت من بعده الا مُقلِّد (٣)

ولقد ترك الرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات القيمة مثل كتاب تاريخ افريقية والمغرب، ويقع في عشر مجلدات ، تناول فيـه أحداث بلاد افريقية والمغرب حتى سنة ٤١٧ هـ (٤) . وهذا الكتاب من أجَل المصنفات التاريخية وقد اعتمد عليه كثير من مؤرخي افريقيـه وغيرهم في تأريخهم لاحداث المغرب العربي (٥) .

ويرى المنجي الكعبي (٦) محقق القطعة التي وجدت من كتاب تاريخ افريقية والمغرب أن كتاب الرقيق هذا قد احتـوى على كثير من التفاصيل التاريخية المهمة التي خلت منها نقولات بعض المؤرخين عنه كابن عذارى وغيره .

-
- (١) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق والقسم : ص ٤٤١ .
- (٢) هذا خطأ تاريخي فالثابت تاريخيا ان كلمة ابن التي تسبق كلمة الرقيق هي وهم تاريخي جرى عليه كثير من المؤرخين القدامي والمحدثين . أما الصحيح فهو : ابراهيم الرقيق أو الرقيق القيرواني ، وهو نعت له وليس اسما لبيه .
- أنظر الشاذلى بويحيى : مقاله حول نشر كتاب قطب السرور ، أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، ص ٨-٩ .
- (٣) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه والقسم ، والصفحة .
- (٤) كما لاحظ ذلك حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٤٢-٤٤٣
- (٥) حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٤٢-٤٤٣ - المنجي الكعبي : مقدمة تحقيق كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق ص ٧-٨ ، ١٠-١١-١٣ .
- (٦) مقدمة تحقيق تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٠-١١ ، ١٣ .

أما حسن حسنى عبد الوهاب (١) ، فإنه يرى أن كتاب تاريخ افريقية والمغرب هو مآثرة الرقيق الخالدة ، ويرى أيضا أن الكتاب استمد أهميته من اعتماد مؤلفه على الوثائق التاريخية التي كان يطلع عليها بحكم اشتغاله في ديوان المراسلات الزيرى كما ذكرنا من قبل .

ومما هو جدير بالذكر أن معلومات الرقيق القيروانى تزداد كثافة كلما قُرب من الاحداث التي عاصرها ، والمتتبع للقطعة الموجودة من تاريخه التي تقف حتى أمانة الأمير عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (ت : ٢٠١ هـ) وماتناثر من معلومات تاريخيه مهمة في كتاب ابن عذارى نقلا عن الرقيق القيروانى بشأن أخبار الأمراء الزيريين (٢) ، سيلمس الفارق . وهذا أمر طبيعي إذ كان الرقيق يورث للأحداث السياسية والاجتماعية التي شاهدها وعاشها بحكم اضطراره برئاسة ديوان الانشاء مدة ربع قرن . ولذلك أتت معلوماته كثيفة غزيرة كشاهد عيان عاصرها وشارك فيها .

وللرقيق كتاب تاريخي آخر بعنوان اخبار بنى زيرى الصنهاجيين ، ويحتوى على معلومات واخبار عن الامراء زيرى بن مناد وابنه بلكين بن زيرى ، وحفيده المنصور بن بلكين (٣) . كما أن للرقيق كتابا في التاريخ بعنوان : الاختصار البار للتاريخ الجامع ، ويقع في عدة مجلدات كما ذكر الصغدي في كتابه الوافي بالوفيات . (٤)

-
- (١) الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤
(٢) انظر مثلا ابن عذارى ، المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٢-٢٧٣
(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الثانى ، ص ٤٤٤
(٤) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦

وبامكاننا أن نعتبر ابن رشيق الأديب الإفريقي المشهور
(ت : ٤٥٦ هـ) من مؤرخي العصر الزيري المتأخرين ، فقد ذكر
بأن له كتابا في التاريخ بعنوان : ميزان العمل في أيام الدول (١) ،
أوميزان العمل في التاريخ . (٢)

وفي وسعنا كذلك أن نعد ابن شرف القيرواني الأديب
المشهور (ت : ٤٦٠ هـ) هو الآخر مؤرخا ، فقد ذكر بأن له كتابا
في التاريخ ذيل به كتاب تاريخ إفريقيه والمغرب للرقيق القيرواني . (٣)

وأخيرا فإن الفقيه المشهور أبا بكر المالكي يعتبر بتصنيفه
لكتابه الممتع رياض النفوس من مؤرخي إفريقية المتأخرين . فالكتاب
عدا القيمة الققهية العظيمة التي نستمد منها يعتبر كتابا تاريخيا
قيما .

وكتاب رياض النفوس للمالكي يلقي ضوءا جديدا على تاريخ
المغرب الاسلامي كما لاحظ بحق حسين مؤنس (٤) . فالكتاب
يقدم معلومات قيمة عن الفتح الاسلامي للمغرب ، كما أنه يقدم
معلومات مهمة عن الحياة العامة للأفريقيين سواء ما يتصل منها

-
- (١) كما يقول عبدالسلام عبدالقادر المرى : دليل مؤرخي المغرب
الاقصا ، ص ١٦٦ .
(٢) كما يقول عبدالرحمن ياغي : المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩
(نقلا عن مصادر مختلفة) .
(٣) البشير البكوش ، مقدمة تحقيق الجزء الاول من رياض النفوس
ص ١٧ م .
(٤) مقدمة تحقيقه للجزء الاول من رياض النفوس ، ص ٢٤ وما بعدها .

بالنواحي السياسية والاجتماعية أو العلمية أو العمرانية ومن ناحية أخرى فالكتاب يسلط الضوء على موضوع جديد كان له السبق في خوضه ، وهو التأريخ للاربطة وسكانها من العباد والعلماء المتطوعين ، الذين سكنوها . (١)

وتزداد أهمية الكتاب أكثر فأكثر بالنقولات المهمة التي نقلها المالكي عن المصادر التي سبقته في التأريخ لأفريقية ولقد احصى البشير البكوش (٢) في جهد مشكور جميع المصادر التي اعتمد عليها المالكي في روايته للأخبار والتواريخ ، سواء كانت مصادر تاريخية أو مصادر فقهية أو حدیثية أو سواء تلك التي نص صراحة على نقله منها أو اغفل ذكرها . وهكذا نرى أن الدراسات التاريخية قد بلغت في عصر الزيريين مبلغا كبيرا من الرقي والازدهار والتوسع .

-
- (١) انظر حسين مؤنس : مقدمة تحقيقه للجزء الاول من الرياض، ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .
(٢) البشير البكوش : في مقدمة تحقيقه للجزء الاول من رياض النفوس ص ٢٠ - ٢٢ .

الفصل السادس

الدراسات الطبيعية

- الطب والصيدله

- الفلك والرياضيات

في حد يثنا السابق عن الدراسات الانسانية ذكرنا أن افريقية
قد سجلت حضورا علميا في الدراسات الطبيعية ، وإن كان ذلك
الحضور العلمي لا يتسامى مع الحضور العلمي في حقل الدراسات
الشرعية والأدبية ، ولا يجارى - من جهة أخرى - مثيلة فـي
المشرق أو الأندلس .

ومع ذلك فإنه يحق لنا أن نشيد بالتقدم والازدهار
الذى أسداه ذلك الحضور العلمي لمسيرة الحياة العلمية فـي
افريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة . فافريقية وعلى الرغم
من عدم توفر الأسباب الكفيلة بتقدم الدراسات الطبيعية بهـا
قد أهدت الى حركة العلوم الاسلامية العديد من الجهود العلمية
الطبية التى كان لها الأثر الحسن في تقدم الدراسات الطبيعية
تلك .

وكيفما كان الأمر فإننا اذا مضينا نبحث عن الطب وعلومه
في افريقية - وهو حقل من أهم حقول الدراسات الطبيعية - فإننا
سنجد حضورا متميزا بشأنه خلال الفترة موضع الاهتمام . فلقد رعت
الانظمة السياسية التى تعاقبت على حكم افريقية وخاصة الدولة
الأغلبية علوم الطب وشجعته ، واستمر الاهتمام بها يتواصل مما
حفز أبناء افريقية على مواصلة جهودهم في اثراء البلاد بأبحاثهم
ومصنفاتهم .

ومما يلاحظ على حركة العلوم الطبيعية في افريقية فـي
الفترة الزمنية موضوع الرسالة أن بزوغها ومن ثم ازدهارها قام على
اكتاف فئة من الأطباء المشاركة وفدت الى افريقية فنشرت علومهم
ومعارفها الطبية في البلاد من ناحية ، ورعت بعض أبناء البلاد

وشجعتهم على الانخراط في تعلم علوم الطب من ناحية أخرى . ربيد
أننا نستدرك فنقول أن نسبة هؤلاء الأطباء من أبناء البلاد كانت
ضئيلة .

والملاحظة التي اتضحت لنا ونحن نرقب الحركة الطبية
الافريقية أن عددا من أطباء افريقية وقتذاك كانوا من غير المسلمين ،
وهذا أمر يمكن فهم أبعاده من خلال أولية جهود اليهود والنصارى
في هذا المجال .

العلوم الطبية في عصر الولاة :-

من المعلوم أن عصر الولاة في افريقية قد اكتتفت معظم
سنواته الفتن والاضطرابات ، فكان من الطبيعي ، ألا يشهد عناية
بعلوم الطب . ونستثنى من ذلك عصر الوالى يزيد بن حاتم
المهلبى ، الذى عرف عصره قدوم أحد أطباء المشرق المشهورين
وهو الطبيب السريانى أبو يوحنا ماسويه . وأبو يوحنا ماسويه كان
أحد الأطباء المهرة من اتباع مدرسة جند بسابور الطبية في العراق
ثم قدم على الامير يزيد بن حاتم ، حيث ظل في معينه فترة
من الزمن . ويميل حسن حسنى عبد الوهاب الى القول بأن أبا
يوحنا ماسويه ربما يكون قد عاد ثانية الى المشرق بعد وفاة الأمير
يزيد بن حاتم لاسيما أن ابنه يوحنا بن ماسويه قد نال درجة
رفيعة في الطب في بغداد في عهد الخلفاء : الرشيد والأمين
والمأمون والمتوكل . (١)

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ٢٧١

على أننا في الحقيقة فيما عدا ما ذكره حسن حسنى عبد الوهاب (١)
من قدوم أبي يوحنا ماسويه الى افريقية ، لم نعثر على أى نشاطات
طبية له في هذه البلاد ، اللهم الا اشارة عابرة أوردها المالكي
في سياق ترجمته للقاضى عبدالرحمن بن زياد بن أنعم (ت : ١٦١ هـ)
تنوّه بمهارته في الطب. (٢)

العلوم الطبية في عصر الأغالبة :

ولا خُفاً في أن العلوم الطبية في عصر الأغالبة قد
شملها الكثير من التوسع والاطراد في الكم والنوع . وبوسعنا أن نقول
بأن هذا العصر هو العصر الذى شهد البداية الحقيقية
للدراستات الطبية الافريقية . وما من ريب في أنه كان لجهود الأمراء
الأغالبة ، ولا سيما الثلاثة الآخرين منهم : ابراهيم الثاني وابنه
عبدالله ، وحفيدة زيادة الله الثالث

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢٧١
(٢) ذكر المالكي أن القاضى عبدالرحمن بن زياد بن أنعم
أكل في الليلة التى مات فيها حوتا وشرب لبنا على ماء مـدة
الأمير يزيد بن حاتم . وكان الطبيب يوحنا (وهكذا يسميه
بدون : أبو) حاضرا ، فاستنتج من خلال خبرته الطبيه
أن ذلك ربما يكون سببا في موت القاضى . ولقد توفي
القاضى فعلا في فجر تلك الليلة .
أنظر المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٢

الدور الكبير في تقدم الدراسات الطبيعية عامة والطبية على وجه الخصوص . ولقد تمثل ذلك الدور في تأسيس بيت الحكمة برقادة الذي قصد منه العناية بتلك العلوم التي شغفت لسبب أولئك الأمراء .

ومما ساعد على تقدم الدراسات الطبية في عصر الأغالبة قيام الأمراء الأغالبة بتأسيس البيمرستانات أو المستشفيات للمصابين بالأمراض المعدية . ولقد عرفت تلك البيمرستانات أو المستشفيات في كتب مؤرخي التراجم والطبقات الافريقية بالدمنة . (١) والدمنة في الأصل عبارة عن ناحية من نواحي مدينة القيروان أنشئ فيها أول تلك المستشفيات ، ثم مع تتابع الأمر صارت اسم هلم للمستشفى بحيث أصبحت الدمنة تعنى المستشفى نفسه . وقد تتابع بإنشاء تلك المدن في كثير من مدن افريقية كتونس ، وسوسة ، وصفاقص . (٢)

ومهما يكن من أمر ، فإن من أوائل الأطباء الكبار الذين عرفهم العصر الأغلبي الطبيب المشهور اسحاق بن عمران المقلب بسم ساعة ، (٣)

-
- (١) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - بساط العقيق ، ص ٢٢ - ٢٣ .
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ص ٢٧٤
(٣) ترجمته موجود عند ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء تحقيق فؤاد السيد ، ص ٨٤ - ٨٧ - ابن ابى أصبغة عيون الأخبار في طبقات الاطباء ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ - شوكت الطبي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الاطباء عند العرب ، ص ١٧٩ - ١٨٠ - كارل بروكلمان : تاريخ الادب الجزء الرابع ، ص ٢٦٨ - عمر رضا كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ص ٣٠٠

الذى استقدمه الامير زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبية الى بلاطه في القيروان . ويذكر ابن جلجل في كتابه : طبقات الأطباء والحكماء (١) أن الأمير زيادة الله كان حريصا على قدوم اسحاق بن عمران الى بلاطه ، حتى أنه وافق على الشروط التى وضعها اسحاق بن عمران للموافقة على المجيء الى القيروان

أما من حيث مكانته في عالم الطب فإنها ليس مجال نزاع ولقد قال ابن جلجل (٢) عنه مانصه : (وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة ، وكان طبييا حاذقا مميذا بتأليف الأدوية المركبة) . كما أورد ابن جلجل (٣) في ترجمته له حادثه طبية جرت له مع الأمير زيادة الله دلت على علو كعب اسحاق بن عمران في التطبيب والمعالجة .

وعندما غضب الامير زيادة الله على الطبيب اسحاق بن عمران وصرفه من خدمته اتخذ اسحاق بن عمران من احدى ساحات مدينة القيروان مكانا للمعالجة ، فوضع هنالك كرسيًا ودواة وقرطيس ، فكان يكتب الصفات كل يوم بدینار (٤) ، غير أن الامير زيادة الله مالبث أن تخلص منه بالقتل بعد ذلك .

-
- (١) ص ٨٤ - ٨٥ .
(٢) طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٥ .
(٣) طبقات الأطباء ، ص ٨٦ - ٨٧ .
(٤) ابن جلجل : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٧ .

أما عن مصنفاته الطبية ، فقد كتب مجموعة من الكتب القيمة ، مثل كتاب نزهة النفس ، وكتاب في داء المالخونيا ، الذى لم يسبق الى مثله كما يقول ابن جلجل ، ومن تلك الكتب أيضا كتاب في الفصد ، وكتاب في النبض (١) ، ومقالة في الاستسقاء وكتاب العنصر والتمام ، ومقالة في علل القولنج وأنواعه وشروح أدويته ، وكتاب في البول من كلام أبقرط وجالينوس وغيرهم ، وكتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب ، ومقالة في بياض المعدة ورسوب البول ، الى غير ذلك من الكتب والرسائل (٢).

ومن أطباء افريقية في العصر الأغلبى طبيب يهودى كان منافسا للطبيب اسحاق بن عمران في بلاط الامير زيادة الله ولم يذكر لنا ابن جلجل (٣) الذى أشار الى هذه الحقيقة اكثر من ذلك ، فلم يذكر لنا اسمه ولا اى نشاطات طبية اخرى له .

وهناك صيدلى معروف عرفه عصر الأغالبة هو اسماعيل بن يوسف القيروانى النحوى المعروف بالطلاء المنجم () واسماعيل بن يوسف الطلاء رجل متعدد المواهب ، فقد كان نحويا ومنجما

-
- (١) عن كتاب نزهة النفس وكتاب المالخونيا ، وكتاب الفصد ، وكتاب النبض أنظر ابن جلجل نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٥ - ٨٦ - ابن ابي اصبيعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ٤٧٩
- (٢) عن كتب الاستسقاء ، والعنصر والتمام ، وعلل القولنج ، والبول ، ومقالة الشراب ، ومقالة بياض المعدة ورسوب البول انظر ابن ابي اصبيعه : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ٤٧٩
- (٣) طبقات الاطباء والحكما ، ص ٨٧
- (٤) ترجمته موجودة عند الزيدى الاندلسي : المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٥ - القفطي : المصدر السابق ، الجزء الأول ص ٢١٣ - ٢١٤ (وقد ذكر محقق كتاب القفطي ابراهيم ابوالفضل ابراهيم أن لاسماعيل الطلاء عدة تراجم في اكثر من مصدر من مصادر الطبقات الطبية واللغوية .

وصيدلانيا . ومما يذكر عن براعته في علم الصيدلة أنه عند ما عزم على مغادرة العراق عائدا الى بلدة القيروان رغب في أن يدخل الى بلاده الطلاء العراقي الذي كان عبارة عن طلاء يعمل من خلط العقاقير بمائع خلطا محكما ، ويسمى الضماد أيضا . ولقد تطف اسماعيل بن يوسف في الحصول على سر هذا المركب الكيميائي حتى استطاع فعلا أن يحصل على صناعته من البغداديين (١)

العلوم الطبية في عصر الفاطميين :

والحقيقة أنه ليس ثمة ما يميز العلوم الطبية في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة ، فأطبأ هذا العصر هم أطباء عاشوا ردحا من الزمن في العصر الأغلبي ثم عاصروا الدولة الفاطمية وأدركتهم المنية في عهدا . وهم في معظمهم اتباع للمدرسة الطبية التي وضع أساسها الطبيب اسحاق بن عمران .

ومن أطباء هذا العصر المشهورين اسحاق بن سليمان الاسرائيلي (٢) (ت قريبا من سنة ٣٢٠ هـ) (٣) . واسحاق بن سليمان الاسرائيلي مصري الاصل قيرواني السكنى والوفاة ، ولقد لازم الطبيب

-
- (١) القفطي : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .
(٢) ترجمته موجود عند ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٧ - ابن أبي أصبغة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٤٨٠ - ٤٨١ شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الاطباء عند العرب ، ص ١١٩ - ١٢٠ - كارل بروكلمان تاريخ الادب العربي ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ - عمر رضا كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ص ٢١ ، ٣٠
(٣) كما ذكر محقق كتاب ابن جلجل في حاشية ص ٨٧ - عمر رضا كحالة : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢١

اسحاق بن عمران وتلمذ عليه ، وعند ما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الخلافة الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عميد الله المهدي . (١)

ويقول ابن جليل (٢) عنه : (وكان طبيا لسنا عالما بتقاسيم الكلام) . أما عمر رضا كحاله (٣) فإنه يقول عنه إنه اسهم في إثارة حركة علمية قيمة في ذاتها في افريقية ، كما يذكر أنه قد صنف كتابا في الطب ، والذي سرعان ما ترجم الى العبرية بأمر من الخليفة عبدالله المهدي .

ومهما يكن من أمر فإن اسحاق بن سليمان الاسرائيلي قد ترك مجموعة من الكتب الطبية القيمة مثل كتاب البول (وهو أشيع كتاب ألفه مؤلف يذَّ فيه جميع المتقدمين) كما يقول (٤) ابن جليل وكتاب الحميات (٥) وكان صاحب معجبا به كثيرا ، وقد ترجم الى العبرية وكتاب في الغذاء والدواء ، وكتاب في الترياق ، وكتاب في المدخل الى صناعة الطب ، وكتاب الاسقطسات (٦) ، الى غير ذلك .

-
- (١) ابن جليل : نفس المصدر السابق، ص ٨٧
(٢) نفس المصدر اعلاه والصفحة .
(٣) العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، ص ٢١
(٤) المصدر السابق، ص ٨٨ - وأنظر كارل بروكلمان : المرجع
(٥) ابن جليل : المصدر السابق ، ص ٨٨ - كارول بروكلمان
نفس المرجع السابق اعلاه والجزء ، ص ٢٨٦ .
(٦) ابن جليل : نفس المصدر السابق اعلاه والصفحة - ابن
ابي اصبه : المصدر السابق ، ص ٨١ - كارل بروكلمان
نفسه ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

ومن أطباء افريقية الذين عاصروا الدولتين الأغلبية والفاطمية
زياد بن خلفون مولى بنى الأغلب (ت ٣٠٨ هـ) وهو أحد الذين تلقى
علومه الطبية على يدى سليمان بن عمران ، ولما قامت الخلافة
الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عبيد الله المهدي (١) .

ومما يذكر أن زياد بن خلفون كان أيام الحكم الأغلبى
يُضطلع بمعالجة الأمراء والروءساء والأعيان ، كما أنه كان يباشر
عمله في دمنه القيروان (٢) .

ومن الأطباء المعروفين آنذاك أبو الفضل بن الفضل
بن على بن ظفر (ت ٣٢٣ هـ) الذى تلقى علومه الطبيه على يدى
اسحاق بن عمران وتلميذه اسحاق بن سليمان وغيرهما . وهو
أحد أطباء بيت الحكمة القيروانى . ومع أن مؤرخي الطبقات
المغربية كالخشنى وابن ناجى ، وكذلك ابن عذارى قد أشاروا
الى نبوغه في علم الطب ، الا أنهم لم يوردوا لنا شيئا عن نشاطاته
في مجال التصنيف (٣) .

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الاول ، ص ٢٤١ -
٢٤٢ .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه والقسم ، ص ٢٤١

(٣) أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٤٣ ، ٤٤ (حيث
الاشارة الى ذلك والى معلومات اخرى عن مهارات الفضل
بن على الأدبية) .

ومن الاطباء المذكورين وقتذاك أبو سهل دونش (ت ٣٦٠ هـ) ،
ويسمى باسم آخره أو نيم بن تميم الملقب بالشفلجي الاسرائيلي
وأبو سهل دونش أحد أطباء افريقية الذين تتلمذوا على اسحاق
بن عمران، وكان مع اتقانه للعبرية وبراعته فيها ، يتقن اللغة العربية
ايضا .

ولقد اتصل بخدمة الخلفاء الفاطميين وخاصة الخليفة
المنصور وابنه المعز لدين الله والذين صنف لهما العديد من كتبه .
ومما يذكر أنه بقى على ديانته اليهودية ، وكان يتبادل الرسائل
الطبية وغيرها مع اطباء اليهود في الأندلس كالطبيب حـداى
بن اسحاق الذي كان طبيبا للخليفة الحكم المستنصر .

وقد صنف أبو سهل دونش مجموعة من الكتب الطبية
مثل كتاب : التلخيص في الادوية المفردة ، وقد احتوى على بيان
في المكاهيل الطبية التى كانت مستعملة آنذاك . ومنها كتاب
المستلحق ، وسلسلة رسائل كرسالة التسوية ، ورسالة التغريب
والتسهيل ، ورسالة التنبيه ، ورسالة الأصول ، الى غير ذلك . (١)

وفي منتصف القرن الرابع للهجرة شهدت افريقية بزوغ نجم
اسرة طبية مشهورة هى اسرة الجزار التى اشتغلت بالطب مدة مائة
عام وقد عاش في ظل الفاطميين اثنان منهما هما : أبو بكر محمد بن
ابى خالد بن الجزار ، وشقيقة ابراهيم بن ابى خالد ، ولقد نبغ

(١) عن أبى سهل دونش الاسرائيلي ومكانته الطبية وغيرها ، وتفاصيل
واسعة عن حياته ، أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع
السابق ، القسم الاول ، ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

الاثنان في الطب وتلقيا علومهما على يدى اسحاق بن عمران وغيره .
وكان للأول منهما شهرة عريضة و مصنفات في السطب والصيدلة ، بينما
كان الثاني كحالا أى طبيا من أطباء العيون آنذاك .^(١)

كما عرف العصر الفاطمي نبوغ أسرة العزاز التي اشتغلت
بالطب في عهدهم ، وهى أسرة يهودية عاشت في افريقية آنذاك .
وأول رجال هذه الاسرة الطبية هو موسى بن العزاز المكنى بأبى
ابراهيم (ت بعد ٣٦٣ هـ في مصر) . الذى التحق بخدمة الخليفتين
المنصور والمعز ، ولكن شهرته الطبية زادت في عهد الخليفة
المعز الذى اصطحبه معه عند ما غادر المغرب الى مصر ٣٦٢ هـ ، حيث
توفي بها في العام التالي كما ذكرنا آنفا .

ويبدو أن موسى بن العزاز كان الطبيب الرسمي للبلاد
الخلافية . فقد ذكر بأنه ركب للخليفة عدة أدوية كشراب التمر
هندي وهو أول من ركب شراب الأصول المنقح للسدد والمحلل
للرياح الشراسيفيه والأمغاص العارضة للنساء عند حضور
الطمث ، وغير ذلك .

ومن الكتب الطبية المحضة التي كتبها موسى بن العزاز
كتاب المعزى ، وقد صنفه للخليفة المعز ، وكتاب السعال ، وفي
الصيدلة كتب كتاب الافرا باذين في جزء واحد .^(٢)

(١) عن أبى بكر محمد بن أبى خالد وأخيه ابراهيم راجع ماكتبه

مفصلا حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) عن موسى بن العزاز وتفاصيل اخرى عن حياته الطبية ، أنظر

حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠١ -

ومن أفراد هذه الاسرة الطبية التي عاشت في كنف الخليفة الفاطمي سوا^١ في المغرب أو في مصر، عون الله بن موسى بن العزاز وهو أكبر أبناء الطبيب موسى . ولقد اعتنق عون الله الاسلام كما التحق مع والده بالخليفة المعز ابا ن مغادرته المغرب الى مصر ، وظل يعمل في خدمة الخليفة حتى توفي في مصر عام ٣٦٣ هـ بعد أبيه بوقت قليل .

ومنهم شقيقة اسحاق بن موسى وكان مقرباً كذلك عند الخليفة المعز ، وتوفي ايضاً في مصر عام ٣٦٣ هـ ، بعد أخيه عون الله بيوم واحد . وبالإضافة الى هذين الولدين كان هناك ابن آخر لموسى بن العزاز اشتغل بمهنة الطب ايضاً ، وكان مقرباً من الخليفة المعز ايضاً ، وهو اسماعيل بن موسى وهو أصغر اخوته . وقد قدمه الخليفة في مكان أخيه المتوفى اسحاق . وهناك طبيب خامس من أفراد هذه الاسرة عمل في خدمة الخليفة المعز ايضاً وهو يعقوب بن اسحاق بن موسى حفيد موسى بن العزاز رأس هذه الأسرة الطبية . (١)

ومن أطباء العصر الفاطمي ايضاً الطبيب أعين بن أعين (ت في مصر ٣٨٥ هـ) الذي كان مشتهراً ببراعته في طب العيون ، وهو الحقل الذي تخصص فيه . ولقد اصطحبه الخليفة المعز لدين الله معه الى مصر في جملة من اصطحب من الأطباء . ومما ينسب اليه من مصنفات كتاب أمراض العين . ومداواتها ، وكتاب في الطب . (٢)

(١) عن هؤلاء الأطباء ، انظر حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق والقسم ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) عن براعته في طب العيون او الكحاله : الدباغ : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ . أما عن المعلومات التي وردت عنه ففي المتن انظر حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق والجزء اعلاه ، ص ٣٠٥

العلوم الطبية في عصر الزيريين :-

إن مما يلفت النظر بالنسبة للعلوم الطبية في هذا العصر هو أنها لم تلق حظا من العناية والاهتمام من قبل الأفريقيين . فلم نلاحظ في ذلك العصر تلك الكثافة في عدد الأطباء ، ولا تلك الكثيرة في المصنفات الطبية التي شهدناها في العصرين : الأغلب والفاطمي . كما أن معظم الأطباء الذين ينتمون إلى هذا العصر عاشوا شطرا طويلا من عمرهم في العصر الفاطمي وكانت وفاتهم في العصر الزيري .

وكيفما كان الأمر فقد عرف هذا العصر طبيا مشهورا جدا هو الطبيب والمؤرخ الذائع الصيت أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار (١) (ت : ٣٦٩ هـ) (٢) . وأحمد بن أبي خالد

(١) لم يلق طبيب أفريقي من العناية والاهتمام من قبل المؤرخين مثل مالمقيه ابن الجزار تذكر : ابن جليل : المصدر السابق ، ص ٨٨-٩١ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٨٢ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ١٣٦-١٣٧ - الصفرى : الوافي بالوفيات : ج ٦ ص ١٠٨-٢٠٩ - ومن المحدثين : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج ٢ ، ص ٢٩٦-٢٩٩ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٥-٨٦ - حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠٦ ٣٢٢ (وهي ترجمة وافيه واسعة) شوكت الشطي : مختصر تاريخ الطب ، ص ١٨١ - عبدالعزيز بن عبد الله : الطب والأطباء بالمغرب ، ص ١١-١٢ - عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٨٢ - عمر رضا كحاله : العلوم البحتة في العصور الإسلامية ، ص ٢٢ . وغير ذلك .

(٢) لقد اختلف في تاريخ وفاته اختلافا بينا ، فهناك فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين يرون أن وفاته سنة ٣٩٥ هـ أو سنة ٤٠٠ هـ ، وهناك فريق آخر يستبعد ذلك من الناحية التاريخية والطبية ويذكر أدلة قوية على أن وفاته كانت سنة ٣٦٩ هـ حسبما اثبتناه في المتن .

بن الجزار واحد من رموز العلم والمعارف الافريقية قاطبه ، ليس بالنسبة لعصره فحسب ، بل بالنسبة لكل عصور الرسالة . ولقد رأيناه من قبل مؤرخا مشهورا وجغرافيا مبرزاً ، كما رأيناه عالم تربية مرموق ، وفوق هذا وذاك فقد كان أدبياً لامعاً .

لكن العلم الذى برز فيه ونبغ كان بلا نزاع الطب والصيدله وفي الحق فإن شهرة ابن الجزار الطبية تعود الى عدة اعتبارات . أولها أنه أول طبيب افريقي محلي مسلم بلغ تلك المرتبة العالية في الطب . والاعتبار الثاني أن شهرته في الطب تجاوزت بلاد افريقية - وذلك في حياته وبعد موته - ، الى المشرق والاندلس فقد كان المشاركة ينظرون اليه نظرة احترام وتقدير (١) . أما بالنسبة للاندلسيين فيكفي حرصهم على جلب مؤلفاته الى بلادهم دليلاً على صدق ما نقوله حسيماً سنعرف بعد قليل .

والاعتبار الثالث أن شهرة ابن الجزار الطبية لم تكن على مستوى الدولة الاسلامية ، بل تجاوزت المشرق والمغرب الى أوروبا ، حيث حظيت الكثير من مصنفاته بالعناية والاهتمام اللذين تشبها في ترجمته تلك المصنفات الى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ثم اخيراً الفرنسية . (٢) . ومما يجدر ذكره انه يعرف لدى الأوربيين

= عن كل ذلك انظر ابن جلجل : نفس المصد والسابق ، هامش ص ٨٨ بقلم المحقق فؤاد السيد (وقد تعرض لاكثر الاقوال المختلفة وأثبت ان وفاته كانت سنة ٣٦٩ هـ) - وانظر حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ٣١١ - ٣١٢ وقد ذهب معتمد على أقوال موثوق فيها بان وفاته كانت عام ٣٦٩ هـ) .

(١) أنظر مثلاً تقريباً الشاعر المشرقي كشاجم لابن الجزار وكتاب الا شهرزاد المسافر . عن ذلك أنظر حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ، ص ٣١٠ - شوكت الشطي : نفس المرجع اعلاه ، والصفحة .

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق ، القسم ص ٣١١ ، ٣١٣ - ٣١٧ - كارل بروكلمان : - المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩٦ -

باسم " (١)

والاعتبار الرابع هو أن مما يدل على براعة ومقدرة ابن الجزار الطبية ما تمثل في مصنفاه من دقة علمية تأخذ في اعتبارها ظروف بلاد افريقية البيئية والاجتماعية ، مما جعل لها مِيزة مستفردة فوق ميزتها العامة. (٢)

والاعتبار الخامس أن لابن الجزار بعض الأوليات الطبية على مستوى العالم أجمع بدون مبالغة وهو تصنيفه لأول كتاب في علم طب الأطفال ، وهو كتاب سياسة الصبيان وتدريبهم (٣) . ومما هو جدير بالذكر أن ذلك الكتاب يحتوى بجانب معلوماته الطبية على نظريات تربوية قيمة حسبما أشرنا الى ذلك من قبل . (٤) هذا وإن كثيرا من آراء الجزار في طبع الاطفال لا تزال موضع التقدير حتى الآن. (٥)

-
- (١) شوكت الشطي : المرجع السابق ، ص ١٨١
(٢) أنظر عند هذا الموضوع ما ينقله حسن حسنى عبد الوهاب : نفسه ص ٣١٠ عن الطبيب التونسي احمد الخميري الذى عاش في القرن العاشر الهجرى .
(٣) محمود محمود الحاج قاسم : الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، ص ٤٩ - ٥١ .
(٤) انظر قبل ص ٣٣٨ .
(٥) عن آراء ابن الجزار من حيث العناية الطبية بالاطفال ، أنظر محمد محمود الحاج قاسم : نفس المرجع اعلاه ، ص ٥٤ - ٥٧ ، ٦٢ .

وأخيرا ففيما يختص بمصنفات ابن الجزار الطبية والصيدلانية فقد أحصى حسن حسنى عبد الوهاب في جهد كريم كل تلك المصنفات من مظانها المختلفة ، وأشار الى أهميتها في عالم الطب عنده المسلمين والفرنجه والى ما ترجم منها للغات الأجنبية .

ونظرا لأن تلك المصنفات قد بلغت نحو من خمسة وعشرين كتابا كما ذكر حسن حسنى عبد الوهاب ، فإننا سنشير الى أبرزها وأكثرها شهرة

فمن تلك المصنفات بل لعل أولها كتابه الأشهر: زاد المسافر وقوت الحاضر في علاج الامراض . ويقع في مجلدين . وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية منذ عهد مؤلفه وحتى وقت قريب ، وقد ترجم الى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية كما أنه كان يُدَرَّس في كلية سالرنو في جنوب ايطاليا ، وقد نقله الى الأندلس الطبيب اليهودى المعروف ابن طبيونه .

ومن كتبه الاعتماد في الادوية المفردة وهو عبارة عن أربعة مقالات في معالجة الأمراض ، وقد نقل الى اللغة العربية بعناية الطبيب اليهودى الأندلسي ابن طبون . ومن تلك الكتب طب المشائخ ، وهو عبارة عن رسالة يعالج فيها الحالات التي تعترض كبار السن والمعمرين ومنها كتاب ابدال الادوية ، وهو عبارة عن رسالة في الادوية ، وكذلك نذكر كتاب الزكام واسباب علاجه وكتاب الجزاء وأسبابه وعلاجه ، وكتاب المختبرات ، وكتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم وغير ذلك (١)

(١) عن جهود حسن حسنى عبد الوهاب في تقصي كتب ابن الجزار من المظان المختلفة وعن كتب ابن الجزار نفسها سواء التي أشرنا اليها ، والتي أحلنا القارئ لمكانها ، انظر المرجع السابق ، والقسم ص ٣١٣ - ٣١٨ .

و من الأطباء الذين عرفهم العصر الزيري الطبيب ابن الهامز
الذى كان يفزع اليه في الفتيا في الطب كما يفزع إليه في الفتيا
في الفقه . (١)

وكذلك ممن عرف ببراعته في الطب الشاعر يعلى بن ابراهيم
الابوسي الذى كان ذا حظ وافر في علم الطب والهيئة والفلسفة (٢)

و منهم ابن عطاء اليهودى طبيب الامير المعز بن باديس
الخاص كما صرحت بذلك مصادر كتب الطبقات . (٣)

وهناك طبيب افريقي مشهور أنجبته البلاد في العصر
الزيري وهو قسطنطين الصقلي أو الافريقي (٤٠٩ - ٤٨٠ هـ) وقسطنطين
الافريقي كما يوحى لقبه ولد بافريقية ، ثم تطلع الى علوم الطب
والحكمة فأتقنها وكان مع اشتغاله بالعلوم الطبية يعمل بالتجارة
وقد قادته مهنته هاته الى جزيرة صقلية ، حيث نزل بمدينة سالونة .
وهناك توطدت الصلة بينه وبين امير المدينة جيزولف ، ثم اتقن اللغة
اللاتينية . ولقد وجد من الامير رغبة في العلوم الطبية ، فما كان منه
الا أن عاد ثانية الى بلده افريقية ، حيث انكب على جمع معلومات
طبية غزيرة حملها معه الى مدينة سالونه ، ومنذ ذلك الوقت أصبح
يعرف بقسطنطين الافريقي أو الصقلي .

(١) عبد الرحمن ياغي : المرجع السابق ، ص ١٠٦ (فيما ينقله

عن امارى في مجموعته المكتبة الصقلية ، ذيل ص ٦٧)

(٢) عبد الرحمن ياغي : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٠٦ (نقلا عن ابن

فضل الله العمرى) .

(٣) الجحاني : المغرب الاسلامي ، ص ٩١ (نقلا عن الدباغ)

وفي مدينة سالونه عكف قسطنطين على ترجمة أهم كتب الطب العربي ككتاب زاد المسافر لابن الجزار ، الذي أصبح لصاحبه طريقة مشتهرة عليها أوروبا حتى وقت قريب ، كما ترجم مجموعة من كتب أطباء المشرق الكبار كالرازي ، وعلى بن العباس وغيرهما ، وترجم أيضا بعضا من كتب الطبيب الإفريقي اسحاق بن سليمان .

وبالإضافة إلى جهود قسطنطين العلمية سواء في ترجمة الكتب الإسلامية المشهورة أو بالنسبة لبراعته في الطب ، فقد ترك مجموعة من المصنفات الطبية القيمة مثل كتاب البول وتحليله ، والأعضاء الداخلية في جسم الإنسان وكتاب العيون وكتاب المايخوليا وكتاب الجراحة ، وكتاب المعدة ، وكتاب الحمة للمرضى ، وكتاب النبض وكتاب جسم المرأة وأعضائها وغير ذلك من الكتب. (١)

(١) لخصنا هذه المعلومات عن أحمد توفيق المدني في كتابه المسلمون في جزيرة صقلية ، ص ١٩٩ - ٢٠٢

الفلك والرياضيات

لعلنا لانجد حرجا في القول بأن هذا الجانب من العلوم الطبيعية او التجريبية - أى الفلك والرياضيات -، لم يصل لدى الافريقيين الى مستوى اهتمامهم بالطب والصيدلة .

واذا كان مفهوما أن ينظر المغاربة الى علم الفلك نظـرة الكراهية لاسيما وأن جانبه النظرى مرتبط بالتنجيم (١) الذى لا يقرر الاسلام كثيرا من مناحيه . نقول اذا كان مفهوما أن يقتصر الافريقيون في علم الفلك ، فإن ما لا نستطيع تصوره أن يقتصروا في علوم الرياضيات وهي علم لا تثريب عليه من وجهة النظر الاسلامية . بل ان الاسلام في كثير من قضاياها الحياتية يدعو الى تعلم مبادئها كما هو معلوم . (٢)

(١) من الواضح أن التنجيم بمعناه الساذج المتمثل في رصد بعض الكواكب والنجوم وحركاتها وتأثيرها في الحياة المستقبلية للانسان لا يد وأن يكون ضربا من الاوهام والخرافات التى ليس لها اساس علمي - أما علم الفلك فهو العلم الذى يميل بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والعلم والاختبار والتطبيقي . وهو ما يعرف بالفلك التطبيقي الذى يعتمد على استخدام الالات والمرائد والرياضيات البحثية في مراقبة حركات افراد المجموعات الشمسية ومدارات الكواكب السيارة وأبعاد بعضها عن بعض . . الخ .

والاسلام من هذا الجانب يبحث على تعلم علم الفلك بمعناه الدقيق، ذلك ليتمكن المسلمون من تطبيق نظرياته الرياضيه على جوانب مهمة من القضايا التعبدية كتحدد أوقات الصلوات التى تقتضي معرفة أوقاتها . معرف قعر الموقع الجغرافي وحركة الشمس في البروج . . الخ .

وللاستزادة عن هذا الموضوع أنظر قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى في الرياضيات والفلك ط ٢ ، ص ٨٧ وما بعده .

على عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين في تطوّر علم الفلك ص ١٧-١٩ نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٤٣-٤٥ .

انظر على عبد الله الدفاع : اسهام علماء المسلمين في الرياضيات تعريب وتعليق جلال شوقي ، ط ١ ، ص ٩-١٣ .

وعلى أية حال فإن افريقية لم تكن خلوا من بعض الجهود العلمية في ذلك المجال الذى نؤرخ له هنا . ولربما كان الافريقيون أول من نقل بعضهم كان مدفوعا بعوامل محلية وشخصية الى أن يسجل حضورا في تلك العلوم ، حتى ولو كان ضئيلا .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الولاة :

لعل الأثر العلمي الوحيد الذى استطعنا الظفر به ، والذى ينتمى الى هذا العصر هو ما تمثل في تصنيف العالم العابد ابى على شقران بن على (ت ١٨٦ هـ) كتابا في علوم الفرائض أو المواريث (١) . وقد صرح المالكي (٢) بأن احدا لم يكتب مثله ، أى أن احدا في افريقية لم يكتب مثله .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة :

ومن البد يهـى أن تخطو علوم الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة خطوات حسنة ، لا سيما وأن عصرهم قد تميز بازدهار الدراسات الشرعية أولا ، ثم العلوم التجريبية ثانيا كما ذكرنا من قبل .

ومن أوائل المشتغلين بالرياضيات في هذا العصر أبوزكريا يحيى بن سليمان الفارسي الحُضرى (١٣٤-٢٣٧ هـ) ويقول الدباغ (٣)

(١) الزركلي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٠ (نقلا عن أكثر من مصدر) .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٦٤ وهو الوحيد الذى أشار الى ترجمته هذا العالم الرياضي .

عنه : (وكان ثقة ، وكان عالما بالفرائض ، والحساب ، فطالِبَ لخدمة السلطان لأجل علمه بالحساب فهرب الى المشرق . . الخ)

وبوسعنا أن نعتبر اسماعيل بن يوسف الطلاء المنجـم أحد فلكي ومنجمي عصر الأغالبة ، واسماعيل الطلاء رأيناہ عند حد يثنا عن الدراسة الطبية في العصر الأغلبي صيدا نيـا بارعا . على أنه قد اشتهر بعلم النجامة كما يقول الزبيدي الاندلسي ومن هنا فقد كان مقربا من الأمير ابراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي (ت ٢٨٩ هـ) الذي كان هو الآخر (ينتحل علم النجامة) (١)

كما عرف عصر الأغالبة رياضيا مشهورا هو أبو اليسر ابراهيم بن احمد الشيباني (ت ٢٩٨ هـ) الذي عرفناه رئيسا لـ ديوان المراسلات في عهد الامراء الاغالبة الثلاثة الاخيريـن وفي عهد الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي . كما رأينا أديبا يشارك في تصنيف عدد من الكتب الأدبية الجيدة .

وعلى الرغم من أن ابراهيم الشيباني هذا كان لقبـ الرياضي (٢) يسبق اسمه عند مؤرخي التراجم والطبقات ، الا أننا لم نعرف اى نشاط له في علم الرياضيات الذي عرف به .

-
- (١) عن انتحال اسماعيل الطلاء وابراهيم الثاني الأغلبي لعلم النجامة والعلاقة بينهما أنظر الزبيدي الاندلسي : المصدر السابق ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ - حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤
- (٢) أنظر ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ، ص ١٢٣ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ ، ٦٠ (نقلا عن السيوطي في بغية الوعاة وغيره)

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الفاطميين :

والأمر الذي نستخلصه من عصر الفاطميين فيما يتصل بعلم الفلك ، هو أن الخلفاء الفاطميين كانوا مولعين بالفلك والتنجيم فالخليفة عبد الله المهدي الذي كان له بصر بعلم النجوم قام ببناء عاصمته المهدية وفق حسابات فلكية (١) ، وهي وإن كانت أقرب إلى علم التنجيم ، إلا أنها على كل حال تدل على ميله لهذا الجانب من العلوم .

والخليفة المنصور كان عالما بالنجوم ، ولكنه كان غير مؤمن بتأثيرها . وكان يقول دائما : (والله ما طلبنا هذا العلم الا لما يدلنا عليه من توحيد الله جل ذكره وتأثير حكمته في منفعلاته) (أي مخلوقاته) فإياك أن تشغل نفسك بغير هذا ولا تلتفت اليه (٢)

أما المعز لدين الله فقد كان ماهرا في علم النجوم بجانب مهارته في علوم الطب والهندسة والفلسفة ، بل إن علماء هذه العلوم يعتبرون عالمة عليه (٣) . لكنه كان غير مؤمن بتأثيرها وكان يرى أن النظر في النجوم صالح لمعرفة قدرة الله غير نافع في معرفة حظوظ الناس . (٤)

-
- (١) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١
(٢) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسائرات ، ص ١٣١-١٣٢
(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسائرات ، ص ١٤٨
(٤) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ٣٢٦-٣٢٧ -

أما بالنسبة لعلوم الرياضيات فقد كان للخلفاء الفاطميين القائم والمنصور والمعز من حسن رياضي هندسي - إن صح هذا التعبير - فمما نذكر للخليفتين : القائم والمنصور من نظر هندسي ما رواه القاضي النعمان من رغبتهما في إجراء نهر يقع بعيدا عن القيروان بدعى نهر أيوب الى المدينة عن طريق قناة محمولة على قناطر أو حنايا . ولقد حاولا أن يمضيا في تحقيق المشروع رغم تهويل مستشاريهما لهما ، ولكن فتنه أبي يزيد وثورته حالت دون ذلك . (١)

غير أن الخليفة المعز لدين الله بما أوتي من نظر هندسي وثروة كبيرة واستقرار سياسي - عمل على أن ينفذ المشروع ، ولكن نمو مدينة المنصورية العاصمة الجديدة التي بناها أبوه بعد انتصاره على ثورة أبي يزيد ، وذلك على الرغم من معارضة مستشاريه أيضا . (٢)

والحقيقة أن الخليفة المعز لدين الله كان ذا نظرات هندسية ناقبة ، وقد أورد القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسائرات (٣) أعمالا عديدة نقذت بإشارة من الخليفة ، ومن ذلك تفكيره في إجراء البحر الى عاصمته المنصورية (في خليج حتى

-
- (١) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسائرات ص ٣٣١ - ٣٣٢ وأنظر الحاشية رقم (٢) ص ٣٣١ حيث تناول محققوا الكتاب تحليل ذلك العمل وأهميته بالنسبة للقيروان .
- (٢) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .
- (٣) ص ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ٥٣٠ - ٥٣١

تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا) على حد تعبير الخليفة نفسه .
ويقول محققو كتاب المجالس والمسايرات أن هذه الرواية التي
أوردها القاضي النعمان ذات دلالة في الإشارة الى امكانية
ربط المنصورية والقيروان أيضا بالبحر . (١)

وأيا ما كان الأمر فبالنسبة للفلكيين والرياضيين الذين
عاشوا في عصر الفاطميين ، وكذا بالنسبة لمصنفاتهم نستطيع
أن نقول أن هناك عددا منهم ظفربما يشير اليهم ، كالطبيب
أبي سهل دونش الشفلجي الاسرائيلي المتوفي عام ٣٦٠هـ ، وكناقد
ترجمنا له من قبل . واذ يذكر أنه صنف كتابا في الفلك والحساب
ككتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار ، وكتاب في الفلك
وحركة الكواكب كتبه لصد يقه الطبيب الأندلسي اليهودي أبي يوسف
حسداى ، وكتاب كبير في علم الفلك قدمه الى الخليفة المنصور
بن القائم . (٢)

وبالاضافة الى ابي سهل دونش هناك فلكي يهودي
يدعى نسيم بن يعقوب القيرواني كان بارعا في علم الهيئة وحركة
الكواكب الى درجة أنه كان يستفتي من قبل بعض يهود العراق
والاندلس والمغرب في شأن مواقيت مواسمهم الدينية . (٣)

-
- (١) أنظر الحاشية رقم (٤) ص ٥٣٠
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ،
ص ٢٩٩ - ٣٠٠
(٣) حسن حسنى عبد الوهاب : نفس المرجع اعلاه ، والقسم
ص ٢٨٠

وأخيرا فقد أمدنا القفطي (١) بإشارة مهمة لعالم فلكي افريقي هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد العتقي (ت في مصر سنة ٣٨٥هـ) . فلقد أشار الى أن العتقي كان متفننا في علوم عدة ، غير أن الغالب عليه هو علم النجوم والنظر ، وقد خرج الى مصر مع الخليفة المعز لدين الله عام ٣٦٢هـ في جملة من خرج معه من العلماء والأطباء وغيرهم ، وظل هناك حتى توفي عام ٣٨٥هـ ، ويذكر أنه صنف مجموعة كبيرة من النجوم وأحكامها .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الزيريين :

الواقع أن حركة العلوم الفلكية والرياضية في عصر الزيريين تعتبر متواضعة شأنها في ذلك شأن أمثالها في العصور السابقة . وغاية ما عرفناه - في هذا الصدد - أنه كان هناك نفر اشتغلوا بعلمى الفلك والرياضيات بجانب تخصصاتهم الأصلية .

فمن بين هؤلاء الأديب الكاتب أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني (ت ٤٣٢هـ) الذى عرفناه من قبل كاتباً يلى رئاسة ديوان الانشاء في عهد المعز بن باديس ورأيناه كذلك شاعرا مرموقا ، وفوق هذا وذاك فقد تلمسنا دوره في مساعدة المعز بن باديس على نبذ المذهب الشيعى الاسماعيلي .

(١) تاريخ الحكماء ، وهو مختصر الزويزينى المسمى بالمنتخبات الملتقطات من أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٨٥ .

أما مكانته في علم الفلك فلم تكن لتقل عن مكانته
في دنيا الكتابة والأدب ، وقد ذكر بأن له عدة مصنفات قيمة
نالت شهرة تعدت افريقية الى المشرق ، والى أوروبا .

وأهم تلك المصنفات كتاب البار في أحكام النجوم .
وهذا الكتاب كانت له شهرة علمية كبيرة ، وقد ترجم الى اللغة
العبرية بعناية عالم يهودى يدعى يهودا بن موشى (ت ١٢٥٦هـ) (١)
ثم ترجم الى اللغة اللاتينية مرارا . كما أنه ترجم الى اللغة
القشتالية (الاسبانية الفصحى) وكذلك الى الاسبانية الغربية
البرتغالية . (٢)

وبجانب هذا الكتاب هناك منظومه شعرية له في
التنجيم ، وتسمى الدلالات الكلية على الحركات الفلكية .
ومما يدل على أهميتها أنها خضعت للشرح من قبل أحد العلماء
المتأخرين وهو أحمد بن حسن القنفذى القسطنطينى المتوفى
عام ٨١٠هـ . (٣)

وله كذلك أرجوزة في دليل الرعد (٤) وأرجوزة شعرية

-
- (١) كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربى ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ - عمر
فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٧٨ - ١٧٩ عبد العزيز
بنعبد الله : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية
ج ١ ، ص ٢٧ .
(٢) كما يقول عمر فروخ : نفس المرجع اعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١٧٨ .
(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ - عبد العزيز
بنعبد الله ، الموسوعة المغربية ، ج ١ ، ص ٢٧ .
(٤) كارل بروكلمان : نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة - عبد العزيز
بنعبد الله : نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة .

أخرى في الاحكام النجومية ، ثم مراسلات فلكية أخرى . (١) ومما يجدر ذكره أن اسم ابن أبي الرجال في اللاتينية هو " ABENRAGEL " (٢)

وهناك فقيه افريقي استهواه علم الهندسة والرياضيات ، هو الفقيه أبو الطيب عبد المنعم بن محمد بن ابراهيم الكنــدى (ت ٤٣٥ هـ) الذى كنا قد ترجمنا له عند حد يثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الزيرى ، وقد قال فيه احد أئمة الفقه المالكي المتأخرين بصقلية مانصه : (لم تمنعه الامامة في الفقه عن الامامة في الهندسة) (٣) . ومما هو جدير بالتنويه أنه فكر في جعل مدينة القيروان مرسى بحريا يجلب اليها الماء من مدينة تونس . وقد وضع رسالة هندسية في هذه الفكرة . (٤)

ومما يدل على براعته الهندسية أنه حاول فك كتاب اقليدس في الهندسة بذهنه . وعند ما مات رثاه الشاعر أبو زكريا يحيى الشقراطسي التوزري والد الشاعر المشهور عبد الله الشقراطسي بقصيدة منها :

ومن للعبارات الغوامض بعده اذا شيب منها ما تجن الغوامض
اذا أشكلت اقليدس انبـرى لها منه حبر بارع الفهم ثاقب (٥)

-
- (١) عن أرجوزة الاحكام النجومية والمراسلات الفلكية أنظر عبد العزيز بنعبد الله : نفسه ، ص ٢٧
(٢) كارل بروكلمان : نفسه ، ص ٢٢٥
(٣) فيما ينقله عنه الزركلي : المرجع السابق ج ٤ ، ص ١٦٨
(٤) الزركلي : نفس المرجع السابق أعلاه والصفحة .
(٥) عبد الرحمن ياغي : المرجع السابق ، ص ١٠٧

وهناك أيضا عالم افريقي هو ابراهيم بن عبدون بن غانم
بن عبدون اشتهر بالاشتغال بالهندسة والرياضيات ، ويقول عنه
ابن رشيق أنه كان منفردا بعلم المساحات والاشكال (بجانب شهرته
في الأدب. (١)

واخيرا هناك أديب يدعي محمد بن احمد الافريقي
ويكنى بأبي الحسن (ت نحو سنة ٤٠٠ هـ) كان بجانب اشتهاره
بالادب يميل الى الاشتغال بالتنجيم . وقد غادر بلده افريقيه
وأتجه الى المشرق ، حيث استقر به الامر في اصبهان حتى
ادرسته المنية هناك . (٢)

(١) ابن رشيق : شعراء القيروان من نموذج الزمان ، ص ٢٣

(٢) الزركلي : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٣١٣

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الخاتمة

لعل من أكد الأمور وأوجبها ونحن نشرع في الانتهاء من الحديث من الحياة العلمية في إفريقيا في الفترة التي اخترناها إطاراً زمنياً للرسالة أن نشير في مجاله مركزة الى أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لمسيرة الحياة العلمية تلك .

وبوسعنا في البدء أن نشير الى حقيقة تاريخية وعلمية مهمة ، وهي أن الحركة العلمية في افريقية قد تدرجت في شيء من البطء نتيجة للأوضاع السياسية والعسكرية التي عرفتها افريقية - والمغرب عموماً منذ اتمام الفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية .

والحقيقة التاريخية التي تسنى لنا استخلاصها من متابعتنا للحركة العلمية الافريقية هي أنه كان لقيام الدول المستقلة : الأغلبية ، والدولة الفاطمية ، والدولة الزييرية . الأثر الواضح والبارز في إعطاء حركة العلوم والمعارف دفعة قوية .

ومن المعروف أن هذا الأمر هو من قبيل المسلمات التاريخية التي عرفتها مسيرة النهضة الحضارية - والعلوم على رأسها - ، في ظل الدول التي انفصلت عن السلطة المركزية للخلافة العباسية . فلقد سعت بلاطات تلك الدول الى منافسة البلاط الخلافي من جهة ، علاوة على الرغبة في منافسة بلاطات الأمصار من جهة أخرى .

وبجانب هذا ، فإن الرغبة الشخصية في العلم والميل اليه لدى الأمراء والخلفاء كان باعثاً لنشاط علمي ملحوظ . ويضاف الى ذلك كله ما يوفره المناخ العلمي الذي توفره تلك الدول للعلماء والأدباء ليبدعوا وليقدموا زبدة محصلاتهم العلمية ومخزونات ثقافتهم .

وإذا تركنا هذه الحقائق التاريخية والعلمية العامة الى الحديث عن العلوم والمعارف الافريقية وحركة سيرها فإن في مقدورنا أن نشير بادئ ذي بدء الى أن أهم مظهر علمي رئيسي غلب على الحياة العلمية في افريقية آنذاك كان بلا مراعاة الدراسات الشرعية بصفة عامة ، والفقه منها على وجه الخصوص .

ويقودنا إقرار هذه النتيجة الى نتيجة أخرى لا حظناها وهي أن المذهب المالكي - التي قامت الدراسات الشرعية وفق مناهج الفقه - كان الموجة لتلك الدراسات والمحرك لها ، بل لعل دوره قد تعدى الجانب العلمي الى التأثير في المناحي الحياتية الأخرى للافريقيين من سياسية واجتماعية واقتصادية . ولقد صدق حسين مؤنس في مقولته التي جاءت في ثنايا تحقيقه للجزء الأول من كتاب رياض النفوس عند ما قال ان المالكية كانت العصب الأول من أعصاب التاريخ الافريقي والمغربي .

ومما يناسب أن نشير اليه ازاء الحقيقة أو النتيجة السالفة هو أن الفقهاء المالكية كانوا يشكلون ضمير الأمة النابض بالحياة . تغز اليهم العامة في كل ما يؤرق ليلها ويستشكل عليها من قضايا فقهية وعقائدية . وحسبنا أن نذكر أنه عند ما ثارت مسألة هل الكفار يعرفون الله أولا ؟ ، وهي القضية التي أقلق بال العامة خشية تأثير ذلك على العقيدة ، بادروا الى الشيخ أبي عمران الفاسي (ت. ٤٣٠هـ) يسألونه .

ومما يندرج ضمن النتائج المستخلصة من التوجه العلمي الرئيسي نحو الدراسات الشرعية ، هو ما لاحظناه من أن الاهتمام بالدراسات الشرعية تلك كان متفاوتا في ظل العصور السياسية الأربعة التي تعاقبت على حكم افريقية ، فقد كانت تزيد في عصر ، وتنقص في عصر تبعاً لأسباب عديدة أشرنا اليها في تضافيف الرسالة .

ومما خلصنا اليه من نتائج من خلال المتابعة الحثيثة لحركة العلوم والمعارف الافريقية أن الدراسات الأدبية قد أتت في المحل الثاني من الاهتمام من قبل الافريقيين . وفي الحق فأننا قد ذهبنا عند الحديث من الدراسات الأدبية الى توضيح الأسباب العديدة التي أدت الى ذلك . لكن المهم الآن هو التأكيد على إقرار وإبراز هذه النتيجة هنا كأحد أهم النتائج التي كشف البحث أبعادها في ظل قواعد البحث العلمية .

ويقودنا هذا الى التذكير بأن الاهتمام بالدراسات الأدبية قد تفاوت أيضاً بتفاوت العصور السياسية المختلفة التي حكمت افريقية في الفترة التي نؤرخ لها ، وذلك وفقاً لدواعي عديدة بسطناها في مكانها .

وتوصلنا من خلال بحثنا عن أوجه المعارف والعلوم الأخرى في افريقية الى حقيقة تثير الدهشة ، وهي أن الدراسات الانسانية بغروهمها الثلاثة : الجغرافيا والفلسفة والتاريخ كانت متأخرة عن مثيلاتها في المشرق . ولعل التاريخ وحده من بين تلك العلوم الذي لقي شيئاً لا بأس به من الاعتناء .

ولقد كنّا خلال معالجتنا لتلك الموضوعات نضع اليد على الأسباب المفهومة التي أدت الى قصور همة الافريقين في الفلسفة مثلاً . ولكننا فيما يختص بالجغرافيا لم نستطع أن نهتدي الى أسباب عدم إهتمامهم بهذا العلم .

وما يصدق على الدراسات الانسانية من إقرار هذه النتيجة التي تتعلق بقلة الاعتناء بها والأسباب المفهومة وغير المفهومة لذلك يصدق أيضاً على الدراسات الطبيعية ، وان لم يكن الأمر سواً في كل جوانبها كما يلاحظه القارئ من خلال متابعته لهذا الفصل من فصول الرسالة .

ومن هنا فإن ترتيبنا لمفردات الحياة العلمية على النحو الذي خلصنا اليه في الرسالة إنما هو ترتيب مقصود جاء نتيجة مباشرة لمراقبة خط سير مفردات الحياة العلمية تلك .

ومن النتائج المهمة التي خرجنا بها بل لعلنا نحسب أننا إنفردنا بها نتيجة تمثلت في أنه قد ترتب على الصراعات المذهبية التي شهدتها افريقية في الفترة موضع الاهتمام أصداء علمية مهمة ظهرت آثارها فيما شهدته البلاد آنذاك من شيوع المناظرات ، وكثرة التأليف ، وتكاثر حلقات العلم والمدارس . وما من ريب في أن كل تلك الجوانب قد أفادت الحركة العلمية حسبما فصلناه في موضعه ، وأفادت كذلك في تثبيت عقيدة الأكثرية العالبة من السكان ، وهم المالكية أمام سبيل المناظرات ومجالس الجدل التي كانت تثيرها وتعقدتها المذاهب الكلامية الدينية السياسية مثل المذهب الشيعي الاسماعيلي ، وأتباع المذاهب الكلامية .

ومما خلصنا اليه من نتائج الدور العلمي الكبير الذي أسدته وسائط الثقافة للنهضة العلمية الافريقية كالمساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة . وليس من شك في أن الاهتمام الذي حظيت به تلك الوسائط من قبل الأنظمة السياسية التي حكمت المغرب أو من قبل الأفراد العاديين كان له أثره في اضطلاع تلك الوسائط بمسؤولياتها .

على أننا قد أكدنا في حينه على ملاحظة مهمة وهي أن وسائط الثقافة تلك لم تقم بدورها العلمي بقدر متساوٍ ، فجامع الزيتونة بتونس لم يتبوأ مركزه العلمي الريادي إلا متأخراً ، أي في القرن السادس الهجري ، ومنذ ذلك الوقت شرع يمارس دوره العلمي الريادي وحتى الآن .

ولقد قادنا الحديث عن المراكز العلمية الرئيسية في بلاد المغرب الأدنى الى ملاحظة أن مدن وأقاليم إفريقية لم تشهد قدراً متساوياً من النهضة العلمية . ولقد أفصحنا في حينه الى أن ثمة أسباباً سياسية وجغرافية واجتماعية ومذهبية قد قادت الى ذلك الوضع .

ومن الملاحظات الجديدة بالإنتباه التي قادنا اليها جهد التقصي أن أتباع المذهب المالكي لم تقتصر مشاركتهم على الدراسات الشرعية وحدها ،

بل كان لهم حضور علمي في كل فن من فنون العلم ، حتى الطبيعية منها .
بينما كانت مشاركة أتباع المذاهب الكلامية ، والمذاهب الدينية السياسية
الأخرى ضئيلة . ولقد أوضحنا وقتها أن السبب في ذلك هو أن المذهب
المالكي كان مذهب الغالبية من السكان .

وجاءت الدراسة لتؤكد حقيقة مهمة وهي أن الأفريقيين لم يكونوا
بعيدين من الاشتغال بالعلوم التي كان المشرق يتسدها . ومعنى آخر
أن الأفريقيين كانوا يتفاعلون مع معظم التيارات الثقافية التي كان المشرق
يذخر بها ، سواء بالنسبة للدراسات الشرعية واتجاهاتها ، أو الدراسات
الأدبية ، أو حتى للعلوم الطبيعية .

وجاءت الدراسة كذلك لتوضح أنه كان للأفريقيين في كثير من جوانب
الحياة العلمية إسهام لا يقل عن مثيله في المشرق والأندلس . فلقد احتلت
تلك الإسهامات العلمية حيزاً في الثقافة الإسلامية العامة ، وظلت مصدراً
مهماً لتلك الثقافة . فكتاب الأُسدية لأسد بن الفرات ظل معتمد فقهاء
المالكية في مصر لمدة طويلة . أما المدونة فهي المصدر الرئيسي الثاني للفقهاء
المالكي في كل الأمصار التي تتمتع بمذهبهم بعد الموطأ . بجانب هذا يحضرنا دليل
آخر يوضح لنا مقدار ما بلغته مؤلفات المغاربة من سمعة علمية تعدت حدود
بلادها ، فعندما ألف محمد بن سحنون كتاب : الإمامة ، تخاطفها
المشاركة ، وأمر الخليفة بكتابته بماء الذهب . ثم لا ننسى الرسالة في الفقه
التي ألفها الفقيه الأبرز ابن أبي زيد القيرواني ، والتي بسطت اتجاهات
المذهب المالكي الفقهية في شيء من اليسر والسهولة ، وكان ذلك مدعاة إلى
انتشارها والتعويل عليها ، وعمل الشروحات لها .

وفيما يتعلق بالدراسات الأدبية ، فقد كان للأفريقيين حضور أدبي
ساحق الذرى وخاصة في العصر الزيري . ولا يمكن للملاحظ للدراسات
الأدبية إلا أن يقرر بأن المؤلفات التي تركها الأفريقيون لا تقل بحال من
الأحوال من أضرابها في المشرق والأندلس ، وحسبنا أن نؤكد على أن

أولئك الأدباء بلغوا مع تبريزهم في التأليف الأدبية مبلغاً عظيماً في الشاعرية المرفهة .

ومن المناسب أن نشير إلى أنهم أي أدباء افريقية ، قد أحرزوا قصب السبق في بعض المجالات الأدبية وأعنى بذلك سبق الأديب الشاعر عبد الله الشقراطسي في طرق موضوع أدبي طريف ، وهو : المدائح النبوية التي غدت تحتذى بعد ذلك من قبل المشاركة .

أما في العلوم الطبيعية ، فقد كان لبعض أسهاماتهم القدر الأسنى من القيمة ، وحسبك بكتاب : زاد المسافر لابن الجزار القيرواني شاهداً على ذلك .

ولعل في هذا الغيض من فيض النتائج التي تصلنا إليها ما تكشف الإشارة إليه هنا ، فهناك العديد من النتائج الأخرى التي أثبتناها في ثنايا الرسالة .

وأخيراً فإن بإمكاننا أن نقرر بأن افريقية قد عرفت في الفترة الزمنية موضوع الرسالة حياة علمية لا تقل في بعض جوانبها عما أسدته الأمصار الأخرى ، بل لعلها تفوق كثيراً من الأمصار في تلك الجوانب .

وبجانب هذا فقد سجلت افريقية حضوراً علمياً متواضعاً في الجوانب الأخرى مثل الفلسفة والجغرافيا ، والطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات . ولكنها مع ذلك لم تخل ساحتها البتة من تلك الجوانب ، وكأنما هو حرص من رجالها على أن يكون لبلد هم افريقية ذكر في كل العلوم ، حتى ولو كان متواضعاً في بعض جوانبه . .

المصادر والمراجع والدوريات

قائمة المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

- ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ)
(١) الحلة السيرة ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، جزآن ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م .
(٢) التكملة لكتاب الصلة ، مُنَى بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد فزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥ م .
- ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ)
(٣) ميمون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)
(٤) الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- البخارى (ت ٢٥٦ هـ)
(٥) صحيح البخارى
- ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ)
(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ أجزاء ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ)
(٧) الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، قسمان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- البكري (ت ٤٨٧ هـ)
(٨) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب السالك والممالك ، طبعة د سيلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ م.
- ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ)
(٩) غاية النهاية في طبقات القراء ، مبنشره ج برجستر ، طبعة لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر ، سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م.
- ابن جلجل (ت بعد ٣٨٤ هـ)
(١٠) طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد السيد ، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م.
- ابن حماد (ت ٦٢٨ هـ)
(١١) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم مويس ، منشورات مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- الحميدى (ت ٤٨٨ هـ)
(١٢) حذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ، ١٩٦٦ م.
- ابن حوقل (ت في القرن الرابع الهجري)
(١٣) صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ م.
- ابن حيون (القاضي النعمان المغربي) (ت ٣٦٣ هـ)
(١٤) كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ، منشورات الشركة التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٥ م.

(١٥) كتاب د طم الاسلام وذكر الحلال والحرام والقضاء والاحكام من أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضى ، منشورات دار المعارف ، القاهرة ، جزآن ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(١٦) كتاب المجالس والمسائرات ، تحقيق الحبيب الفقى وابراهيم شيوخ ومحمد البعلاوى ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية ، ١٩٧٨م .

- الخشنى (ت بعد ٣٦٦هـ)

(١٧) قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، نشر وتصحيح عزت العطار الحسنى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ .

- الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)

(١٨) الرحلة فى طلب الحديث ، حققه وعلق عليه نورالدين فتر ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

- ابن الخطيب (ت ٧٦٦هـ)

(١٩) تاريخ المغرب فى العصر الوسيط أو الجزء الثالث من أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكنانى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)

(٢٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشى وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية ، ضبط المتن ووضع الحواشى والفهارس خليل شحاته وراجعة سهيل زكار ، ٨ أجزاء بما فيها المقدمة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
(٢١) وفيات الأفيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ٨ أجزاء ،
منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ابن خيبر (ت ٥٧٥هـ)
(٢٢) فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم
 وأنواع المعارف ، وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل
 محفوظ في خزانة الأسكربال فرنششكوكديره وخليان رباره ، طبعة
 جديدة منقحة عن الأصل المطبوع عام ١٨٩٣م ، ط ٢ منقحة ومنقطة
 باعتناء زهير فتح الله ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
- الداودي (ت ٩٤٥هـ)
(٢٣) طبقات المفسرين ، تحقيق على محمد عمر ، منشورات مكتبة وهبة ،
 القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- الدباع (ت ٦٩٦هـ)
(٢٤) معالم الايمان في معرفة اهل القىروان ، صنفه أبو زيد عبد الرحمن بن
 محمد الانصارى الآسدى الدباغ ، أكمله وعلق عليه أبو الفضل ابن
 ناجى التنوخى ، ٤ أجزاء ، صحح الجزء الأول وعلق عليه ابراهيم
 شيوخ ، ونشرته مكتبة الخانجى بمصر ، عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ،
 وحقق الجزء الثانى محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور ، ونشرته
 المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجى بمصر ، وحقق الجزء الثالث
 وعلق عليه محمد ماضور ، ونشرته المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجى
 بمصر عام ١٩٧٨م .
- ابن دحية (ت ٦٣٣هـ)
(٢٥) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الأبيارى وحامد
 عبد المجيد ، مراجعة طه حسين ، بيروت ، دار العلم للجميع للطباعة
 والنشر والتوزيع .

- ابن أبي دينار (مات حياً ١١١١هـ)

(٢٦) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، منشورات المكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٦٧م .

- الذهبي (ت ٧٤٨هـ)

(٢٧) تذكرة الحفاظ ، تحقيق أحمد أمين دمج ، ٤ أجزاء ، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٤ (بدون تاريخ للطبعة) .

- ابن رشيقي (ت ٤٥٦هـ)

(٢٨) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، صنفه الحسن بن رشيقي ، سلسلة من تراثنا رقم ١٠ ، جمع وتعليق زين العابدين سنوسي ، طبعه على مرتين من ص ٩ الى ١٤٤ بمطبعة العرب ، تونس ، ١٩٥١م ، وطبع الغلاف مع التقديم والفهرس ونشرته دار المغرب العربي ، تونس ، ١٩٧٣م .

(٢٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢م .

(٣٠) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلي بويحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٢م .

- الرصاع (ت ١٠٣٣هـ)

(٣١) فهرست الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي ، منشورات المكتبة العتيقة ، سلسلة من تراثنا الاسلامي رقم ٤ ، تونس ، ١٩٧٦م .

- الرقيقي القيرواني (ت ٤٢٥هـ)

(٣٢) تاريخ إفريقية والمغرب ، قطعة تبدأ من أواسط القرن الأول الهجري وأواخر القرن الثاني الهجري ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ، منشورات رفيق السقطي ، تونس ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ)
(٣٣) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
منشورات دار المعارف بمصر.
- ابن أبي زرع (عاش في القرن الثامن الهجري)
(٣٤) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينته
فاس ، قدمه وعلق عليه عبد الوهاب منصور ، دار المنصور للطباعة
والوراقة ، الرباط ١٩٧٣م.
- ابن السراج (ت ١٤٩هـ)
(٣٥) الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، ٤ أجزاء ، وقف الحبيب
الهيالة على تحقيقه فأصدر الجزء الأول في ٤ أقسام ثم أصدر الجزء
الثاني و الثالث في قسمين لكل منهما ، نشر الجزء الأول بأقسامه
بالدار التونسية للنشر ، ونشر الجزء الثاني بدار الكتب الشرقية
بتونس .
- ابن سحنون (ت ٢٥٦هـ)
(٣٦) كتاب آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، طبعة
جديدة بمراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي ، منشورات دار
الكتب الشرقية ، تونس ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- السلاوي الناصري (ت ١٣١هـ)
(٣٧) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر
الناصرى ومحمد الناصري ، ١٠ أجزاء ، الدار البيضاء ، مطبعة دار
الكتب ١٩٥٤م.
- السيوطي (ت ٩١١هـ)
(٣٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، الطبعة
الأولى ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

- (٣٩) تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- (٤٠) طبقات الحفاظ ، تحقيق على محمد عمر ، منشورات مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- (٤١) طبقات المفسرين ، منشورات كتا بقدرشى آسدى ، ليون ، ١٨٣٩ م .

- ابن شرف (ت ٤٦٠ هـ)

- (٤٢) مسائل أو رسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد ، (اعلام الكلام) فنى بتصحيحه وضبط الفاظه عبد العزيز أمين الخانجى ، منشورات مكتبة الخانجى بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م .

- الشيرازى (ت ٤٧٦ هـ)

- (٤٣) طبقات الفقهاء ، منشورات المكتبة العربية بغداد ، ١٣٥٦ هـ .

- الصفدى (ت ٧٦٤ هـ)

- (٤٤) الوافى بالوفيات ، منشورات فراتزشتاينر بقسبادن ، ٩ أجزاء باعتناء س . ديورينغ .

- الضبى (ت ٥٩٩ هـ)

- (٤٥) بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، منشورات دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

- ابن أبى الضياف (ت ١٢٩٢ هـ)

- (٤٦) اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس ومهد الأمان ، ٤ أجزاء تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار بتونس ، منشورات الدار التونسية للنشر ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

- ابن مغازي (ت ٦٩٥هـ)
(٤٧) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ٤ أجزاء ، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وليفي بروفنسال ، وحقق الجزء الرابع احسان عباس ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ للطبعة .
- أبو العرب التيمي (ت ٣٣٣هـ)
(٤٨) كتاب طبقات علماء افريقية ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت بدون تاريخ للطبعة .
- (٤٩) كتاب المحن برواية ابنه أبي جعفر أحمد بن محمد التيمي ، تحقيق وداسة عمر سليمان العقيلي ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- إبن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)
(٥٠) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٨ مجلدات ، بدون تاريخ للطبعة .
- مياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)
(٥١) تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي مياض ، تحقيق محمد الطالبي ، طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٦٨م .
- (٥٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد محمود بكير ، ٣ أجزاء ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ودار مكتبة الفكر ، طرابلس - ليبيا ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ)
(٥٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ للطبعة .

- ابن الغرضى (ت ٤٠٣هـ)
(٥٤) تاريخ علماء الأندلس ، منشورات دار المصرية للتأليف ، القاهرة ،
١٩٦٦ م
- الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ)
(٥٥) البلغة فى تاريخ أئمة اللغة ، تحقيق محمد المصرى ، منشورات
وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م
- (٥٦) القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، دار الجيل ، بيروت .
- ابن القاضى (ت ١٢٥هـ)
(٥٧) جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، دار المنصور
للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ م ، قسمان .
- القنطسى (ت ٦٤٦هـ)
(٥٨) ابناء الرواة على أنباء النحاة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
٣ أجزاء ، منشورات دار الكتب المصرية ، القسم الأدبى ، القاهرة ،
١٣٦٩هـ / ١٩٥١ م
- (٥٩) تاريخ الحكماء ، وهو مختصر الزويزنى المسمى المنتخبات الملتقطات
من أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣ م
- الكسبى (ت ٧٦٤هـ)
(٦٠) فوات الوفيات ، تحقيق وتعليق محمد محى الدين عبد الحميد ،
منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، جزآن ، ١٩٥١ م
- الكنانسى القيروانى (ت ١٢٠٢هـ)
(٦١) تكميل العلماء والأعيان لمعالم القيروان ، تحقيق وتعليق محمد
العنانى ، منشورات المكتبة العتيقة بتونس ، ط ١ ، ١٩٧٠ م

- مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)
(٦٢) موطأ الامام مالك ، رواية محمد بن الحسن الشيباني ، تعليق
عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات المكتبة العلمية ، ط ٢ ، القاهرة
٠م١٩٧٩/هـ١٣٩٩
- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) (ت ٤٥٣هـ)
(٦٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساکهم
وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، الجزء الأول ، تحقيق
ونشر حسين مؤنس ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
٠م١٩٥١
- (٦٤) رياض النفوس ، تحقيق البشير البكوشي الذي أخرج كتاب الرياض
في ثلاثة أجزاء بما فيه الجزء الأول الذي حقق من قبل ، مراجعة
محمد العروسي المطوي ، دار الغرب الاسلامي للطباعة والنشر ،
بيروت ، ١٤٠٣هـ/٠م١٩٨٣
- مجهول
(٦٥) بيوتات فاس الكبرى ، شارك في تأليفه اسماعيل ابى الأحمر قدمه
وعلق عليه عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة ،
الرباط ، ٠م١٩٧٢
- مخلوف (محمد بن محمد)
(٦٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، طبعة جديدة بالأوفست ،
من الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ ، المطبعة السلفية ، على نفقة
دار الكتاب العربي ، بيروت .
- المسعودي (محمد الباقر)
(٦٧) الخلاصة النقية في أمراء افريقية ، تونس ، ١٣٨٢هـ .

- المقدسى (ت ٣٨٠هـ) (٦٨)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد
الطبعة الثانية نقلا عن طبعة ليدن ، ١٩٠٦م .
- المقري (ت ١٠٤١هـ) (٦٩)
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس
٨ مجلدات ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ابن منظور (ت) (٧٠)
لسان العرب ، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة
مصورة ، من طبعة بولا ق ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة .
- ابن هانئ (ت ٣٦٢هـ) (٧١)
ديوان ابى هانئ الأندلسى ، تحقيق أكرم البستاني ، منشورات
دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) (٧٢)
معجم البلدان ، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ،
٥ مجلدات ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- (٧٣)
معجم الأدباء ، نشر د . س . مرجليوث ، تعليق أحمد فريد
الرفاعي ، منشورات مكتبة ميسى البابى الحلبي ، القاهرة ،
٢٠ جزءاً ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٦م .

المراجع العربية والمعرّبة

- ابراهيم حركات :
(١) المغرب عبر التاريخ ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته فسي
الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية
منذ ما قبل الاسلام الى العصر الحالي ، منشورات دار
السلي للتأليف والترجمة والنشر والطباعة والتوزيع ، السدار
البيضاء ، جزاءن ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- ابراهيم الدسوقي جاد الرب :
(٢) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، منشورات دار الثقافة
للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
- ابراهيم العبيدي التوزري :
(٣) تاريخ التربية بتونس ، جزاءن ، الشركة التونسية للتوزيع .
- ابراهيم العدوي :
(٤) ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب ، مكتبة الانجلو
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
- (٥) المجتمع المغربي - مقوماته الاسلامية والعربية مع مدخل عن
بلاد الجزائر ، منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ،
بدون تاريخ للطبعة .
- أبو القاسم كرو وعبد الله شريط :
(٦) شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، منشورات دار الحياة
بيروت .
- (٧) عصر القيروان ، دار المغرب العربي ، تونس ، الطبعة الأولى
١٩٧٣م .

- أبو لبابة حسين :
(٨) موقف متصوفة افريقية وزهادها ، منشورات دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- أحمد أمين :
(٩) فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة ١٠ ، ١٩٦٩م .
(١٠) ضحى الاسلام ، ٣ أجزاء ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة ١٠ .
(١١) ظهور الاسلام ، ٤ أجزاء ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة ٥ .
- أحمد بن عامر :
(١٢) الدولة الصنهاجية ، صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية منشورات الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٢م .
- أحمد توفيق المدني :
(١٣) المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٦٩م .
- أحمد تيمور :
(١٤) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة ، الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى ، وانتشارها عند جمهور المـسلمين ، تقديم على حسن عبد القادر ، منشورات لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- أحمد حسن الزيات :
(١٥) تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة السادسة والعشرون .

- أحمد الطيب الفقيه :
(١٦) المهدية عبر التاريخ ، منشورات دار القلم ، تونس ، ١٩٧٩م
- أحمد علي الملا :
(١٧) أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، منشورات دار الفكر ، بيروت .
- أحمد مختار العبادي :
(١٨) في تاريخ المغرب والأندلس ، منشورات مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية بدون تاريخ للطبعة .
- أحمد مختار عمر :
(١٩) النشاط الثقافي في ليبيا ، منشورات كلية التربية ، الجامعة الليبية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩١هـ .
- احسان عباس :
(٢٠) العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والأدب ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م .
- آدم مـتر :
(٢١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أوعصر النهضة في الاسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، جزآن ، ط ٤ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م
- اسماعيل العربي :
(٢٢) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٠م .
- آنخل جينثالك بالنشيا :
(٢٣) تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- بونارد لويس :
(٢٤) أصول الاسماعيلية ، بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية
نقله الى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب ، وقدم
له عبد العزيز الدوري ، منشورات دار الكتاب العربي ، مصر ،
١٩٤٧ م .
- ت . ج . دى بور :
(٢٥) تاريخ الفلسفة فى الاسلام نقله الى العربية وعلق عليه محمد
عبد الهادى أبوريده ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة
والنشر ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨١ م .
- الحبيب الجحاني :
(٢٦) المغرب الاسلامى - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤ هـ /
٩-١٠ م) الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٧٨ م .
(٢٧) القيروان عبر مصورا زدهار الحضارة العربية الاسلامية فى المغرب
العربى ، منشورات الدار التونسية ، تونس ١٩٦٨ م .
- حسن ابراهيم حسن :
(٢٨) انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرقى القارة
الافريقية وغربيها ، منشورات معهد الدراسات العربية العالية ،
القاهرة ، ١٩٥٧ م .
(٢٩) تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ، مصر ، وسورية ، وبلاد
العرب ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ م .
- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف :
(٣٠) المعز لدين الله ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،
ط ٢ ، ١٩٦٣ م .
- حسن أحمد محمود :
(٣١) الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، منشورات دار النهضة
المصرية ، جزاءن ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

— حسن حسنى عبد الوهاب :

(٣٢) الامام المازرى ، سلسلة توابع المغرب العربى ، رقم ١ ، دار
الكتاب اللبنانى ، بيروت ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٥٥ م

(٣٣) بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ط ٢ ،
تقديم محمد العروسى الطوى ، منشورات مكتبة المنار ، تونس ،
١٩٧٠ م

(٣٤) خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسى
من أقدم العصور الى الزمن الحاضر ، الدار التونسية للنشر ،
مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٧٦ م
(٣٥) ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية ، ٣ أقسام ، منشورات
مكتبة المنار ، تونس ، القسم الأول والثانى ، ١٩٧٢ م ، القسم
الثالث ، ١٩٨١ م

— الحسن السائح :

(٣٦) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، جزءان ، منشورات دار الثقافة ،
الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٧٦ م

— حسن سليمان محمود :

(٣٧) ليبيا بين الماضى والحاضر ، منشورات مؤسسة سجل العرب ،
القاهرة ، ١٩٦٢ م

— حسين مؤنس :

(٣٨) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، منشورات معهد
الدراسات الاسلامية المصرى فى مدريد ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م

— خير الدين الزركلى :

(٣٩) الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ،
والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ،
٨ أجزاء ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ م

- رابح بونار :
(٤٠) المغرب العربي تاريخه وثقافته ، منشورات الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٨١ م.
- رفعت فوزى عبد المطلب :
(٤١) الخلافة والخوارج في المغرب العربي والصراع بينهما حتى قيام
دولة الأغالبة ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.
- سعدى أبو حبيب :
(٤٢) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط ١ ، منشورات دار الفكر ،
دمشق ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- سعد البشـرى :
(٤٣) الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (رسالة مقدمة
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي) من كلية الشريعة
والدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١ هـ /
١٤٠٢ هـ (لم تطبع).
- سعد زغلول عبد الحميد :
(٤٤) تاريخ المغرب العربي ، منشورات ، منشأة المعارف ، الاسكندرية
جزءان ١٩٧٩ م.
- سليمان الحاج داود يوسف :
(٤٥) ثورة أبي يزيد جهاد لاطلاء كلمة الله ، منشورات دار البعث
للطباعة والنشر ، قسنطينة ، الجزائر ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ /
١٩٨٢ م.
- السيد عبد العزيز سالم :
(٤٦) تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، منشورات مؤسسة شباب
الجامعة ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية المصورة ، ١٩٨٢ م.

- السيد محمد أبو العزم داود :
(٤٧) الأثر السياسى والحضارى للمالكية فى شمال افريقيا حتى قيام
دولة المرابطين ، منشورات المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ،
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- شارل أندرى جوليان :
(٤٨) تاريخ افريقيا الشمالية ، تونس ، الجزائر ، المغرب الأقصى
من الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠م ، تعريب محمد مزالس
والبشير بن سلامة ، منشورات الدار التونسية للنشر ، جزاءن ،
النشرة الثانية ، ١٩٨٣م .
- شوقى ضيف :
(٤٩) الرحلات ، سلسلة فنون الأدب العربى رقم ٤ ، منشورات دار
المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
- شوكت الشطى :
(٥٠) مختصر تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ، نشر جامعة
دمشق ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- صالح باجيرة :
(٥١) الاباضية بالجريد فى العصور الاسلامية الاولى ، منشورات دار
بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- صالح مصطفى مفتاح :
(٥٢) برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية
الى مصر ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب قسم
التاريخ ، بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، (لم تطبع) .
- صبحى الصالح :
(٥٣) علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة
١٥ ، ١٩٨٤م .

- الطاهر أحمد الزاوي :
(٥٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، منشورات دار الفتح ، ودار
الترك العربي بليبيا ، مطبوعات مؤسسة الخدمات الطبية ،
بيروت ، بدون تاريخ للطبعة .
(٥٥) معجم البلدان الليبية ، منشورات مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ،
ط ١ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- الطاهر المعموري :
(٥٦) جامعة الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ،
منشورات الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٠ م .
- عادل نويهض :
(٥٧) معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العشرين
منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،
١٩٧١ م .
- عباس الجباري :
(٥٨) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ، جزآن ، منشورات
مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
(٥٩) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، منشورات دار الثقافة ،
الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .
- عبده بدوي :
(٦٠) مع حركة الاسلام في افريقية - دراسة من خلال الدول التي قامت
قبل الاستعمار ، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب
للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- عبده عبدالعزيز قليلة :
(٦١) النقد الأدبي في المغرب العربي ، منشورات مكتبة الانجلو
المصرية ، جزآن ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

- عبد الجبار الشريف وعلى د ب :
(٦٢) ابراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، دراسة
ومنتخبات ، منشورات الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٨١ م.
- عبد الحليم عويس :
(٦٣) دولة بن حماد - صفحة رائعة من التاريخ الجزائرى ، منشورات
دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- عبد الرحمن حميده :
(٦٤) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، منشورات دار
الفكر ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.
- عبد الرحمن الشرقاوى :
(٦٥) أئمة الفقه التسعة - شخصيات اسلامية ، منشورات دار اقرأ ،
ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
- عبد الرحمن باغسى :
(٦٦) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٦١ م.
- عبد الرؤوف عبد العزيز مخلوف :
(٦٧) ابن رشيق ونقد الشعر - دراسة نقدية تحليلية مقارنة ، وكالة
المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م.
- عبد السلام عبد القادر بن سوده المرى :
(٦٨) دليل مؤرخى المغرب الأقصى " ببلوغرافيا " ، دار الكتاب ،
الدار البيضاء ، جزآن ، ١٩٦٠ م.
- عبد السلام الكئنونى :
(٦٩) المدرسة القرآنية فى المغرب من الفتح الاسلامى الى ابن عطية ،
مكتبة المعارف ، الرباط ، الجزء الأول ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

- عبد العزيز بن عبد الله :
(٧٠) الطب والأطباء بالمغرب ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٦٠ م
(٧١) مظاهر الحضارة المغربية ، منشورات دار السلي ، جزءان ،
الدار البيضاء ، ١٩٧٧ م ، أو تاريخ الحضار المغربية وهو مقرر
لتلامذة الثانوية في المغرب .
(٧٢) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية ، أربعة أجزاء ، مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- عبد العزيز السلفي الميمنى :
(٧٣) النتف من شعر بن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، منشورات
المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .
- عبد العزيز المجذوب :
(٧٤) الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية
للنشر ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- عبد الله العسوي :
(٧٥) تاريخ المغرب - محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط ،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ م .
- عبد المجيد عطية وعبد الرزاق الحليوي :
(٧٦) تميم بن المعز ، الشركة التونسية للتوزيع ، ط ١ ، ١٩٧٧ م .
- عبد الهادي النازي :
(٧٧) جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) ، دار الكتاب
اللبناني ، ثلاثة أجزاء .
- عثمان الكعاك :
(٧٨) تاريخ الجزائر ، الدار العربية للنشر ، تونس ، ١٣٤٥ هـ .

(٧٩) المجتمع التونسي على عهد الأغلبية ، مطبعة العرب ، تونس ،

٠م١٩٢٥

(٨٠) محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر الى

القرن التاسع عشر ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ،

٠م١٩٥٨

— عزيز أحمد :

(٨١) تاريخ صقلية الاسلامية ، نقله الى العربية وقدم له مع اضافة

حواشي وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبي ، دار العربية

للكتاب ، ليبيا ، ٠م١٩٨٠

— على عبد الله الدفاع :

(٨٢) أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ٠م١٩٨١

(٨٣) اسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، تعريب وتعليق جلال

شوقي ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠١هـ / ٠م١٩٨١

(٨٤) نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ، منشورات دار الأمل

للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٠م١٣٩٧

— على مصطفى المصراطي :

(٨٥) أعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ، دار الفكر ، طرابلس -

ليبيا - ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ / ٠م١٩٧٢

— على يحيى معمر :

(٨٦) الاباضية بين الفرق الاسلامية عند كتاب المقالات في القديم

والحديث ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ / ٠م١٩٧٦

(٨٧) الاباضية في الجزائر ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ / ٠م١٩٧٩

— عمر رضا كحالة :

(٨٨) أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، مؤسسة الرسالة ،

دمشق ، خمسة أجزاء ، ط ٣ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ما عد الجزء

الأول من منشورات المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٩هـ /

٠١٩٥٩م

(٨٩) التاريخ والجغرافيا في العصور الاسلامية ، المطبعة التعاونية

دمشق ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م

(٩٠) العلوم البحتة في العصور الاسلامية ، مطبعة الترقى ، دمشق

١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م

— عمر فروخ :

(٩١) تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلوم للملايين ، بيروت ، ١٣٩٧هـ

٠١٩٧٧م /

(٩٢) تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ،

بيروت ،

(٩٣) العرب في حضارتهم وثقافتهم الى آخر العصر الأموي ، دار

العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

— عوض خليفات :

(٩٤) نشأت الحركة الاباضية ، نشر بتعزید من اتحاد المؤرخين

العرب مطابع دار الشعب ، عمان ، الأردن ، ١٩٧٨م

— الفرد بل :

(٩٥) الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم ،

ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي ، منشورات دار ليبيا للنشر

والتوزيع ، بنغازي - ليبيا ، ١٩٦٩م

- قدرى حافظ طوقان :
(٩٦) تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، منشورات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ط ٢ ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .
- كارل بروكلمان :
(٩٧) تاريخ الأدب العربى فى ستة أجزاء ، ج ١-٣ ، ج ٦ ترجمة عبد الحليم النجار ، والجزءان الرابع والخامس ، ترجمة السيد يعقوب ورمضان عبد التواب ، دار المعارف ، القاهرة ،
- كتاب :
(٩٨) كتاب أصدرته وزارة التعليم العالى والبحث العلمى ، الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونة .
- مجموعة من العلماء والأدباء :
(٩٩) تاريخ قفصة وعلمائها ، دار المغرب العربى ، تونس ، ط ١ ، ١٩٧٢م .
- مجموعة من المستشرقين والباحثين العرب :
(١٠٠) دائرة المعارف الاسلامية ، منشورات دار الشعب ، القاهرة .
- محمد أبوزهرة :
(١٠١) تاريخ المذاهب الاسلامية ، جزءان ، دار الفكر ، القاهرة .
- محمد التونجى :
(١٠٢) عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، منشورات مكتب قورينا للنشر والتوزيع ، بنى غازى - ليبيا - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- محمد جمال الدين سرور :
(١٠٣) الدولة الفاطمية فى مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

- محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي :
(١٠٤) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي ، تخريج وتعليق
عبد النذير عبد الفتاح القاري ، جزءان ، المكتبة العلمية بالمدينة
المنورة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- محمد الحسيني عبد العزيز :
(١٠٥) الحياة العلمية في الدولة الاسلامية ، وكالة المطبوعات ،
الكويت ،
- محمد طه الحاجري :
(١٠٦) دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ،
دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- محمد عبد السلام عبود :
(١٠٧) تاريخ المغرب ، منشورات دار الطباعة المغربية ، جزءان ،
١٩٥٧م .
- محمد عبد الغني حسن :
(١٠٨) الأمير الشاعر تميم بن المعز ، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة
والتوزيع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- محمد عبد المنعم خفاجي :
(١٠٩) قصة الأدب في ليبيا من الفتح الاسلامي حتى اليوم ، ثلاثة
أجزاء ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٧م .
- محمد العروسي المسطوي :
(١١٠) سيرة القيروان رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الاسلامي ،
الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م .

- محمد علي ديبوز :
(١١١) تاريخ المغرب الكبير ، ٣ أجزاء ، منشورات ميسى البايي الحلبي ،
القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
- محمد بن عمرو الطمار :
(١١٢) تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،
الجزائر ، ١٩٦٥ م .
- محمد الفاضل بن عاشور :
(١١٣) التفسير ورجاله ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ط ٢ ، ١٩٧٢ م .
- محمد كامل حسين :
(١١٤) طائفة الاسماعيلية وتاريخها ، نظمها ، فقائدها ، منشورات مكتبة
النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩ م .
- محمد محمود الحاج قاسم :
(١١٥) الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، مطبعة
الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ م .
- محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى :
(١١٦) أبو الحسن الحضري القيرواني - عصره ، حياته ، دواوينه ، مكتبة
المنار ، تونس ، ١٩٦٣ م .
- محمد الهادي العامري :
(١١٧) تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، الشركة
التونسية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٤ م .
- محمود اسماعيل عبد الرزاق :
(١١٨) الأغلبية - سياستهم الخارجية ، مكتبة وراقة الجامعة ، فاس ،
ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

(١١٩) الخواج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،

منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٧٦ م.

— محمود شيت خطاب :

(١٢٠) عقبة بن نافع الفهري ، قادة الفتح الاسلامي ، دار الفكر ،

بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

— محي الدين عزوز :

(١٢١) التطور المذهبي بالمغرب ودراسة قصة حي بن يقظان ،

منشورات الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ،

— مصطفى عبدالرزاق

(١٢٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة ، القاهرة ، ١٩٤٤ م

— المنجي الكعبي

(١٢٣) القزاز القيرواني حياته واثاره ، منشورات الدار التونسية

للنشر ، ١٩٦٨ م .

(١٢٤) المنشهي القيرواني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا -

تونس ، ١٩٧٨ م .

— نقولا زيادة :

(١٢٥) الجغرافيا والرحلات عند العرب ، منشورات الاهلية للنشر

والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

— الهادي مصطفى التوزي :

(١٢٦) اعلام الأفاقة (عبد الله الشقراطسي) ، منشورات مطبعة

الترقي ، تونس ، ١٩٥٥ م .

الدراسات

— أحمد مختار العبادي :

- (١) سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، بحث نُشرَ في
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس
١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .

— ايفانوف :

- (٢) استتار الإمام وسيرة جعفر الحاجب ، بحث نشره المستشرق
الروسي ايفانوف ، ترجمه محمد كامل حسين ، مجلة كلية
الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع .

— تقرير :

- (٣) تقرير للجمهورية التونسية في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد
العربية ، نظمه جامعة الدول العربية في تونس فيما بين
١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

— الشاذلي بويحيى :

- (٤) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، مقال نشر في مجلة حوليات
الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م .
- (٥) حول نشر قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال
نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ،
١٩٧٠م .

— فرحات الدشراوي :

- (٦) سياسة الصبيان وتدريبهم ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ،
العدد الثالث ، ١٩٦١م .

— محمد الشابي :

(٧) دولة صاحب الحمار ونقوده ، بحث قُدِّمَ الى المؤتمر الرابع

للآثار الذي نظَّمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين

١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣ م.

— محمد عبد الهادي شعيرة :

(٨) من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة،

بحث أُلقي في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية الذي

نظَّمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ،

١٩٦٣ م.

— محمد الفاضل بن عاشور :

(٩) الآثار الحفصية في المرسى ، بحث قدم الى المؤتمر الرابع

للآثار في البلاد العربية الذي نظَّمته جامعة الدول العربية ،

في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣ م.

— محمد اليعلاوي :

(١٠) شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مقال نشر في

مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد عشرة ، ١٩٧٣ م.

الفقرس

فهرست

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٢٥ - ١
تمهيد :	٩١ - ٢٦
- مدلول لفظ افريقيه (المغرب الادني) جغرافيا واريخيا	٥٦ - ٢٦
- عرض موجز للأحوال السياسيه في افريقيه (المغرب الادني في الفترة الزمنية موضوع الرسالة	٩١ - ٥٧

القسم الأول

دراسه لأهم مظاهر النشاط العلمي في افريقيه	٩٢ - ٢٦١
الفصل الأول : عوامل ازدهار الحياة العلميه في افريقيه	٩٢ - ١٥٠
- الفتح الاسلامي فتح عقائدي علمي	٩٣ - ١٠١
- جهود الفاتحين والولاة في نشر الاسلام وأهميه البعثات العلميه في الازدهار	١٠٢ - ١١٣
- قيام الدول المستقله	١١٤ - ١١٩
- الرحلات العلميه	١٢٠ - ١٥٠

الفصل الثاني : المراكز العلميه الرئيسيه في افريقيه	١٥١ - ٢٠٦
- القيروان	١٥٢ - ١٦٠
- العباسيه وميره	١٦١ - ١٦٦
- رقاده	١٦٧ - ١٧٣
- تونس	١٧٤ - ١٧٩
- المهديه	١٨٠ - ١٨٧

- سوسة ١٩١-١٨٨
- اقليم الجريد - قسطيليه ٢٠٠-١٩٢
- طرابلس ٢٠٦-٢٠١

٢٦١-٢٠٧ الفصل الثالث: وسائط الثقافة في افريقيه

- المساجد : المسجد الجامع بالقبروان - جامع الزيتونه ٢٣١-٢٠٨
- المساجد الاخرى في مدن افريقيه
- الكتاتيب ٢٣٩-٢٣٢
- الرباطات ٢٥٢-٢٤٠
- المكتبات العامه والخاصه ٢٦١-٢٥٣

القسم الثاني

٥٧٣-٢٦٢ النشاط العلمي في افريقيه

الفصل الأول: الدراسات الشرعيه (١)

- انتشار المذهب المالكي في افريقيه ومكانته بها ٣١٧-٢٦٢
- فكرة تاريخيه لنشوء المذهبيه الفقهيه ٢٧٢-٢٦٢
- حالة الدراسات الشرعيه في رافريقيه قبل دخول المذهب المالكي ٢٧٥-٢٧٣
- انتشار المذهب المالكي في الغرب الادني : أدواره وأسبابه ٣٠٧-٢٧٦
- مكانة المذهب المالكي في المغرب الأدنى ٣١٣-٣٠٨
- انتشار المذهب الحنفي وغيره من المذاهب السنيه في المغرب الأدنى ٣١٧-٣١٤

٤٤٧-٣١٨ الفصل الثاني : الدراسات الشرعية (٢)

- ٣٨٦-٣١٨ - الفقه
- ٤٠٨-٣٨٧ - الحديث
- ٤٤٧-٤٠٩ - علوم القرآن

الدراسات الشعية (٣) : الفصل الثالث :

- ٥٧٣-٤٤٨ الأثر العلمي للصراع المذهبي في افريقيه
- ٤٧٣-٤٤٨ - بين المالكيه واتباع المذاهب الكلاميه
 - ٥٠٢-٤٧٤ - بين المالكيه والاباضيه
 - ٥٧٣-٥٠٣ - بين المالكيه والشيعة

٧٥١-٥٧٤ الدراسات الأدبيه واللغويه : الفصل الرابع :

- ٥٨٣-٥٧٤ - مدخل
- ٦٤٢-٥٨٤ - النشر
- ٦١٨-٦٤٣ - الشعر
- ٧٥١-٧١٩ - اللغة والنحو

٧٨٢-٧٥٢ الدراسات الانسانيه : الفصل الخامس :

- ٧٥٥-٧٥٣ - الجغرافيا
- ٧٥٩-٧٥٦ - الفلسفه
- ٧٨٢-٧٦٠ - التاريخ

٨١٠-٧٨٣ الدراسات الطبيعية الفصل السادس:

٨٠٠-٧٨٣ - الطب والصيدله

٨١٠-٨٠١ - الفلك والرياضيات

٨١٦-٨١١ الخاتمه:

٨٤٥-٨١٧ قائمة المصادر والمراجع والدوريات:

٨٤٩-٨٤٦ فهرست